

مجمع القديسين
للكنيسة القبطية
بنو القديسين

مقدمات في طقوس الكنيسة

٢/٢

الكنائس لسرية وأوطانها

(الجزء الثاني)

كنيسة مصر

الكتاب: الكنائس الشرقيّة وأوطانها

الجزء الثاني: كنيسة مصر

The Eastern Churches and their Countries

Part II, *The Church of Egypt*

الكاتب: الرّاهب القس أنثاسيوس المقاري

(راهب من الكنيسة القبطيّة)

المطبعة: دار نوبار ٦ شارع مدرسة المعلمين، شبرا، القاهرة

الطبعة: الأولى، يناير ٢٠٠٧ م

رقم الإيداع : ٢٠٤٧٩ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولي : 977-17-3931-X

كافة حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف



بابا الإسكندرية وبطريك الكرازة المرقسية
قداسة البابا شنودة الثالث

المحتويات

١١ مقدّمة عامة

الباب الأوّل: قراءات في التاريخ

١٧ الفصل الأوّل: مصر الفرعونية

١٨ تمهيد

٢٣ مقوّمات دراسة التاريخ القديم

٢٥ بداية التاريخ المصري القديم

٢٨ تقسيم العصر الفرعوني إلى ثلاثين أسرة

٢٩ الأسرتان الأولى والثانية

٣٠ عصر الدّولة القديمة

٣٨ العصر الوسيط الأوّل (عصر الاضمحلال الأوّل)

٣٨ عصر الدّولة الوسطى

٤١ العصر الوسيط الثاني (عصر الاضمحلال الثاني)

٤٢ عصر الدّولة الحديثة

٥١ العصر المتأخّر

٥٥ الغزو الفارسي لمصر

٥٧ إطلالة على بعض مقوّمات حضارة مصر الفرعونية

٦١ الأدب في مصر الفرعونية

٦٦ الموسيقى والغناء في مصر الفرعونية

٧٣ تربية النّشء في مصر القديمة

٧٥ ملحق عن: المتحف المصري

٧٩ الفصل الثاني: مصر من عصر الإسكندر الأكبر حتى دخول المسيحية

٨٠ تمهيد

٨١ أولاً: عصر البطالمة

٨٤ حالة البلاد في عصر البطالمة

- ٨٧ تاريخ مدينة الإسكندرية
- ٩١ الإسكندرية عاصمة البلاد الدينية حتى القرن الحادي عشر .
- ٩٢ أماكن انتقال الكرسي البابوي
- ٩٦ مكتبة الإسكندرية
- ١٠٣ مدرسة الإسكندرية الوثنية
- ١٠٦ اليهود في الإسكندرية
- ١٠٧ ثانياً: مصر ولاية رومانية
- ١١١ بحى المسيح له المجد إلى مصر

١١٣ الفصل الثالث: مصر المسيحية

- ١١٤ دخول القديس مرقس للإسكندرية للكراسة بالمسيح
- ١١٥ نبذة عن الخمس مدن الغربية
- ١١٨ مدرسة الإسكندرية المسيحية
- ١٢٢ إرساليات تبشيرية من الكنيسة القبطية في الأربعة قرون الأولى
- ١٢٤ عصر الاستشهاد
- ١٣٤ الرهبنة المصرية أم الرهبانيات في العالم
- ١٣٦ عصر المجامع المسكونية
- ١٣٨ الاحتلال الفارسي لمصر
- ١٤١ عودة ثانية إلى حكم الروم
- ١٤٢ أضواء لا بد منها على العصر القبطي
- ١٤٥ الفن القبطي

١٦٣ الفصل الرابع: فتح العرب لمصر

- ١٦٤ دور الأقباط في دخول العرب لمصر
- ١٦٦ مسار العرب الفاتحين في دخولهم لمصر
- ١٦٧ حصار حصن بابلون وسقوطه
- ١٧٠ أعداد كبيرة من الأسرى المصريين
- ١٧١ التقدّم نحو الإسكندرية
- ١٧٣ سقوط الإسكندرية
- ١٧٤ صلح الإسكندرية

١٧٥	خيانة المقوقس للبلاد واحتجاج أهل الإسكندرية
١٧٧	مراحل تقهر الروم أمام العرب الفاتحين
١٧٧	دخول الإسكندرية
١٧٨	عودة البابا بنيامين إلى كرسيه
١٧٨	عودة فاشلة للروم إلى مصر
١٧٩	سلطان العرب يغطي مصر كلها
١٨١	حالة الأقباط وعددهم إبّان الفتح العربي لمصر
١٨٤	حضارة مصر تبهر العرب الفاتحين
١٨٥	دعومة الحضارة القبطية في مصر بعد الفتح العربي لها
١٨٩	الفصل الخامس: كنيسة مصر في عصر الولاة
١٩٠	الحالة الاقتصادية في مصر في عصر الولاة
١٩١	حالة الأقباط في عصر الولاة
١٩٧	(أ) عقد الذمة وأحكامه
٢٠٣	(ب) المظالم المالية في عصر الولاة
٢١٥	(ج) ثورات الأقباط
٢١٨	كيف اختلط العرب بالمصريين
٢٢٥	نهاية عصر الولاة
٢٢٧	جدول بأسماء الخلفاء والولاة ومعاصريهم من بطاركة الكنيسة
٢٣٣	الفصل السادس: كنيسة مصر في دولتي الطولونيين والإخشيديين
٢٣٤	أولاً: الدولة الطولونية
٢٣٦	حالة الأقباط في الدولة الطولونية
٢٣٨	عودة مصر للخلافة العباسية
٢٣٨	حرق القطنع ونهب الفسطاط
٢٣٩	ثانياً: الدولة الإخشيديّة
٢٤٠	حالة الأقباط في عصر الإخشيديين
٢٤٢	الأعياد القبطية في عصر الإخشيديين
٢٤٤	موجة اضطهاد مسيحي بيت المقدس

٢٤٥	الفصل السابع: كنيسة مصر في عصر الفاطميين
٢٤٧	مدينة القاهرة العاصمة الرابعة لمصر في العصر الإسلامي
٢٤٧	القاهرة
٢٤٨	الفسطاط
٢٥١	العسكر
٢٥٢	القطائع
٢٥٢	مصر مقر الخلافة الفاطمية
٢٥٤	الحاكم بأمر الله
٢٦٩	حالة الأقباط بعد عهد الحاكم بأمر الله
٢٧٥	أهل الذمة - ولاسيما الأقباط - في العصر الفاطمي
٢٧٥	من الوجهة السياسية
٢٧٦	من الوجهة الاقتصادية
٢٧٨	من الوجهة الاجتماعية
٢٧٩	الأعياد القبطية أحد مظاهر الحياة الاجتماعية
٢٨٢	جدول بأسماء الخلفاء الفاطميين
٢٨٣	الفصل الثامن: كنيسة مصر في عصر الأيوبيين والمماليك
٢٨٤	أولاً: العصر الأيوبي
٢٨٥	حالة الأقباط في العصر الأيوبي
٢٨٥	الملوك الذين حكموا مصر بعد صلاح الدين الأيوبي
٢٨٦	جدول بأسماء الأيوبيين في مصر
٢٨٧	ثانياً: عصر المماليك
٢٨٨	عبيد غرباء يحكمون مصر
٢٨٩	دولة المماليك البحرية
٢٩٠	دولة المماليك البرجية
٢٩١	الجواري في عصر المماليك
٢٩٢	حالة الأقباط في عصر المماليك
٢٩٤	محمل القول في عصر المماليك
٢٩٧	الفصل التاسع: كنيسة مصر في العصر العثماني

٢٩٩ خلاصة القول في العصر العثماني
٣٠٠ حالة الأقباط في العصر العثماني
٣٠٤ (أ) تقييد صارم على بناء الكنائس
٣٠٦ (ب) الوظائف والحرف التي شغلها الأقباط
٣٠٩ (ج) التدهور الروحي للأقباط في نهاية العصر العثماني
٣١١ (د) تعداد الأقباط في نهاية القرن الثامن عشر
٣١٢ (هـ) حملة حسن باشا التأديبية
٣١٤ الحملة الفرنسية على مصر
٣١٥ تردّي الأحوال في مصر وقت الحملة الفرنسية
٣١٦ بعض فوائد الحملة الفرنسية على مصر
٣١٧ حالة الأقباط أيام الحملة الفرنسية على مصر

٣٢١ الفصل العاشر: كنيسة مصر في ظل الحكم الملكي للبلاد

٣٢٢ أولاً: عهد محمد علي باشا وأسرته
٣٢٤ الموظفين في عهد محمد علي
٣٢٧ البعثات العلميّة في عهد محمد علي
٣٢٩ حالة الأقباط في عهد محمد علي
٣٣٠ خلفاء محمد علي في الحكم
٣٣١ عباس حلمي الأوّل
٣٣٢ محمد سعيد باشا
٣٣٢ الخط المهابيني والشروط العشرة لبناء الكنائس
٣٣٤ إسماعيل باشا
٣٣٦ توفيق باشا
٣٣٦ ثورة أحمد عرابي وجهاد مصطفى كامل ومحمد فريد
٣٣٧ عباس حلمي الثاني
٣٣٨ السُلطان حسين كامل
٣٣٨ فؤاد الأوّل ملك مصر
٣٣٩ ثورة سعد زغلول
٣٤٠ حزب الوفد بقيادة مصطفى النحاس

- ٣٤٠..... فاروق الأوّل ملك مصر
- ٣٤١..... يحمل أهم الأحداث
- ٣٤٢..... تانياً: أخبار الكنيسة في فترة الحكم الملكي للبلاد
- ٣٤٢..... البابا كيرلس الرابع أبو الإصلاح
- ٣٤٣..... نشأة المجلس الملي
- ٣٤٧..... هضة كنسيّة شاملة في زمن البابا كيرلس الخامس
- ٣٤٩..... المتحف القبطي بمصر القديمة
- ٣٥٠..... الجمعيات الأهلية المسيحية في مصر
- ٣٥٣..... المراحل التي عبرت عليها الجمعيات الأهلية في مصر
- ٣٥٥..... من البابا يوانس التاسع عشر إلى البابا يوساب الثاني
- ٣٥٧..... الفصل الحادي عشر: كنيسة مصر في ظل النظام الجمهوري للبلاد
- ٣٥٨..... تمهيد
- ٣٥٨..... أضواء عامة على عهد عبد الناصر
- ٣٥٩..... موجة من التأميمات بدأت بتأميم قناة السويس
- ٣٥٩..... تجربة الاشتراكية المصرية ونتائجها السلبية
- ٣٦٠..... بدء هجرة الأقباط من مصر
- ٣٦١..... حرب الأيام الستة وتبعاتها
- ٣٦٢..... تقييم عام لحالة الأقباط في عهد عبد الناصر
- ٣٦٤..... أهم حدث في عهد البابا يوساب الثاني
- ٣٦٤..... إنشاء معهد الدراسات القبطية
- ٣٦٧..... عصر البابا كيرلس السادس وأحداثه البارزة
- ٣٦٨..... خدمة الأقباط في المهجر
- ٣٦٨..... بناء الكاتدرائية الجديدة بالعباسية ودير مار مينا بمريوط
- ٣٧٠..... تنصيب أوّل جاثليق لكنيسة إثيوبيا
- ٣٧٠..... مصر محط التقاء جميع كنائس المسكونة
- ٣٧١..... دفاع البابا كيرلس عن القدس
- ٣٧٢..... ظهور العذراء في كنيستها بالزيتون
- ٣٧٢..... وصول رفات القديس مرقس الرسول إلى مصر

٣٧٤	مطبعة الأنبا رويس
٣٧٥	عهد الرئيس السادات والبابا شنوده الثالث
٣٨٦	مصر تحت حكم الرئيس حسني مبارك
٣٨٧	في الاقتصاد
٣٨٩	في العنف المسلح
٣٩٠	في التربية التعليم
٣٩٢	في الديمقراطية وحرية الفكر والنشر
٣٩٦	أبرز ملامح عصر البابا شنوده الثالث
٣٩٦	أول لائحة للمجمع المقدس للكنيسة القبطية
٣٩٧	خدمة الكنيسة القبطية في أفريقيا
٤٠١	ملحق عن مملكة النوبة
٤٠٨	الكنيسة القبطية في الخمس سنوات الأخيرة من القرن العشرين
٤١٠	حالة الأقباط في السنوات الأخيرة من القرن العشرين

الباب الثاني: ركائز كنسية في كنيسة مصر

٤١٩	الفصل الأول: اللغة القبطية
٤٣٣	الفصل الثاني: الطقس القبطي
٤٣٩	الفصل الثالث: الليتورجية القبطية
٤٤٥	الفصل الرابع: الأدب الديني القبطي

ملاحق الكتاب

٤٩٥	الملحق الأول: باباوات الكنيسة القبطية ومعاصروهم من الحكام
٥٠٧	الملحق الثاني: الطوائف المسيحية في مصر
٥٣٩	الملحق الثالث: المؤرخون القدامى لمصر من غير الأقباط
٥٥٣	المراجع

مقدمة عامة

إن كثيراً من جلائل الأعمال والمؤلفات قد تعرّضت لتلخيص أو تبسيط، وراجت بفضل ذلك، ولكن يظل الأصل أصلاً لا غنى عنه. وكانت الصعوبة التي واجهتها في الكتاب الذي أقدمه لمصر وكنيستها، هي أن أجمل تاريخ عشرات من القرون في بضع عشرات من الصفحات، فجداء كثير من فقراته تحكي كل منها حقبة زمنية كاملة، ربما يحتاج بعضها إلى كتاب بأكمله. والرأي عندي أني قد أوجزت طول السزمن في غير خلل، وألحقت إلى مجمل التاريخ في إيضاح.

إنني عندما أكتب للقارئ القبطي المبارك عن كنيسة القبطية، وعن موطنها الذي نشأت فيه، أي مصرنا الحبيبة، فلست أود من وراء ذلك عرضاً مفصلاً للتاريخ، ولا شرحاً مسهباً لطقوس كنسية، إذ احتلت الطقوس القبطية الجانب الأوفر من السلسلين الثالثة والرابعة من هذه الدراسات. ولكنني أبغي من هذا الكتاب، أن يتعرف القارئ القبطي على الوطن الذي يعيش فيه بالقدر الذي يجعله واعياً لما يدور حوله اليوم من أحداث، والتي هي نتاج محصلة حتمية لثوابت ترسخت عبر قرون طويلة. ويتعرف أيضاً على كنيسة القبطية التي نشأت في هذا الوطن، وعبرت مسيرة حياتها بين كثير من الأجناس والشعوب التي تألفت على مصر واحداً بعد الآخر. ولكن ظلت مصرية مصر أقوي من أن يعسها أذى، وبقيت كنيسة مصر الوطنية منارة بين كنائس المسكونة.

الإنسان فكرةً، وما لا تستطيع الجبال أن ترحزحه في الإنسان، تقدر الفكرة أن تفعله فيه. وإن تطابقت هذه الفكرة مع الفكر الذي من الله تتحوَّل سيرة الإنسان إلى القداسة. فالشُّهداء الذين لم ترهبهم أهوال العذابات، والنَّار، والوحوش، والسِّيف، وسطوة الأباطرة، وهياج الرِّعاع وبطشهم، كانت تحركهم في ذلك فكرة ترسَّخت في قلوبهم، هي محبَّة المسيح التي انسكبت في قلوبهم، فهان إزاءها كل شيء حتى حياتهم نفسها. لذلك كان القديس بولس الرِّسول محقاً كل الحق عندما قال بالرُّوح: «تغيِّروا عن شكلكم بتحديد أذهانكم» (رومية ١٢: ٢)، إذ لا يمكن أن يتغيَّر الإنسان عن شكله وسلوكه وتصرفاته إلا إذا تغيَّر ذهنه أولاً. والذهن لا يتغير إلا بالشُّخص متواتراً في كلمة الله.

وهذا الكتاب الذي بين يديك، أردتُ به أن أجمع تاريخ مصر وكنيستها في صفحات قليلة، ربما لا تعني عن دراسات مستفيضة متخصصة، ولكنها صفحات تركِّز الضوِّء على حياة أمة منذ نشأتها حتى يومنا الحاضر في رؤية خاطفة تعرض الصُّورة في لقطة واحدة أو لقطتين، ليتبيَّن لنا ما آل إليه حاضرنا الذي هو أحدث صورة لماضي، والذي هو بالتأكيد أساس لمستقبلنا. وعندما تبلور الفكرة الإجمالية عن كنيستنا التي تسعى لأن تكمِّل جهادها في غربة هذا العالم، يكون الحُكم على الأحداث الحاضرة حكماً قد استوعب إلى حد مرضي دروس الماضي وعبر التاريخ.

وجدير بالذكر هنا أن هذا الكتاب الذي جاز في عُجالة على تاريخ مصر وكنيستها يكمله كتاب آخر بعنوان "الكنيسة - مبنائها ومعناها". فهذان الكتابان معاً عن كنيسة مصر (٩٤٤ صفحة من القطع المتوسِّط) يضاحيان ثلاثة كتب أخرى من نفس هذه السُّلسلَّة الثانية عن باقي الكنائس الشَّرقيَّة الأخرى وأوطانها (٨٩٦ صفحة من القطع

المتوسّط) وهي حوالي عشرون كنيسة.

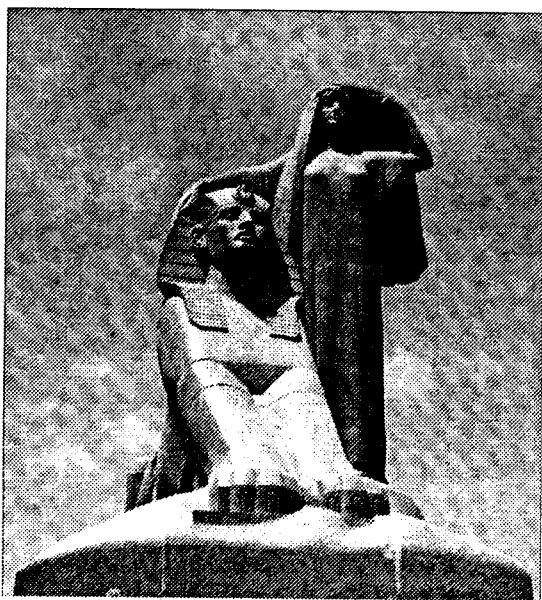
أملاً أن أسدي بذلك جانباً بسيطاً من دّين حب لمصر وكنيستها. ببركة شفاعة العذراء كل حين والدة الإله القدّيسة الطاهرة مريم، وكافة صفوف السّمائيين والشّهداء والقدّيسين، وبركة صلوات أيّنا الطوباوي المكرّم قداسة البابا شنودة الثالث، وسائر آباي المطارنة والأساقفة والقمامصة والقسوس، وإخوتي الشّمامسة، والرّهبان. وكل طغمة العلمانيين المباركين.

ولله المجد والكرامة والتّسبيح والسّجود الآن وكل أوان وإلى آباد
الدّهور كلها. أمين.





نوح من النخست للملك نازمر "نينا"

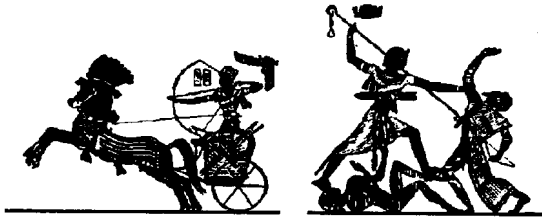


الباب الأول
قراءات في التاريخ



الفصل الأول

مصر الفرعونية



”إذا كنت وسط النَّاس فاصنع لنفسك
حُبًّا، لأنَّ الحُبُّ هو بدء القلب ونهايته“
(إحدى البرديات المصريَّة).

تمهيد

على ضفاف نهر النَّيل أحدث أُمَّار العالم الكبريُّ تكويناً^(١)، وأطولها
على الإطلاق، نشأت حضارة من أعرق الحضارات المستقرَّة، هي
الحضارة المصريَّة.

وللنيل مكانة عظيمة عند قدماء المصريين، ومن أوصافه عندهم:
”رب الرزق الوفير“، ”والد الأرباب، وخالق الكائنات“، ”المحيي“.
ولقد ساواه الفراعنة بأكبر أرباب الخلق والخصب من أمثال رع وبتاح
وأوزوريس وآمون.

وفي بردية إغريقيَّة نقرأ: ”أيها البحَّارة الذين تترلقون على سطح
المياه العميقة، وأنتم يا راکبو نهر النَّيل الذي يجري سعيداً فوق المياه
المتبسمة، أخبرونا أيها الأصدقاء هل هناك وجه للمقارنة بين المحيط ونهر
النَّيل المثمر؟“. فحيثما النَّيل يجري، فهناك مصر.

١ - نخبة من العلماء، تاريخ الحضارة المصريَّة، العصر الفرعوني، وزارة الثقافة والإرشاد
القومي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٧

وَيُرَجَّحُ أن اسم مصر جاء من الكلمة العبرية "مصرام" وهي في صيغة المثني، أي "المصريين" إشارة إلى مصر العليا ومصر السفلى^(٢). وفي رأي آخر للأستاذ الدكتور وسيم السيسى يرى أن اسم مصر هو اختصار للعبارة المصرية القديمة: "ما (موضع) - سي (أبناء) - رع". أي موضع أبناء رع (أعظم آلهة المصريين قاطبة).

أما عن أصل كلمة "قبط"، فمصر عند الفراعنة هي أيضاً "حوت كا بتاح - Hwt - Ka - Ptah" أي "بيت روح بتاح". والإله "بتاح"^(٣) هو معبود "منف" عاصمة مصر القديمة، ومن ثم أطلق اسم "حوت كا بتاح" على كل القطر. ومن هذه التسمية أخذ اليونان الاسم الذي عُرفت به البلاد في اللغات الأوربية حتى اليوم.

فكلمة "جبط - γύπτ" هي الشكل المختصر للكلمة اليونانية $\text{A}\iota\ \gamma\acute{\upsilon}\pi\tau\iota\omicron\varsigma$ أي Egyptian أي مصري، بعد حذف البادئة $\text{A}\iota$ واللاحقة $\iota\omicron\varsigma$ تاركة الكلمة $\gamma\acute{\upsilon}\pi\tau$. والتي أصبحت في اللغة العربية "قبط"، ومنها اسم الدولة Egypt في اللغة الإنجليزية عند إبدال البادئة اليونانية $\text{A}\iota$ بالحرف E في الإنجليزية^(٤). فكلمة "قبطي" تعني "مصري". ولقد كان

٢- نجد في سفر التكوين (١٠:٦، ١٣؛ ١١:٥٠) أن مصرام كان الابن الثاني لحام بن نوح. وكان المصريون القدماء حاميين أصلاً. ونجد في كل من سفر حزقيال (٢٩:١٤، ٣٠:١٤) وسفر إرميا (٤٤:١، ١٥) ذكراً لمصر وفتروس، مما يرى معه البعض أن مصر هنا تُستخدم في الإشارة إلى مصر السفلى، وفتروس إلى مصر العليا.

٣- كان للمصريين القدماء آلهة كثيرة، من أهمها "بتاح" إله الشمس، "حابي" إله النيل، "أوزوريس" إله العالم الآخر وقاضي الأموات، والإله "آمون". أما الإله "را" الذي يكتبونه في العربية "رع" فهو أعظم الآلهة وسيدها.

4. O.H.E. Burmester, *The Egyptian or Coptic Church, A Detailed Description of her Liturgical Services and the Rites and Ceremonies*

العرب يلقبون مصر بـ "دار القبط". ولما كان سكان مصر من المسيحيين قبل قدوم الإسلام، فقد ارتبطت كلمة "قبط" بالمسيحيين، مع أنها لا تعني في الأصل إلا "المصريين".

وفي اللُّغة القبطيَّة تُدعى مصر "كيمى - Kimy" أي "الأرض السوداء" نسبة إلى سواد تربتها الزراعيَّة التي تكوَّنت عبر آلاف السنين من طمي النَّيل.

وينتمي جميع المصريين إلى أصول جنسيَّة واحدة كوَّنت هذا الشعب الواحد على مر التاريخ. فإن أياً من الدِّينين الرَّئيسيين في مصر "المسيحيَّة والإسلام" لا يرتبط بعرق محدَّد. وهو وضع تميَّز به مصر وتنفرد به على غيرها من كثير من البلاد العربيَّة، لاسيَّما الهلال الخصيب، حيث تتعدَّد الأعراق هناك بتعدُّد الطوائف والمذاهب، بل وتعدُّد المواقع الجغرافيَّة، وذلك لأسباب تاريخيَّة وسلاليَّة أيضاً. فهناك السُّنة الذين يرون أنفسهم عرباً أقحاحاً، وهناك الأكراد والأرمن ومن هم من أصول كرديَّة أو أرمينيَّة. وهناك التُّركمان والسُّريان والكلدان والآشوريون والدُّروز والموارنة والشَّيعة ... الخ. وكل هذه الأوضاع لا تعرفها مصر.

فمصر التي قامت منذ أكثر من خمسة آلاف سنة - كما يذكر الأستاذ الدكتور حسين مؤنس - ما زالت هي بعينها اليوم، لم يتغيَّر فيها الدِّين طوال هذه الأحقاب إلا مرَّتين، ولم تتغيَّر فيها اللُّغة إلا مرَّتين أيضاً، في حين أن بريطانيا مثلاً والتي لا يرجع تاريخها إلى أبعد من ألفي سنة، تغيَّر الدِّين خلالها مرَّتين واللُّغة إلى أربع مرَّات على الأقل. وأسبانيا التي يرجع تاريخها إلى ألفين وخمسمائة سنة تغيَّر الدِّين خلالها ثماني مرَّات،

واللغة ست مرّات. وإيطاليا تعاقبت عليها أجناس كثيرة غيّرت عنصر السّكان تغييراً تاماً أكثر من مرّة. أما الجنس المصري فلم يتغيّر خلال هذه العصور الطويلة إلاّ تغييرات طفيفة.

إنّ التغيّرات التي لحقت النّمط الجنسي في أي جزء من أوروبا خلال السّنوات الخمسمائة الأخيرة كانت أكبر منها في مصر خلال خمسة آلاف سنة^(٥). كما أن القوانين الصّارمة في منح الجنسية المصريّة قد حفظت للدم المصري نقاوته حتى اليوم، وقد عبرنا إلى القرن الحادي والعشرين.

فالغالبية السّاحقة من المسلمين في مصر لم يكونوا غزاة، وإنما هم في الأصل أقباط تحوّلوا إلى الإسلام تدريجياً. ولم يؤثّر دخولهم في الإسلام في تكوينهم الجنسي. فالطابع الجنسي العام للمصريين قد وُجد، واتخذ صورته المميّزة قبل أن يكون هناك أقباط ومسلمون.

ويقول الأستاذ فييت في مقالة عن القبط في دائرة المعارف الإسلامية: "قصارى القول، نقدّر مع الأستاذ ماسينيون وجميع المستشرقين أن ٩٢% من سكان مصر هم من أصل قبطي^(٦)".

ويقول الأستاذ العقّاد: "من الحقائق الواضحة أن المسلمين والمسيحيين هم سواء في تكوين السّلالة القوميّة. فلا فرق بين هؤلاء وهؤلاء في الأصالة والقدم عند الانتساب لهذه البلاد. فإذا كان بين المسلمين المصريّين أناس وفدوا من بلاد العرب أو التّرك، فبين المسيحيّين المصريّين كذلك أناس وفدوا من سورية واليونان والحبشة، ودانوا بمذهب

٥- د. نعمات أحمد فؤاد، شخصية مصر، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، الطبعة الخامسة،

القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٢٥٠، ٢٥١

٦- الأب الدكتور جورج شحاته قناتي، المسيحية والحضارة العربيّة، بيروت، بدون

تاريخ، ص ٣٧

الكنيسة المصريَّة، أو غيرهه من المذاهب المسيحيَّة. ويبقى العدد الأعظم بعد ذلك سلالة مصريَّة عريقة ترجع بأبائها وأجدادها إلى أقدم العهود قبل الميلاد المسيحي، وقبل بعثة موسى عليه السَّلام“.

وعلى كل فقد استطاعت مصر دائماً أن تدمج الوافدين فيها، وأن تسمهم بسماتها. وهي وإن كانت قد غيَّرت مظهرها الثقافي في اللُّغة والدين من عصر إلى عصر، فإنها قد استطاعت أن تحتفظ بطابعها الخاص في العادات والتقاليد ومعالم الحضارة الأخرى^(٧).

يسكن البلاد ٩٩% من شعبها من المصريين، ١% من جنسيات أخرى. واللُّغة العربيَّة هي اللُّغة التي يتكلَّمها كل الشَّعب، وتمثل ٩٩% من نسبة المتكلِّمين بها. وهناك ١% لغات أخرى أهمها الإنجليزيَّة والفرنسيَّة. أما اللُّغة القبطيَّة فلم تعد بعد لغة تخاطب، وانحصر استخدامها في صلوات وطقوس العبادة الكنسيَّة.

ويدين حوالي ٨٨% من المصريِّين بالإسلام، ١٢% بالمسيحيَّة. وتخطى مجموع السُّكَّان ٧٢ مليون نسمة مع حلول سنة ٢٠٠٦م^(٨). ويتضاعف عدد السُّكَّان كل ٣٢ سنة تقريباً إذا استمر معدل النُّمو السُّكَّاني كما هو عليه اليوم، أي بنسبة ٢,١%. ويشغل السُّكَّان ٥% فقط من مساحة البلاد^(٩) التي تزيد قليلاً عن مليون كيلومتر مربع. ويسكن المدن ٤٣%

٧- نخبة من العلماء، تاريخ الحضارة المصريَّة، العصر الفرعوني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٨

٨- كان عدد سكان مصر في أيام الملك فاروق (١٩٣٦-١٩٥٢م) عشرين مليون نسمة. زادوا حوالي ٥٠ مليون آخرين في نصف قرن. في حين أن دوله مثل النرويج زاد شعبها مليون نسمة في خلال قرن من الزَّمان (١٩٠٥-٢٠٠٥م) فبلغ ٦ مليون نسمة.

٩- سترتفع نسبة المساحة المسكونة بعد اكتمال المشروعات العملاقة في جنوب مصر وشرقها، إلى ٢٥% وهي المشروعات التي بدأت منذ التسعينيات من القرن العشرين

من مجموع السكان، أما الباقي وهو نسبة ٥٧% فيعيشون في الريف.

ومع السنوات الأخيرة من القرن العشرين، ظل قرابة نصف سكان مصر أميين لا يعرفون القراءة والكتابة!، وقد بدأت هذه النسبة في الانخفاض، حتى بلغت الأمية مع السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين إلى الثلث تقريباً، وهي مأساة بكل المقاييس، برغم أن البلاد تصرف حوالي ٥,٥% من دخلها القومي على التعليم، الذي هو عصب حياة أي أمة وأساس رقيها. وإن جهوداً مضنية تُبذل اليوم في مصر لمحور الأمية في بلد عرفت الكتابة قبل سنة ٣٢٠٠ ق م - والتي هي واحدة من أهم مظاهر الرقي الاجتماعي - قبل أن تعرفها اليونان بألفين وخمسمائة سنة، وقبل أن تعرفها روما وغرب أوروبا بأكثر من ذلك من السنين!

مقومات دراسة التاريخ القديم

لمصر أقدم تاريخ في العالم بلا نزاع. ويمتد تاريخ مصر الفرعونية إلى قرابة أربعين قرناً قبل ميلاد السيد المسيح، إذ يرجع إلى سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد. ولقد ظلت دراسة الآثار مهملة يطويها التسيان حتى أوائل القرن التاسع عشر. وكانت الخطوة الأولى في ركاب حملة نابليون على مصر في أواخر القرن الثامن عشر، حين أحضر معه طائفة من العلماء أنشأوا الجمع العلمي المصري Institut d'Egypte، وكانت نتيجة أبحاث العلماء الكتاب العلمي الضخم "وصف مصر - Description de L'Egypte" الذي نُشر في باريس أوائل القرن التاسع عشر. ويُعد ما جاء في هذا المؤلف الكبير عن آثار مصر من وصف وشرح وتحليل، ومن رسوم وصور وخرائط، بداية الأعمال العلمية التي اشترك فيها أكبر حشد من نوعه من العلماء

يهدف إلى دراسة مصر القديمة^(١٠). وهو أحد الدعامات التي قامت عليها الدِّراسات المصريَّة Egyptology .

وكانت الخطوة الثانية هي العثور على حجر رشيد^(١١)، وحل رموز اللُّغة المصريَّة القديمة التي اختفت بالقضاء على الوثنيَّة في القرن الرَّابِع الميلادي. ويرجع الفضل الأكبر في الكشف عن أسرار وأصول الكتابة المصريَّة القديمة، وكذلك وضع البحث في اللُّغة الهيروغليفيَّة على أسس صحيحة إلى العالم الفرنسي جون فرنسوا شمبليون - Jean François Champollion (1790- 1832م).

ومهدت معرفة اللُّغة المصريَّة القديمة للخطوة الثالثة وهي اهتمام الجامعات والمؤسَّسات العلميَّة بالآثار المصريَّة، مما أدى إلى ظهور عدد كبير من العلماء خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، أنفقوا جهوداً جبارة في التَّنقيب عن الآثار وقراءة النُّصوص ودراسة ما رأوه وسجَّله وكتشفوه دراسة علميَّة استهدفت الكشف عن أصول التَّاريخ المصري القديم، ومقوِّمات الحضارة المصريَّة القديمة^(١٢).

١٠- نخبة من العلماء، تاريخ الحضارة المصريَّة، العصر الفرعوني، مرجع سابق، ص ٨٤
١١- حجر رشيد هو كتلة من البازلت يبلغ طولها حوالي ١١٣ سم، وعرضها ٧٥,٥ سم، وسمكها ٢٧,٥ سم. وقد دُوِّن على وجه الحجر الأملس نقش كتب باللغتين المصريَّة القديمة واليونانية. أما اللُّغة المصريَّة القديمة فمكتوبة بخطين، الخط الهيروغليفي وهو الخط المقدس، والخط الديموطيقي وهو الخط الشعبي. وقد عثر عليه ضابط بسلاح المهندسين في حملة نابليون على مصر، يُدعى "بوشارد" في صيف سنة ١٧٩٩م، بالقرب من مصب فرع رشيد. وأُرسل إلى المجمع العلمي بالقاهرة، كما أمر نابليون بطبع عدة صور من النقش المسجل على الأثر ليُرسل إلى العلماء في مختلف بقاع أوروبا. ووصل الحجر إلى بريطانيا سنة ١٨٠٢م، ثم نُقل إلى المتحف البريطاني حيث يستقر الآن.

١٢- نخبة من العلماء، تاريخ الحضارة المصريَّة، مرجع سابق، ص ٨٦

ولعل أهم ما يستوقف النَّظْر في دراسة تاريخ العالم القديم، أننسا لا نكاد نجد أمة تَأَصَّلت فيها الدِّيانَة وامتزجت بحياة أهلها امتزاجاً قوياً كالأمة المصرية، حتى لنرى الدِّين وكأنه الحافز الأكبر فيما نشأ بمصر القديمة من علوم وفنون اصطبغت به آدابها وفلسفتها^(١٣). وإذا أردنا أن نوجز مفهوم الاعتقاد الدِّيني في مصر القديمة فهو أن الموت بدء الحياة.

بداية التاريخ المصري القديم

لقد كنَّا إلى عهد قريب نبدأ التاريخ المصري بالملك مينا الذي حكم مصر سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد، بعد أن وُحِدَ قطريها. إلا أن الدِّراسات الحديثة أثبتت أن مصر كانت مأهولة بالسُّكان منذ أوَّل عصور ما قبل التاريخ. وأن العصر الحجري القديم^(١٤) ممثَّل فيها بأدواته الحجرية البدائية. كما استقر النَّاس على شاطئ النَّيل في العصر الحجري الحديث. واستطاع العلماء إثبات قيام حضارة في هذا العصر في الدِّلْتَا أطلقوا عليها اسم "حضارة مرمدة بني سلامة"^(١٥). كما أثبتوا قيام أكثر من حضارة في مصر العليا (الصَّعيد) تبدأ بالفيوم، ثم دير تاسا، ووادي الشَّيخ، والبداري،

١٣ - نخبَة من العلماء (د. عبد الحميد سماحة)، تاريخ الحضارة المصريَّة، مرجع سابق، ص ٥٧٤

١٤ - تُقسِّم حضارات عصر ما قبل التَّاريخ في مصر إلى أربعة أقسام:

- حضارات العصر الحجري القديم، وينتهي حوالي سنة ١٠,٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

- حضارات العصر الحجري المتوسط، ١٠,٠٠٠ - ٨,٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

- حضارات العصر الحجري الحديث، ٦,٠٠٠ - ٥٥٠٠ سنة قبل الميلاد.

- حضارات عصر ما قبل الأسرات، ٤٥٠٠ سنة قبل الميلاد.

١٥ - "مرمده بني سلامة" تقع عند حافة الصحراء شمال غربي القاهرة. ومن العجيب

أن سكان مرمده بني سلامة كانوا يدفنون موتاهم ووجوههم متجهة نحو الشرق. على عكس طريقة دفن إنسان العصر الحجري الحديث الذي كان يُدفن وهو في وضع القرفصاء على جانبه الأيسر ورأسه نحو الجنوب، ووجهه نحو الغرب.

ثم نقادة الأولى، ونقادة الثانية. والمعتقد أن حضارة الدلتا كانت أكثر تقدماً ورقياً من حضارة الصعيد في عصر ما قبل الأسرات^(١٦). فأوّل تقويم عرفه التاريخ نشأ في الدلتا في القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد. أي قبل قيام الأسرة الأولى بنحو ألف سنة. واستطاع المصري إبّان هذه الفترات أن يتقدّم بحضارته، وأتقن الكثير من صناعاته. أما النحاس فقد بُدء في استخدامه منذ حضارة البداري.

كما أثبتت هذه الدّراسات أنه قد تم توحيد مصر قبل عصر مينسا، وأن قيام الوحدة حدث على أيدي فئة من الناس أطلقوا على أنفسهم اسم "أتباع حورس". وأثبتت هذه الدّراسات أيضاً أن التّوحيد في مصر يرجع إلى سنة ٤٢٤٠ ق.م. وأن العاصمة كانت آنسذ "أون" (هليوبوليس القديمة مكان عين شمس الحاليّة). فكان توحيد مصر في ذلك العصر البعيد من عمل أهل الدلتا الذين وصلوا في ذلك الوقت إلى درجة لا بأس بها من الرّقمي والتقدّم. ثم انهارت هذه الوحدة بعد فترة. وانقسمت البلاد مرّة ثانية وخضعت أقاليمها لحكومتين إحداهما في الوجه القبلي بالقرب من إسنا الآن، والثانية في الوجه البحري عند تل الفراعين الحاليّة في غرب الدلتا.

ولم يُذكر اسم "مينسا" على الآثار المصريّة إلا منذ عهد الدّولة الحديثة. إلا أن هناك ملكاً آخر هو "نعمرم" قد خلّف لنا آثاراً من عصره تتحدّث عن توحيد القطرين. ومن أجل ذلك نطلق اسم "نعمرم مينسا" على ذلك الملك الذي قام بتنفيذ الوحدة بين القطرين. ومنذ ذلك الوقت سارت مصر بخطى واسعة نحو التقدّم.

ولقد ارتبط التّاريخ لمصر الفرعونيّة بتاريخ لغراعتها، فكان المصريون

يرون في ملكهم إلهاً يحكم البشر. لذلك لم يكن مستغرباً أن يدعى الفرعون أنه الابن الشرعي لإله الشمس "رع" أعظم الآلهة طراً وسيدهم^(١٧)، فتناهى بنفسه عن أن يكون واحداً من البشر^(١٨). فالملك إله بين الناس، وإنسان بين الآلهة^(١٩)، وبصفته إلهاً فهو الدولة، وهو النقطة المركزية التي تتجمع فيها كل الخيوط التي تهيمن على شؤون الحكم في البلاد. وكلمته هي القانون^(٢٠). وهو ممثل لكل الشعب ورئيس الكهنة الأوحد أمام الآلهة، فهو الكاهن الأكبر لكل الآلهة، أما رئيس الكهنة في أي معبد فهو نائب عنه في خدمة الآلهة. وكل القرابين تُقدّم في جميع المعابد باسم الملك. وكل الحكومة هي مجموعة كبرى من الموظفين يقومون على تنفيذ أوامر الملك، ويعملون بوحى من الملك الإله. وكل الأرض والمناجم هي ملك للملك، والقضاة يحكمون طبقاً لإرادة الملك. فالعدل الإلهي والحق الإلهي لا يستطيع تفسيره إلا الملك. أما الشعب فيجيد هتاف "مات الملك - يحيا الملك"، فالملك هو الصانع لحياة شعبه، والذي لا غنى عنه لبقائهما.

١٧- ظل إله الشمس "رع" أهم الآلهة المصرية طوال التاريخ المصري القديم حتى جاءت المسيحية لتبشر بالإله الحقيقي وابنه يسوع المسيح "شمس البر"، الذي به خلق السماء والأرض وكل ما فيها.

١٨- تحكي بردية تُسمى "بردية وستكار - Westkar Papyrus" كيف أن الملوك يولدون أبناء للإله "رع"، وأن الآلهة هن اللاتي ساعدن في ولادتهم وهيان لهم التيجان. وصورت الملكة حتشبسوت على جدران معبدها البحري بالأقصر كيف أن أمها حملت من الإله آمون نفسه. فكان الدين وسيلة من وسائل إقناع الشعب بقبول حكم شخص معين.

١٩- دائرة المعارف الكتابية، الجزء السادس، دار الثقافة، ١٩٩٧م، ص ٣٦. وهو أيضاً إله بين الآلهة. انظر: جون يويوت Jean Yoyotte، مصر الفرعونية، ترجمة سعد زهران، مجموعة الألف كتاب، القاهرة، سنة ١٩٦٦، ص ٣٦

٢٠- نخبه من العلماء، تاريخ الحضارة، مرجع سابق، ص ١١٠، ١١١

هذه هي العلاقة التي قامت بين الملك وشعبه بطول الأزمان، وهي ميراث تأصل في حياة الشعوب، حتى ظلت الصُّورة على ما هي عليه وإن تباينت تفصيلاتها بين الحين والحين طبقاً لاختلاف الحضارات وحمية التطور التاريخي للشعوب.

ومنذ بداية التاريخ الفرعوني، ومن قبل بناء الأهرامات، أدرك المصريون أن الإنسان جسد وروح (كا)، وأن الإنسان حين يموت تنفصل الرُّوح (الكا) عن الجسد، فإذا استطاعوا حفظ الجسد بطريق التَّحنيط، ووضعها في مقبرة قويَّة محصَّنة، مع بعض التعاويذ لتحمي الميت في رحلته الثانية، فمن الممكن في مرحلة تالية أن يعود (الكا) إلى الجسد فيعود الإنسان إلى الحياة مرَّة أخرى. ومن هذه العقيدة التي ترسَّخت في وجدان المصريين القدماء نبت كل مظاهر حضارتهم الدنيئة العظيمة.

تقسيم العصر الفرعوني إلى ثلاثين أسرة

ظهر "مانيتون السَّمْنودي"^(٢١) المؤرِّخ المصري العظيم الذي عاش في بلاط الملك بظليموس الثاني (فيلاذلفيوس)، وكان على جانب كبير من العلم والثقافة، ملماً إماماً كبيراً باللُّغة المصريَّة القديمة، متمكناً من اللُّغة اليونانيَّة، متعمِّقاً في دراسة تاريخ بلاده القديم وعقائد الديانة المصريَّة. وقد كتب هذا المؤرِّخ تاريخ مصر باليونانيَّة حوالي سنة ٢٨٠ ق م، ولكنه فقد ولم يصل إلى أيدينا منه سوى قائمة الأسرات وبعض الملاحظات السريعة. وينفرد تاريخ "مانيتون" بتوزيع فراغته مصر على ثلاثين أسرة، وهو تقسيم لازال معمولاً به حتى اليوم، وهي الأسرات التي حكمت مصر

٢١ - نسبة إلى مدينة سمند الحالية، وكان اسمها في العصر الفرعوني "سينيتوس"

بالتوالي منذ ميناء وحتى فتح الإسكندر الأكبر للبلاد. وقد أيدت الدراسات الحديثة للآثار الكثير مما أورده في كتاباته.

الأسرتان الأولى والثانية

استقر ملوك الأسرتين الأولى والثانية في عاصمتهم الجنوبية "ثينة"^(٢٢) (وهي تقع عند البلدة المسماة عند اليونان "أبيدوس" وهي "العرابة المدفونة" الحالية بالقرب من بلدة البلينا، محافظة سوهاج)^(٢٣)، واستمر حكمهم من سنة ٣٢٠٠ إلى سنة ٢٧٧٨ ق.م. إلا أن الكفاح المرير الذي استمر بينهم وبين أهل الدلتا في الشمال تطلب إنشاء عاصمة جديدة لهم بالقرب من الدلتا، سموها "القلعة البيضاء" أو "الحدار الأبيض" عند رأس الدلتا مكان قرية "ميت رهينة" بمركز البدرشين بمحافظة الجيزة. وعُرفت منذ الأسرة السادسة باسم "ممفيس" وحرّفها العرب إلى "منف". وهي باكورة أعمال "ميناء" أول ملوك ثينة، وأول الفراعنة في تاريخ مصر القديم.

ولما كان لكل عاصمة إله هو الإله الرئيسي للبلاد، فقد صار "بتاح" رب العاصمة هو الإله الخالق للعالم. والواقع أن كهنة منف الذين كانوا يؤمنون بالإله "رع" لم يغيروا في مذهب "بتاح" تغييراً شاملاً، بل غيروا ما اقتضته فقط ضروريات العبادة الجديدة. وقد احتل هذا الإله "بتاح" في كل عصور التاريخ مكانة مرموقة بين جماعة الآلهة تقرب من المكانة التي احتلها كل من الإلهين "رع"، "أمون".

٢٢- نشأ أمراء الأسرتين الأولى والثانية في "ثينة". لذلك يُطلق علي عصر الأسرتين الأولتين "العصر الثيني". أما "طيبة" فكانت عاصمة البلاد الجنوبية بدءاً من الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة.

٢٣- دكتور عبد المنعم عبد الحليم، حضارة مصر الفرعونية، الجزء الأول، دار المعارف،

وفي أواخر القرن التَّاسِع عشر عشر الباحثون على مجموعة من الجبَّانات، بعضها كبيراً في أبيدوس ونقادة، وبعضها الآخر أكثر تواضعاً في سقارة ونزلة بدران وأبو رؤاش وحلوان، ترجع إلى عصر هاتين الأسرتين، أمدتنا بعدد وافر من القطع الأثريَّة. وتبين منها أن الملك غالباً ما يتَّخذ اسم تنويج يقترن باسم الإله "حورس". ومن هذه الآثار عرفنا أسماء خمسة عشر ملكاً من ملوك هاتين الأسرتين^(٢٤). وكان انتسابهم الطَّوطني للإله حورس واتخاذ النَّاج والصولجان، وطقوس التَّنويج، وحفلات البوبيل الدَّوريَّة، يزودهم بقوة سحرية لازمة لفرض نفوذهم على رعاياهم، وملكيَّة الأرض، والإبقاء على الكيان الاجتماعي للدَّولة كما أرادوا له أن يكون.

ويمكننا أن نقرر أن التَّقويم الزَّميني كان قد استقر تماماً في الأسرة الأولى. فقد تمكن المصريون من إحلال التَّقويم الشَّمسي محل التَّقويم القمري الذي اقتصرت قيمته فيما بعد على الجانب الدِّيني. وسوف نعود إلى هذه النقطة مرَّة أخرى فيما بعد عند الأسرة الخامسة.

عصر الدَّولة القديمة

تمتعت مصر بعد ذلك بعصر ذهبي، وهو "عصر الدَّولة القديمة" من الأسرة الثالثة إلى آخر الأسرة السَّادسة (٢٧٧٨ - ٢٢٢٧٠ م)^(٢٥). وبدءاً من هذا العصر تكشف مصر عن كامل شخصيتها. ويتميز هذا العصر عن العصور التالية له بأنه العصر الذي اتحدت فيه مصر وهضت أمة واحدة مستكملة مقومات مدنيَّتها بعناصر محلِّيَّة مجتة. والتقدُّم الكبير في عمارة البناء والعلوم الهندسيَّة. ولم يكن للطقوس الدِّينيَّة والفنون التشكيليَّة

٢٤ - جون يوبوت، مصر الفرعونيَّة، مرجع سابق، ص ٢٨ - ٣٠

٢٥ - تتجه بعض الدِّراسات الحديثة إلى القول بأن الدَّولة القديمة تمتد من الأسرة الثالثة إلى آخر الأسرة الثامنة.

والعمارة المقدّسة في الحياة الواقعية للمصري القديم مكان أقل مما للطب أو للزراعة أو للصناعة. ويُعرف هذا العصر باسم "عصر بناء الأهرام".

وأوّل ملوك هذه الدّولة هو "زوسر" مؤسس الأسرة الثالثة. والذي نقل عرش البلاد إلى "منف" (وهي ميت رهينة الحاليّة في الطّريق إلى سقارة)، وقد خلّد اسمه بأوّل بناء حجري ضخم شيّده على هيئة هرم مدرّج بسقارة، وألحق به معبداً جنازياً هو أقدم معبد معروف لدينا^(٣٦)، وآخر للاحتفال بالعيد الثلاثيني، وعدة أبنية أخرى، خلّدت آثاره لمدة تزيد على أربعة قرون.

وكانت عبقرية المهندس العظيم "إيمحوتب" أو "بتاح حتب" وزير زوسر وكبير كهنة هليوبوليس وكنتم سر الملك لشؤون مصر السفلى وراء تلك الأعمال العظيمة. وقد عبّد فيما بعد كإله منحدر من صلب بتاح. فإلى جانب اختراعه لفن العمارة - أكثر اكتشافاته خطورة وأبعدها أثراً - كان يُعتبر خالق الحكمة المصرية بتعاليمه الأخلاقية ومصنفاته في الطب والفلك، وأعماله التي حدّدت المعرفة العلميّة^(٣٧).

وكانت كتب الحكم والنصائح من أحب الأشياء إلى قلوب المصريين في جميع أدوار تاريخهم، يكتبها الحكماء في أغلب الحالات على لسان أب ينصح ابنه، ويرشده إلى حسن السلوك لكي يصل إلى أعلى المراتب. ولدينا من هذا النوع عدة برديات أشهرها جميعاً البردية المسماة "نصائح بتاح حتب" والذي عاش سنة ٢٣٨٠ ق م. وله قبر معروف في جبانة سقارة. فهو يقول مثلاً:

٢٦- نغمة من العلماء (د. سليم حسن)، تاريخ الحضارة المصرية، مرجع سابق، ص ٢٤٦

٢٧- جون يويوت، مصر الفرعونية، مرجع سابق، ص ٣٤، ٣٥

”لا يداخلك الغرور بسبب علمك، ولا تتعال لأنك رجل عالم. استشر الجاهل كما تستغبر العالم لأنه ما من أحد يستطيع الوصول إلى حدود الفن، ولا يوجد الفنان الذي بلغ الكمال في إجادته. إن الحديث الممتع أشد ندره من الحجر الأخضر اللون، ومع ذلك فرمما تجده لدى الإماء اللاتي يجلسن إلى الرَّحَى“.

”أحن ظهرك لمن هو أعلى منك، لرئيسك في العمل وسيعمر بيتك بخيراتك، وتنال مكافأتك في مواعدها المقدَّر لها. ما أتعس الذي يناصر رئيسه العداء، فإن المرء يحيا فقط طالما كان (الرئيس) راضياً“.

”إذا أردت أن يحسن خلقك وتصون نفسك من كل سوء فاحذر من الطَّمع، فهو مرض عضال لا دواء له، ولا يمكن لإنسان أن يطمئن إلى وجوده معه، فهو يحيل الصِّديق حلو المودَّة إلى عدو مرير، ويبعد الخادم الموثوق به عن سيِّده، ويفصل ما بين الآباء والأمهات، وبين الإخوة الذين ولدتهم أم واحدة، ويفرق بين الزوجة وزوجها. إنه حزمة جمعت كل أنواع الشُّرور، وجعبة ملئت بكل شئٍ مقيت. ما أطول حياة الإنسان إذا كان خُلِّقه متحلياً بالاستقامة، فإن من يلتزم جادها يكون لنفسه ثروة، أما الشَّخص الجشع فلن يكون له قبر^(٢٨)“... الخ.

ويقول إريك بيت T. Eric Peet أستاذ المصريّات بجامعة ليفربول: ”إن الرسوم البارزة في الألواح الخشبيَّة المأخوذة من قبر ”هيس“ في الأسرة الثالثة تُعد من أكمل الأعمال الفنيَّة في العالم. فهي تفسح لمن يراها

أفاقاً من الإيجاء لا حد لها. وليس ذلك راجعاً إلى كمال الشكل، بل إن هذه الأفاق تجنح إلى الاحتفاء إذا بلغت هذا الحد من كمال الشكل (٢٩)“.

كان حكم الملك سنفرو الذي امتد طويلاً ومن بعده ملوك الأسرة الرابعة هو فاتحة عصر الأهرامات الضخمة الشائخة، والتي يُعتبر أحدها وهو هرم الجيزة الأكبر (هرم خوفو)، العجبية الوحيدة الباقية من عجائب الدنيا السبع^(٣٠)، ضمن الآثار الكثيرة التي توجد في مصر، والتي بلغت

٢٩- د. نعمات أحمد فؤاد، شخصية مصر، ص ١١٧. وهذا الكلام يهمننا في دراسة فن الأيقونات القبطية، وهو الفن الذي لم ينفصل قط عن أصوله الفرعونية.

٣٠- هناك جوانب علمية حديثة اكتشفت عن فن بناء الهرم الأكبر، ويقول الدكتور زكي حواس أستاذ العمارة مهندسة عين شمس: إن الهرم الأكبر لم يُبن كمدفن للملك، والدليل عدم وجود نقوش الموت كما في جميع غرف الدفن الأخرى، ومقابر الملوك، بل كان تلسكوباً فضائياً تُخصص للبحث العلمي، فليس من المعقول أن تخصص دولة ٢٠ سنة من عمرها وتضع كل ميزانيتها لبناء مدفن. فقد بُني الهرم الأكبر عند تلاقي خط عرض ٣٠ مع خط طول ٣٠، وضُبطت زواياه بدقة بالغة مع الاتجاهات المغناطيسية لتسهيل دراسة الفضاء. وقد قام علماء أحد معاهد البحوث في السويد بعمل نموذج مصغر ومجوف للهرم تنفق أبعاده ومقاساته مع مثلتها في الهرم الأكبر، مع توجيه محاور أضلاعه إلى الاتجاه المغناطيسي الذي يُخضع له توقيع الهرم الأكبر، ثم قاموا بعمل مجموعة من التجارب للتعرف على مدى تأثير الشكل الهرمي على ما يوضع بداخله من مواد أو كائنات، فأعطت التجارب نتائج مذهلة ومذهلة، فقد جفت بعض الحشرات الحية التي وُضعت بداخله، وتصبّرت وخضعت لعملية مماثلة للتحنيط. ولم تتعرض الفاكهة التي وُضعت بداخله للتعفن، بل تم تخفيفها تماماً. ووضعوا أكواب اللبن فوجدوا أنه قد تماسك بعد وقت قصير ولم يتحلل، فاكتشفوا في جميع الحالات انعدام وجود البكتيريا. ومن أغرب المحاولات التجريبية التي قام بها واحد من العلماء الألمان أن وضع أمواس الخلاقة المستعملة داخل نموذج مماثل للهرم مع مراعاة وضع الشفرات في اتجاه المجال المغناطيسي، فاكتشف أن الشفرات قد عادت إلى حداثتها الأصلية بعد يوم واحد. وما زالت أبحاث الشكل الهرمي تكشف كل يوم عن أسرار تكنولوجية في مختلف علوم المعرفة يخفيها كهنة علماء الفراعنة تحت اسم السحر في حين أنها تعبر عن العلم والتكنولوجيا. (الأهرام في ٩ يوليو ١٩٩٩م، ص ٢٩).

ثلث آثار العالم. ومن العجيب حقاً أن خوفاً الذي خلّد اسمه بهرمه الكبير، كان عهده قصيراً غامضاً، لا نعرف عنه الكثير.

ومنذ عهد قريب جداً كشفت أعمال الحفر معبداً جديداً فريداً في بابه، وهو معبد أبو الهول الذي يمثّل إله الشّمس "رع". وقد أقامه الملك "حفرع" بجوار معبد الوادي الذي أقامه هذا الملك لنفسه. ولا نزاع في أن معبد أبو الهول هو أقدم معبد لإله عُرف لنا حتى الآن^(٣١)، وموقع هذا المعبد في مواجهة أبو الهول مباشرة^(٣٢). وتدل واجهته على أنه بني على غرار معبد "حفرع"، والمعبدان يواجهان الشّرق. وحجم بعض أحجار معبد أبي الهول ضخّم جداً قد يربو أحياناً على ثلاثة أضعاف حجم القطع التي بُني بها الهرم الأكبر. وهي مهارة في البناء أهرت العالم كله.

وبلغت مصر خلال الفترة التي امتدت من حكم سنفر و مؤسس الأسرة الرابعة إلى منتصف الأسرة السادسة، أولى قممها الحضاريّة.

وقامت الأسرة الخامسة على أساس ديني جديد كان سبباً في تغيير واضح لديانة مصر القديمة، إذ جعل من "رع" معبوداً للدولة^(٣٣). وحتى بعد أن سقطت الدولة القديمة وتفكّكت البلاد إلى مقاطعات تعبد كل

٣١- د. سليم حسن، وآخرون، تاريخ الحضارة المصريّة، ص ٢٤٦

٣٢- تمثال أبو الهول، رمز صمود مصر، ودلالة قوة الصمت، وفن انجماع العقل والقوّة. كتب عنه المقرئ في خطّته أن شيخاً يدعى صائم الدهر قام بتحطيم أنفه باعتباره صنماً! وقد تم تكسير تمثال سرّية أبو الهول (أي زوجته)، لبناء مسجد بحجارها كما يذكر المقرئ. وليس صحيحاً أن مدافع نابليون هي التي كسرت أنف أبو الهول، فهي الحملة التي كشفت كنوز مصر الثقافيّة والأثريّة. (وطني في ١١ مارس ٢٠٠١م، ص ٨).

٣٣- كان مؤسس هذه الأسرة هو "أوسر كاف" من كهنة عين شمس، ولم يكن من فرع ملكي. وقد استولى على العرش بواسطة زوجته خنتكاوس ابنة "منقرع".

منها إلهها المحلي ظل "رع" يحتل مكاناً رفيعاً في قلوب المصريين حتى اضطرت كهنة الآلهة الأخرى حفاظاً على مكانتهم أن يزعموا أن آلهتهم جميعاً ما هي إلا صور متعدّدة للإله رع، فلقب كهنة الإله حورس باسم حورس رع، وكذلك فعل كهنة آمون حيث لقبوا إلههم باسم "آمون رع"، وهكذا.

بيد أن ثمة إلهاً آخر ظل يضارع الإله رع في مكانته لدى المصريين وهو "أوزوريس". ولئن كان ارتفاع شأن رع قد نجم عن نفوذ كهنة عين شمس، فقد كان ارتفاع شأن أوزوريس ناجماً عن حب المصريين له وتعلقهم بشخصيته التي استهوت نفوسهم بما اتصفت به من فضيلة ووداعة وإخلاص كما صورتها الأسطورة التي كانوا يتداولونها عنه، وقد اتخذ فيها صورة إله الخير الذي انتصر على أخيه "ست" إله الشر. ومن ثم اعتبروه مثلهم الأعلى. وكان للإله أوزوريس معبد في العرابة المدفونة.

ومنذ عصر الأسرة الخامسة اتجه المصريون إلى تسجيل أخبار الملوك في قوائم مترابطة تُقام في المعابد والمقابر. وتضم أسماءهم وسنوات حكمهم وأهم أعمالهم. كما دوّن المصري القدم التّقاليد والشّعائر الدينيّة التي ورثها عن أجداده في عصر ما قبل التاريخ، كبديهيّات لا تحتاج منه إلى شرح أو تعقيب. وأقدم مصدر يُعتمد عليه في هذا الصّد هو النقوش المدوّنة على جدران حجر الدّفن لملوك الأسرة الخامسة من فراعنة مصر، وهي النقوش المعروفة الآن باسم "متون الأهرام"، وهي أقدم نصوص دينيّة وصلت إلينا كاملة في تاريخ العالم أجمع^(٣٤).

وأخذت مصر تفقد قوّتها منذ الأسرة الخامسة، ولم يعد للملك الإله

ما كان له من سلطة مطلقة، كما كان تطور العقيدة الدِّينيَّة وزيادة شأن عبادة "أوزوريس (٣٥)" من الأمور التي ساعدت على ذلك.

وعاصرت الأسرة السَّادسة أحداثاً جسماً كادت تهدم كيان الأمة، ويُرجع المؤرخون أسباب انهيار هذه الأسرة إلى ضعف السُّلطة المركزيَّة. وكان "ببي الثاني" قد ارتقى العرش في سن مبكرة وظل يحكم البلاد ٩٤ سنة، وهي أطول فترة حكمها ملك في تاريخ العالم، فكانت شيخوخته حافزاً لحكام الأقاليم إلى التَّمادي في الاستقلال بشؤون أقاليمهم. فساءت الأحوال في البلاد، وتعرضت الدُّلنا لعبث قبائل البدو.

وتدل البيانات التي نُقِشت على أهرامات الأُسرتين الخامسة والسَّادسة على أن تقويم الـ ٣٦٥ يوماً كان متبعاً في ذلك الحين. فقد استخدم المصريون القدماء في تقدير طول السَّنة النَّجميَّة، الظَّاهرة الفلكيَّة التي تُعرف الآن بالشُّروق الاحترافي لنجم الشَّعري اليمانيَّة وهي رؤية هذا النَّجم قبيل شروق الشَّمس، وكانت هذه الظَّاهرة تقع وقت فيضان النَّيل. وهي الظَّاهرة التي تحدث قبيل شروق شمس اليوم الأوَّل من السَّنة القبطيَّة.

وكانوا يعلمون أن هذه الفترة تمتد إلى ٣٦٥،٢٥ يوماً، ولذلك اعتمدوا في ضبط التَّقويم على رصد هذه الظَّاهرة. ولما كان الفرق بين طول السَّنة النَّجميَّة وسنتهم المدنيَّة يتكامل حتى يصير سنة كاملة كل ١٤٦٠ سنة، وأن هذه الظَّاهرة قد رُصدت سنة ١٣٩ بعد الميلاد، نستنتج أنهم رصدها قبل ذلك في سني ١٣٢١، ٢٧٨١، ٤٢٤١، ٥٧٠١ قبل الميلاد. وبما أن أهرامات الأُسرتين الخامسة والسَّادسة كانت موجودة في

٣٥- كان الثالث الفرعوني "أوزوريس (الأب)، إيزيس (الأم)، حورس (الابن)" أهم ثلاث عبده المصريون القدماء.

سنة ٢٧٨١ ق م، نتأكد أن هذا التقويم كان مستعملاً منذ ذلك الحين أو قبل ذلك بدورة، أي سنة ٤٢٤١ ق م، أو بدورتين أي في سنة ٥٧٠١ ق م. وقد أطلقوا على الشهور أسماء آهتهم، وقيمون الاحتفالات كل شهر باسم المعبود الذي يُسمى الشهر باسمه^(٣٦). وهكذا عنى المصريون القدماء بدراسة حركة الشمس الظاهرية وسط النجوم الثابتة منذ أقدم عصور التاريخ. وليس في ذلك من الغرابة إذ أن الشمس كانت من أهم معبوداتهم.

وهكذا نجد أن قدماء المصريين قد استخدموا تقويمياً فلكياً محكماً منذ أقدم العصور وابتكروا السنة المدنية، مما حثّب تقويمهم أهواء الملوك والحكام. بينما نجد أن معاصريهم من الرومانيين واليونانيين والآشوريين كانوا لازالوا يتخبطون في محاولات فاشلة لربط أوائل الشهور القمرية بأوائل الشهور المدنية.

وقسم المصريون القدماء السنة إلى ثلاثة فصول فقط وليس أربعة، وهي الفيضان والزرع والحصاد، وهو التقسيم الذي يتفق مع أحوال النيل السنوية من فيضان فزراعة فجني إحصول. بل إن الموسيقى الفرعونية القديمة تتفق مع هذا التقليد الثلاثي، فالقيثارة الفرعونية لها ثلاثة أوتار لتعطي ثلاث نغمات تحاكي ثلاثة فصول السنة كما يذكر ديودور الصقلي.

٣٦- توت، إله الحكمة - بابة، إله الزراعة - هاتور، إله الجمال - كيهك، إله الخير أو الثور المقدس - طوبة، إله المطر - أمشير، لم توضح الكتابات القديمة سبب تسميته - برمها، إله الحرارة - برمودة، إله الموتى - بشنس، إله الظلام (لاعتقادهم أنه يساعد على إزالة الظلام، ولهذا نجد أن النهار في شهره أطول من الليل) - بؤونة، إله المعادن - أييب، أي فرح السماء - مسرى، أي ابن الشمس. أما الخمسة أيام الباقية من السنة فقد سميت (كوجي أتافوت) أي الشهر الصغير.

العصر الوسيط الأوَّل (عصر الاضمحلال الأوَّل)

وهو يشمل الأسرات من السَّابعة إلى العاشرة ويمتد خلال الفترة (٢٢٧٠ - ٢١٦٠ ق م)، وهي أسرات ضعيفة باستثناء بعض فترات من القوَّة. وكان عصر الاضمحلال الأوَّل قد بدأ بالأسرة الثامنة. وامتد إلى آخر الأسرة العاشرة.

في هذا العصر انفلت زمام الحكم من يد فرعون، وساد الانحلال السِّيَاسي والتَّفكُّك الاجتماعي، فانتشرت الفوضى واحتل الأمن، وشبَّت نيران الحروب الأهليَّة. ومعلوماتنا عن هذا العصر المضطرب قليلة محدودة. وكان مقر ملوك الأُسَرتين السَّابعة والثامنة مدينة "منف" عاصمة الدَّولة القديمة. وبلغ عدد ملوك هاتين الأُسَرتين ٨٥ ملكاً^(٣٧). وخلال تلك الفوضى ظهرت بـ "أهناسيا المدينة/ محافظة بني سويف" أسرة قويَّة بزعامة أمير يُدعى "خبيي" اغتصبت العرش من الأسرة الثامنة الضعيفة. وظلت "أهناسيا" مقراً لعرش الأُسَرتين التاسعة والعاشرة. ونشأت الحرب بين أهناسيا وطيبة، وانتهت بانتصار الطيبين حين تمكن "منتوحتب الثاني" أحد ملوك الأسرة الحادية عشر من إسقاط عرش أهناسيا.

عصر الدَّولة الوسطى

وهو يبدأ بالأسرة الحادية عشر^(٣٨)، وينتهي بالأسرة الثالثة عشر (٢١٦٠ - ١٧١٠ ق م). وهو العصر الذهبي الثاني. إذ ساعدت المحنة التي خاضها المصري إبان فترة الاضمحلال الأولى على نضج عقله. ولم تصل مصر إلى وحدتها الكاملة في عصر الأسرة الحادية عشر إلا في عهد

٣٧- دكتور عبد المنعم عبد الخليم، مرجع سابق، ص ٦.

٣٨- حمل ملوك الأسرة الحادية عشر وعددهم ثمانية أحد اسمين هما: "أنيوتف"، أو "منتوحتب".

”متوحب الثاني“ سادس أمراتها.

في هذا الزمن عاش إبراهيم أبو الآباء^(٣٩)، حيث عاش في أوائل الألف الثانية قبل الميلاد (٢٠٠٠ - ١٨٠٠ ق م)، فعاصر ملوك الدولة الوسطى، وعلى الأرجح ملوك الأسرة الثانية عشر (١٩٩١ - ١٧٨٦ ق م). أي كان معاصراً لأحد الملوك الذين كانوا يُدعون باسم ”أمنمحات“ (من الأوّل إلى الرابع)^(٤٠)، أو باسم ”سنوسرت“ وقد أطلق الإغريق والرّومان اسم ”سيزوستريس“ على أحد الملوك الذين يحملون اسم ”سنوسرت“ ويغلب أنه سنوسرت الثالث^(٤١).

وفي عهد الدولة الوسطى احتل ”آمون“ المكانة الأولى في الديانة الرسميّة للبلاد. ولسنا نعرف الأحوال التي من أجلها نُقلت عبادته إلى طيبة، ولكن الأمر الذي لا شك فيه أنه كان له معبد في إقليم طيبة في أوائل عصر الدولة الوسطى.

وكان الكهنة يرتلون في معابدهم أناشيد كثيرة لآمون، ونورد هنا جانباً بسيطاً من التّشيد الكبير له:

”الحمد لك يا آمون رع، يارب الكرنك ... أعظم من في السماء، وأكبر من في الأرض، رب كل ما هو كائن، الذي يستقر في كل شيء. لا شبيه له في طبيعته بين الآلهة ... رب الحق، أب الآلهة، الذي برأ الإنسان وخلق الحيوان ... صاحب الأمر الذي خلق الأرض كلها ... ذو الإرادة القويّة، وصاحب الطلعة العظيمة، من كثرت لديه الأقوات، ويخلق ما يعيش عليه

٣٩- انظر: تكوين ١٢: ١٥- ٢٠

٤٠- دائرة المعارف الكتابية، الجزء السادس، مرجع سابق، ص ٣٨

٤١- دكتور عبد المنعم عبد الحليم، مرجع سابق، ص ٨

النَّاس. الابتهاال لك يا من خلقت الآلهة، ورفعت السَّماء
وبسطت الأرض (٤٢)“.

وفي عصر الأسرة الثَّانية عشر انتقلت العاصمة من ”طيبة“ إلى موقع
بالقرب من منطقة الفيوم يُسمى ”الليشت“. ويُعد الملك ”أمنمحات
الأوَّل“ أهم ملوك هذه الأسرة، أما حفيده ”سنوسرت الثالث“ فقد
أصبح المثل الأعلى للفتاح المصري (٤٣). وبلغت الدَّولة الوسطى أوجها في
أثناء حكم الملكين أمنمحات الأوَّل وسنوسرت الثالث.

أما خليفته ”أمنمحات الثالث“ فقد طالت به أيام الحكم إلى أكثر
من خمسين عاماً مما أضعف سلطة العرش، كما خلفه ملوك ضعاف تلاشى
على أيديهم نفوذ فرعون تماماً. وبانتهاء الأسرة الثَّانية عشر دَبَّت عوامل
الاضمحلال والضعف في مصر مرَّةً أخرى.

وبينما توجد أغلبيَّة آثار الأسرة الحادية عشر في إقليم طيبة، نجد أن
آثار الأسرة الثَّانية عشر منتشرة في جميع مراكز الوادي، ولا نفتقدها حتى
في الدلتا. أما الوثائق الأثريَّة للأسرة الثالثة عشر فهي نادرة (٤٤).

إن الكتابات التذكاريَّة في تلك الفترة هي كتابات جيدة دُوِّنت بلغة
الدَّولة الوسطى ذات الأسلوب الرَّائع. أما التَّجديد الحقيقي للأدب فكان
مرتبطاً بجعل لغة الحديث هي لغة الكتابة الرِّسميَّة. والتي صارت ذات
قواعد لغويَّة أكثر تنوعاً وسلاسة. ومن ثمَّ كانت أكثر قدرة على التعبير
عن ضرورات الحياة وتنوعها.

٤٢ - نخبه من العلماء (د. أحمد فخري)، تاريخ الحضارة المصريَّة، مرجع سابق، ص ٤١٦

٤٣ - جون بويوت، مصر الفرعونيَّة، مرجع سابق، ص ٧٩

٤٤ - نفس المرجع، ص ٧٧

العصر الوسيط الثاني (عصر الاضمحلال الثاني)

باتهاء عهد الدولة الوسطي حوالي سنة ١٧٨٥ ق م، دخلت مصر الفترة الانتقالية الثانية التي تمتد من الأسرة الثالثة عشر حتى الأسرة السابعة عشر، خلال ما يقرب من قرنين (١٧٨٥ - ١٥٨٠ ق م). ومعلوماتنا عن هذه الفترة التاريخية أقل من معلوماتنا عن أية فترة تاريخية أخرى. وهو عصر من عصور الفوضى حيث تعددت المؤامرات واندلعت الثورات، وتتابعت الحروب الأهلية، فتسرب الفساد إلى كل مرافق الحياة.

وكانت النتيجة أن هاجمت البلاد جحافل الهكسوس الذين استقروا في مصر (١٧١٠ - ١٥٦٠ ق م)، وكونوا في التاريخ المصري الأسرتين الخامسة عشر والسادسة عشر، وجانباً من الأسرة السابعة عشر، فيما يتجاوز قرناً ونصف القرن من الزمان. وقد عاصر يوسف^(٤٥) الأسرة الثالثة عشر أو أوائل عصر الهكسوس في الأسرة الخامسة عشر، ويذكر المؤرخ اليوناني سنكلوس Syncillus أنه يرجح أن يكون "أبوفيس" هو أحد ملوك الهكسوس الذي عين يوسف وزيراً للبلاد^(٤٦).

والهكسوس قوم جاءوا من الشرق واستقروا بأغلب الدلتا تاركين الجزء الغربي منها لأسرة مصرية تحكمه، كما أنهم لم يستطيعوا أن يحتلوا الصعيد كله. ولم تعرف مصر قبل احتلال الهكسوس مرارة الخضوع لحكم أجنبي.

وهكذا استقر هؤلاء الغزاة بمصر يحكمونها من عاصمتهم في شرق الدلتا. ويبدو أن الهكسوس قد حفظوا للإله "أمون" مكانته بوصفه إله الدولة التي فقدتها بغزوهم لها، ولكنهم أحلوا محله الإله الذي وجدوه في

٤٥ - انظر: تكوين ص ٣٧ - ٥٠

٤٦ - دائرة المعارف الكتابية، الجزء السادس، مرجع سابق، ص ٣٨

المكان الذي حطّوا فيه رحالهم وهو الإله "ست" الذي كان يُعبد في الشمال الشرقي للذلتنا. ويورد مانيتون وصفاً أصيلاً لا يُنزع لما ارتكبه هولاء الرُّحَل القساة من جرائم بشعة أثناء الفتح، وما خلفه من آثار لا تُمحى في نفوس المصريين^(٤٧). فكان عصرهم عصرًا مُظلمًا، كله ظلم وقسوة وتعسف وإذلال. وكان الدُّرس الذي تعلمته مصر من احتلال الهكسوس درساً قاسياً مرّاً، أمّض فيها من حديد روح الوطنيَّة التي حبت.

عصر الدَّولة الحديثة

ويشمل الأسرات من الثامنة عشرة إلى العشرين (١٥٦٠-١١٠٠ ق.م)، ويتوافر لدينا من المصادر عن هذه الفترة من التاريخ الفرعوني ما لم يتوافر عن غيرها. فقد نجح "أحمس" أوّل ملوك هذا العصر في إجلاء الهكسوس عن مصر ومطاردتهم إلى فلسطين، ولم يرجع حتى شتت شملهم، فلم تقم لهم قائمة من بعد. وكان لطرده الهكسوس رنة فرح عظيمة في كل البلاد. وبدأت بعصر أحمس نهضة جديدة استمرت طوال عهد الدَّولة الحديثة. وأعاد "أحمس" حدود مصر إلى ما كانت عليه في الدَّولة الوسطى. وكوّن جيشاً وطنياً قوياً، وتكوّنت منذ ذلك الوقت ما عُرف باسم "الإمبراطوريَّة المصريَّة". والتي كانت تشكّل في الحقيقة وحدة أفريقيَّة آسيوية تتزعمها مصر وتضم شمال السودان وفلسطين وسوريا.

وأصبح "آمون" إلهاً عالمياً، وازداد سلطانه وشهرته بدرجة هائلة، إذ قد نُسب إليه انتصار المصريين وتحرير بلادهم من الغاصب المعتدي^(٤٨). ولم يمض وقت طويل حتى أصبح الكاهن الأكبر لآمون أعظم شخصيَّة في

٤٧- جون بويوت، مصر الفرعونيَّة، ص ١٠١

٤٨- نجمة من العلماء (د. سليم حسن)، تاريخ الحضارة المصريَّة، ص ٢٤٢

الدولة بعد الملك، إذ لم يكن نفوذه مقصوراً على أمور الدِّين فحسب، بل امتد إلى أمور البلاد السياسيّة، إلى أن استطاع كبيرهم "حريحور" أن يستولي على الحكم ويؤسس الأسرة الحادية والعشرين، وانتهى حكمه بالخيبة والفشل.

ويُعتبر عصر الأسرة الثامنة عشر^(٤٩) من أزهى عصور الدولة الحديثة بفضل الجهود الحربيّة التي قام بها ملوك النصف الأوّل من هذه الأسرة حيث سار على نهج أحمس الأوّل الملوك الذين أتوا من بعده وهم: "تحتمس الأوّل"، "تحتمس الثالث"، "أمنحوتب الثاني"، و"تحتمس الرابع". باستثناء "حتشيسوت" التي فضّلت السّلام وانهمكت في تشييد المباني، وإيفاد بعثاتها السلميّة إلى بلاد بونت^(٥٠). وقد خلّدت الملكة حتشيسوت أخبار هذه البعثة الكبيرة على معبدها بالدير البحري بالأقصر.

أما ابنة فرعون التي تبنّت موسى^(٥١)، فهي أميرة تنتمي إلى النّصف الثاني من الأسرة الثامنة عشر (من أمينوفيس إلى حور محب) وربما كانت ابنة سبتي الأوّل (من الأسرة التاسعة عشر) والأخت الكبرى لرمسيس الثاني. ويظن البعض أنّها "حتشيسوت" أشهر أميرات الفراعنة^(٥٢).

وعندما تخلّص تحتمس الثالث من وصاية حتشيسوت بموتها، كان ملك قادش قد نجح في توسيع مملكته على حساب دولتي ميتاني ومصر،

٤٩- ملوك هذه الأسرة هم: أحمس الأول، أمنحوتب الأول، تحتمس الأول، تحتمس الثاني، حتشيسوت، تحتمس الثالث، أمنحوتب الرابع، تحتمس الرابع، أمنحوتب الثالث (أمينوفيس)، أمنحوتب الرابع (أختاتون)، سمنخ كارغ، توت عنخ آمون، أي، حور محب.
٥٠- بونت: تقع جنوبي البحر الأحمر عند مضيق باب المنذب، وموقعها الحالي هو بلاد الصومال وعدن. وهي الأرض التي كانوا يجلبون منها الأعشاب والنباتات العطرية.

٥١- خروج ٥: ٢-١٠، أع ٢١: ٧؛ عبرانيين ٢٤: ١١

٥٢- دائرة المعارف الكتابية، الجزء السادس، مرجع سابق، ص ٤١

فخرج إليه تحتس الثالث بجيشه وتفادياً لمعركة مهولة، حاصره في "مجدو" سبعة أشهر حتى استسلم وخُذت معركة "مجدو" في نصب تذكاري بأرمنت. ودُوِّنت حروبه فيما بين سنة ١٤٨٣، ١٤٦٤ ق.م. في معبد الكرنك الهائل الذي هو أعظم آثار الدولة الحديثة أثراً في تذكير الإنسان بقدره ملوك طيبة وجبروتهم وسيادة الإله آمون وهيمته.

ويُعتبر "تحتس الرابع" أوّل فرعون يقيم سياسة المعاهدات والتّحالف مع العالم القديم، إذ عقد معاهدة صداقة مع بلاد الميتاني ضد دولة الحيثيين التي كانت تزداد قوّة، وأخذت تقترب مطامعها السياسيّة من حدود مصر. وفي عصر تحتس الرابع ظهر ميل للعودة إلى عبادة الإله "رع" لكي يحد الملك من سلطة كهنة آمون الذين أصبحوا يسيطرون على الجزء الأكبر من مرافق الإمبراطوريّة.

ويُعتبر عصر "أمنحوتب الثالث" من أزهى عصور الفن والأدب والعمارة. وتعتبر معابد طيبة أروع مثال لضخامة وفخامة المعابد في ذلك العصر، ولاسيّما المعبد الذي أقامة أمنحوتب الثالث للإله آمون في الأقصر، وكذلك معبد الكرنك الذي يعدّ بهو الأعمدة فيه من عجائب فن العمارة في العالم^(٥٣). وفي عصره كانت مصر تترنّم بهذا الدُّعاء المأثور:

"أيها الموجد الذي لا موجد له، أيها الواحد الأحد الذي يطوي الأبد. أنت الأم البارة للآلهة والبشر. والصّانع الدُّعوب الخالد في آثاره التي لا يحيط بها حصر. والرّاعي ذو القوّة والبأس، الذي يرمي رعيتّه. ولولا أنك ملاذهم ما تهيأت لهم حياة".

٥٣- د. سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصريّة في العصر الفرعوني، مرجع

إلا أنه أهل الشئون الخارجية في أواخر حياته، وخلفه ابنه "أمحتوب الرابع" (إخنتون فيما بعد، وزوج نفرتيتي) الذي ركز هدفه في توحيد آلهة المصريين في معبود واحد هو "آتون"، ونجح في ذلك، ووجد حملة قوية ضد "آمون" وكهنته. وقضى على عبادة آمون وغيره من الآلهة، فمُحيت عبادة آمون وكشط اسمه من كل الآثار المصرية في أنحاء الإمبراطورية كلها. وأقام لنفسه حاضرة جديدة في المكان المعروف الآن بتل العمارنة (بالقرب من ملوي/ محافظة المنيا) وسماها "آخت آتون" أي (أفق آتون)، وشيّد معابداً لآتون في طول البلاد وعرضها.

وانصرف إخنتون (رضى آتون) إلى دينه الجديد، وكتب له بعض الأناشيد الجميلة، وأهمها التّشيد الكبير، إذ كانت ديانة آتون أوّل دعوة إلى شيء قريب من التّوحيد كما علّمت به المسيحية في مصر فيما بعد. ويظن أن هذا التّشيد الكبير هو الأصل الذي نُقل عنه جزء من المزمور ١٠٤ من مزامير داود النبي. ونورد هنا جانباً منه:

"أنت تطلع ببهاء في أفق السّماء، يا آتون الحي، يا بداية الحياة. عندما تبرز في الأفق الشّرقي تملأ البلاد بجمالك ... تحيط أشعتك بكل الأراضي التي خلقتها، ولأنك أنت رع فإنك تصل إلى نهايتها، وتُخضعها لابنك المحبوب ... وعندما تغرب في الأفق الغربي، تسود الأرض كما لو كان قد حلّ بها الموت ... ويلف الظلام كل شيء ويعم الأرض السكون، لأن الذي خلقهم يرتاح في أفقه ... وعندما يصبح الصّباح وتطلع من الأفق ... يستيقظ النّاس ... ويرفعون أذرعهم ابتهاجاً عند ظهورك. والنّاس جميعاً يؤدون أعمالهم، وتقنع كل الحيوانات بمراعيتها، وتزدهر الأشجار والنباتات، والطيور التي تطير من أعشاشها تنشر أجنحتها لتمدح قوّتك ... إنهم

يعيشون لأنك أشرفت من أجلهم ... أيها الخالق لبذرة الحياة في النساء، أنت الذي يجعل من البذرة السائلة إنساناً. أنت الذي يعنى بالطفل في بطن أمه ... ما أعظم أعمالك التي عملتها ... أيها الإله الأوحد الذي لا شبيه له، لقد خلقت الدنيا كما شئت، عندما كنت وحدك ... أنت الذي خلقتهم لأجل نفسك ... ما أجمل أعمالك يارب الأبدية ... جعلت ملايين الصور من نفسك وحدها ... فكل عين ترك فوقها مشرقاً ... أنت في قلبي، وليس هناك من يعرفك غير ابنك ... لأنك أنت الذي خلقتة عالماً بمقاصدك، ومدركاً لقوتك. أنت الذي صنعت الدنيا بيديك، وخلقت الناس كما شئت أن تصوّرهم، فهم يحيون عندما تشرق، ويموتون عندما تغرب، أنت الحياة بعينها ... أنت الذي خلقت الأرض، وأنت الذي خلقت الناس لأجل ابنك، الذي وُلد من صلبك ... (٥٤)“

كان إخناتون من أعظم المتصوّفين في التاريخ، غير أنه كان ينقصه الإحساس بالواقع. وعلى الرغم من سمو مذهب إخناتون، فإن القائمين بنشره لم يمكنهم غرسه في نفوس شعب تعود أهلهم عبادة المحسوسات التي خلا منها مذهب إخناتون، إذ لم يكن أتون يصرّ في صورة إنسان، بل كان مجرد صورة قرص الشمس تدلى منه أيد تحمل الخير العميم للبلاد. أراد الإنسان المصري القديم، المتدين بفطرته، إلهاً قريباً منه، يحسه ويتلامس معه.

ويبدو أن إخناتون عالج شؤون بلاده الداخليّة بنفس لامبالاة المتدينّ التي عالج بها الشؤون الخارجيّة. والحقيقة أنه لا يُعرف إلا القليل عن

٥٤- نغية من العلماء (د. أحمد فخري)، تاريخ الحضارة المصريّة، مرجع سابق، ص

حكومته. إلا أنه من الواضح أن الجماهير الشعبوية وكبار القوم لم تستفد شيئاً من عناية آتون الإلهية، وظلت مصر ترقب بنظرة سلبية نزوات ملكها المتفقه في اللاهوت.

ولكن بعد موته خلفه ملوك ضعاف رأوا أن يعيدوا مجد "أمون" إلى سابق عهده، وكان من ورائهم الشعب الذي كان لم يزل متعلقاً بعبادة "أمون". وكان من جرّاء ذلك أن خليفة إخناتون اضطر بعد حين للعودة إلى المذهب القديم، فغيّر اسمه إلى "توت عنخ آمون" أما "نفرتي" زوجة إخناتون، فقد احتفت في ظروف غامضة، ولسنا نعلم أين ولا كيف انتهت. وصدر مرسوم يعيد للألهة ممتلكاتها، كما أعيدت طقوس الخدمة والقرايين. وعاد اسم "أمون" إلى كل مكان أزاله منه إخناتون. وكان "توت عنخ آمون" قد تولى الملك وهو حدث السن فترك مقاليد الأمور لاثنين من عظماء بلاطه هما "آي"، "حور محب".

كان "آي" هو قائد الجيش، ولم يكن الجيش موالياً للدين الجديد. وأدرك "آي" أن نظام العمارنة ميئوس منه. وبموت توت عنخ آمون صار هو ملك البلاد. فطوى الدين الجديد مطوأي النسيان. واستولى المرتد العجوز على المعبد الجنائزي الذي كان توت عنخ آمون قد بدأه في مدينة هابو، وكذلك على المقبرة التي كان قد أعدها لنفسه، وأبعده إلى قبر صغير، قدر له أن يكون القبر الوحيد في وادي الملوك الذي ظل سليماً على حاله حتى تم اكتشافه في أيامنا هذه. وكان لاكتشافه دوي غطى قارات الأرض. وبموت الملك "آي" انتهت الأسرة الثامنة عشر.

إن النقش كان أقل الفنون أصالة في آثار الأسرة الثامنة عشر المتدينة، وبخاصة إذا قارناه بنظيره في الدولة الطيبة الأولى. كانت نقوش

حتشبسوت وتحتمس الثالث وأمنحوتب الثاني وأمنحوتب الثالث^(٥٥)، وأمنحوتب الرَّابِع^(٥٦)... الخ تستلهم التَّقَالِيد الحسنة الموروثة عن مدرسة منف للأسرة الثانية عشر. إلا أن مثالي التحامسة (الملك الذي سماوا — تحتمس) أكسبوا تماثيلهم قدراً أكبر من الرَّشاقة حيث عمدوا إلى تطوير القالب دون تغيير الهيئة العامة. أما عن الوجوه، فلم يسعوا عن طريق المبالغة في الشَّكْلِ العام إلى إبراز عظمة شخصياتهم بقدر ما سعوا إلى تصوير المشاعر الدَّاخِليَّة بعلاج فني رقيق الملامح، فتبدو الشَّفاه وكأنها تم بالابتسام، بينما نظرة العينين تحتفظ بجديتها. أما التَّعبير الحزين فكان هادئاً هدوءاً عرف شادة العمارنة كيف يوفونه حقه. وحين يقع البصر على تماثيل الكرنك الضَّخمة يعاني من دوار الرُّهبة التي جرَّت الشَّرِيعَة الآتونيَّة الرُّوح المصريَّة إليها^(٥٧).

ولاشك أن فترة الاختلافات الدِّيْنِيَّة التي لازمت عصر "إخناتون" كادت تقضي على النَّظام في البلاد، لولا ظهور "حور محب" الذي بدأ به الأسرة التَّاسعة عشر، بعد أن نصَّب نفسه ملكاً على مصر (١٣٤٣-١٣١٤ ق م)، وقد نجح في إعادة النَّظام. وبدأ عصره بإصلاح شامل للشُّؤون الماليَّة، وشرَّع قانوناً للحدِّ من الجشع، وانتشار الرُّشوة، وهما المؤشِّر الحقيقي على حتمية انهيار أي أمة مهما صمدت إلى حين. ولكنه شطب اسم سلفيه من السَّجلات الملكيَّة، ونسب إلى نفسه ملكيَّة معظم ما خلفاه من آثار^(٥٨).

٥٥- زوجته هي "تي" أم إخناتون.

٥٦- زوجته هي الملكة نفرتي

٥٧- جون يويوت، مصر الفرعونيَّة، مرجع سابق، ص ١٥٤

٥٨- نفس المرجع، ص ١٣٣

ويُظن أن فرعون الذي اضطهد شعب بني إسرائيل^(٥٩) وسخرهم في تشييد وبناء المدن، هو إما تحتمس الثالث أو حور محب (الأسرة الثامنة عشرة) أو سيبي الأول (الأسرة التاسعة عشرة)^(٦٠)، ذلك لأن تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر غير محدد بدقة، حيث اختلفت فيه الآراء، ولكل رأي أسانيد وجهية.

وكان آخر ملوك الأسرة الثامنة عشر هو حور محب، أما خلفاء حور محب فلا يمتون له بصلة نسب، فقد خلفه صديقه وزميله في قيادة الجيش "رمسيس الأول"، الذي أسس الأسرة التاسعة عشرة^(٦١). ولم يبق هذا الأخير على العرش إلا فترة قصيرة، إذ خلفه ابنه "سيبي الأول" واهمك في حرب مع الحيثيين، وكان سيبي الأول (١٣١٢ - ١٢٩٨ ق م) مشيداً عظيماً للمباني، شيّد معبداً عظيماً في أيدوس، كما كان محارباً قوياً الشكيمة. وبموته خلفه أصغر أولاده "رمسيس الثاني" أشهر ملوك مصر القدماء، فأتت رسالة أبيه، واشتبك مع الحيثيين في أكثر من موقعة انتهت بمعاهدة دفاعية هجومية بينه وبينهم، ساد بعدها السلام لفترة طويلة. وأحيا رمسيس الثاني أيام تحتمس المجيدة في جو من الأبهة الباهرة، إلى حد أن غطى على تحتمس العظيم. وقام رمسيس الثاني بنقل عاصمته إلى "صان الحجر" بشرق الدلتا، وهي تُدعى أيضاً "تانيس"، وسجل لنفسه اسماً لامعاً في التاريخ، وشيّد المعابد المنقورة في الصخر في بلاد النوبة، وفي الدلتا في منف وتانيس. وتكاد تُنسب نصف المعابد المصرية القائمة اليوم في بنائها إلى هذا الفرعون العظيم.

٥٩- انظر: خروج ١، ٢

٦٠- انظر: دائرة المعارف الكتابية، الجزء السادس، مرجع سابق، ص ٣٨

٦١- أهم ملوك هذه الأسرة: رمسيس الأول، سيبي الأول، رمسيس الثاني، مرنبتاح (مفتاح).

وكان أمنحوتب الثالث (الأسرة الثامنة عشرة) ورمسيس الثاني (الأسرة التاسعة عشرة) ولوعين بمظاهر العظمة، فكثرت في آثارهما الأبنية والتماثيل الهائلة الحجم التي كان الشعب يقف أمامها مشدوهاً، ويعبدها كما يعبد الآلهة. ولقد غطت آثار رمسيس الثاني النوبة والصَّعيد في أبو سمبل والكرنك والأقصر والرَّمسيوم وأبيدوس ومنف وبوباسطيس، وامتدت إلى الدلتا.

وخلفه ابنه "مرنبتاح" الذي زاد عن البلاد من هجوم كاسح جاءها من الدلتا، فأنزل بالمتأمرين هزيمة ساحقة، ويُظن أن خروج بني إسرائيل من مصر كان في زمن رمسيس الثاني أو ابنه مرنبتاح.

وبموت مرنبتاح، وبعد نزاع على العرش دام عدة سنوات، جلس "رمسيس الثالث" على العرش. وبه بدأت الأسرة العشرون. واستطاع إنقاذ البلاد من خطر داهم لو تحقق له النَّجاح لكان قد قضى على كل معالم الحضارة في مصر.

وحمل ملوك الأسرة العشرين وعددهم عشرة ملوك لقب "رمسيس" فيما عدا مؤسس الأسرة "ست نخت"، ولتمييز رعامسة هذه الأسرة عن رعامسة الأسرة التاسعة عشرة، أعطى علماء الآثار المصرية تسلسلاً عددياً لرعامسة الأسرة العشرين يتبع التسلسل العددي لرعامسة الأسرة التاسعة عشرة، وبذلك سُمي أوَّل ملك يحمل اسم "رمسيس" في الأسرة العشرين باسم "رمسيس الثالث"، نظراً لوجود ملكين يحملان الاسم "رمسيس" في الأسرة التاسعة عشرة. وكان آخر ملوك الأسرة العشرين هو رمسيس الحادي عشر.

وأراد الملوك الذين حكموا مصر بعد عصر "حور محب" أن يباعدوا

بينهم وبين كهنة آمون الذين كانوا يسعون دائماً للتسلط على كل أمور الدولة، ومن أجل ذلك لم يجعلوا مقر حكمهم في طيبة، بل نقلوه إلى الدلتا. وعمدوا أن يقللوا من سلطان آمون بمحابة عبادة كل من الإله "بتاح"، و"رع" وكذلك "ست". وسبب وجود الإله ست بين هذه الآلهة هو أن رمسيس الأول مؤسس هذه الأسرة ومن بعده سبقتي الأول كانا من أهل المنطقة التي تسود فيها عبادة هذا الإله. فأصبحت الآلهة الأربعة آمون، ورع، وبتاح، وست هي الآلهة الرسمية للدولة.

العصر المتأخر

بلغت ثروة الإمبراطورية المصرية أرفع درجاتها في عهد رمسيس الثالث من الأسرة العشرين، ومن ثم ارتفع دخل المعابد المصرية بما كان يقدفه الملوك عليها من غنائم وعطايا وهبات.

وجاء بعده ثمانية ملوك سمو باسم "رمسيس" وكانوا ضعافاً، وحكموا ما يقرب من ٧٥ سنة، وأعطوا الفرصة لازدياد نفوذ الكهنة. فأسسوا أسرة كهنوتية هي الأسرة الحادية والعشرين. فبدأ بهم عصر يُطلق عليه اسم "العصر المتأخر" وينتهي بالأسرة الثلاثين (١١٠٠ - ٣٣٢ ق.م).

وقد عاصر الملك داود وابنه سليمان ملوك الأسرة الحادية والعشرين في مصر، (فقد ملك داود من سنة ١٠١٠ - ٩٧٠ ق.م)، وملك سليمان من نحو (٩٧٠ - ٩٣٠ ق.م) وكان آخر ملوك هذه الأسرة هو "بسوسنيس الثاني" (٩٥٩ - ٩٤٥ ق.م). ولم تصلنا بيانات مفصلة عن ملوك هذه الأسرة سوى أسمائهم: "أمينوموب - أوسوكر - سيامون". وقد آوى أحد ملوك هذه الأسرة هدد الأدومي عندما هرب من وجه يوبأب الذي

ضرب آدوم^(٦٢). والأرجح أن الملك سيامون هو الذي صاهر سليمان، حيث كان ملكاً على مصر في أوائل حكم سليمان^(٦٣). وصعد الملك سيامون إلى "جازر" وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين فيها، وأعطاهها مهراً لابنته امرأة سليمان^(٦٤).

وأدت بعد الأسرة ٢١ الأسرات ٢٢، ٢٣، ٢٤ وكانت أسرات ليبيَّة، استطاعت أن تستقل بمدينة "أهناسيا" وأن تفرض سلطتها على مصر. وكان مؤسس الأسرة الثانية والعشرين هو "شوشق" الأوَّل، والمذكور في الكتاب المقدَّس باسم "شيشق"^(٦٥). واتخذ من "بوسطة" وهي "تل بسطة" الحالية بالقرب من الزقازيق، عاصمة له. ووصلت البلاد إلى هوَّة سحيقة من الضَّعف والتفكك. وهي فترة بائسة انعدم فيها الأمن، وافتقر فيها الاقتصاد، وأعوز الفن فيها الإلهام ودقة التَّنفيذ. وكما قال أحد المؤرِّخين أخيراً: "لم يكن حكم الملوك الكهنة سوى دكتاتوريَّة مجردة من المثل تلبس قناعاً دينياً".

وتولى الأسرة الخامسة والعشرين أحد أمراء النوبة العليا، واستولى على مصر كلها حوالي سنة ٧٢٠ ق م، وأعاد للبلاد وحدتها، وأصبح "أمون" إله الدَّولة العظيم وصاحب السُّلطان المطلق بدرجة لم يسبق لها مثيل. أما فرعون الذي يذكره إشعياء النبي^(٦٦) فهو "شبتكو" أو

٦٢- ١ ملوك ١٤: ١١-٢٢

٦٣- دائرة المعارف الكتابية، الجزء السادس، مرجع سابق، ص ٣٨

٦٤- ١ ملوك ٩: ١٦

٦٥- ١ ملوك ١٤: ٢٥، ١٤: ٢٥، ١٢: ٢، ٥، ٧، ٩. وبدءاً من هذا الفرعون بدأ المصريون في إضافة الاسم الشخصي لفرعون إلى لقبه "فرعون"، ونجد هذا واضحاً في ذكر العهد القديم لأسماء ملوك مصر في الألف الأخيرة قبل الميلاد، مثل: "فرعون نخو" (٢ مل ٢٩: ٢٣)، "فرعون حفر" (إرميا ٤٤: ٣٠).

٦٦- إشعياء ٣٠: ١-٤، ٣٦: ٦، ٣٧: ٩

”شباكو“ والذي تولى عرش مصر سنة ٧٠١ ق م. أما ”ترهاقة“ ملك كوش فهو من أهم فراعنة هذه الأسرة الخامسة والعشرين، وكان معاصراً لحزقيا ملك يهوذا، وسنحاريب ملك آشور^(٦٧). إلا أن الآشوريين قضوا على حكم هذه الأسرة في مصر.

واستطاع ”أبسماتيك“ بعد عقد معاهدة مع ملك الليبيين أن يخلص مصر من حكم الآشوريين الذين المهكموا في صراع مع بابل. وبدأت الأسرة ٢٦ التي يُعرف عهدها بالعصر الصّاوي نسبة إلى ”صا الحجر“ الملاصقة لمدينة كفر الزيات، وكانت عاصمة هذه الأسرة. ومنذ ذلك الحين انتقل مركز الثقل في المملكة نهائياً إلى الشمال، ودخلت مصر العليا في فترة ركود غير واضحة المعالم، بينما أخذت الدلتا في الازدهار المتزايد.

أما فرعون نخو فهو ثاني ملوك هذه الأسرة (٦١٠ - ٥٩٤ ق م)، وهو الذي صعد بجيشه لمحاربة ملك آشور عند نهر الفرات، فاعترض طريقه يوشيا ملك يهوذا، ولكن ”نخو“ استطاع أن يهزم يوشيا ويقتله^(٦٨) في موقعة ”بجدو“ وواصل نخو زحفه شمالاً واستولى على قادش حتى وصل نهر الفرات. ولما سمع ”نخو“ أن شعب يهوذا أقاموا يهوآحاز، وكان من حزب المعارضين لمصر، استدعاه وخلعه عن العرش، وأخذه معه أسيراً إلى مصر حتى مماته، وأقام على عرش يهوذا أخاه ”ألياقيم“ وغير اسمه إلى ”يهوياقيم“ لإثبات خضوعه لمصر، وفرض على يهوذا جزية ثقيلة. إلا أن ”نخو“ لم يستطع أن يستولي على فلسطين وسورية حيث هزمه نبوخذنصر ملك بابل في موقعة ”كركميش“ على الفرات شمالي

٦٧ - ٢ ملوك ١٩: ٩

٦٨ - ٢ ملوك ٢٣: ٢٩؛ ٢ أخبار ٣٥: ٢٠ - ٢٤

سورية^(٦٩). وهزمه مرة أخرى في "حماة" وطرد جيش مصر من سورية^(٧٠)، فاضطر "يهوياقيم" أن ينقل ولاءه من ملك مصر إلى ملك بابل، ويدفع الجزية لملك بابل^(٧١). وهكذا أصبح البابليون سادة غربي آسيا بلا منازع.

ولقد حذر إرميا النبي من الدَّينونة القادمة على مصر، وعلى فرعون نخو^(٧٢). وفي سنة ٦٠١ ق م، زحف "نبوخذنصر" على مصر، ولكن "نخو" استطاع أن يوقف البابليين عند حدود مصر بعد معركة دموية رهيبة^(٧٣).

أما أعمال نخو السلمية فكانت عظيمة، إذ أعاد حفر القناة التي سبق أن حفرها سبيي الأوَّل من النيل إلى البحر الأحمر. وأرسل أسطولاً من البحارة من الفينيقيين للدوران حول أفريقيا من الشرق إلى الغرب - قبل قيام "فاسكو دي جاما" البرتغالي برحلته من الغرب إلى الشرق بنحو ألفي عام - واستغرقت الرحلة أكثر من سنتين، وعندما زار هيرودت مصر رأى حطام الأرصفة التي بناها "نخو" لأسطولها^(٧٤).

وكان رابع ملوك هذه الأسرة هو "فرعون حفر" ابن "أبسماتيك الثاني" وحفيد "نخو" وملك ١٩ سنة (٥٨٩ - ٥٧٠ ق م). وفي عهده أخذ إرميا قهراً إلى مصر إلى "تحفحيس" في الدلتا، وهناك تنبأ بأن نبوخذنصر سيغزو مصر^(٧٥)، وكذلك حزقيال النبي وهو في السبي^(٧٦)،

٦٩- إرميا ٤٦: ٢

٧٠- إرميا ٤٦: ٣- ١٢

٧١- ٢ ملوك ٢٤: ١

٧٢- ٢ ملوك ٢٣: ٢٩؛ إرميا ٤٦: ٢، ١٧

٧٣- دائرة المعارف الكتابية، الجزء السادس، مرجع سابق، ص ٤٠، ٤١

٧٤- نفس المرجع، ص ٤١

٧٥- إرميا ٤٣: ٩- ١٣، ٤٦: ١٣- ٢٦

وهو ما حدث عندما هُزم "حفرع" في ليبيا، وقيام ثورة ضده في مصر، وبعدها هاجم نبوخذنصر البلاد في سنة ٥٦٧ ق م، واستولى عليها.

ولقد شجعت هذه الأسرة هجرة الإغريق إلى مصر. فقد كان ركب الحضارة يتحوّل من المشرق إلى المغرب قاصداً بلاد الإغريق^(٧٧). مما أدى إلى ثراء الإغريق وازدياد نفوذهم في مصر، وسيطرتهم اقتصادياً على البلاد. ولكن هذه الانتعاشة لم تدم طويلاً بعد ظهور كورش الفارسي.

وفي سنة ١٩٠٩ م كشفت بعثة المعهد البريطاني للتنقيب عن الآثار في مصر عن قصر الملك "حفرع" في موقع مدينة "منف" عاصمة مصر القديمة، وتحت تلال الطمي الملاصقة لقرية "ميت رهينة" وهو قصر ضخم ذي بوابة ضخمة، وساحة واسعة، وقاعات تحيط بها الأعمدة الحجرية، وتحف أثرية قيّمة، كما وُجدت بالقصر آثار النيران التي قال عنها إرميا النبي: «وأوقد ناراً في بيوت آلهة مصر فيحرقها» (إرميا ٤٣: ١٢).

الغزو الفارسي لمصر

لم تلبث مصر أن وقعت فريسة أمام جحافل الفرس عندما غزاها "قمبيز" سنة ٥٢٥ ق م، الذي أمر بهدم المعابد التي بناها الشعب على شرف آلهته عقاباً لهم عندما رآهم يحتفلون بعيد الحصاد بعد عودة حملته الفاشلة من الجنوب، فظنهم مبتهجين بمزيمته. وحطم العجل أبسيس^(٧٨)، وشنت الكهان، وألغى الأنظمة والمؤسسات الدينية والسياسية القديمة التي

٧٦- حزقيال ١: ٢٩-٢٦، ٣٠-٢٠، ٢٦، ٣١، ٣٢

٧٧- نخبة من العلماء (د. محمد جمال الدين مختار)، تاريخ الحضارة المصرية، مرجع

سابق، ص ١٠٨

٧٨- اعتقد المصريون القدماء بتجسد "أبسيس" من عجلة بكر بعد حلول روح الإله

"بتاح" فيها.

كانت قائمة في البلاد. فتغير وجه كل شيء، حتى الموسيقى لم تعد تجد هاديتها في الدِّين والقوانين، فلم تبق على حالتها الأولى لوقت طويل، ففقدت وقارها النبيل وبساطتها السَّامية^(٧٩). ولكن ابنه دارا قد أعاد بناء بعض المعابد، هادفاً من ذلك تسهيل استغلال تلك المستعمرة ببعض إجراءات الترضية، فلم تكن مصر مزرعة غنيَّة فحسب، بل كانت أيضاً مفتاحاً لثروات القارة الأفريقيَّة بأسرها. وأصبحت مصر ولاية فارسيَّة، وأسس الفُرس الأسرتين ٢٧، ٢٨.

ويحدِّثنا التَّاريخ عن مدى شهرة علماء وأطباء مصر القديمة في عهد الملك الفارسي داريوس الأول الذي بعد أن أخضع البلاد لحكمه عاد إلى بلاده آخذاً معه كثيراً من الأسرى من علماء وفلاسفة وأطباء مصر، وأحقهم بالمركز الثقافي الكبير الذي أنشأه بمدينة إديسا Edessa (الرَّها)، فقام هؤلاء المصريون بالتدريس في المدارس المنتشرة بهذه المدينة، وبمرور الوقت أصبحت هذه المدينة أكبر مركز للثقافة والعلوم في هذه المنطقة من العالم^(٨٠).

ونجح بعض ملوك الأسرتين ٢٩، ٣٠ أن يخلصوا مصر من الحكم الفارسي الذي دام في مصر قرابة قرنين. إلا أن هذا النَّجاح كان وقتياً لم يلبث أن تضاعل أمام بطش ملوك الفُرس، الذين عادوا ثانية إلى مصر سنة ٣٤١ ق م، ليحكموها بضع سنوات أخرى، قبل أن يدخلها الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ ق م.

وظلَّت الحضارة الفرعونيَّة تصارع البقاء حتى القرن الثالث الميلادي، وتضعفت أساساتها في القرن الخامس على يد البابا ثاؤفيلس

٧٩- فيوتو، وصف مصر، الجزء السابع، ترجمة زهير الشايب، القاهرة، ١٩٨١ م، ص ١٠٣

٨٠- د. سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصريَّة في العصر اليوناني - الروماني،

مرجع سابق، ص ٥٥٥

البطريك الثالث والعشرين ولم تلبث أن اهارت تماماً مع غروب القرن السادس الميلادي.

إطلالة على حضارة مصر الفرعونية

إن زيادة اهتمام المصريين بالمسكن الأبدي عن المسكن الدنيوي لهو أمر يُضرب به المثل، فلا عجب أن كانت مقابر طيبة تضاهي المعابد المعاصرة جمالاً وفخامة. وفي وادي الملوك حفرت مقابر الفرعنة تحت الأرض في ممرات طويلة، وصحون وأهياء وآبار، ونُقشت بمناظر غريبة هي رسوم لمجموعات جنائزية تخص الملوك؛ فثمة فصول عديدة من آدابهم تصور وتشرح الأساليب المختلفة للرّحلات التي سيقوم بها الملك على مركب الشّمس عبر العالم الآخر الذي يموج بكائنات عجيبية^(٨١).

ولقد كانت قناعة المصري القديم بالعالم الآخر، والحياة الأخرى دافعاً قوياً لتقدم الطب لديه، فكانت عملية التّحنيط لحفظ جثة المتوفى من الفساد مجالاً واسعاً لدراسة كل مكونات الجسم الداخليّة، وكثير من وظائف الأعضاء فيه. وكان للجراحة شأن كبير وصار أسلوبها في غاية الدقة والنظام. ولما كان المصري القديم يعتقد أن القلب هو أهم أعضاء الجسم وأنه مركز الانفعال، لذلك لم يعمد المحنطون إلى فصل القلب أثناء عملية التّحنيط فتركوه محله متصلاً بأوعيته الكبرى^(٨٢). وكان ختان الذكور من أقدم العمليات الجراحية في مصر الفرعونية. ويقول هيرودت (٤٥٠ ق م) إن الذين زالوا الختان من أقدم العصور هم المصريون

٨١- جون يويوت، مصر الفرعونية، مرجع سابق، ص ١٥١

٨٢- د. سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر الفرعوني، مرجع

والآشوريون والأحباش ... أما غيرهم من الشعوب فقد عرفوه عن المصريين. وبرغم ذلك لم تكن عملية ختان الذكور فرضاً على الشعب كما صارت كذلك فيما بعد عند اليهود، أو سُنَّة عند المسلمين^(٨٣).

ويقول وارن داوسن: "إن المصريين يتمتعون بأعلى سمعة في كفاءتهم الطبيَّة، وإن حكمة المصريين تتمثل في "الأمثال" ولكنهم أيضاً ذو مقدرة في الفلسفة الحقَّة والعلوم النَّظريَّة، والتَّجريدات، وبقينا أنهم أناس موهوبون، لهم مقدرة فذة في الانجازات العلميَّة ... إن أسس علوم الطبِّ وُضعت في مصر منذ أكثر من خمسين قرناً بما لا يدع مجالاً للشكَّ".

ويقول ر. و. سلولي: "لم يعد خافياً أن علوم الإغريق التي عرفتها الدُّنيا ليست من ابتداعهم، ولكن أولئك الذين كان بهم ظمأٌ إلى المعرفة والرحلة في سبيلها أتوا إلى مصر. وعلى هذه الأرض رأوا المصريين في مواقع العمل وراعهم ما رأوا. هنا على هذه الأرض وجدوا القواعد الأولى في الرياضيات والعلوم التي قاموا بنشرها أخذاً عنهم. فمن خلال الإغريق وصل تراث مصر إلى باقي العالم^(٨٤)".

لقد أثر الطبُّ المصري القديم بدرجة كبيرة على الطبِّ الإغريقي، ويظهر ذلك واضحاً من مؤلَّفات ديسقوريدس سنة ٥٠م، وجالينوس (١٣٠ - ٢٠٠م)، وبلييني (79 - 23 Pliny)، وغيرهم من أطباء الإغريق والرُّومان، حيث نقلوا من البرديَّات المصريَّة مباشرة - عندما وفدوا إليها - كل العلوم المصريَّة إلى بلادهم، وقد لُقنت هذه العلوم بواسطة الإغريق إلى أطباء القرون الوسطى بأوروبا حيث كانت من أهم علوم الطبِّ حتى

٨٣- نفس المرجع، ص ١٣٢

٨٤- د. نعمات أحمد فؤاد، مرجع سابق، ص ٤١

القرن السابع عشر والثامن عشر الميلاديين^(٨٥).

ودليل اقتباس الإغريق القدماء للعلوم الطبية المصرية بنحده واضحاً في البرديات القبطية والجراحية المصرية التي تعد من أهم الدساتير الطبية العالمية وأولها ظهوراً، حيث يرجع زمن كتابتها إلى ما قبل سنة ٣٢٠٠ ق م بقرون عديدة. وفي هذه البرديات نجد الاصطلاحات الطبية التي سمع بها العالم لأول مرة مثل لفظ "المخ" الذي سُمي "جيري" في الطب المصري القديم، حيث ورد اسمه في بردية إدوين سميث Edwin Smith الجراحية بمسافة زمنية تقرب من ٢٠٠٠ سنة قبل ورودها في مؤلفات الإغريق الطبية.

وتقدّم علم التشريح لدي المصريين القدماء فعرفوا عظام الجمجمة وال فقرات العظمية وعظام الظهر والصدر والضلوع والخنجرة والقصبه الهوائية والقلب والنبض والكليتين والحالبين والمثانة والغدة التُخامية والحبل الشوكي وتلافيف المخ والسائل الشوكي وتشريح العين ... الخ^(٨٦).

وبعد العثور على بردية إدوين^(٨٧) التي عُثر عليها سنة ١٨٦٢م وتُرجمت محتوياتها سنة ١٩٢٢م بواسطة العالم الأمريكي برستد عرفنا أسماء بعض الأمراض عند الفراعنة وعلاجها، كما ذكرت البردية عدداً كبيراً من الوصفات الطبية لعلاج أمراض الجهاز التنفسي، والمجاري البولية، وعلاج الأسنان وحشوها بخليط معدني كان يدخل في تكوينه الذهب ... الخ

٨٥- د. سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر الفرعوني، مرجع سابق، ص ١١٤

٨٦- د. سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر اليوناني - الروماني، مرجع سابق، ص ١١٤، ١١٥

٨٧- يرجع تاريخ تدوينها إلى سنة ١٥٥٠ ق.م. وهي معروضة الآن في الجمعية التاريخية في نيويورك.

وانتقلت الحضارة الطَّبيَّة والصَّيدليَّة المصريَّة القديمة إلى كريت، ومنها إلى كل جزر اليونان حيث زادوا عليها وأضافوا إليها. وتكوَّن خليط من الحضارتين الفرعونية والإغريقيَّة تبلور إلى نتاج وتراث حضاري حمل مشعله الأقباط طوال العصر الرُّوماني وإلى ما بعد دخول الإسلام في مصر لقرون طويلة^(٨٨).

وفي أوائل سنة ٢٠٠٢م اكتشفت مقبرة في منطقة سقارة لكبير جراحى مصر القديمة من الأسرة السادسة، وقد عُثِر بداخلها على مجموعة مشارط ومباضع.

لقد قدَّم كثير من سكان اليونان إلى مصر في أفواج كثيرة خلال القرن السَّابع قبل الميلاد وكونوا مستعمرة كبيرة لهم في شمال الدلتا أسموها "نقراطيس"، وتبع ذلك تعلم الكثير منهم كافة العلوم المصريَّة التي كانت تدرس في مختلف المعاهد التعليميَّة العُليا والملحقة بالمعابد الكبيرة وأشهرها مدن أون (هليوبوليس)، ومنف وسايس وأبيدوس وطيبة وغيرها. وبعد حصول هؤلاء الطلاب الإغريق على تعليمهم العالي عادوا إلى مدتهم الأصليَّة ومعهم نسخ من كافة المؤلفات العلميَّة والطَّبيَّة المصريَّة حيث نشروها هناك بدون الإشارة إلى أصحابها الأصليين^(٨٩).

ويقول ديورانت: "حسبنا أن نذكر من معالم حضارتها (مصر) هوضها بالزَّراعة، والتَّعدين، والصَّناعة، والهندسة العمليَّة. وأما في أغلب الظَّن هي التي اخترعت الزُّجاج، ونسيج الكتَّان، وأما هي التي أحسنت صنع الملابس، والحلِّي، والأثاث، والمسكن، وأصلحت أحوال المجتمع وشؤون الحياة. وإن المصريين أوَّل من أقاموا حكومة منظمة نشرت لواء

٨٨- نفس المرجع، ص ١١٥

٨٩- نفس المرجع، ص ١٢٥

السَّلام والأمن في البلاد، وأهمُّ أوَّل من أوجدوا نظام البريد والتَّعداد، والتَّعليم الابتدائي والثانوي، بل إنهم أوَّل من أدخلوا نظام التَّعليم الفني لإعداد الموظفين ورجال الإدارة“.

”وهم الذين ارتقوا بالكتابة، ونهضوا بالآداب والعلوم والطَّب. والمصريون على ما نعرف أوَّل من وضع دستوراً واضحاً للضَّمير الفردي، والضَّمير العام. وهم أوَّل من نادى بالعدالة الاجتماعيَّة، وبالاعتصار على زوجة واحدة، وأوَّل من دعا إلى التَّوحيد في الدِّين، وأوَّل من كتب في الفلسفة، وأوَّل من نهض بفن العمارة والنَّحت، وارتقى بالفنون الصُّغرى إلى درجة الإتقان والقوَّة لم يصل إليها فيما نعرف أحد من قبلهم، ولما باراهم فيها من جاء بعدهم(٩٠)“.

ويقول عميد الأدب العربي د. طه حسين: ”الكنيسة القبطية مجدٌ قديمٌ، فهي في تراثها العريق قد ورثت الحضارة المصريَّة في كافة مناحيها في اللُّغة والأدب والفن، حتى أن من أراد أن يعرف عن مصر القديمة، لا مندوحة له أن يتوقَّف أوَّل ما يتوقَّف عند الكنيسة القبطية، ويتأمَّل تراثها وما حملته في أحضانها عبر التَّاريخ، وما وعته وحافظت عليه من ذخائر الماضي التَّليد“.

الأدب في مصر الفرعونية

أحس المصريون القدماء بأهميَّة الأدب والكتابة، حتى جعلوا للكتابة إلهة سموها ”سيشات“، وزوجوها من إله الحكمة لإحساسهم لما بين

٩٠- د. سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصريَّة في العصر الفرعوني، مرجع

الكتابة والحكمة من علاقة.

وكتبت الدّولة القديمة على أوراق البردي، وكتبت الدّولة الوسطى على ألواح من الخشب أو الفخّار أو الحجر الجيري بالإضافة إلى البردي. وحين أعطت مصر للدّنيا الورق والقلم، حين ابتدعت الكلمة ورسمت الصّورة، كانت الصّورة في مصر كلمة، والكلمة صورة في تركيز حكيم.

ولقد ضاع من الأدب المصري القلم الشئ الكثير، ولكن مع ذلك يقول الأثري المصري الدكتور أنور شكري: "لدينا من الأدب المصري ما يمكن أن يعطي صورة حيّة متعدّدة الجوانب تفوق في قيمتها وعددها ما خلّفته الأمم التي عاصرت المصريين من آثار أدبيّة".

وتشعّب الأدب المصري القلم إلى المواعظ وآداب السلوك والأمثال والحكم الخالدة والمقالات والرّسائل والقصّة القصيرة. ويعتقد علماء الآثار أن مصر هي موطن القصّة القصيرة. وآداب الأناشيد والتّسايع والأغاني والتّمثليّات والمسرحيّات، كما أن مصر هي صاحبة أوّل بحث فلسفي. وأوّل مسرحيّة في آداب الدّنيا هي مسرحيّة منف التي كُتبت سنة ٣٤٠٠ ق م، والمحفوظة في متحف لندن حتى اليوم. فسبقت بذلك الدّراما اليونانيّة بنحو ثلاثة آلاف سنة.

وكان ملوك مصر يحبون الأدب ويقتنون كتبه. والأدب المصري القلم هو حصاد ثلاثة عصور: الدّولة القديمة، الدّولة الوسطى، والدولة الحديثة. أما أبرز آداب الدّولة القديمة فهي متون الأهرام، وهي منقوشة على جدران خمسة من أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة، وقد وفروا لها من ألوان الجمال التعبيري ما جعلها صوراً نابضة حياة كان لها في نفوس المصريين جميعاً وعلى مر العصور مقام كبير.

ومن آداب الدولة القديمة قصة خلق العالم، ومواعظ بتاح حتب، وكاجني، وحديث الشاعر إيور إلى الملك الشيخ بيبي الثاني آخر ملوك الأسرة السادسة. وبرديتان طبيتان (بردية إدون سميت، وبردية إبيرز)، ودراما انتصار حور على أعدائه في الأسرة الثالثة. وهي منقوشة على جدران معبد ادفو، وتحتوي على مقدّمة وثلاثة فصول مقسّمة إلى مناظر وخاتمة. وهي عند الأثري المصري سليم حسن تضارع الدراما الحديثة من حيث تمثيل حوادثها، وحوارها اللطيف، وتضحية فرق المغنين في سبيل إظهار شخصيات الممثلين. هذا يشير إلى أن كل التمثيليات المصرية كانت على ما يظهر تحتوي على تعليمات مسرحية وقوائم بمعدات المسرح.

وآداب الأسرة القديمة هي من النضج والقيمة بحيث يذهب بعض الباحثين إلى القول بأنه لا بد أن يكون لمصر أدب قبل الأسرات أنضجه أصحابه وطوروه، وأن أدب الدولة القديمة لا بد أن تكون سبقته محاولات ومجاهدات فنية كان هو حصادها.

ولقد اتسمت آداب الدولة القديمة بالوضوح والواقعية والصورة وروح الخلق والإبداع، والتشويق والفكاهة، تلك العناصر التي تؤكد مصريتها في الفكر والأسلوب.

أما أبرز آداب الدولة الوسطى فهي دراما التتويج، وهي تقع في ست وأربعين منظرًا. ووصية أمنمحات الأول لابنه سنوسرت الأول، وقصة سنوهي أو سنوحي، والتي يعتبرها الكتاب العالميون ذروة من الأدب العالمي، وقصة الملاح الغريق الذي هبت عليه العاصفة والذي حطمت الأمواج شراعه وحملته إليه، وقذفت به هو نفسه إلى الشاطئ فيقول: "لا رفيق لي إلا قلبي، راقداً في غابة لا أحتضن إلا الفراغ".

أما الدَّولة الحديثة فقد ذهبت بمفخرة تساييح إخناتون وتغنيه بجمال الطبيعة، ومناجاته للشَّمْس، وقد رفرقها باللُّغة الشَّعْبِيَّة لتكون أقرب إلى النَّاس. ولقد أوردنا جانباً منها من قبل.

وعرفت مصر في الدَّولة الحديثة أدب الرِّحلات، وأغاني العُمال والفلاحين والرُّعاة. والأدب التَّعليمي التَّهذيبي ومنه: "إذا كنت في جماعة، جلست في بيت رجل أكبر منك، فتناول ما يعطيك، وضعه بين يديك، وانظر إلى أمامك (٩١)".

ومن تعاليم أمنوبي: "لا تتعب طلباً للمزيد، ولئن جاءك المال مسروقاً، فلا يبيت معك سواد اللَّيل، فإذا أتى الصُّباح لم يعد في بيتك لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالأوز يطير نحو السَّماء (٩٢)".

ومن أدب مصر:

• لا ترفع ابن عظيم على من كان ذا مولد وضع، ولكن خذ لنفسك الرجل لفضائله.

• لا تكن فظاً، فمن الخير أن تكون شقيقاً.

وكان الحكيم "بتاح حتب" يسمي مواعظه: المقولات الجميلة، وكانت بحق جميلة ونفيسة. وفي الأدب المصري قصص على لسان الطير والحيوان تشير إلى الضَّعف الإنساني وعيوب البشر، وتأتي في السِّياق الحكمة والمعاني السَّامية. كتبت مصر هذا قبل "كليلة ودمنة" وقبل "لافونتين".

يقول الملك سنفرو والد الملك خوفو: "اتتوني بمن يحدثني بكلام

٩١- قارن مع سفر الأمثال ١:٢٣

٩٢- قارن أيضاً مع سفر الأمثال: «لا تتعب لكي تصير غنياً، كف عن فطنتك. هل تطير عينك نحوه وليس هو، لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالنسر يطير نحو السماء».

جميل، وأحاديث مختارة ليتهاج قلبي بسماعها". فهجة قلبه في الأدب. ويوصي الملك حيني ابنه الملك مريكارع: "كن فناناً في الكلام لتكون قويا، فإن قوة الرجل في لسانه. وإن الكلام لأقوى من أي قتال". فالملك صاحب الجيوش والخزائن يرى القوة في الكلمة.

ومن أمثال المصريين: "فم الإنسان ينجيه، وكلامه يدعو الناس إلى احترامه". ولقد كان الملك الفنان يحب الكلمات التي تقطر شهداً فأرجأ إنصاف الفلاح (الفصيح) وهو مقتنع بحقه، حتى يسترسل في النغم أي في البلاغة.

كان المصريون أوّل من كتب الأدب لذاته، لقد رفعوا "أمنحوتب" إلى مصاف الآلهة، لا بوصفه مهندساً طبيياً ولكن بوصفه أديباً. وكان على الكاتب المصري القلم، كل كاتب عندما يشرع في الكتابة أن يتزل من قلمه نقطتين من المداد قرباناً لأمنحوتب.

وكان المصريون أيضاً يعتبرون الكتاب أخلد للذكرى من البنين ومن المعابد ومن الأهرامات ومن المال. وتقول إحدى برديات الأسرة التاسعة عشر عن أصحاب القلم: "خلقوا لأنفسهم القبور والأهرامات في قلوب من يذكر أسماءهم. وإن اسماً تتداوله الناس لنافع في الآخرة. إن الإنسان فان، وجثته هباء، وجميع معاصريه يغدون تراباً، ولكن الكتاب هو ذكراه الذي يبقى من فم لقم، إنه لأنفع من بيت مشيد، ومن قبر في الغرب، ومن قصر مدعم، ومن نصب في معبد".

كان لقب "الكاتب" أعظم الألقاب بلا استثناء عند المصريين من عمق إجلالهم للكتابة. ولقد كان "حور محب" قائداً لجيش مصر، ولكنه في مثاله اتخذ هيئة الكاتب المصري وجلسته، هذا هو الشرف

الحقيقي والباقي في عين مصر المتحضرة.

ومن الأدب المصري استمر الأدب الإغريقي والرُّوماني، بل استمد أدب العالم كله من حكمة "بتاح حتب". ويقول ألن جاردنر Alen H. Gardener: "إن الأدب اليوناني لم يقفز إلى الوجود مكتملاً، كما خرجت فينوس من الأمواج، ولا كذلك الفن اليوناني ... إننا لن نعرفهما إلا إذا عرفنا الطريق الذي سلكه النفوذ المصري على التُّوراة وعلى الأدب اليوناني. فمما لاشك فيه أن هذا أو ذاك لم يكن ليوجد بالصُّورة التي كان عليها لولا أثر مصر فيه".

يمتاز أدب مصر بالدقة والوضوح والصدق والبساطة والعذوبة. إن الطباقي في الأدب العربي لفظ ولفظ ضده، ولكن المقابلة في الأدب المصري نظير ونظير يتناغمان^(٩٣).

الموسيقى والغناء في مصر الفرعونية

كانت أوَّل دراسة علمية عن جوانب الحياة المختلفة لمصر، بدءاً من مصر الفرعونية، هي كتاب "وصف مصر" وهي التي قام بها نخبة من العلماء الفرنسيين الذين رافقوا الحملة الفرنسية إلى مصر بقيادة نابليون بوناپرت في السنة الأخيرة من القرن الثامن عشر. وقد ضُمت هذه الدِّراسة في تسعة مجلدات كما سبق أن أشرنا في موضع سابق، من بينها ثلاثة مجلدات (من السَّابع إلى التَّاسع) عن الموسيقى والغناء والآلات الموسيقية في مصر. ضم الجزء السَّابع منها موضوع "الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين". وهذه الأجزاء الثلاثة المشار إليها هي للعالم الموسيقي

جيوم أندريه فيوتو Guillame André Villoteau (١٧٥٩ - ١٨٣٩ م).

يذكر العلامة كليمنس الإسكندري (١٥٠ - ٢١٥ م) في كتابه الخامس "الطبقات": "كانت الموسيقى في مصر، شأنها في هذا شأن الفلك، تدخل في عداد العلوم المقدسة والتي كانت تقتصر دراستها ومعرفة كل فروعها، على طبقة الكهان بصفة خاصة (٩٤)".

ويقول "فيوتو" عن الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين (٩٥):

لماذا نشك في روعة موسيقى القدماء، بينما كل شئ يبرهن لنا أن هؤلاء القدماء قد تجاوزونا كثيراً، ليس فقط في كل الفنون الأخرى كما في الشعر والعمارة والتحت ... الخ والتي لا تزال نرى لها تحت أبصارنا نماذج لها تدعو للإعجاب. بل إن ما بقي من هذه كذلك حتى اليوم لا يزال يستعصي علينا تقليده؛ ولقد كان الأمر هو نفسه بالنسبة لكل من جاءوا مباشرة بعدهم؟ نعترف إذن بضمير مستريح أن هؤلاء الذين أقاموا مثل هذه الصروح وروائع الأعمال، قد كان لديهم ولا بد ذوق أكثر رقة ومبادئ أكثر وثوقاً عما هو لدينا؟ فإذا ما كان مثل هذا التقريظ الذي يكيله أمثال هؤلاء القضاة (المؤلفين القدماء) للموسيقى القديمة قد تجاوز في كثير المديح الذي دجوه لمنتجات الفنون الأخرى فليس ذلك إلا لأن الموسيقى كانت تفوق كل هذه الفنون (في أزمانهم) بقدر كبير.

إن الآلات الموسيقية التي نُقشت على المباني لم تكن هي بالمثل أوّل آلات موسيقية عرفت في مصر، بل ليس من المستبعد أنها كانت مجهولة كلية

٩٤ - انظر: فيوتو، وصف مصر، الكتاب ٧، مرجع سابق، ص ٨٧.

٩٥ - الترجمة هي للمصري النابغة زهير الشايب (١٩٣٥ - ١٩٨٢ م) والحاصل على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٧٩ م، بعد أن أتم ترجمة الكتاب الرابع من موسوعة "وصف مصر".

من قبل المصريين الأوائل طبقاً لما سوف تواتينا الفرصة لملاحظته فيما بعد، عندما نتصدى لتفسير طبيعة هذه الموسيقى في حالتها البدائية ... فنسحن نلمس وجود عصرين وحالتين مختلفتين لفن الموسيقى في مصر القديمة: أما الحالة الأولى فهي تلك التي يتحدث عنها أفلاطون في قوانينه وديودور الصقلي في مكتبته التاريخيّة - الكتاب الأوّل، وهي تلك التي ظلت فيها الموسيقى في حالتها الأولى، بعيدة عن التحريف. أما المرحلة الثانية ويتحدّث عنها كذلك ديودور الصقلي فهي التي قامت فيها ممارسة الموسيقى ضاربة عرض الحائط بالمبادئ القديمة، وقد أدت هذه إلى انحدار هذا الفن حتى أدنى درجات التفسّخ والفساد. ويحدّد هذا التّمييز بطبيعة الحال التّقسيم الذي قمنا به في عملنا. ولهذا السّبب فإننا قد ضمّنا المرحلة الأولى لموسيقى مصر القديمة كل العصر الذي انقضى منذ نشأة الحضارة المصريّة ومنذ ظهور أولى ترانيمها حتى العصر الذي أحدث فيه أجاناب، دخلوا هذا البلد، بعض تحوُّرات أو انحرافات في أخلاق المصريين، فبدل هؤلاء أو غيروا من عاداتهم وتعودوا نتيجة لذلك على أغاني أخرى وآلات موسيقية أخرى، كانت كلها أغنيات هؤلاء الأجاناب والآهّم، وحصرنا المرحلة الثانية في كل الزّمن الذي انقضى منذ التغيرات التي حدثت في موسيقاهم حتى الوقت الذي تقلّصت فيه مصر نفسها لتصبح مجرد إقليم من أقاليم الإمبراطوريّة الرومانيّة.

ليست لدينا موسيقى منذ نحو ألفين إلى ثلاثة آلاف عام، ومع ذلك فحتى لو كان لدينا اليوم شيء منها فمما لا جدال فيه أننا كنا سنلمس - لحد يدفعا إلى الاعتراف بالحقيقة - أن الموسيقى الأقدم كانت هي الأكثر جمالاً ونضجاً. ويقول أفلاطون: "إن هذا الفن في مصر قد ظل لوقت طويل يحتفظ هناك بطابعه الأصليّ".

لم يكن يُعترف في مصر القديمة بأغنيات جميلة، إلاّ تلك التي كانت

تتفق مع الفضيلة، أما الأغنيات الأخرى فكانت تُلفظ وتُنحى وكان مؤلفوها ينالون العقوبة التي يستحقونها... وكان لكل ضرب من ضروب الغناء قانونه الخاص به، فكان هناك قانون لطريقة نظم وأداء التراتيل، وهناك بالمثل قانون لأغنيات الصلوات ولأغنيات الضَّراعة والمديح التي كان النَّاس يتوجهون بها إما إلى الآلهة وإما إلى الموتى الذين تميزوا أثناء حياتهم بالفضائل والأعمال الخيرة، ولم يكن يُباح بمدح على هذا النحو لأولئك الذين لا يزالون على قيد الحياة^(٩٦).

يقول ديودور الصَّقلي: عند موت أحد الملوك تصبح مصر كلها في حالة حداد، ويمزق كل إنسان ملابسه، وتُغلق المعابد، ويتوقف تقديم الأضحيات، وتُلغى الأعياد مدة اثنين وسبعين يوماً، ويقوم رجال ونساء، يبلغ عددهم مائتين أو ثلاثمائة، يغطي الطين رؤوسهم، ويلتفون حول صدورهم بقماش أبيض، بأداء أغانٍ جنائزية جيدة الإيقاع والتنغيم، لمرتين في اليوم الواحد، وتتحدث هذه الأغنيات عن فضائل الميت ومناقبه. وحين يذكر ذلك فإنه لا يذكر لنا قط أن هذا الغناء كانت تصحبه آلة موسيقية من أي نوع^(٩٧).

وقد ترك لنا هيرودت وصفاً للاحتفالات الجنائزية التي أقيمت لرجل من عامة الشعب، أما الاختلاف الوحيد الذي نجد بين روايته هنا، وبين ما يخبرنا به ديودور الصَّقلي خاصاً بجنازة أحد الملوك، فهو أن الحداد لم يكن عاماً وأن عدد الموجودين بالحفل كانوا أقل، وأن أهل الميت كانوا يسكبون الدُموع وهم يغنون، لكنه لا يورد أي ذكر لموسيقى آليه. كما لم يرد ذكر لذلك في حفلة جنائزية أخرى تحدث عنها ديودور تمت في

٩٦- فيوتو، وصف مصر، مرجع سابق، ص ٨١ وغيرها.

٩٧- نفس المرجع، ص ٩٠

جزيرة فيلة إلى ما وراء الشَّلال الأوَّل.

ولم يكن الإغريق - وهم الذين أخذوا عن المصريين كل حفلاتهم الجنائزيَّة - يستخدمون الآلات الموسيقيَّة قط في حالات مشاهمة، بل كانوا يقتصرون في الأزمنة المتأخرة على أن يصحبوا الميت إلى المقبرة وهم ينشدون ترانيل تُسمى "مرثيات".

إذاً، نخلص إلى القول أن الحالة الأولى لفن الموسيقى في مصر كان محاكاة للتقاليد الحميدة وتعبيراً عنها، يجسدها عن طريق الصوت، إذ لم تكن الموسيقى الآلية تنتج إلا بفعل أنغام غير حيَّة تصدر عن أجسام لا حياة فيها، فلم يكن بمقدورها أن تتفق مع الموسيقى المصريَّة القديمة، التي كان غرضها يتعارض بشكل تام مع الغرض الذي من الموسيقى الآلية.

كانت الموسيقى المصريَّة القديمة لصيقة بالشَّعر وملتحمة به، وعناصرها المتكاملة كانت الكلمات المنطوقة بلحن ذي إيقاع، وموضوعها كان هدهدة العواطف وتنقيف العقل والتَّسامي بالروح، وأنها كانت تهدف بالنهاية إلى الإيحاء بالخلق الطيب، والسُّلوك المستقيم، أما وسائلها لبلوغ هذا الهدف فكانت الحكمة والفضيلة والدِّين والقوانين، أما كل ما كان غريباً على هذه الأمور فلم يكن ليأثف معها قط^(٩٨).

فكانت القوانين تحظر الرِّيادة البالغة والتنوُّع الشَّديد في الأنغام، لكي تستطيع أن تصور حالة نفس الإنسان العاقل المعتدل المتسامح القوي الشُّجاع^(٩٩). من البديهي أن الصَّوت - بين كل الآلات الموسيقيَّة - هو أوَّلها وأكثرها طبيعيَّة، وأن الآلات الموسيقيَّة الأخرى لم يتم ابتكارها إلا

٩٨ - نفس المرجع، ص ٩٨

٩٩ - نفس المرجع، ص ١٠٤

بعد وقت طويل للغاية من اكتشاف الغناء.

وحتى زمن سيزوستريس (سنوسرت الثالث) من الأسرة الثانية عشر لم يكن المصريون بعد يعرفون سوى أربعة أنواع من الآلات:

١ - القيثارة ذات الأوتار الثلاثة: ولم تكن هذه النغمات الثلاث لتضر باللحن، أما عندما فكر الناس في عدد أكبر من الأوتار، وأمکن الفنان أن ينوع النغمات على هواه، فقد تخلق نوع آخر من الموسيقى لم يعد يرتبط بشئ بمبادئ اللغة المنطوقة. وحيث كان بمقدور كل امرئ أن يعدل فيها طبقاً لذوقه الخاص، فإنه لم يعد يسترشد إلا بلذة الأذن، بل بالخيلاء والميل إلى التبدل... وسرعان ما نسى الناس حتى تذكر المبادئ الرئيسية لفن الموسيقى ذاته، بفعل العادة التي اكتسبها من هذا الفن الوليد، وهو فن صناعة محض.

٢ - الدف: وهو يستخدم في ضبط إيقاع النغم أو الرقصات. ويذكر العلامة كليمنس الإسكندري (١٥٠-٢١٥ م) في كتابه "المربي" أن الآلة الوحيدة التي يُتفق على نسب اختراعها للمصريين هي الدف^(١٠٠).

٣ - البوقسان أو البوق: للإعلان عن موعد الصلوات والأضحيات والأهله أو الأعمار الوليدة، ولدعوة الشعب للاجتماع في المناسبات الاعتيادية عن الحياة المدنية أو لإعطاء إشارة ما للجيش.

٤ - التفير: عندما يتصل الأمر ببعض الأمور الهامة التي تتطلب إسهام الشعب كله.

وهذه على الأقل هي الآلات الموسيقية التي حملها العبرانيون معهم في هذه الفترة عند هروبهم من مصر بعد أن أقاموا بها أكثر من أربعمئة سنة.

وتؤكد كل الشواهد أن هذه الأنواع الأربعة كانت هي أوَّل الآلات المعروفة، ولم يكن قداماء المصريين يعرفون غيرها في زمن موسى^(١٠١).

وفي غيبة البراهين المباشرة التي تؤكد أن الموسيقى الآليَّة كانت مجهولة من المصريين، فإننا قد أقمنا أحكامنا على صمت كل المؤلفين القدامى عن ذكر الآلات الموسيقيَّة عندما كانت تواتيهم الفرصة للحديث عن موسيقى هذا الشَّعب، وعن الحالة التي كان عليها هذا الفن لدى العبرانيين عند خروجهم من مصر^(١٠٢).

وبعد أن دخل الفرس البلاد واحتلوها قرابة قرنين من الزَّمان، فقد تغيَّر كل شيء وتبدَّل الحال من حال إلى حال. وبعد أن كانت الموسيقى تلقى في الماضي احترام المصريين باعتبارها نعمة من الآلهة، بدأت منذ ذلك الوقت - وقد تغيرت صورتها وتغير الغرض منها - تلقى منهم الصَّد والازدراء، إذ لم يعد من شأنها إلا أن تؤدي إلى رخاوة النَّفس وتلف الأخلاق. فالتقائق النقيضة لموسيقى المصريين القداماء كانت هي طابع الموسيقى الآسيويَّة، تلك التي كانت شديدة التنوع، كثيرة الأنات، رخوة متراخية، وهي موسيقى زاخرة بالأنغام التي نشأت وترعرعت في آسيا. هذه هي الموسيقى التي دخلت مصر مع مجيئ الفرس عندما أصبحوا سادة البلاد، وهي تلك التي رفضها المصريون^(١٠٣). وإن رسوم بعض الآلات الموسيقيَّة التي يراها المرء على الجدران الدَّاخليَّة للجبَّانات التي تجاور أهرام الجيزة، إما أنها قد رُسمت فيما بعد على يد الفرس، أو على يد الإغريق الذين أدخلوا إلى مَصْر عادة استخدام النَّاي الطويل.

١٠١ - نفس المرجع، ص ١٠٩

١٠٢ - نفس المرجع، ص ١٣٤

١٠٣ - نفس المرجع، ص ١٠٤

كان هذا النوع الأخير من الموسيقى، على الدوام، نذيراً بالانحلال الإمبراطورية، أو كان هو مقدمة لهذا الانحلال. ولقد نشأت هذه الموسيقى في آسيا الصغرى، وكانت ممالك هذه البلاد في أدنى درجات الاستقرار أو كانت بالأحرى مهترئة؛ وبعد مرور وقت قصير من انتقال هذه الموسيقى إلى اليونان تغيرت الحكومة القديمة للبلاد، واهتزت البلاد بفعل الحروب الدأخلية. وكان أفلاطون على حق حين يقول بأنه لا يمكن المساس بمبادئ الموسيقى دون أن يُصاب نظام الحكم القائم في دولة ما بخاطر جسيم.

ونخلص من ذلك إلى أن موسيقى قدماء المصريين في حالتها الأولى، والتي كانت تهدف إلى اعتدال وضبط العواطف والانفعالات، كانت بالضرورة مناسبة للغاية ونافعة، تحقق سعادة لهذه الشعوب، وأما على العكس من ذلك في حالتها الثانية قد جاءت بالضرورة كارثة مدمرة^(١٠٤).

تربية النشء في مصر القديمة

اعتنى المصريون القدماء غاية الاعتناء بتعليم أطفالهم، ولم يكن الأطفال يحصلون على أي تعليم حتى بلوغهم السنة العاشرة من أعمارهم، بخلاف ذلك الذي كان ينتقل إليهم عن طريق المحاكاة أو الإقتداء، إذ كان يكفي قبل بلوغهم هذه السن، بأن ينشأوا على أن يُغنوا المبادئ العامة والأمثلة السائرة التي تلخص الحكمة أو تحض على الفضائل التي كان يُغنيها الرجال الناضجون، والتي كان يعلمها الشيوخ^(١٠٥). أما عند بلوغهم سن العاشرة فكانوا يتعلمون القراءة لمدة سنوات ثلاث، وعند بلوغهم الثالثة عشرة كانوا يتعودون على ممارسة الألعاب الرياضية

١٠٤ - نفس المرجع، ص ١٣٧

١٠٥ - أفلاطون، القوانين، الكتاب الثان.

والتوقيع على أوتار القيثارة، وكان المصريون يَحْتَمون أن يمضي الأطفال في ذلك ثلاث سنوات، دون أن يكون مسموحاً لوالد الطفل، أو حتى للطفل ذاته، سواء عن طيب خاطر من جانبه أو نفور، بأن ينفق في ذلك أكبر أو أقل من الوقت الذي نص عليه القانون.

وكان علم الفلك يشكّل - إلى جانب تعلم الموسيقى والرياضة البدنيّة - واحداً من علومهم الأساسيّة، حيث كان هذا العلم ضرورياً للغاية بالنسبة لهم لتنظيم أعمال الزراعة، والتي ترتبط في مصر بفيضان النيل الذي كانت مدته، وحركة تزايدده، وارتفاع منسوبه، ومدة بقاءه، يمكن الاستدلال عليها - جميعاً - عن طريق ملاحظة النجوم.

ولقد تربى موسى على هذا النحو في بلاط فرعون مصر^(١٠٦)، ثم تعلم القراءة في سن العاشرة؛ وبعد ذلك تعلم الحساب والهندسة والموسيقى بكافة أشكالها، وتشمل على الموسيقى الهارمونيّة والإيقاعيّة والصوتيّة وموسيقى الشّعْر (البحور والأوزان)، ثم درس الطب. وبعد أن تلقى كل العلوم المدنيّة والعسكريّة^(١٠٧)، تلقى على يد أكثر أساتذة مصر شهرة دراسة العلوم الفلسفيّة والآهوت. ولم تكن هذه لتدون إلاّ بحروف هيروغليفيّة، إلاّ أن العَلَمين الأخيرين لم يكونا يدرّسان للعامة، فلم يُلقنا إلاّ لأطفال الملوك ولأولئك الذين لهم الحق في تولي العرش مثل طبقة الكهنة التي كان الحاكم أو الأمير يُختار من أبنائها على الدوام، ولعل هذا هو السبب في أن سترابون وكثيرين آخرين قد وصفوا موسى بأنه كاهن

١٠٦ - انظر: أعمال الرسل ص ٧

١٠٧ - تبحر موسى في كل العلوم السياسيّة والدينيّة، وكان نبياً ومشرعاً ماهراً. وعالمًا بفن إصدار الأوامر وقيادة الجيش وإعداد وخوض المعارك. وكان في الوقت نفسه رسولا وسياسيا وفيلسوفاً.

أو نبي مصر (١٠٨). إذ تهذب موسى بكل حكمة المصريين.

* * *

عند هذا الحد ينتهي نظرياً عصر مصر الفرعونية بما خلفه من حضارة ورقية وفنون وآداب وعلوم، لازال العالم يشهد لها حتى اليوم. ويجب ألا ننسى أنه إن كان عصر مصر الفرعونية قد انتهى من الوجهة التاريخية إلا أنه امتد متغلغلاً في مناحي حياتها حتى اليوم، يحتوي فيه كل العصور والحضارات التالية له. والتي لم تكن إلا صوراً متنوعة له. إذ استطاعت حضارة مصر الفرعونية أن تضيء على كل ما تلاها من عصور سمة متفرّدة من تراث الملكية الفرعونية القديمة.

مخلق عن المتحف المصري

يعد المتحف المصري من أكبر متاحف العالم، ورغم أن بناءه لم يبدأ في عهد والي مصر محمد علي باشا، إلا أن قصته تبدأ من هناك، حيث أصدر الديوان الملكي مرسوماً مهماً في سنة ١٨٢٠م لمنع الأجناب من العبث بالآثار المصرية ونهبها وتهريبها إلى الخارج. وكان هذا المرسوم الملكي هو الإشارة الأولى بالاهتمام بالآثار المصرية القديمة التي كانت متاحة لمن يعثر عليها، وملك من يسافر بها إلى خارج البلاد!!.

وفي سنة ١٨٢٨م منح محمد علي لعالم الآثار الفرنسي الشهير شامبليون حق التنقيب عن الآثار في مصر، فاكشف خمسين موقعاً وكتب ستة مجلدات عن صروح مصر والنوبة، وفسر الحروف الفرعونية القديمة

على حجر رشيد. كما لفت نظر الوالي محمد علي إلى ضرورة الحفاظ على آثار مصر من التَّهَب والسَّرقة وعمليات الحفر العشوائية، فاختار رفاعة رافع الطهطاوي سنة ١٨٣١م مسئولاً عن حفظ الآثار والحفائر في مصر. وكانت هذه هي المرَّة الأولى التي تهتم فيها مصر بما فيها من الكنوز والآثار، تبعه مرسوم بإنشاء دار للآثار المصريَّة في منزل الدفتردار بالقرب من بركة الأزبكيَّة في ١٥ أغسطس سنة ١٨٣٥م، وُضعت فيها الآثار المكتشفة كأوَّل متحف مصري. ولكن المتحف لم يحتفظ بما فيه كثيراً من الوقت، فقد ذهب أغلب ما فيه كهدايا خاصة للملوك والسلاطين. وكان آخرهم ولي عهد النمسا مكسمليان الذي أبدى إعجابه بالآثار المصريَّة لوالي مصر عباس الأول وكان في زيارة له، فأهداه كل ما تبقى من المتحف وكانت ٧٢١ قطعة أثرية، أخذها معه إلى النمسا، ومازالت موجودة في متحفها هناك.

ولا يوجد حصر دقيق بعدد الآثار المصريَّة التي ذهبت إلى مدن وعواصم العالم في ثلاثة آلاف سنة وحتى الآن! سواء عن طريق السَّرقة أو التهريب أو الهبة أو الهدية.

لقد دأب حكام مصر من ألف سنة قبل الميلاد على اعتبار كنوز مصر ملكية خاصة، يستخدمون بعضها ويهدون بعضها، ويبيعون بعضها، ولم يمنع قرار الوالي محمد علي باشا السابق ذكره من إغلاق ملف نزيف الآثار المصريَّة.

فقد أرسل الإنجليز وفداً إلى مصر حصل على مخطوطات قبطية نادرة، وسافر بها إلى لندن، فأوفدت فرنسا بالمثل شاباً مولعاً بالآثار المصريَّة اسمه "أوجست ماريت" لم يعد إلى فرنسا بعد ذلك، بل ظل في مصر ودُفن بها بجوار الآثار التي يجدها، ومازال جثمانه موجوداً في حديقة المتحف

المصري بميدان التحرير.

بدأ "ماريت" مشواره مع الآثار المصرية بعمل حفائر في منطقة سقارة بالأموال التي جاء بها من فرنسا، وقام بتهريب كل اكتشافاته إلى باريس عن طريق الإسكندرية، وظل سنوات طويلة يسرق لبلاده كل ما يجده من آثار حتى حصل على موافقة الوالي سعيد باشا بواسطة صديق مشترك هو "ديليسيبس" على منصب "مأمور لإعمال العاديات في مصر"، وكان ذلك في ١ يونيو سنة ١٨٥٨م. وفي ١٨ أكتوبر سنة ١٨٦٣م في عهد إسماعيل باشا استطاع "ماريت" لدهائه وصبره ودأبه على إنشاء متحف مصري جديد اختار له مخازن بولاق، وتكفلت الحكومة الفرنسية بتجهيزه وتأثيثه.

ومنذ ذلك اليوم تحوّل "ماريت" في نظر المصريين من لص آثار إلى عاشق متيمّ بها، يبذل كل ما يملك من وقت وجهد وخبرة للحفاظ على الآثار المصرية. ومات "ماريت" سنة ١٨٧٨م.

في سنة ١٨٨١م حضر إلى مصر خلفاً "لماريت" فرنسي آخر هو "مسيو ماسبيرو" والذي منحنا اسمه فيما بعد لمساحة مهمة من شوارع مصر على نهر النيل، وسعى لنقل آثار متحف بولاق إلى مكان جديد كان هو سراي إسماعيل باشا بالجيزة. بدأت عملية النقل سنة ١٨٨٩م في عهد إسماعيل باشا، وانتهت في سنة ١٨٩١م في عهد الخديوي محمد توفيق، ولكن السراي الملكي لم تستوعب عظمة التّاريخ المصري، وكانت ٩١ حجرة ملكية بالقصر ليست كافية لاستيعاب حجم القطع الأثرية، ولا مهيأة لحمايتها من السرقات والحرائق. فأعلن مجلس النظّار في مارس سنة ١٨٩٣م عن تخصيص مكافأة مالية قدرها ألف جنيه مصري لمن يقدم أحسن تصميم لبناء متحف مصري جديد يتكلف ١٢٠ ألف جنيه.

وأعلن عن المسابقة العالميَّة لتصميم المتحف، فتقدم ٨٧ متسابقاً، فاز فيها بالجائزة الثانية سبعة مصممين فرنسيين، استخدموا الأسمنت المسلَّح في البناء لأول مرَّة في مصر، وحُجبت الجائزة الأولى لعدم توافر تصميم يستحقها، ووضع مجلس النظارة ميزانية ١٢٠ ألف جنيه مصر لتأثيث المتحف وصلت فيما بعد إلى ٢٤٠ ألف جنيه عند الانتهاء من إنشائه سنة ١٩٠٢م، وكان قد بُدء في بنائه في ٧ يناير سنة ١٨٩٧م.

وضع عباس حلمي الثاني حجر الأساس، ورفض سعيد باشا خديوي مصر زيارة الآثار والمومياءات باعتبارهما "حرمة أموات" لا يجب اختراقها، وفعلها من قبله الخديوي إسماعيل الذي رفض أن يخطو عتبة متحف بولاق عند افتتاحه في سنة ١٨٦٣م، واكتفى بانتظار ضيوفه خارجه حتى لا يزعج الأموات الذين حُنطت أجسادهم داخله.

إننا لا نملك في الحقيقة ميراً من الغيرة على آثارنا، ولم نقع يوماً في حبِّها، ولم نضعها في التَّقدير المناسب لها. هي بالنسبة لنا ليست أكثر من تاريخ قديم نستدعيه وقت الحاجة للتَّفَاخر بماضي أجدادنا، ونحن بعيدون كل البعد عن أمجادهم ومآثرهم. ليست آثارنا أكثر من نسخ مقلَّدة طبق الأصل نبيعها للسِّيَّاح على الأرصفة، لذلك لا يذهب المصريون ليشاهدوا آثارهم أو يشموها أو يلمسوها أو يحلموا بحضارة تشبهها من صنع أيديهم^(١٠٩).

الفصل الثَّاني

مصر من عصر الإسكندر الأكبر
حتى دخول المسيحية

تمهيد

اتجه الإسكندر الأكبر (٣٣٢ - ٣٢٣ ق م) إلى مصر بعدما عرف عن تدميرها المستمر ضد الفرس، ودخلها سنة ٣٣٢ ق.م، فأظهر احترامه الكامل لديانة المصريين، وقدم القرابين لألهتهم. وسافر إلى واحة سيوة، حيث أعلنه كهنة معبد آمون ابناً للإله. فدخلت مصر عصر الحضارة الهيلينية.

ومنذ زمن الإسكندر الأكبر كان يوجد في مصر قسمان من الشَّعب متميزان عن بعضهما غاية التَّمَايز:

الأوَّل: هم المصريون الوطنيون الذين يسكنون صعيد مصر على امتداد نهر النيل ويتكلمون القبطية.

الثَّاني: هم الأجانب الذين يقطنون الدلتا والمدن السَّاحِلِيَّة إلى جوار المصريين من ساكني البلاد، باستثناء الإسكندرية التي ظلَّت مدينة للأجانب منذ أن بناها الإسكندر حتى إلى عصر البيزنطيين في زمن مجمع خلقيدونية (حوالي ثمانية قرون). وهم يمثلون الطَّبقة الحاكمة للبلاد، ويتكلمون اليونانية.

أولاً: عصر البطالمة

لما مات الإسكندر تولى ابنه بطليموس الأوّل (٣٢٣ - ٢٨٥ ق م)، والذي عُرف باسم (سوتر)، حُكم مصر، وقام بإنشاء جامعة علميّة ضخمة بمدينة الإسكندريّة، وضم إليها الكثير من الفلاسفة والمفكرين اليونانيين. وقامت الجامعة بتدريس الفلك والرّياضيّات والطب والطبيعة والكيمياء والصّيادلة والحساب والهندسة والتّاريخ والجغرافيا والبلاغة والفلسفة والموسيقى وغيرها. وخلفته أسرته، وهو ما عُرف باسم "عصر البطالمة" (٣٢٣ - ٣٠ ق م).

وبعد الإسكندر الأكبر جاء فيليب أريداوس (٢٢٣ - ٣١٦ ق م)، ثم الإسكندر الرّابع (٣١٦ - ٣٠٤ ق م)، ثم بطليموس الأوّل (٣٠٤ - ٢٨٣ ق م).

وفي عهد بطليموس الثّاني (فيلادلفوس) (٢٨٢ - ٢٤٦ ق م) بلغت مصر ذروة توسعها الخارجيّ. وفي عهده أُلّف الكاهن المصري مانيتون السّمودي تاريخ الأسرات الفرعونيّة. وفي عهده أيضاً كان ارتقاء العلوم والمعارف، وإنشاء مكتبة الإسكندريّة.

وفي عصر بطليموس الثّالث (يورجيتس) (٢٤٦ - ٢٢٢ ق م) استولت مصر على سوريا وبرقة وبلاد النوبة، فأصبح للبطالمة إمبراطوريّة واسعة كانت على حساب الفلاح الذي أثقل ظهره بالضرائب الفادحة.

ومنذ أيام بطليموس الرّابع (فيلوبساتور) (٢٢١ - ٢٠٣ ق م)، بدأ انحلال الدّولة، وتزعّم أمراء طيبة عدّة ثورات جعلتهم في حكم المستقلين

في الجنوب^(١). فانفصلت طيبة عن باقي مصر لمدة عشرين عاماً.

وفي عهد بطليموس الخامس (إيفانيس يوخاريسستوس) (٢٠٢-١٨٠ ق م) بزغ نجم الإمبراطورية الرومانية التي استولت على كثير من مستعمرات مصر بالخارج، وفرضت سيطرتها على الملك. وعمت الثورات الشعبِيَّة، واضطربت شؤون الحكم. وتوفي سنة ١٨٠ ق م.

وحكم بطليموس السَّابع (نيوس فيلوباتور) سنة ١٤٥ ق م لعدة أشهر قليلة، إذ قتله عمه بطليموس الثامن (يورجيتس الثاني) وتولى الملك من بعده، وإذا انقلب الشعب عليه هرب إلى قبرص تاركاً زوجته كليوباترا الثالثة تحكم مصر باسمه. وبعد سنتين عاد وتوفي سنة ١١٦ ق م.

ولما جاء بطليموس التَّاسع (سوتر الثاني) هرب إلى قبرص إثر ثورة شعبية طارده بعد أن ألبت أمه كليوباترا الثالثة الشعب ضده، وحكمت البلاد مع ابنتها بطليموس العاشر (الإسكندر الأوَّل)، ولما قُتلت سنة ١٠١ ق م انفرد بطليموس العاشر بالحكم حتى وفاته سنة ٨٨ ق م. فعاد بطليموس التَّاسع وتمادى في اضطهاد المصريين، فقادت مدينة طيبة الثورة ضده، وقتلوه سنة ٨٠ ق م^(٢).

بعد وفاة بطليموس التَّاسع سنة ٨٠ ق م انفردت زوجته برنيكي الثالثة بالحكم وكانت محبوبة من الإسكندريين، ولكن إمبراطور روما أمرها بالزواج من أحد أبناء بطليموس العاشر ونودي به ملكاً على مصر تحت

١ - حسين فوزي، سندات مصري، جولات في رحاب التاريخ، دار المعارف، القاهرة،

١٩٥٩م، ص ٣٦٠

٢ - وبذلك يكون بطليموس التاسع قد حكم من سنة ١١٦-١٠٧ ق م، ومن سنة ٨٨-٨٠ ق م. أما بطليموس العاشر فقد حكم مع أمه كليوباترا الثالثة سنة ١٠٧ ق م، حتى قتلها سنة ١٠١ ق م، وحكم بمفرده حتى مقتله سنة ٨٨ ق م.

اسم بطليموس الحادي عشر (الإسكندر الثاني)، ولم يلبث أن قتلها سنة ٨٠ ق م، فثار عليه الإسكندريون وقتلوه في نفس السنة، وأقاموا أحد أبناء بطليموس التاسع ملكاً على مصر تحت اسم بطليموس الثاني عشر.

حكم بطليموس الثاني عشر (الزُّمار) مع زوجته كليوباترا السادسة سنة ٨٠ ق م، وفي سنة ٥٩ ق م، أصبح يوليوس قيصر على روما فأجبر بطليموس الثاني عشر على دفع مبلغ كبير من المال ليعترف به ففعل. ثار عليه الإسكندريون فهرب إلى روما سنة ٥٨ ق م، وأقيمت ابنته برنيكي الرابعة ملكة على مصر.

ولما عاد بطليموس الثاني عشر إلى مصر قتل ابنته برنيكي وأنصارها وأشرك معه في الحكم ابنته الأخرى كليوباترا السابعة وابنه بطليموس الثالث عشر، وتوفي سنة ٥١ ق م.

تولى بطليموس الثالث عشر حكم مصر سنة ٥١ ق م وهو في العاشرة من عمره، وتزوج أخته كليوباترا السابعة وكانت في الثامنة عشر من عمرها، وفي عهده اقتطعت روما قبرص من مصر، وفي عهده تم إنشاء معبد ادفو. ولقوة شخصية كليوباترا أخته صارت هي الملكة الفعلية لمصر.

وهكذا يلحظ القارئ مدي التدهور الذي وصلت إليه مصر بعد أن صارت مُهاباً للغرباء، فجلس على عرشها في هذه الفترة بعض ملوك من الأطفال! مما أفسح المجال لكثيرات من النساء أن يحكمن البلاد.

قدم يوليوس قيصر إلى الإسكندرية وراء بومبي الذي هرب منه إلى مصر، وفيها قتل بومبي، فأقام يوليوس في مصر معتبراً إياها ولاية رومانية.

وفي سنة ٤٨ ق م نزل يوليوس قيصر بالإسكندرية، وناصر كليوباترا

على أخيها بطليموس الثالث عشر، الذي قهرته جنود قيصر وغرق في النيل. وعندما عُين قيصر دكتاتوراً في روما، عين في سنة ٤٧ ق م أخاً ثانياً لكليوباترا شريكاً لها في الحكم هو بطليموس الرابع عشر، وكان ابن أحد عشر عاماً، فقتل بتدبير أخته، التي أقامت طفلها قيصار يون الذي أنجبته من قيصر، شريكاً لها وهو بطليموس الخامس عشر في سنة ٤٥ ق م.

بانتقال السُّلطة في روما ليد أنطونيوس وأوكتافيوس اقتسما الإمبراطوريَّة بينهما، فاحتص أنطونيوس بالشرق وأوكتافيوس بالغرب. وساءت العلاقة بين أنطونيوس وأوكتافيوس لتطليق الأوَّل أخت أوكتافيوس وزواجه من كليوباترا، فأعلن الحرب عليه، وهزمه في موقعة أكتيوم البحرية سنة ٣١ ق م. وحاولت كليوباترا إيقاع أوكتافيوس في حبالها فلم تفلح، فقتلت نفسها، وقتل أوكتافيوس قيصرون، وبذلك سقطت مصر في حوزة الرومان كولاية تابعة لروما في أوَّل أغسطس سنة ٣٠ ق م^(٣).

حالة البلاد في عصر البطالمة

ظل الشَّعب محتفظاً بلغته القديمة التي أصبحت القبطيَّة هي آخر صورة لها. كما ظلَّ المسجَّلون يستخدمون الديموطيقيَّة حتى منتصف العصر الروماني. وحافظ الكهنة محافظة أمينة على تقاليد الهندسة المعماريَّة والفنون التشكيلية الموروثة من آلاف السنين، وعلى المعتقدات والطقوس الموروثة من الأسلاف. ومن ثم بُنيت المعابد الكبيرة في دندرة وفيلة وادفو من القرن الثالث إلى الثاني قبل الميلاد. واستمر بناء المعابد الفرعونيَّة كمعبد إسنا حتى سنة ٢٥٠ بعد الميلاد.

ولقد وضع البطالمة سياسة صارمة لاستغلال كل موارد البلاد في

٣- د. سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر اليوناني - الروماني، مرجع سابق، ص ٢٢٠ - ٢٢٥

تكوين جيش وأسطول قوين لتكوين دولة وإمبراطورية كبيرة في حين كان الشعب المصري أضعف الشعوب وأتعسها نتيجة لتعسف الحُكَّام. ومنذ عهد البطالمة من السَّابع إلى الثاني عشر ظلت الثورة المصريَّة مشتتة وانهمك الحُكَّام في القضاء عليها، فازدادت مصر ضعفاً وبالتالي ازداد نفوذ الرُّومان فيها.

وفي عصر البطالمة حدثت تغيرات طفيفة في التَّقسيم الإداري للبلاد، فقد كانت مصر مقسَّمة إلى مقاطعات عددها ست وثلاثون، ولكل منها عاصمة وعدد من المراكز والمدن والقرى. فأبقى البطالمة على هذا الوضع القائم ولكنهم جعلوا على كل مقاطعة مديراً إغريقياً، وقائداً عسكرياً إغريقياً على رأس حامية إغريقيَّة بها، ولم يلبث أن أصبح هذا القائد هو الحاكم الفعلي لها وأصبح له مساعدان أحدهما للشُّرطة والآخر للقضاء.

ولقد تفرَّق الإغريق وانتشروا وعاشوا في كل أنحاء مصر، وكونوا مدناً جديدة وخاصة في الفيوم، وكونوا جاليات لهم على غرار المدن الإغريقيَّة، لها قوانينها وحكامها وكهنتها ومنتدياتها ومعاهدها الخاصة.

واستمر العمل بنظام الوظائف القديمة في عهدهم، ولكنهم اكتفوا بأن أطلقوا عليها أسماء إغريقيَّة. إلا أن غالبية الموظفين في الدَّولة كانوا من الأجنبيِّين الموسرين، فنعَموا بحياة أفضل بكثير من المصريين.

وفي بداية عصر البطالمة مُنع التَّزاوج بين الإغريق والمصريين لإبقاء العنصر الإغريقي نقياً خالصاً، لذلك كانت الحياة الاجتماعيَّة والثقافيَّة والأدبيَّة والعلميَّة والفنيَّة في مدن مصر الإغريقيَّة وشبه المستقلة ذاتياً، إغريقيَّة قلباً وروحاً. ولكن في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد اضطروا إلى تغيير سياستهم فسمحوا بل وشجَّعوا الزَّواج بين الإغريق والمصريين،

ونشروا الآداب والعلوم الإغريقية بين المصريين^(٤).

وازدهرت الصَّنَاعَة، وكانت الإسكندرية أهم مدينة صناعية في مصر، إلى جانب مراكز صناعية في مدن طيبة وتانيس وبوتو ودندرة ... الخ. وكانت أهم الصناعات هي صناعة الورق والتَّسِيج والخزف والزُّجاج والخشب والأبنوس والعاج والذهب والفضة والبُخُور والعُطُور. وكان للمعابد المصرية فضل كبير في ازدهار الصَّنَاعَة لأنها كانت تملك الضياع الواسعة^(٥). ولكن الإغريق احتكروا أغلب منتجات البلاد وكان مصر ضيقة خاصة لهم يذهب كل دخلها لخزائنها التي تُسمى خزانة الملك.

ولقد سمح الإغريق للمصريين بحرية عبادة آلهتهم القديمة ولكنهم فرضوا سيطرتهم على كهنة المعابد ورجال الدِّين خشية انتشار روح الوطنية. كما أنشأوا ديانة جديدة مشتركة بين الإغريق والمصريين محورها ثالوث مقدس يتألف من سيرابيس وإيزيس وهاپوقراطس، وهي في الأصل آلهة مصرية ألبسوها ثوبا إغريقيا، لكن المصريين ظلوا على عبادتهم القديمة، فبينما جعل الإغريق من سيرابيس مزيجاً من الإله أوزوريس والإله ديونيسيوس، لم ير المصريون في سيرابيس سوى صورة إلههم القديم أوزوريس. ولم يكن الإله هاپوكراتيس الذي شبهه الإغريق بإلههم أبولو سوى الإله المصري القديم حورس ابن أوزوريس وإيزيس.

وأقام البطالة الكثير من المعابد الإغريقية لآلهة الإغريق، إلى جانب بناء معابد مصرية كاملة في ادفو ودندرة وكوم أمبو وإسنا وفيله وغيرها. وكلما ازداد البطالة ضعفاً زاد نفوذ الكهنة قوةً وأصبحوا زعماء للثورة ضدهم، فاضطر البطالة إلى استرضائهم وعهدوا إليهم بإدارة أملاك

٤ - نفس المرجع، ص ١٤، ١٥

٥ - نفس المرجع، ص ١٨٣

المعابد، ولكن ظل البطالة يحتكرون بيع الوظائف الكهنوتية لقاء أكبر مبلغ مدفوع من المال^(٦).

وكانت للمرأة المصرية حرية الزواج بمحض إرادتها وتطبيق زوجها متى شاءت وأن تطالبه بالصدّاق إذا طلقها، وأن تتصرّف في ممتلكاتها كيفما شاءت. في حين لم تكن للمرأة الإغريقية أية حرية في زواجها أو طلاقها أو في ممتلكاتها إلا بأمر الوصي عليها. وبينما كانت المرأة المصرية تأخذ مهراً من زوجها كانت الإغريقية تدفع دوة يرجعها الزوج إلى أهلها إذا توفيت.

وكانت عقود زواج المصريين تشتمل على التزامات للزوج فقط بعكس عقود الزواج الإغريقية التي كانت تقضي بالتزام الزوجين. وكذلك كانت مراسم الزواج تتم بواسطة الكهنة في المعبد أي كان الزواج دينياً، في حين كانت الإغريقية تنزّج زواجاً مدنياً فقط. بهذا كفل نظام الزواج المصري للمرأة المصرية حقوقاً وامتيازات لم تكن تتوفر للمرأة الإغريقية، ولكن البطالة لم يقبلوا بهذا التفرّيق، فحرموا المرأة المصرية من حقوقها وامتيازاتها لكي تتساوى مع المرأة الإغريقية^(٧).

ولقد زاد عدد اليهود في عصر البطالة، وكانوا يؤلفون حوالي ١٤% من عدد السّكان في مصر.

تاريخ مدينة الإسكندرية

هي المدينة التي لا تزال كنيسة مصر تُدعى باسمها، فمنها دخلت المسيحية إلى كل أرجاء البلاد. وفيها بُنيت أوّل كنيسة مسيحية في مصر،

٦- نفس المرجع، ص ١٥، ١٨٦

٧- نفس المرجع، ص ١٩٨، ١٩٠

وكانت هي أوّل مقر بطريركي لبابا الكنيسة القبطيّة. ولازال لقب بابا الكنيسة القبطيّة يُسمى باسمها "بابا المدينة العظمى الإسكندريّة".

أمر الإسكندر الأكبر بإنشائها سنة ٣٢٢ ق م، وأوكل أمر تشييدها إلى أشهر مهندس معماري في عصره وهو "دينوكراتيس"^(٨)، وجعلها عاصمة البلاد، وتميّزت بشوارعها الواسعة المستقيمة والمتوازية. وقد شيّدها مكان قرية "راكوتي" أو "راقوده" أو "راكوتيس" على ساحل البحر المتوسط غربي فرع رشيد بعد أن وصل السّاحل بجزيرة "فاروس" التي تقع تجاهه. وظلّت أكبر مدينة في العالم إلى قرن ونصف من تأسيسها حيث بلغ عدد سكانها آنئذ ١٥٠ ألف نسمة^(٩). فيها تمت ترجمة العهد القديم لأوّل مرّة من العبريّة إلى اليونانيّة، وهي التّرجمة المعروفة بـ "التّرجمة السّبعينيّة".

احتلها الرّومان سنة ٣٠ ق م، وكانت أعظم عاصمة إقليميّة في الإمبراطوريّة الرّومانيّة، والمدينة الثّانية بعد روما من الوجهة السياسيّة، والأولى من الوجهة الثقافيّة. بلغ سكانها في القرن السّادس حوالي ٦٠٠,٠٠٠ نسمة منهم جالية يونانية كبيرة كوّنوا الارستقراطيّة المحليّة، بعكس اليهود الذين تقلص عددهم، إذ كانوا حتى سنة ٤١٥ م جالية كبيرة، ولكن البابا كيرلس الكبير (٤١٢ - ٤٤٤ م) أمر بطردهم من المدينة وإغلاق معابدهم، فأصبح المصريون أساس سكان الإسكندريّة^(١٠).

وصفها المؤرّخون قبل دخول العرب إليها، وتغنوا بجمالها، وفي

٨- هذا المهندس هو الذي بنى هيكل ديانا الشّهير.

٩- الآن يزيد عدد سكانها قليلاً على أربعة ملايين نسمة.

١٠- د. سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصريّة في العصر اليوناني - الروماني،

أسلوب رفيع متفرد لمحمد فريد أبو حديد في تعريبه لكتاب "فتح العرب لمصر" لمؤلفه المورخ المدقق الإنجليزي الشهير ألفريد جوا بتلر A. Butler يقول:

"ولابد أن كثيرين ممن كان في جيش العرب عند ذلك رأوا جميل المدائن في فلسطين والشَّام مثل أوديسا ودمشق وبيت المقدس، وقد يكون منهم من وقعت عينه على أنطاكيا الشهيرة، أو رأى عجائب تدمر. ولكن ذلك كله لم يكن شيئاً إذا قيس بعظمة المدينة التي تبدت لهم عند ذلك، وهي عظمة بارعة نادرة، تتجلى لهم، إذ يسرون بين الحدائق وحوائط الكروم والأديرة الكثيرة بأرباضها.

فقد كانت الإسكندرية حتى القرن السابع أجمل مدائن العالم وأماها، فلم تبدع يد البناء قبلها ولا بعدها شيئاً يعدها، اللهم إلا روما وقرطاجنة القديمتين. فما سرحت العين لا تقع إلا على أسوار وحصون لا نظير لها، بقيت بعد ذلك قروناً وهو مثار إعجاب من رآها من أهل الأسفار. وكانت تشرف وراء هذه الأسوار والحصون بدائع من قباب ومن عمُد، بعضها اسطواني وبعضها مربع (وهي التي تسمى المسلات) تقوم فوق قواعدها. ومن تماثيل ومعابد وقصور تتلألأ وتتألق.

فإذا ما تياسرت^(١١) رأيت دون ذلك معبد السرابيوم، وقد أناف بسقفه المذهب والقلعة التي كان يشرف فوقها عمود دقلديانوس. فإذا ما تيامنت بدت لك الكنيسة العظمى، كنيسة القديس مرقس، تليها الأعمدة المربعة التي سُميت (مسلات كليوباترا)^(١٢)، وكانت عند ذلك قد عمرت

١١ - أي اتجهت يساراً. وقد جاء العرب إلى المدينة من ناحية الجنوب الشرقي لها.

١٢ - سلب البريطانيون والأمريكان هذه المسلات من مصر، إحداها اليوم على شاطئ نهر التيمز، والأخرى في نيويورك. كان علو الواحدة أكثر قليلاً من عشرين متراً (٦٨ قدماً).

نيفاً وألفي عام، وذلك ضعفاً عمر المدينة نفسها. وفيما بين يسارك وعينك كان البناء الجليل يبدو ظاهراً مشرقاً، ويلوح من ورائه ذلك الأثر العظيم المعروف باسم (فاروس) وكان النَّاس يعدونه إحدى العجائب السَّبْع في العالم، وحق لهم أن يفعلوا. وما كان هذا الجلال الفائق والجمال البارِع وما يبدو من عظمته وقوَّته إلا ليقع في قلوب غزاة الصَّحراء موقعاً عجيباً، وقد رأوا ما رأوا من المدينة التي جاءوا يفتحونها^(١٣).

كانت المدينة تحفة معمارية بشوارعها المبلَّطة وميادينها المخطَّطة، ومبانيها الحجرية الجميلة، مثلت القصور فيها حوالي ثلثها. وحوت إستانداً ضخماً ومسرحاً مدرجاً، وحدائق عامة، ومعابد مهيبة، ومتحفاً عظيماً، ومكتبة مزوَّدة بحوالي ٧٠٠ ألف كتاب ومخطوطة، وهو أكبر عدد من الكتب عرفه العالم القديم. وظلَّت تحتفظ بمكائنتها الثقافيَّة على مدى ألف عام.

وكان يسكن بها كثير من الأجانب المشتغلين بالتَّجارة والذين ينتمون إلى جاليات أجنبية مختلفة، وكان لكل جالية فندق خاص بها^(١٤).

وفي الإسكندرية تم جمع المعلومات التي كانت أساساً لواحدة من أقدم الخرائط في العالم. وفيها تم وضع الهندسة على شكل نظريَّات. ومنها خرجت أوَّل فرضية بأن الأرض تدور حول الشَّمس، وفيها تم التوصل إلى معرفة دقيقة لتشريح الدِّماغ والقلب والعين.

وظلت الإسكندرية عاصمة البلاد السياسيَّة حتى أكتوبر سنة ٦٤١م، عندما فتحها عمرو بن العاص، ونقل العاصمة إلى القسطنطينية، فقلَّ شأن

١٣- د. ألفريد ج. بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، تعريب محمد فريد أبو حديد، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٢٥٥
١٤- د. سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٦٥

المدينة تدريجياً بعد أن دُمِّر سور المدينة وأُشعلت السيران في معظم كنائسها، ومن بينها كنيسة ماز مرقس القديمة. أما الكتب الثمينة بالمدينة والتي عُرفت باسم "كتب الحكمة" فقد وُزعت على حَمَامَات الإسكندرية لاستخدامها وقوداً في تسخين مياهها، فاستُنقِذت في مدة ستة أشهر!

الإسكندرية عاصمة البلاد الدِّينية حتى القرن الحادي عشر

كانت الإسكندرية عند الفتح العربي أهم مركز في الشَّرْق تشع منه الثقافة اليونانية والرُّومانية. ولكنها فقدت بعد الفتح مكانتها السياسيَّة. فلقد رفض الخليفة عمر بن الخطاب أن يتَّخذ عمرو بن العاص الإسكندرية عاصمة له، لأنه لما طلب إليه الأخير ذلك سأله الخليفة: هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ وإذ أجاب عمرو: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النَّيل. فكتب عمر إلى عمرو: إني لا أحب أن تتول المسلمين متراً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف. إذ لم يكن للعرب - وهم سكان البادية - أي دراية آنئذ بركوب البحار. فبنى عمرو مدينة "الفسطاط" في موضع حلاء بين النَّيل والمقطم.

وبعد أن فقدت الإسكندرية مكانتها السياسيَّة، كان طبيعياً أن تفقد مكانتها العلميَّة تبعاً لذلك. إلاَّ أنها ظلَّت عاصمة البلاد الدِّينية لأقباط مصر حتى منتصف القرن الحادي عشر للميلاد. وبرغم ذلك ظلَّت الإسكندرية محافظة على مكانتها الخاصة التي كانت لها في عهد البطالسة حتى أوائل القرن العاشر الميلادي حيث نجد في إحصاء مال الدَّولة إفراد باب خاص عنوانه "مصر والإسكندرية" فقد حافظت الإسكندرية على مكانتها باعتبارها قسماً مستقلاً بجبايته كما كان الحال على عهد البطالسة^(١٥).

وكان البابا البطريرك ومعها الأساقفة يذهبون من الإسكندرية مقر البطاركة إلى العاصمة لمقابلة والي مصر بعد الانتخاب للبطريركيّة، وكانت هذه مسائل شكليّة إذ لم يُعرف عن الولاة أنهم عارضوا في انتخاب أحد البطاركة مادام الأساقفة يتبعون القوانين الكنسيّة^(١٦).

أماكن انتقال الكرسي البابوي

ظل الكرسي البابوي موجوداً بالإسكندرية حتى زمن البابا خائيل الثاني (٨٤٩ - ٨٥١ م). أما البابا قسيما الثاني (٨٥١ - ٨٥٨ م) الـ ٥٤ فسكن في البلدة المعروفة بدميرة^(١٧). وسكن البابا خائيل الثالث (٨٨٠ - ٩٠٧ م) الـ ٥٦ في كنيسة السيّدة العذراء بقصر الشمع (المعلقة)^(١٨). لأنه لم يكن أحد من البطاركة مقيماً بالإسكندرية بعده^(١٩).

أما البابا غبريال الأوّل (٩١٠ - ٩٢١ م) الـ ٥٧ فأقام مدة بطريركيّته كلها في وادي هبيب، لم يفارقه، ولم يسكن في الرّيف ولا مصر، ولا الإسكندرية^(٢٠). وسكن البابا مينا الثاني (٩٥٦ - ٩٧٥ م) الـ ٦١ الرّيف في بلدة محلة دانيال^(٢١)، وسكنها أيضاً البابا فيلوثاؤس (٩٧٩ -

١٦- يذكر الأنبا ساويرس أن عبد العزيز بن مروان أبطل انتخاب أحد البطاركة بعدما علم أن البطريرك المتوفى كان قد أوصى بشخص غير الذي انتخب، وتم للوالي ما أراد، فعين اسحق بطريراً بدلاً من حرجة الذي كان قد انتخب.

انظر: دكتورة سيّدة إسماعيل كاشف، المرجع السابق، ص ١٩١

١٧- تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة لسواويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين، المجلد الثاني، الجزء الأول، مطبوعات جمعية الآثار القبطية، قسم النصوص والوثائق، قام على نشره يسى عبد المسيح، وأسولد برمستر، القاهرة ١٩٤٣، ص ١١

١٨- نفس المرجع السابق، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مطبوعات جمعية الآثار القبطية، قام على نشره يسى عبد المسيح، وعزيز سوريال عطية، وأسولد برمستر، القاهرة ١٩٤٨، ص ٧٦

١٩- سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٨٢

٢٠- نفس المرجع، ص ٧٩

٢١- نفس المرجع، ص ٩٠

١٠٠٤م) البطريرك الـ ٦٣ (٢٢).

وكان مقر البطريركيّة في زمن البابا خريستوذولوس (١٠٤٦-١٠٧٧م) الـ ٦٦ هو بلدة دمرو، والتي يبدو أنها كانت مركزاً دينياً هاماً، به ما لا يقل عن سبع عشرة كنيسة، إلا أن تخريب الدلتا على يد اللواتين، وهم الذين قبضوا على البابا خريستوذولوس وعذبوه، كان في أغلب الظن أحد الأسباب التي دعت إلى نقل مقر البطريركيّة إلى القاهرة. فانتقل البابا خريستوذولوس إليها وجعل مقرّه في كنيسة العذراء المعلقة بحمصن بابليون. وكان البابا خائيل الرابع (١٠٩٢-١١٠٢م) الـ ٦٨ قد أمر بإنشاء بيت في أعلى كنيسة السيّدة العذراء المعلقة بقصر الشمع (٢٣). وظلت كنيسة العذراء (المعلقة) مقراً للبطريركيّة وحتى زمن البابا ثيودوسيوس (١٢٩٤-١٣٠٠) الـ ٧٩ باستثناء البابا غريال الثاني (بن تريك) (١١٣١-١١٤٥) الـ ٧٠ والبابا يوانس الخامس (١١٤٦-١١٦٦) الـ ٧٢ اللذان أقاما في كنيسة القديس مرقوريوس بمصر القديمة، وكذلك البابا كيرلس الثاني (١٠٧٨-١٠٩٢م) الـ ٦٧ الذي جعل مقر البطريركيّة في كنيسة الملاك ميخائيل بجزيرة الروضة، في الموضع المعروف بالمختارة، وأقام في جوسق كان فيها، وكان يشتهي أن يكون مقامه في الرّيف فلم يقدر لكثرة الرّسل الوافدين إليه من بلاد الحبشة والنوبة والعائدين إليها، وحاجة السّلطان إلى حضوره عنده في كل وقت (٢٤).

ثم انتقل المقر إلى كنيسة السيّدة العذراء بحارة زويلة في أيام البابا يوانس الثامن (١٣٠٠-١٣٢٠م) وهو البطريرك الـ ٨٠ وظل مقراً للبطريركيّة حتى إلى زمن البابا متاؤس الرابع (١٦٦٠-١٧٧٥م) الـ ١٠٢

٢٢- نفس المرجع، ص ١٠٠

٢٣- نفس المرجع، ص ٢٤٨

٢٤- سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢١٠

الذي نقل المقر إلى كنيسة السيِّدة العذراء بحارة الرُّوم (٢٥).

أما البابا مرقس الثامن (١٧٩٦ - ١٨٠٩م) وهو البطريرك الـ ١٠٨ فقد نقل المقر البابوي من كنيسة العذراء بحارة الرُّوم إلى الكاتدرائيَّة المرقسيَّة الكُبرى بالأزبكيَّة في سنة ١٧٩٩م حيث بنى القلايَّة البطريركيَّة القائمة حتى اليوم إلى حوار الكاتدرائيَّة (٢٦). وكان البابا بطرس السَّابع (١٨١٠ - ١٨٥٢م) البطريرك الـ ١٠٩ هو أوَّل من رُسم بطريركاً بها، وشهدت الكاتدرائيَّة تنصيب ثمانية بطاركة من بعده وحتى البابا كيرلس السَّادس (١٩٥٩ - ١٩٧١م) البطريرك الـ ١١٦.

ثم انتقل مقر البطريركيَّة إلى الكاتدرائيَّة المرقسيَّة الجديدة بالعباسيَّة بالقاهرة في عهد البابا الحالي شنوده الثالث البطريرك الـ ١١٧، وكان البابا كيرلس السَّادس قد بدأ بتشييدها، لكنه تبيَّح قبل أن ينقل كرسيه إليها.

* * *

ويقول د. حسين مؤنس في كتابه "مصر ورسالتها":
 "استمرت مصر تحمل مسؤوليتها عن حضارة البحر الأبيض المتوسط حتى الفتح العربي ولفترة طويلة خلاله، ولكن ذلك الاهتمام بالبحر لم

٢٥- أوقف المعلم إبراهيم الجوهري منزلاً بحارة الرُّوم ليكون مقراً دائماً للبابا. كما بنى المعلم جرجس بن منصور المباشر مقراً صيفياً للبابا في مصر القديمة بحوار كنيسة العذراء المعلقة.

٢٦- بُنيت الكاتدرائيَّة بفرمان سلطاني، وأكمل بناءها المعلم جرجس الجوهري، وتم تكريسها في ١٥ سبتمبر سنة ١٨٠٠م بيد البابا يوانس الثامن، في عهد محمد علي باشا. وكان قداسة البابا شنوده الثالث الـ (١١٧) قد احتفل مع ليف من الآباء الأساقفة بمرور ٢٠٠ سنة على تكريسها، وذلك يوم ١٤ سبتمبر سنة ٢٠٠٠م. وتضم الكاتدرائيَّة أحساد ثمانية من الآباء البطاركة، من البابا مرقس الثامن (١٧٩٦ - ١٨٠٩م) الـ (١٠٨) إلى البابا يوساب الثاني (١٩٤٦ - ١٩٥٦م) الـ (١١٥).

يلبث أن تضاءل، لأن العرب حرصوا على أن يقطعوا صلات مصر بالبحر وما يليه، قطعاً لكل أمل للرّوم في العودة إلى مصر، وتأميناً لها من أخطار الغزو من وراء البحر“.

وشيئاً فشيئاً أقفل هذا الباب، وانقطعت علاقات مصر بالبحر، وفقدت الإسكندرية أهميتها، وما أتى القرن الحادي عشر حتى كانت المدينة كلها أطلالاً خربة، وكانت الزلازل الكثيرة سبباً من أسباب انهيار المدينة، ولكن ظلت الأعمدة الكثيرة التي كانت في منطقة السرابيوم قائمة حتى ذلك الوقت. غير أنه حدث في سنة ١١٦٧م أن حاكماً جاهلاً للإسكندرية اسمه ”قراجا“ وكان من وزراء صلاح الدّين أمر بهدم هذه الأعمدة وجعل أكثرها إلى البحر فألقاها فيه ليحول بين العدو وبين التزول إلى البر. ومنذ ذلك الحين بقي عامود دقلديانوس وحده، بقية مما كان في قلعة الإسكندرية من الأبنية التي لم يكن لها مثل، فتحولت المدينة إلى قرية على البحر^(٢٧).

أجل، هذا البلد الذي كان دُرّة البحر الأبيض، والذي وجده العرب لدى دخولهم عجيبة من عجائب الرّمان، هذا البلد الذي هو رثة مصر التي تنفس بها، لم يعد له في تاريخ البحر الأبيض مكانة تُذكر^(٢٨).

ويرجع إلى محمد علي في القرن التاسع عشر الفضل الأكبر في وضع بذور ازدهارها الثاني الذي بلغ قمته في النصف الأوّل من القرن العشرين. فقد عادت إليها الحيويّة بعد حفر ترعة المحموديّة سنة ١٨٢٠م، فتزايد عدد سكانها، وارتبطت بالقاهرة بخط حديدي اعتباراً من سنة ١٨٥٦م، كما ترتبط بها برياً ومائياً أيضاً. وأصبحت الإسكندرية مركزاً تجارياً عالمياً.

٢٧- ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٣٣٦

٢٨- د. نعمات أحمد فؤاد، شخصية مصر، مرجع سابق، ص ١١٧

وأعيد تخطيطها على غمط حديث. وفي سنة ١٩٤٢م أنشئت بها جامعة سُميت جامعة فؤاد الأوّل، "جامعة الإسكندرية اليوم". وظلّت الإسكندريّة حتى نهاية السّتينيات مدينة مرموقة. ولا يصدر عن المدينة حتى اليوم صحيفة يومية واحدة، أو مجلة ثقافية ذات قيمة، أما بقية الفنون والآداب الأخرى فترد إليها من القاهرة.

إن تاريخ آثار الإسكندرية لم يكتبه أحد بعد، ومن أراد أن يكتبه لا بد له من بحث كثير، ربما لا يتيسّر اليوم في كثير من المواضع.

مكتبة الإسكندرية

أنشأها بطليموس الأوّل حوالي سنة ٣٠٠ ق م لنقل الآداب والعلوم اليونانيّة إلى مصر. وازدهرت المكتبة في أيام بطليموس الثاني (٢٨٥-٢٤٦ ق م)، وبتليموس الثالث (٢٤٦-٢٢١ ق م). وكانت كتبها مدوّنة على ورق البردي، وعلى الرّقوق، على شكل لفائف تحوي كل لفافة موضوعات متنوّعة، بالإضافة إلى نحو ٩٠ ألف لفافة مفردة، أي لمصنف واحد ولمؤلف واحد. وكان في الإسكندرية في العهدين اليوناني والرّوماني مكتبتان: الأولى المكتبة الكُبرى، وكانت بالبروكيوم بالحلي الملكي القريب من موقع المكتبة الحاليّة (مكتبة الإسكندرية الجديدة)، والثانية المكتبة الصّغرى، وكانت بمعبد السرايوم بالحلي الشّعبي. كما كان هناك أيضاً الميزيون Museion وهو "المجمّع العلمي" الذي أقام فيه العلماء والفلاسفة، وكان يقع بقرب المكتبة الكُبرى أو المكتبة الأم.

أما المكتبة الكُبرى فقد أنشأها بطليموس الثاني، وبلغت مجموعاتها حوالي ٤٣ ألف من لفائف البردي. واقتفى بطليموس الثالث خطوات أبيه وحده في تغذية المكتبة بالكتب الثّقيسة النّادرة، فأصدر أمراً يحثّم على القادمين من الخارج إلى مدينة الإسكندرية بأن يسلموا كل ما معهم من

كتب عند وصولهم لإيداعها في مكتبة الإسكندرية إذا لم يوجد بالمكتبة نسخ مثلها، على أن تُنسخ صورة من هذه الكتب تعطى لأربابها بدلاً من النسخ الأصلية.

كما استعار من أثينا النسخ الأصلية لمؤلفات كبار العلماء، وقدم إزاء ذلك ضماناً مالياً يُقدَّر بحوالي ٦٠,٠٠٠ جنيه إنجليزي، لكنه أثار استبقاء النسخ الأصلية بالمكتبة الكبرى، وردّاً لأثينا الصور التي نُسخت بدلاً منها. وهكذا بلغت مكتبة الإسكندرية شأواً رفيع المستوى.

وفي سنة ٤٨ ق.م وصل يوليوس قيصر إلى مصر مطارداً بومبيوس غريمه في الحرب الأهلية الرومانية، ليجد نفسه متورطاً في حرب أهلية بمصر، وهي الحرب التي دارت بين كليوباترا وأخيها بطليموس الثالث عشر، وانحاز قيصر لكليوباترا. ولما تعزّز أسطول خصمه بخمسين سفينة حربية قبالة الشاطئ، أضرم قيصر النيران في سفن ذلك الأسطول، فامتد الحريق الذي التهم السفن نحو الشاطئ والتهم أيضاً وجه الإسكندرية ودار صناعة السفن، وما جاوره من المباني. ويُظن أن من بينها مكتبة الإسكندرية العظمى^(٢٩). وباحتراق مكتبة الإسكندرية احترقت حضارة أمة. وذهب المؤرخ اليوناني بلوتارك المتوفى سنة ١٢٥م إلى القول بأن مقدار ما التهمته النيران في تلك الحادثة بلغ ٤٠٠ ألف مجلد. وبذلك فقدت الحضارة تراثاً لا يمكن أن يُعوّض. ورأى يوليوس قيصر أن يعوّض مصر عن هذه الخسارة العلمية، فأهدى إلى كليوباترا ما يقرب من ٢٠٠ ألف مجلد غنمها من مكتبات ملوك برجامون. وقد أودعت هذه المجموعة في أحد المعابد. والمعروف أن هذا المعبد ومكتبته قد دُمرًا أثناء الثورات

٢٩- لم يذكر المؤرخون المعاصرون هذه المعركة البحرية أمثال سترابون ولوكيلاس شيشرون شيئاً عن حريق طال هذه المكتبة الشهيرة. ولا زال موضوع حريق مكتبة الإسكندرية يكتنفه الغموض.

التي وقعت سنة ٣٦٦م.

أما مكتبة السرايوم^(٣٠) (المكتبة الصُغرى)، فيختلف العلماء في أمرها، ولا يمكن القطع بالقول هل نُقلت المكتبة من السرايوم إلى القسطنطينيّة قبل سنة ٣٩١م، وهي السنّة التي اشتد فيها النزاع بين الوثنيّة المتضعضة والمسيحيّة التي صارت الديانة الرسميّة للدولة الرومانيّة، أم امتدت إليها يد التّخريب هي الأخرى في تلك السنّة عينها؟ ولقد كتب المؤرّخ أوراسيوس سنة ٤١٦م يقول: إنه رأى الرُفوف أو الصناديق في السرايوم فارغة ليس فيها شيء من الكتب، ولم يشر إلى وجود أي مكتبة تستحق الذكر في الإسكندريّة.

أما "المجمّع العلمي" Museion فقد ظل متمتعاً بحماية أباطرة الرومان بعد أن أصبحت مصر إحدى ولايات الإمبراطوريّة الرومانيّة. وكان بمثابة العمود الفقري للجامعة، وقد احتل واحداً من أكبر القصور في المدينة، وكان به قاعة كبيرة بها العديد من المناضد والمقاعد ليستعملها الطلبة أثناء المحاضرات. وكذلك احتوي على كثير من الغرف والمعامل للتّحليل

٣٠- السرايوم هو مجموعة من الأبنية ذات جمال رائع، كان لها أثر في نفوس العرب، فقد روى المقريزي عن المسعودي وصفاً للسرايوم فيقول: "وكان بالإسكندريّة قصر عظيم لا يمثاله قصر في بلاد العالم قائم على تل عظيم تجاه باب المدينة". وكان بالقصر مائة عمود، لم يبق منها اليوم سوى "عمود دقلديانوس"، والذي سماه العرب "عمود السوّاري"، ولسنا نعلم في أي وقت أُقيم، وهذه الأعمدة قد زالت أو كانت على الأقل قد هُدمت في أيام الإمبراطور ثيودوسيوس، وكان الحى معروفاً بالحى المصري، وكان اسمه "راكوتي"، وهو الاسم القديم للقريّة التي بنى عليها الإسكندر الأكبر مدينة الإسكندريّة. ويقع الحى على مقربة من الباب الجنوبي للمدينة. وفي هذا المكان كان يقع معبد سيرايس. وفي العصر المسيحي أُقيم في موضع السرايوم كنيسة باسم القديس يوحنا المعمدان، عدا كنائس أخرى كانت لا تزال قائمة عند دخول العرب مصر، منها كنائس القديسين قزمان ودميان، والإنجيليين.

والتَّجارب، وأخرى للتَّشريح مستخدمين الجثث الآدمية ونماذج أخرى للأبحاث. وكان ملحقاً به حديقة نباتية كبيرة لزراعة العديد من الأعشاب الطَّبية المستخدمة في دراسة العلوم الصيدلانية بالإضافة إلى حديقة حيوان بها الكثير من الحيوانات الحيَّة والمخنَّطة، وقسم آخر لمختلف أنواع الأحجار والمعادن، وكذلك مرصد فلكي كبير.

وفي القرن الثالث الميلادي ومع انحدار الإمبراطورية الرُّومانية بدأ الميزيون Museion في تلقي الضَّربات، فتشتت العلماء والفلاسفة بتهمة ممارسة السَّحر والشُّعوذة، وفي أيام حكم القيصر فالنس سنة ٣٣٦م، حوَّل "المجمَّع العلمي" إلى كنيسة ونُهبت مكتبته. ولم يكن من ملاذ سوى السرابيوم. وحتى هذا الأخير لم ينج من التَّدوير إذ في سنة ٣٨١م خُربت مكتبة السرابيوم بعد هدم المعبد بأمر من القيصر ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ - ٣٩٥م) وأشعلت النيران في المكتبة. وبعد مقتل عالمة الرياضيات "هيبتايا" ابنة "ثيون" سنة ٤١٥م وهي آخر علماء المكتبة تنتهي تماماً أسطورة مكتبة الإسكندرية القديمة^(٣١).

وبعد ستة عشر قرناً من الزَّمان، ومن موقع قصر البطالسة القديم وأمام شاطئ الشَّاطي أنشئت مكتبة الإسكندرية الجديدة في احتفالية عالمية رائعة نُقلت على شاشات التليفزيون، وشاهدها الملايين من البشر وسط فرحة عالمية بعودة الحياة لأشهر مكتبة في التَّاريخ.

وقد نبتت هذه الفكرة العملاقة في سنة ١٩٧٤م، حين دعا الدكتور مصطفى العبادي لإحياء مكتبة الإسكندرية القديمة، وتبنى الدكتور لطفي

٣١ - د. سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر اليوناني - الروماني، مرجع سابق، ص ٥٣٩؛ ومقال للدكتور إسماعيل سراج الدين بجريدة وطني في ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٢م، ص ١٢

دويدار رئيس جامعة الإسكندرية هذا المشروع، فقدّمت الجامعة الأرض لبناء المشروع المنشود، كما قامت ببناء مركز المؤتمرات في الموقع التاريخي المطل على الميناء الشرقي بالإسكندرية في نفس موقع مكتبة الإسكندرية القديمة.

وبعد أن أصبح مشروع مكتبة الإسكندرية مشروعاً قومياً، صدر القرار الجمهوري الذي يقضي بإنشاء الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية في سنة ١٩٨٨م، وكان للدكتور أحمد فتحي سرور وزير التعليم في ذلك الوقت الفضل في إعداد هذا القرار وفي مد أواصر الصداقة مع منظمة اليونسكو التي لعبت دوراً عظيماً في دعم المشروع، حيث قامت مع الاتحاد الدولي للمعماريين بتنظيم مسابقة دولية في سنة ١٩٨٩م شارك فيها مئات المكاتب الهندسية من كافة أنحاء العالم، وفاز مكتب سنوهتا بالجائزة الأولى لأفضل تصميم، واستكمل اتحاد شركات سنوهتا تصميم المشروع والإشراف على تنفيذه.

وبإعلان الرئيس مبارك في أسوان سنة ١٩٩٠م الدَّعوة لإحياء مكتبة الإسكندرية نشأت صداقات متعدّدة بين المكتبة والعالم الخارجي. ولم يحدث في التاريخ القديم أو المعاصر أن تكاتف العالم لإحياء مؤسسة ثقافية مثلما تكاتف لإحياء مكتبة الإسكندرية. فلقد شاركت حوالي ٢٧ دولة ومؤسسة من كافة أنحاء العالم في دعم المشروع حتى وصل إجمالي الدَّعم إلى ١٠٠ مليون دولار أمريكي^(٣٢).

وبرئاسة السيِّدة سوزان مبارك حرم رئيس الجمهورية للجنة الاستشارية الدولية لمشروع مكتبة الإسكندرية حظى المشروع بدفع عجلة التَّنفيذ بإصرار لا يكل ولا يمل، حتى صار واقعاً ملموساً في تحفة معمارية

قاعة الآن على شاطئ الإسكندرية الجميل.

وقد بدأ البناء الفعلي لمكتبة الإسكندرية في سنة ١٩٩٥م، وتم استكماله وإعداده للافتتاح في ١٣ أكتوبر سنة ٢٠٠٢م في احتفالية رائعة شارك فيها بعض رؤساء وملوك الدول وكثير من رؤساء الحكومات والهيئات العالمية. واستمر مهرجان الافتتاح طوال شهر أكتوبر وشاركت فيه عدّة دول بعروض مسرحية وموسيقية عالمية. وصار الدكتور إسماعيل سراج الدين أوّل مدير للمكتبة في عصرها الحديث.

ومع افتتاح المكتبة كانت هناك ١٩ جمعية في أنحاء العالم باسم جمعية أصدقاء مكتبة الإسكندرية^(٣٣)، إلى جانب الجمعية المصرية لأصدقاء مكتبة الإسكندرية والتي أسّسها ورأسها الدكتور عادل أبو زهرة.

وعند مدخل المكتبة الجديدة يقف تمثال بطليموس الثاني مؤسس مكتبة الإسكندرية القديمة، وكان قد تم انتشاله من أمام شاطئ المكتبة سنة ١٩٩٦م، ويتكوّن من أربعة أجزاء مكسورة من الرأس والذراع والتّاج والجذع، وقد تم تجميعها في فرنسا^(٣٤).

وتتكوّن المكتبة الجديدة - والتي حازت على جائزة الأمم المتحدة كأذكى مبنى في العالم - من ثلاث كتل أكبرها مبنى المكتبة، وهي اسطوانة مائلة في مواجهة البحر، وعلى شكل قرص الشّمس مشرقاً لتوه خارجاً من الماء، حيث يحيط بالمبنى حوض مائي، فتنعكس صورها عليه. وقاعات القراءة على سبعة مستويات متدرّجة كالشّلال، أربعة منها تحت

٣٣- نشأت هذه الجمعيات في الدول الآتية: استراليا، بلغاريا، كندا، فنلندا، فرنسا، ألمانيا، اليونان، إيطاليا، المكسيك، النرويج، البرتغال، روسيا، جنوب أفريقيا، أسبانيا، السويد، سويسرا، المملكة المتحدة، اليونسكو، والولايات المتحدة الأمريكية.

٣٤- جريدة وطني في ٢٧ أكتوبر سنة ٢٠٠٢م، ص ١٢

الأرض، واثان فوقها، بالإضافة إلى دور المدخل. وتُتَّسع المكتبة لحوالي أربعة ملايين كتاب، وموجود بها يوم افتتاحها ٢٥٠ ألف كتاب، وتعمل المكتبة بنظام OPAC الذي يساعد القارئ على الوصول إلى مكان الكتاب الذي يريده بسهولة. والكتلة الثانية في أقصى شرق المكتبة وهي مبنى مركز المؤتمرات. أما الكتلة الثالثة فهي مبنى القبة السماوية، وهي كُرة ضخمة تومض بأحزمة زرقاء مضيئة تغوص في بئر^(٣٥). وهي لعرض أفلام عن الأجرام السَّمَاوِيَّة.

كما أن للمكتبة قاعة للإنترنيت تُتَّسع لأكثر من ثلاثة آلاف مقعد مزودة بأرشفيت يتسع لألفي مليون صفحة، بالإضافة لوجود بعض المتاحف مثل متحف العلوم^(٣٦)، الآثار^(٣٧)، المخطوطات^(٣٨). وبعض المعاهد والمراكز البحثية مثل مركز المخطوطات، مركز الوثائق، والمعهد الدولي للدراسات المعلوماتية. وبها معمل الترميم، وهو لترميم المخطوطات والكتب النادرة والخرائط، كما يقوم بعمل الإصلاحات السريعة للكتب المستخدمة، ومتابعة تعقيمها.

٣٥- ثلثها فوق سطح الأرض، بينما يختفي الجزء الثالث التبقّي تحت مستوى الأرض.
٣٦- أهدي بالكامل من فرنسا للمكتبة، واستخدمت فيه تقنيات متطورة للعرض المتحفّي تقوم على تقسيم المتاحف إلى مراحل تاريخية، وهو يهدف إلى تقديم معلومات متكاملة عن تطور العلوم في العالم. ويتكون من: القسم الفرعوني، والقسم اليوناني، وقسم العلوم العربية.

٣٧- به نحو ١٠٨٠ قطعة أثرية تنتمي لمجموعة الحضارات الفرعونية واليونانية والرومانية والقبطية والإسلامية.

٣٨- متحف المخطوطات يضم ٢٤ وحدة عرض تستوعب ما يقرب من مائة مخطوطة مقرونة بشرح باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والأسبانية. وبه أجهزة كومبيوتر بشاشات لمسية مما يتيح الاطلاع التفصيلي على أي مخطوطة، مع قلب الصفحات، وتكبير الجزء المراد بحثه، والاستماع إلى التعليق والشرح المناسب.

- ويقول دكتور إسماعيل سراج السَّدين مدير المكتبة: إن مكتبة الإسكندرية تتركز في رسالتها على أربعة محاور؛
- (١) أن تكون نافذة العالم على مصر.
- (٢) أن تكون بوابة المصريين للتعرف على حضارات العالم، خاصة ثقافات البحر المتوسط وأفريقيا.
- (٣) أن تكون مكتبة للعصر الرقمي الجديد^(٣٩)، تستثمر إنجازات ثورة المعلومات والاتصالات، لتتيح تبادل المعلومات في صورة إلكترونية.
- (٤) أن تصبح مركزاً للتعليم والحوار بين الثقافات، متفرّدة بمجالات تجعلها مرجع العالم فيها^(٤٠).

مدرسة الإسكندرية الوثنية

كان الإسكندر الأكبر تلميذاً للعالم الكبير والفيلسوف العظيم أرسطو، وكان مثل كل الملوك الذين أعقبوه شغوفاً بالعلم ومن أكبر أنصار العلوم. فأسسوا بالإسكندرية متحفاً عظيماً يحوي مكتبة كبيرة ومرصداً لرصد الأجرام السماوية^(٤١)، فلم تلبث الإسكندرية أن أصبحت قبلة العلماء والفلكيين. ولقد أنشأ هذه المدرسة بطليموس الأول ملك مصر، وهي لم تكن مدرسة بالمعنى المتعارف عليه، بل كانت أشبه بحلقات متسلسلة من العلماء الذين خدموا العلم والآداب على مدى تسعة قرون،

٣٩- وتنقسم المكتبة الرقمية إلى سبع مستويات: جذور المعرفة (الديانات - الفلسفة - الجغرافيا - التاريخ - التراجم)، اللغات والآداب، الفنون والعمارة والرياضة، العموميات (التجارة والسياحة والفنون)، العلوم الاجتماعية، العلوم البحثية والتطبيقية، التكنولوجيا الحديثة.

٤٠- مقالان بجريدة وطني في ٢٩ سبتمبر، ص ١٢، و٢٧ أكتوبر، ص ١٢ لسنة ٢٠٠٢م

٤١- كانت جامعة الإسكندرية القديمة هي أوّل من استخدم العدسات في تصنيع الميكروسكوبات الكونية.

وكانت المكتبة الكُبرى والمكتبة الصُغرى، ومجمع العلوم (Museion) الذي هو جزءٌ من القصور الملكيّة، هي الأماكن التي يعقد فيها هؤلاء العلماء حلقاتهم الدّراسيّة.

وفي خلال الخمسة قرون التالية كان جميع الفلكيين ذوي الشهرة الواسعة من علماء مدرسة الإسكندرية وحدها باستثناء العالم اليوناني الشهير "هباركس".

وكان أريستارخوس Aristarchus أحد علماء المدرسة الأقدمين يعتقد بدوران الأرض وهي الحقيقة العلميّة التي تم إثباتها بالبُرهان الصّحيح في القرن السّادس عشر. وآخرون من العلماء من هذه المدرسة^(٤٢) كان لهم الفضل في أهم أوّل من قاسوا مواقع النُجوم، وقياس قطر الأرض. ومن علماء هذه المدرسة سوسجتر Sosignes (٤٥ ق.م) الذي ابتكر فكرة السّنة الكبيسة لجعل متوسط طول السّنة المدنيّة مساوياً لطول السّنة التّجميّة التي كان المصريون القدماء قد اتخذوها وحدة أساسيّة لقياس الزّمن.

ومن أشهر علماء مدرسة الإسكندريّة أيضاً بطليموس كلانديوس Clanduis Ptolimous الذي عاش في الإسكندريّة في منتصف القرن الثّاني

٤٢- مثل أريستيلاس Aristyllus، وتيماخاريس Timacharis. ومنهم أيضاً أراتوستيس وأبولونيدس روديوس Apollonids Rhodius والعالم النحوي أريتوستيس مدير المكتبة الكبرى وأبولونيوس العالم الفلكي وصاحب نظريات حركات الكواكب الذي خلفه في إدارتها. وأرسطوفانيس أشهر عالم في النحو عند الأغرقي. وأرشميدس العالم الشهير مبتكر علم الإستانكا وأحد تلاميذ العالم الرياضي والفلكي النابغة كونون من ساموس، وهذا الأخير وضع سبعة كتب في علم الفلك وأهداها لبطليموس الثالث. وهو الذي أطلق على مجموعة من النجوم اسم "جدائل شعر برفيقي"، وبرفيقي هي زوجة بطليموس الثالث، وقد نذرت هذه الملكة أن تصحى بجدائل شعرها إذا عاد زوجها بطليموس الثالث سالماً من حربه مع سوريا. ولما عاد جرّت الملكة جدائل شعرها وقدمتها قرباناً في معبد أرسنوي أفروديتي.

قبل الميلاد، واشتهر بمؤلفه العظيم المسمى "المجسطي" والذي ظل المرجع الأساسي للعلوم طيلة ١٥ قرناً^(٤٣).

ويذكر "مافي" في كتابه "إمبراطوريّة البطالمة" أن مدرسة الإسكندريّة أو جامعة الإسكندريّة - وهي أقدم جامعة عرفها العالم - أخذت نموذجاً لكل الجامعات التي تلتها، وعلى غرارها نشأت جامعات أوروبا في العصور الوسطى.

ومن أشهر مآثر هذه المدرسة ترجمة التوراة من العبريّة إلى اليونانيّة في عصر بطليموس الثاني، وهي التّرجمة المعروفة بالتّرجمة السّبعينيّة.

وظهر الفيلسوف اليهودي فيلو كأوّل فيلسوف يهودي في مدرسة الإسكندريّة في القرن الأوّل الميلادي، وانشغل بإثبات قضايا الدّين عن طريق الفلسفة، وهو الاتجاه الذي كان له تأثير كبير خلال العصور الوسطى المسيحيّة والإسلاميّة^(٤٤).

ولقد تهدّم جزء كبير من الجامعة أثناء زلزال خطير أصاب مدينة الإسكندريّة قبل سنوات من الفتح العربي، ولكن ما تبقى منها ظل يمارس نشاطه العلمي إلى حوالي سنة ٧١٩م.

ولقد أنشئت جامعة أخرى في سنة ١٩٣م بواسطة الفيلسوف الإغريقي أمونيوس وسمّاها الجامعة الفيلسوفيّة، وذلك لنشر الفلسفة الأفلاطونيّة الجديدة، ولكنها انخرفت عن خطها المرسوم منذ سنة ٣٦١م وانصرفت إلى تدريس السّحر مما دعا الحاكم الرُّوماني إلى

٤٣- د. عبد الحميد سماحة، تاريخ الحضارة المصريّة، مرجع سابق، ص ٥٨٢

٤٤- د. سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصريّة في العصر اليوناني - الرُّوماني،

مرجع سابق، ص ٥٠٧

غلقها نهائياً سنة ٥٢٩م.

وجدير بالذكر أنه قد استمرت كثير من جامعات المعابد المصريَّة والمدارس الجديدة التي أنشئت في الأماكن النَّائِيَّة - خوفاً من بطش الأسرة البطلميَّة الحاكمة، ثم الرومان - في تعليم المصريين كافة كسابق عهدهم، وحافظت على التَّقالييد المصريَّة العريقة للحضارة المصريَّة بدون انقطاع حتى إلى ما بعد الفتح العربي. ولقد حافظت هذه المدارس الفرعونيَّة على وجودها حتى بعد انتشار المسيحيَّة في مصر، ولكن في الأماكن البعيدة عن العمران هرباً من بطش الحكام^(٤٥).

اليهود في الإسكندريَّة

في أيام البطالسة كان الأجنب في مدن عديدة يمتَّعون بامتيازات تفوق امتيازات أهل البلاد. وتمشياً مع هذه السياسة أمكن لليهود في الإسكندريَّة أن يحصلوا على امتيازات خاصة. وإن كانوا لم يمتنعوا بكافة الحقوق المدنيَّة، إلا أنه كان لهم من النفوذ في الإسكندريَّة أكثر مما كان لهم في أي مكان آخر في العالم القديم. وأُعطي لليهود قسم خاص بهم في المدينة كما كان لليونانيين قسمهم الخاص، وكذا للمصريين. وكان لكل قسم حكومة مستقلة. وكان لليهود مجامع كثيرة في القسم اليهودي من المدينة. وكان يحكم هذا القسم في البداية حاكم عبراني، لكن في أيام أوغسطس قيصر أصبح يحكم القسم اليهودي ٧١ أرخناً. وفي أيام فيلو كان لليهود حرية الانتقال بين هذه الأقسام جميعاً.

ولقد وصل اليهود إلى قمة ثرائهم وتعليمهم ووضعهم الاجتماعي.

٤٥ - د. سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر الفرعوني، مرجع

وفي أيام بطليموس السَّادس وكليوباترا كان قائد الجيش من اليهود، كما كان في جيش بطليموس الأوَّل ٣٠,٠٠٠ جندي من اليهود، وقد اكتشفت نكتاتهم منذ عهد قريب. وفي أثناء حكم الرُّومان احتفظ اليهود بحقوقهم فيما عدا فترات قصيرة من الاضطهاد على يدي الحاكم المنحون "كاليجولا". كما كان اليهود يحتكرون معظم الصناعات الهامة، وكذا تجارة القمح. ولقد عانت المسيحية الناشئة في مصر من وشايات هؤلاء اليهود الذين كثيراً ما انضموا إلى الوثنيين لاضطهاد الكنيسة. وعندما أصبحت المسيحية هي الديانة الرسمية للدولة بدأ اضطهاد اليهود، ولاسيما عندما انتصر هرقل على الفرس سنة ٦٢٩م. وإن كتب الحكمة اليهودية قد كتبت أصلاً في الإسكندرية، ولكن الأهمية الحقيقية للإسكندرية بالنسبة لليهود كانت في التعاليم التي هيأهم لقبول الإنجيل الذي صار للعالم كله، والذي كان على وشك أن يكرز به عبرانيون من الجليل قد تتقَّفوا بالثقافة الهيلينية^(٤٦).

ثانياً: مصر ولاية رومانية

دخلت مصر تحت حكم روما باعتبارها ملكاً خاصاً للإمبراطور أغسطس قيصر (أكتافيوس)، وقد عين كورنيليوس جالوس نائباً عنه في مصر وهو من طبقة الفرسان، واحتفظ لنفسه بالسُلطة العليا بها، معتبراً نفسه ملك مصر ووارث عرش الفراعنة. وكان أوكتافيوس جباراً طاغية، قبض على زمام إمبراطوريته المترامية الأطراف بيد من حديد، وظل إلى نصف قرن هو الحاكم بأمره في العالم كله^(٤٧). وتابع الإمبراطور سياسة

٤٦ - دائرة المعارف الكتابية، الجزء الأول، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٦م، ص ٢٧١.

٤٧ - د. سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر اليوناني - الروماني،

مرجع سابق، ص ٤٧٣

البطالسة في ممالأة الكهنة المصريين، وما كان أسرع هؤلاء في اعتباره فرعوناً من نسل الآلهة. وأتى الرومان بأهتهم الرومانيّة إلى مصر وشيّدوا لها معابد فيها، ولكنهم لم يفرضوا على أهل مصر عبادة تلك الآلهة. فالرومان قوم لا يتمسّكون بدينهم كثيراً ولا يتعصّبون له، إذ انصرف اهتمامهم إلى إخضاع البلاد التي فتحوها بالقوّة والقهر.

فخضعت مصر للرومان سنة ٣١ ق م، واستمرت مصر ولاية رومانيّة حتى سنة ٣٩٥ م. أما الفترة من (٣٩٥ - ٦٤١ م) فهي المعروفة بالعصر البيزنطي. وفي عهد أغسطس قيصر بدأ العمل بالتّقويم المصري المعدّل (التّقويم اليولياني).

كان المجتمع المصري يتألّف من عدة طوائف يأتي في مقدّمها الرومان ثم الإغريق ثم اليهود الذين كونوا في مصر جالية كبيرة تمّتعت بكثير من الامتيازات، وفي آخر درجة وأقل مرتبة كان يأتي المصريون، فاعتُبر المصريون دون الطوائف جميعاً في بلادهم، وعاملهم الحاكم الروماني معاملة العبيد الأذلاء وفرض عليهم ضريبة الرأس كما كان يفعل البطالمة من قبل بينما أعفى منها الإغريق واليهود. ولم يكن التّعليم منتشرًا إلاّ بين الإغريق واليهود، في حين كان غالبية المصريين يعانون من الفقر والحرمان والجهل ما عدا قلة ضئيلة.

وثار المصريون ثورة شاملة في سنة ٢٩ ق م، على الحاكم الروماني، وظلّت الثورات تشتعل بين الحين والآخر، وكان الكهنة المصريون هم الذين يتزعمون تلك الثورات. فعمل الرومان على كسر شوكتهم والاستيلاء على أملاكهم، وأخضعوا المعابد للرّقابة الحكوميّة، فعينوا مسئولاً عن الشُّؤون الدّينية، وكان موظفاً وليس كاهناً، وسُمي الكاهن الأعظم للإسكندرية وسائر مصر، ووضعوا في مصر قوّة عسكريّة قوامها

٢٥ ألف جندي رابطة في الإسكندرية وطيبة مهد الثورات^(٤٨).

أما الفلاحون المصريون فقد ظلت الأعباء المفروضة عليهم كما هي طوال العصرين الإغريقي والرُّوماني، وزادت أثقالها، فكانوا لا يملكون من أرضهم شيئاً. وأصبحت مصر في العهد الرُّوماني مزرعة كبيرة لروما، ومصدراً رئيسياً لتوريد القمح إليها. وفي سبيل الاستفادة بكل موارد مصر قام الرُّومان بتمهيد طرق المواصلات وأكثرها من حفر قنوات الرِّي والصَّرْف وشجعوا الزِّراعة والصَّناعة والتِّجارة، وعملوا على استتباب السَّكينة والأمن لصالحهم. واستولوا على خيرات مصر وأرسلوها إلى روما فحرموا مصر منها، على عكس البطالمة الذين احتفظوا بهذه الخيرات داخل مصر.

وكان الزَّواج عند الرُّومان يتم عن طريق تحرير عقد بالزَّواج، ويسجل في سجلات خاصة تُسمى سجلات الزَّواج، ولم يكن مسموحاً بالزَّواج إلا من زوجة واحدة، في حين أن الإغريقي كان يحق له أن يتزوَّج حتى من أخته. وظل الزَّواج مباحاً بين الإغريق والمصريين في مصر بينما كان الزَّواج بين الرُّومان وغير الرُّومان ممنوعاً تماماً، وإذا تم فإنه يكون غير مشروع^(٤٩).

وبخضوع مصر لسُلطان الرُّوم لم يمنعها ذلك من أن تظل ملجأً للثقافة اليونانية طوال العصر الرُّوماني، كما أن خضوع بلاد اليونان نفسه لسُلطان الرُّومان لم يجردها من يونانيتها، وإنما فرض هذه اليونانية على الرُّومانيين أنفسهم^(٥٠). وظلَّت الإسكندرية عاصمة لمصر وأعظم مدن الإمبراطورية الرُّومانية بعد روما، وأضحى موانئ البحر المتوسط،

٤٨ - نفس المرجع، ص ٤٨٠ وما قبله.

٤٩ - نفس المرجع، ص ٤٨٧

٥٠ - دكتور طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ٢٥

واستمرت مركزاً للثقافة الرّاقية والفن الرّفيع، وظلّت جامعتها العريقة تجتذب إليها الطّلاب من كل أنحاء العالم.

ولقد احتفظ المصريون بتقاليدهم الفنّية العريقة وقاموا بنحت تماثيلهم ونصب الموتى والنّقش على جدران المعابد بذات الطّريقة القديمة. ولكن حدث نوع من الخلط بين الفنّين المصري والإغريقي، وظهر طراز جديد يجمع بينهما^(٥١).

وفي الفترة ما بين سنة ٢٤ - ٢٣ ق م، غزت كنداكة ملكة الحبشة مصر، وطاردها الوالي الروماني بترونيوس.

وفي عهد الإمبراطور طيباريوس قيصر (١٤ - ٣٧ م) جاء المسيح له المجد يكرز بالتوبة لاقتراب ملكوت السّموات، وبرغم أن التّاريخ ظلّ يسير في مجراه الطّبيعي حيث تتواكب مجريات أحداثه، إلّا أنه صار، للذين قبلوا دعوة المسيح، في ملته واكتماله. ففي المسيح اكتمل الزّمان وبلغ غايته.

من سنة ٣٧ - ٤١ م، ملك الإمبراطور المنخون كاليجولا. وفي عهد كلوديوس قيصر (٤١ - ٥٤ م) بُدئ في بناء معبد إسنا ومعبد فيلة في مصر. وخلال الفترة من سنة ٥٤ - ٦٨ م، حكم نيرون الطّاغية وامتد طغيانه إلى كل أرجاء مملكته. وفي عهده جاء القدّيس مرقس البشير إلى مصر يكرز بالمسيح مخلصاً. وبه تأسّست كنيسة الإسكندريّة.

٥١ - د. سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر اليوناني - الروماني، مرجع سابق، ص ٤٩٨ وما قبله.

مجيء المسيح له المجد إلى مصر

حينما كانت مصر ولاية رومانية، جاء المسيح له المجد إلى مصر هرباً من بطش هيرودس الملك، صحبة مريم أمه ويوسف خطيبها وسالومي ويوسيا بن يوسف^(٥٢).

وفي مايو ١٩٩٨م نشرت جامعة كولون بألمانيا، ولأوّل مرّة، برديّة أثرية ترجع إلى القرن الرابع الميلادي، تتحدّث عن فترة وجود المسيح والعائلة المقدّسة في مصر، مؤكّدة أن طفولة المسيح في مصر استمرّت ثلاث سنوات وأحد عشر شهراً، وهي الفترة التي كانت محلّ خلاف، وقدّرها بعض العلماء بسنة واحدة، بينما قدّرها آخرون بأكثر من ذلك.

وهذه البرديّة التّاريخيّة مكتوبة باللّهجة القبطيّة الفيوميّة، نسبة إلى منطقة الفيوم، وطولها ٥، ٣١سم، وعرضها ٤، ٨سم.

ويقول عالم القبطيّات الدكتور جودت جبره والمقيم في ألمانيا: إن هذه البرديّة تشكّل أهميّة علميّة وتاريخيّة كبيرة، لأنّها لا تشير إلى فترة وجود المسيح فقط في مصر، وإنّما تتحدّث عن مصر، وتصفها بأنّها أعظم أرض في العالم، وأن نيل مصر، لم ينضب طوال الدّهْر، وأن ثمارها أطيب ثمار.

وأضاف أيضاً بقوله:

إن عالمة الآثار جيزا شنكل ابنة عالم القبطيّات الألماني الكبير شنكل نشرت هذه البرديّة الموجودة في إحدى مكتبات جامعة كولون، وقالت: إن البرديّة تؤكّد أن البركة حلّت بمصر، وأن شهر بشنس هو أكثر شهور

السَّنة بركة، ولذلك نُجد الكنيسة القبطيَّة تحتفل في اليَوم الرَّابِع والعشرين منه بذكرى وجود العائلة المقدَّسة في مصر، وهو المرافق، الأوَّل من يونيو من كل عام (٥٣).



الفصل الثالث

مصر المسيحية

«في ذلك اليوم يكون مذبح للرَّب في وسط أرض مصر (إشعيا ١٩: ١٩)»،
وتحقَّق وعد الرَّب بضم نبيه الإنجيلي.

دخول القديس مرقس إلى الإسكندريَّة للكرازة بالمسيح^(١)

تأسَّست كنيسة الإسكندريَّة في مصر على يد القديس مرقس الرِّسول الذي عبر إلى الإسكندريَّة - عاصمة البلاد آنئذ - من جهتها الغربيَّة. ولم تكن جغرافية مصر آنئذ كما نعرفها اليوم بالضَّبْط. فقد قامت أدلة كثيرة على أن إقليم مريوط الواقع الآن غرب الإسكندريَّة لم يكن صحراء مجدبة لا يكاد الماء يوجد فيه، بل كان به كثير من المدن العامرة، وبساتين مسن النَّخيل، وأراضي واسعة ذات خصوبة. وكانت مدينة مريوط من أكبر مدائن هذا الإقليم. ومن اسمها أطلق الاسم على الإقليم كله.

ويرد في كتب بطليموس وسترابو كثير من أسماء المدن التي كانت زاهرة في هذا الإقليم. ويذكر المقريري أن إقليم مريوط كان يزدهم بالبيوت والحدائق المنثورة إلى حدود برقة غرباً. أما الأرض التي تحت الرِّمال

١- سأشرح بتفصيل في كتاب آخر موضوع دخول المسيحيَّة إلى مصر قبل قدوم مار مرقس الرِّسول إليها. وكيف كان شكل هذه المسيحيَّة المبكرة في مصر قبل تأسيس كنيستها على يد القديس مرقس. وذلك لكي يظل حجم الكتاب الذي بين يديك معقولاً.

فهي من الغرين (الطمي)، وهذا يُعزِّز ما كان يُعرف عنها من الخصب.

ومن المحقق أن إقليم مصر في القرن الأوَّل الميلادي كان ينتهي حيث يبدأ إقليم "قيرين" (الذي يقع في ليبيا الآن). ولم يكن يفصل بين الإقليمين مساحة من الأرض لا يمكن عبورها، بل ظلَّ الطَّرِيق بين بنتابوليس (الخمس مدن الغربية) والإسكندرية طريقاً متصلاً ليس من عائق يعوق السَّير فيه.

نبذة عن الخمس مدن الغربية (بنتابوليس)

تقع الخمس مدن الغربية كلها في الشَّمال الشَّرقي من ليبيا، على البحر المتوسَّط، وسُميت كذلك تمييزاً لها عن الخمس مدن الشَّرقية في الجزء الشَّرقي من ساحل البحر المتوسَّط وهي: سدوم - عمورة - أدمة - سيجور - وصبوئيم. أما المدن الخمس الغربية فهي:

١- القيروان: أو قورينة، أو قرنية، أو قرين، أو سيرين Cyrene وتبعد ٢٢٤ كيلومتراً شرق بنغازي، واسمها الآن "شحات". أنشأها الإغريق والليبيون سنة ٦٣١ ق م، ومنها سمعان القيرواني. وبها آثار مسيحية هامة. وقد هُجرت المدينة في العصور الوسطى.

٢- برنيق: وهي بنغازي الآن، وقد سُدَّت سنة ٤٦٠ ق م، وكان اسمها "سيريدس"، أو "هيريس - Heaperis"، أو "هسبريدس - Hesperides". وفي عهد البطالمة غيَّروا اسمها إلى "برنيق"، وهو اسم زوجة بطليموس (٢٤٦ ق م). وتقع على البحر المتوسَّط مباشرة. ومنذ سنة ١٤٧٩ م أصبح اسمها "بنغازي"، وقد اكتُشفت بها كنيسة تعود إلى القرن السَّادس.

٣- بركة: أو "باركة". وتُسمى حالياً "المرج"، وهي تبعد ١٠٠ كم غرب بنغازي. وسُميت المرج لمروجها الخضراء الخصيبة، ولها

ميناء قديمة تُدعى "بطولمايس - Ptolemais" ، وتُعرف الآن باسم "ظلميته". وتقع شمال المرج على بعد ٢٤ كيلومتراً منها على البحر المتوسط مباشرة. ولقد تأسست مدينة برقة سنة ٥٥١ ق م، وتغيّر اسمها إلى المرج في القرن الثاني عشر.

٤- طوشيرا: وهي الآن "العقوريَّة"، وتقع على بعد ٧٥ كيلومتراً شرق بنغازي، وسُميت أيضاً "أرسينوي - Arsenoe". كما تُدعى أيضاً "طوكرة"، وقد بُنيت في القرن الثالث قبل الميلاد، وبها آثار كنائس، وتبعد عن العقوريَّة بحوالي ثلاثة كيلومترات.

٥- أبوليننا: وهي "سوسة"، وتقع على ساحل البحر، حوالي ٣,٥ كيلومتر من "شحات" لتكون ميناء لها. وسُميت كذلك نسبة للإله "أبوللو" كبير الآلهة، وحامي الإغريق. وسُميت أيضاً "سوزوسا"، ثم "سوسة". وحدير بالذكر أن هناك مدينة أخرى في تونس تُدعى "سوسة"، ويجب عدم الخلط بينهما^(٢).

وعندما فتح عمرو بن العاص الإسكندرية، اتجه إلى إقليم بنتابوليس وسار نحوه فاتحاً برقة، وقيرين، وليس في وصف تلك الفتوح ما يشير إلى أن العرب في مسيرهم إلى قيرين تغلبوا على صعاب طبيعِيَّة قابلتهم.

ولدينا من الأدلة ما يشير صراحة إلى أن كل أرض الساحل الواقعة إلى الغرب من مصر بقيت أهلة بسكانها حتى إلى ما بعد ثلاثة قرون من الفتح العربي، أي إلى القرن العاشر تقريباً.

ويذكر المقرئزي أن إقليم بنتابوليس كان يبدأ بعد مدينتي "لويبة"،

٢- عن مقال بعنوان: "الخمس مدن الغربية" لنيافة الأنبا باخوميوس أسقف البحيرة والخمس مدن الغربية، مجلة الكرازة، ٢٥ مارس ١٩٩٤م، ص ٤، ٥

”مراقية“. ويؤكد المسعودي أن إقليم ”لوية“ كان به أربع وعشرون مدينة ما عدا القرى الصغيرة. ويصف المقريري مدينة مراقية على أنها كورة من كور مصر، وهي آخر حدود أراضي مصر. وفي آخر أراضي مراقية تلقى أرض بنتابوليس وهي برقة وما بعدها من مدن. وكانت ”مراقية“ قطراً كبيراً به نخيل كثير ومزارع، وبه عيون جاربية، وكان يُزرع فيها القمح والأرز لكثرة مياهها. وبها بساتين كثيرة. وفي سنة ٩١٦م، نرح أهل لوية ومراقية إلى الإسكندرية خوفاً من صاحب برقة. ولم تنزل في اختلال إلى أن تلاشت في القرن الخامس عشر^(٣).

إذا فعندما جاء القديس مرقس ليكرز بالمسيح في مصر، عبّر على بلاد مصرية عامرة بالسكان، تموج بالحياة، لكنه قصد العاصمة الإسكندرية ليبدأ منها بشارته. وكانت صرخة أنيانوس Anianus - أول من بشره القديس مرقس بالمسيحية - ”يا الله الواحد“ واسطة لكراسة مار مرقس لكل المدينة بهذا الإله الواحد ذي الثلاثة أقانيم، الإله الذي خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، والذي نزل إلينا على الأرض، أخذاً صورتنا بعينها، ليعيش بيننا ويحمل آلامنا، ويمنحنا حياة الأبد بمعرفته. وقبل أن يستشهد مار مرقس في الإسكندرية في ٢٥ أبريل سنة ٦٣م^(٤)، رأي كنيستها نامية راسخة بعد أن ألفت عنها عبادتها الوثنية الراقية التي كانت تؤمن بالتوحيد والحياة الأخرى، لتقبل سر الإيمان المسيحي الجديد.

وطبقاً لتعريف كلمة ”قبط“ كما سبق أن ذكرنا، يكون معنى اسم ”الكنيسة القبطية“ هو ”الكنيسة المصرية“ ولا فرق بين الاسمين.

٣- د. ألفريد ج. بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٨- ١٤

4_ O. H. E. Burmester, *op. cit.*, p. 1.

مدرسة الإسكندرية المسيحية

تأسست مدرسة الإسكندرية اللاهوتية في منتصف القرن الأول الميلادي على يد القديس مرقس الرسول، في مواجهة مدرسة الإسكندرية الوثنية الشهيرة. فقد أدرك القديس مرقس بحسب ثقافته العبرية واللاتينية واليونانية أنه لا بد من مواجهة الأفكار الوثنية المتأصلة بين الفلاسفة والعلماء بفكر مسيحي راق مستنير. فأنشأ مدرسة لاهوتية مسيحية وعيّن لرئاستها العلامة يُسطس (الذي أصبح فيما بعد الأسقف السادس لكنيسة الإسكندرية) والذي تولى رئاستها في أواخر سني حياة القديس مرقس الرسول، وعاصر أربعة بطاركة من بعد مار مرقس الكاروز. وكان التعليم في المدرسة يقوم على طريقة "الكاتشيزم" بمعنى التعليم بطريقة السؤال والجواب. فكانت المدرسة حيث يكون المعلم، لأنه لم يكن للمدرسة آنذ مبنى خاص بها، بل حلقات دراسية يجتمع فيها التلاميذ حول المعلم. ويدرس فيها إلى جوار العلوم الدينية، الفلسفة والمنطق، والطب، والهندسة، والموسيقى. وكان العلامة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) يستأجر قاعات ليعظ فيها في أيام الاضطهاد والاستشهاد.

لقد أصبحت كنيسة الإسكندرية في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث للميلاد مركزاً للفكر المسيحي بمدرستها الشهيرة. وكان منصب رئيسها يلي في الأهمية منصب بطريرك الكنيسة، بل غالباً ما كان رئيس المدرسة يُختار لمنصب البطريرك.

وتولّى مدرسة الإسكندرية ستة عشر رئيساً كان آخرهم هو "زودون" في زمن البابا كيرلس الكبير (٤١٢-٤٤٤م). واشتهرت المدرسة جداً في زمن البابا ديمتريوس الأول (١٨٩-٢٣٢م) إذ تولى رئاستها بنتينوس (+ ١٩٠م) الذي كان له الفضل الكبير على اللغة

القبطية، ومن بعده العلامة كليمنديس الإسكندري (١٥٠ - ٢١٥م) الذي آمن بالمسيحية على يد القديس بنتينوس، وصار من أشهر علماء المسيحية، ووضع كتباً عديدة أشهرها "المرشد أو المرابي"^(٥)، "المتفرقات"^(٦)، ثم العلامة أوريجانوس (١٨٥ - ٢٥٢م) أشهر فلاسفة المسيحية وعلمائها بلا منازع، ومن أشهر مؤلفاته "الهكسبلا" وهي سداسيته المشهورة في نصوص وترجمات الكتاب المقدس المختلفة، كما فسّر غالبية أسفار الكتاب المقدس، ومن كتبه أيضاً: "الرّد على كلّسوس"، "الصلاة" وعنه ظهرت مدرسة التفسير الرمزي للكتاب المقدس والذي اشتهرت به مدرسة الإسكندرية. وهو النهج الذي سار عليه أغسطينوس فيما بعد. ومعظم المصطلحات اللاهوتية التي ظهرت في القرن الرابع الميلادي لدحض هرطقة أريوس مأخوذة من كتابات هذا المصري النابغة.

فبعد القديس يسطس تولى رئاستها أومانيوس في عهد يسطس أسقف الإسكندرية، ثم أعقبه ماركيانوس في عهد أومانيوس أسقف الإسكندرية.

وفي زمن ثاؤنا أسقف الإسكندرية تولى رئاسة المدرسة: ياروكلاس، ثم يونيسوس الذي صار البابا ديونيسيوس الكبير (٢٤٧ - ٢٦٥م)، ثم ثاؤغستس، ثم بيروس الذي لقب بـ "أوريجانوس الصغير" لغزارة علمه، ثم أرخيلالوس الذي صار البابا أرخيلالوس.

وفي زمن البابا أرخيلالوس تولى رئاستها: بطرس الذي صار البابا بطرس خاتم الشهداء.

وفي زمن البابا أثناسيوس الرسولي (٢٥٦ - ٣٧٣م) تولى رئاستها:

٥ - وهو في ثلاثة أجزاء لتثقيف عقول حديثي الإيمان بمعرفة الإنجيل.
٦ - في ثمانية مجلدات، وهو مقالات في مواضع فلسفية، وحقائق إنجيلية، وقد فقد منها المجلد الثامن.

سراييون، ثم مقار السياسي.

وفي زمن البابا كيرلس الكبير (٤١٢ - ٤٤٤م) تولى الرِّئاسة: ديديموس الضَّرير العالم اللاهوتي القدير، وصاحب كتاب "الرُّوح القدس"، إلى جانب كتب كثيرة في اللاهوت والعقيدة والتفسير. وأخيراً زودون.

ومن مدرسة الإسكندرية المسيحية تخرَّج كثير من الفلاسفة والعلماء مثل الفيلسوف أثيناغوراس، وهو من المدافعين المشهورين عن المسيحية وعقائدها. والبابا أناسايوس الرسولي أب علماء اللاهوت في العالم، وواضع قانون الإيمان المسيحي. وبسبب هذه المدرسة أيضاً انضم كثير من الوثنيين إلى الديانة المسيحية، وكانت المدرسة تركز بالمسيح خارج حدود مصر أيضاً. وتطوّرت هذه الجامعة المسيحية حتى أصبحت من أقوى جامعات العالم القديم حينذاك، وكان باب العلم فيها مفتوحاً للشَّعب من السَّادة والعبيد، ومن الذكور والإناث، ويعد هذا أوَّل نظام للتَّعليم المختلط عرفه التاريخ، بغض النَّظر عن الدِّين أو الجنس أو الثَّقافة. وبذلك حطمت هذه الجامعة كل الفوارق الاجتماعية، وفتحت أبوابها أيضاً للفلاسفة الوثنيين والمهراطقة لكي ينهلوا من العلوم التي تدرس فيها. وبذلك قامت نهضة علمية وفكرية واسعة النِّطاق لا نظير لها في أي بلد من بلدان العالم المتقف، وكانت مصر مقصداً لكل راغب في الدِّراسات العليا في شتى المعارف. ويقول العلامة إيبانوس ماركلينوس في القرن الرابع الميلادي، إنه يكفي للطبيب الصَّيدلي للتدليل على مهارته قوله إنه تعلم في الإسكندرية بجامعة المسيحية. وهذه الشهرة الواسعة التي نالتها مصر المسيحية في علوم الطب والكيمياء والصَّيدلة كامتداد وتطوير لما كان يُدرِّس في العصور الفرعونية، جذبت إليها العلماء من جميع أقطار الأرض للدِّراسة على يد أساتذتها، ومنهم الطَّبيب الإغريقي جالينوس في القرن

الثاني الميلادي^(٧).

ومع حدوث الانشقاق أفل نجم المدرسة، وبعد حين اندثرت معالمها، فيغيب القرن الخامس وتغيب معه مدرسة الإسكندرية. وتدخل بالتالي كنيسة الإسكندرية في عهود مظلمة، حتى يُخيم عليها الجهل في العصور الوسطى باستثناء فترة بسيطة منها. فقد كان ازدهار الكنيسة اللاهوتي والديني مقترناً بازدهار مدرستها اللاهوتية.

وبعد قرابة خمسة عشر قرناً من الزمان، وفي نوفمبر سنة ١٨٩٣م أعاد البابا كيرلس الخامس افتتاح مدرسة الإسكندرية باسم الكلية الإكليريكية، وذلك في مبنى لها بجي مهمشة بالقاهرة^(٨). وفي سنة ١٩١٨م أسند رئاستها إلى الأرشيدياكون حبيب جرجس (١٨٦٦ - ١٩٥١م) الذي كان أوّل من قام بالتدريس فيها. فكانت البداية الجديدة لنهضة في التعليم الديني والكنسي. وإعادة بعث اللغة القبطية، ومحاولة إعادة مدرسة الإسكندرية إلى سابق عهدها بعد أن زال نورها وطواها النسيان. وكان افتتاح الدراسة بقسمها المسائي في أكتوبر سنة ١٩٤٦م^(٩).

٧- د. سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر اليوناني - الروماني، مرجع سابق، ص ٥٢٦، ٥٢٧

٨- استمرت الكلية الإكليريكية بهذا المكان طيلة ٦٠ سنة، أي حتى سنة ١٩٥٣م، حيث انتقلت إلى مقرها الحالي بدير الأنبا رويس بالقاهرة، وكان الفضل الأول في ذلك للقمص صليب سوريال، أستاذ القانون الكنسي بالكلية الإكليريكية.

وعلى مدى قرن من الزمان (١٨٩٣ - ١٩٩٣م) بلغ إجمالي عدد الخريجين ٩٧٠ من القسم الصباحي، ٧٢٢ من القسم المسائي، ١٠٩٤ من الفروع التسعة. المذكور ٢٤١٠، الإناث ٢٨٥.

٩- الجدير بالذكر أن أول من تخرج في القسم المسائي للكلية الإكليريكية هو قداسة البابا شنودة الثالث سنة ١٩٤٩م.

وفي عصر قداسة البابا شنودة الثالث تم افتتاح فروع للكلية الإكليريكية في الإسكندرية في فبراير سنة ١٩٧٢م، والدَّير المحرق في سبتمبر سنة ١٩٧٣م، وطنطا في أكتوبر سنة ١٩٧٦م^(١٠)، والمنيا في نوفمبر سنة ١٩٧٦م، والبلينا في ديسمبر سنة ١٩٧٦م. وشيئ الكوم في نوفمبر سنة ١٩٧٧م. بخلاف ما تم افتتاحه من فروع لها في قارات العالم المختلفة.

وفي سنة ١٩٩٦م تم إحلال وتحديد كلي لمكتبة الإكليريكية بالقاهرة، حتى تليق بالصَّرح العلمي الذي يحتويها. كما تم إدخال مادة الكمبيوتر في منهج الكلية بشكل رسمي لمواكبة مستجدات العصر. وكذلك تدريس النوتة الموسيقية لضبط الألحان القبطية، وتحقيق حلم المتنيح دكتور راعب مفتاح^(١١) بعد رحلة كفاح طويلة قضاها في خدمة ألحان الكنيسة القبطية ليرى في النهاية ثمرة جهده، وقد تخطى المائة من عمره.

إلا أن المواد التي تدرس في الإكليريكية حتى اليوم لازالت في معظمها دينية بحتة، إلى جانب بعض من المواد الاجتماعية والإنسانية. ولقد نهض القسم المسائي بالكلية هوضاً ملحوظاً، وهو الذي يوفر لكلا الجنسين التَّعليم وفقاً لنظام التَّعليم المفتوح الذي ابتدعه الجامعات المدنية في السَّنوات الأخيرة.

إرساليات تبشيرية من الكنيسة القبطية في الأربعة قرون الأولى

تُجمع الروايات التَّاريخية على أن المسيحية قد دخلت بلاد النوبة عن

١٠- أصدر البابا شنودة الثالث قراراً ببدء الدِّراسات العليا بالكلية الإكليريكية فرع طنطا ابتداءً من العام الدراسي ١٩٩٥-١٩٩٦م.

١١- أوردت ترجمة شاملة له عند الحديث عن الموسيقى القبطية، وذلك في كتاب "الكنيسة، ميناها ومعناها".

طريق المبشرين المصريين من التُّجار في القرنين الأوَّل والثَّاني كما يذكر سومرز كلارك^(١٢) Somers Clark ومرقس سميكة باشا^(١٣). وذلك قبل بعثات التَّبشير الرَّسميَّة التي أرسلها كل من الإمبراطور جستنيان وزوجته ثيودورة إلى ممالك النوبة في منتصف القرن السَّادس الميلادي. ومن الحفريَّات الأثريَّة التي عثرت عليها البعثة البولنديَّة في "فُرس" وهي بقايا كنيسة بُنيت بالطوب اللَّبن، وكذلك الفخَّار المكتشف بين الحطام، والذي يشير إلى احتمال بنائها في نهاية القرن الرَّابع، يعني أن جماعة مسيحيَّة أقامت في "فُرس" في ذلك الوقت المبكر.

ويخلص الباحث الأثري الدكتور محمد غيطاس^(١٤) إلى أن هذا الوجود المبكر للمسيحيَّة في بلاد النوبة ربما يدعو إلى الاعتقاد بأن البعثات التَّبشيريَّة التي أتت بعد ذلك من الكنيستين المملكانيَّة والمونوفيزيَّة لم تكن سوى محاولة للاطمئنان على ولاء النوبيين لأتباع هاتين الكنيستين^(١٥). ولنا عودة للحديث عن مملكة النوبة بأكثر تفصيل.

ومن جهة أخرى ذهب العلامة الفيلسوف القدَّيس بنتينوس رئيس المدرسة اللاهوتيَّة بالإسكندريَّة إلى بلاد الهند واليمن وساحل بحر مالابار في القرن الثاني الميلادي، وبشَّر هناك بالإنجيل. وذهب العلامة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) إلى سوريا وبلاد العرب للغرض نفسه، ولما نُفي القدَّيس أناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م) إلى بلجيكا، بشَّر هناك

12. Somers Clark, *Christian Antiquities in the Nile Valley*, Oxford, 1912, p. 8

١٣- مرقس سميكة، دليل المتحف القبطي وأهم الكنائس والأديرة الأثريَّة، الجزء الثاني، ص ١٤٠.

١٤- الدكتور محمد غيطاس، حملة اليونسكو، وأضواء جديدة على تاريخ النوبة، دار المعرفة

الجامعيَّة، الإسكندريَّة، ١٩٨٧

١٥- انظر: جان كومي Jean Comby، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، دار المشرق،

بيروت، ١٩٩٤م، ص ١٠٦، ١٠٧.

بالإنجيل، وأسس الحياة الرهبانيّة الديريّة هناك. والأقباط هم الذين أسسوا كنيسة إثيوبيا الأرثوذكسيّة منذ أيام البابا أثناسيوس الرّسولي الذي رسم لها أوّل أسقف.

ومن الأقباط من ذهب وبشّر بالإنجيل في سواحل فرنسا الجنوبيّة ومنها جزيرة "ليرنز" (١٦) - Lerins. ومنهم من ذهب وبشّر بالإنجيل في أيرلندا. وفي أيرلندا مقبرة تُعرف هناك باسم "مقبرة الرهبان المصريين السبعة"، في منطقة "ديزرت أوليدا - Desert Oleda". ولقد ذهبت كتيبة قبطيّة بقيادة القائد القبطي "موريس" وبشّروا بالإنجيل في سويسرا في أواخر القرن الثالث الميلادي، وماتوا شهداء عندما رفضوا أن يقبّلوا ذبائح للآلهة الوثنيّة. ودُعي اسم المكان من بعدهم "سان موريس"، ولازال الختم الرّسمي لإقليم زيورخ يحمل صورة لثلاثة أقباط بشّروا بالمسيحيّة فيه.

عصر الاستشهاد

وعبرت الكنيسة حقبة الاضطهاد المشرقة التي دفعت فيها ثمن حبّها لمسيحها. راضية بالألم وقبول الصّليب. وعلى قدر عنف الاضطهاد كان رسوخ الكنيسة. لقد خاضت المسيحيّة الناشئة في مصر اختبار الإيمان في أتون محمّي سبعة أضعاف، وخرجت منه طاهرة كالشمس. وكان لسان حال الكنيسة بعد عبورها عصر الاستشهاد «جزنا في النّار والماء وأخرجتنا إلى الرّاحة»^(١٧). أي ماء المعموديّة، ونار الآلام، وراحة السّماء.

ويحسب المؤرّخون أن الاضطهادات التي جازتها الكنيسة على يد

16. A. J. Butler, *The Ancient Coptic Churches of Egypt, Oxford, 1884, vol. I, p. 14*

١٧ - مزمور ١٢:٦٦ بحسب الترجمة السبعينية

الاباطرة الرومان تنقسم إلى عشرة اضطهادات كبيرة هي:

• **اضطهاد نيرون (٥٤ - ٦٨م):** حيث بدأ الاضطهاد سنة ٦٤م في السنة العاشرة لحكم ذلك الطاغية، بعد أن أحرق روما في نفس هذه السنة وجعل من المسيحيين كبش الفداء لفعلة الشنعاء. وكان مضرب الأمثال في الشر. وانتحر وهو في سن الثانية والثلاثين، ولم يُعثر له على جثة أو قبر^(١٨).

• **اضطهاد دومتيان (٨١ - ٩٦م):** دعا نفسه "رباً وإلهاً"^(١٩)، وشيد سروحاً ضخمة وأعاد بناء الكاينيتول^(٢٠)، وأقام عبادة إيزيس وسيرايس في روما نقلاً عن مصر^(٢١). قُتل في قصره بعد أن وقع في قبضة أعدائه، وقرر مجلس الشيوخ الروماني محو اسمه، حتى لا يبقى له ذكر لتكريمه^(٢٢).

• **اضطهاد تراجان (٩٨ - ١١٧م):** ويُدعى أيضاً ترايانوس، وهو أوّل إمبراطور يعلن أن المسيحية ديانة محرّمة، وأصدر تشريعات صارمة سارت عليها الدولة في معاملة رعاياها من المسيحيين لأكثر من قرن من الزمان^(٢٣). وقد أعاد فتح قناة نخاو - داريوس، بين النيل والبحر الأحمر، باسم "أمينيس ترايانوس"^(٢٤).

وفي خلال الفترة (١١٧ - ١٣٨م) كان الإمبراطور أدرينانوس

١٨ - القمص شنوده السرياني (الأبنا يوانس أسقف الغربية السابق)، الاستشهاد في المسيحية، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ٢٥٢

١٩ - نفس المرجع، ص ٥٣

٢٠ - نفس المرجع، ص ٢٥٣

٢١ - حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٦٣

٢٢ - القمص شنوده السرياني، الاستشهاد في المسيحية، مرجع سابق، ص ٢٥٣

٢٣ - نفس المرجع، ص ٥٣

٢٤ - حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٦٣

(هدريان) وقد زار مصر في سنة ١٣٠م وقام بالعمل على ترميم الكثير من المباني الأكاديمية المتهدمة، وزار دار الحكمة بها واجتمع بعلمائها^(٢٥). وأنشأ مدينة أنطونوي أو أنطوبوليس^(٢٦)، وزارها مرّة أخرى بصحبة زوجته الإمبراطورة.

وجاء بعده أنطونيوس بيوس (١٣٨ - ١٦١م): وفي عهده كان بطليموس العالم الفلكي والجغرافي يتابع دراساته في الإسكندرية حوالي سنة ١٥٠م^(٢٧).

• اضطهاد مرقس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠م): كان فيلسوفاً رواقياً ذا ثقافة عالية، وبرغم ذلك فقد اعتبر المسيحية خرافة سخيفة متعصبة^(٢٨)، زار الإسكندرية في سنة ١٧٦م.

وفي الفترة (١٨٠ - ١٩٢م) كان الإمبراطور قومودس، وفي عهده وصلت مدرسة الإسكندرية المسيحية إلى قمة مجدها بفضل أساتذتها الأوائل بتينوس وكلميندس وأوريجانوس.

• اضطهاد سبتيموس ساويرس (١٩٣ - ٢١١م): أصدر مرسوماً في سنة ٢٠٢م يقضي بمنع المسيحيين من تبشير غيرهم، كان سبباً في اضطهادهم^(٢٩).

-
- ٢٥ - د. سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر اليوناني - الروماني، مرجع سابق، ص ٥٠٦.
- ٢٦ - مكانها الآن قرية الشيخ عبادة، على الشاطئ الشرقي للنيل، إلى الشمال من ملوي.
- ٢٧ - حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٦٤.
- ٢٨ - القمص شنودة السرياني، الاستشهاد في المسيحية، مرجع سابق، ص ٥٤.
- ٢٩ - نفس المرجع، ص ٥٦.

وفي عهد الإمبراطور كاراكلا (٢١١-٢١٧م) دارت كثير من المذابح في الإسكندريين، وقد زار مصر، ومنح كل سكان مصر حقوق المواطنة الرومانية. أما الإمبراطور اسكندر ساويرس (٢٢٢-٢٣٥) فقد كان متسامحاً مع المسيحيين، بل وضع صورة السيد المسيح في قصره إلى جانب صور الآلهة الوثنية^(٣٠).

• اضطهاد مكسيمينوس التراقي (٢٣٥-٢٣٨م): عامل المسيحيين ببربرية وقسوة، ومكّن الدهماء من التَّنكيل بهم، كما اتخذ إجراءات عنيفة ضد رجال الدين منهم.

• اضطهاد ديسيوس (٢٤٩-٢٥١م): ويُدعى أيضاً ديقوس Decius، أصدر مرسوماً ترتب عليه أول اضطهاد شامل للمسيحية، سقط في أيدي البرابرة في إحدى حملاته ضدّهم، فذبحوه هو وابنه وعدد كبير من جيشه، ونهشت جسده الوحوش والطيور الجارحة^(٣١).

• اضطهاد فالريان (٢٥٣-٢٦٠م): استحدث أسلوب نفي رجال الإكليروس، وتجريد المسيحيين من ألقابهم وممتلكاتهم، وتسخيرهم في العمل في ضياع الإمبراطور، إلى جانب قطع رؤوسهم بالسيف. وفي حربه مع الفرس وقع أسيراً في أيديهم، وعاش بقية أيامه كعبد، ومات في أسره.

وتولى ابنه جالينوس (٢٧٠-٢٦٨م): فاعتبر المسيحية ديانة مصر حراً بها^(٣٢)، في عهده أُصيبت مصر بوباء، وثار الجنود الرومان في الإسكندرية مرتين في عهده، وأعلنوا في كليهما إمبراطوراً جديداً، فقتلوا. وفي آخر

٣٠- نفس المرجع، ص ٥٦

٣١- نفس المرجع، ص ٥٧، ٢٥٣

٣٢- نفس المرجع، ص ٥٩

عَهده احتلت الملكة زنوبيا أميرة تدمر الوجه البحري في مصر، واحتل البليميون بعض الصَّعِيد، ولكن القائد بروبوس أعاد مصر في سنة ٢٧٠م إلى الحضيرة الرُّومانيَّة^(٣٣).

• اضْطهاد أوريليان (٢٧٠ - ٢٧٥م): أصدر مرسوماً بقتل المسيحيين، كان من أثره مذابح مروَّعة في أماكن شتى، ذبحه أصدقاؤه المقربون في إقليم تراقيا^(٣٤).

وخلفه على العرش الإمبراطوري ستة أباطرة في خلال ثماني سنوات انتهت باعتلاء ديوكلتيانوس العرش. وخلال الفترة من سنة ٢٧٦ - ٣٠٣م وهي حوالي ٢٧ سنة هدأت حدَّة الاضطهاد على الكنيسة فكانت فرصة مواتية لتنظيم حياتها الدَّاخِلِيَّة، ومع الهدوء ظهرت مشاكل كنسية كثيرة، وبدأ روح العالم يدخل إلى الكنيسة^(٣٥).

• اضْطهاد ديوكلتيانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م): دعا نفسه "رب وسيد العالم"، ولم يسمح لأحد الاقتراب إليه إلا وهو راكع^(٣٦)، ثار أهل الصَّعِيد في عهده، وهاج شعب الإسكندرية فجاء الإمبراطور بنفسه، وقاد أفسى اضطهاد روماني للمسيحيين في مصر^(٣٧).

وفي سنة ٢٨٥م عيَّن مكسيميانوس هر كوليوس مساعداً له في الغرب، وفي سنة ٢٨٦م صار إمبراطوراً للغرب، وبقي ديوكلتيانوس إمبراطوراً للشَّرق. وفي سنة ٢٩٢م عين مساعداً لكل منهما برتبة قيصر،

٣٣ - حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٦٥

٣٤ - القمص شنودة السرياني، الاستشهاد في المسيحية، مرجع سابق، ص ٥٩، ٥٣

٣٥ - انظر: نفس المرجع، ص ٦٠

٣٦ - نفس المرجع، ص ٦٠

٣٧ - حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٦٥

فَعَيْنَ جاليريوس (زوج ابنته فالريا) معه في الشَّرق، وقسطنطينوس كلوروس (٣٨) للغرب.

وفي فبراير سنة ٣٠٣ م صدر منشور يقضي بهدم الكنائس وحرق الكتب المقدَّسة، وطرد جميع المسيحيين من ذوي المناصب الرفيعة وحرمانهم من الحقوق المدنيَّة. وصدر منشوران متلاحقان في مارس من نفس السَّنَة يقضي أولهما بسجن جميع رؤساء الكنائس، ويقضي ثانيهما بتعذيبهم بقصد دفعهم لجدد الإيمان.

وفي إبريل من ذات السَّنَة أصدر مكسيميانوس هر كوليسوس المنشور الرَّابع، وهو أسوأها، ويقضي بإرغام جميع المسيحيين على أن يضحوا للآلهة، وكان القصد من هذه المنشورات محو المسيحية من الوجود (٣٩). لكنه هو الذي فارق الوجود، إذ شق نفسه ومات منتحراً سنة ٣١٠ م.

أما جاليريوس معاون ديوكلتيانوس في الشَّرق، فقد مرض مرضاً خطيراً كriebها أواخر سنة ٣١٠ م حيث ضرب بالقروح البشعة التي انتشرت في كل أجزاء جسمه، وكانت نفوح منها رائحة نتنة جداً، ما كان أحد يستطيع الاقتراب منه بسببها. فالتجأ إلى إله المسيحيين، وأصدر مرسوم تسامح للمسيحيين، يطلب فيه منهم أن "يتضرعوا لإلههم من أجل سلامتنا"، ومات في مايو سنة ٣١١ م (٤٠).

لقد أصيب ديوكلتيانوس بلوثة عقليَّة، واعتزل الحكم تحت وطأة المرض الذي لم يدعه يقدر أن يأكل أو يرتاح، بل كان يتأوه وينوح

٣٨- هو والد الإمبراطور قسطنطين الكبير.

٣٩- القمص شنودة السرياني، الاستشهاد في المسيحية، مرجع سابق، ص ٦٤

٤٠- يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، ١٣:٨، مقتبس عن: القمص شنودة السرياني،

الاستشهاد في المسيحية، مرجع سابق، ص ٢٥٤

ويكي دائماً، وفقد بصره، وقد حُطِّمَت تماثيله، وأزيلت صورته. أنهى حياته في سنة ٣١٣م في نفس السَّنَةِ التي أصدر فيها قسطنطين مرسوم التَّسامح الدِّيني للمسيحيين.

وفي سنة ٣٠٨م أصدر مكسيمينوس دازا (ابن أخ جالوريوس) منشوراً خامساً يقضي بسرعة إعادة بناء مذابح الأوثان، وأن يقدم جميع الرِّجال والنِّساء والأولاد وحتى الأطفال الرُّضْع الذبائح والسَّكائب، مع إكراههم على تذوق التَّقدمات. وفي سنة ٣١١م أمر مكسيمينوس دازا بإقامة الهياكل في كل مدينة، وعيَّن كهنة للأصنام، وأقام عليهم في كل مقاطعة موظفاً سياسياً كرئيس كهنة، ومنح جميع المشعوذين وظنائف إدارية. وكأها صحوة الموت الأخيرة للوثنية، كعبادة أن لها أن تزول.

لقد أذاق مكسيمينوس دازا المسيحيين أشر وأفظع أنواع العذاب في الشَّرق، وخاصة في مصر وسوريا. ولكنه اندحر بجيوشه أما ليكينيوس سنة ٣١٣م. ويذكر يوسابيوس المعاصر، أن جيشه أريد وتنحى عنه كل حرسه، وتركوه وحيداً وهربوا لحياتهم، أما هو فترع ملابسه الملكية، وتحفَّى بين النَّاس في جن، واختبأ في الحقول والقرى، وعاد إلى بلاده يغطيه الخزي، وفي ثورة جنونية قتل كثيراً من كهنة الأوثان الذين أوحوا إليه بدخول الحرب.

وفي ذلك الوقت أصدر قسطنطين وليكينيوس مرسوم التَّسامح من ميلان، فأصدر هو من نيقوميديا مرسوم تسامح للمسيحيين على غرار مرسوم ميلان، وإن كان أقل منه من جهة الحرِّية التي منحها للمسيحيين، لكنه سرعان ما تعاطى سماً للانتحار، ونظراً لقوة جسده، فلم يقض عليه السُّم مباشرة فظهرت عليه أعراض تشبه الطَّاعون، وامتدت به الأيام حتى تزداد آلامه، ومن شدَّة الآلام التي حلَّت به كانت تتابه نوبات يفقد فيها

عقله، فكان يلتهم تراب الأرض بشرائه. وفي أحد الثوبات صدم بعنف حائطاً بجهته، فحفظت عيناه، وفقد بصره... وأخذ يصيح أنه برئ. وأخيراً اعترف بجريمته وناح، وتضرع إلى المسيح أن يرحمه، وهكذا خلال هذا التحيب الصادر عن إنسان وكأنه يحترق حياً، لفظ أنفاسه المذنبه، في أبشع صورة للموت سنة ٣١٤م^(٤١).

ولم يكن نصيب ديوكليتيانوس من الاضطهاد سوى سنتين وشهرين (٣٠٣ - ٣٠٥م)، ولكن الاضطهاد استمر حتى سنة ٣١٣م، في الشرق على يد جالوريوس ومكسيمينوس دازا. وكانت أشد فترات هذا الاضطهاد وطأة هي الفترة من (٣٠٨ - ٣١١م)، وكان المحرك الأكبر للاضطهاد فيها هو مكسيمينوس دازا. وبقدر ما أساء إلى الكنيسة، بقدر ما دفع حياته ثمناً لإثمه في مذلة مهينة، على مشهد ومسمع لكل من يعتبر دروس التاريخ.

ووصل ليكنيوس إلى الشرق، وصار إمبراطور الشرق. وفي محاولة ضعيفة خرج على قسطنطين، وجدد اضطهاد المسيحيين لفترة قصيرة، لكنه هُزم أمام قسطنطين سنة ٣٢٣م، فأصبح هذا الأخير هو الحاكم الوحيد للإمبراطورية شرقاً وغرباً.

ولم يكن عند مصر المسيحية في غمرة موقعة الاستشهاد وقتاً للأدب أو الفن كما كان أدب مصر وفنها في عصور الفراعين بشموخها، فاقصر الأدب القبطي على أقوال الآباء وسير القديسين والإصلاح الاجتماعي والآداب الكنسية، وشئ من قصص^(٤٢).

وبرغم أن المسيحية في مصر بدأت في الإسكندرية اليونانية، إلا أنه

٤١ - القمص شنوده السرياني، الاستشهاد في المسيحية، مرجع سابق، ص ٢٥٣، ٢٥٤

٤٢ - د. نعمات أحمد فؤاد، نخبة مصر، مرجع سابق، ص ١٦٠

في القرن الثالث الميلادي كان قد تحوَّل عدد كبير من الأقباط إلى المسيحيَّة، فُترجم الكتاب المقدَّس والليتورجيَّة إلى القبطيَّة، لغة البلاد الوطنيَّة. ولقد تصدَّت الكنيسة القبطيَّة لمواجهة الأفكار اللاهوتيَّة السوفسطائيَّة الهيلينيَّة في الإسكندريَّة بما تحمله من تأمل عقلي نظري وقف على النقيض من التَّقوى التقليديَّة الشَّعبية في الجنوب. فلقد انتقلت الثقافة القبطيَّة انتقالاً شفهياً من خلال الأقوال والأمثال والطقوس أكثر من انتقالها خلال المباحث اللاهوتيَّة. وهذه الثقافة الشعبيَّة الرهبانيَّة النَّاسكة هي التي أنشأت الليتورجيَّة والخدمات الكنسيَّة في الكنيسة القبطيَّة.

ومات قسطنطين الملك سنة ٣٣٧م بعد أن قبل المعموديَّة قبل موته مباشرة. وجاء من بعده أباطرة اضطهدوا أتباع مجمع نيقية، ليفرضوا العقيدة الأريوسية بالقهر والإرهاب. ففي الشَّرْق تملك الإمبراطور قسطنطيوس. أما في الغرب فقد تملك الإمبراطور قسطنطين الثاني الذي مات سنة ٣٤٠م، ومن بعده تملك الإمبراطور قسطنس الذي مات سنة ٣٥٠م، فتملك الإمبراطور قسطنطيوس على الشَّرْق والغرب، وقد تعمَّد بيد الأريوسيين هو الآخر، وموته سنة ٣٦١م تملك الإمبراطور يولييانوس الجاحد (٣٦١ - ٣٦٣م) عرش الإمبراطوريَّة شرقاً وغرباً، وارتد عن المسيحيَّة - وفي الغالب لم يعتنقها أصلاً - فما أن ارتقى العرش حتى أعلن وثنيته، واضطهاده ليسوع النَّاصري وأتباعه، ولكنه سرعان ما فقد عرشه وحياته كلاهما معاً، إذ أصابه سهم في حربه مع الفُرس إنغرس في جنبه فأخذ يترف حتى الموت، وقال قولته المشهورة بينما يفارق الحياة "لقد غلبت أيها الجليلي".

وتولى من بعده الإمبراطور جوفيان ولم يدم على عرشه سوى ثمانية أشهر، وموته أعلن الضُّباط فالانتيان إمبراطوراً سنة ٣٦٤م، وكان

أرثوذكسياً، وبعد شهر من تنصيبه عين أخاه فالنس زميلاً في الحكم وكان أريوسياً. وذهب فالنتيان نحو الغرب^(٤٣)، واستقر فالنس في الشرق ليكمل الحلقة الأخيرة من سلسلة اضطهادات الأريوسيين للبابا أناسيوس الرسولي.

وكم عانى القديس أناسيوس الرسولي من عسف الأباطرة وتصلفهم، حتى جاء وقت وقف فيه وحده ضد العالم الذي كاد أن يصير كله أريوسياً، وضد أربعة أباطرة هم قسطنطين، وقسطنطيوس ويوليانوس وفالنس، ليدفع عن الكنيسة الجامعة شر هذه الهرطقة البغيضة، التي كادت أن تقوِّض سر التجسد الإلهي من أصوله، وبالتالي كل أسرار الكنيسة المقدسة وإيمانها.

وجاء الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ - ٣٩٥ م) فأعلن المسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية، وشنَّ حرباً على الوثنيين والأريوسيين. وفي زمانه هجم الأقباط على كثير من المعابد المصرية ليهدموها، وبدأوا بالصنم الضخم سيرابيس^(٤٤) بمعبده بالإسكندرية.

٤٣ - تولى من بعده الإمبراطور جراتيان (+ ٣٨٣ م)، ثم الإمبراطور فالنتيان الثاني (+ ٣٩٢ م).

٤٤ - كان معبد سيرابيس من أروع الأبنية وأعظمها، كانت جدرانها من الرخام من داخلها وخارجها، وفي وسطه تمثال عظيم للمعبود "سيرابيس" وهو تمثال ضخم في وضع الجالس، وهو مصنوع من الخشب المطعم بالذهب والعاج، له ذراعان ممدودان تكاد كل منهما تلمس الحائط الذي يليها. ويحمل صولجاناً في يده اليسرى ولكنه اختلف عن جوبيتر بالسلة الموضوعة فوق رأسه، وبالوحش الرمزي الذي أمسك به في يده اليمنى وهو ثعبان ينتهي جسده بثلاثة ذيول، وله ثلاثة رؤوس أحدها رأس كلب والثاني رأس أسد، والثالث رأس ذئب، وقد التفت حولها جميعاً أفعى عظيمة. وكانت تزين المعبد زينة باهرة من النقوش التي لا تقدر بشمن، وكانت من الرمرر والشبه. وكانت الأبواب العظمية التي تحيط بالمعبد لا مثيل لها في الفخامة والجلال. وكانت رؤوس الأعمدة في المعبد من معدن الشبه تغطيه طبقة من الذهب، أما السقوف فكان

وجاء من بعده ابنه أركادايوس وأنوريوس ليملك الأوّل حُكم الشرق، والآخر حُكم الغرب فانقسمت الإمبراطوريّة الرومانيّة مرّة أخرى. وبتملك أركادايوس إمبراطوراً للشرق سنة ٣٩٥م يبدأ العهد البيزنطي الذي يستمر حتى سنة ٦٤٠م عندما فتح العرب مصر.

الرّهنة المصريّة أم الرهبانيّات في العالم

ظهرت الرّهنة كحركة نسكيّة بالغة القيمة أولاً في مصر، حيث تأسّست أوّل جماعة رهبانيّة سنة ٣٠٥م على يد القديس الأنبا أنطونيوس (٢٥١ - ٣٥٦م) أبي رهبان العالم. وفي سنة ٣١٨م أنشأ القديس الأنبا باخوميوس (٢٩٢ - ٣٤٨م) أوّل دير في طبانسين في صعيد مصر. وفي سنة ٣٤٠م انطلق القديس أنبا مقار الكبير (٣٠٠ - ٣٩٠م) إلى بريّة شيهيت بقيادة الشاروييم بعد توخّده لمدة عشر سنوات على أطراف قرية. وقام القديس أنبا مقار بزيارتين للقديس أنبا أنطونيوس، الأولى في سنة ٣٤٣م وفيها تسلّم منه أسرار الحياة الرهبانيّة وأنواع قتالات العدو، والثانية كانت سنة ٣٥٣م لأخذ نصائح وإرشادات للرعاية وقيادة النفوس، حيث سلّمه عصاته تعبيراً عن تسلّمه أمانة التّدبير الرهباني من بعده. وانتظمت الحياة الرهبانيّة في شيهيت وبلغت ذروتها سنة ٣٥٦م. ولم تأت نهاية القرن الرّابع الميلادي إلا وكان هناك أكثر من خمسة آلاف راهب في نتريا والقلالي في صحراء مصر.

ومع أوائل الرّبع الأخير من القرن الرّابع الميلادي وفد إلى بريّة

يغطيها الذهب والألوان الزاهية في حين كانت الأرض والجدران من أتمن أنواع المرمر، وكان هذا المعبد ينافس الكاينوتول في روما عظمة وروعة. (انظر: ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الثاني، ص ٣٣٢).

شبهت كثيرون من الأجانب للتعرف على الحياة الرهبانية. فبدأ من سنة ٣٧٣م زار نتريا والقلاي وشبهت المؤرخ روفينوس (٣٤٥ - ٤١٠م) كاهن مدينة أكويلا بشمال إيطاليا، ومعه القديسة ميلانية الأسبانية. وأيضاً إيفاجريوس البُنطي (٣٤٥ - ٣٩٩م) الذي زار مصر سنة ٣٨٣م. والقديس جيروم (٣٤٢ - ٤٢٠م) بصحبة القديسة الإيطالية باولا، حيث زارا نتريا سنة ٣٨٥م. وبالليديوس (٣٦٣ - إلى ما بعد ٤٢٠م) راهب جبل الرّيّتون بأورشليم، وصاحب "التاريخ اللوزياكي" والذي زار القلاي سنة ٣٩١م وبقي بها تسع سنوات. والقديس يوحنا كاسيان (٣٥٠/٣٦٠ - ٤٤٠/٤٥٠م) الذي زار برية شبهت سنة ٣٩٩م، وغادرها مع صديقه جرمانوس سنة ٤٠٠م. فانتشرت الرهبنة المصرية بسرعة مذهلة في كل ربوع العالم عبوراً بفلسطين في آسيا، وفرنسا في أوروبا.

وفي القرن السادس كان هناك ثلاثة آلاف وخمسمائة راهب في الإسقيط وحده^(٤٥). ومن هذه المراكز الثلاثة (نتريا - القلاي - الإسقيط) جاءت إلينا أكبر الآثار الأدبية الرهبانية متمثلة في: "أقوال الآباء - Apophthegmata Patrum"، و"التاريخ اللوزياكي" الذي كتبه بلاديوس كشاهد عيان سنة ٤١٩، ٤٢٠م، و"تاريخ الحياة الرهبانية في مصر - Historia Monachorum in Aegypto" وهو لمؤلف مجهول كتبه في مصر سنة ٣٩٤ أو ٣٩٥م. ونضيف إليه ما كتب كاسيان في مؤلفه "المعاهد - Institutes" وأيضاً "المحاورات - Conferences"، والتي كتبها حوالي سنة ٤٢٠م أي بعد عشرين سنة من مغادرته للإسقيط.

وهذه الأعمال الأدبية - إلى حوار عظات القديسين أنطونيوس الكبير ومقاريوس الكبير - كانت ولا زالت هي المنبع الرئيسي للحياة الروحية في

الشَّرْق، وحتى اليوم. فليس من المدهش إذاً أن نجد تأثير هذه الأعمال الأديَّة الرهبانيَّة، التي ظهرت في صحراء مصر، على الصَّلوات الرهبانيَّة في بلدان العالم المسيحي آنذ، بل وأيضاً تأثيرها على التَّقليد الليتورجي الذي امتد إلى كنائس الإيباشيَّات والكاتدرائيَّات في تلك البلدان^(٤٦).

ويقول الأستاذ محمد شفيق غربال "إذا كان الفن القبطي تعبيراً عن الخصائص الدينيَّة لمصر المسيحيَّة، فإن نشأة الرهبنة ونموها هي وجه آخر من أوجه التَّعبير، يعتبره العلماء أكثر ما ساهم به الشَّعب المصري بروزا وحلاء في تراث المسيحيَّة".

عصر المجامع المسكونيَّة

وجاء عصر المجامع المسكونيَّة وأصبح بطريرك الإسكندريَّة عقب مجمع نيقية المسكوني الأوَّل سنة ٣٢٥م يحمل لقب "قاضي المسيحيَّة في المسكونة كلها".

ولكن المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينيَّة سنة ٣٨١م قدَّم القسطنطينيَّة على الإسكندريَّة لأسباب سياسيَّة وليست دينيَّة. لأنه في سنة ٣٣٠م أصبحت بيزنطة عاصمة الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة باسم روما الجديدة، أو القسطنطينيَّة، نسبة إلى قسطنطين الكبير الذي صار إمبراطوراً للشَّرْق والغرب.

ثم كان مجمع أفسس سنة ٤٣١م حين خرج نسطور بطريرك القسطنطينيَّة عن الإيمان، فحُرم في هذا المجمع الذي رأسه البابا

46- Robert Taft, S. J., *The Liturgy of the Hours in East and West*, U. S. A., 1986, p. 75.

الإسكندري كيرلس الكبير، ونُفي إلى أحميم بصعيد مصر حتى مات في منفاه. ولكن أتباعه نزحوا إلى خارج الحدود الشرقيّة للإمبراطوريّة الرومانيّة حيث بلاد فارس وانضوا في كنيسة المشرق الآشوريّة، التي اتخذت فيما بعد من النسطوريّة عقيدتها الإيمانيّة.

وكان مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م الذي شطر الكنيسة، حيث حُرّم فيه البابا ديسقوروس، لتمسكه بعقيدة الطبيعة الواحدة في شخص السيّد المسيح، فانفصلت كنيسة مصر عن كنائس الشّرق والغرب، وتبعها بضع كنائس عُرفت بالكنائس الشرقيّة القديمة. وكان من المولم حقاً أن تقرر الكنيسة الخلقيدونيّة في العصر الحديث أن إيمان البابا ديسقوروس كان صحيحاً، ولم يكن الاختلاف إلاّ في الصّيغ اللاهوتيّة فقط، لأنه كان اعترافاً متأخراً جداً، حتى أنه برغم انتفاء سبب الانفصال لازالت النتائج التي تراكمت بسبب هذه القطيعة الطويلة عائقاً لعودة الوحدة الكاملة بين الكنائس الخلقيدونيّة والكنائس اللاخلقيدونيّة.

لقد أعقب مجمع خلقيدونية اضطهاداً لكنيسة مصر كان أشد مرارة عليها مما عانته من الوثنيّة وأباطرتها. وكان اضطهاد الكنيسة القبطيّة في هذه الحقبة على يد ماركيان الإمبراطور البيزنطي الذي توفي سنة ٤٥٧م، ومن بعده لاون الأوّل (٤٥٧ - ٤٧٤م) ومن أتى بعدهما.

وفي عهد الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م) وكان خلقيدونياً - ولكن زوجته ثيودورة كانت تعتنق الأرثوذكسيّة في الخفاء - استحدثت أمراً خطيراً كان له أسوأ الأثر على نفسيّة الأقباط، حينما نصّب أبوليناريوس بطريكاً ملكانياً أي خلقيدونياً على كرسي الإسكندريّة سنة ٥٤١م، وقلّده بالإضافة إلى وظيفته الدنيّة سلطات عسكريّة لتنفيذ سياسته الدنيّة، ومنحه حق جمع الضرائب. وكانت سابقة خطيرة لمن أتى

بعده من الأباطرة، فقد كانت التَّنائج دائماً مذابح شعبية مروَّعة.

وأجرى الإمبراطور جستنيان تقسيمات إدارية جديدة بمصر، لم تعد فيها قيادة جيش الاحتلال قيادة موحَّدة، بل كان حاكم كل إقليم مستقلاً ببحيشه، مما ساعد على انهيار الجحافل الرومانيَّة المشتتة أمام الجيوش العربيَّة^(٤٧).

وأغلق جستنيان في مصر معابد إيزيس الوثنيَّة في جزيرة فيله، ومعابد آمون في واحة سيوه، وأحلَّ محلها كنائس مسيحيَّة خلقيديونيَّة. ولم تصبح المسيحيَّة في مصر عقيدة غالبية حتَّى القرن السَّادس الميلادي، فحتَّى ذلك التَّاريخ استمر وجود عقيدة أوزوريس خاصة في المناطق الرِّيفيَّة البعيدة حيث لم يسمع أحد عن بشارة الإنجيل فيما عدا أصداء خافتة^(٤٨).

الاحتلال الفارسي لمصر

ظلت الكنيسة القبطيَّة تحت حكم بيزنطي جائر حتَّى دخول الفُرس إلى مصر. وكانت العداوة بين الفُرس والرُّوم قديمة تقليديَّة. ففي أيام الإمبراطور البيزنطي هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) توغل الفُرس في أملاك الدَّولة الرومانيَّة، وأغاروا على سوريا سنة ٦١٥م، ثمَّ جاءوا إلى مصر واستولوا على الإسكندريَّة سنة ٦١٧م في أيام كسرى الثاني، فقتلوا كثيراً من أهلها، وسبوا منهم إلى بلادهم سبياً لا يُحصى. وخرَّبوا كثيراً من الكنائس والأديرة. ويشير المقرئزي في كتابه "الخطط والآثار" (ص ٣٩٢) إلى أن اليهود قد ساعدوا الفُرس في محاربة النَّصارى وتخريب كنائسهم. فقد كان لهم حيٌّ في الإسكندريَّة وانهزوا في مصر فرصة جديدة ليساعدوا أعداء الصَّليب.

٤٧ - حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٦٧

٤٨ - د. ألفريد بتلر، الكنائس القبطية القديمة في مصر، الجزء الثاني، ترجمة إبراهيم سلامة،

القاهرة، ١٩٩٣، ص ١٩٥

وعندما استقر أمر الفرس في البلاد بعد الفتح استخدموا كبار رجال الدولة من الأقباط في إدارة شؤون البلاد. وهو نفس ما منح عليه العرب بعد فتح مصر. فلم يكن في الاستطاعة من سبيل إلى غير ذلك كلما غزا جيش أجنبي بلاداً لها مدينة تسبق مدنيته، ويرى واجباً عليه أن يدبر أمورها، وهي منظمة تنظيمًا حسنًا. ولا نزاع في أن القبط قد اشتركوا في هذا الأمر، وما كان لهم أن يرفضوا ذلك الاشتراك، إذ أن الرّفص حمق لا ميرر له. ولكن ذلك الاشتراك شيء، وما يعزوه إليهم الكتاب المحدثون شيء آخر، فإنهم يعزون إليهم أنهم رحّبوا بالفرس ورأوا فيهم رُسُل الخلاص، فإن هذه التهمة لا ميرر لها، وهي فوق ذلك قلب للحقيقة ومسخ لها^(٤٩).

ويستطرد ألفريد بتلر A. Butler في تأكيد ذلك بأدلة قاطعة، من حيث أن دفاع الإسكندرية ومقاومتها لهم دامت زمناً طويلاً، وأن كثيراً من الذين هلكوا من الرهبان على أيدي الفرس كانوا من القبط. وبعد فتح الإسكندرية سار قائد جيوش كسرى إلى الصّعيد، وكانت معاملته للقبط في كل مكان واحدة، فيحل الموت والخراب حيثما حل^(٥٠).

وبقى الفرس سادة البلاد عشر سنين، كادت أن تُمحي في أثنائها بعض الأديرة التي تخرّبت. فكان حول الإسكندرية ستمائة دير عامرة بالرهبان، دهمها الفرس ونهبوها وهدموها وقتلوا من فيها. وفي مرورهم على الصّعيد عبروا على مدينة نقيوس، وسمع قائد العسكر أن بالمغاير التي حولها سبعمائة راهب، فأرسل من قتلهم.

أما عن فنون وآداب الإسكندرية، فقد ظلت متّصلة لم يقطعها فتح الفرس للبلاد، فجيوش كسرى لم تسبب أذى كبيراً للتّحف الكُبرى في

٤٩- د. ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٧٣

٥٠- نفس المرجع، ص ٧٥-٧٩

داخل العاصمة، سواء كان ذلك أبنية أو آثاراً. فالغزاة الفُرس لم يدمروا مكتبة الإسكندريَّة، إذ كانت باقية إلى ذلك الوقت. وكانت المنارة الكبرى (منارة فاروس) إحدى عجائب الدنيا السَّبع لا تزال ماثلة إلى ذلك الوقت تشرف فيما بين المدينة والبحر، تكمل هامتها سُحُب من الدُخَّان في النَّهار، ولهب من النَّيران في اللَّيل. ولم يُهدم من أبنية الإسكندريَّة ما اشتهرت به المدينة من المعابد القديمة وساحات العُمد الفسيحة، والقصور التي لا تقع تحت حصر. بل إن الكنائس ذاتها التي كانت في داخل أسوار المدينة لم يمسهما أذى يستحق الذِّكر. وكان المصلُّون يزدهمون في الكنيسة الكبرى (كنيسة القيصريون)، أو في كنيسة القُدِّيس مرقس حيث كانت رفاته لازالت بمصر يعلوها المذبح المنيف^(٥١).

إنني أوافق ألفريد بتلر A. Butler على جانب كبير من رأيه ولكن ليس كله، لاسيَّما فيما يختص بالكنائس والأديرة. ذلك لأنَّ اللُّهجة التي خاطب بها "خوريام" قائد جيوش كسرى رسول الإمبراطور هرقل الذي بعثه إليه يفاوضه في أمر الصُّلح كانت: "قل لمولاك، إن دولة الرُّوم من أرضي، وما هو إلاَّ عاص تائر، وعبد آبق، ولن أمنحه سلاماً حتى يترك عبادة الصُّليب ويعبد الشَّمس". وهي لهجة تفيد أنَّ الحرب كانت دينيَّة أيضاً، فكيف تكون فيها مهادنة مع أصحاب الصُّليب؟! ولكننا في ذات الوقت لا ننكر أنَّ البابا بنيامين الـ ٣٨ أُقيم بطريركاً للإسكندريَّة في عهد الفُرس بعد نياحة البابا أندرونيكوس، وقضى أربع أو خمس سنوات^(٥٢) تحت ظلِّ الحُكْم الفارسي في الإسكندريَّة، حتى رآهم بعينيه

٥١- في الفتح العربي الثاني للإسكندرية تهدمت كنيسة القيصريون، وبقيت كنيسة القُدِّيس مرقس سالمة. انظر: د. ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ١٠٣
٥٢- يذكر القُدِّيس ساويرس بن المقفع في كتابه "تاريخ البطارقة" أنَّ الفرس أقاموا في مصر ست سنوات بعد اختيار بنيامين. وذلك يجعل تاريخ خروجهم من

وهم يخرجون من باها الشرقي في أوّل سنة ٦٢٧م، وأن البعض القليل منهم بقى في أماكن متفرقة إلى سنة ٦٢٨م، وخرجوا بعد ذلك عندما تم الصلح مع هرقل.

عودة ثانية إلى حكم الروم

بعد موت كسرى الثاني تغلب الإمبراطور هرقل على الفرس وطردهم من الإمبراطورية الرومانية سنة ٦٢٦م، وما أن خرج الفرس من مصر حتى عاد الروم لحكمها مرة ثانية. واستأنف هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) سياسة جوستينيان، وعيّن "قيرس - Cyrus" أسقف فاسس Phasis في القوقاز قرب البحر الأسود، وهو المعروف في المراجع العربية باسم "المقوقس"، عينه بطريقاً ملكانياً لمصر وحاكماً لمصر كلها في نفس الوقت، ومنحه سلطات دينية ومالية وتنظيمية وقضائية واسعة. وصل المقوقس إلى الإسكندرية سنة ٦٣١م وأذاق الأقباط أهوالاً طيلة عشر سنين. وتحمّل المصريون في عهد البيزنطيين أعباء مالية كثيرة أثقلت كاهلهم، وأحنّت ظهورهم، وكان الفلاحون الأقباط يهجرون قراهم في ذلك العصر البيزنطي فراراً من دفع الضرائب^(٥٣). ولم ينج الأقباط آنذ من ضريبة تُحصّل على كل شخص من الرابعة عشرة إلى الستين^(٥٤). ومن فرط

مصر في سنة ٦٢٨م، ولكن بتلر يرى استحالة قبول ذلك لأن كل الدلائل التاريخية تدل على أن خروجهم الأكبر كان في أوائل سنة ٦٢٧م. المرجع السابق، ص ١٥٤.

٥٣ - د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٢٢٧

٥٤ - لم يُعف من هذه الضريبة سوى مواطني الإسكندرية والروم المقيمين في مصر، وأبناء الجند الإغريق، وعدد من البطالة في كل معبد، فتحمل الأقباط عبء دفعها إلى جانب اليهود. (انظر: د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٤٧).

الضيق هرب البطريرك القبطي البابا بنيامين الأوَّل الـ ٣٨ (٦٣٣-٦٦٢م) إلى دير بصعيد مصر، واختفى في مكان غير معلوم لأحد، يدير شؤون كنيسته من وراء المجهول، وكان سنده الوحيد في قيادته للكنيسة هو ثقة الأقباط في باباهم كما كان عهدهم دائماً.

كان المقوقس ظالماً مستبدّاً، أجيّراً خائناً، لطالما أساء في حكمه حتى كره الأقباط دولته كلها، دولة الرُّوم. وكان سيف قيرس قد قطع ما كان يربطهم إلى الدَّولة الرُّومانيَّة من أسباب الولاء. وإذا ما اشتد الكرب، وجدَّ الجد أسلم هذا الخائن البلاد إلى أعدائها، وهو ما مهَّد السَّبيل إلى فتح العرب لمصر.

أضواء لا بد منها على العصر القبطي

تُعرف الفترة ما بين دخول المسيحيَّة مصر، ودخول العرب إليها بـ "العصر القبطي"، وهي فترة جديرة بالدراسة والبحث. وثبت أخيراً بعد بحوث متأنية من علماء محايدين أنه يتعدَّر الإمام بأي حقبة أو عصر من العصور في مصر إماماً متكاملًا ما لم تتم دراسة العصور السَّابِقة له دراسة واعية، واستيعاب خصائصها. لذلك كان العزوف عن الغوص في دراسة العصر الفرعوني ومن بعده اليوناني فالرُّوماني فالقبطي في مصر، عزوفاً عن فهم العصر الإسلامي في مصر. فالتَّاريخ سلسلة لا يمكن فض عراها، وإلا انفطت حباَّتها.

والآن نلقي بعض الصُّوء على العصر القبطي الذي كانت فيه الإسكندريَّة المدينة الثانية في العالم من الوجهة السياسيَّة، والأولى من الوجهة الثقافيَّة، ولا يخفى أن السَّر وراء ذلك كان يكمن فيما ورثه الأقباط عن أسلافهم المصريين القدماء من براعة ودراية في كافة المجالات.

فمصر المسيحية هي التي وضعت غالبية المصطلحات الطبية، وعليها تتلمذ جالينوس، ولها شهد نيتولتسكني في كتابه "الطب الشعبي المقارن".

ولقد سبقت مصر العالم طراً في دراسة الإمعاء الدقيقة بفضل هيروفيلوس، كما سبقت إلى اصطناع البحث العملي بفضل أفليندس صاحب كتاب "المبادئ". ومصر المسيحية هي التي وضعت حساب الإبقطي. وموسيقى مصر الكنسية هي أقدم مدرسة موسيقية معروفة في العالم، بل تكاد أن تكون أغناها.

كانت الإسكندرية في العصر المسيحي تحدّد أسعار الحرير في العالم المتمددين. وشكّلت المرمر وبرعت في فن التصوير، وصناعة الزجاج والفسيفساء والورق وهو مادة الكتب التي عرفت مصر منذ القدم تأليفها وزخرفتها وتصويرها ورسمها.

واحتشدت البحوث الأوروبية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر لدراسة الفن القبطي، مسجلة ما يلي كما جاء في كتاب "تراث العصور الوسطى": "إن مصر المسيحية أحد المنابع الكبيرة التي سقت الفنون الرومانية بعد جفافها وجمودها^(٥٥)".

لقد أعطت مصر فيما أعطت طرقاً جديدة في التّعشيق والتّجميع والخراطة لم تكن معروفة من قبل، وذاعت بفضلها في شرق العالم وغربه، وهو ما كسبه العرب من مصر فيما كسبوا. وإذ عرفتها أوروبا عن طريقهم في الأندلس سمته "الأرابيسك" وما هو إلا فن مصري قديم تشهد به آثار توت عنخ آمون، والمتحف القبطي، والآثار القبطية التي تعد نماذجها فيه امتدادات لروائع مصر القديمة.

فَعِنَّا أَحَدَ الْغَرْبِ "الْأَرَابِيْسِك" وَطَوَّرُوهُ، وَلَكِنَهُمْ مَعَ هَذَا عَجَزُوا عَنِ تَجْمِيعِ الْوَحَدَاتِ الزُّخْرَفِيَّةِ فِي كُلِّ شَامِلٍ، شَأْنُهُمْ فِي هَذَا شَأْنُهُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ. فَهَمُ يَطَوِّرُونَ الْجَزْئِيَّاتِ، وَلَكِنَهُمْ عَاجِزُونَ عَنِ التَّجْمِيعِ فِي وَحْدَةٍ، تِلْكَ الْوَحْدَةُ الَّتِي امْتَازَ بِهَا الْفَنُ الْفِرْعَوْنِي. إِنْ مَعْبَدِ ادْفُو عَلَى ضَخَامَتِهِ يُسْمَعُ التَّرْتِيلُ مِنْ قَدْسِ الْأَقْدَاسِ فِيهِ فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ الْمَعْبَدِ. لَقَدْ صُمِّمَ الْبِنَاءُ عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، إِنَّهَا الْوَحْدَةُ فِي الْفَنِّ، وَحْدَةٌ تَرْبِطُ حَتَّى بَيْنَ الصَّوْتِ وَالْمَكَانِ^(٥٦).

إِنْ مَا تَبَقِيَ مِنْ آثَارِ هَذِهِ الْحَقْبَةِ مِنْ تَارِيخٍ وَفَلَسَفَةٍ وَفَقْهِ الدِّينِ وَالطَّبِّ، قَلِيلٌ الْعَدَدُ لَا يَكْفِي لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَا كَانَ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ مِنْ نَشَاطِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي مَخْتَلَفِ الْفُنُونِ، فَقَدْ ضَاعَتْ أَكْثَرُ مَوْثِقَاتِ ذَلِكَ الْعَصْرِ فِي أَثْنَاءِ عَوَاصِفِ الْفَتْوحِ الَّتِي اجْتَاكَتْ مِصْرَ فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ السَّابِعِ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ بَقِيَ مِنْهَا مَا يَشْهَدُ لِلْإِسْكَانْدَرِيَّةِ بِأَنَّهَا كَانَتْ لَا تَزَالُ جَدِيرَةً بِأَنْ تَكُونَ مَقَرَّ الْأَدَابِ فِي الْعَالَمِ أَجْمَعِ، وَمَقْصِدُ طُلَّابِ الْعِلْمِ^(٥٧).

وَإِذَا حَقَّ لَنَا أَنْ نَقُولَ إِنَّ الْآثَارَ الْأَدَبِيَّةَ كَانَتْ لَمْ تَزَلْ بَاقِيَةً يُعْتَزَلُ بِهَا فِي الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، فَإِنَّهُ يَحِقُّ لَنَا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ نَقُولَ إِنَّ الْفُنُونِ كَانَتْ زَاهِيَةً مَزْدَهْرَةً. فَقَدْ كَانَ بِنْيَانُ الْمَدِينَةِ يَأْخُذُ بِالْأَلْبَابِ بِعَظَمَتِهِ وَرَوْنَقِهِ، مِنْ أَسْوَارِ مَنِيفَةٍ وَحِصُونِ مَنِيعَةٍ، وَقُصُورِ بَرَّاقَةٍ، وَكُنَائِسِ فَخْمَةٍ، وَطَرِيقِ ذَاتِ عُمُدٍ مَرْصُوصَةٍ. وَكَانَتْ مَهَارَةُ الْبِنَائِينَ عَلَى عَهْدِهَا لَمْ تَضْمَحَلْ وَلَمْ تَضَعْفْ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي أَيَّامِ جِسْتِنْيَانِ، وَهُوَ الَّذِي اتَّخَذَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ذَلِكَ الْبِنَاءَ الَّذِي أَقَامَ السَّاحَةَ الْكُبْرَى فِي الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَبِهَا أَلْفُ عَامُودٍ وَعَامُودٍ، وَلَا تَزَالُ بَاقِيَةً إِلَى الْآنِ. وَرُؤُوسُ الْأَعْمَدَةِ فِي هَذِهِ السَّاحَةِ يَرْجِعُ

٥٦- نفس المرجع، من أماكن متفرقة من الكتاب.

٥٧- د. ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٨٦

إليها الفضل في الانفصال عن قيود الماضي انفصلاً تاماً، وتمهيد الطريق للبناء الجليل الذي أقامه "أنتيميوس" وهو بناء كنيسة القديسة صوفيا. وكان حجر السَّماق الأحمر والأخضر الذي استعمل في تحلية هذا البناء يؤتى به من مصر محمولاً في النَّيل، وكانت مصر منذ أيام الفراعنة شهيرة بما فيها من المرمر البديع، وكانت حلية الكنائس والقصور في جميع بلاد العالم من هذا الحجر الثمين. وكانت سوقه في الإسكندرية، وبقيت هناك حتى قضى عليها في أيام الفتح العربي.

الفن القبطي

الفن القبطي - حاوياً فيه الصناعات القبطية - هو فن نبت في مصر واستمد عناصره من الفنون الفرعونية والإغريقية (اليونانية)، والرومانية، ثم البيزنطية. وكذلك من الفن الساساني أيضاً (الفارسي). ووضحت خصائص الفن القبطي في القرن الخامس الميلادي، وتم نضوجه إبان القرنين السادس والسابع، واستمر بعد الفتح الإسلامي بمصر في القرن السابع.

ويرى ألفريد بتلر A. Butler أنه لا يمكن تحديد تاريخ ظهور واضمحلال الفن القبطي، لأن الظهور والاضمحلال لا يشكّان سوى فترتين قصيرتين لا يُعرف عنهما شيء. والفن القبطي في أفضل الحالات هو كما نراه مبلوراً في الأشكال المحددة التي انتقلت عبر قرون عديدة مع فقدان القليل من رونقه، ويبدو أن الابتكار قد توقف مبكراً بينما بقي الذوق والمهارة في التنفيذ متوارثين^(٥٨).

ويُعد الفن القبطي أحد أصول الفن الإسلامي المصري، كما هو

الحال في كثير من آثار مصر الإسلاميَّة الباقية إلى اليوم مثل جامع السُلطان حسن الذي أجمع أساتذة الفنون الذين رأوه على أنه فن فرعونى. وما المُثدنة إلا الصُّورة الإسلاميَّة للمسلة الفرعونية.

فالحضارة الإسلاميَّة والفن الإسلامي هو خلاصة ما جاء به المسلمون من الحضارات التي سبقتهم، حيث مزجوا منها حضارة اختصت بهم وبعضهم. ويقول الدكتور طه حسين: "لم يتحرَّج العرب المسلمون من أن يأخذوا بأسباب الحضارة الفارسيَّة واليونانيَّة كما أخذ بها الفرس والرُّوم الذين لم يكونوا مسلمين في ذلك الوقت ... فهم قد صاغوا من هاتين الحضارتين ومن تراثهم القدم هذه الحضارة الإسلاميَّة الرَّائعة التي ازدهرت أيام بني أمية، وبني العبَّاس ... وهذه الحضارة الإسلاميَّة الرَّائعة لم يأت بها المسلمون من بلاد العرب، وإنما أتوا ببعضها من هذا البلاد، وبعضها الآخر من مجوس الفُرس، وبعضها الآخر من نصارى الرُّوم ... (٥٩)"

وتمثَّل الفن القبطي في الصناعات الرَّئيسيَّة التالية:

١- صناعة الورق والتَّجليد

اشتهرت مصر بصناعة الورق من البردي، وكان معظم المشتغلين بهذه الصنَّاعة من القبط. وامتلات كنائس وأديرة الأقباط بنفائس الكتب والمصنفات الدينيَّة والمؤلَّفات والكُتب المترجمة إلى العربيَّة، هذا بجانب اقتناء البعض من القبط الكثير من الكُتب. وعلى الرَّغم من أن الكثير من الكتب والمخطوطات التي كانت بجوزة الكنائس والأديرة والأفراد قد أُهملت

أو تبدد الكثير منها، إلا أنه قد بقيت بعض الكُتب والمجلدات كاملة^(٦٠).

فقد كان في مصر السُفلى عدد عظيم من غياض فسيحة تُنبت البردي، ذلك النَّبات الطويل حيث كان الورق يُتخذ من لبابه، فيُشق إلى شرائح وتُجعل منه صحائف بالضعط، ثم تُصقل بألة من العاج. وكانت الصحائف بعد ذلك يوصل بعضها ببعض، فتكوّن لفائف يسهل استعمالها. وكانت مقادير عظيمة من البردي تصدر من مصر في مراسي الإسكندرية المزدهمة، ولسنا نعرف متى ضعف أمر هذه التجارة، ولا الأسباب التي أدت إلى القضاء على هذا النَّبات في مصر. ولكن صناعة إعداد ورق البردي للكتابة في مصر انتهت بالإجمال حوالي القرن العاشر الميلادي. وظلت مصر طوال عهد الولاة المسلمين تحتكر صناعة السورق، وظلّ صناع الورق كلهم من الأقباط حتى بعد دخول الإسلام مصر، وإلى أوائل القرن الثامن الميلادي كان الطابع الذي يطبع على الورق يشمل هذه الكلمات: "الآب والابن وروح القدس"، ومع أن ذلك الطابع استبدل بعد ذلك بما يتفق والدين الإسلامي إلا أن الكتابة ظلوا يرسمون علامة الصليب على ظهر أوراق الحكومة^(٦١).

ولا ننسى فن تفسير الكُتب وإيضاحها بالرسم. والحقيقة أن فن الكتابة المزخرفة، ورسم الصُور الصَّغيرة في الكتب كان شائعاً بالغاً حدّه من الإقتان في هذا العصر في كل بلاد الشَّرْق. وكان خير المخطوطات إذ ذاك يُتخذ من الرِّق، حيث يُدهن بلون أرجواني، ويكتب عليه بحروف من الذهب، وكانت أمثال هذه الكُتب تُتخذ لمكتبة الإمبراطور. وإن بين أيدينا خطاباً قيماً أرسله بطريك الإسكندرية "البابا ثيؤناس" إلى رجل

٦٠- د. سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص

١٢٨ - ١٣٠

٦١- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٩٣

اسمه "لوقيانوس" وهو الوصيف الأكبر للإمبراطور وأمين خزانة كتبه، وقد كانت كتابته سنة ٢٩٠م. وقد جاء في أوّل ذلك الخطاب وصف لما ينبغي أن يسير عليه الكُتّاب في دواوين حسابهم، وما في عهدهم من الخلع والحلي، ووصف لطريق إثبات ما في الخزائن من آنية الذهب والفضّة، والبللور وقماقم المر، وغير ذلك من تُحف القصر. وجاء فيه بعد ذلك أن المكتبة هي أئمن ما في القصر، وأنه يجب على المسيحي ألاّ يترفع عن مطالعة كتب الأدب الدنيوي، وأنه يجب على أمين خزانة الكُتّب أن يكون ملماً بكل ما فيها، وأن يرتبها على نظام ثابت، ويجعل لها ثبناً تدوّن فيه أسماءها، وعليه أن يستوثق من أمر الكُتّب، وأن النسخ التي عنده منها صحيحة غير محرّفة، وعليه أن يعيد كتابة النسخ وتصويرها إن هي بليت.

وجاء في آخر خطاب البابا ثيؤناس، أنه ليس من الضّروري أن تكون كل الكُتّب منسوخة بحروف من ذهب على رق أرجواني، إلاّ إذا أمر الإمبراطور بذلك أمراً.

وهذا الخطاب يدلنا على أن البطريك كان له علم بأمر مكتبة عظيمة جليلة. ولقد ازدادت صناعة إيضاح الكُتّب أي تفسيرها بالرّسم، وانتشرت في أثناء القرون الثلاثة التي تلت كتابة هذا الخطاب، ولم تنقص شيئاً، ولم تتغيّر كثيراً في وقت فتح العرب لمصر عما كانت عليه في وقت كتابة الخطاب. وكان رهبان الأديرة هم أكثر من قام بتفسير الكُتّب في مصر وقتئذ مثلما حدث في أوروبا فيما بعد.

وربما لا يعرف الكثيرون أن صناعة الكتاب ظهرت لأول مرّة في العالم في العصر القبطي (٦٢).

لقد استعمل الأقباط البردي في الكتابة حتى القرن التاسع الميلادي، ثم استبدل الأقباط البردي بالرقوق التي استمر استعمالها حتى القرن الثاني عشر الميلادي. ومع مجئ الفاطميين إلى مصر اهتمت الدولة بالحركة العلمية، وجمعت نوادر الكتب والمخطوطات لتضم إلى خزانة الكتب الفاطمية، لتصبح منافساً عملاقاً لمكتبات بغداد وقرطبة. كما شجّع الخلفاء الباحثين والدّارسين وطلاب العلم.

٢ - البناء

عُرف المصريون منذ القدم بتقدّمهم في صناعة البناء، وفي فن العمارة، وتشهد بذلك آثارهم في مختلف العصور. ولاشك أن العمارة القبطية كانت متقدّمة حين فتح العرب مصر. ومهما يكن من شيء فإن العمارة الإسلامية أخذت عن القبط بعض العناصر المعمارية، فكثيرون من العلماء يظنون أن المحراب مأخوذ عن الحنية التي توجد في صدر الكنيسة إلى جهة الشرق، وأن مآذن الجوامع الإسلامية مأخوذة عن أبراج الكنائس. ولم يقتصر الأمر على استخدام العرب للصنّاع المصريين في بناء أبنيتهم في هذه البلاد فحسب، بل كثيراً ما استخدموهم في الأبنية التي أنشئت في غير مصر (٦٣).

٣ - التصوير

وهو الرّسم التصويري، وليس التصوير باستخدام الكاميرا كما نعرفه اليوم. وهو فن يتبع فن البناء، حيث احتفظ القبط زمناً طويلاً وهم تحت حكم العرب بهذه الفنون، فنون البناء وصناعة الفسيفساء الرّجائية، وصناعة أفاريز المرمر فوق الجدران، والتي كان يُطلق عليها اسم "الفسن

الإسكندري “ تمييزاً لها، وتغطية الأرض بالرُّحام. ففن التَّصوير عموماً كان من أجل تجميل الجدران في داخل البناء.

وفي فن التَّصوير أيضاً رسم الفنان القبطي على الخشب والقماش والجص وعلى هوامش الكتب لتذهيبها^(٦٤). وكان رسم الأشخاص في القرنين الثالث والرَّابع واضحاً وبدقة كبيرة. وكان متأثراً من الوجهة الفنية بالفن اليوناني - الرُّوماني، ثم اتجه الرُّسم إلى وجهة مسيحيَّة خالصة خلال القرنين الخامس والسادس. أما القرون من السَّابع إلى العاشر فقد قَلَّت فيها صور الأشخاص، وشاع رسم الخطوط الهندسيَّة، وفروع وأوراق وثمار الرُّمان والعنب والأكانثاس. أما القرون من الحادي عشر إلى الرَّابع عشر فيزداد فيها الجمود في رسم الأشخاص. وينتمي إلى هذه الفترة الرُّسم على القماش المغطى بطبقة خاصة من الألوان. وانتشر التَّصوير في القرنين الثامن عشر، والتَّاسع عشر متمثلاً في الأيقونات فحسب.

٤ - تشكيل المعادن المختلفة

مثل النُّحاس والبرونز والرَّصاص والفضَّة والحديد والرُّسم عليها بالصُّور البارزة والغائرة، والأشكال المعدنيَّة التي تتخذ أشكال آنية العطور والمباخر والصُّلبان وأواني الطَّعام المختلفة، والكؤوس والموازين والشَّمعدانات والمصابيح وبعض أدوات القتال.

لقد برع المصريون في صناعة المعادن وسبكها وزخرفتها، وعرف الأقباط وحدهم منذ عهد الفراعنة دقائق هذه الصَّناعة وأسرارها، وعنهم أخذ المسلمون في وادي النَّيل سرَّ هذه الصَّناعة في القرنين العاشر والحادي

٦٤ - سنعرض بتفصيل مطوَّل لهذا الفن في حديثنا عن “الأيقونات” في كتابنا “الكنيسة، معناها ومعناها” إن شاء الرب وعشنا.

عشر الميلاديين. وعُرف عن الأقباط مهارتهم الفائقة في استخدام الذهب والفضة في صنع أدوات الترف والحلي والسروج والسيوف والمصاحف المذهبة والملابس الموشاة، وكثير من التحف التي رصّعت بالأحجار الكريمة، ونُقشت عليها زخارف جميلة. وكلها تنم عن دقة الصنعة وجمال الفن، ورواج صناعة الذهب وتقدّمها ورقّيتها في ذلك العصر^(٦٥).

ولقد برعت صناعة الذهب وتطعيم المعدن في الإسكندرية، وإن كانت هذه الصناعات تمت بأصلها إلى صنّاع مصر القديمة، فقد بقيت إلى ما بعد فتح الإسكندرية بزمن طويل، ولقد عادت إليها الحياة مرّة أخرى في العصور الوسطى.

٥ - صناعة الفخّار والرُّجاج

لا نعرف على وجه البت في أي وقت بدأ أمر صناعة الفخّار (الخزف) في الظهور، ولا بد أن ذلك كان في عصر قديم. وإن كانت صناعة الفخّار قد اضمحلت في العصر القبطي إلى حد ما، إلا أنه توجد قطع فخاريّة نادرة عليها نقوش بارزة، وثمانيل فخاريّة صغيرة كانت غالباً تمثل لعب الأطفال ومسارج وآنية العطور والأطباق. وفي القرنين الخامس والسادس شاع استعمال الآنية الفخاريّة الصّغيرة التي تحمل صور القديسين. وهناك أيضاً صوان ملوّنة أحياناً بالمينا، مثل صينية كنيسة المعلّقة. ويذكر ألفريد بتلر A. Butler أن صنّاع الخزف في مصر ظلّوا محتفظين بمهارتهم وبسر هذه الصنّاعة منذ عهد الفراعنة، كما تأثروا بالفن البيزنطي من حيث النماذج والرّحفة.

٦٥ - د. سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص

ويمكن تحديد الفترات الزمنية لهذه الصناعات في العصر القبطي. فالأواني الفخارية الكبيرة تعود إلى القرنين الثالث والرابع، والأواني الفخارية الرقيقة الحمراء تعود إلى القرنين الخامس والسادس، أما الآنية الفخارية المصقولة فتعود إلى الفترة من القرن السابع إلى القرن العاشر. أما الفترة من القرن الحادي عشر إلى الرابع عشر فتمثلها آنية فخارية بيضاء صغيرة الفوهة. وعلى كل هذه الأواني رسمت الصور والصلبان والخطوط المتقاطعة والمزججة.

أما صناعة الزجاج فظلت مزدهرة في مصر منذ العصور القديمة، وكان مركزها الإسكندرية، وبقيت معروفة زائفة الصيت زمناً طويلاً في الإسكندرية وصحراء النطرون. وقد قال استرابو: إن صنّاع الزجاج في مصر كانت لهم أسرارٌ يحفظونها، وأنهم كانوا يقلّدون الجواهر في صناعاتهم، ويعملون قماقم المر. ولا خلاف في أن هذه الصناعة قد سلّمها القبط بعضهم لبعض جيلاً بعد جيل حتى العصور الوسطى. وكانت آخر ما أخرجته تلك الصناعة، المصاييح المطعمة الفاخرة التي كانت تزين الكنائس والمساجد، وهي اليوم مفخرة المتاحف التي تجمع آثار العصور الوسطى.

بلغت هذه الصناعات أرقى درجات الفن في العصر الفاطمي، واشتهرت بعض البلاد بهذه الصناعة مثل القسطنطينية، والفيوم، والأشمونين، والشيخ عبادة (المنيا الآن) والإسكندرية. وكانت أرقى المصنوعات الزجاجية هي الزجاج المذهب المزّين بزخارف لها بريق معدني، التي حاول فيه الصنّاع تقليد البللور الصّخري.

وتركت الرسوم والزخارف القبطية أثرها على الخزف ذي البريق المعدني الذي كان فخر صناعة الفخار في مصر الفاطمية. وكانت صناعته واسعة الانتشار في الصعيد الأعلى حيث يوجد أجود أنواع الطمي. على

أن الكثير من أولي الخل والتبيذ وجرار العسل وغيرها تعرّضت للكسر والإبادة إبان خلافة الحاكم بأمر الله (٦٦).

وقد تحدّث سائح فارسي جاء إلى القسطنطينية سنة ١٠٤٧ م عن أمر صناعة الزجاج الرقيق، بالإضافة إلى الزجاج المزخرف الذي رآه يُصنع هناك، وقال عنه: "وكان رقيقاً شفافاً حتى أن الإنسان ليرى من وراء الآنية يد من يمسكها". وقد ذكر أيضاً الأواني اللامعة المختلفة الألوان التي تشبه نسيج الحرير المعروف باسم "بوقليمون" وهو الذي يتغيّر لونه كلما تغير موقع الضوء من سطحه. وهذه الشهادات ذات قيمة عظيمة، إذ تدلّ دلالة قاطعة على ما بلغته صناعة الخزف والزجاج من التقدم في القاهرة في القرن الحادي عشر. ولاشك في أن الصناعة الأسبانية المغربية التي جاءت بعد ذلك وذاع ذكرها وشاع، ترجع بأصلها إلى صناعة القاهرة.

وكانت صناعة المعادن مزدهرة في العصر الفرعوني، واحتفظ القبط بالتفوق فيها، والرّاجح أنهم نقلوها إلى تلاميذهم من الصناع العرب في فجر الإسلام، ولكننا لا نعرف تماماً أي آثار معدنية مصرية من هذا العصر.

٦- النحت والنقش

أي نحت الحجارة والرّخام، والنقش على الخشب. ولقد بلغ فن النحت ذروته في العصر القبطي بعد أن كان قد تدهور في أواخر العصر الفرعوني، إلا أنه نهض إلى حد ما في العصر اليوناني-الروماني. واستخدم الفنانون الأقباط الأحجار الجيرية البيضاء والأسمرات والرّخام أو المرمر أو الجرانيت أو الحجر الرّملي أحياناً وبالزلت تارة.

وبلغت الدقّة في الحفر على الخشب مرحلة ممتازة على يد الصُّناع الأقباط إذ كانت الرّيادة في هذا الميدان لأهل البلاد من القبط، وبلغ هذا الفن أقصى درجات الرُّقى في عصر الفاطميين. ولهذا الغرض فقد استوردت مصر خشب الأرز والصنوبر من الشام وآسيا الصُّغرى، وخشب الأبنوس من السودان، وخشب التّك من الهند وشبه جزيرة الملايو. وأجاد الأقباط أيضاً نقش ونجارة الخشب، وورث الفنان القبطي مهارة قدماء المصريين في صناعة الخشب ونقش الزُّخارف عليه، ولقد تطوّرت هذه الصنّاعة على يد التّجارين القبط الذين تأثروا بالفن البيزنطي، فازدادت صناعتهم جمالاً، وزاد إنتاجهم كثيراً. والقرنان الثالث والرابع يمتاز فيهما الخطوط الفنّية بجمالها ودقتها، وبما رُسم عليهما من مناظر الصّيد وأوراق وعناقيد العنب، وزهرة اللُّوتس. وظلّت هذه الصنّاعة محافظة على رقيّها حيث حافظ الفنان القبطي على مهارته خلال القرنين الخامس والسادس.

وكان للصُّناع الأقباط أربع طرق لزخرفة الأخشاب منها: النقوش البارزة، والنقوش بطريقة التّفريغ، والتّعشيق والتّطعيم بالعاج والصّدف، وأخيراً الخرط.

ولقد تركزت صناعة التّش على العاج، أو التّطعيم به، في الأقاليم التي يكثر فيها السُّكان الأقباط^(٦٧).

ومن أمثلة التّش على الخشب في هذه الفترة باب كنيسة القديسة برباره بمصر القديمة، وهو يعود إلى القرن الخامس. أما الفترة من القرن السابع إلى القرن العاشر فبدأ يظهر فيها ضعف المهارة الفنّية واحتلاط

الرُسوم وتحويرها وازدياد تعلق الفنان بالرُسوم الهندسيّة. ثم تأتي الفترة من (القرن ١١ - القرن ١٤) فيزداد فيها تعلق الفنّان بالرُسوم الهندسيّة، ومن أمثلتها باب خشبي بكنيسة السّت برباره، ويرجع إلى القرن الحادي عشر، وباب آخر لكنيسة المعلقة عليه رسوم هندسيّة مطعّمة بالعاج والأبنوس.

وإننا نرى الزّخارف على خشب الجوامع والأثاث الإسلامي هي نفسها كما نقشها الصّناع الأقباط في الكنائس القبطيّة.

فليس من المستبعد أن يكون العرب في مصر قد اتخذوا لأنفسهم شكل الكثير من قطع الأثاث القبطيّة، كالدّواليب والموائد، ولعلهم أخذوا عنهم (عن الأقباط) أيضاً الكرسي الذي يحمل عليه المصحف، والذي يعرفه القبط باسم المنجلية، أي محل الإنجيل. ولقد ظلت لمصر السيّادة في الحفر على الخشب وصناعته حتى القرن السّادس عشر الميلادي^(٦٨).

٧ - صناعة النسيج

برع الفنان القبطي في فن النسيج، واستعمل عدة طرق غاية في الدقّة الفنيّة. ولقد حمل الأقباط لواء هذه الصّناعة لمدة طويلة لم يشاركهم فيها أحد. وظلت صناعة النسيج على ما هي عليه في مصر حتى العصر الفاطمي في أواخر القرن العاشر، حين طبعت صناعة النسيج بطابع إسلامي ظاهر، ومع ذلك لم تخل في زخارفها مما يدل على بعض العلاقة بماضيها في وادي النيل. ويدلنا على ذلك أن العرب كانوا يطلقون على المنسوجات القبطيّة اسم "قباطي"^(٦٩)، نسبة إلى قبط مصر الذين أظهروا مهارتهم

٦٨ - د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٩٣، ٢٩٤
٦٩ - يذكر الأزرقى أن عمر بن الخطاب كسا الكعبة القباطي من بيت المال، وكان يكتب إلى مصر لتصنع له فيها.

الفنيّة في ميدان النسيج^(٧٠). وقد كان لصناعة المنسوجات تجارة رائجة.

وقد اكتسبت مصر شهرة عالميّة بفضل مهارة عمال النسيج الأقباط الذين عُرفوا بحسن زيّهم ولطافة صناعتهم^(٧١). أما أهم أنواع تلك المنسوجات التي أنتجتها آلاف المصانع التي عمل بها الأقباط وانتشرت في كثير من مدن الوجهين البحري والقبلي فهي:

- **الديبقي:** وهو نسيج حريري يُنسب إلى قرية دبيق، وكانت الثياب الديبقيّة من أهم منسوجات مدينة أسيوط التي غلب على سكانها الأقباط.

- **القصب:** وهو نسيج من الكتان يمتاز بالنعومة الفائقة، ويصنع منه العمامات وما يلبسه النساء واشتهرت به تينيس. أما القصب الأبيض فقد اشتهرت به دمياط.

- **الشرب:** ويُسمى أيضاً الشراي، وهو نوع من الحرير أو الكتان النقي الفاخر، واشتهرت به مدينتا دمياط وتينيس.

- **البدنة:** وهو اسم ذلك الثوب الثمين الذي كان يُصنع للخلفاء، ويقوم بصناعته نسّاجون مهرة، وكان لا يدخل في هذا الثوب من الغزل سداء ولحمة، غير أوقيتين، وفيه كثير من الذهب، والثوب لا يحتاج إلى تفصيل أو خياطة غير الجيب والنباتق. ولم يكن مصرحاً ببيعه.

- **القباطي:** وهو نسيج من الكتان أو التيل، وكان العرب يطلقون على المنسوجات اسم "القباطي"، نسبة إلى قبط مصر.

- **البوقلمون:** وكان يُنسج في مدينة تينيس وحدها، وهو قماش يمتاز

٧٠- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٨٠

٧١- د. سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع

بالوانه البرّاقة، ويظهر في ألوان مختلفة حسب تعرضه لضوء الشّمس والوضع الذي يكون فيه واختلاف ساعات النّهار، وكان يُصدّر إلى جميع بلدان الشّرق والغرب لشدّة الطّلب عليه.

– العتايي: وهو أحد أنواع المنسوجات الحريرية، وكان يُنسج أولاً بمدينة بغداد، ثم استحدث هذا النّسيج في مصر، وصُنِع في عصر الفاطميين (٧٢).

وقد اشتهرت تنيس بعمل قماش الخيام، كما اشتهرت الفيوم بصناعة الخيش، وسالوط بعمل المنسوجات من شعر الماعز، والإسكندرية بالحرير الإسكندري.

واستمر التّأثير القبطي على الفن الإسلامي في الزّخرفة على المنسوجات قائماً، وظلّ أثره واضحاً حتى القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، وفقدت رسوم الحيوانات والطيور خواصها، وصارت أشكالاً تقليديّة لا تمت إلى الطبيعة بصلة كبيرة (٧٣).

واشتهرت عدّة مراكز بإنتاج المنسوجات، منها في الوجه البحري الإسكندرية ودمياط وتنيس، ويذكر المقريزي أن الثياب المنسوجة بالإسكندرية لا نظير لها، وتُحمل إلى أقطار الأرض. ومما يدل على عظمة تنيس في النّسيج أن ثوب الخليفة كان ينسج بها. وظلت تنيس تصدّر إنتاجها النّقيس من المنسوجات إلى الخارج حتى سنة ١٩٧١م، حين توقّف في أيام الدّولة الفاطميّة. وكانت دمياط تقارب تنيس في شهرتها في النّسيج. وقد اشتهر في النّسيج أيضاً من بلدان مصر السّفلى شطاً ودميرة

٧٢- نفس المرجع، ص ١١٤-١١٧

٧٣- نفس المرجع، ص ١٢٠

وتونة، وكلها قريبة من تينيس ودمياط^(٧٤).

أما أهم مراكز إنتاج المنسوجات في الوجه القبلي، فهي الفيوم وأهناسة والبهنسا وأسيوط وأخميم والأشمونين وغيرها. وكان عدد كبير من سكّان هذه المدن قد ظلّوا على دينهم المسيحي حتى بعد دخول الإسلام مصر. وكانت صناعة المنسوجات زاهرة منذ عهد الفراعنة إلا أنّها تقدّمت تقدّماً كبيراً في العصر القبطي، وكانت متعدّدة الأنواع والأصناف^(٧٥). وكان الكتان الدقيق لازال يُنسج، ولعله كان أدق خيطاً وصنعة مما كانت تخرجه مناسج مصر القديمة. وفوق ذلك، قد صار الحرير منذ حكم جستنيان أكثر شيوعاً بين النّاس، وكان يخرج على أيدي النّساجين بدائع من الحرير والكتان، تحليها زركشة تأخذ الألباب، وقد كُشف حديثاً عن بقايا من منسوجات ذلك العصر، أو عصر قريب منه، وُجدت في أخميم بالصّعيد واسمها القندم "بانوبوليس" وهي محفوظة اليوم

٧٤- نفس المرجع، ص ٢٨٤

٧٥- كانت طرق النسيج في العصر القبطي أربعة:

(أ) طريقة القباطي (التابستري): وفيها يحاول الفنان الحصول على زخرفة نسجية مكونة من لونين أو أكثر. ويمكن تقسيم خيوط السدى إلى فريقين متساويين في العدد يتحركان بواسطة ورأتين، وتحدث الزخرفة عند استعمال لحمات ملونة تنسج جميعها غير ممتدة في عرض القماش.

(ب) طريقة اللحمة الزائدة: وتنشأ زخارفها عن طريق ظهور واختفاء خيوط اللحمة الممتدة في عرض النسيج وتقاطعها مع السدى، أو باستخدام لحمتين من لون خيوط السدى.

(ج) طريقة النسيج المبطن من اللحمة: وتنشأ زخارفها من خيوط اللحمة التي تكون الأرضية أيضاً مع اختفاء السدى. ويمكن استعمال هذا النسيج من جهة واحدة أو من جهتين.

(د) طريقة النسيج الوبري: وكانت تجري غالباً بسحب أجزاء متجاورة من خيط اللحمة الخاص بما بعد تمريره داخل النقش وإبرازها على سطح القماش من بين خيوط السدى على شكل حلقات متجاورة.

في إنجلترا^(٧٦)، وفي مجموعات أخرى. وكل هذه المنسوجات من الكتان، وهي أبسطة منسوجة، أما أنماطها ورسومها فمختلفة، بعضها يشبه في رسمه المنسوجات القديمة، وبعضها عليه أثر واضح من المسيحية، وقسم منها عليه أثر ظاهر من أنماط الفرس، فإن مدة إقامة الفرس بمصر وهي تلك السنوات العشر أو الاثنتا عشرة لا بد قد أثرت فيها الرسوم الفارسية على الصنّاع، فجعلتهم يخرجون منسوجاتهم على مثالها.

والشبه العظيم بين مجموعة من ورق اليردي في فيينا تُنسب إلى "تيودورجراف" وبين مجموعة هذه المنسوجات؛ فمجموعة الأوراق التي تختلف تواريخها بين سنة ٤٨٧م، وسنة ٩٠٩م فيها لغات شتى، اليونانية والقبطية والفارسية والساسانية والعربية والعربية، ومجموعة المنسوجات التي ترجع إلى نحو هذه العصور تنطبع فيها صور ما مرّ على مصر من صروف الدهر المختلفة، وبعض الأحداث السياسية، كما تنطبع صورة في مرآة.

ومن أهم الأمور أن نتذكر، أن مادة مختلف صنوف المنسوجات ورسومها وألوانها كلها تكاد تكون واحدة سواء في ذلك ما وُجد في سقارة أو الفيوم أو الصعيد. وهذه حقيقة تدلنا على اشتراك النساجين في الأنماط وتشابههم في الأذواق أكثر مما تدلنا على شدة محافظتهم على القدم وتمسكهم به. فكان ما جدّ من طرق الصنّاعة ورسومها ينتقل سريعاً في نهر النيل، ذاهباً من طائفة إلى طائفة من الصنّاع في البلاد المنتشرة في ريف مصر. وكان ما تخرجه المناسج يُحمل إلى الأسواق الكبرى في منف والإسكندرية، أو كان يُحمل في الصحراء مرحلة قصيرة حتى يبلغ ميناء "بيزنيقة" على البحر الأحمر، ومن ثم يُنقل في السفن إلى البلاد الأخرى.

٧٦- محفوظة في مجموعة تُسمى: "سوت كتر نختون".

وكانت المنسوجات الكتانيَّة والسَّائِر ذات الصُّور الَّتِي تتخلَّل نسيجها خيوط الذهب، وتوشىها النقوش البديعة من التَّطْرِيْز في ألوان جميلة، كانت كلها من صناعة الصَّانِع القبطي. وإِنَّا كلما أمعنا في درس تاريخ مصر سواء منه ما كان في العصر البيزنطي، أو العصر العربي، زاد يقيننا بأن القبط كانوا أصحاب الفضل في بقاء آثار الصَّنَاعَة حية ماثلة في البلاد، وذلك في كل شعبة من شعبها، سواء في صياغة الذهب، أو تطعيم المعادن، أو الزَّخْرَفَة بالمينا، أو صناعة الرُّجَاج، وغير ذلك من صناعات الإنشاء والتَّجْمِيل.

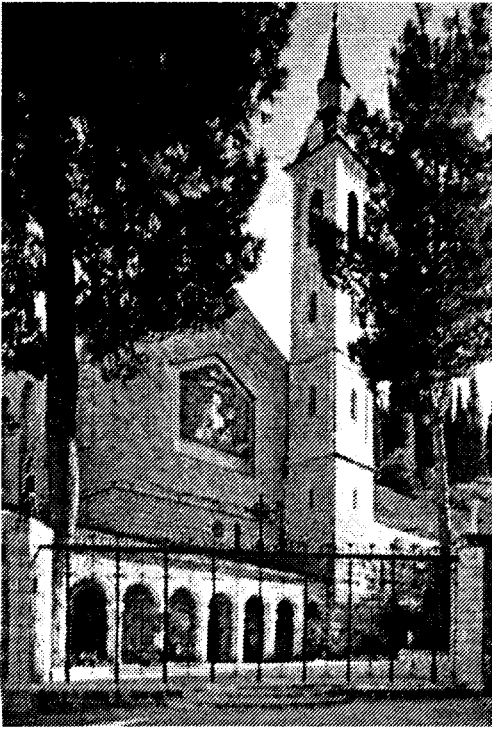
٨ - صناعة بناء السُّفُن

ولعلها أكبر صناعات الإسكندريَّة قاطبة، فالإسكندريَّة كانت أكبر أسواق العالم وأكثر ثغوره ازدحاماً وحركة. وكانت بها تجارة عظيمة في القمح والكتَّان والورق والرُّجَاج وغير ذلك من صنوف ما تنتجه البلاد. وكانت تُحْمَل إليها مقادير عظيمة من الذهب والعاج من بلاد النوبة وإثيوبيا، وفوق ذلك أنواع البُهار والحريِر والفضَّة والجواهر وغيرها كانت تأتي من بحار الهند والصين إلى البحر الأحمر، ومن القلزم (السويس) فتُحْمَل في الترعَة إلى ممفيس، ومنها تنحدر في نهر النيل إلى الإسكندريَّة حيث كانت تُبعث إلى أطراف البحر الأبيض المتوسِّط. ومثل هذه التَّجَارَة العظيمة لا بد لها من عدد كبير من السُّفُن. وكانت مصر منذ الأزمنة القديمة فقيرة في موارد الخشب الذي تُصنع منه السُّفُن، فكانت الأحشاب تُشترى من بلاد الشَّام وغيرها لبناء السُّفُن في الإسكندريَّة، مقر التَّجَارَة العالميَّة آنذ. وكانت مصر - فوق كل ذلك - تنبت نوعاً من النَّبَل يليق كل اللياقة لعمل الحبال وأدوات السُّفُن. ويقول ابن الفقيه (القرن العاشر) ”ومن عجائب مصر نوع من الكتَّان اسمه الدَّقْس كانت تُصنع منه حبال السُّفُن وكانت تُسمى القرقس“.

وحدث بعد سنين عدة من هذا الوقت عندما أصبحت مصر في مُلك العرب، أن أمر معاوية، الزعيم العربي في الشَّام، ببناء عدد من السُّفُن الحربية في الإسكندرية وغيرها من الموانئ التي في حُكم الدَّولة العربيَّة، وذلك في وقت لم يكن فيه بحراسي الإسكندرية أحد من بنائِي السُّفُن الذين هم من أصل بيزنطي محض، إذ كانوا لا بد قد خرجوا منها جميعاً. إذا لم يكن غير الأقباط في مصر من هم أقدر وأدرى بهذه الصَّناعة. وفي ذلك تقول الدكتورة سيدة كاشف: "وبنت مصر القبطية السُّفُن للعرب، فمصر اشتهرت منذ البداية بصناعة السُّفُن، أما العرب فلم يكونوا شعباً بحرياً عند ظهور الإسلام^(٧٧)".

وأكثر ما يسترعى النَّظر فيما جاء في كتاب "سبيوس" أنه يقول: إن السُّفُن التي بُنيت في مصر بعد الفتح العربي بأمر العرب كانت مجهزةً بالمخانيق لقذف المواد الملتهبة، وهي المواد التي قيل أن تجهيزها كان إلى القرن السابع على الأقل سراً مكنوناً اختص به أهل بيزنطة. وقد حوت العادة أن يقولوا أن أوَّل من اخترع النَّار الإغريقية هو رجل اسمه "قلينيكوس"، وهو مهندس في مدينة "هليوبوليس"، ويقولون في تسرع أن هليوبوليس المقصودة هي التي بالشَّام وليست هي المدينة القديمة الشهيرة بمصر. أما المؤرخ "جيبون" فإنه يعتمد على ما جاء في كتاب "قدرينوس" ويقول: إن "قلينيكوس" كان مصرياً ولكنه يزعم خطأ أن هليوبوليس كانت عند ذلك أطلاقاً بالية، وإنما لا يمكن أن نتصور - بحسب رأيه - أنه كان من الممكن أن تُبنى سُفُن في الإسكندرية بعد الفتح العربي لمصر بما لا يزيد إلا قليلاً عن عشرين سنة، ثم أن تجهيز تلك النَّار وعمل الآلها أصله من مصر ذاتها.

ومهما كان من أمر تلك النَّار، فلاشك أن صناعة السُّفُن كانت عظيمة في الإسكندرية في النِّصف الأوَّل من القرن السَّابع، وأنها لم تضمحل عندما انتهى أمر الدَّولة البيزنطيَّة في مصر. وفي هذا ما يدل على أن الصَّانع القبطي في هذه الصَّناعة، وفي غيرها من الصَّناعات الكُبرى في وادي النَّيل كان مستقلاً بنفسه بغير إرشاد ولا تسيير من الرُّوم إذا لم نقل إنه كان في الحقيقة الصَّانع المَعْلَم^(٧٨).



٧٨ - محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، القاهرة، ١٩٦٦م، تحت عنوان الفن القبطي. وانظر أيضاً: د. ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأوَّل، مرجع سابق، ص ٩٢ - ١٠٢.

الفصل الرَّابِع

فتح العرب لمصر

دور الأقباط في دخول العرب لمصر

ليس في التّاريخ من دليل واحد واضح يشير إلى أن الأقباط كان لهم دورٌ في دخول العرب إلى بلادهم مصر أو خروج الرُّوم منها. كانوا في موقع المتفرّج الذي أمّكه الظلم والعسف والاضطهاد، فاكتفى بالمشاهدة والتأسّف على بلاده التي تألّب عليها أسياد جاءوها من كل حذب وصوب، والله الأمر في احتياح الفرس لبلادهم وخروجهم منها، وفي عودة الرُّومان إليها ونزوحهم عنها، وفي دخول العرب إليها وبقائهم فيها.

ولقد أثبت المؤرّخ المدقق ألفريد بتلر A. Butler في كتابه "فتح العرب لمصر" بما لا يدع مجالاً لأي شك، أن الأقباط لم يكن لهم أي دورٌ في دخول العرب للبلاد، وأثبت بالبرهان القاطع في غير موضع أن المصريّين كانوا يقاومون الفاتحين كلما انتقلوا من موقع إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى، سواء في الوجه البحري أو القبلي. أما الدكتورة سيّدة إسماعيل كاشف في كتابها "مصر في فجر الإسلام" فترى أن المصريّين رحّبوا بالعرب ولكنها لم تجد إشارة واضحة تؤيّد بها رأيها فاكتفت بالقول بأنه في المصادر القديمة إشارات كثيرة تفيد هذا المعنى. وتستشهد بما ذكره الأسقف يوحنا النقيوسي أن المصريّين الذين تركوا الدين

المسيحي وأسلموا صحبوا جيوش العرب أثناء الفتح^(١). وهي في الحقيقة مقولة توضّح أن هناك نوعاً من المقاومة أبدتها المصريون في البداية تجاه الفاتحين، وبعد إخضاعهم لم يكن أمامهم سوى الاختيار بين القتل أو الجزية أو الإسلام، فاختاروا الإسلام. وبعد أن تورّد أمثلة أخرى لمؤرّخين آخرين تقول "إننا لا نستطيع أن نأخذ بكل ما جاء فيها إذ أن بطرك القبط بنيامين كان في ذلك الوقت محتفياً في الصّعيد وليس في الإسكندرية". وتشير أيضاً إلى ما ذكره المقرئزي عن مقاومة الأقباط للعرب الفاتحين في دمياط بقيادة رجل يُدعى "أبو ثور"^(٢).

ولقد ذكرت الدكتورة سيدة كاشف هي نفسها أن العرب رفضوا إشراك المصريين معهم في جيشهم خوفاً من أن ينقلبوا عليهم ويطردهم من البلاد إذا صحت فيهم الرُّوح القوميّة. ثم أن صلح بابلون لم يرد به أية إشارة تدل على السّماح للمصريين بالاشتغال بالجنديّة^(٣). وهي نقطة قتلها بتلر بحثاً لا مزيد عليه، تؤيّد وجهة نظره السّابق الإشارة إليها.

وفي الحقيقة ليس من عادة الأقباط - على مدى التّاريخ - أن يناصروا أي جيوش تهاجم بلادهم مهما كان الظلم الواقع عليهم، وباباوات الكنيسة القبطيّة برغم اجتيازهم فترات عصيبة من الاضطهاد، لم يفكروا أبداً في الاتصال بقوى العالم الخارجى لمناصرتهم. ولم تتحوّل أبداً العلاقات الدّينيّة بين الكنيسة القبطيّة وسائر الكنائس الأخرى إلى علاقات سياسيّة من أي نوع. فهل يُعقل أن يناصر الأقباط جيوش العرب الفاتحين،

١- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ١٨٥. انظر أيضاً: دكتورة سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٣١

٢- نفس المرجع، ص ١٨٦

٣- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٧٠

ولا يناصروا جيوش الصَّلَيبِيِّين الغازين؟! لقد ناصر الأرمن واللبنانيون والسُّوريون والمللكانيون الصَّلَيبِيِّين في غزواتهم، عدا الأقباط وحدهم، الذين أصبحوا مع المسلمين العدو الوحيد للصَّلَيبِيِّين في الشَّرْق. إن الأقباط أوفياء لوطنهم على الدَّوام، ولقد ظَلَّت الكنيسة القبطيَّة على مدى ألفي عام تفخر بوطنيتها برغم ما حاق بها من أهوال.

مسار العرب الفاتحين في دخولهم مصر

دخل العرب مصر بقيادة عمرو بن العاص سنة ٦٤١م، وكانت أوَّل مدينة قابلتهم هي مدينة "بلوز" لأنها كانت تقع على فرع من النيل اسمه "الفرع البلوزي"، كان ينحدر إلى البحر بقرها، وهي تُسمى بالقبطيَّة "برمون" وسماها العرب "الفرما". وكانت مرتفعة عن سطح البحر بنحو ميل ونصف، وكانت مدينة قديمة، قوية الحصون، بها كثير من آثار المصريين القدماء، كما كان بها بعض الكنائس والأديرة، وكانت ذات شأن كبير إذ كانت مفتاح مصر من الشَّرْق، تشرف على طريق القادم من الصَّحراء، وتملك ناصية البحر، ويجري إليها فرع من النيل.

جاءها العرب الفاتحون وحاصروها مدة شهر أو شهرين. وقد روى المقرئزي وأبو المحاسن أن قبط الفرما ساعدوا العرب أثناء الحصار، ولكن ذلك غير صحيح، فلم يرد ذكر هذه المساعدة في كل ما كُتِب قبل القرن الرَّابِع عشر^(٤). ولو ساعد القبط العرب لما أحرق هؤلاء السُّفُن وهدموا الحصن، ولما فعلوا ما فعله الفُرس من قبلهم في تخريب الكنائس الباقية في الفرما. لنا فوق ذلك دليل آخر على نقد هذا الزَّعم، وهو ما قاله يوحنا النقيوسي - وكان من الأحياء قرب ذلك العهد - في ديوانه: "إن القبط

لم يساعدوا المسلمين إلا بعد أن استولوا على الفيوم وإقليمها“. ولسنا ندرى على وجه التحقيق في أي وقت كان هذا، ولكن من الجلي أنه لم يحدث ذلك إلا بعد فتح حصن بابليون، ولم تكن المساعدة إلا مساعدة قليلة لا تعدو بعض الأمور.

حصار حصن بابليون وسقوطه

وبعد أن ملك العرب الفرما وكان قد مضى نصف شهر يناير سنة ٦٤٠م، ساروا إلى حصن بابليون^(٥)، وكان حصن بابليون ثاني الحصون

٥- لقد سبب اسم "حصن بابليون" ارتباكاً كبيراً لكُتاب العرب، وهو الاسم الباقي إلى اليوم. بناه الإمبراطور تراجان سنة ١٠٠م، وفي سنة ٣٩٥م، قام الإمبراطور أركاديوس بتوسيعه وتعديله. ويذكر يوحنا النقيوسي أن أصل ذلك الحصن كان بناء أقامه بختنصر الملك وسماه باسم عاصمة ملكه "بابليون" وذلك عندما غزا مصر، فأقام تراجان أسوار الحصن على أساسه، وزاد في بنائه. وعلى كل حال، فلاشك في أن البناء القائم اليوم هو بناء روماني، ولا نظن أن تراجان جعل بناءه على نسق بناء كان في ذلك الموضع من قبل. ويقول سترابو الذي جاء إلى مصر قبل عهد تراجان بنحو ١٣٠ سنة أن سبب تسمية هذا الحصن باسمه هو أن جماعة من أسرى بابل كانت مقيمة فيه. وقال ثيودور الصقلي: إن ملك مصر "سيزوستريس" جاء بجماعة من أسرى البابليين وأزلهم في قصر، فأطلقوا على القصر اسم المدينة التي جاعوا منها. ويقول المؤرخ يوسيفوس: إن الحصن لم يبن إلا في أيام غزوة الفرس في حكم الملك قمبيز. ونستطيع القول إنه كان على مقربة من موضع الحصن القائم في الوقت الحاضر، حصن قديم كانوا يطلقون عليه اسم "بابليون" مدة قرون طويلة قبل أيام تراجان. والإسم "بابليون" لا يُطلق اليوم على الحصن نفسه، بل يُطلق على دير صغير على مسافة قليلة من الحصن نحو الجنوب، وهو "دير بابليون" أما الحصن فيُطلق عليه الآن اسم "قصر الشمع" وليس من السهل أن نعرف أصل هذه التسمية في اللغة العربية. وقد يكون لفظ "الشمع" تحريف للكلمة القبطية "شيمي" أو "خيمي"، ونصت الأخبار على أنه كان في حصن بابليون القدم هيكل للنار، ولعله كانت توقد في مثل هذه الصروح العالية منائر توقد فيها النيران للإرشاد، فنشأ من ذلك اسم

القوية بعد حصن الإسكندريَّة وكان حصناً منيعاً تحيط به المياه من كل ناحية، ويذكر سترابو أنه كان مقاماً على نهر صخري إلى الجنوب من الموضع الذي به الحصن اليوم^(٦). وبرغم أن الحصن كان صعب المنال، لكنه إن سقط في يد عدو دانت له بلاد الصَّعيد جميعاً، وبلاد مصر السُّفلى في الشَّمال.

احتفى المقوقس بالحصن مع حاميته من الرُّوم، وما كان للمسلمين من أدوات حربِيَّة يفتحون بها الحصن سوى الحجارة والسَّهام، وماذا تكون هذه إزاء مجانيق الرُّوم الأقوى أثراً، ولكن أدَّى صبر العرب وشدَّة بأسهم في القتال إلى انهيار عزيمة من بالحصن ووقوع الخلاف فيما بينهم.

وبعد حصار للحصن استمر حوالي سبعة أشهر بدأت في أوَّل سبتمبر سنة ٦٤٠م، كانت حملة العرب الأخيرة على الحصن يوم الجمعة السَّابق مباشرة لعيد الفصح (يوم الجمعة العظيمة) في السَّادس من إبريل سنة ٦٤١م، فخذل المقوقس مصر وأضعفها عن لقاء الغازين.

يقول يوحنا النقيوسي: (نهض كيرس (المقوقس) البابا وسار إلى

”قصر الشَّمع“. وكان اسم الحصن باللغة القبطية وقت الفتح العربي ”بابلون آن خيمي - Βαβυλων Ἰχημι“ أي ”بابلون مصر“.

انظر: د. ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦ ويُظن أن تعبير ”قصر الشَّمع“ ربما يعود في أصله إلى تعبير ”قصر الجمع“ ومع تعطيش الجيم حدث خلط بين كلمتي ”الجمع“، ”الشَّمع“ حيث ورد هذا التعبير ”قصر الجمع“ في مخطوط يعود إلى القرن السابع عشر مؤرخ بتاريخ ٢٦ ذي القعدة ١٠٥٧هـ - ١٦٤٧/١٢/٢٣م.

انظر في ذلك: د. محمد عقيقي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٢٠٨

6. Alfred J. Butler, *The Ancient Coptic Churches of Egypt*, vol. 1, London, 1970, p. 172, 173.

بابلليون حيث المسلمون، راغباً أن يعمل سلاماً، وأن يؤدّي لهم الضرائب ليدعوا الحرب عن بلاد مصر. فرحب عمرو بمجيئه وقال له: حسناً فعلت بخروجك إلينا، فأجاب كيرس وقال له: منحكم الرب هذا البلد. من الآن لا يكون بينكم بين الروم خصومة، وحددوا عبء الضرائب التي تؤدّي^(٧).

وسقوط الحصن بدأ العرب في التّجهيز للترول في التّيل إلى مصر السفلى (الوجه البحري).

وبعد أن يسهب المؤرخ المدقق ألفريد بتلر A. Butler بأدلة دامغة في تأكيد أن الأقباط لم يكن لهم أي دور في هذه الأحداث يخلص إلى القول: "... فعلياً أن نبين هنا بياناً لاشك فيه أنه لم يكن في ذلك الوقت شيء اسمه القبط في ميدان النّضال، ولم تكن منهم طائفة لها يد فيه، بل كان القبط إذ ذاك بمنجاة عنه، قد أذهم "قيرس" وأرغم أنوفهم، فليس من الحق في شيء أن نقول: إن القبط كانوا يستطيعون أن يجتمعوا على أمر، أو يتزلوا إلى القتال، أو يصالحوا العرب^(٨)".

كان في الحصن أثناء حصاره أقباط مسجونين تعساء سجنهم الروم،

٧- في هذا الوقت عنه بعث المقوقس عظيم القبط بـ "ماريا"، وأختها "سيرين" هدية إلى نبي الإسلام، فاختار النبي ماريا وتزوجها، ووهب سيرين إلى شاعره حسان بن ثابت. وعن ماريا القبطية، وهي بنت شمعون من أب قبطي وأم مسيحية رومية، عن هذه السيدة القبطية تقول عائشة إحدى زوجات نبي الإسلام: "ما غرت على امرأة إلا دون ما غرت على مارية، وذلك أمّا كانت جميلة جعدة، فأعجب بها رسول الله وكان أنزلها أول ما قدم بها في بيت لخارثة بن النعمان، فكانت جارتنا. فكان عامّة الليل والنهار عندها ... فجزعت، فحوّنها إلى العالية، وكان يختلف إليها هناك. فكان ذلك أشد علينا، ثم رزقه الله منها الولد، وحرمناه منه".

السمط الثمين: ص ١٤٠، بنت الشاطئ، ص ٢٠١

٨- د. ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٢٢١

ولما جاء يوم الفصح الذي كان فيه الخروج من الحصن، جعل منه الرُّوم يوم وقعة ونقمة على هؤلاء المسجونين البُؤساء. فسحبوهم من سجونهم وضربوهم بالسيّاط، وقطع الخند أيديهم، وبالرَّغم من هذا فلا عجب أن نجد الأسقف المصري يوحنا النقيوسي يصفهم بقوله: "أعداء المسيح الذين دَسُّوا الدِّينَ برجس بدعهم، وفتنوا النَّاسَ عن إيمانهم فتنة شديدة لم يأت بمثلها عبدة الأوثان، ولا الهمج. وعصوا المسيح وأذلُّوا أتباعه، فلم يكن في النَّاسِ من أتى بمثل سيئاتهم ولو كانوا من عبدة الأوثان^(٩)".

أعداد كبيرة من الأسرى المصريين

تقول الأستاذة سناء المصري: نحن لا نستطيع الحديث عن التَّسامح العربي بضمير هادئ، والطبري^(١٠) يذكرنا بأن الجيش العربي الفاتح قد أسر أعداداً كبيرة من المصريين، وأن صفوف العبيد من القبط امتدت من مصر إلى المدينة (المدينة المنورة)، فينقل عن رجل من أهل مصر، أو بمعنى أصح، عن عربي سكن أرض مصر، وكان من جند عمرو بن العاص أثناء الفتح، أنه قال: "لما افتتحنا "باب اليون" تدبنا قرى الرِّيف فيما بيننا وبين الإسكندرية قرية فقرية، حتى انتهينا إلى بلهيب^(١١)، قرية يقال لها قرية الرِّيش، وقد بلغت سبايانا المدينة ومكة واليمن".

وتنقل لنا هذه الرواية صورة الصُّفوف الطويلة من العبيد والجواري الذين انتزعهم الجيش العربي من قراهم، وبعث بهم في ذلَّة وانكسار إلى مدن الجزيرة العربية بعد فقدان حريتهم.

٩- نفس المرجع، ص ٢٣٩

١٠- تاريخ الطبري، الجزء الرابع، ص ١٠٥. مقتبس عن: سناء المصري: هوامش الفتح العربي، حكايات الدخول، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦

١١- هي منية الزناطرة بالبحيرة، ومحلها اليوم فزارة بمركز المحمودية.

ويذكر البلاذري أيضاً في كتاب فتوح البلدان، ذات الواقعة بقوله: "وكانت قرى من مصر قاتلت، فسُبي منها، مثل بلهيب والخيس وسلطيس فوق سباؤهم بالمدينة".

فما بالنا نستنكر إشارة النقيوسي إلى أن العرب: "ههبوا كثيراً من الأسلاب، وأسروا النساء والأطفال، وتقاسموا فيما بينهم" ولا نستنكر إشارات الطبري والبلاذري وابن عبد الحكم إلى السبي المصري الموفد إلى المدينة في ظل القهر الحربي^(١٢).

هذا هو ما ذكره عمرو بن العاص نفسه حين أرسل إليه عمرو بن الخطاب يسأله المدد في عام الرمادة حين اعتصرت المجاعة أهل المدينة وما حولها، حتى كاد الجوع يأكل بطونهم. فقال له عمرو: "سأرسل إليك بقافلة أولها عندك في المدينة وآخرها عندي في مصر". فمن أين إذا خرجت كل هذه الخيرات؟ إنها خرجت من عرق المصريين وكدهم وتعبهم. فما أن خرج المصريون من يد مستغل جبّار حتى وقعوا في يد مستغل أكثر عتواً وتجراً^(١٣).

التقدم نحو الإسكندرية

واتجه عمرو بن العاص بعد سقوط حصن بابليون إلى الإسكندرية وكان لابد له أن يجتاز مدينة نقيوس^(١٤)، وقد كانت آنئذ مدينة ذات شأن عظيم، وذات حصن منيع، وهي تقع على الشاطئ الشرقي لفرع

١٢- سناء المصري: هوامش الفتح العربي، مرجع سابق، ص ١٤٩، ١٥٠.

١٣- محمد الباز في مقال له بجريدة صوت الأمة، الاثني ١٧/١١/٢٠٠٣م، ص ٩ تحت عنوان: "حقيقة عمرو بن العاص".

١٤- موقع مدينة نقيوس القديمة هو الآن القرية الحديثة المسماة "شيشير" وهي إلى الشمال الغربي من منوف على نهر النيل.

النَّيْل الغربي الذي هو فرع رشيد، على مسيرة يوم من حصن بابلليون، وعلى مسيرة ساعتين من مدينة منوف. وهي تحوي آثاراً جلييلة من أيام الفراعنة، وكانت أسقفية شهيرة، ولها مكانة حربية كبرى في حفظ الطريق بين حصن بابلليون والإسكندرية. ولكن قائد جيش الروم "دومتيانوس" ترك المدينة وهرب بجيوشه إلى الإسكندرية، فدخل العرب المدينة في ١٣ مايو سنة ٦٤١ م من غير مقاومة، إذ لم يكن فيها جندي واحد يعترض سبيلهم، ومع ذلك فقد أوقعوا بأهلها وقعة عظيمة. ويقول يوحنا النقيوسي: "فقتلوا كل من وجدوه في الطريق من أهلها، ولم ينج من دخل في الكنائس لائذاً"^(١٥).

ثم اتجه العرب وهم في طريقهم إلى الإسكندرية إلى مدينة "كريون" وفيها آخر سلسلة الحصون التي تقع بين حصن بابلليون والإسكندرية. وكانت "كريون" مدينة مشهود لها في الحروب، إذ كانت تشرف على التُّرعة التي يرتكز عليها جُلُّ اعتماد الإسكندرية في طعامها وشرابها، ولكن حصولها لم تكن منيعة كحصني بابلليون ونقيوس. وكان على الروم أن يقفوا هناك وقفتهم الأخيرة بقيادة قائدهم "تيودور". وكان جنود الروم أكثر عدداً من العدو، وكانت التُّرعة تحميهم من بين أيديهم، وكان الطريق من ورائهم يفضي إلى الإسكندرية، ومن السهل عليهم حفظه. وقاتل الروم قتالاً شديداً شهد له مؤرِّخو المسلمين أنفسهم، واستمر القتال بضعة عشر يوماً، وفي النهاية انتصر العرب وفتحوا كريون، وخلا أمامهم الطريق إلى الإسكندرية. وكان جيش عمرو قرابة عشرين ألفاً في تعدادها بعد موقعة كريون.

وسار جيش العرب في طريقه إلى الإسكندرية وهنا يورد بتلر وصفاً

لجانبا من مدينة الإسكندرية كما ذكره المؤرخون من روعة رونقها وجمالها، كمنارة للعلم والثقافة والفنون^(١٦).

سقوط الإسكندرية

وفي اختصار:

- على الرغم من أنه لم يكن للعرب شيء من آلات الحصار التي لا يعرفونها أصلاً، وليس لهم خبرة ودراية بفنون الحصار وحرابه،
- وعلى الرغم مما كان في يد الروم من العدة والعدد،
- وعلى الرغم من أن القوة المسلحة الرومانية التي تحصنت في المدينة بلغت خمسين ألفاً،
- وعلى الرغم من المؤونة الوفيرة في المدينة لانفتاحها على البحر،
- وعلى الرغم من أن عمرو بن العاص عندما حاول بجيشه التقدم نحو أسوار المدينة قوبل ببوابل من قذائف عظيمة من الحجارة قذفت بها بجانيق الروم من فوق الأسوار فارتد بجيشه مرتعين مبتعدين عن مرمى رميها، ولم يجرؤا بعد ذلك أن يتعرضوا لقذائفها،
- وعلى الرغم من أن العرب قنعوا بالوقوف والمرابطة في معسكرهم مكتفين برصد ومراقبة عدوهم، إذ علموا حق العلم أنهم لن يستطيعوا أخذ المدينة بالهجوم ... الخ

على الرغم من كل ذلك سقطت الإسكندرية!!

وهكذا باتت مصر مسرح أحداث الصراع الدائر بين العرب والروم. ولم يكن للشعب المصري من دور فيها سوى مشاهدة فصول

١٦- أوردتُ جانباً من هذا الوصف تحت عنوان: "تاريخ مدينة الإسكندرية" وذلك في الفصل الثاني من هذا الباب، فارجع إليه إن شئت.

مسرحةً تدور على أرضه رغماً عنه، لا يملك إزاءها سوى تجرُّع الألم على مجد غابر كان فيه صاحب الكلمة الأولى لكل ما يدور على أرضه من أحداث.

صُلح الإسكندريَّة

عاد المقوقس - الذي سلّم حصن بابلون للعرب - إلى الإسكندريَّة في هذه الظروف بعد أن كان منفيّاً من قبَل هرقل في مكان جهله التَّاريخ، لكي يكون تسليم الإسكندريَّة للعرب على يديه أيضاً، حيث التقى مع عمرو وقال له: "إن النَّاس قد عوّلوا على دفع الجزية كيما تقف الحرب. إن الله قد أعطاكم هذه الأرض، فلا تدخلوا في حرب بعد اليوم مع الرُّوم". وانتهى اللقاء بكتابة عقد وُقِع بين الجانبين في ٨ نوفمبر سنة ٦٤١م، وهو ما يُسمى "صُلح الإسكندريَّة" تمييزاً له عن الصُّلح السَّابق له وهو "صُلح بابلون".

ولقد أورد الأسقف يوحنا النقيوسي شروط هذا الصُّلح، ورتب المؤرِّخ ألفريد بتلر A. Butler بنوده بالترتيب التالي:

- ١- أن يدفع الجزية كل من دخل في العقد.
- ٢- أن تُعقد هدنة لنحو أحد عشر شهراً تنتهي في أوَّل بابَه القبطي الموافق ٢٨ سبتمبر سنة ٦٤٢م.
- ٣- أن يبقى العرب في مواضعهم في مدَّة الهدنة، على أن يعتزلوا وحدهم، ولا يسعوا أي سعي لقتال الإسكندريَّة. وأن يكف الرُّوم عن القتال.
- ٤- أن ترحل مسلَّحة الإسكندريَّة في البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعاً على أن من أراد الرُّحيل من جانب البسر، فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزءاً معلوماً ما بقي في أرض

مصر في رحلته.

- ٥- أن لا يعود جيش من الروم إلى مصر أو يسعى لردّها.
- ٦- أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس المسيحيين، ولا يتدخلوا في أمورهم أي تدخل.
- ٧- أن يباح لليهود الإقامة في الإسكندرية.
- ٨- أن يبعث الروم رهائن من قتلهم، مائة وخمسين من جنودهم، وخمسين من غير الجند ضماناً لإنفاذ العقد^(١٧).

خيانة المقوقس للبلاد، واحتجاج أهل الإسكندرية

وهكذا قام "قَيْرَس" بوضع لمسات التسليم الأخيرة، وأخذ الأمان للروم، بني جلده، أما أصحاب البلاد فلا وزن لهم أو حساب عنده. فكانت هدنة استمرت أحد عشر شهراً، هرب الروم خلالها الكثير من الأموال إلى القسطنطينية موطنهم الأصلي، وعاد الكثير من رجالهم إلى هناك.

وبعد لمسات الاعتراف والتسليم التي قام بها "قَيْرَس"، عاد إلى مقر حكمه بالإسكندرية، وأبلغ القادة العسكريين بما حدث لينقلوه إلى الملك هرقل (غالباً المقصود هنا ابن هرقل حيث كان الأب قد مات قبل ذلك).

وبعد أن بلغت الهزائم ذروتها، خطب قيرس في الجنود، قائلاً لهم إنه تعاهد مع المسلمين وأرضى قلوبهم كلهم!

وهكذا باع المقوقس مصر في غيبة من أهلها، وهرب في أوان الشدة لينجو بنفسه تاركاً شعباً لا يبالي بملاكه. وهكذا صارت مصر كلها سلعة تُباع من غريب لغريم، في مشهد كان للأقباط فيه موقع المتفرجين ليس إلا.

وما أن علم النَّاسُ بأمر الصُّلح، حتّى هاجوا وثاروا، وحدثت فتنة عظيمة بالإسكندريّة، وذهبوا إلى قصر البطريق غير مصدّقين، وأرادوا أن يقدفوه بالحجارة، لكن البطريك الدّخيل خطب فيهم قائلاً: ”إنّما صنعتُ هذا لأنقذكم مع أبنائكم“، واستعطفهم بكثير من البكاء والحزن، فاستحى منه الإسكندريّون، وأعطوه ذهباً كثيراً ليؤديه إلى الإسماعيليين مع الصُّرائب. واستطاع هذا الدّخيل بما أوتي من بلاغة وفصاحة ومهارة في التّمثيل، بعد أن ذرف دموع التّماسيح أن يخفّف جنايته ويهوّن خيانتته في مقاله المعسولة التي قالها بين النَّاس، فانصرفوا سكارى لسانه الأطيب من الدّهْن وهو نصال.

وأهل مصر الذين فرّوا عادوا إلى مدينة إسكندريّة خائفين من المسلمين، وسألوا البطريك الخلقيدوني وقالوا له: تأخذ لنا كلمة من المسلمين أن نعود إلى بلدنا ونخضع لهم. فعمل لهم كما قالوا، واستولى المسلمون على كل بلاد مصر جنوباً وشمالاً وضاعفوا فريضة الصُّرائب ثلاثة أمثال.

نهبُ موسّع جرى تحت غطاء دموع (كيرس) وأحزانه البادية من جهة، والفوضى النّاتجة عن لحظات الاجتياح من جهة أخرى. وينتهي دور كيرس ”قيّرس“ بنفس الغموض اللازم للملاحم رجل التّسليم، فنتنابه الحمى، ويموت أيضاً أسيف القلب^(١٨).

وهكذا سقطت الإسكندريّة، فدانت مصر كلها للفاتحين.

ونلاحظ أن جيش عمرو دخل أرض مصر سنة ٦٣٩م، لكنه لم يدخل الإسكندريّة إلاّ بعد ثلاث سنوات من ذلك التّاريخ، أي في شهر أكتوبر سنة

٦٤٤٢م عندما انقضت مدّة الهدنة المتفق عليها وهي أحد عشر شهراً^(١٩).

مراحل تقهقر الروم أمام العرب الفاتحين

وفي العموم، اتجهت حركة الهرب - طبقاً لمخطوطة يوحنا النقيوسي - إلى ثلاثة مواقع: من الشّرق إلى حصن بابلين، ومن حصن بابلين إلى حصن نقيوس (مركز منوف، أو منوفية)، ومنه إلى حصون الإسكندرية. وبعد ذلك كان الهروب الكبير بالأموال والذهب والمنقولات إلى القسطنطينية. وبجلاف هؤلاء كانت هناك أعداد غفيرة لم يسعفهم الفرار، فحصدتهم السيوف العربية، أو أكلتهم نيران المحارق الواسعة^(٢٠).

ويقول يوحنا النقيوسي إن جميع النّاس يذكرون أن سبب انتصار المسلمين على الروم هو استبداد هرقل، والاضطهادات التي أنزلها بالأقباط الأرثوذكس والتي كان قيرس الآلة المحرّكة لها. ويذكر ساويرس بن المقفع أن الله كان يخذل جيوش الروم أمام المسلمين بسبب عقيدتهم الخلقيدونية الفاسدة^(٢١).

دخول الإسكندرية

دخل عمرو الإسكندرية، فرأى أن تكون بيوت الإسكندرية وقصورها "أخائذ" بمعنى أن كل من أخذ منزلاً صار له ولعائلته. فازداد تنازع الجنود على هذه المساكن التي بلغت حوالي أربعة آلاف داراً محكمة البناء، مفروشة بالرخام الملون، وفي كل دار منها كان يوجد حمام تختص به. ويذكر ابن عبد الحكم في كتابه "فتوح مصر": كان الرّجل يأتي إلى

١٩- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٨٩

٢٠- سناء المصري: هوامش الفتوح العربي، مرجع سابق، ص ١١٨

٢١- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ١٨٤

المترل الذي كان فيه صاحبه قبل ذلك، فيبتدره فيسكنه!!^(٢٢).

عودة البابا بنيامين إلى كروسيه

وعرف عمرو بن العاص قصة اختفاء البابا بنيامين في موضع غير معروف، فكتب عمرو إلى جميع أقاليم مصر كتاباً يقول فيه: "الموضع الذي فيه بنيامين بطرك نصارى القبط له العهد والأمان والسَّلامه من الله، فليحضر آمناً مطمئناً ويدير حالة بيعته وسياسة طائفته" فعاد البابا بنيامين إلى الإسكندرية بعد غيبة دامت ثلاثة عشر عاماً، منها عشر سنين أثناء حكم هرقل، وثلاث سنين أثناء الفتح العربي إلى أن فتح العرب الإسكندرية.

أما أتباع المذهب الملكاني في مصر فقد أقاموا بغير بطريرك منذ الفتح العربي إلى أن أرسل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك إلى عبيد الله بن الحبحاب يأمره بتنصيب بطريرك للملكانيين. وكان الأب قزما هو أوَّل بطريرك للملكانيين في مصر الإسلامية وذلك في سنة ١٠٧هـ / ٧٢٥م.

عودة فاشلة للرُّوم إلى مصر

وجدير بالذكر أن الرُّوم قد عادوا مرَّةً أخرى إلى الإسكندرية وأخذوها بعد ثلاث سنوات أو أربع من وقت مصالحة قيرس، وتسليمه للعرب. لكن العرب فتحوها مرَّةً أخرى، وكان فتحها هذه المرَّة عنوة لا صلحاً.

وإنه لمن مفارقات الأحداث، ما حدث عند كل من حصن بابليون بمصر وحصن الإسكندرية.

فقد أراد المقوقس أن يسلم حصن بابليون في أوان فيضان النيل وذلك بعقد وعهد، وإذا أرسل البطريرك الملكاني يستشير الإمبراطور رفض هذا الأخير وأبى الموافقة على هذا العقد ومزقه. فبقى الروم في الحصن إلى أن هاجمه العرب. ولكن قبل أن يفتحه الفاتحون خرج أهل الحصن فسلموا لهم، ونزلوا على عقد وعهد معهم.

وسلمت الإسكندرية أيضاً في وقت فيضان النيل، وكان تسليمها صلحاً سنة ٦٤٢م، ولكن عاد الروم للاستيلاء عليها سنة ٦٤٥م بعد أن بقيت في حكم العرب مدة، ولم يخرج الروم منها بعد ذلك إلا بعد حصار انتهى بفتحها عنوة سنة ٦٤٦م.

سلطان العرب يغطي مصر كلها

امتد سلطان العرب ليشمل الوجه البحري كله والصحراء. وبعد فتحهم دمياط أصبحوا مسيطرين على منافذ النيل إلى البحر جميعاً، فدانت لهم مصر كلها.

وفي طريق الجيش العربي المنطلق من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى التي تليها، كانت جموع الشعب المصري العزل من السلاح ترقب بحذر وقلق أخبار المعارك الدائرة بين العرب والروم، ويكاد الخوف من الجانبين أن يعتصرهم، وذكرى حروب الروم والفرس لم تحف دماؤها بعد. وقد فضلت بعض قرى أسفل مصر (الوجه البحري) الانضمام إلى جيش الروم، تقابل معهم جيوش الغزو العربي^(٢٣).

تقول الأستاذة سناء المصري: كان الحرق أو التهديد بالحرق أكثر

وسائل عمرو بن العاص الموجهة ضد مقاومة العُزَّل من سكان المدن، أما تلك التي سلَّمت سريعاً فقد كان يبادر إلى مضاعفة الضَّرائب فيها إلى ثلاثة أمثال؛ كعلامة من علامات الخضوع والتَّسليم.

فالأساس لدى عمرو هو أن تدين له البلاد بالطاعة أو تُدمَّر ... إما أن تخضع أو تُحرق. وهكذا بعد سلسلة من الحروب الدَّامية والحارق الواسعة، وهوان الهروب والتَّشرد، استكان المصريون للعرب، وتعاملوا معهم على أنهم أمرٌ واقع لا يملكون تغييره^(٢٤).

وتعبَّ الأستاذة سناء المصري على استخدام الدكتورة سيدة كاشف لقول يوحنا النقيوسي "وساد المسلمون مصر، وكان عمرو يقوى في عمله، ويأخذ الضَّرائب التي حدَّوها، ولم يأخذ شيئاً من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئاً ما سلباً أو نهباً، وحافظ عليها طوال الأيام" بقولها: وهكذا نصل إلى تلك الجملة التي اقتطعتها الدكتورة سيده الكاشف، لتدلُّ بما على سماحة الجيش العربي عند فتح مصر من خلال شهادة قبطي، بل من خلال أحد رجال الكنيسة القبطية المهمين في ذلك الحين. ولكن كما نرى، فإن إقرار السَّماحة الذي يذكره النقيوسي عن العرب قد مرَّ عبر أهوال كثيرة ذاقها المصريون حتى خضعوا، واستتبَّت الأمور للفتاحين الجُدُد. وفهم عمرو بن العاص أن التَّغاضي عن مال الكنائس هو مفتاح الحصول على كل الثَّروة؛ بل هو مفتاح الخضوع الكامل للشَّعب القبطي المحب لكنيسته ... وميزة النقيوسي الواضحة أن المكتسبات الجديدة لم تُلف رأسه، بصفته أحد رجال الكنيسة المهمين، ولم تنسه ذكر ما ألم بالشَّعب، فيسترسل بعد ذكر المكتسبات مباشرة، ويقول: "ولما استولى على مدينة إسكندرية جعل نهر المدينة يابساً كما تعلَّم من تيودور

العاصي، وزاد الصَّرائب قدر اثنين وعشرين عصاً من الذهب، حتى اختبأ كل النَّاس لكثرة البؤس وعدموا ما يؤدُّون“ (٢٥).

ويؤكد السيوطي في كتابه ”حسن المحاضرة“ واقعة تسخير عمرو بن العاص للمصريين في حفر القنوات، وإقامة الجسور، بالإشارة إلى أن عمرو ”ألف قوَّة من المصريين عددها مائة وعشرين ألف عامل مهمتها الأولى العمل في حفر القنوات وإقامة الجسور والقناطر“ (٢٦). وهو ذات ما أشار إليه النقيوسي بقوله: ”كان - عمرو - يسخرهم طعام أفراسهم، وارترك آثاماً كثيرة لا تُحصى“.

وقوله أيضاً: ”يضطرون المسيحيين أن يحملوا العلف للحيوان، ويضطروهم لحمل اللبن والعسل والفاكهة والكرَّات، وبأعمال أخرى كثيرة. وهذا كله مضافاً إلى الطَّعام. هؤلاء كانوا يفعلون ذلك خوفاً دون توقف، ونهر أندريانس الذي انظر منذ زمن طويل (٢٧)، جعلهم يحفرونه ليجري به الماء من بابلون بمصر حتى البحر الأحمر، وحملوا المصريين نيراً أثقل من نير فرعون“ (٢٨).

حالة الأقباط وعددهم إبَّان الفتح العربي لمصر

وكان عدد الأقباط في مصر كلها وقت الفتح العربي لا يقل عن

٢٥- نفس المرجع، ص ١٢١، ١٢٢

٢٦- السيوطي: حسن المحاضرة، الجزء الأول، ص ٦٣. مقتبس عن: سناء المصري، مرجع سابق، ص ١٥١

٢٧- هذا النهر هو نفسه قناة أمير المؤمنين.

٢٨- سناء المصري: هوامش الفتح العربي، مرجع سابق، ص ١٥٢

خمسة وعشرين مليوناً^(٢٩). ويؤكد ذلك ما ذكرته الدكتور سيدة إسماعيل كاشف حين تقول^(٣٠): "ويمكننا أن نقدّر جيش الاحتلال الذي استقر في مصر بعد الفتح بنحو ستة عشر ألفاً من الرجال، ولا نعرف تماماً عدد سكان مصر حينذاك، وقد كتب ابن عبد الحكم أنه كان هناك أكثر من ستة مليون رجل ممن تجب عليهم الجزية، باستثناء الشيوخ والنساء والأطفال". وبديهي أن يكون في الأسرة الواحدة أربعة أو خمسة أفراد على الأقل في هذه العصور المبكرة، ليصل العدد إلى حوالي خمسة وعشرين مليوناً. أما الدكتورة سيدة كاشف فتفترض أن الذين وجبت عليهم الجزية يكونون ثلث السكان، لكي يكون الأقباط نحو ثمانية عشر مليوناً فقط، ومع ذلك تستطرد فتقول: "ولكننا نرى أن هذا الرقم مبالغ فيه، فإن سكان مصر في العهد البيزنطي أي قبل الفتح كانوا ٧ مليون نسمة باستثناء الإسكندرية التي كان يبلغ عددها ٣٠٠,٠٠٠".

وعموماً فإن تعداد الأقباط لا يجب أن يمثل أهمية كبرى، لأن عظمة الأمم لا تُقاس بعدد أفرادها.

وكتب المقرئزي أنه كان بوادي هيب^(٣١) مائة دير للتصاري، وأنه خرج منه سبعون ألف راهب^(٣٢) فلقوا عمرو بن العاص بالطرانة بالقرب من الإسكندرية وسألوه الأمان لأنفسهم وأديارهم فكتب لهم بذلك أماناً بقي عندهم، وهي شهادة تُحسب لعمرو بن العاص أجمع عليها المؤرخون.

٢٩- الأنبا يوانس (أسقف الغربية الراحل)، مذكرات في تاريخ الكنيسة القبطية بعد مجمع حلقيديونية. ، انظر أيضاً: د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، ص ١٩٤

٣٠- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٤٠.

٣١- يُعرف أيضاً باسم وادي النظرون، وهو اسمه الحالي، وهو يقع بين مريوط والفيوم.

٣٢- يُظن أن الرقم مبالغ فيه.

وحل الأقباط محل الروم الذين غادروا مصر، والذين كانوا يشغلون كثيراً من الأعمال فيها، واستطاع الأقباط إدارة شؤون بلادهم بما لهم من دراية قديمة في ذلك، وهو ما لم يكن يعرفه العرب آنئذ، فتوَدَّد عمرو بن العاص إليهم، فأمنوا إليه، واستقرت الأحوال إلى حين.

وبعد أن تم للعرب فتح مصر، بقي بها جيش احتلال عربي، ولم يشرك العرب المصريين (أي الأقباط) في هذا الجيش، ولم يرد في صلح بابليون آية إشارة تدل على السماح للمصريين بالاشتغال بالجنديَّة. وربما دعا العرب إلى انتهاج تلك السِّياسة خوفاً من أن يحسي المصريون روح القومية المصريَّة على حسابهم، وأن يقوموا بطردهم من بلادهم متى حانت لهم الفرصة^(٣٣).

أحسن عمرو بذكائه الفطري الفرق الشَّاسع بين جنوده من أبناء البادية وبين المصريين أبناء البلاد، فتوَدَّد لهم منذ البداية وقرَّبهم إليه وأولم لهم وشاورهم في الأمر وأخذ بأرائهم، واعتمد عليهم في إصلاح شؤون البلاد، ووظفهم بوظائف عالية. حتى أن الرِّسالة المنسوبة إليه في وصف مصر يعزوها الدكتور مؤنس إلى من كان حوله من كبار القبط. فقد كان أقباط مصر هم مستودع أسرار شؤونها الإداريَّة^(٣٤). فخدم الأقباط البلاد بأمانة حتى ساد الأمن وانتظمت الأحوال. وكان ذلك إلى حين إذ لم تكن هذه هي الحال دائماً.

فبعد أن استتب للعرب الأمر غيروا من سياستهم تجاه البلاد، فيقول الأنبا ساويرس ابن المقفع: "من بعد أن ملك عمرو مصر بثلاث سنين،

٣٣- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٧٠

٣٤- محمد حسنين هيكل، خريف الغضب، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى،

ملك المسلمون مدينة الإسكندرية وهدموا سورها، وأحرقوا بيعةً كثيرةً بالنَّار، وبيعة مار مرقس التي هي مبنية على البحر حيث كان جسده موضوعاً... أحرقوا هذا الموضع بالنَّار، وما حوله من الدِّيارات“.

ولكن المظالم لم تكن عامة وشاملة خاصة في الفترة الأولى للفتح العربي. إلا أنه كلما تقدَّم العهد بالعرب في مصر ازداد الدِّين الإسلامي انتشاراً، ولقد وُجدت فترات كان التحوُّل فيها إلى الدِّين الإسلامي بكثرة، ولم يكن ذلك إلاَّ تحت تأثير ظروف وعوامل مختلفة ناشئة عن سياسة الخلفاء وولايتهم الذين يمثلون تلك السِّياسة^(٣٥). وهو ما سنعرض له فيما بعد.

حضارة مصر تبهر العرب الفاتحين

فتح العرب مصر فاعترتهم الدَّهشة مما وقعت عليه عيونهم من آيات حضارتها، حتى يكاد يسلم واحد من جغرافيتهم من الخلط بين الحقيقة والأساطير من بحر الإعجاب. وبعض هؤلاء: المقدسي، وصاحب كتاب الكواكب السَّائرة، وصاحب المسالك، وياقوت، واليعقوبي، وابن رسته، وابن حوقل، والأدريسي، والمقريزي، وغيرهم. رأى العرب عندما فتحوا مصر حضارة لا عهد لهم بها، ورأوا صناعة لا يعرفون أسرارها، ورأوا عمارة استهولوا أمرها. حتى عمرو الذي يحكي عنه المؤرِّخون أنه رأى مصر قبل الفتح وتردَّد عليها، يكتب إلى الخليفة رسالة يخبره فيها بفتح الإسكندرية يقول فيها: ”إني فتحت مدينة لا أقدر أن أصف ما فيها“.

ديمومة الحضارة القبطية في مصر بعد الفتح العربي لها

خرج الرومان من مصر المسيحية، ودخل العرب، فتغير الإطار وبقيت الصورة هي هي. وظل الأقباط يحملون لواء العلوم إلى ما بعد دخول العرب مصر بعشرات السنين... وتلفت العرب حولهم فوجدوا فنوناً وصناعات لا علم لهم بها ولا دراية لهم فيها، فاكتفوا بالخروج وشؤون الحرب، وظلت الدواوين تُكتب بالقبطية.

وتخلص الدكتورة نعمات أحمد فؤاد بعد إسهاب إلى القول: "فمصر كانت للعرب، وهم الفاتحون، مدرسة تعلموا فيها الكثير ونقلوا عنها الكثير، وتجمع لهم من التلقي والتقل والترجمة مادة بنوا على أساسها حركتهم العلمية حتى الذي أضافوه إنما يمت بسبب قريب أو بعيد إلى مدرسة الإسكندرية... يمت إلى مصر (٣٦)"

وتقول الأستاذة سناء المصري (٣٧): أبقى العرب على نظام العمل بالدواوين كما هو، مع إحلال بعض القبط محل الروم الراحلين، واحتفظوا بالتقسيم الإداري للأقاليم والمدن والقرى، كما حافظوا على أسماء القرى المصرية كما هي، أو حرقوها قليلاً ليفهمها العربي المختلف اللسان. وذلك على عكس الرومان الذين حاولوا أن يضعوا للقرى والمدن المصرية أسماء يونانية، وظل استخدامها قاصراً عليهم فقط، أما الجمهور القبطي فقد ظل متمسكاً بالأسماء المصرية القديمة (٣٨).

ويذكر الأستاذ أحمد أمين في كتابه "فجر الإسلام": "وإذا كانت

٣٦- د. نعمات أحمد فؤاد، شخصية مصر، مرجع سابق، ص ١١٩ - ١٢٢

٣٧- سناء المصري، هوامش الفتح العربي لمصر، مرجع سابق، ص ١٦٤

٣٨- لمزيد من التفاصيل، انظر: محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية.

هذه الأمم المفتوحة أرقى من العرب مدنية وحضارة، وأقوى نظاماً اجتماعيةً، كان من الطبيعي أن تسود مدنيّتهم وحضارتهم ونظمهم. وإذا كان العرب هم العنصر الفاتح عدلّوا هذه النظم بما يتفق وعقليّتهم، فسادت في البلاد المفتوحة النظم التي كانت متّبعة من قبل الفتح، كنظام الدّواوين ونحوه، وأقرّ على ما كان عليه. حتى لغة الدّواوين نفسها ظلّت باللّغة الأصليّة إلى عهد عبد الملك بن مروان“.

وحين تطلّع العرب مع الزّمن إلى شيء من فن مصر وعلومها، لجأوا إلى التّرجمة عنها، فأمر خالد بن يزيد بن معاوية بأن يُنقل إلى العربيّة كثير من الكتب اليونانيّة والقبطيّة التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العمليّة، وتبعه كثير من الخلفاء والولاة.

ويقول الأستاذ محمد شفيق غربال في حديثه عن احتفاظ مصر بذاتيّتها مع ملاءمتها بين العناصر الثقافيّة المستوردة، وبين البيئّة المصريّة الخالصة: ”وهنا نقرّر ما كان للعناصر المسيحيّة المصريّة في البلاد من الأثر الكبير في إجراء تلك الملاءمة سواء منهم في ذلك من احتفظ بمسيحيّته أو تحول إلى الإسلام. فقد علّموا الوافدين على البلاد كيف يعيشون تلك المعيشة التي تلائم ظروف مصر خير الملاءمة، من حيث أساليب الرّعاية وطرائقها، ونظام حيازة الأراضي ومسحها وريها، وما يستتبع هذا كله من نظم إداريّة، وكذلك الصناعات القائمة على استخدام المواد الأوّليّة التي بين أيديهم على أحسن ما يتفق وأحوال البلاد الطبيعيّة ... أما عن مساهمة الأقباط في الجانب العقلي من الثقافة الإسلاميّة، فأمر ليس من اليسير الكلام فيه ... ولا استثنى من هذا القول إلاّ شيئين أولهما أن ثمة ظروفاً مصريّة محلية أثّرت في اتجاهات معينة للفقه الإسلامي، وثانيهما هو أثر مساهمة الأدب الشّعبي المصري القديم في الأدب الشّعبي العربي“.

لقد نظر العرب إلى المصريين فوجدوهم يكتبون على البردي كأسلافهم في قدم الزمان، ويغلفون الكتب ويزخرفونها، فاستشرفوا إلى الكتابة والزخرفة فيها على مثال مصر. ويقول الدكتور عبد العزيز مرزوق في كتابه "الفن المصري الإسلامي": "في مكتبة جوثا بمدينة ميونخ رق يتضمن صفحة من القرآن بها زخارف بسيطة، وأشرطة تفصل بين السور وبعضها البعض تتضمن زخارف هندسية متأثرة بالفن القبطي إلى حد بعيد".

بل إن جلود الكتب في العصر الإسلامي إنما يحدد تاريخها الكتابة القبطية الموجودة على أوراق البردي المستعملة فيها. واستعان العرب بأقباط مصر في بناء المساجد، فاستعان بهم الوليد في بناء مسجد دمشق، والمسجد الأقصى، وجامع أمير المؤمنين. إن أقباط مصر هم أول من بنوا محراب بجوف في الإسلام على مثال من حنية الكنيسة. ومن عطاء مصر للفن الإسلامي بعد المحراب، المئذنة والقباب، وفنار الإسكندرية الذي بهر العرب عند فتح مصر هو الأصل الفني للمئذنة.

ويقرر الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق: "إن الفن القبطي يُعد أصلاً من أصول الفن الإسلامي عامة، والفن المصري الإسلامي خاصة".

ويقول الأستاذ محمد شفيق غربال في كتابه "تكوين مصر": "إن طرائق الفن القبطي وأساليبه كانت عاملاً من العوامل المؤثرة في فنون مصر الإسلامية وصناعاتها، وهذا دليل آخر على أهمية العنصر المسيحي في تكوين مصر (٣٩)".

وكما بنت مصر للعرب الفسطاط، بنت لهم المساجد والقلاع والحصون والأسوار والأبواب. فالتأثير الفني للأقباط على زخارف منازل

الفسطاط وجامع عمرو بن العاص، ومقياس النَّيل بالرَّوضة واضح. كما يبدو هذا التأثير واضحاً في طرق صناعة وزخرفة الفخَّار والخزف والمنسوجات وغيرها خلال القرون القليلة التي أعقبت الفتح الإسلامي مصر، وذلك حتى العصر الطولوني الذي ازداد فيه أثر فنون "سامرا" على الإنتاج الفني في مصر.



القاهرة: الكنيسة المنقطة عصر الفندقة

الفصل الخامس

كنيسة مصر في عصر الولاة

يمتد عصر الولاية المسلمين قرابة قرنين ونصف من الزمان (٦٤٢-٨٦٨م)، حيث يبدأ من فتح العرب لمصر سنة ٦٤٢م، وينتهي بقدم أحمد بن طولون إلى مصر وتأسيس دولة مستقلة في مصر الإسلامية سنة ٨٦٨م، وتتضمن هذه الفترة قيام الدولة الأموية في مصر (٦٦١ - ٧٥٠م) وكان مركزها في دمشق، وأعقبها الدولة العباسية حيث انتقل مقر الخليفة إلى بغداد.

وجدير بالذكر أنه لم تكد الخلافة تنتقل من بني أمية إلى بني العباس حتى اندفع العباسيون في التثكيل بالأسرة المغلوبة وتصوير أعضائها وحكمهم في أقبح صورة، فلم تبق رذيلة إلا نسبوها إليهم، أو مثلبة إلا ألحقوها بهم، أو ألقاب قبيحة إلا وصفوهم بها. وصار معاوية في نظرهم عدو الله وغلاماً مترفاً جباراً عنيداً لا يراقب الله، واسع الدنيا ضيق الآخرة. حتى أن أول خلفاء العباسيين دُعي "السفاح" لأنه سفح دم كل أمراء الأمويين عن آخرهم، ليمحو ذكر دولتهم من التاريخ.

الحالة الاقتصادية في مصر في عصر الولاية

لم يدخل العرب أصنافاً جديدة من المزروعات في مصر أو طرقاً جديدة للزراعة والرّي غير تلك التي كانت موجودة في مصر. والواقع أن طريقة زراعة الأراضي في مصر ظلت كما هي منذ عهد الفراعنة، وإن كانت قد تقدّمت نوعاً في عهد الرومان، إلا أنها ظلت على حالها من غير تغييرات أخرى حتى أوائل القرن التاسع عشر. وكان القمح أهم ما ترسله مصر إلى الخلافة بعد الفتح، فبعد أن كانت ترسل القمح سنوياً إلى روما

ثم بيزنطة، أصبحت بعد الفتح العربي ترسل القمح إلى الحجاز. وقد استمرّت عادة إرسال القمح إلى الحجاز حتى بعد أن انتقل مركز الخلافة من الحجاز إلى الشّام ثم إلى العراق^(١).

أما في مجال الصّناعة فكان معظم الصّناع بمصر في فجر الإسلام من المصريين أكانوا ممن بقى على دينه من الأقباط، أم ممن أسلموا منهم. فالعرب في أوّل ذلك العهد كانوا لا يتدخّلون في الصّناعات وغيرها من المهن، وحتى بعد أن بدأ العرب يحتلّون بالأهالي ويملكون الأراضي ويستغلّون بالزّراعة منذ أوائل القرن الثّاني الهجري/ الثّامن الميلادي، لم يصبحوا الأغلبية بين الصّناع في مصر. ولا شك أن كثيراً منهم اشتغلوا بالصّناعة وخاصة بعد أن أمر الخليفة إسقاطهم من السديوان، ولكن المصريين كان لهم الغلبة والكثرة العدديّة على إخوانهم العرب^(٢).

أما في التّجارة الخارجيّة مع أقاليم البحر الأبيض المتوسط، فلا نعرف هل ظلّت الأمور على ما هي عليه في العصر اليوناني الرّوماني، أم أخذت في النّمو والزّيادة ممهداً للازدهار الذي وصلت إليه في عصر الأيوبيين والمماليك. ويبدو أن المصريين لم يساهموا في التّشاط التّجاري الخارجيّ إلاّ بقدر ضئيل، ولعل هذا يرجع إلى عدم إقبال المصريين بوجه عام على التّجارة في العصور القديمة^(٣).

حالة الأقباط في عصر الولاة

كان في الحكومة المركزيّة بالفسطاط كاتبان قبطيان لإدارة شؤون

١ - د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٦٦

٢ - نفس المرجع، ص ٢٧٣

٣ - نفس المرجع، ص ٣٤١

مصر العُليا ومصر السُّفلى. والظَّاهر أن رؤساء المائيَّة كانوا قبطاً طوال العصر الأموي، فقد أشار مؤلِّف كتاب سير البيعة إلى ظهور رئيسين من المسلمين في بداية العصر العباسي^(٤).

ولم يحدِّ العرب من حرِّيَّة الأقباط في احتفالاتهم الدِّينيَّة، إلا أن ولاة مصر لم يشتركوا في الاحتفالات الرِّسميَّة لهذه الأعياد^(٥) كما كان يحدث في عهد الإخشيديين والخلفاء الفاطميين. أما المصريون المسلمون فلم يجدوا غضاضة في ذلك إذ أن الكثيرين منهم كانوا من أصل قبطي. إلا أن الأمر لم يدم على هذا الحال إذ كان الأقباط عرضة لبعض المضايقات التي حملت بعضهم على ترك دينهم كي يتخلَّصوا منها ويصبحوا على قدم المساواة مع المسلمين^(٦).

كان بعض الولاة المسلمين يشكُّون في الأقباط وفي تصرفاتهم، لاسيَّما أن اللُّغة التي كانوا يتكلَّمون بها لم تكن مفهومة لهم. فعبد العزيز بن مروان يشك في بطريك مصر عند إرساله خطاباً إلى كل من ملكي الحبشة والتُّوبه ليصلح بينهما، والأصبغ بن عبد العزيز استصحب شماساً اسمه بنيامين ليطلعه على أسرار النَّصارى، حتى أنه ترجم له الإنجيل وعدَّة كُتُب أخرى إلى اللُّغة العربيَّة ليعرف ما إذا كان في هذه الكُتُب ما يمس الدِّين الإسلامي بسوء.

ومع تعريب الدِّواوين في سنة ٧٠٦م اضطر كثير من الأقباط إلى تعلُّم اللُّغة العربيَّة وإلاَّ فقدوا مناصبهم. وبرغم ذلك فقد حاول الخليفة عمر بن

٤- نفس المرجع، ص ١٩٠

٥- أول ذكر لاحتفال ديني للأقباط في العهد الإسلامي كان سنة ٢٩٠هـ (٩٠٣م) وهو الذي ذكره ابن رسته في كتابه "الأعلاق النفيسة".

٦- انظر: د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ١٩٤، ١٩٨

عبد العزيز (٧١٨ - ٧٢٠م) لإحلال المسلمين محل المسيحيين حتى في الوظائف الصغيرة. ويذكر الأنبا ساويرس أن الأقباط سلموا ما بيدهم من الوظائف والأعمال إلى المسلمين. ويقول الكندي أنه في خلافة عمر بن عبد العزيز نُزعت موازيت^(٧) القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليهم.

وحقّ التَّيْل محور اهتمام الأقباط والمسلمين، لأن نقص مياهه أو ازديادها كثيراً يضر بالبلاد، ويعرضها للخطر، والذي صلى المسلمون والأقباط من أجله عندما نقصت مياهه في ولاية أبي عون على مصر (٧٥٠ - ٧٥٤م)، لم يمنع الخليفة المتوكّل الذي بنى مقياساً للتَّيْل في جزيرة الروضة من عزل النَّصَّارَى عن قياسه سنة ٨٦١م^(٨)، وهم أصحاب الخيرة القديمة في ذلك.

ولكن يبدو أن عزل الأقباط عن مناصبهم لم يستمر طويلاً، إذ ظل الأقباط يشغلون كثيراً من مناصب الدَّولة، فقد كانت نظم الإدارة الماليَّة معقَّدة ولم يكن يفهمها غير الموظفين القبط. وظلَّ بعض الموازيت يُختارون من القبط أيضاً^(٩).

ولم يكن للأقباط في عصر الولاة حق الاشتراك في الجيش، فكان رجال الجيش من العرب فقط، ونجد أن العنصر العربي في الجيش والأسطول يقل ابتداءً من العصر العباسي لإقباله على وظائف الإدارة أو على الزَّراعة والتَّجارة، ويصبح قوام الجيش من الفرس أولاً ثم الأتراك ثانياً حتى أتى المعتصم في بداية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي فأمر بإسقاط العرب نهائيًا من الجيش.

٧- موازيت أي رؤساء القرى.

٨- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٠٢.

٩- نفس المرجع، ص ٢٠١، ٣٤٠.

ويلخصّ كتاب تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدّسة لساويرس ابن المقفّع أسقف الأشمونين الحالة التي وصلت إليها الكنيسة قرب نهاية عصر الولاة، وفي زمن البابا خائيل الثاني (٨٤٩ - ٨٥١ م) فيقول ما نصّه:

”وكانوا المتولين لاستخراج الخراج يلزموه (أي يلزموا البابا) بخراج الأواصي، وذاق طعم الاوجاع والبلايا. فلما كان في يوم من الايام بكأ بدموع غزيرة وقال ياربي يسوع المسيح انت تعلم ان الانفراد غرضي طول زماني، وليس لي قدرة على هذه التجارب لانني ضعيف الجسد يوم بعد يوم، وانا اعلم انك تقبل دعا المضيقيين عليهم، وقد قلت اصرخ الى في يوم شدتك فاخلصك ولتمجدي، وانا اسالك يارب ان تظهر علامة رحمتك في هذا الزمان الضيق، ولا تدعني اشاهد تجارب اخر لانني غير قادر على حملها فسمع محب البشر دعا ذلك القدّيس ... فدعاه السيد المسيح اليه... (١٠)“.

وكان بعض من البلايا التي حاقت بالأقباط في مصر بسبب قلة من الأقباط أنفسهم، أو بعض المسيحيين من غير المصريين، والأمثلة على ذلك يحكيها لنا كتاب سير البيعة المقدّسة. فعن الخليفة جعفر المتوكل الذي كان في عصر البابا قزمان الثاني (٨٥١ - ٨٥٨ م)، نقرأ ما نصه:

”انزل على البيع في كل مكان بلايا لا تُحصى عددها، وذلك انه امر بهدم البيع كلها، ولا يكون احد من النصارى الارتدكسيين والملكيين والنسطوريين ولا اليهود بلباس مصبوغ ليظهروا في وسط المسلمين، وامر ان تجعل صور مفزعة على الواح خشب وتسم على ابواب النصارى، والزرم اكثرهم بالاسلام وامر ان لا يخدم نصراني في خدمة السلطان بالجملة

الا القوم المسلمين ومن ينتقل الى الاسلام. ولاجل ذلك قلت المحبة والصبر من قلوب كثير حتى اهتم انكروا السيد المسيح، فمنهم من انكر بسبب رتبة العالم لمحتهم فيه، واخرين لما لحقهم من الفقر. فلما علم السلطان انه قد زرع هذا الامر الطمث في الكورة البرانية فبدا أن يبذره في كور مصر ويرمي في قلب المتوكل ان يدوم على تغلبه، فانفذ الى كورة مصر انسان من جهته غير نصراني بل فريسي اسمه الغير عبد المسيح ابن اسحاق، ولاه خراج مصر والولاية وامره ان يفعل ببيع مصر والنصارى مثلما فعل بمدينة بغداد والمشرق. فلما وصل الى مصر بدا بالنصارى وانزل عليهم بلايا واذهم جدا باحزان شتى كما احكمها فيه الشيطان، فكان المذكور يتظاهر عند المسلمين انه يفعل وصايا ناموسهم بالمراية التي كان يفعلها حتى اهتم كانوا يقولوا ما راينا احد وصل الى مصر مثل هذا يتمم وصايا دين الاسلام. واذا كان يوم جمعة مشى راجلا هو وجيشه الى الجامع في وسط مصر يصلي، وكان مبغضا للرب يسوع المسيح وصلبيه المقدس ومن يتلبس به، ثم بدا هذا المبغض يخفي اظهار علامة الصليب لا تظهر بالجملة وجعلوا يكسروا كل صليب في البيع بالجملة ولا يدع احد من النصارى يمشى بعلامة الصليب، وضيق علينا مذهبنا حتى ان النصارى ما صاروا يتمكنوا من الصلاة في البيع الا بصوت خفي. واذا جاز انسان بالبيعة لا يسمع صوت كلام من يصلي، ومنعواهم ان لا يصلوا على نصراني اذا مات، وقطع ضرب الناقوس، وصار مثل ديقلاديانوس الذي (اذ) صارت اعماله مثل اعماله. ولم يقنعه ذلك حتى بدا يمنع النصارى من القداسات، وان لا يقدسوا بالجملة. وامر ان يمنع النبيذ في جميع اعماله وبالخاص مدينة مصر حتى انه لا يظهر جملة ولا يباع ولا يشتري ... حتى صار النصارى ياخذوا عيدان الزرجون يبلوها بالما ويعصروها حتى لا يعدموا القربان. وكان الحزن والضيق على النصارى، وكانوا يقولوا كما قالت الثلثة قتيبة انك اسلمتنا في ايدي ائمة منافقين ماردين، وملك ظالم اشهر من

كلمن على وجه الارض. والان لا نقدر نفتح فاننا لان حزنا وعار صار لعبيدك والذين يعبدونك، ولا تسلمنا لاجل اسمك. ولم يزل هذا الظالم يتقل نيره على النصارى من شدة بغضه لهم وبدا ان يتمم عليهم كل امر سو. واخرج الكتاب الدواوين من ديوان السلطان النصارى وجعل عوضا عنهم المسلمين ... وقوما كثير ما صبروا ولا توكلوا على الالههم وانكروا اسم المخلص في تلك الايام الشديدة، ونسوا ما قاله في الانجيل المقدس والذي يصير الى التمام فهو يخلص^(١١)“.

وآخر يُدعى اسطفانوس (اصطفن) بن أندونة، كان نصرانياً وأسلم، وتزوج بمصر، واقتنى سراري، وبنى مساكن، ورزق أولاداً، واقتنى نعماً كثيرة لا تُحصى، هذا ضيق على الأقباط وصرفهم من دواوين الحكومة، وكانت نهايته أن أصابه الفالج في يديه ورجليه، ومات، وحل ابنه الأكبر مكانه، وكان أسوأ من أبيه، فعن اصطفن يقول كتاب سير البيعة المقدسة:

”كان يذكر المومنين بكل سو ويقول ان النصارى قبل هذا اليوم لا يلبسوا ثياب لها اكام، بل يلبسوا ثيابا بغير اكام كما تلبس الرهبان الذين هم يدعوهم اباوهم. فاذا كان الابا تلبس هذا اللباس، بالحرى ان تكون اولادهم مثلهم ... وكان ظنه ان الكتاب يمتنعوا من اللباس وينكروا دينهم ...“.

وعن ابنه يقول كتاب سير البيعة المقدسة: ”وكانت البلايا على النصارى في كل يوم تتزايد من هذا المتولي واعماله الردية تتزايد في كل يوم، فمن لا يحزن قط يحزن لاهل مصر واكثرها النصارى ... صليب المسيح يكسر في كل مكان ... وكذلك الناقوس المقدس الذي صوته يطرد الشيطان

وجنوده وقيم الكسلان الى ذكر الاله، امر ان يقطعه... (١٢)“.

ومع ولاية يزيد بن عبد الله آخر الولاة في عهد الخليفة المتوكل، ”تزايدت الانعام والخيرات في كل مكان، وزال البلا عن الناس، وطابت نفوس سكان ارض مصر، وراو خيرا كثيرا، وكان ذلك في ايام جعفر المتوكل على الله، وهذا الملك صرف اهتمامه في ذلك الوقت الى المدن التي بارض المشرق ومصر... وصير حصونا وعمل تذكارات كثيرة بارض مصر عوضا مما فعل بالنصارى... وكان الاب البطرك انبا قسما ساكنا في البلد المعروفه بدميره مهدو وسلامة طول الايام والاراخنة بمصر كانوا يتولون اموره وتحملوا اقاله، ولا يدعوه يحتاج الى احد من الناس... (١٣)“.

ويمكن تلخيص حالة الأقباط في عصر الولاة في ثلاثة بنود هي:

- عقد الذمة وأحكامه.
- المظالم الماليّة في عصر الولاة.
- ثورات الأقباط.

(أ) عقد الذمة وأحكامه

ظل الأقباط طيلة عهد الولاة وبعده بقرون طويلة، وحتى القرن التاسع عشر، يُدعون بأهل الذمة^(١٤)، وكانت الجزية تُفرض على أهل

١٢- نفس المرجع، ص ٦- ٨

١٣- نفس المرجع، ص ١٠، ١١

١٤- الذمة في اللغة العربيّة هي العهد والأمان، والمنتفعون بالعهد يسمون أهل الذمة أو الذميين، أو المعاهدين. ويتّسع هذا المعنى الاصطلاحي عند الفقهاء المسلمين فيذهبون إلى أن أهل الذمة هم أهل الكتاب أي أصحاب التوراة والإنجيل من اليهود والمسيحيين، ومن لا كتاب لهم مثل المجوس. ويُعتبر المجوس إلى جانب النصارى واليهود من أهل الكتاب، وإن كانوا معترفين بأن الله واحد، فقد كفروا بكتاب الله تعالى وهو القرآن، ورسوله محمد، ولذلك لم يبق لهم إيمان، لأن تصديق الرُّسُل إيمان بالمرسِل،

الذِّمَّة نظير إعفائهم الجبري من الخدمة العسكريَّة، فلم يكن مسموحاً لهم بالانضمام إلى صفوف الجيش العربي. ولقد أورد الماوردي الذي عاش في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، في كتابه "الأحكام السلطانيَّة" نوعين من أحكام أهل الذِّمَّة^(١٥)، أحدها هي الشُّروط المستحقَّة، والأخرى هي الشُّروط المستحبَّة. وهذه الشُّروط اصطلاح على تسميتها "الشُّروط العمريَّة" ولا يُستبعد أن تكون هذه الشُّروط التي نُسبت إلى الخليفة عمر بن الخطاب ترجع إلى عهده، ولكنها لم تُصغ إلا في فترة متأخِّرة فيما بعد^(١٦). ولكن الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف تنفي نسبة الشُّروط العمريَّة إلى عمر بن الخطاب^(١٧).

- أما الشُّروط المستحقَّة فهي ستَّة:
 - عدم ذكر القرآن بطعن أو تحريف.
 - عدم ذكر رسول الإسلام بتكذيب أو ازدراء.
 - عدم ذكر دين الإسلام بدم أو قدح.
 - عدم الزَّواج بمسلمة.
 - ألاَّ يعينوا أهل الحرب وألاَّ يودوا أغنياءهم.
 - ألاَّ يفتنوا مسلماً عن دينه أو يتعرضوا لماله أو دمه.

ولذلك تجري عليهم الجزية ليقروا في دار الإسلام للكف عنهم وحماتهم. وهذه هي النظرية الصحيحة للإسلام تجاه اليهود والنصارى. (انظر: د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلاميَّة، مرجع سابق، ص ٤٤، وانظر أيضاً: الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلاميَّة وأهل الذِّمَّة، مرجع سابق، ص ٩).

١٥- أحكام أهل الذِّمَّة هي الشُّروط والقوانين التي يتعين على أهل الذِّمَّة الالتزام بها والخضوع لها ما داموا يعيشون في ديار الإسلام.

١٦- د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلاميَّة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٦٥

١٧- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلاميَّة وأهل الذِّمَّة، مرجع سابق، ص ٤٤ وما قبله.

- أما الشُّروط المستحبة فستة أيضاً:
- أن يلبسوا العيار (ملابس تميّزهم) وشد الزنار.
- ألاّ تعلق أبنيتهم فوق أبنية المسلمين، ويكونوا إن لم ينقصوا مساوين لهم.
- ألاّ يسمعون أصوات نواقيسهم، ولا تلاوة كتبهم، ولا قولهم في المسيح.
- ألاّ يشربوا الخمر جهاراً ولا يُظهروا صلبانهم وخنازيرهم.
- أن يخفوا دفن موتاهم، ولا يجاهروا بنذب عليهم ولا نياحة.
- ألاّ يركبوا الخيل، ويكتفوا بركوب البغال والحمير^(١٨).

ولقد أرسل نصارى أهل الشّام ومصر إلى الخليفة عمر بن الخطاب يذكرون فيه ما عاهدوا المسلمين به من التزام الحدود. "لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا على أنفسنا أن لا نحدث في مدائننا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما حرب منها، ولا ما كان في خطط المسلمين، وأن نوسّع أبواها للمارة ولبنى السبيل، وأن يتزل من مرّ بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم، ولا نأوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً، ولا نكتم عيناً للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شرعنا ولا ندعو إليه أحداً، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في دين الإسلام إن أرادوا، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم في مجالسنا إذا أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شئ من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة، ولا نتسمّى بأسمائهم، ولا نتكلم بكناهم، ولا نركب بالسروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نحملة معنا ولا ننقش في خواتيمنا بالعربية، وأن نجز مقدم رؤوسنا، ونلزم زيناً حيث كنّا، وأن نشد الزنانيير على أوساطنا، ولا نُظهر

صلياننا، ولا نفتح كنفنا في طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب بنواقيسنا في كنائسنا في شئ من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعائنا ولا طاغوتنا، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نوقد النيران في طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين، ولا نطله في منازلهم، ولا تعلق منازلنا منازلهم“.

ولما قرأ عمر بن الخطاب ذلك زاد عليه ”ولا نضرب أحداً من المسلمين، شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شئ مما شرطناه لكم علينا وضمناه على أنفسنا وأهل ملتنا، فلا ذمة لنا عليكم، وقد حل بنا ما حل بغيرنا من أهل المعاندة والشقاق“.

وإلى هذا الحد ليس الأمر غريباً في شئ، أما الغريب فهو أنه برغم عدم نفي الدكتور ناريمان عبد الكريم لنسبة الشُّروط العمرية إلى الخليفة عمر بن الخطاب تقول: ”تبيّن مما قام به الخليفة عمر بن الخطاب تجاه أهل الذمة رغبته الملحّة في أن يشملهم بعدله ورعايته^(١٩)“.

وأجمع العلماء بعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه متى نقض الذمي عهده بمخالفة شرط من هذه الشُّروط المأخوذة عليهم، فالإمام مخير فيه بين القتل والأسر. وطبقاً لهذه الشُّروط مُنع الأقباط من بناء كنائس أو أديرة مستحدثة لهم أو تجديد ما خرب منها.

لكن مؤرّخي مصر الإسلاميّة وإن كانوا قد ذكروا ذلك إلاّ أنهم لم يذكروا إلى أي حد اتبعت تلك الشُّروط ونفذت مع أهل الذمة، والأرجح أن الخلفاء في فجر الإسلام لم يلزموا أهل الذمة بتنفيذها، لأننا رأينا أن هناك كنائس وأديرة بُنيت في مصر في العهد الإسلامي، كما جُدد ببناء

كنائس أخرى. ويذكر عبد الحكم أن أوّل كنيسة بنيت في فسطاط مصر كانت أيام مسلمة بن مخلد (٦٦٧ - ٦٨٢م) ولكن الجند أنكروا عليه ذلك وكادت تقع فتنة بينه وبينهم^(٢٠).

وفي خلافة هارون الرّشيد وولاية علي بن سليمان، أمر الوالي بهدم بعض الكنائس، والمصادر لا تشير إلى سبب ذلك. وجاء بعده الوالي موسى بن عيسى العباسي (٧٨٧ - ٧٨٨م) فأذن للأقباط ببناء الكنائس التي هدمها علي بن سليمان. وفي سنة ٨٠٦م يذكر الطبري أن هارون الرّشيد أمر بهدم الكنائس في الثغور. وهكذا دواليك واحد يهدم وآخر يبني، ولكن الحكم في النهاية للأرقام التي تقول إن مئات الكنائس في مصر قد هُدمت أو تحوّلت إلى مساجد. وتألّب الأقباط على كل الأوضاع، وتمرسوا على كل أنواع الحياة مرّها قبل حلوها.

والواقع أن العصبية الدّينية تغلبت على العرب بعد الفتح وتغلب عليهم الشعور بعزّتهم وتفوقهم على غيرهم من الشعوب بعد أن أنشأوا إمبراطوريتهم الإسلاميّة فرأوا أن يتميّزوا على غيرهم في اللباس والرّزي والرّكوب وغير ذلك مما أشعرهم في الوسط الاجتماعيّ بأنهم السّادة وغيرهم دونهم. كما أنّهم، وقد أصبحوا سادة البلاد التي فتحوها ملكاً للمسلمين، رأوا أن ليس عليهم أن يبنوا كنائس فيها، ويكفيهم أن يُبقوا على ما وجدوه منها، وألاّ يتدخلوا في الشؤون الدّينية لأهل الذمة.

ويذكر القلقشندي تفصيلات أوفر في الشّروط المفروضة على أهل الذّمة فيقول: "ألاّ يركبوا الحمير بأن يجعل الرّكاب رجليه من جانب واحد، وأن يُترلوا المسلمين صدر الطّريق، والتمييز عن المسلمين في اللباس،

ولا يركب يهودي ولا نصراني على سرج، ولا يركب على إكاف، ولا تركب امرأة من نسائهم على رحالة، وليكن ركوبها على إكاف“.

كما أكد القرشي في كتاب ”معالم القرية في أحكام الحسبة“ ضرورة أن ”تشد المرأة الزنار كالرجل، ويكون في عنقها خاتم، ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض لتتميز به عن غيرها!“.

وظلت هذه الذهنية هي السمة الغالبة على تاريخ الحكم العربي، وإن تخللها فترات، تمتع فيها أعيان الأقباط وأغنياء اليهود بامتيازات المسلمين في الملبس والمظهر، بينما ظلت قاعدة الفقراء من أهل الذمة مقيدة بشروط الملبس، وظل اللون الأبيض حكراً على العرب، والأزرق قيداً على القبط.

ويرى بعض الباحثين أن قيود الملبس لم تطبق بشدة في بداية الإسلام في مصر، بسبب وجود فوارق طبيعية في المظهر بين ملبوس العرب الآتين من الصحراء، وملبوس أهل البلاد، وإن هذه القيود فرضت بصرامة فيما بعد^(٢١). والمعقول أن العرب الذين كانوا في دور البساطة زمن الفتح هم الذين أخذوا يتشبهون بأهل البلاد المفتوحة في ملابسهم حين بدأوا يتخلون عن عهد البساطة الأول ويسيروا في ركب التطور والمدنية^(٢٢).

وربما كانت هذه الامتيازات الاجتماعية والأدبية للمسلمين على أهل الذمة سبباً - كما قلنا - في أن كثيراً من المسيحيين أقدم على اعتناق الدين الإسلامي، ولا يمكننا القول بأن إسلام هؤلاء الذين يريدون التخلص من تلك المضايقات كان صحيحاً؛ ولكن ذريتهم كانت تنشأ في الوسط الإسلامي فيعتزون بدينهم الإسلامي ويندمجون في الجماعة

٢١ - سناء المصري، حكايات الدخول، مرجع سابق، ص ١٦٩، ١٧٠

٢٢ - د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ٤٧

الإسلامية تماماً ... وهكذا نرى أن أهل الذمة عوملوا معاملة الطبقات الدنيا مهما كانت ثروتهم أو مراكزهم في الدولة مما حمل الكثير على الرغبة في التخلص من تلك المضايقات^(٢٣). ولكن ما أن تواتبهم الفرصة حتى يعودوا إلى دينهم الذي تركوه قهراً، فيذكر أبو المحاسن في كتابه "التحجيم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" أنه في عهد الخليفة الظاهر صدر أمر في سنة ١٠٢٧م يسمح لمن اعتنق الإسلام كرهاً أيام الحاكم بالعودة إلى دينه، فعاد الكثير منهم إلى اليهودية والمسيحية^(٢٤).

(ب) المظالم المالية في عصر الولاة

المعروف أن الخلافة العباسية كان لها بيت المال العام، وبيت مال الخاصة. وأن الأول كانت تؤخذ منه العطايا ونفقات دار الخلافة، أما الثاني فكان الخليفة ينفق منه على موسم الحج وعلى الغزوات إلى حدود الدولة البيزنطية، وعلى فداء أسرى المسلمين، وعلى القيام بنفقات الرسل الواردين. وكانت الضرائب التي تُجمع من مصر والشام يسير بعضها إلى بيت المال العام، كأموال الخراج^(٢٥) العام، كما كان بعضها الآخر يؤول إلى بيت مال الخاصة كجزية أهل الذمة^(٢٦).

والمعروف أيضاً أنه أنشئ في العصر العباسي ديوان خاص للنظر في

٢٣- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢١٤ وما قبلها.
 ٢٤- د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٠٤
 ٢٥- كانت ضريبة الخراج من أهم الضرائب في مصر بعد الجزية، وهي ما يُفرض على الأرض الزراعية من المال أو الغلال أو الطعام، قد يكون الخراج حصة معينة مما يخرج من الأرض.

انظر: د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ٦٣
 ٢٦- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ١٠٤

شؤون أهل الذِّمة سُمِّي "ديوان الجوالي"، ولا نعرف متى أُنشئ هذا الدِّيوَان في مصر ولعله نشأ ملحَقاً ببيت المال أو ديوان الخراج^(٢٧).

لقد لَحِصت الدكتورَة سيِّدة إِسماعيل كاشف كل زمن الخلفاء بقولها: "كانت سياسة الخلفاء بوجه عام ترمي إلى استغلال مصر استغلالاً منظماً وإن اختلف بعضهم عن البعض الآخر من حيث درجة الاستغلال^(٢٨)".

وإذا كانت سياسة بعض الخلفاء ترمي إلى عدم تحميل البلاد فوق ما تحتمل كي لا يجف معينها ويؤثر ذلك على مائيَّة الدَّولة، إلاَّ أن بعض الخلفاء لم يراع هذا المبدأ وراحوا يبتزون كل ما تملك البلاد. ويظهر أن العنصر المالي الرئيسي الذي كان يهتم به العرب هو الجزية التي كانوا يجمعونها من القبط، ولذا كانت الجزية سبباً في إسلام كثير من الأقباط الذين أرادوا التخلُّص منها، وهذا معناه نقص في دخل الدَّولة. وربما حدا هذا بالخلفاء إلى مضاعفة الجزية على من بقى من الأقباط على دينه. حتى أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أمر عامله على خراج مصر أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم!

وكان دخل البلاد في عصر الولاة يذهب إلى بيت مال الخلافة أو جيوب الولاة وعمال الخراج بدون أن تفيد مصر نفسها شيئاً كثيراً. ولما كانت البلاد في عصر الولاة لا تحكُمها أسرة تحرص على ازدهارها، لم تكن من الوجهة المائيَّة إلاَّ شبه مزرعة تُستغل بدون كبير رعاية لازدهارها أو بقاء قدرتها على الإنتاج، إذ كان غرض الخلافة الأساسي هو جباية أكبر دخل ممكن^(٢٩).

٢٧- د. سيِّدة إِسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذِّمة، مرجع سابق، ص ٧٥

٢٨- د. سيِّدة إِسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢١٥

٢٩- نفس المرجع، ص ٢١٦، ٢١٧، ٣٤٠

وسرعان ما عاد المصريون إلى ما كانوا عليه تحت حكم الروم فوقوعا تحت وطأة الأعباء الماليّة الكثيرة التي تتطلّبها الخلافة، وأصبح المطلوب منهم توفير المال اللازم لبيت المال وللمنتفعين من الولاة والموظفين أيضاً. ونلاحظ أن انتفاع مصر بدخلها في العصر الأموي كان أكثر منه في العصر العباسي لأن الولاة الأمويين كانوا أكثر استقراراً من ولاة العصر العباسي. أما في العصر العباسي فقد اضطربت الأحوال الماليّة وذلك لكثرة تغيير الولاة وبسبب إقطاع مصر لبعض قواد الثرك أو أولياء العهد، فكان همّ الوالي جمع ما يمكن جمعه من المال لنفسه أولاً وللخلافة أو لصاحب الإقطاع ثانياً^(٣٠).

لما احتاج عبد الملك بن مروان سنة ٧٥٠م إلى المال، أمر بعمل إحصاء للرهبان في كل الكور وفي وادي التّطرون وسائر الأماكن، وفرض ديناراً جزية على كل راهب، وأمر بالأبترهّب أحدّ من بعد من أحصاه. وهي أوّل جزية أخذت من الرهبان. وألزم أساقفة الكور أن يؤدوا ألفي دينار سنوياً بالإضافة إلى خراج أملاكهم. ومعروف أنه لما فتح العرب مصر حافظوا على ما كان موجوداً فيها من التّقليد الذي يحرم فرض أية ضريبة على الرهبان، ولما لجأ كثير من الرهبان إلى الأديرة ليتخلّصوا من الضّرائب بادرت الحكومة بفرض الجزية عليهم، وكان من أثر ذلك أن اعتنق الكثيرون الدّين الإسلامي. وفي خلافة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥-٧١٥م) تشدّد عبد الله بن عبد الملك على الأقباط في الأمور الماليّة، وزاد الخراج على المصريين حتى أن كنائس كثيرة سرى إليها الخراب لهذا السّبب. وألزم البطرك بدفع ثلاثة آلاف دينار أو يعتقله، فلقى البطريك مشقّة عظيمة في جمع هذا المبلغ من المال.

وعندما تسرد الدكتورة سيدة كاشف هذه القصة السابق ذكرها تكتفي بذكرها دون التّعقيب عليها، بل أمّا بعد ذلك تقول: "والظّاهر أن هذا الوالي عمد إلى ابتزاز الأموال، ولاسيّما من القبط، وربما أسلم نفر منهم ليتخلّص من هذه الأعباء^(٣١)". ولم تكن هذه هي الحادثة الوحيدة بل لقد دأب الولاة على التّضييق على البطارقة لابتزاز الأموال منهم، حتى لو وصل الأمر إلى سجنهم وإهانتهم.

أما الدكتورة ناريمان عبد الكريم فعندما تعرّضت لحادثة مماثلة في عهد الطولونيين عندما فرض أحمد بن طولون على البابا خائيل غرامات باهظة، لم يستطع دفعها لضيق ذات اليد فحبسه، ولم يطلقه إلا بعد أن توسّط لديه الكاتبان المسيحيان يوحنا وإبراهيم ابنا موسى، بشرط أن يدفع غرامة قدرها عشرون ألف دينار، مما جعل البطريرك يفرض ضريبة على النّصارى وباع كنيسة بقرب حصن بابليون وأملاكا أخرى من أملاك الكنيسة لليهود، ومع ذلك لم يستطع أن يجمع المبلغ كله فزجّ به في السّجن ثانية حيث ظلّ به ولم يُطلق سراحه إلا في عهد خمارويه. فبعد أن تسرد الدكتورة ناريمان عبد الكريم هذه القصة تقول بكل بساطة:

"ويُستبعد أن يكون هذا الإجراء قد اتخذ سمة الاضطهاد الدّيني، وإنما كان هذا الإجراء مالياً^(٣٢)".

وغير ذلك من مثل هذه التّعقيبات مثل قولها: "ويتّضح من الإطار التّطبيقي في تحصيل الجزية مراعاة الجانب الإنساني في تحصيلها، وكذلك مراعاة التّخفيف وعدم تكليف أهل الذّمة ما لا يطيقون^(٣٣)".

وبعد عزل عبد الله بن عبد الملك سنة ٧٠٩م، تولى مصر قرة بن

٣١ - نفس المرجع، ص ٢٢٣، ٢٢٤

٣٢ - د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٠٠

٣٣ - نفس المرجع، ص ٥٠

شريك، وظل على ولايتها إلى أن مات سنة ٧١٥م. ويذكر عنه الأنبا ساويرس أنه أنزل بلايا عظيمة بالمسلمين والنصارى على السواء. أما المقريري فيقول عنه: إنه أنزل بالنصارى شدائد لم يتلوا قبلها بمثلها. ويستطرد الأنبا ساويرس فيقول: إن حركة الحرب التي بدأت في عهد عبد الله بن عبد الملك اتخذت في عهد قُرّة شكلاً أوسع، فكانت أسرات بأسرها رجالاً ونساءً وأطفالاً تهرب من مكان إلى مكان، لا تستقر في مكان معين، وذلك فراراً من دفع الضرائب، واضطر قُرّة إزاء هذا إلى إنشاء هيئة خاصة لوقف تلك الحركة وإعادة كل شخص إلى موضعه.

أما الدكتورة ناريمان عبد الكريم فتعقب بالقول: "وعلى الرغم مما ذكره المؤرخون مما وقع على النصارى من بلاء أثناء ولاية قُرّة بن شريك (٩٠-٩٦هـ/ ٧٠٩-٧١٥م)، فإن أوراق البردي تشهد بأن هذه الروايات غير صحيحة^(٣٤)، فكان قُرّة يهتم بعدالة حكام الأقاليم، وعدم الإجحاف بأهل الذمة، فيأمر عماله في الأقاليم ألا يقدروا على أهل الذمة ضرائب فوق طاقتهم، كما كان يهدد عماله بعقابهم أشد العقاب إذا ظلموا الأهالي في تقدير الضرائب المفروضة عليهم، وكان يتجاوز أحياناً عن بعض ما كان يُدفع كل عام من الجزية، فيقبل من أهل الذمة أقل مما اعتادوا دفعه كل عام رفقا بهم (كذا)^(٣٥)".

أما أوراق البردي التي تشير إليها الدكتورة ناريمان عبد الكريم مستشهداً بما ذكرته عنها الدكتورة سيدة كاشف فتروي شيئاً آخر، لذا أورد هنا كل ما ذكرته الدكتورة سيدة كاشف عما حوت هذه

٣٤- وكان ساويرس أسقف الأشمونين يُخْتَلَق الأحداث، أو كأن المقريري يهدي.

٣٥- د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٥٢

البرديات، فتقول: "وتلقى أوراق بردي "كوم أشقاو"^(٣٦) شعاعاً من الثور على هذه الحركة - حركة الهروب من موضع إلى موضع - التي كان محورها الزراع أو الجالية^(٣٧) وكان الوالي يأمر بإعادتهم إلى قراهم الأصليَّة، فنراه يكتب إلى صاحب أشقاو أنه علم بوجود جالية بأرضه ويطلب منه أن يرد الجالية - أي الهارين - إلى أرضهم الأصليَّة، ونراه يرسل مندوبين للتَّنظر في حركة الهرب ويطلب من صاحب الكورة أن ييسر مهمتهم وأن يرسل معهم رجالاً ثقات يعرفون الكتابة ليقوموا في حضرهم بكتابة أسماء الهارين وألقابهم، وليبيِّنوا أيضاً من أين هرب كل شخص، وإلى أي جهة ذهب. وذلك لحصر الذين عادوا إلى قراهم والذين سمح لهم بالاستقرار على أن يؤدوا الضرائب، وليقوموا على وجه الإجمال بالاستفسار عن كل ما يجب أن يُعرف. ثم يعود قُرَّة فيطلب من صاحب الكورة أن يأمر هؤلاء الرِّجال بالعمل في هذه المسألة بجد ونشاط، والأَّ يقبل أحد منهم هديَّة أو رشوة من أي شخص، وإلَّا فسيحل العقاب بصاحب الكورة كما سيحل بالرجل المذنب. وفي كتاب آخر لقُرَّة نراه يطلب من صاحب أشقوة أن يرسل إليه الهارين مع عائلاتهم وكل ما معهم من أشياء وأن يعد سجلاً يكتب فيه أسماء الأشخاص الذين أرسلوا، وفي أي موضع من كورته هربوا، وأملاك كل شخص، والوقت الذي أمضاه كل شخص في كورته، وكل شئ يعرفه عن الهارين دون كذب أو محاباة، وأن يرسل كل الأشخاص وهذه المعلومات مع المندوب الذي

٣٦ - كانت أشقوة كورة من كور الصعيد واسمها الآن كوم أشقاو بين أبوتيج وطهطا في مديرية (محافظة) أسيوط، وقد عُثِر فيها سنة ١٩٠١م، على مجموعة من الأوراق البردية التي ألقت شعاعاً من النور على حكم الأمويين عامة في مصر وعلى حكم الوالي قرَّة بن شريك خاصة.

٣٧ - الجالية، هم أهل الذمة وقد لُقِّبوا بهذا اللقب لأن عمر بن الخطاب أحلهم عن جزيرة العرب، فالتصق بهم هذا الاسم أينما حلوا.

أرسله قرّة لهذا الغرض. ويهدّده بأشد العقاب الجسماني والمالي إن هو توانى عن النَّظر في هذه المسألة وتغافل عن أحد الهارين كما يهدد الأشخاص الذين يوجد بينهم أحد الهارين بغرامة ماليّة كبيرة فوق مقدورهم (٣٨).
فهل بعد كل هذا التّضييق على الأقباط يكون ما ذكره المؤرّخون عن قرّة بن شريك غير صحيح كما تذكر الدكتورّة ناريمان عبد الكريم!؟.

ويذكر الدكتور جودت جيره^(٣٩) إنه قد وصلتنا من العصر الأموي مئات من قطع البردي واللّفائف المدوّنة باللّغات اليونانيّة والقبطيّة والعربيّة. ومن أكثر هذه الوثائق غرابة، ما يُعرف باسم "جوازات السّفَر" أو "السّجّل" ويرجع معظمها إلى النصف الأوّل من القرن الثامن الميلادي. وهي توضّح ضرورة أن يحمل المصري "سجلاً" أي جواز سفر مميّناً به اسم أمير الكورة أو المنطقة المانحة للسّجل، واسم حامل جواز السّفَر وأوصافه، ومحل إقامته، والجهة التي يزمع السّفَر إليها، والسّبب في ترحاله، والمدة المسموح له خلالها بالتغيّب عن موطنه، ثم تاريخ الإصدار، والختم.

ولكي يصدر جواز السّفَر يجب تقديم طلب ضمان إلى الأمير موقعاً عليه من مجموعة من الأشخاص تضمن الطّالب أو طلاب الجواز إذا كان جماعياً، وضمن بدفع الضّرائب عن الشّخص المسافر، وينطبق ذلك على رهبان الأديرة أيضاً. مما أدى إلى هجر كثير من الأديرة المزدهرة في منتصف القرن الثامن الميلادي.

وفي السّطور التالية ترجمة طلب مكتوب باللّغة القبطيّة وموجّه إلى الأمير لاستخراج جواز سفر لثلاثة رهبان. ويرجع الطّلب إلى العقد الرّابع

٣٨- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٢٧، ٢٢٨
٣٩- مقال في جريدة وطني بعنوان: "تاريخ الشعوب لا يقل أهمية عن تاريخ الحكام"، في ١٢ أغسطس سنة ٢٠٠١م، ص ١٥

من القرن الثامن الميلادي:

”بسم الله، من خائيل ويوحنا خادميك، من جهة قلعة شامة (غرب الأقصر) التي تتبعك، يكتبان إلى سيدهما الأمير المبجل.

سلام من الله لسيادتكم، أما بعد: فإن هؤلاء رهبان دير الأنبا بولا بناحية كلول يجبل شامة الذين سنذكر أسماءهم بدقّة في نهاية هذا الخطاب، سوف يسلمون لكم خطابنا عدتم القيمة، وحيث أنهم يرغبون في التوجّه إلى الشمال في منطقة الفيوم لبيع القليل من الحبال من نتاج تعبهم، فإنهم لا يستطيعون ذلك بدون سجل (جواز سفر) من قبل سيادتكم وذلك اعتباراً من اليوم حتى يتسنى لهم التوجّه شمالاً لبيع القليل من الحبال لدعم تكاليف حياتهم، وهم أناس أفاضل، ونحن نضمّنهم ونرسل لسيادتكم الضمان. سلام من الله. وقد دفعوا ما عليهم من ضرائب. وهذه قائمة بأسمائهم: ثلاثة أشخاص لمدة ثلاثة أشهر والمطلوب السّماح لهم بالتوجّه إلى الفيوم:

يوسف بن باتزون من كلول وجلده يجبل إلى الاصرار ...

ثيودوي بن أناسيوس من كلول ...

ومرقس بن تاورينوس من كلول.

إلى الطيب محب الله، السيّد العظيم والحامي العظيم مستحق

الثناء، الأمير.

من خائيل ويوحنا خادميك“.

وهذا الخطاب السّابق ذكره منشور علمياً، حيث قام العالم الأمريكي

آرثر شلر Arther Schiller بنشره ضمن مجموعة من الوثائق القانونيّة سنة

١٩٣٢م. كما تناوله بالدّراسة العالم النمساوي والتر تل Walter Till في

مجلة جمعيّة الآثار القبطيّة سنة ١٩٥٨م.

أما جوازات السّفَر فيصدرها الأمير باللّغة العربيّة، وقد قام العالم النمساوي أدولف جرومان Adolf Grohmann بنشر عدد منها ضمن مجموعة من وثائق الردي في القاهرة سنة ١٩٣٨ م. وفيما يلي نص أحد هذه الجوازات صدر سنة ١٢٠ هجرية / ٧٣١ م:

”بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من عبيد الله عامل الأمير عبيد الله من الحبحاب على أعلى أشمون لقسطنطين ببسطلس شاب أبط (أي ذو أنف مسطح) بجده أثر وبعنقه خالين سبط (أي طويل الشّعر) من أهل بسقنون باهة من أعلى أشمون.

إني أذنت له أن يعمل بأسفل أشمون لوفاء جزيته والتماس معيشته، وأجلّته شهرين من مستهل ذي الحجة إلى انسلاخ المحرم سنة ست عشرة ومائة. فمن لقيه من عمال الأمير أو غيرهم فلا يعترض له في ذلك من الأجل إلاّ بخير. والسّلام على من اتبع الهدى“.

أما التّساؤل حول المدة التي كان على المصري أن ينتظر خلالها لاستخراج جواز السّفَر ونتائج ذلك، والتعسّف الذي يلقاه حالة تلف أو فقد جواز سفره فنجد إجابة عليه في كتاب تاريخ البطارقة (في حبريّة البطريرك ألكسندر الثاني: ٧٠٥ - ٧٣٠ م):

”وكان (أي الوالي) يكتب ويقول: كل موضع يوجد فيه إنسان ماشياً أو عادياً من موضع إلى موضع، أو طالعاً من مركب أو نازلاً، وليس معه سجل (أي جواز سفره) يؤخذ وتُنهب المركب وما فيها وتُحرق بالنّار ... حتى انقطع الطّريق ولم يبق من مسافر ولا من يبيع ولا من يشتري. ومهرات الكروم تلفت ولم يبق من يشتريها بدرهم واحد لأجل قيام أربابها عند داره شهرين ينتظرون السّجل بالإفراج عنهم. وإذا أكل فأر سجل إنسان أو أصابه ماء أو نار أو شيء من العوارض وبقي معه منه قطعة أو جميعه وقد تغير رسمه، لا يغيّر له حتى يدفع خمسة دنانير

غرامة، وبعد ذلك يغيّر له ...“.

هكذا كان المصري في العصر الأموي لا يستطيع التنقل داخل بلده مصر دون جواز سفر يحمله معه. ويلزم تجديده في كل مرة يريد فيها أن ينتقل إلى موضع جديد داخل وطنه.

ويختتم الدكتور جودت حيره مقاله بقوله: إن رصد دقائق الحياة اليومية للشعوب لا يقل أهمية عن تتبع الأحداث السياسيّة وكتابة تاريخ الحكام. وإن الإمام بظروف حياة النَّاس في مصر إبان العصر الأموي لا يقل بالنسبة للمصري إن لم يفق في الأهمية تتبّع معركة السَّواري التي انتصر فيها الأسطول الأموي على أسطول بيزنطة سنة ٦٥٤م. (انتهى المقال).

واشتد أسامة بن زيد سنة ٧١٥م، وهو واحد من عمال الخراج، في طلب الخراج والجزية^(٤٠) حتى أسلم الكثيرون في عهده كي يتخلصوا من الأعباء الماليّة، ولكن حركة الهرب استمرت من جانب الذين أثقلت كاهلهم الأعباء الماليّة ولم يرغبوا في اعتناق الدّين الإسلامي^(٤١). وأسامة بن زيد هو الذي أحصى الرُّهبان للمرّة الثانية بعد الإحصاء الأوّل الذي تم في عهد عبد العزيز بن مروان، وأمر ألا يقبلوا في الرّهينة من يأتي إليهم وأمر بوسم كل راهب بحلقة من حديد في يده اليسرى ليكون معروفاً،

٤٠- الجزية غير الخراج، وذلك من ثلاثة وجوه:

+ فالجزية نص والخراج اجتهاد.

+ وأقل الجزية مقدّر بالشرع، وأكثرها بالاجتهاد. والخراج أقله وأكثره مقدّر بالاجتهاد.

+ والجزية تؤخذ مع بقاء الكُفر، وتسقط بدخول الإسلام، والخراج يؤخذ مع الكُفر والإسلام.

د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدّولة الإسلاميّة، مرجع سابق، ص ٥٦

٤١- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٢٩

وفرض عليهم الجزية.

واستمر الحال على ما هو عليه مع الخلفاء اللاحقين أمثال عمر بن عبد العزيز (٧١٨ - ٧٢٠م)، ويزيد بن عبد الملك (٧٢٠ - ٧٢٣م)، وهشام بن عبد الملك (٧٢٣ - ٧٤٣م)، والذي اعتنق في أيامه نحو أربعة وعشرين ألفاً من الأقباط الدِّين الإسلامي^(٤٢) عندما أعلن الوالي حفص بن الوليد في ولايته الثالثة على مصر سنة ٧٤٥م إعفاء من يسلم من الجزية. حتى إلى زمن الخليفة السُّفاح الذي قرَّر أن يعفي من الجزية كل من يعتنق الدِّين الإسلامي، ويقيم شعائره، فتخلَّى كثيرٌ من المسيحيين، أغنياء كانوا أو فقراء، عن دينهم واعتنقوا الدِّين الإسلامي بسبب فداحة الجزية والأعباء الملقاة عليهم. ويتَّضح من ذلك أنه صدر أمر سابق بالألَّا يُعفى أهل الذِّمة من الجزية حتى لو دخلوا في الإسلام، ولسنا نعرف بالتحديد من الذي بدأ بإبقاء الجزية على من يسلم حديثاً^(٤٣).

ولم يكن خليفة أفضل من غيره في هذا الابتزاز، وكان الوالي يتشدَّد في طلب المتأخَّر من الجزية التي لم تُدفع منذ عهد الوالي الذي سبقه، بل ويزيد عليها أحياناً أخرى ضرائب غير عادية. ولسنا في مجال سرد مفصل لما عاناه الأقباط من شدائد لم ينج منها حتى بطريركهم في كثير من الحالات، ووصل البلاء إلى حد أن صارت جزية موتى القبط تُفرض على أحيائهم، فقلَّ عدد الأقباط، وهدمت كثيرٌ من كنائسهم، وهربوا من مكان إلى مكان للاختفاء من وجه الضَّيق، وأسلم الكثيرون منهم.

ولا توافق الدكتورة سيدة كاشف على قول مؤلِّف تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، في أن الجزية كانت من أهمِّ العوامل التي حولت أغلبية

٤٢ - نفس المرجع، ص ٢٣٥

٤٣ - د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ٧٨

الأقباط في عصر الولاة إلى الدِّين الإسلامي^(٤٤). وتقول في ذلك: ربما حاول ساويرس نفسه أن يعلِّل انتشار الإسلام بسرعة في مصر فلم يجد غير هذا التعليل المالي. ولو كان هناك اضطهاد أو إرغام على الدُّخول في الدِّين الإسلامي لكانت الكنيسة المصريَّة قد سجلته، ولكن ساويرس قد سجله في تاريخه. وإذا كانت الجزية هي سبب إسلام أغلبية قبط مصر فهل سيُعفى المصري المسلم من سائر الضَّرائب والأعباء الماليَّة التي تفوق الجزية بكثير؟! وهل سيُعفى من أداء الرِّكاة؟ وهل يُعقل أن يتخلى الإنسان عن دينه من أجل دفع مبلغ بسيط من المال لا يدفعه إلاَّ القادر؟!.

ولكن إن كان إسلام الأقباط لا يعفيهم من سائر أنواع الضَّرائب والأعباء الماليَّة الأخرى، فلماذا كان الأقباط يدخلون الإسلام جماعات حالما يعلن الحاكم إعفاء من يسلم من الجزية؟!.

وفي زمن البابا شنوده الأوَّل أيام الخليفة المنتصر، وكان والي مصر آتذ هو أحمد بن محمد، وكان والياً ظالماً عنيفاً، هرب منه البطريك زمناً، فغيَّر زيَّه ولبس ملابس متواضعة، واختفى في مواضع لا يعرفه فيها أحد، وتبعه شماسان كانا كاتبين له، وكان يهرب من مكان إلى مكان "وهو حزين باكي على البيعة والأساقفة"^(٤٥). وإذ كتب الوالي له الأمان مكرماً منه ذهب البابا إليه، وكان ذلك سنة ٨٦٢م، ودارت بينهما المحادثة التالية كما يصفها كتاب سير البيعة:

- قال الوالي: اعلم أن كل ولايتي قد كتبوا عليهم الخراج إلاَّ أنت.
- أجاب البابا بكلام متواضع: مهما تأمر به رياستك فعلته.

٤٤ - نفس المرجع، ص ٨٣

٤٥ - نفس المرجع، ص ٢٥

ويقول الكتاب المذكور: ”وكان من عادته أن يضاعف على النَّاس البلايا إذا ما رادوه في الكلام“.

وفيما يلي نص ما يذكره كتاب سير البيعة: ”وكان على البيعة خراج في كل سنة ألفي دينار، فقال لابينا لاجل ما جيت بارادتك اراعيك واسامحك، ثم الزمه بخراج سنتين قبل وصوله الى مصر، وكتب عليه عن الديارات ألفي وثلاثماية دينار، حتى اجتمع عليه في تلك السنة سبعة الف دينار، هذا بداية البلا... وكانت جزية النصارى التي باراض مصر ألفي دينار زاد عليه أربعة الف دينار حتى صارت ستة الف دينار حتى ان الانسان الفقير الذي يعجز قوته ياخذ منه في كل سنة خمسين درهما، حتى ضحت اهل مصر واعمالها من عظم هذا العذاب ووجد كثير من النصارى لاجل قلة ما بايديهم من الدراهم...“ (٤٦).

”وكانت كورة مصر في ضيق عظيم وافتقروا الاساقفة والرهبان وكل احد من اجل الغرامات التي ربيها هذا الانسان المخوف اكثر من جميع من تقدمه، وكان يكتب على المال اذا انفذه هذا ما كان يسرقه من تقدمي، وكان الاب في جهاد عظيم...“ (٤٧).

(ج) ثورات الأقباط

لم يقف القبط الذين ظلوا على دينهم مكتوفي الأيدي طوال هذا العصر أمام مطالب الحكومة المالية، بل قاوموها، فعندما زاد عدد القبط الذين دخلوا الإسلام وقل تبعاً لذلك دخل البلاد، زاد العبء على من بقى على دينه من القبط. فقام القبط بثورات طوال القرن الثاني الهجري/

٤٦- سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٢٦، ٢٧

٤٧- نفس المرجع، ص ٢٨

الثَّامن الميلادي.

ويرصد المقرئ في كتابه "المواعظ والاعتبار بوصف الخطط والآثار" سلسلة ثورات القبط منذ عام ١٠٧هـ (٧٢٥م) . فيقول^(٤٨): "قدم حنظلة بن صفوان أميراً على مصر في ولايته الثانية، فتشدد على النصارى، وزاد في الخراج، وأحصى الناس والبهائم، وجعل على كل نصراني وسماً؛ صورة أسد، وتبعهم، فمن وجده بغير وسم قطع يده ... الخ".

فلكثر ما عاناه الأقباط من اضطهاد وجباية لا تهدأ للضَّرائب، عبَّروا عن ثمرتهم بعدة ثورات قاموا بها في أنحاء مختلفة من البلاد وخاصة الوجه البحري، وظلَّت هذه الثورات تندلع بين حين وآخر إلى نحو قرن من الزَّمان. أما أهم هذه الانتفاضات الشعبيَّة فكانت سبع انتفاضات:

• كان أولها سنة ٧٢٥م في الوجه البحري، في حكم هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي، وولاية الحر بن يوسف على مصر (٧٢٤-٧٢٧م) فقتل منهم نفر كثير.

• وفي الصَّعيد ثار الأقباط وحاربوا عمال الحكومة في سنة ١٢١هـ/ ٧٣٩م فقتل منهم عدد كبير.

• وفي سنة ٧٥٠م خرج ثائر من سمونود يُدعى يحنس فقتل هو وكل أصحابه. وقامت ثورة من الأقباط في رشيد في نفس السَّنة، فهزموا.

• ثم قامت ثورة البشموريين لم يستطع مروان بن محمد أن يقضي عليها، إذ سرعان ما هاجمه العباسيون وقضوا عليه. فلما قامت دولة العباسيين في مصر تفاعل الأقباط خيراً، وحمدت ثورة البشموريين من أجل

ذلك، إلا أن الابتزاز المالي عاد إلى ما كان عليه أيام الأمويين، بل فاق العهد السابق، فلم تَمُضْ ثلاث سنوات على قيام الدولة العباسية بمصر حتى ضوعف الخراج على الأقباط، ولم يتم ما وعدوا به من التخفيف عنهم.

• فتار الأقباط في سمود في سنة ٧٥٣م بقيادة مينا فقتلوا مع زعيمهم.

• ثم ثار الأقباط في سخا سنة ٧٦٧م، وانضم إليهم أهل البشروذ (أو البشمور) وبعض جهات الوجه البحري، ولكن العرب انهزموا أمام القبط هذه المرة، وفي سنة ٧٧٣م أرسل إليهم والي جيشاً هزمهم.

• وكانت آخر ثورة للأقباط سنة ٨٣١م في خلافة الخليفة المأمون العباسي (٨١٣ - ٨٣٣م)، إذ ثار أهل الوجه البحري كلهم سواء في ذلك العرب أو القبط، وتزعم البشموريون الثورة، مما اضطر الخليفة المأمون أن يأتي إلى مصر، وحاول الخليفة أن يخمّد ثورة البشمورين باللين فلم يفلح فسار إليهم بجيشه وهزمهم وأعمل فيهم السيف وأحرق كنائسهم.

لقد زادت ثورات القبط في أواخر عهد الدولة الأموية، وكلما تقدّم الزمن كانت تفصيلات الاضطهاد والتعذيب تتضح أكثر فأكثر لدى المقرئ الذي فطن إلى أن الحكام العرب كانوا يتمادون في فرض الضرائب، ليس على الشعب القبطي فقط، كما كان يفعل بعض الأوائل من دهاة السياسيين، بل كانوا يفرضون على الكنيسة ورجالها ورهبانها إتاوات متزايدة؛ بل يقبضون عليهم ويعذبونهم، كما حدث في زمن مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين حينما قبض على بطريرك الإسكندرية، ووضع رجله في مقطرة من الحديد، وتنف شعر لحيته، مما جعل موقف الكنيسة يختلف في تلك الفترات عنه في أيام المحاباة الأولى^(٤٩).

ويذكر المقرئزي أنه بعد ثورة البشمورين آخر ثورة للأقباط في عهد الولاة، أصبح المسلمون أغلبيَّة في مصر، وعلى الأخص في الوجه البحري إذ يظهر أن عدداً كبيراً من الأقباط أسلم في ذلك الوقت.

إن ثورات الأقباط كان يُقضى عليها سريعاً، وكان يتبع إخمادها في العادة تحوُّل عدد كبير من الأقباط إلى الدِّين الإسلامي. ولم تكن هذه الثورات حركات قوميَّة بالمعنى الصَّحيح، وإنما كانت حركات غير منظمَّة، لم يعرف فيها القبط كيف يوحدون أنفسهم، وكيف يتخذون لهم قيادة حكيمة، وكان هدفها خفض الضَّرائب أو الهرب من دفعها. ومنذ سنة ٢١٧هـ / ٨٣٢م أصبح الأقباط أقلية في مصر^(٥٠).

ولقد لخص عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين الفترة ما بين دخول العرب مصر وقيام الدولة الطولونيَّة بقوله: "... والتاريخ يحدِّثنا كذلك بأن رضاها (أي مصر) عن السُّلطان العربي بعد الفتح لم يبدأ من السَّخط، ولم يخلص من المقاومة والثورة، وبأنها لم تهدأ ولم تطمئن إلا حين أخذت تسترد شخصيَّتها المستقلَّة في ظل ابن طولون، وفي ظل الدُّول المختلفة التي قامت بعده^(٥١)".

كيف اختلط العرب بالمصريين

لرمن طويل ظلَّت العزلة بين العرب والقبط قائمة فيما يشبه الانفصال الاجتماعي، ويمكن أن نسمي التماس بينهما في الفترة الأولى تماس السَّطح والقاع، أو تماس الحاكم والمحكوم، وما ينطوي عليه من عسف جانب وخضوع الآخر، دون أن يمتص أحدهما أو يحويه تحت

٥٠- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٤٠ وما قبله.

٥١- د. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، مرجع سابق، ص ٢٣

جناحه لأكثر من ثلاثة قرون^(٥٢).

لقد هاجر كثير من القبائل العربيّة إلى مصر، واحتلّط العرب بأهل وادي النيل، ثمّ تحوّل الحكم في العالم الإسلاميّ إلى مُلك استبداديّ يعتمد على الفُرس ثمّ الأتراك، وكان كل ذلك مؤدّيّاً إلى ضياع هيبة العرب الحاكمين، وإلى اندماجهم في سلك المحكومين^(٥٣).

كان العرب الذين استقروا في مصر ومعظمهم من اليمنيّة (جنوب الجزيرة العربيّة) يقيمون في الفُسطاط أو الجيزة أو الإسكندريّة. وقد حرّم عليهم عمرو بن الخطّاب الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض، فلم يكن يعينهم سوى السّياسة والحُكم والحرب، ولذا لم يخلط العرب بالمصريين في البداية، ولم يكن لهم تأثير يُذكر على القبط سواء أكان هذا التأثير من ناحية انتشار الدّين الإسلاميّ أو اللّغة العربيّة. وكان اختلاط القبائل العربيّة بأهل مصر عن طريق التّزاوج أو الولاة نادراً في أوّل الأمر، وكان العرب أقلّيّة ضئيلة في مصر في ذلك العهد.

على أن أغلب الولاة الذين حكموا مصر في فجر الإسلام كانوا يصحبون معهم جيوشاً عربيّة حتى نهاية العصر الأموي، أو جيوشاً من العرب والشُّعوب الأخرى كالفُرسانيين والأتراك في العصر العباسي. فكانت القبائل العربيّة تفد باستمرار إلى مصر إما مع الولاة أو يبعث بها الخلفاء لتعزيز الجُند واستيطان البلاد، ولذا نرى أن عدد الجُند في مصر أيام معاوية بن أبي سفيان بلغ أربعين ألفاً.

وفي سنة ١٠٩هـ/٧٢٧م وفي خلافة هشام بن عبد الملك وولاية

٥٢- سناء المصري، هوامش الفتح العربي لمصر، مرجع سابق، ص ١٦٦

٥٣- نفس المرجع، ص ٣٤٣، ٣٤٦

عبيد الله بن الحبحاب وفد إلى مصر عرب قيس (شمال الجزيرة العربيَّة)، حيث تم ترحيل ثلاثة آلاف منهم، وتحويل ديوانهم إلى مصر. ولم يتزلوا في القسطنطينية بل نزلوا في الحوف الشرقي. ولم يكن في مصر حتى ذلك الوقت سوى عدد قليل منهم. فترل عرب قيس إلى مصر وأخذوا يشتغلون بالزراعة فيها لأوَّل مرَّة. أي أن العرب في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك أخذوا يتخلَّون عن السِّياسة التي اتبعوها منذ الفتح، وهي سياسة الترفُّع عن الاختلاط بالأهالي وعن الاشتغال بالزراعة. وقد وافق قدوم هذه البطون القيسيَّة إلى مصر سنة ١٠٩هـ / ٧٢٧م قيام ثورات الأقباط التي بدأت في سنة ١٠٧هـ / ٧٢٥م. وربما يكون الخليفة قد أراد بنقل هذه البطون إلى مصر والسَّماح لهم بالاشتغال بالزراعة أن يتقوى المسلمون بالعرب ضد الأقباط الذين بدأوا ثوراتهم، أو أن يحلَّ العرب محلَّ من يموت من الأقباط في هذه الثورات، أو من يهجر أرضه. وكان لهذا الاختلاط أثره في انتشار الإسلام بمصر نتيجة للتزاوج أو للموالاتة بينهم وبين أهالي البلاد. ولذا يقول المقرئزي: "ولم ينتشر الإسلام في قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب مولى سلول قيساً بالحوف الشرقي. فلما كان بالمائة الثانية من سني الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها".

وأخذت القبائل العربيَّة بعد ذلك تفد إلى مصر وتستقر في القرى المصريَّة. ويذكر المؤرِّخون أنه في زمن مروان بن محمد عندما ولي الحوثة ابن سهيل الباهلي مصر (٧٤٦ - ٧٤٩م) مالت إليهم بطون قيس، فمات مروان وبها ثلاثة آلاف أسرة منهم، ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية كثير من ذوي قراباتهم.

لقد وفد كثير من العرب إلى مصر في خلافة المتوكل العباسي

(٨٤٧ - ٨٦١ م) بعد سنة ٢٤٠هـ / ٨٥٤ م، وانتشروا في أنحائها، ونزلت طائفة منهم بأعالي الصعيد. على أن ازدياد القبائل العربيّة بمصر سببت كثيراً من الاضطرابات فيها، فمن منازعات قبليّة بين القيسيّة واليمنيّة، ومن منازعات بين العرب وأهالي البلاد الأصليين، فضلاً عن أن العرب بمصر كثيراً ما كانوا يشتركون في المشاكل التي قامت حول الخلافة. ويقدر زيادة عددهم في مصر بقدر ما كانت تزيد مشاكلهم واضطراباتهم فيها.

كذلك لما أصبح للعرب في مصر حق امتلاك الأرض وزراعتها، وجب عليهم دفع الخراج، فكان ذلك سبباً لبعض الثورات. وقد بدأ العرب في مصر يشتغلون بالزراعة في أواخر العصر الأموي، وقامت ثورتهم بسبب الخراج في العهد العباسي. وكانت آخر ثورات العرب بمصر بسبب الخراج تلك التي قامت في سنة ٢١٦هـ / ٨٣١ م في ولاية عيسى بن منصور والتي اشترك فيها العرب مع الأقباط وانتهت بقدم المأمون إلى مصر لإخضاعها.

وهكذا أصبح المسلمون أغليّة في مصر منذ أوائل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، أي بعد أقل من قرنين من الزمان بعد فتحها على يد عمرو بن العاص^(٥٤).

وكان العرب إلى عهد الخليفة المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢ م) يتمتعون بامتيازات خاصة عن الأقباط الذين أسلموا، فكانوا يأخذون العطاء، بينما يُحرم منه أهل البلاد الذين يعتنقون الإسلام. وكثيراً ما كان أهل البلاد يشعرون بأنهم دون العرب مهما أسلموا.

وتم اندماج العرب بالمصريين زمن الخليفة المعتصم العباسي إذ كانت

سياسة هذا الخليفة منذ كان والياً تنطوي على الاعتماد على الأتراك وعدم الثِّقة بالعرب أو الفُرس. فلما بويغ بالخلافة أرسل إلى مصر كيدر نصر بن عبد الله (٨٣١ - ٨٣٤م) يأمره بإسقاط من في الديوان من العرب وقطع أعينهم فتم ذلك. ويظهر أن الاختلاط في ذلك الوقت كان قد عظم بين العرب وبين أهل البلاد، بدليل أن قرار المعتصم بصرفهم عن ديوان الجند لم يكن له رد فعل عنيف.

ونلاحظ أن العرب في مصر احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالي قرنين من الزَّمان، فترى في معظم شواهد القبور التي اكتشفت حديثاً في مقابر أسوان والْفُسْطاط أن اسم الميت يُتبع باسم قبيلته في خلال القرنين الأوَّلين للهجرة، ولكن في خلال القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، نجد أن اسم القبيلة قد حل محلَّها اسم الجهة أو الإقليم الذي ينتسب إليه المتوفى، فيكتب فلان الكوفي أو المصري ... الخ.

وهذا يدل على أنه في القرن الثالث الهجري أصبح العرب في مصر لا يتميَّزون عن أهل البلاد. ولم يكن هناك بعد قرار المعتصم ما يُحسد عليه العرب من نسل الفاتحين. إذ أنه بعد ما فقد العرب مركزهم السَّامي في الدَّولة الإسلاميَّة، اضطروا إلى الانتشار في الرِّيف والاختلاط بالمصريين والتَّزوج بيناتهم والاشتغال بالزَّراعة والصَّناعة والتَّجارة، وغير ذلك من الأعمال التي كانوا يترَفعون عن الاشتغال بها من قبل. فكان هذا العمل الذي قام به المعتصم ضد العرب مما أفاد الإسلام في مصر وساعد على انتشاره بين المصريين كما كان له أكبر الأثر في انتشار اللغة العربيَّة بمصر وقضاها على اللُّغة القبطيَّة.

ولقد اختلط التَّنصاري بالمسلمين عن طريق اتخاذ الخلفاء جواري نصرانيَّات، وقد تكون الحارية تلبس الصَّليب والزَّنار، فكان للخليفة

المهدي جارية نصرانيّة تعلق في عنقها صليباً من ذهب^(٥٥).

وتقول الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف: ولا ريب أن انتشار اللّغة العربيّة في مصر ميزة للعرب على غيرهم من الفاتحين، فإنّ الشُّعوب المختلفة التي توالّت على مصر قبل العرب لم تستطع القضاء على لغة المصريين، فقد كانت اللّغة اليونانيّة قبل الفتح العربي واللّغة التركيّة في العهد العثماني لغة البلاد الرّسميّة، ولكن هذا لم يجعلها لغة الشّعب المصري، برغم أن الحكم التركي دام عدّة قرون. فكيف ترك الفلاح المصري لغته القبطيّة ليتكلّم العربيّة؟ هذه ظاهرة تستحقّ إمعان النّظر، لأنّ تنازل شعب عريق في المدنيّة كالشّعب المصري، عن لغته، واتّخاذ لغة شعب لا يوازيه في الحضارة أمر غير عادي^(٥٦).

تعقيب

استطاعت الحضارة اليونانيّة أن تفرض لغتها اليونانيّة على كل أرجاء المعمورة، حتّى بات كل من لا يعرف اليونانيّة بربرياً في ذلك الوقت، وكانت مصر واحدة من تلك البلاد التي سادت فيها اليونانيّة. فقد قبلت الكنيسة القبطيّة الكرازة بالمسيح باللّغة اليونانيّة، وأوّل إنجيل دُون في الكنيسة الجامعة، وهو إنجيل القديس مرقس الذي بشرّ مصر بالمسيحيّة كان مدوّنًا باليونانيّة، وكانت كل صلوات الكنيسة ولتورجيتها ومعظم كتاباتها الإيمانيّة ودفاعاتها اللاهوتيّة في الخمسة قرون الأولى مدوّنة باليونانيّة. وكانت كنيسة الإسكندرّيّة هي المرجع الأوّل لكنائس الشّرق، وصار بطريرك الكنيسة القبطيّة هو قاضي المسكونة، ولم يكن ذلك ممكناً لولا تمكّن الأقباط من اللّغة اليونانيّة التي كانت لغة الحضارة آنذ. ومنذ القرن

٥٥ - رواية الطبري، في كتابه تاريخ الأمم والملوك، انظره د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلاميّة، مرجع سابق، ص ١٦٠
٥٦ - د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٤٨ وما بعده، ٣٤٧

الثاني الميلادي دُوِّنت اللُّغة القبطيَّة لأوَّل مرَّة بحروف يونانيَّة ليسهل كتابتها.

ثم أن اللُّغة اليونانيَّة في غضون ثلاثة قرون صارت هي لغة الكنيسة الرِّسميَّة، ولغة التَّفاهم في الحياة اليوميَّة - باستثناء معظم صعيد مصر الذي كان لازال يتكلَّم ويصَلِّي بالقبطيَّة - بينما لم تستطع اللُّغة العربيَّة أن تدخل إلى داخل الكنيسة لتكون واحدة من لغات صلواتها إلا في القرن الثاني عشر، وظلَّ أهل الصَّعيد يتكلَّمون القبطيَّة كلغة تخاطب يوميَّة حتى القرن السَّابع عشر.

وبرغم أن الكنيسة القبطيَّة لم تر في أي لغة أخرى غير القبطيَّة لغتها الوطنيَّة، إلا أنها لم تستنكف أبداً من استخدام لغة العصر أياً كانت إلى جانب القبطيَّة، لتواكب مسيرة الحياة. فالتمسُّك باللُّغة القبطيَّة لا يعني التَّفريط في اليونانيَّة أو العربيَّة أو غيرها من اللُّغات. لأن تمسُّك الكنيسة بلغتها الوطنيَّة لم يكن بدافع من تعصُّب بغيض، بل اقتناعاً أن لغتها الوطنيَّة هي التي تصل ماضيها بحاضرها، لأنه لو انفصم هذا الرِّباط، يضع من الكنيسة تراث لا يمكن تعويضه، وضمانة صونه هي اللُّغة القبطيَّة، تلك التي دُوِّنت بها مخطوطات الكنيسة وكتاباتها وليتورجيتها وكل إيمانها بدءاً من القرن السَّادس الميلادي، بعد اندحار اليونانيَّة وكل ما يمت بصلة إلى الكنيسة اليونانيَّة أي البيزنطيَّة. ولكن إزاء اضطهاد عنيف للغة القبطيَّة، اضطهاد لاحق الأقباط حتى في داخل بيوتهم، تخلى الأقباط بحجرين - بعد صراع مرير - عن لغتهم الوطنيَّة كلغة تخاطب يوميَّة.

ولكن الدكتورة سيدة كاشف تقفز فقرة واسعة وتتخطي أحداثاً حساماً، لتقول في النهاية: كانت مصر إحدى الأمم القليلة التي تخلَّت نهائياً عن ماضيها الوطني وعن لغتها القديمة ورمت بنفسها في أحضان الإسلام والمدنيَّة الإسلاميَّة، فلم يقض فتح العرب لإيران والهند على لغتهما القوميَّة

ولم يقض على العقائد الدنيئة التي وجدت فيهما قبل الفتح قضاءً تاماً. ولم يمنع اعتناق الأتراك للدِّين الإسلامي من الاحتفاظ بلغتهم القومية^(٥٧).

وبمرور الأيام وتوطيد دعائم الحكم العربي، كانت الحلقة تضيق حول وضع الأقباط المصريين، ولم يعد التَّقْسِيمُ الأوَّلُ بين كونهم أهل ذمَّة يدفعون الجزية والخراج ويعيشون في أماكنهم بعيداً عن العرب، حامياً لهم؛ بل تعرَّضوا لضيق حلقة العزلة من حولهم رويداً رويداً، وأخذ ضعف الكنيسة يتضح أكثر فأكثر. فدفع هذا الحصار الكنائس والرهبان إلى المزيد من الجمود والانغلاق، والدُّخُولُ في ظلامية القرون الوسطى^(٥٨).

نهاية عصر الولاة

ينتهي عصر الولاة في زمن البابا شنودة الأوَّل (٨٥٩ - ٨٦٩م). ولما كان جعفر هو الخليفة المتوكل يومئذ، ثار عليه ابنه محمد، والذي لُقِبَ بـ "المنتصر" وغلبه، وأخذ مملكته، فلما وُلِّيَ عزل جميع الولاة الذين كانوا في زمان أبيه، وأنفذ إلى مصر إنساناً يُعرف بأحمد بن محمد، وكان رجلاً شديداً صعباً في أفعاله مخوفاً عند كل أحد، أذاق أهل مصر صعوبة وبلايا. وفي ذلك يقول كتاب سير البيعة المقدسة ما نصه:

"وعند وصوله الى مصر وضع يده على كل المسلمين والنصارى واليهود، واضعف عليهم الخراج ... وانفذ الى الديارات (الأديرة) بكل موضع واحصى الرهبان التي فيها وطالبهم بالجزية والخراج عن الحشيش الذي في البهلس، وعن النخل والشجر المثمرة المغروسة في بيوتهم ... وامر ان تغلق البيع التي بها (أي بمصر) ولا يمكنوهم من القربان الا في بيعة

٥٧ - نفس المرجع، ص ٢٦١ وما قبله.

٥٨ - سناء المصري، هوامش الفتح العربي لمصر، مرجع سابق، ص ١٥٤

واحدة ... (وكان) ياخذ مال البيع والاساقفة والديارة للديوان، فلما قرر هذا في ديار مصر ضاقت البيع وحزتوا الاساقفة ... (٥٩)“.

ومات المنتصر قاتل أبيه، ولم يدم ملكه سوى ستة شهور، وملك بعده أحمد ”المستعين“ وكان رجلاً صالحاً خيراً كما شهد عنه، وفعل خيراً في أيامه في أرض مصر^(٦٠). أنفذ والياً على مصر رفع الخراج والجزية عن الرهبان، فعظمت مسرة الأب البطريرك. ولكن سرعان ما ظهر نصراني اسمه يعقوب يسميه كتاب سير البيعة المقدسة ”شيخ غير نصراني ولا مستحق ان يسما يعقوب^(٦١)“، فهذا الرجل صادق قوماً من اليهود، ومضي إلى الوالي برقاع كتبها ضد الأب البطريرك والبيع مملوءة نيمة وكذباً، لكي يستخرج السلطان من الكنيسة كل سنة مائة ألف دينار... الخ، وكانت النتيجة: ”كانوا الايا الاساقفة من شدة الخوف يتزاوا بزوي العلمانيين، ويغفروا لباسهم ويمشوا رجالة بغير دواب حتى يمضوا الى البيع التي يريدوها^(٦٢)“.

وشماس آخر من أعمال البشموور، كان قد لبس لباس الرهبان، ثم خلعه، وإذا أراد الكهنوت ولم يُجَب لطلبه، وشى بالبطريرك عند الوالي، فكتب له هذا الأخير سجلاً بالقبض على الأساقفة، وترحيلهم إلى مصر، ”وكان اذا قبض على احدهم يشهره، لانه كان يتزع عنه الثياب، ويلبسه غيرها، ولا يدع عليه من لباسه الا القلنسوة الذي يلبسوها الرهبان، ويُركبهم الدواب بغير سروج، ويهزوا بهم قدام اهل البلاد^(٦٣)“.

٥٩ - سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٢٤

٦٠ - نفس المرجع، ص ٣١

٦١ - نفس المرجع، ص ٤٧

٦٢ - نفس المرجع، ص ٤٨

٦٣ - نفس المرجع، ص ٥١

وطُرح البابا شنودة الأوّل في السّجن مع اللّصوص والقتلة، فنالته تعب عظيم، وسمع أخباره جميع النّاس النّصارى والمسلمين.

جدول بأسماء الخلفاء والولاة ومعاصريهم من

بطاركة الكنيسة القبطية^(٦٤)

البطريك	الوالي	الخليفة	السنة
البابا بنيامين	عمرو بن العاص	عمر بن الخطاب	٦٤١/هـ ٥٢٠
		عثمان بن عفان	٦٤٤/هـ ٥٢٣
البابا أغاثون	عبد الله بن سعد النزاه محمد بن أبي حنيفة ١ قيس بن سعد الأشتر مالك محمد بن أبي بكر عمرو بن العاص (٢)	علي بن أبي طالب	٦٤٥/٢٤
			٦٥٥/٣٥
			٦٥٧/٣٧
		معاوية	٦٦٠/٤٠
			٦٦١/٤١
			٦٦٤/٤٤
البابا يوحنا الثالث	مسلمة بن مخلد		٦٦٧/٤٧
			٦٧٩/٥٩
		يزيد الأوّل	٦٨٠/٦٠
			٦٨٢/٦٢
		سعيد بن يزيد	(عبد الله بن الزبير)
	عبد الرحمن بن عتبة	مروان الأوّل	
	عبد العزيز بن مروان		٦٨٥/٦٥

البطريك	الوالي	الخليفة	السنة
البابا اسحاق البابا سيمون الأوّل الكسندروس الثاني	عبد الله بن عبد الملك قرة بن شريك عبد الملك بن رفاعة أيوب بن شرحيل بشر بن صفوان حنظلة بن صفوان عمد بن عبد الملك الحر بن يوسف حفص بن الوليد عبد الملك بن رفاعة ٢ الوليد بن رفاعة	عبد الملك بن مروان	٦٦٦ / ٦٦٦
			٦٦٧ / ٦٦٦
			٧٠ / ٦٨٩
			٨٦ / ٧٠٥
			٨٧ / ٧٠٦
			٨٨ / ٧٠٧
			٩٠ / ٧٠٩
			٩٦ / ٧١٥
			٩٩ / ٧١٨
			١٠١ / ٧١٩
			١٠٢ / ٧٢٠
			١٠٥ / ٧٢٣
			١٠٦ / ٧٢٤
			١٠٨ / ٧٢٦
	١٠٩ / ٧٢٧		
البابا قسما الأوّل البابا تاودوروس	عبد الرحمن بن خالد حنظلة بن صفوان ٢ حفص بن الوليد ٢		١١٢ / ٧٣٠
			١١٣ / ٧٣١
			١١٧ / ٧٣٥
			١١٩ / ٧٣٧
البابا ميخائيل الأوّل	عبد الملك بن رفاعة ٢ الوليد بن رفاعة		١٢٥ / ٧٤٣
		يزيد بن الوليد	١٢٦ / ٧٤٤
		إبراهيم بن الوليد	
	حسان بن عتاهية	مروان بن محمد	١٢٧ / ٧٤٥
	حفص بن الوليد ٣		

البطريك	الوالي	الخليفة	السنة
	الحوثره بن سهيل		٧٤٦ / ١٢٨ م
	المغيرة بن عبيد الله		٧٤٩ / ١٣١ م
	عبد الملك بن مروان		٧٥٠ / ١٣٢ م
	صالح بن علي	السفاح	٧٥١ / ١٣٣ م
	أبو عون عبد الملك		
	صالح بن علي ٢	المنصور	٧٥٣ / ١٣٦ م
	أبو عون ٢		٧٥٤ / ١٣٧ م
	موسى بن كعب		٧٥٨ / ١٤١ م
	محمد بن الأشعث		٧٥٩ / ١٤٢ م
	حميد بن قحطبة		٧٦٠ / ١٤٣ م
البابا مينا	يزيد بن حاتم		٧٦٧ / ١٥٠ م
	عبد الله بن عبد الرحمن		٧٦٩ / ١٥٢ م
	محمد بن عبد الرحمن		٧٧٣ / ١٥٦ م
البابا يوانس الرابع	موسى بن علي		٧٧٤ / ١٥٧ م
	عيسى بن لقمان	المهدي	٧٧٥ / ١٥٨ م
	واضح مولى أبي جعفر		٧٧٨ / ١٦١ م
	منصور بن يزيد		٧٧٩ / ١٦٢ م
	يحيى بن داود		
	سالم بن سواده		٧٨١ / ١٦٤ م
	إبراهيم بن صالح		٧٨٢ / ١٦٥ م
	موسى بن مصعب		٧٨٤ / ١٦٧ م
	عسامه بن عمرو		٧٨٥ / ١٦٨ م
	الفضل بن صالح	المهادي	٧٨٦ / ١٦٩ م
	علي بن سليمان		
	موسى بن عيسى	هارون الرشيد	٧٨٧ / ١٧٠ م
			٧٨٧ / ١٧١ م

البطريك	الوالي	الخليفة	السنة
	مسلمة بن يحيى		٧٨٨ / ١٧٢
	محمد بن زهير		٧٨٩ / ١٧٣
	داوود بن يزيد		٧٩٠ / ١٧٤
	موسى بن عيسى ٢		٧٩١ / ١٧٥
	عمر بن مهران ١		٧٩٢ / ١٧٦
	إبراهيم بن صالح ٢		
	عبد الله بن المسيب		
	اسحاق بن سليمان		٧٩٣ / ١٧٧
	هرثمة بن أعين		٧٩٤ / ١٧٨
	عبد الملك بن صالح		
	عبيد الله بن المهدي		٧٩٥ / ١٧٩
	موسى بن عيسى ٣		
	عبيد الله بن المهدي ٢		٧٩٦ / ١٨٠
	إسماعيل بن صالح		٧٩٧ / ١٨١
	إسماعيل بن عيسى		٧٩٨ / ١٨٢
	الليث بن الفضل		
			٧٩٩ / ١٨٣
	أحمد بن إسماعيل		٨٠٣ / ١٨٧
	عبد الله بن محمد		٨٠٥ / ١٨٩
	الحسين بن جميل		٨٠٦ / ١٩٠
	مالك بن دهم		٨٠٨ / ١٩٢
	الحسن بن الترخاخ	الأمين	٨٠٩ / ١٩٣
	جابر بن الأشعث		٨١١ / ١٩٥
	عباد بن محمد	المأمون	٨١٣ / ١٩٧
	المطلب بن عبد الله		٨١٥ / ١٩٨
	العباس بن موسى		
	المطلب بن عبد الله ٢		٨١٥ / ١٩٩

البابا مرقس الثالث

البطريك	الوالي	الخليفة	السنة
	السري بن الحكم		م٨١٦ / ٢٠٠
	سليمان بن غالب		م٨١٦ / ٢٠١
	السري بن الحكم ٢		
	أبو نصر بن السري		م٨٢٠ / ٢٠٥
	عبيد الله بن السري		م٨٢١ / ٢٠٦
	عبد الله بن طاهر		م٨٢٦ / ٢١١
	عبد الله بن طاهر		م٨٢٧ / ٢١٢
	عيسى بن يزيد المعتصم		م٨٢٨ / ٢١٣
	عيسى بن يزيد عمير بن الوليد		م٨٢٩ / ٢١٤
	عيسى بن يزيد ٢		
البابا سيمون	عبدويه بن جبلة		م٨٣٠ / ٢١٥
البابا يوساب الأول	عيسى بن منصور		م٨٣١ / ٢١٦
	كيدر نصر	المأمون	م٨٣٢ / ٢١٧
		المعتصم	م٨٣٣ / ٢١٨
	المظفر بن كيدر		م٨٣٤ / ٢١٩
	أشناس		
	موسى بن أبي العباس		
	مالك بن كيدر		م٨٣٩ / ٢٢٤
	علي بن يحيى		م٨٤١ / ٢٢٦
		الوائق	م٨٤٢ / ٢٢٧
	عيسى بن منصور ٢		م٨٤٣ / ٢٢٨
	إيتاخ		م٨٤٥ / ٢٣٠
	هرثمة بن النضر	المتوكل	م٨٤٨ / ٢٣٣
	حاتم بن هرثمة		م٨٤٩ / ٢٣٤
	علي بن يحيى ٢		

البطريك	الوالي	الخليفة	السنة
البابا خائيل الثاني	المنتصر		٨٥٠ / ٢٣٥ م
	إسحاق بن يحيى		٨٥١ / ٢٣٦ م
	خوط عبد الواحد		٨٥١ / ٢٣٧ م
البابا قسما الثاني	عنيسة بن إسحاق		٨٥٢ / ٢٣٨ م
	يزيد بن عبد الله		٨٥٦ / ٢٤٢ م
البابا شنوده الأول			٨٥٩ / ٢٤٥ م
		المنتصر	٨٦١ / ٢٤٧ م
		المستعين	٨٦٢ / ٢٤٨ م
		المعتز	٨٦٦ / ٢٥٢ م
	مراحم بن خاقان		٨٦٧ / ٢٥٣ م
	أحمد بن مزاحم		٨٦٨ / ٢٥٤ م
	أزجور		



الفصل السادس

كنيسة مصر

في الدولتين الطُولونيَّة والإخشيديَّة

أولاً: الدَّولة الطُّولونيَّة

منذ سنة ٨٦٨م خضعت مصر لحكم الطولونيين، إذ لما نُصَّب أحمد بن طولون (٨٦٨ - ٨٨٣م) والياً على مصر من قِبَل الخليفة العباسي، تحدَّى سُلطة الخلافة التي كانت ضعيفة آنذ، فأعلن استقلاله بمصر، ونجح في ضم سوريا إليها، وفي تأسيس دولة طولونيَّة دامت نحو ٣٨ عاماً.

وشيد مدينة "القطائع" سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م) شمال "العسكر" لتكون عاصمة للدَّولة الجديدة. وكانت هذه أوَّل مرَّة يستقل فيها والي مصر عن الخلافة في خارج مصر في العصر الإسلامي.

وحقَّ هذه الفترة التي يعتبرها المؤرِّخون أوَّل فترة استقلال لوالي مصر عن أي نفوذ خارجي من انتهاء العصر الفرعوني، كان يحكم فيها مصر غرباء ليسوا من بني وطنها. فأحمد بن طولون هو الجندي التُّركستاني الذي جاء أبوه إلى بغداد أسيراً، فلم يلبث الابن أن شبَّ في حرس البلاط العباسي حيث تنهياً الفرص أمام هؤلاء الجنود المحظوظين لحكم الولايات الإسلاميَّة، وكانت مصر - أغنى الولايات وأعرقها - من نصيب أحمد، فاستقل بها عن دولة الخلافة، وأقام فيها إمبراطوريَّة وصلت حدودها إلى الأناضول^(١).

١ - جمال بدوي، نظرات في تاريخ مصر، سلسلة تاريخ المصريين ٢٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م، ص ٩٠.

وتولى خمارويه بن أحمد بن طولون (٨٨٣ - ٨٩٥ م) حكم البلاد^(٢)، ولم يقوى خلفاؤه على الاحتفاظ باستقلالهم. عصر فعادت إلى حكم العباسيين مرةً أخرى (٩٠٥ - ٩٣٥ م).

ولمع في القرن التاسع في عهد الدولة الطولونية المهندس القبطي النابغة "ابن كاتب الفرغاني"^(٣)، وهو الذي شيّد الجامع الكبير المسمى "جامع ابن طولون"، واستخدم في بنائه عامودين اثنين فقط، بدلاً من اقتراح المهندسين والخبراء الذين رأوا أن الجامع يحتاج في بنائه إلى ثلاثمائة عامود لا يسهل الحصول عليها إلاّ بهدم عدد عظيم من الكنائس والمعابد القديمة. فلقد نقل العرب من المعابد والكنائس القديمة كثيراً من الأعمدة والتيجان، استخدموها في مساجدهم وبيوتهم كما يتجلى من وجود الأعمدة القبطية في جامع عمرو^(٤). وأتم المهندس القبطي البناء في سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م)، وهو نفسه الذي قام ببناء مقياس النيل، وكذلك الصّهرج المعروف بصهرج بن طولون.

ومنذ بداية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي تزايد دخول أعداد كبيرة من الأقباط في الإسلام، فبدأت أهمية الجزية تتضاءل. بمرور الزمن، فبعدما كانت تمثل أحد مصادر الدخل الرئيسية في صدر الإسلام، بدأ مقدارها يتناقص نتيجة لدخول أهل الذمة في الإسلام، لذلك أصبحت

٢- يحكي تاريخ البطارقة عن خمارويه أنه ذهب إلى وادي هيب ودخل بيعة القديس أبو مقار ونظر جسده المقدس، فأمر بخله من كفته، فمسك شعر لحيته، ففتح عينيه في وجهه، فوقع على ظهره، وأقام ساعة مغشياً عليه لا ينطق، فحملوه إلى خيمته وأخذوا من زيت قنديل أبو مقار فمسحوا به جبينه... (المجلد الثاني الجزء الثاني ص ٧٧).

٣- من قرية تُدعى "فراغونيس" اندثرت معالمها؛ وكانت قرية من مدينة كفر الشيخ الحالية.

٤- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٧٧

الجزرية تُسمى فيما بعد "جوالي" وذلك في مستهل الدولة الفاطميّة في مصر، وكان لها ديوان خاص بها عُرف بـ "ديوان الجوالي" (٥).

حالة الأقباط في الدولة الطولونيّة

ومع ازدياد أعداد الدّاخلين في الإسلام، أصبح القبط أقلّيّة، إلّا أنّها كانت أقلّيّة كبيرة العدد، حيث وُجدت جاليات كبيرة في مدينة الفسطاط والقطائع، وكان لأعيان هذه الطّائفة القبطيّة مكاتبتهم الاجتماعيّة في البلاد، وتشير أوراق البردي العربيّة إلى ظاهرة الزّواج بالذمّيّات، وهذه الظّاهرة شاعت في العصر الطولوني (٦).

وعاصر البابا خائيل الثالث (٨٨٠ - ٨٩٤ م) الدّولة الطولونيّة، وكان البابا البطريك قد اجتمع مع أساقفته وحرّموا أسقف سخا لمخالفات كنسيّة (٧)، ويصفه كتاب سير البيعة المقدّسة بالقول: "كان على كرسي سخا أسقف شرير"، وهذا مضى إلى أحمد بن طولون، وكان متغطرساً محباً لجمع المال، فشكا إليه البطريك، ووشى به إليه أن لديه مالاً كثيراً. فأنفذ وأحضر البطريك وخاطبه بالقول:

"أنت تعلم ما نحتاج اليه من الاموال برسم الحمل الى الخليفة ببغداد لأنه صاحب هذه الارض، وبخاصة لما عليه من الحروب، وانتم يا مقدمي النصرارى تحت سلامه، وما تحتاجوا الى ذهب ولا فضة الا خبز تاكلوه وثوب تلبسوه، وقد عرفت ان لك مال كثير ... فسكت البطرك ولم

٥- د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٥٥

٦- نفس المرجع، ص ١٦٠

٧- لست أبغى من ذكر ذلك الحادث سوى الحوار الآتي ذكره، والذي دار بين البابا وأحمد بن طولون، والمظالم التي وقعت على البابا بعد ذلك، والتي كان سببها هو ذلك الحادث عينه.

يدري ماذا يجيبه، ثم قال له بسكينة وتواضع: ان مملكتكم ليس فيها ظلم، وانتم قوم تعرفون الحق، وانا انسان ضعيف لا املك ذهبا ولا فضة ولا شيا مما سعى به اليك، وعظمتك تعلم انا قوم مامورين ان لا نكثر كنوزا على الارض ولا نهنم بغد... فلما سمع احمد ابن طولون ذلك غضب وقال حقا ان اكرامي لك اوجب انكارك على بمالك، وكلمن هو خارج عن ديننا اذا اكرم لا يعرف الاكرام. ثم امر بحبسه^(٨).

وظل البطريك محبوساً سنة كاملة، وفشلت كل المساعي لإطلاق سراحه، بل في ذات مرة حينما عُرض على بن طولون أمر البطريك، والحال الذي وصل إليه الأقباط، وأنه قد مات جماعة من الأساقفة بإقليم مصر، ولم يقام عوضهم، وليس لهم صلاة في كنائسهم، ولا من يحكم في أمورهم، قال "انا اقتله فانه يجالد على!!". وأخيراً بوساطة أرخبن مسيحي يُسمى يونس، وكان كاتباً لأحمد المارداني وزير ابن طولون، ترجى وزيره أن يذكر البطريك عند ابن طولون، وأخيراً أُطلق سراحه على أن يدفع عشرين ألف ديناراً. وإذا لم يجد البطريك ما يدفعه رسم الأساقفة بالسِّمونية، وجمال يجمع المال من أنحاء البلاد، وباع كثيراً من أوقاف الكنائس، ومنذ هذا التاريخ بدأ أخذ المال من الأساقفة على الشرطونية "ونقضوا بفعلهم هذا قانون الابا الخواريون"^(٩). ومات ابن طولون وكان البطريك حزينا على ما انحل من قانون البيعة وعلى ما يأتي بعده على كرسيه من حال الشرطونية^(١٠). فمع أحمد بن طولون وبسببه ظهرت السِّمونية في كنيسة مصر^(١١).

٨- سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مرجع سابق ص ٧١

٩- نفس المرجع، ص ٧٣

١٠- نفس المرجع، ص ٧٦

١١- نفس المرجع، ص ١٥٤

عودة مصر للخلافة العباسيّة

وبعد زوال الدّولة الطّولونيّة عادت مصر تابعة للخلافة العباسيّة في سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م وذلك على أثر سقوط الدّولة الطّولونيّة على يد القائد العباسي محمد بن سليمان الكاتب. ولما دخل هذا القائد مدينة الفسطاط دعا على المنابر للخليفة المكتفي بالله، وكتب إليه يشرّه بفتح مصر.

حرق القطائع ونهب الفسطاط

أمر محمد بن سليمان بإحراق القطائع فأحرقت، وأطلق سراح المسجونين، ونهب جنده مدينة الفسطاط، واستباحوا النّساء وأتوا من الفطائع والمنكرات ما تقشعر له الأبدان. وذاق المصريون على يدي محمد بن سليمان الأمرين، ثم خرج من مصر في نفس السّنة بعد أن قضى بها أربعة أشهر، بعد أن قضى على دولة الطّولونيين، وأخرج معه كل من بقى فيها من أتباع بني طولون ومواليهم وكبار الموظفين في دولتهم، وحمل معه من الأموال والخيل والمنسوجات النفيسة والذهب وغير ذلك الشّيء الكثير عدا مليوني دينار (نحو مليون جنيه)^(١٢).

وتتابع الولاة في ولاية مصر، وهم يتبعون الخليفة العباسي في بغداد. وتشدّدوا في جباية الجزية من الأقباط. ففي سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م كانت تؤخذ الجزية من الرّهبان والأساقفة والضّعفاء والمساكين، ومن جميع الدّيّارات بأسفل مصر والصّعيد، ومن رهبان طور سيناء، وسافر قوم من الرّهبان إلى العراق واستغاثوا بالمقتدر فكتب لهم ألا تؤخذ الجزية من

الرُّهبان ولا من الأساقفة، وأن يجري أمرهم على ما كانوا عليه^(١٣).

ثانياً: الدَّولة الإخشيديَّة

تُنسب الدَّولة الإخشيديَّة (٩٣٤ - ٩٦٨ م) التي حكمت مصر نحو ٣٤ سنة إلى محمد بن طغج الإخشيد (٩٣٤ - ٩٤٦ م). والإخشيد هو اللُّقب الذي منحه الخليفة العباسي الرَّااضي بالله لمحمد بن طغج في سنة ٩٣٨ م. ولفظ الإخشيد يعني "ملك الملوك" بلغة إقليم فرغانة، وكان هو لقب ملوك هذه الأسرة^(١٤). ففي سنة ٩٣٤ م تولى محمد الإخشيد ولاية مصر من الخليفة العباسي وسرعان ما استقل بمصر وأسس بعد قليل أسرة مستقلة هي الدَّولة الإخشيديَّة.

وحتى محمد بن طغج الإخشيد الذي سلك نفس الطَّريق الذي سلكه سلفه كان أجنبياً عن البلاد وليس من أهلها، وُلد في فرغانة من بلاد ما وراء النَّهر، وألقت به الريح إلى أرض الكنانة^(١٥).

وقد خلفه في حكم مصر ابنه أبو القاسم أونوجور ثم أبو الحسن علي بن الإخشيد. وكان القائم بأمر مصر والمدبِّر الحقيقي لها في عهد كل من هذين الابنين هو العبد الحبشي الخصي أبو المسك كافور، الذي كان أبوهما قد اشتراه ثم أخذ يرتقي في مناصب الدَّولة حتى أصبح قائداً للجيش ومربياً لهما. وصارت له الوصايا عليهما، ثم أصبح بعد وفاتهما الحاكم الفعلي والاسمي لمصر من سنة ٩٦٦ - ٩٦٩ م، تابعا للعباسيين. وموته يحكم

١٣ - نفس المرجع، ص ٣٣٥

١٤ - نفس المرجع، ص ٥٦

١٥ - جمال بدوي، نفس المرجع السابق، ص ٩٠

أحمد الإخشيد حفيد مؤسس الأسرة، ولم يبلغ سن الرشد، فانتهزها الفاطميون فرصة لغزو مصر والاستيلاء عليها.

لما انقضت دولة الطولونيين رجعت مدينة "العسكر" إلى شأنها الأوّل حيناً من الدهر، ثم قضى عليها في أواخر القرن العاشر عندما جاء الفاطميون إلى مصر وبنوا لهم عاصمة جديدة وهي "مصر" (القاهرة). وقد أخذ أهل البندقيّة الوصف (القاهرة) ولم يأخذوا اسم (مصر) ونقلوه محرّفاً إلى لغات أوروبا وهو (كايرو - Cairo) (١٦).

حالة الأقباط في عصر الإخشيديين

في سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٤م انقسم المسيحيون على أنفسهم في تنيس انقساماً كبيراً، فقد مات أسقف تنيس وكان بينه وبين البطريك (١٧) وحشة، فولى الأخير على تنيس أسقفاً من أنصاره من أهلها، يسمى ثاؤفيلس، ولكن أقباط تنيس انقسموا حزبين، أحدهم مع البطريك والأسقف، والآخر عليهما، ووصل الخلاف إلى حد أن الأب لم يكن يكلم ابنه، ولا المرأة تخاطب بعلها، وانتشت الحرومات بينهم، وصارت القرابين تنتقل من هيكل إلى هيكل وتكسر على المذابح، ويستعين كل فريق منهم على الآخر بالسُلطان، فتدخل الإخشيد، وأرسل قائداً على رأس جماعة من الجنود وقبض على البطريك وعلى الأسقف ثاؤفيلس، وختمت الكنيسة، ومنع الناس من الصلوة فيها وحمل ما في خزائنها من الأموال والتحف إلى الإخشيد، ولم يأمر بإعادتها إليهم إلا بعد وساطة

١٦- د. ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، مرجع سابق، ص ٢٩٦

١٧- هو البابا مقاره الـ ٥٩ من باباوات الكرازة المرقسيّة.

طائفة من وجوه القبط وكتابهم^(١٨).

لقد كان الخلاف بين المسيحيين ينتهي إلى الأمير الإخشيدي في بعض الحالات، فيفصل فيه بشئ من العنف، وقد ينتهز الفرصة فيعمل على أن ينال من أموال الكنائس أو كنوزها^(١٩).

وكان في مصر على عهد الإخشيديين كثير من المسيحيين، أغلبهم من القبط الذين ظلوا على دينهم، كما كان بها بضعة آلاف من اليهود. وكان لأهل الذمة محاكمهم الكنسيَّة الخاصة بهم، وكانوا يدفعون الجزية كل بحسب الطبقة التي ينتمي إليها. ولا نسمع في العصر الإخشيدي شيئاً عن التزام أهل الذمة بالقوانين الخاصة بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في اللباس والركوب. والرَّاجح أن القبط كانوا لا يزالون يحتفظون بلغتهم القبطيَّة، وأنهم لم يتركوها إلا حوالي أواخر القرن الرَّابِع الهجري/ العاشر الميلادي^(٢٠). وقد تولى خراج مصر للدولة الإخشيديَّة الكاتب القبطي ابن عيسى بقطر بن شغا. فكان أهل الذمة لازالوا يعملون في جباية الخراج من البلاد، بوصفها من الأعمال التي لم يكن ميسوراً أن يُستغنى عنهم في أدائها^(٢١).

ولم يخل عصر الإخشيديين من التعصُّب الدِّيني، فكثيراً ما كانت تصادَر أموال الكنائس، وكان المسيحيُّون يُمنعون من ترميم كنائسهم القديمة إن لم يكن بأمر السُّلطان بسبب الدَّهماء، وكان بطاركة الكنيسة يُعاملون أحياناً معاملة غير إنسانيَّة، لا تتفق مع مركزهم الدِّيني.

إلاً أن العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة كانت طيِّبة في معظم

١٨ - د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، مرجع سابق، ص ٢٤٢

١٩ - نفس المرجع، ص ٣٣٤

٢٠ - نفس المرجع، ص ٢٣٩

٢١ - نفس المرجع، ص ١٧٧

الأحيان. وكان الاضطهاد ينشأ حين يقصد المسلمون محاربة سيطرة أهل الذمة على الشؤون الماليّة للبلاد، أو حين يحتج المسلمون على السّماح للمسيحيين بتعمير الكنائس، أو حين ينتصر البيزنطيّون على المسلمين في أطراف الشّام.

ولقد تردّت الحالة الرّوحية للأقباط في ذلك الوقت، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الطوائف. فقد كان البطريك يدفع للإسكندرانيّين ألف دينار كل سنة، وكانوا يأخذون عليه مكتوباً بخط يده يفيد ذلك حتى يوافقوا على رسامته. وإذا ضاق الأمر بواحد من البطاركة ولم يقدر أن يدفع المبلغ المحدد سنوياً، كانت النتيجة أحياناً مؤسفة نغض الطرف عن ذكرها، والبابا ثاوّفانيوس (٩٥٣ - ٩٥٦ م) مثال لذلك^(٢٢).

وفي نهاية عصر الإخشيديين اجتاحت البلاد موجة غلاء عظيم، ”حتى ان كورة مصر خلت من الناس لكثرة الموت والجوع الذي كان ... وخربت عدة من كراسي الاساقفة لخلوها من الناس، ولم يقام لها اساقفة، بل اضيفت الى الكراسي العامرة المجاورة لها ...“^(٢٣).

الأعياد القبطية في عصر الإخشيديين

وكان الشّعب في مصر الإخشيديّة يحتفل بأعياد المسلمين وأعياد النّصارى، فضلاً عن المناسبات التي تحتفل فيها الأسرات بأعيادها الخاصة. واشتهر عيد الغطاس آنذاك باحتفال الأقباط به احتفالاً كبيراً، فكان من التّقاليد القديمة أن يركب صاحب شرطة الفسطاط ليلة الغطاس في مركب كبير وتوقد بين يديه الشّموع والمشاعل فيطوف الشّوارع وينادي في

٢٢ - سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٨٣

٢٣ - نفس المرجع، ص ٩٠

النّاس ألاّ يختلط المسلمون بالتّصارى في تلك اللّيلة، وألاّ يكدّروا عليهم عيدهم. وذلك أن التّصارى في سحر تلك اللّيلة يخرجون إلى شاطئ النّيل ويغطسون فيه. وكانت بعض طوائفهم تخرج من كنيسة ميكايل بقصر الشّمع إلى شاطئ النّيل في جمع وفير بالقراءة الملحّنة والصّلبان المشهورة، وتصلّي، ويخطب الأسقف فيهم ويدعو للسّلطان^(٢٤).

وقد كتب المسعودي عن الاحتفال بليلة الغطاس بعد أن شاهده بعينه، قال: ”وليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها، لا ينام النّاس فيها. وهي ليلة إحدى عشرة تمضي من طوبة وستة من كانون الثاني (٦ يناير) ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة (٩٤٢م) ليلة الغطاس بمصر والإخشيديّ محمد بن طغج في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الرّأكبة للنّيل، والنّيل مطيف بها. وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشّمع. وقد حضر النّيل تلك اللّيلة مئات آلاف من النّاس المسلمين والتّصارى، منهم في الزّوارق، ومنهم في الدور الدّانية من النّيل، ومنهم على الشّطوط لا يتناكرون، ويحضرون كل ما يمكن إظهاره من المأكّل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضّة والجواهر والملاهي والعزف والقصف. وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورا، ولا تُعلّق فيها الدّروب، ويغطس أكثرهم في النّيل، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ من الدّاء^(٢٥)“.

وكان القبط - ولا زالوا - يحتفلون بعيد الميلاد في التّاسع والعشرين من شهر كيهك - الذي كان يوافق آنذ يوم ٢٥ ديسمبر قبل التّعديل الغربي للتّواريخ - والمعروف أن الفاطميين كانوا يشتركون في الاحتفال

٢٤- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، مرجع سابق، ص ٢٥١
٢٥- المسعودي، مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٤، مقتبس عن: د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، مرجع سابق، ص ٢٥٢.

بهذا العيد ويفرَّقون فيه الطَّعام والحلوى على كبار الموظفين، وليس لدينا من التَّصوُّص ما يؤكِّد اشتراك الإخشيديين مع القبط في الاحتفال بهذه الذِّكْرَى^(٢٦). إضافة إلى الأعياد الأخرى مثل خميس العهد، وعيد التَّبروز أوَّل السَّنَةِ القبطيَّة.

موجة اضطهاد لمسيحيي بيت المقدس

وبعد وفاة علي بن الإخشيد واستقلال كافور بالأمر أن وقع المسيحيون في بيت المقدس ضحيَّة موجة عارمة من الاضطهاد، وابتزاز المال من البطريرك، بواسطة الوالي محمد بن إسماعيل الصنَّاجي. وحين اشتكى البطريرك إلى كافور، كبر الأمر في عين الوالي فكان مصير البطريرك هو القتل، كما اشترك المسلمون مع اليهود في الاعتداء على الكنائس.

ومما يؤسِّف له أن المراجع التَّاريخيَّة لا تذكر لنا ما فعلته الحكومة المركزيَّة في مصر لرد هذا الاعتداء على طائفة من رعاياها. وأكبر الظَّن أنها لم تفعل شيئاً، ولا عجب فقد كانت الدَّولة الإخشيدية تكاد تحتضر في ذلك الوقت^(٢٧).

واستمرت الأسرة الإخشيدية تحكم البلاد حتى أُنهي حكمها الفاطميون. ويرى بعض الباحثين أن قيام الدَّولتين الطولونيَّة والإخشيدية كان ثمرة من ثمرات الثورات التي حدثت في مصر لمقاومة النفوذ العبَّاسي. وكان المسيحيون في مصر في تلك الفترة يسكنون مدينة بابلون (مصر القديمة) التي كانت معتبرة أقدم مدن القطر المصري.

٢٦- نفس المرجع، ص ٢٥٢

٢٧- نفس المرجع، ص ٣٣٦

الفصل السَّابع
كنيسة مصر
في عصر الفاطميين

يبدأ حكم الدَّولة الفاطميَّة لمصر (٩٦٩ - ١١٧١م) عندما فتح البلاد القائد جوهر الصَّقلي سنة ٩٦٩م. وأما أبو اليُمن قزمان ابن مينا وزير كافر، فإنه وجد نعمة قدَّام جوهر، فأبقاه في منصبه ناظراً في كورة مصر، لما اشتهر به من الثَّقة والأمانة التي عُرُفت عنه، وشهد له بها ثقات مصر^(١). وظل أبو اليُمن قزمان وزيراً للبلاد حتى زمن البابا أبرام بن زرعة (٨٧٦ - ٩٧٨م). ويقول عنه أيضاً كتاب سير البيعة المقدَّسة: "كان رجل دين بتول لم يتزوج قط، ولم يسمع عنه ان له صبوه ويفعل الخير مع كل الناس ومشكور من كل احد ورزق نعمة ومحبة من المعز بحسن سيرته ونيته وقوة امانته، وكان يقبل قوله ومشورته، وجعله متولي استخراج مال مصر^(٢)".

ولقد أوغر ابن كلِّس اليهودي صدر المعز ضد أبو اليُمن، حتى قبض عليه وألقاه في السَّجن، وبعد أن تكشَّفت مؤامرة ابن كلِّس اليهودي ضد أبو اليُمن قزمان النَّصراني، أفرج عن أبو اليُمن وأخلع عليه^(٣).

وفي العصر الفاطمي شُيِّدت مدينة القاهرة، والجامع الأزهر. وهنا سنتوقف عن الاسترسال قليلاً لنلقي بعض الضَّوء على القاهرة، العاصمة الرَّابعة لمصر بعد الفتح العربي لها.

١ - سير البيعة المقدَّسة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٨٨

٢ - نفس المرجع، ص ٩٨

٣ - نفس المرجع، ص ٩٨، ٩٩

مدينة القاهرة العاصمة الرَّابِعة لمصر في العصر الإسلامي

القاهرة هي العاصمة الرَّابِعة لمصر في أعقاب عواصمها الإسلاميَّة الثلاث الأولى: الفسطاط - العسكر - القِطائع^(٤).

القاهرة

هي عاصمة البلاد الحاليَّة، أكبر مدن إفريقيا. وقد قامت القاهرة بالقرب من المدينة الرومانيَّة الحصينة "بابلون"، وفي مقابل "منف" إحدى عواصم مصر القديمة التي قامت على الشَّاطِئِ المقابل للنَّيل. ويقطن القاهرة اليوم حوالي ٧ مليون نسمة عدا من يفد إليها كل يوم من أنحاء البلاد المختلفة لقضاء مصالحهم التي تركَّزت فيها. ومعدل النمو السكاني في القاهرة هو أقل معدل نمو للبلاد إذ يبلغ ١,١%^(٥).

شَيَّد القائد جوهر مدينة القاهرة سنة ٩٦٩م وجعلها عاصمة البلاد، وأحاطها بسور جدَّده بدر الجمالي وزير المستنصر سنة ١٠٨٧م، وجعله من الأحجار الصُّخمة. وكان بالسور ثمانية أبواب لا تزال ثلاثة منها باقية حتى اليوم هي: باب زويلة، وباب الفتوح، وباب النَّصر. واضطر جوهر إلى هدم دير بالقرب من المدينة الجديدة، فعمرَّ ديراً آخر سُمي بدير الخندق عوضاً عن الدَّير الذي هدمه.

وبنى جوهر الصقلي أيضاً بالقاهرة الجامع الأزهر سنة ٩٧٢م نسبة إلى فاطمة الزَّهراء، لينشر المذهب الشَّيعي ويفرضه على شعب يتبع

٤- كانت الفسطاط والعسكر والقِطائع تدعى "مصر"، وكثيراً ما يرد في المراجع تعبير "مصر والقاهرة". ومصر هنا لا تعني الوطن كله بل هذه المدن الثلاث على وجه التحديد.
٥- أقل معدل نمو سكاني بعد القاهرة يتركز في محافظات بورسعيد، السويس والإسكندرية على التتابع.

المذهب السُّنِّي^(٦).

وفي القاهرة الفاطميَّة وُجدت أحياء خاصة بأهل الذِّمة، إلى جانب أحياء أخرى للرُّوم، وثالثة خاصة باليهود^(٧).

ولحماية المدينة، بنى صلاح الدِّين الأيوبي سنة ١١٧٩م قلعة الجبل (القلعة) التي لا تزال تطل على المدينة حتى اليوم. ولقد فشل الصَّلبيُّون في اقتحام القاهرة إثر هجوم عليها في القرن الثاني عشر.

وبالقاهرة في منطقة مصر القديمة، كنائس قديمة تعود إلى القرن الرَّابِع الميلادي. وأقدم جامع بها هو جامع عمرو بن العاص الذي يعود إلى القرن السَّابِع الميلادي، وقد بناه المهندس القبطي بقطر.

وبالقاهرة كثير من المتاحف الفرعونيَّة والقبطيَّة والإسلاميَّة. وتمتد القاهرة حالياً على ضفتي النَّيل حوالي ٣٠ كيلومتراً، ويربط الضفتين ببعضهما عدَّة كباري^(٨). وألحقت بالمدينة ضواحٍ جديدة متعدِّدة زادت من مساحتها بقدر كبير.

الْفُسْطَاط

بنى عمرو بن العاص مدينة "الْفُسْطَاط" في الفضاء الواقع شمالي حصن بابليون. ويذكر المقرئزي أن موضع الفُسطاط كان فضاء ومزارع

٦- انظر المذاهب الإسلامية في الملحق الثاني من ملاحق الكتاب.

٧- دكتور سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ١٦٤.

٨- منها: كوبري التحرير (قصر النيل) وقد أنشئ سنة ١٨٧٥، وكوبري الزمالة سنة ١٩٠٧م، وكوبري الخيزة سنة ١٩٠٨م، وكوبري ٢٦ يوليو (أبو العلا سابقاً) سنة ١٩٠٩م، وكوبري الجلاء سنة ١٩١١م، وكوبري الجامعة سنة ١٩٥٧م.

فيما بين النيل وجبل المقطم الذي يقع شرقي مصر. وكان بين الحصن والجبل عدة كنائس وأديرة. وكانت الفسطاط تقع في المنطقة المحيطة بجامع عمرو اليوم، يحدها شرقاً سفح جبل المقطم، وشمالاً قم الخليج، وغرباً النيل. ولاشك أن الذين اختطوا المدينة الجديدة وبنوها كانوا من القبط، إذ لم يكن في العرب عصرئذ من له علم أو دراية بذلك الفن.

وقسّمت مدينة الفُسطاط إلى حطط، كل خطة تسكنها قبيلة، وكان يسكن الحطط من هو من أصل فارسي أو رومي، وهؤلاء كانوا أقلية ضئيلة أما الأكثرية العظمى فكانوا من العرب ولاسيما عرب الجنوب أو اليمينية^(٩). وقد نمت المدينة بعد سنة من إنشائها نماءً سريعاً. وكانت مبانيها في البداية من الطوب اللبن، والدّار من طابق واحد فقط. وفي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي يحدثنا الاسطرخي أن الفُسطاط صارت مدينة على درجة عالية من الرقي المعماري، وأن معظم بنائها بالطوب، حيث بلغ ارتفاع الدّار الواحدة ثماني طبقات.

وقد أثبتت الحفائر الحديثة لأطلال الفُسطاط أن بيوتها كانت غنيّة بوسائل الترف وعلى رأسها المياه الجارية^(١٠).

وبني عمرو منذ تخطيط المدينة جامعاً للعرب سنة ٢١هـ / ٦٤٢م، وهو "جامع عمرو بن العاص" كان لهم بمثابة مسجد يقيمون فيه شعائرهم الدّينية، ومدرسة يتعلّمون فيها الدّين الإسلامي، ومركزاً للقضاء يفصل في منازعاتهم. وظل هو المسجد الوحيد في مصر في عهد الولاة، إلى أن بنى الفضل بن صالح بن علي العباسي في فترة ولايته على مصر من قبل

٩- من المعروف أن غالبية جيوش العرب الفاتحين كانوا من عرب جنوب الجزيرة العربية والذين دُعوا العرب اليمينية.

١٠- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٤٦

الخليفة المهدي، جامع العسكر سنة ١٦٦٩هـ/ ٧٨٦م في مدينة العسكر^(١١).

وَبُنِيَتْ أَوَّلُ كَنِيسَةٍ فِي فُسْطَاطِ مِصْرَ سَنَةَ ٦٨٢مَ أَتْنَاءَ وِلَايَةِ مُسَلِمَةَ بِنِ مَخْلَدٍ عَلَيْهَا (٦٧٦ - ٦٨٢م)^(١٢)، وَذَلِكَ بِجَارَةِ الرُّومِ، وَاحْتِجَ الْجُنُودُ عَلَى مُسَلِمَةَ حَتَّى كَادَ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ شَرٌّ. وَفِي عَهْدِ عَبْدِ الْعَزِيزِ (٦٨٥ - ٧٠٥م) بُنِيَتْ كَنِيسَةٌ مَارَ جَرَجَسَ وَكَنِيسَةٌ أَبَاكِيرَ فِي دَاخِلِ قِصْرِ الشَّمْعِ. أَمَّا الْمَعْرُودَيْنِ اللَّهُ الْفَاطِمِي فَأَمَرَ بِنَاءَ بَيْعَةِ الْقَدِّيسِ مَرْقُورِيُوسَ بِمِصْرَ الْقَدِيمَةِ (الْفُسْطَاطِ) بِنَاءً عَلَى طَلَبِ الْبَابَا أِبْرَامَ بِنِ زَرَعَةَ الـ ٦٢ (٨٧٦ - ٩٧٨م) مِنْ بَابَاوَاتِ الْكَنِيسَةِ الْقِبْطِيَّةِ، وَكَذَلِكَ بَيْعَةَ كَنِيسَةَ الْعِذْرَاءِ الْمَعْلُوقَةَ بِقِصْرِ الشَّمْعِ، وَأَطْلَقَ مَالاً مِنْ بَيْتِ الْمَالِ لِلْإِنْفَاقِ عَلَى بِنَائِهَا، وَذَلِكَ عَقِبَ مَعْجِزَةِ نَقْلِ جَبَلِ الْمَقْطَمِ.

وَمِنَ الْجَلِيِّ أَنْ اسْمَ "الْفُسْطَاطِ" هُوَ اسْمُ أَعْجَمِيٍّ، وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي تَفْسِيرِهِ مُؤَرِّخُو الْعَرَبِ، وَمِنَ الْمَحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ الْاسْمُ (فُسْطَاطِ) مُشْتَقًّا مِنْ لَفْظِ "فُوسَطَاوُن - Fossaton" الْيُونَانِيِّ بِمَعْنَى "الْحَنْدَقِ" أَوْ "الْحَيْمَةِ"، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ اللَّفْظِ اللَّاتِينِيِّ Fossatum حَيْثُ كَانَ عَمْرُو يَتَّخِذُ لِنَفْسِهِ حَيْمَةً يَقِيمُ فِيهَا.

وَفِي زَمَنِ الْبَابَا خَائِيلِ الْأَوَّلِ (٧٤٣ - ٧٦٧م) الـ ٤٦ مِنْ بَطَارِكَةِ الْكَنِيسَةِ الْقِبْطِيَّةِ اشْتَدَّتْ ثَوْرَةُ الْبِشْمُورِيِّينَ فِي مِصْرَ، فَضَاقَ مَرْوَانَ بِنَ مُحَمَّدٍ آخِرَ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةٍ بِهَا، فَدَفَعَهُ الْيَأْسَ وَالرَّغْبَةَ فِي الْإِنْتِقَامِ إِلَى حَرْقِ مَدِينَةِ الْفُسْطَاطِ، فَانْذَرَ أَهْلَهَا بِإِحْلَاءِ الْمَدِينَةِ فِي غَضُونِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَقَسَطَ. وَيَصِفُ الْأَنْبَا سَاوِيرِسَ بِنَ الْمَقْفَعِ، أَسْقَفَ الْأَشْمُونِيْنَ، مَشْهَدَ فِرْعَانَ النَّاسِ وَهَرَبَهُمْ قَبْلَ الْحَرْقِ بِقَوْلِهِ: "وَمَا أَنْ أَحْذِرُ عَازِفَ الْبُوقِ يَعْلَنُ أَهْلِي

١١ - نفس المرجع، ص ٢٤٧

١٢ - نفس المرجع، ص ١٩٢

الْفُسْطَاطُ بوجوب إخلاء المدينة، حتى تملكهم الفرع. فخرجت جمعهم على غير هدى متجهة نحو الجزيرة والجزيرة، وكانوا يتزاحمون على المراكب الرأسية على شاطئ النيل، ويتدافعون بغير وعي، فغرق فيه العديد منهم، كذلك تناسى الناس في رعبهم المرضى والمقعدين والمكفوفين فتركوهم لمصيرهم. وحين تفقد مروان الفسطاط بعد الأيام الثلاثة التي حددها، لم يجد غير هؤلاء العاجزين فلم يشفق عليهم، بل أمر بإشعال النار في المدينة وهم فيها، فراحوا جميعاً ضحية اللهب المتقد. ونظرنا النار صاعدة من الفسطاط، وأخبرونا أن مروان أحرق مخازن غلة وقطن وتين ومخازن الشعير". تلك المحاصيل التي جمعت من الفلاحين الأقباط بالقهر والعنف، يشعل فيها ابن محمد النيران الآن حتى لا تقع في أيدي أعدائه من المسودة (يقصد العباسيين ذوي الرداء الأسود) القادمين لحكم مصر تحت مظلة الدولة العباسية.

وأكلت النار مدينة الفسطاط التي بناها العرب عام ٢٠هـ (٦٤١م)، وأحرقها العرب أيضاً عام ١٣٢هـ (٧٤٩م)^(١٣).

وغرق هذا الاسم في ثنايا التسيان، وحل محله اسم "مصر القديمة"، حيث ظلت قاعدة الديار المصرية حتى بُنيت "العسكر" سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م) التي أنشأها العباسيون.

العسكر

أنشأ العباسيون مدينة "العسكر" شمال شرق "الفسطاط" كضاحية من ضواحيها سنة ١٣٣هـ / ٧٥١م، وُبنِي بها جامع بعد إنشائها بخمس وثلاثين سنة. وبمرور الأيام أتصلت العسكر بالفسطاط وأصبحت

مدينة كبيرة. وأقام أمراء مصر بدار الإمارة في العسكر، والتي ظَلَّت عامرة لأكثر من قرن من الزَّمان من سنة ١٣٣- إلى سنة ٢٥٦هـ (٧٥٠- ٨٧٠م) حتى بنى جوهر الصَّقلي مدينة "القاهرة".

القطائع

شيد أحمد بن طولون مدينة "القطائع" سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م) شمال "العسكر". واعتُبرت أوَّل مدينة ملوكيَّة أنشئت في وادي النيل في العهد الإسلامي إذ كانت مقر حاكم مستقل استقلالاً تاماً لا يربطه بالخليفة العباسي في بغداد غير التبعية الدنيَّة. ولقد تأثر بن طولون التُّركي الجنسيَّة بتخطيط مدينة "سامراء" التي نشأ فيها قبل مجيئه إلى مصر، فقد كانت المدينة مقسَّمة إلى خطط أو قطائع، تضم كل خطة (أي قطعة) منها جماعة من السُّكان، تربط بينهم رابطة الجنس أو العمل.

مصر مقر الخلافة الفاطميَّة

في سنة ٩٧٣م وصل المعز لدين الله إلى القاهرة ومعه رفات أسرته، ونقل الخلافة إليها. وفي عهدهم كثر إنشاء الكنائس والمعابد اليهوديَّة لأن معظم الحُكَّام الفاطميين كانوا من أكثر الحُكَّام تسامحاً تجاه أهل الذِّمة. وكثرت أيضاً أديرة الرَّاهبات بحارة زويلة وحارة الرُّوم وغيرها. وكان القبط في العصر الفاطمي يشكِّلون ثلث سكان مصر^(١٤).

وتجمع كل المصادر المسيحيَّة على أن المعز لدين الله الفاطمي (٩٧٣- ٩٧٥م) كان متسامحاً في سياسته الدنيَّة بوجه عام إزاء أهل الذِّمة، ومع التَّصاري بوجه خاص، إذ لم يتدخل في الشؤون الداخليَّة الخاصَّة

بالكنيسة، علاوة على أنه أقام علاقات طيبة مع رجالها.

ويعزي البعض سبب العلاقة التي توطدت بين الخليفة والأقباط إلى العداء التقليدي بين الفاطميين والرُّوم من جهة، وبين الشيعة والسنة من جهة أخرى. ولكننا نراها أموراً جانبيةً إلى حوار السبب الرئيسي وهو معجزة نقل جبل المقطم التي رآها الخليفة بعينه، وقد راعه ما رأى، وهي المعجزة التي دعاها بعض المؤرخين المسلمين "زعماً" أو "أسطورة" (١٥). ولم نقل أن المعجزة هي سبب العلاقة الطيبة بين الخليفة والبابا أبرآم بن زرعة، لأن العلاقة بينهما كانت حسنة قبلها، ولكننا نقول إنها كانت سبباً في توطيد هذه العلاقة.

وكما علمنا التاريخ دوماً، أنه إذا ما تحسنت الأحوال بين الكنيسة والدولة حيناً، لا بد وأن يزرع الشيطان غماً وكمداً ليسى إلى الكنيسة، حتى لو استخدم في ذلك واحداً من أبنائها. فيذكر كتاب سير البيعة المقدسة:

"إنسان من الاراخنة يعرف بابي سرور الكبير، كان له وجاهة في الدولة، وكان له سراري كثير، فامرّه (البابا أبرآم) باخراجهم فلم يفعل فحرمه، ومنعه من القربان، فتحيّل حتى سقاه سقية قتله، ومضى الى الرب بسلام وبكا عليه الناس (١٦)".

لقد كان هذا الحادث المؤسف في الوقت الذي لا تزال فيه معجزة نقل جبل المقطم ماثلة أمام الأذهان. وهكذا انتهت حياة البابا الذي في عهده تزحزح الجبل من مكانه، لكن ظلت قلوب البعض جامدة لا تتحرك.

وجاء العزيز بالله (٩٧٥-٩٩٦م) ابن الجعز، وكان صديقاً للعلم

١٥- د. سلام شافعي، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ٢٢٢

١٦- سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٩٧

والعُلماء، وفي عهده ازداد رخاء مصر. "وكان على البيع سلامة عظيمة في أيام الملك المعز الى ان مات، وكذلك ايام ولده الذي ملك بعده وهو نزار ابي المنصور العزيز بالله^(١٧)".

الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢١ م)

كان الملك العزيز لله ابن المعز لدين الله قد رُزق ولداً من سرية له رومية وجلس في الملك بعده، ولُقِّب بالحاكم بأمر الله. والله منه براء. وهو يُدعى أيضاً "الإمام المنصور".

كان الحاكم بأمر الله وصمة في جبين الحضارة، ونشازاً في ركبها. وكان كبير القضاة في أيامه طاغياً ظالماً، دعاه سيِّده "القاضي العادل"! ولما مات هذا القاضي الظالم، حزن عليه الحاكم (بغير) أمر الله وأراد أن يكرِّمه فبنى له مسجداً دفنه فيه، وأسماه مسجد القاضي العادل. والغريب في حس شعبنا المرهف أنه لم يعتبره مسجداً يصلِّي فيه، بل اعتبره مجرد مقبرة^(١٨).

كان الحاكم بأمر الله واحداً من سلسلة الحكام الغزاة، طغى وعربد وأباح المحرِّمات وحرمَّ المحلَّلات، وجعل العمل ليلاً، وحظر بعض المأكولات، وانتهك كل المؤسسات والخصوصيات.

فبعد فترة تسامح قصيرة في بداية عهده اشتط في التَّنكيل بأهل الذمة، وألحق بالكثيرين ضرراً بالغاً لم يألوه من قبل^(١٩). وقد عاصره البابا زخارياس (١٠٠٤ - ١٠٣٢ م) الـ ٦٤ من باباوات الكرازة المرقسية.

١٧- نفس المرجع، ص ١٠٠

١٨- صفوت عبد الحليم، مقال في جريدة وطني، ٦ مايو ٢٠٠١ م.

١٩- د. سلام شافعي، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ٢١٦

ويقول عنه المقرئزي: "كان لا يملك نفسه إذا غضب (٢٠)". فأمر بإغلاق الكنائس أولاً، ثم قبض على البابا زخارياس البطريرك الرابع والسّتين، بسبب وشاية واحد من الرهبان يُدعى يوّانس، وأمر بحبسّه واعتقاله لمدة ثلاثة شهور، ثم ألقاه للسّباع الجائعة فلم تؤذّه. وتعرّضت أملاك الكنائس والأديرة وأوقافها وأحباسها للمصادرة مرّات عديدة إبّان الفترة التي تشدّد فيها الحاكم بأمر الله مع أهل الذّمة. فهُدّم الكثير من الأديرة ولم يبق منها إلّا القليل، كما يذكر المقرئزي (٢١)، وفصل كثيراً من الموظفين من أهل الذّمة (٢٢)، وفرض على أهل الذّمة ولاسيّما الأقباط "الشّروط العمريّة" التي سبق لنا ذكرها، وغالى في تنفيذها إلى حد غير معقول. ولن نعيد هنا ما فرضته هذه الشّروط من قيود مجحفة بأهل الذّمة، ولكننا سنورد بعضاً من أنواع المغالاة في تنفيذها كما تفتّق عنها ذهنُ نشكّ في اكمال قواه:

فمن جهة القيود الاجتماعيّة: ألزم أهل الذّمة بلبس الغيار، فإن كان يهودياً وضع على كتفه خيطاً أحمر أو أصفر، وإن كان نصرانياً شدّ في وسطه زناراً وعلّق في عنقه صليباً، وإن كانت امرأة لبست خفين أحدهما أبيض والآخر أسود. وإذا دخل الذّمي الحمام (٢٣) ينبغي أن يكون في عنقه

-
- ٢٠- د. سيّدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذّمة، مرجع سابق، ص ١٥٠.
احتجاز يوماً فقفز قدّامه كلب فحفل الحمار الذي تحته، فأمر بقتل كل كلب في مصر!.
انظر: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة لساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين، مطبوعات جمعية الآثار القبطية: المجلد الثاني، الجزء الثاني، قام على نشره يسى عبد المسيح، وعزیز سوريال عطية، وأسولد برمستر، القاهرة ١٩٤٨م، ص ١٢٤
- ٢١- د. سلام شافعي، أهل الذّمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ٢٣٥
- ٢٢- د. سيّدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذّمة، مرجع سابق، ص ١٥٠
- ٢٣- كانت الحمامات حتى ذلك الوقت حمامات عامة. وكان بناء حمام خاص في أحد المنازل بمثابة حادثة تدوّن في كُتب التّاريخ، مثل الحمام الذي بناه البابا فيلوثاؤس الـ ٦٣ (٩٧٩-١٠٠٣م) لنفسه في داره، وكان يدخلها كل يوم.
انظر: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة لساويرس ابن المقفع

طوق من حديد أو نحاس أو رصاص تمييزاً له عن المسلم.

وكانت سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م هي بداية احتكاك الحاكم بأمر الله بالنصارى فيما يتعلق بتحديد الكنائس. ففي تلك السنة أمر بهدم كنيسة شرع واحد من النصارى في تجديدها بظاهر الفسطاط، فهدم عامة المسلمين ما بُني منها، وأمر الحاكم بأن ينشأ مكانها مسجد جامع عُرف بجامع راشدة، ولما رأى توسعة الجامع، أزيلت مقابر اليهود والنصارى التي كانت ملاصقة له لاستكمال بنائه. كما هُدمت في سنة ١٠٠٣م كنيسة كانتا بجوار الجامع، وبني الحاكم بأمر الله في موضعيهما مسجدين للمسلمين. وشمل الهدم أيضاً كنيسة للملكانيَّة كانتا بحارة الروم بالقاهرة^(٢٤).

وفي سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م أصدر أمراً يلزم النصارى واليهود - دون الخيابة منهم - بشد الزنابير في أوساطهم، ووضع العمام السوداء على رؤوسهم، إذ كان اللون الأسود هو شعار العباسيين وهم العصاة في نظر الفاطميين، وأعلن هذا الأمر في جوامع مصر، فامتثل أهل الذمة لأمر الخليفة في سائر أنحاء الدولة.

وفي سنة ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م اشتدَّت القيود صرامة، فأمر بمصادرة كل ما هو مُحبس على الكنائس من أملاك وعقارات وجعله في الديوان، كما يذكر المقرئزي^(٢٥)، وأحرق العديد من الصُّلبان على باب الجامع العتيق بالفسطاط. وأمر النصارى واليهود - دون الخيابة - بلبس السوداء، وأن يحمل النصارى الصُّلبان في أعناقهم، وأن يحمل اليهود قرامى

أسقف الأشمونين، مطبوعات جمعية الآثار القبطية: المجلد الثاني، الجزء الثاني، قام على نشره يسى عبد المسيح، وعزيز سوربيل عطية، وأسولد برمستر، القاهرة ١٩٤٨م، ص ١١٣
٢٤- د. سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق،

الخشب والجلاجل في أعناقهم.

وفي العام التالي اشترط على النصارى تعليق الصليبان ظاهرة، وعلى اليهود أن تكون قرامى الخشب على هيئة رأس العجل. فأتخذ النصارى صليبان الذهب والفضة، وأنكر الخليفة ذلك، وأمر المحتسبين أن يأمرُوا النصارى بتعليق صليبان الخشب، كما أمر بالنداء في أهل الذمة بأنه من أراد الدُخول في الإسلام فله ذلك، ومن أراد الانتقال إلى بلاد الروم كان آمناً إلى أن يخرج، ومن أراد المقام بمصر فعليه بلبس الغيار والالتزام بما شُروط عليه، فاضطر كثير من أهل الذمة تحت وطأة تلك القيود الصارمة إلى الدُخول في الإسلام.

وفي سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٨م نودي بالأب عيشي اليهود والنصارى إلا بالغيار وإلا تعرضوا للضرب. ويذكر المقرئى أنه في سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م اشتد الأمر على أهل الذمة في إلزامهم لبس الغيار. وفي العام التالي أمر مكرراً التزام أهل الذمة بما فرض عليهم من لبس الغيار. وفي العام الذي يليه أمر باستبدال الزنانير الملونة التي يلبسها الأقباط بزنانير سوداء فقط دون غيرها من الألوان، مع وضع العمامة السود على رؤوسهم.

وفي سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م أصدر الحاكم بأمر الله مرسوماً بهدم كنيسة القيامة في القدس، فهُدمت مباني الكنيسة إلا ما تعذر هدمه، وأزيلت كنيسة مار قسطنطين وكل ملحقاتها، ولم يبق من الآثار المقدسة بكنيسة القيامة سوى أثر الصخرة التي شُيد عليها القبر المقدس، وقد أُصيبت بالتلف من جرأء ضربها بالمعاول، وهُدمت مباني الكنيسة وقُلعت حجراً حجراً وتعرضت للنهب والتخريب. وصودرت جميع أوقافها

وأموالها، وأبيح لعامة المسلمين نهبها ومحو أثرها^(٢٦).

وأتبع قراره بهدم كنيسة القيامة بقرار آخر يقضي بهدم جميع الكنائس والبيع في جميع أقاليم الدَّولة، إلا أنه أمسك عن هدم كثيراً منها خوفاً من أن يقوم شعوب العالم المسيحي بهدم ما في بلادها من مساجد المسلمين كما يذكر المقرئزي^(٢٧).

وفي سنة ٤٠٢هـ/ ١٠١١م أمر النَّصارى واليهود بلبس العمائم السوداء، وأن يحمل كل نصراي في عنقه صليباً من حديد طولُه ذراعاً ووزنه خمسة أرتال، وأن تكون أوزان قرامي الخشب التي يحملها اليهود في أعناقهم على وزن صُلبان النَّصارى. وفي نفس هذه السَّنة نُزعت الصُّلبان وطُمست آثارها من ظاهر الأديرة.

وفي سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م أقطع معظم الأديرة العتيقة^(٢٨) والحديثة بمصر وسائر أقاليم الدَّولة لكل من التمسها. وأحرق بعضها، ووقع الأمر بهدم جميع الكنائس في الدِّيَار المصريَّة، وأحرقَت الكُتُب الموجودة بها. وأقطع ما للكنائس من ربايع وأملاك لجماعة من الخدم الصَّقالبة، ووهب لهم ما في الكنائس من التُّحف والذَّخائر وأواني الذهب والفضَّة وغيرها. ووهب كثيراً من الكنائس لكل من التمسها. فأُنشئ مكان البعض منها مساجد للمسلمين، وتحوَّل البعض الآخر إلى مساجد لهم. كما أمر الحاكم بأمر الله نصارى كل بلدة أن يدفعوا أجور العمَّال الذين قاموا بهدم ونقض ما بها من كنائس. ويذكر المقرئزي أن كنيسة أبي شنوده - كبرى

٢٦- نفس المرجع، ص ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨

٢٧- نفس المرجع، ص ٢٢٨

٢٨- نجت أديرة وادي النظرون من هذا الدمار إذ بلغ الحاكم بأمر الله أن دير أنبا مقار والأديرة القريبة منه في حماية قبيلتي بني قره وبني كلاب العريتين.

الكنائس القبطية بمصر - وكنيسة المعلقة بالفسطاط قد تعرّضتا لنهب ما فيها من الأموال والمصاغ وثياب الدّيّاج، وغير ذلك من التّحف والذخائر وكان شيئاً كثيراً. هذا بجانب ما نُهب من أموال الكنائس والسديّارات في سائر أنحاء الدّولة، فباع النّاس بأسواق مصر كل ما وصلت إليه أيديهم من تلك الثروات والتّحف وتصرفوا في أحباس وأملاك وعقارات الكنائس بالبيع والشراء^(٢٩).

وجدد مرسومه بالتّضييق على أهل الذّمة، فأمر أن تلبس النّصارى واليهود - دون الخيابة - طيالسة سود، وعمائم شديدة السّواد، وأن يعلّق النّصارى في أعناقهم صليان الخشب مضافاً إلى الزّنار في أوساطهم. فلبسوا صليباناً طولها فتر، ثم أمر بعد شهر وجعلها شيراً في شير. وفي نفس السّنة عاد فأمر أن تكون الصّليبان طولها ذراع في عرض مثله، وفتحها ثلثي شير وسمكها أصبع!!.

وذكر الأنبا ميخائيل مطران أتريب أن طول الصّليب كان ذراعاً ونصف على أن يكون وزن كل صليب خمسة أرطال محتوم بخاتم رصاص عليه اسم الخليفة، وأن يعلقوه في رقابهم بحبال من ليف. وأن تكون هذه الصّليبان والقرامى ظاهرة فوق ثياب أهل الذّمة عند خروجهم إلى الأسواق، بحيث يراها النّاس.

ومنع أهل الذّمة من ركوب الخيل، وأمر أن يركبوا البغال والحمير وأن تكون بسروج ولجم غير محلاة بالذهب والفضّة، بل تكون من جلود سوداء، وألاً يركب أحد منهم بركب حديد، بل تكون ركب سروجهم من خشب الجميز. ومنع الملاحين وأصحاب السفن أن يحملوا على سفنهم

٢٩- د. سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق،

أحدًا من أهل الذمّة. وأذن للنّاس في البحث عن المخالفين وتتبّع آثارهم، مما أثار الفزع بين النّصارى وكثرت مخاوفهم، وحلت الطّرقات أياماً لم يُر فيها نصراني، ويروي الأنبا ميخائيل أن نصرارى مدينة تيس ذاقوا الأمرين من تلك القيود، ومن مضايقات المسلمين لهم، فإذا نسى نصراني منهم صليبه ومشى في طرقات المدينة بلا صليب تعرّض للأذى ولقي كثيراً من الإهانة والسّخرية.

وفي سنة ٤٠٤هـ / ١٠١٣م أمر رعاياه من أهل الذمّة بالانتقال إلى بلاد الرّوم أو النوبة أو الحبشة، أو التزام الغيار إذا رغبوا في البقاء في مصر، فلجأ الكثير من النّصارى تحت وطأة تلك القيود وصرامتها إلى نزع الغيار والصّليب الرّنار والتشبه بالمسلمين، والتّظاهر بالإسلام ليظن من يراهم أنهم قد اعتنقوا الإسلام.

وفي السّنوات ٣٩٨هـ، ٣٩٩هـ / ١٠٠٧م، ١٠٠٨م، صدرت أوامر جديدة تميّز أهل الذمّة عن المسلمين عند دخولهم الحامّات العامة^(٣٠).

وفجأة في سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م عاد إليه رشده، فأصدر سجلاً إلى بطريرك بيت المقدس بحفظ دور العبادة الخاصة بأهل الذمّة، والمنع من نقضها، وأعاد أوقاف كنائس بين المقدس إليها. وتراجع عن تشدّده وأصدر عدّة مراسيم تبيح للأقباط استرداد ما أخذ من أوقاف الكنائس والأديرة. وسمح لهم ببناء كنائسهم التي هُدمت، والتّعبّد علانية في الكنائس والأديرة، وحثّهم على إعادة بنائها. وتعاطف مع الرّهبان، ونشأت صداقة وطيدة بينه وبين راهب يدعى برين كان قد اعتنق الإسلام ثم ارتد إلى النّصرانيّة في خلافته! وكثرت زيارته للرّهبان في أواخر أيامه

وليس زي الرهبان. وأذن لمن دخل في الإسلام كرهاً أن يرتد إلى دينه، فارتد آلاف من النصارى ممن كانوا قد تظاهروا بالإسلام، ويروى عن الحاكم قوله في هذا الصدد: "نزه مساجدنا عن لائية له في الإسلام".

ويرى بعض المؤرخين أن رجوع الحاكم عن شدته مع أهل الذمة في آخر أيام حكمه دليلاً على خروجه عن الإسلام^(٣١).

وفي نفس هذه السنة - ١٠٢٠م - اختفى الحاكم بأمر الله في ظروف غامضة، ولم يعرف أحد مكانه حتى مماته!

ويهون الهوان الذي أهاننا به الحاكم بغير أمر الله، ولكن الخراب الذي حاق بالكنيسة كان من الضخامة بحيث لا يمكن علاج آثاره، فمن أين تعود الكُتُب التي أُحرقت؟ حتى أنه صار من المتعذر أن نجد من مخطوطاتنا القبطية ما يعود إلى ما قبل القرن العاشر سوى النذر اليسير، ناهيك عن الكنائس الكثيرة والأديرة القديمة التي هُدمت.

وتناقض الدكتورة ناريمان عبد الكريم نفسها حين تقول: "وتبالغ المصادر النصرانية فيما ذكرته من تصرفات الخليفة الحاكم، وأنه قام بتعذيب النصارى بقصد تحويلهم إلى الإسلام، وهذه الكُتُب كان قصدها أن تُظهر الأقباط بمظهر الشهداء، لكن ما ينفي عن الحاكم قصده تحويلهم إلى الإسلام، هو بقاء القبط في دواوينه وقصره محافظين بديانتهم ويُمنحون الألقاب مثل المسلمين^(٣٢)". فهي تقتطع من التاريخ أحداثه التي توافق ما تصبو إليه دون مراعاة لتسلسل تلك الأحداث. ولو غضضنا الطرف عن ذلك، فهي تعود لتقول: "وفي عهد الخليفة الظاهر صدر أمر في عام ٤١٨هـ / ١٠٢٧م يسمح لمن اعتنق الإسلام كرهاً أيام الحاكم

٣١- د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٠٤

٣٢- نفس المرجع، ص ١٠١، ١٠٢

بالعودة إلى دينه، فعاد الكثير منهم إلى اليهودية والمسيحية (٢٣٣)“.

لا يجب أن نزوِّق الحقائق لثرى على غير ما هي عليه في حقيقتها، فالخليفة الحاكم بأمر الله اقرتف مآثم كثيرة في حق أهل الذمة عموماً وفي حق الأقباط خصوصاً، وهو ما لا يجب أن نخفف من غلوائه لأنه واضح للعيان. فأن نلتمس الأعذار لما اقرتفه الحاكم بأمر الله من اضطهاد وإذلال للأقباط فهو ما نظن أنه ينافي الحق ويغاب الصواب. ولكن هل كان الأقباط في ذلك الوقت هم السبب فيما حاق بهم من مهانة؟.

يقول التَّاريخ إن بعض أغنياء الأقباط قد انساقوا في هذه الفترة وراء ملذاتهم وانهمكوا في حياتهم الأرضية، وهو ما أشار إليه كتاب ”سير البيعة“. ويشهد أيضاً نفس الكاتب - أنبا ميخائيل مطران تينيس - على أفعال بعض الرُّعاة في ذلك الوقت، والتي كانت من الأسباب المباشرة لما أصاب الكنيسة من تأديب واضطهاد فيقول ما نصُّه:

”لم يصبر الرب على افعال الرعاة الذين كانوا في ذلك الزمان، وانزل الله غضبه على البيع بسببهم، فابعدوا منها لانهم كانوا قد صاروا مثل الولاة المسلطين على الكهنة، ويختلقوا حجج لجمع المال بكل وجه ويتجرؤا في بيعة الله لحبة الفضة والذهب، ويبيعوا موهبة الله بالمال فيخسروا ولا يربحوا، واذا زادهم انسان في ديارية بيعة من البيع ديناراً واحداً فسحوا على القيم الاول المهتم بامور البيعة كما يجب، فيطردوه منها ويسلموها بسبب الدينار الزايد لمن لا يصلح لخدمتها ولا يقوم بامرها، ولقد شهد على قيم يشرب الخمر الصافي ويخلط المعكر بالماء ويصفيه ويقدمه للكهنة يرفعه للهيكل، وان الكهنة يرفعوا على الهيكل قربانا يكفي طول الجمعة حتى يفضل منه شيا كثير غرضاً في ان لا يتعبوا

فيقدسوا، ويبقا القربان في الكنائس الى ان يعفن، لان الاساقفة كانوا يوسموا للكهنوت من لا يصلح ولا يفهم ...

وفي أيامهم اعني الرعاة انقطع التعليم ايضا ولم يردع احد احدا ولا يقول له اخرج القذا من عينيك ليلا يقول له اخرج انت الخشبة اولا من عينك، وكانوا رووسا البيعة فيما تقدم يطلبوا امر فيه علم ومعرفة ليجعلوه كاهنا اذا شهد له جماعة ثقات بالعرف والعلم من صغره، وانقلبت الامور وصار الفهيم العالم غير معدود لاسيما ان كان فقيرا، والجاهل الغير فهيم مكرما عندهم مبحلا، لاسيما ان كان موسرا ليقدموه للطقس العالي من طقوس الكهنة، فمن اجل ذلك نزلت يد الرب عليهم وحل غضبه على البيعة لعلمه باننا لا نستحق ندخل من بابها كالزمان الذي انزل فيه غضبه على يروشليم حتى خربت وسي اهلها وبنيتهم وبناتهم... (٣٤)“.

وإن قساً راهباً من دير أبو مقار اسمه يونس، كان سبب كثير من البلاء الذي حاق بالكنيسة في ذلك الزمان. فقد ألقى الشيطان في قلبه نار حجة الأسقفية، ولم يكن لديه ما يدفعه، وإذ رأى أن الأسقفية تُعطى لمن لا يستحقها ما دام موسراً، ذهب إلى البابا زخارياس وقال له: ”أريد تلبسني ثياب الاسقفية فقط واجعلني على كرسي خراب مثل دبقوا ولو انه لا يكون فيه الا ثلث منا، فاني لا اقدر اصبر عن ذلك مما قد غلب على من الفكر لمشاهدتي هولاء الذين تقسمهم بالمال وليس هم مستحقين، وانا مدحوض لاجل اني فقير وليس معي شيا وانت تعرفني“ (٣٥)“.

ويعقب الأنبا ميخائيل مطران تيس كاتب سيرة البابا زخارياس فيقول ما نصه: ”وكان البطرک المذكور عفيف جدا مثل الخروف الوديع،

٣٤- سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ١١٧ - ١٢٠

٣٥- نفس المرجع، ص ١٢٠

ولم يكن يفعل شيئا مما ذكرناه برايه حتى الخبز الذي ياكله اذا خلصوه لا يطعموه لا يطلبه، وكذلك الماء الذي يشربه، وكان كالأخرس وكانوا اهله وتلاميذه حاكمين عليه وهم يدبرونه، وهم الذين ياخذون المال ممن يقدموه له ليحمله فيما يريدوا، ولو اراد ان يطعم انسان خبز فما قدر الا باحسانهم، واذا التمس منه انسان شيئا ارسله اليهم، ومن التمس كنه كهنوة انفذه اليهم ليفصلوا معه والا فما يمكنه يقسمه... (٣٦)“.

والنتيجة كانت نشوب خلاف بين الراهب يونس وحاشية البطريرك، وخصوصاً خيال اسقف سخا وهو ابن اخو البطريرك، الذي إذ علم منه أنه يريد الأسقفية بلا شيء “قال له بعد الشتم انك ان ذكرت من فمك شيء على هذه القضية جعلت التلاميذ يهينوك (٣٧)“.

وبالإيجاز كتب الراهب يونس عدة رقاع في البطريرك ليرفعها إلى الحاكم بأمر الله، واستطاع الأراخنة أن يمنعوه من ذلك، واخذوا ما كتب وسلموه للبطريرك فدفعها لابن أخيه المقدم ذكره، فكان نصيب الراهب أن ألقي في بئر ليرجموه بالحجارة ليقتلوه، فوجد فتحة جانبية في البئر اختبأ فيها، فلم تصبه الحجارة. فلما علم البطريرك “حمل التراب على راسه... واحرم ابن اخيه وانفذ تلاميذه الى البئر فاصعدوه منه وعزوه وسالوه ان يتسلى، واوعده البطريرك أن يجعله على كرسي مما يخلوا، فصبر حتى خلى كرسين فلم يجعله في واحد منهما... (٣٨)“.

فمضى يونس الراهب إلى الحاكم بأمر الله، وسلمه مكتوباً جاء فيه: “أنت ملك الأرض، لكن للنصارى ملك لا يرضا بك لكثرة ما قد كتر

٣٦ - نفس المرجع، ص ١٢٠

٣٧ - نفس المرجع، ص ١٢٠

٣٨ - نفس المرجع، ص ١٢١

من الأموال الجزيلة ... الخ"، فأمر الحاكم أن تُغلق أبواب الكنائس، واعتقل البطريك، وكان ذلك في سنة ١٠١١م، وألقاه للسَّبَّاع مرتين فلم تؤذِه، "وأما ابن زحارياس فانه اقام معتقل ثلاثة شهور وهم يخوفوه في كل يوم بحريق النار والمرمي للسَّبَّاع ان لم يدخل في دين الاسلام^(٣٩)"، وكان في ثاني يوم لاعتقال البطريك أن كتب الحاكم سجلاً إلى والي بيت المقدس يأمره بهدم كنيسة القيامة قال له فيه: "اجعل سمايها ارضا وطولها عرضاً" ومن بعد أيام أنفذ سجلات إلى سائر أعمال مملكته بأن تُهدم الكنائس وأن يُحمل ما فيها من الآنية الذهب أو الفضة إلى قصره، ومطاردة الأساقفة في كل مكان ... الخ

فهرب الأساقفة إلى البرية لخوفهم من الإهانة والتعب. "وكان أكثر النصارى ايضاً يدخلوا البرية دفعتين في السنة وهما عيد الغطاس وعيد القيامة الذي هو الفصح، وكانوا يشتهوا القربان كما يشتهي الطفل اللبن من ثديي امه، وكان على النصارى في هذه التسع سنين ضيق عظيم وطرده وشم ولعن من المسلمين ويصقوا في وجوههم وكان أكثر ذلك بمدينة تيس واعمالها، واذا جاز نصراني عليهم يشتموه ويقولوا له اكسر هذا الصليب وادخل في الدين الواسع، وان نسي نصراني صليبه ومشى بلا صليب لقي هوان كثير^(٤٠)".

"وهذه التسع سنين التي كان فيها الادب من الرب منها ثلاثة سنين لم يقدر احد يعمل فيها ضرورون^(٤١) في بلاد مصر إلا في الديارات فقط، ولم تصير المؤمنين الاخير على البعد من السراير المقدسة، وكانوا يسألوا الولاة ويرطلوهم بالدنانير الكثير والهدايا حتى يفسحوا لهم ان يتقربوا في الليل

٣٩ - نفس المرجع، ص ١٣١

٤٠ - نفس المرجع، ص ١٣٣

٤١ - بين السطور بالقبطية $\lambda\omega\rho\omicron\upsilon\sigma$ أي تقدمه.

سرا في الكنائس المهذومة... (٤٢)“.

وكان هدم الكنائس في سنة ١١٠١م، ثم فتحها وإطلاق عمارتها في سنة ١١٢٠م.

وبعد أن جازت أيام الاضطهاد، وهدأت ثورة الحاكم بأمر الله، وعاد إليه عقله، جلس يوماً في دير الشهيد مرقوريوس وهو دير شهران، عند راهب يُدعى ييمن كان قد أسلم وعاد إلى دينه، وكان صديقاً للحاكم. وكان هذا الراهب قد رتّب مقابلة بين الحاكم وبين البطريك وأساقفته، ولما مثلوا بين يديه تطلّع الحاكم إلى البطريك وتأمله ”وتعجب منه لانه كان حقيراً في العين مهاباً في النفس، وكان قصير القامة كوسج ذميم الخلقه وراى الاساقفة الذين معه شيوخ ذوي مناظر حسنة وشخص بمية وقامات تامة فقال لهم هذا مقدمكم كلكم، قالوا له نعم يا مولانا، الرب يثبت ملكك، فتعجب وقال لهم الى اين ينتهي حكمه، فقالوا له ينفذ حكمه في ديار مصر والحبشة والنوبة والخمس مدن الغرب افريقية وغيرها، فازداد تعجبه وقال كيف يطيعونه هولاء كلهم بلا عساكر ولا مال ينفقه فيه، قالوا له بصليب واحد تطيعه هذه القبائل كلهم، قال لهم وايش هو هذا الصليب، قالوا له مثال الذي صلب عليه المسيح فمهما اراد منهم كتب اليهم وجعله بين سطور الكتاب موضع علامة الملك، ويقول لهم افعلوا كذا والا عليكم الصليب فيطيعوا قوله ويفعلوا ما يامرهم به بلا عساكر ولا حرب، فقال بالحقيقة ليس في العالم دين ثابت مثل دين النصرى... وخرج من عندهم وهم مسرورين بما سمعوه منه (٤٣)“.

وجاء يونس الراهب الذي من دير أبو مقار إلى البطريك بعدما

٤٢ - سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ١٣٥

٤٣ - نفس المرجع، ص ١٣٦

عرّض الكنيسة لهذه الخطوب كلها، وسأله أن يجعله أسقفاً وكان أسقف سخا حاضراً، فنشبت بينهم منازعة، "فخافت الاساقفة وجرى بينهم وبين خايل الاسقف خصومة عظيمة وقالوا له انت سبب هذا البلا كله وكلما نالنا من هدم البيع ولباس الغيار والهوان وغيره انت اصله، لو تريد أيضاً تجدد شيا اخر حتى يكون الاخر اشر من الاول"، وسكنوا غضب يونس الرّاهب وألزموا البطريرك فجعله إيغومانوس (قمصاً) وألبسه القلنسوة السوداء ووعدته بجميل.

وظلّ يونس الذي يُدعى بالاسم راهب يؤرق الكنيسة حتى إلى زمن البابا شنوده الثاني (١٠٣٢-١٠٤٧م)، إذ قبل أن يليه الاساقفة ثوب البطريركية "استقر بينه وبين الاساقفة ان يقسم لهم يونس الراهب الذي سعى الاب زخارياس الى الحاكم ليجعله اسقفا للفرما لخوفهم من لسانه، ومضوا به الى قلايته وضرب له مطانوه ان يساعده على كل شي ويجعله عنده مثل اخ، فقال له ان اردتني اساعدك فاكتب لي خطك تعطيني في كل سنة ثلثون دينارا اعيش بها لان كرسي الفرما الذي تجعلني عليه ما فيه شي، وتقسم اخي في كرسي اخر، فكتب خطه بذلك^(٤٤)". وصار يونس أسقفاً على الفرما!!!

وعن هذا البطريرك يقول كتاب سير البيعة المقدسة: "فسخ ما كان استقر معه من انه لا ياخذ شرطونية، واحب المال وجمع منه شي كثير ووهبه لاهله، وكان محب لمجد هذا العالم...^(٤٥)".

إننا حين نقرأ التّاريخ، لا ينبغي أن ننصّب من أنفسنا قضاة لنحكم على تصرفات النَّاس أو مجريات الأحداث، لئلا نقترف بديونتنا للآخرين

٤٤ - نفس المرجع، ص ١٥٢

٤٥ - نفس المرجع، ص ١٥٣، ١٥٨

ذنباً أكثر من ذنبهم مهما عَظُم. ولكننا نقرأ التَّاريخ لتتعلّم دروساً لأنفسنا وحسب، وليكن لسان حالنا دائماً هو "الحُكم لله".

ومن جهة أخرى، لم تخلو الكنيسة في ذلك الزَّمان عينه من أراخنة أتقياء صاروا سبب عزاء لجيلهم، ومنهم أبو نجاح الكبير الذي رفض أن يترك دينه ويبيع المسيح، وإذا اجتهد الحاكم بأمر الله بكل نوع من الترغيب والترهيب لينقله عن دينه فلم يقدر، أمر بأن يُشد إلى الهمبازين ويُضرب بعد أن عرّوه من ثيابه، فضربوه خمسمائة سوط حتى تقطع لحمه وسال دمه مثل الماء. ولكن الحاكم أمر بأن يُضرب ثمام ألف سوط.

وفي ذلك يقول كتاب سير البيعة: "فلما ضُرب ثلثمائة أخرى قال انا عطشان فبطلوا عنه الضرب، واعلموا الحاكم بذلك، فقال اسقوه بعد ان تقولوا له يرجع لديننا، فلما جاوا اليه بالما وقالوا له ما امرهم به الملك، قال لهم عيدوا له ماه فاني غير محتاج اليه لان سيدي يسوع المسيح قد اسقاني، وشهد قوم من الاعوان وغيرهم ممن كان هناك انهم ابصروا الما سقط من لحيته، ولما قال هذا اسلم نفسه، فاعلموا الملك القاسي القلب بوفاته، فامر ان يضرب ثمام الالف سوط وهو ميت. وهكذي تمت شهادته. بركاته تكون معنا(٤٦)".

وآخر يُدعى فهد ابن إبراهيم الذي القي في النار ثلاثة أيام ولم يحترق، أما باقي العشرة أراخنة الذين جمعهم الحاكم بأمر الله ليتركوا دينهم، فقد جلدتهم بالسِّياط، فأسلم منهم أربعة، مات منهم واحد في نفس ليلته، وعاد الثلاثة إلى دينهم بعد انقضاء زمن الاضطهاد، أما بقية العشرة فماتوا تحت العذاب ونالوا الحياة الدائمة، بركة صلواتهم المقدّسة

تكون معنا.

لو كان عصر الشهداء في الكنيسة القبطية وقفاً على القرن الرابع فقط، لما بقت الكنيسة إلى اليوم، فيا لكثرة الشهداء الذين لا نستطيع أن نحصي عددهم لأنهم كثيرون مثل السُنبل كقول الكُتُب، والشَّهادة من أجل الكنيسة تأخذ في كل جيل شكلاً مغايراً، لكنها محسوبة عند الرَّبِّ شهادة من أجل محبَّته ومحبَّة كنيسته. فهل استفادت الكنيسة في عصر الحاكم بأمر الله شيئاً؟، نعم، فقد ربحت شهداء لها يشفعون عنها كل حين أمام عرش ابن الله الوحيد.

حالة الأقباط بعد عهد الحاكم بأمر الله

بعد انتهاء فترة حكم الحاكم بأمر الله تولى الخلافة الظَّاهر بن الحاكم (١٠٢١ - ١٠٣٦م) واسمه بالكامل "الظَّاهر لإعزاز دين الله"، وكان ابن ستة عشر عاماً تحت وصاية عمته ست الملك حتى سنة ١٠٢٤م. "وكان في أيامه هدو وسلامة عظيمة وأقام ستة عشر سنة ملكاً، وكان دين النصرارى مستقيم واهله مكرمين، وبنيت البيع في أيامه حتى اعيدت لما كانت عليه وافضل (٤٧)".

وكان البابا شنوده الثاني (١٠٣٢ - ١٠٤٧م) معاصراً لهذه الفترة، وداوم على ممارسة السَّيمونية برغم عدم رضى الأقباط وأراختهم على ذلك، لاسيما بقيرة الشَّمَّاس الذي حُسب كواحد من المعترفين إذ لم ترهبه عذابات الحاكم بأمر الله لترك دينه. فيقول كتاب سير البيعة المقدَّسة واصفاً كيف ترجَّى بقيرة الشَّمَّاس البطريك لترك عنه السَّيمونية: "قال له (أي بقيرة الشَّمَّاس) يجب ان تترك هذه الشرطونية التي تاخذها، ولا

تبيع موهبة الله بالمال، فقال له من اين لي ما انفقته على نفسي وتلاميذي وما احتاجه من المون واللوازم، وما اعطيه للاسكندرانيين، وما اقوم به عن خراج الاراضي التي على، قال له نحن نحسب كلما عليك وجميع ما تحتاجه، ونحسب كلما تاخذنه من الاساقفة عن الديارية في كل سنة فان عجزت شيا قسطناه علينا وحملناه لك، وتستريح من هذا الاسم السو الذي يكرهه الله والنَّاس، فاطهر انه قد طاب قلبه وهو في الباطن لا يورثه (٤٨)“.

ومات الظاهر لإعزاز دين الله وجلس بعده ولده أبو عميم المستنصر بالله أمير المؤمنين (١٠٣٦ - ١٠٩٤م)، وتولى الحكم وعمره سبع سنين (٤٩). وكان المتصرف الفعلي في شؤون مصر السيّد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام بدر الجمالي، وهو أرمني جاء من عكا، وكان والياً في مصر قبل ذلك بأربعة عشر سنة.

وعاصر المستنصر كل من البابا خريستوذولوس (١٠٤٧ - ١٠٧٧م)، والبابا كيرلس الثاني (١٠٧٨ - ١٠٩٢م).

أما البابا خريستوذولوس فكان معروفاً بنشاطه في إدارة الشؤون الكنسيّة، ولقد وضع مجموعة قوانين تنظّم الحياة اللّيُتورجيّة في الكنيسة، وأصلح عادات كنسيّة خاطئة كان يمارسها رهبان دير أنبا مقار، حيث كانوا يحتفظون بقربان الإفخارستيا بعد قدّاس عيد الشّعاعين إلى يوم الأربعاء الكبير (٥٠). وكرّس ست كنائس بالإسكندريّة، إحداها هيكل القديس مرقس بكاتدرائيته بعد أن أصلحه ورّممه. وكان يمارس

٤٨ - نفس المرجع، ص ١٥٥

٤٩ - نفس المرجع، ص ١٦٠

٥٠ - سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ١٧٢

السِّمُونِيَّة، ”فحصل له من جماعة صيرهم اساقفة مالا كثيرا من جملتهم مرقس الكاتب المعروف بابن الظالم أخذ منه ألف دينار قرصاً على نصف الكرسي وصيره أسقفاً على كرسي سمندود، وكان يفعل هذا حتى لا يقال أنه يأخذ شرطونية ويعتقد أنه مخلصاً من الله، فلما قبض عليه ناصر الدَّولة ... قرر عليه وعلى الأساقفة وجميع النصارى سبعين ألف دينار، فبال النصارى من ذلك ومن غلق كنايسهم ضيق شديد وصعوبة شديدة...“^(٥١).

وفي أيامه كانت رأس القديس مرقس الإنجيلي في حيازة واحد من أفراد الشعب يُدعى أبو يحيى زكريا^(٥٢)، ولقد حاول حاكم الإسكندرية دون جدوى الحصول على الرأس لتسليمه للإغريق الذين كانوا على استعداد ليدفعوا له عشرة آلاف دينار مقابل الحصول عليه. وقد انتقلت الرأس المقدسة بعد ذلك إلى حيازة موهوب بن منصور كاتب سير البطارقة^(٥٣).

وكانت كنيسة القديس أبي سرجه هي الكنيسة الكاتدرائية لأسقف مصر (مصر القديمة)^(٥٤). وكان كهنة كنيسة السيدة العذراء المعلقة بقصر الشمع يتنازعون مع كهنة كنيسة أبي سرجه على أي من الكنيستين تكون الكنيسة التي يتم فيها رسامة البطريرك الجديد.

أما البابا كيرلس الثاني الـ ٦٧ فقد أُجبر من بعض الأساقفة الحاصلين على تأييد بدر الجمالي على وضع مجموعة من القوانين لتنظيم الشؤون الكنسية، ”فلم تقبلها اهل الصعيد وقرية في الكنايس بمصر

٥٢ - نفس المرجع، ص ١٧٧

٥٢ - نفس المرجع، ص ١٧٤

٥٣ - نفس المرجع، ١٨١

٥٤ - نفس المرجع، ص ١٦٩

وساير الاعمال، فلم تقبلها اهل الصعيد ولا تخلوا عن قوانينهم^(٥٥)“.

ولم يمارس السَّيمُونِيَّةُ أبداً، وكان قد اشترط على كل من يقسمه أن يكون نصف ما يتحصَّل للكرسي للأسقف، والنَّصف لقلاية البطريركيَّة، وأوقف ما يتحصَّل من بعض الكراسي على دير أنبا مقار^(٥٦). وعاصر هذا البطريرك، الأنبا بطرس أسقف بهنسا، ولهذا الأسقف أعمال كنسيَّة كثيرة لازالت آثارها باقية في طقس الكنيسة القبطيَّة حتى اليوم، مثل لقان عيد الرُّسُل، وصلوات تكريس المعموديَّات الجديدة ... الخ.

ويقول كتاب سير البيعة المقدَّسة عن البابا كيرلس الثاني: ”لما تسيح لم يوجد له دينار ولا درهم، وكانت افعاله كلها حسنة جميلة، وكان حلو المنطق مقبول الصورة صائم الدهر كثير الصلاة، لا ياكل مما يعمل في قلايته لتلاميذه شيا من الالوان الا لون واحد يقدم له في زبديَّة. اما من الحبوب او من البقول يستعمل منه اليسير من العشا الى العشا...“^(٥٧).

وفي أيام الخليفة المستنصر عاد الأقباط فسيطروا على دواوين الدَّولة، فضلاً عن سيطرة اليهود على سياسة الدَّولة. وفي عهده أيضاً غاب فيضان النيل عن مصر سبع سنوات، فزلت بمصر أشد المجاعات، وانتشر بها القحط والطَّاعون. وثار الجنود من الأتراك والبربر، وعاثوا فساداً، ودمَّروا القصر، ونهبوا تحفه، وأتلفوا مكتبته.

واستطاع الأرمني بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر إعادة الهدوء والنَّظام، وبنى أسوار القاهرة، وأبواها، ومسجد الجيوشي. فصار للأرمن

٥٥ - نفس المرجع، ص ٢١٨

٥٦ - نفس المرجع، ص ٢١٢

٥٧ - نفس المرجع، ص ٢٣٠

شأن في المجتمع المصري، فقاموا ببناء عدد من الكنائس والأديرة في مصر، وانتشروا في كل أنحاء البلاد. وكان منهم الوزراء والنظار والمشرفين وحكام الأقاليم وكتاب الدواوين. وكان للأرمن بوابة في القاهرة عُرفت باسم باب الأرمن. وقيل أن عدد أديرتهم وكنائسهم بلغ خمساً وثلاثين على وجه التقريب.

وكان الأقباط لا يجدون غضاضة في معاشة الأرمن والسريان والأحباش والنوبيين لاتفاقهم على الأمانة المستقيمة الصحيحة كما يذكر مؤرخ سير الآباء البطارقة^(٥٨). ولقد تعرضت أملاك ومزارع وأوقاف الكنائس والأديرة القبطية، وبعض أملاك الأقباط، للمصادرة أيضاً في خلافة المستنصر بالله الفاطمي.

ولما مرض أمير الجيوش لكبير سنه، تولى ابنه "الأفضل" أمور البلاد، وكتب له المستنصر بالله سجلاً بتقليده أمور المملكة، وبعد تسعة شهور من جلوسه توفي الخليفة بعد أن أوصى بأن يكون ابنه الصغير أبو القسم أحمد خليفته. وهو ما تمه السيد الأجل الأفضل، وصار الخليفة الجديد باسم المستعلي بالله^(٥٩) أمير المؤمنين (١٠٩٤ - ١١٠٢م)، وكان عمره آنسذ سبع عشرة سنة. وفي عهده كثر عدد الكتاب النصارى في دواوين الحكومة.

وكان البابا خائيل الرابع (١٠٩٢ - ١١٠٢م) معاصراً له. "... ولما تمكن من الامر واستقرت أقدامه في البطركية ظهر من سطوته وهيئته وسلطته ما صار له في قلوب الاساقفة وغيرهم من الخوف والرهبنة مثلما كان للاب اخرسطودولوس نيح الله نفسه، ولم يكن احد من الاساقفة ولا

٥٨ - د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ٥٥، ٥٦

٥٩ - يسمى أيضاً "المقتدر".

الاراحنة يقدر يقاومه في خطاب ولا يرادده... (٦٠).“

وفي عهد هذا البطريرك أوقف الأقباط زيارتهم للأماكن المقدّسة بسبب المضاعف التي كانوا يلاقونها من الإفرنج بسبب إيمانهم.

وبعد وفاة المستعلي بالله جلس ابنه المنصور أبو علي (٦١) (١١٠٢-١١٣٠م)، وعمره يومئذ ست سنين. وفي خلافته أشرف الأقباط على أموال الخليفة ضمن ديوان سُمي ”ديوان المجلس“. ولم يقتصر الأمر على تعيين أهل الذّمة لرئاسة الدّواوين بالإدارة المركزيّة، بل عيّنوا ولاة بالأقاليم. وكانت النتيجة المباشرة لتولي أهل الذّمة مناصب الوزارة والوساطة ورئاستهم لمعظم الدّواوين، وانحياز هؤلاء الوزراء والوسطاء ورؤساء الدّواوين من أهل الذّمة لبني ملتهم أن اكتظت الدّواوين الحكوميّة بالكتّاب وصغار الموظفين الذّمين الذين سيطروا على إدارات الدّولة بصورة ملفتة للنّظر (٦٢).

واستمر نفوذ الأقباط في خلافة الحافظ (١١٣٠-١١٤٩م)، وكان غالبيتهم من العاملين في مسح الأراضي، وتحصيل الضّرائب. وكان آخر الخلفاء الفاطميين هو العاضد (١١٦٠-١١٧١م).

وكلما ازداد نفوذ الأقباط كان الخلفاء الفاطميون يصرفونهم عن أعمالهم ويصدرون أوامرهم بالأبولى أهل الذّمة شئ من أعمال المسلمين، ولكن سرعان ما يعود الأقباط إلى الدّواوين بأوفر مما كانوا عليه.

وعلى وجه العموم - باستثناء فترة حكم الحاكم بأمر الله - يشيد

٦٠- سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢٤٢

٦١- يُسمى أيضاً ”الأمر“.

٦٢- د. سلام شافعي، أهل الذّمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ٧٧

ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين بتسامح الخلفاء الفاطميين فيقول إنه في العصر الفاطمي أصبح جميع مقدّمي المملكة والنّاطريّة في دواوينها وتدبير أمورها كلهم نصارى^(٦٣).

أهل الذّمة، ولاسيّما الأقباط، في العصر الفاطمي

كان للأقباط في العصر الفاطمي - باستثناء فترة بسيطة منه - دورٌ كبير في كافة الميادين السّياسية والاقتصاديّة والاجتماعيّة. فقد أسند الخلفاء الفاطميون إلى أهل الذّمة كثيراً من الوظائف العامّة في الدّولة، فكان منهم الوزراء والوسطاء ورؤساء الدّواوين والكتّاب، كما عملوا في الوظائف الماليّة والإداريّة في الدّواوين، لمهارتهم وخبرتهم في تلك الوظائف^(٦٤).

فمن الوجهة السّياسيّة

شارك الوزراء والوسطاء من أهل الذّمة في تنفيذ السّياسة الدّاخليّة والخارجيّة للدّولة، بل وأسهموا في رسم السّياسات. ومن أشهر الوزراء في ذلك العصر "يعقوب ابن كلس اليهودي" الذي نال لقب "الوزير الأجل" في خلافة العزيز بالله، فتزايد رفعةً وتكريماً وامتدحه كبار رجال الدّولة وقوادها، وقد وصل نفوذه إلى حد أنه عزل جوهر القائد من منصبه، مما أدى إلى محاولة اغتياله سنة ٩٨٣م، فاستغنى عن المغاربة وأحل محلهم الأتراك والإخشيدية. وفي النهاية كانت النتيجة الطّبيعيّة أن عزله العزيز من منصبه سنة ٩٨٣م، وصادر أمواله، وجرّده من أمواله، واعتقله لعدة شهور، وإذا ارتبكت أمور الدّولة وساءت أحوالها أعاده إلى منصبه.

٦٣ - انظر: د. سيّدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذّمة، مرجع سابق، ص ١٣٨

٦٤ - د. سلام شافعي، أهل الذّمة في مصر في العصر الفاطمي الأوّل، مرجع سابق، ص ٧

ويعتبر يعقوب ابن كلّس من أبرز رجال الدّولة الفاطميّة الذين قادوا الحركة العلميّة في العصر الفاطمي الأوّل. ويرجع الفضل له في تحويل الجامع الأزهر إلى جامعة علميّة ومركزاً للدراسات الفقهيّة بناء عن اقتراحه الذي وافق رضى العزيز بالله سنة ٩٨٨م^(٦٥).

ومن بعد ابن كلّس اليهودي، جاء عيسى بن نسطوروس، وهو نصراني من أقباط مصر، تولى منصب الوساطة^(٦٦) سنة ٩٩٤م، فأشرف على كل دواوين الدّولة وأحكم سيطرته عليها. ولكنه تعصّب لبني ملّته وعيّنهم في الإدارات والدّواوين الحكوميّة، وعزل الكُتّاب وجباة الضّرائب من المسلمين. وتركت هذه السّياسة المتحيّزة آثاراً سيّئة^(٦٧). وغيرهما كثيرون من الأقباط الذين تولوا شؤون إدارة البلاد.

ومن الوجهة الاقتصاديّة

نعني بالوجهة الاقتصاديّة النّشاط الزراعي والصّناعي والتّجاري.

- ففي مجال النّشاط الزراعي:

أسهم الأقباط بقدر كبير في النّشاط الزراعي، إذ كانوا يمتلكون الأراضي الزراعيّة والضّياع الواسعة.

- وفي مجال النّشاط الصّناعي:

شارك الأقباط في النّهضة الصّناعية الكبرى التي شهدتها مصر في ذلك العصر، فكانوا هم عماد الصّناعة في مصر في ذلك الحين وعلى أيديهم

٦٥ - نفس المرجع، ص ٨، ٥٣، ٥٥

٦٦ - بعد يعقوب بن كلّس ألقى العزيز بالله منصب الوزارة، وأنشأ منصباً جديداً هو منصب الوساطة.

٦٧ - د. سلام شافعي، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأوّل، مرجع سابق، ص ٦٠

ازدهر النشاط الصناعي، ومن خلال نظرة فاحصة نجد أن أهل الذمة في مصر تركزت في أيديهم معظم الصناعات المصرية، وأن الصناعات الأقباط كانوا هم المهيمنين على تلك الصناعات، ولهم اليد الطولى في كثير من فنون ذلك العصر. ولقد ظهر أثر الفن القبطي في كثير من الصناعات والفنون إلى درجة تدعو إلى الإعجاب والتقدير. وكان من بين الصناعات التي ظلت زاهرة في العصر الفاطمي، صناعة النسيج، والصناعات الخشبية وصناعة المعادن والعاج، وصناعة الورق والتجليد، وصناعة الزجاج والبللور الصخري والخزف.

- أما في مجال التجارة الداخلية:

فقد قام الأقباط بدور له أهميته، فلقد زحرت القرى التي يغلب عليها السكان الأقباط بالأسواق العامرة بما يسد حاجة سكانها، فعلى سبيل المثال كانت مدينة تيس الصناعية الكبرى التي يقدر عدد سكانها بنحو خمسين ألف نسمة يغلب على أهلها السكان القبط، كان بها ما يزيد على عشرة آلاف دكان منها مائة دكان عطار، ويرابط في مينائها حوالي ألف سفينة. واشتغل كبار التجار من أهل الذمة بتجارة الغلال حتى كان لدي واحد منهم ما يكفي لإطعام أهل مصر (الفسطاط) عدة سنوات. كما اشتغلوا بتجارة الرقيق وأعمال الصيرفة وتجارة الذهب والجواهر من الأعمال التجارية التي نجح فيها أهل الذمة، وخاصة اليهود. وكان تجار الجواهر والصيرفة لا يغلقون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر فقط نظراً لحالة الأمن التي عمّت البلاد في هذا العصر، وقوة الحكومة المركزية.

وقد صاحب انتعاش الحركة التجارية بالأسواق انتعاشاً للأسطول التجاري، ولقد تعجب المقدسي من كثرة المراكب التي تجوب نهر النيل،

كما تعجب لكثرة المراكب الراسية أمام ساحل القسطنطين (٦٨).

- وفي مجال التَّجَارَةِ الخَارِجِيَّة:

انتعشت التَّجَارَةُ الخَارِجِيَّة كَثِيراً في العَصْرِ الفَاطِمِي الأوَّل، فَكَانَ لِلْيَهُودِ نَشَاطٌ مَلْحُوظٌ فِي هَذَا المِيْدَانِ، وَلَكِن المَصْرِيّين كَانُوا لَا يَتَرَحُّونَ عَن مِصْرٍ لِلتَّجَارَةِ الخَارِجِيَّةِ إِلَّا فِي القَلِيلِ النَّادِرِ (٦٩).

وَمِن الوِجْهَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ

حَظِيَ أَهْلُ الذِّمَّةِ بِنَفْوْذِ كَبِيرٍ لَيْسَ فِي دَوَاوِينِ المَالِيَّةِ قَطْعٌ، بَلْ تَعَدَّاهُ إِلَى جَمِيعِ فُرُوعِ الإِدَارَةِ، لِاسِيَّامَا فِي خِلاْفَةِ العَزِيْزِ (٩٧٥-٩٩٦م)، نَتِيْجَةُ لِنِزَاجِهِ مِّنْ نِّصْرَانِيَّةٍ هِيَ أُمُّ سِتِّ المَلِكِ. وَلَقَدْ تَسَلَّطَ أَهْلُ الذِّمَّةِ فِي عَهْدِهِ إِلَى حَدِّ أَنْ وَصَلَ الأَمْرُ إِلَى سَخَطِ عَامِ لَدِيٍّ مُسْلِمِي مِصْرٍ (٧٠). وَلَكِن لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ الاسْتِغْنَاءُ عَنِ الأَقْبَاطِ فِي دَوَاوِينِ الدَّوْلَةِ الفَاطِمِيَّةِ لِأَنَّ أَغْلَبَ هَؤُلَاءِ القَبْطِ كَانُوا عَلَيَّ دِرَايَةً تَامَةً بِالشُّؤْنِ الإِدَارِيَّةِ وَالمَالِيَّةِ.

شَكَّلَ أَهْلُ الذِّمَّةِ طَبَقَةً اجْتِمَاعِيَّةً مُمَيِّزَةً عَاشَتْ فِي قُرَى وَمَدَن مِصْرٍ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِّنْ أَنَّ العَرَبَ نَزَلُوا إِلَى رِيْفِ مِصْرٍ وَسَكَنُوهُ مَعَ سَكَاكِنِ الأَصْلِيّين، إِلَّا أَنَّهُ كَانَتْ هُنَاكَ بَعْضُ القُرَى وَالمَدَنِ المِصْرِيَّةِ الَّتِي غَلَبَ عَلَيَّ سَكَاكِنُ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَبِخَاصَّةِ الأَقْبَاطِ. وَالمَوقِعُ أَنَّ مَعْظَمَ قُرَى مِصْرٍ لَمْ تَخْلُصْ مِنَ السُّكَّانِ الأَقْبَاطِ مَهْمَا كَانَتْ نِسْبَتُهُمْ إِلَى عِدَدِ السُّكَّانِ. وَامْتَلَكَ كِبَارُ رِجَالِ الدَّوْلَةِ مِنَ الأَقْبَاطِ الثَّرَوَاتِ الطَّائِلَةَ وَالقُصُورَ الفَخْمَةَ، وَنَشَأَتْ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ وَقُصُورِ الخِلاْفَةِ عِلاَقَاتٌ طَيِّبَةٌ وَصَلَاتٌ وَثِيْقَةٌ، فَمِنْهُمْ الخُلَفَاءُ

٦٨- نفس المرجع، ص ١٤٥-١٤٩، ١٦٣

٦٩- نفس المرجع، ص ٨، ١١٠، ١٥٠

٧٠- د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١١٩

الفاطميون الألقاب وخلعوا عليهم الهدايا^(٧١).

ولقد استخدم الخلفاء الفاطميون أطباء من أهل الذمة في قصورهم، وكانت وظيفة الطبيب من أعظم الوظائف وأعلاها في ذلك العصر. وقد ضمت المكتبات الخاصة بأهل الذمة وبخاصة الأطباء منهم الكثير من الكتب العلمية والمخطوطات النادرة، أو الكتب العلمية التي قاموا بتأليفها بتكليف من الخلفاء أو تقريباً إليهم. وقد أمدق الخلفاء الفاطميون على كثير من الأطباء من أهل الذمة بالأموال والهدايا تشجيعاً وتكريماً لهم^(٧٢).

الأعياد القبطية أحد مظاهر الحياة الاجتماعية

وكانت الاحتفالات بأعياد أهل الذمة من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي الأول، فقد شارك الخلفاء الفاطميون وعمامة المسلمين في الاحتفال في كثير من هذه الأعياد، وإن كان بعض خلفاء العصر الفاطمي الأول قد فرضوا قيوداً على بعض هذه الأعياد لأسباب اجتماعية، إذ قد شاب بعض هذه الأعياد الكثير من مظاهر الفساد والانحلال والمجون^(٧٣). ومن التقاليد التي أدخلتها الدولة الفاطمية في يوم خميس العهد وهو عيد عند الأقباط، ضرب نقود خاصة توزع في هذا العيد^(٧٤).

ويذكر المقرئ أن للقبط أربعة عشر عيداً شرعياً سبعة أعياد

٧١- د. سلام شافعي، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ٩٧، ٩٩

٧٢- نفس المرجع، ص ١٢٩، ١٦٩

٧٣- نفس المرجع، ص ٩٩، ١٨٦

٧٤- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، مرجع سابق، ص ٢٥٢

يسمونها أعياداً كبيراً، وسبعة يسمونها أعياداً صغاراً^(٧٥). أما الأعياد الكبار فهي: البشارة، الزيتونة (أحد الشَّعائين)، الفصح، خميس الأربعين (الصُّعود)، الخمسين (العنصرة)، الميلاد، والغطاس. أما الأعياد الصَّغار فهي: الختان، الأربعون (دخول المسيح الهيكل)، خميس العهد، سبت الثَّور، حد الحدود أو الأحد الجديد (أحد توما)، التَّجلي، وعيد الصَّليب^(٧٦). أما الأعياد التي اتخذت طابعاً شبه قومي كما يذكرها المقرئزي فهي: عيد الشَّهيد (عيد مار مرقس في ٨ بشنس)، وعيد الخروج: وهو عيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة، وعيد الثَّوروز.

ويلخَّص المقرئزي (١٣٦٥-١٤٤١م) حالة الأقباط في ذلك الوقت فيقول: تفاخروا وتظاهروا بالملابس وركبوا البغلات الرَّائعة والخيول المسومة بالسُّروج، وضايقوا المسلمين في أرزاقهم واستولوا على الأحباس الدِّيْنِيَّة والأوقاف الشَّرْعِيَّة^(٧٧).

وكثرت الأراضي الزراعيَّة والبساتين التي حول الأديرة، أو الموقوفة عليها، وكذلك تلك التي كانت في حوزة الكنائس. وهافت الأقباط - وخاصة الموظفين منهم - على تعدد السَّراري في بيوتهم، وشراء الجوارى، واتخاذ الرِّقيق واستخدامهم، وهو ما يتنافى مع روح الدِّيانة المسيحيَّة^(٧٨).

ويقول كتاب سير البيعة المقدَّسة في ذلك: "ولما صار جميع مقدمي

٧٥- المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٢٦٣، مقتبس عن: د. سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ١٨٧

٧٦- د. سلام شافعي، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ١٨٧-١٩٨

٧٧- د. ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلاميَّة، مرجع سابق، ص ١٢٣

٧٨- د. سلام شافعي، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق،

المملكة والناظرين في دواوينها وتدير امورها كلهم نصارى، وهم الملاك النافذ امرهم طنخوا وعتوا وبذخوا هم وجميع النصارى بديار مصر وتكروا وعزت نفوسهم ووقع بينهم البغضة والحسد وبين مقدميهم، وصار اكثر اهتمامهم بالامور الدنيانية والتجمل والتفاخر والكبريا على بعضهم بعض، فترل الادب من السما من عند السيد المسيح على جميع النصارى... (٧٩)“. ففي حدود سنة ١٠٧١م ”تزايد الغلا والخوف وعدم القمح إلى أن أكلوا الناس الميتة ثم أكلوا بعضهم بعضاً، ومنهم قوماً أكلوا أولادهم وفتى الناس بالوبا والغلا والسيف حتى لم يبق منهم إلا اليسير ولقى الناس بمصر واعمالها من الشدايد والمصاعب والبلايا ما تطول السيرة بشرح بعضه... (٨٠)“.

ومن بين من اشتهر من الأقباط في العصر الفاطمي، أبو اليمن بن مكرواه أمين خزانة الخليفة، وارتقى في مناصبه حتى سُمي ”أمين الأماناء“ وهو الذي عمّر دير أبي السيّفين بطمويه، وأحاطه ببساتين واسعة، كان يتردّد عليها وزراء الدولة للترويح عن النفس بها، وهو الدّير الباقي إلى الآن. ومنهم أيضاً ابن زنبور، وأبو الطيّب الرّرواي، وأبو السرور يوحنا بن يوسف الأبيح (٨١).

٧٩- سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ١٧٣

٨٠- نفس المرجع، ص ١٨٤

٨١- نفس المرجع، ص ١٨٠

جدول بأسماء الخلفاء الفاطميين

السنوات الميلاديّة لحكمه	السنوات الهجريّة لحكمه	اسم الخليفة
٩٠٩ - ٩٣٤ م	٢٩٧ - ٣٢٢ هـ	١- عبيد الله المهدي
٩٣٤ - ٩٤٦	٣٢٢ - ٣٣٤	٢- القائم بأمر الله
٩٤٦ - ٩٥٣	٣٣٤ - ٣٤١	٣- المنصور
٩٥٣ - ٩٧٥	٣٤١ - ٣٦٥	٤- المعز لدين الله
٩٧٥ - ٩٩٦	٣٦٥ - ٣٨٦	٥- العزيز بالله
٩٩٦ - ١٠٢١	٣٨٦ - ٤١١	٦- الحاكم بأمر الله
١٠٢١ - ١٠٣٦	٤١١ - ٤٢٧	٧- الظاهر لإعزاز دين الله
١٠٣٦ - ١٠٩٤	٤٢٧ - ٤٨٧	٨- المستنصر بالله
١٠٩٤ - ١١٠١	٤٨٧ - ٤٩٥	٩- المستعلي بالله
١١٠١ - ١١٣٠	٤٩٥ - ٥٢٥	١٠- الأمر بأحكام الله
١١٣٠ - ١١٤٩	٥٢٥ - ٥٤٤	١١- الحافظ لدين الله
١١٤٩ - ١١٥٤	٥٤٤ - ٥٤٩	١٢- الظافر بأمر الله
١١٥٤ - ١١٦٠	٥٤٩ - ٥٥٥	١٣- الفائز بنصر الله
١١٦٠ - ١١٧١	٥٥٥ - ٥٦٧	١٤- العاضد لدين الله



الفصل الثامن

كنيسة مصر

في عصر الأيوبيين والمماليك

أولاً: العصر الأيوبي

يستمد الأيوبيون اسمهم من أيوب (مات سنة ١١٨٢م) أبي صلاح الدين (١١٧١ - ١٢٥٠م)، المؤسس الحقيقي للدولة الأيوبيَّة الذي استأصل مع خلفائه خطر الحملات الصليبيَّة على مصر وسورية. وكان موقف أقباط مصر مختلفاً كل الاختلاف عن الملكانيين، وعن المسيحيين الشَّرقيِّين، فلقد ناصر مسيحيو الشَّرق بكل طوائفهم الحملات الصليبيَّة عدا الأقباط وهدم الذين وإن لم يكونوا يملكون القوَّة لصد الغازين لأوطانهم، إلاَّ أنهم لم يرحبوا بهم. لقد نظر الأقباط إلى الصليبيِّين على أنهم أعداء الشَّرق، ولم ينخدعوا بعلامة الصليب التي جعلوها شارة لهم، لأن الصليب لم يكن أبداً أداة حرب بل سلام، ولم يكن أبداً علامة تجرُّر وتسلُّط بل حب وتسامح هو أعظم بكثير من القوَّة. لقد كانت الحملات الصليبيَّة علامة حزري في جبين المسيحيَّة الغربيَّة التي فقدت حيناً الرؤيَّة الصَّحيحة لمعنى الصليب^(١).

ولغيط الصليبيِّين من عدم مساعدة الأقباط لهم أصدروا قانوناً يمنع الأقباط ومعهم أهل السودان من زيارة القبر المقدَّس بعد أن سيطروا على فلسطين ردحا من الزَّمان.

١ - صدرت جريدة الأهرام في ١٢/٣/٢٠٠٠م وعلى صفحتها الأولى عنوان: "الفايكان يعتذر عن الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش".

حالة الأقباط في العصر الأيوبي

بدأ الحكم الأيوبي بداية سيئة، لأن صلاح الدين أعاد سنة ١١٨١م القوانين الخاصة بأهل الذمة، وأبعد المسيحيين عن العمل في دواوين الحكومة، مما دفع البعض منهم إلى إنكار الإيمان. ولكن هذا الوضع لم يدم طويلاً لأن الإدارة الأيوبيّة كانت في حاجة إلى كفاءة المسيحيين وخدمتهم. وعموماً كان حال الأقباط في عصر الدولة الأيوبيّة أفضل من غيرها.

وفي هذه الفترة من التاريخ لا يمكننا أن نغفل أن الحملات الصليبيّة قد أوجدت هوة عميقة بين المسيحيّة والإسلام. ولكن الأقباط ظلوا آمنين طوال العصر الأيوبي، وبلغوا مبلغاً كبيراً من الثروة والنفوذ.

الملوك الذين حكموا مصر بعد صلاح الدين

تملك الملك العادل (١٢٠٠ - ١٢١٨م) أخو صلاح الدين الحكم، واستطاع المحافظة على تماسك الدولة بعد المنازعات التي حدثت عقب موت صلاح الدين. ومن بعده جاء الملك الكامل (١٢١٨ - ١٢٣٨م)، وهو الذي أنشأ مدينة المنصورة سنة ١٢٢١م. وفي عهده هاجم الصليبيون دمياط ضمن الحملة الصليبيّة الخامسة، واستولوا عليها، وباعوا سكانها بيع العبيد، وحوّلوا مساجدها إلى كنائس، واضطروهم الملك الكامل إلى إخراجها سنة ١٢٢١م.

وجاء الملك العادل الثاني (١٢٣٨ - ١٢٤٠م). ومن بعده الملك الصالح أيوب (١٢٤٠ - ١٢٥٠م)، وفي أيامه نزل لويس التاسع إلى دمياط ليحتلها سنة ١٢٤٩م، في الحملة الصليبيّة السادسة، وأثناء تحركهم إلى

المنصورة مات الملك الصَّالح فأخفت زوجته شجرة الدُّر^(٢) خبر وفاته عن الجيش حتى لا يفشلوا، وواصلوا المعركة بقيادة الظَّاهر بيبرس وقطرز وفارس الدِّين أقطاي. ثم سلَّمت شجرة الدُّر طوران شاه سلطنة أبيه سنة ١٢٥٠م، وقاد المعركة إلى نهايتها الظَّافرة، ولكن المماليك قتلوه في نهايتها^(٣). وفي عهد الظَّاهر بيبرس ألزم بطريك الأقباط بدفع مبالغ طائلة تعويضاً عن خسائر حريق شبَّ في القاهرة وأتهم الأقباط بتدبيره، والتزم البطريرك طبعاً بهذه الأموال.

جدول بأسماء الأيوبيِّين في مصر

سنة توليهم الحكم	أسماء الحكَّام الأيوبيِّين
١١٧٤م	الناصر صلاح الدِّين يوسف بن أيوب
١١٩٣م	العزیز عثمان بن صلاح الدين
١١٩٨م	المنصور محمد بن عثمان
١١٩٩م	العادل (الأوَّل) أحمد بن عثمان
١٢١٨م	الكامل محمد بن أحمد
١٢٣٨م	العادل (الثَّاني) محمد بن محمد
١٢٤٠م	الصلاح نجم الدين أيوب بن محمد
١٢٤٩م	المعظم توران شاه بن نجم الدِّين

٢- يشير إليها الكثيرون خطأ باسم "شجرة الدُّر"، ولكن الاسم الصَّحيح هو "شجر الدُّر".

٣- حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٧٢

ثانياً: عصر المماليك

إن نشوء دولة المماليك أمر عجيب يكاد أن يكون فريداً من نوعه في التاريخ. فالمماليك كما يدل اسمهم هم أصلاً من الرقيق ذوي الجنسيات المختلفة، ولكنهم استطاعوا أن يجعلوا من أنفسهم طبقة عسكرية حاكمة وفي بلاد غير بلادهم الأصليّة.

لقد وضع أساس سلطنة المماليك امرأة هي شجر الدر، أرملة الملك الصّالح الأيوبي المتوفى سنة ١٢٤٩م. وقد كانت هذه المرأة في أول نشأتها أمة أرمينية، ثم صارت جارية للخليفة المستعصم، وبعد ذلك دخلت في حوار الصّالح فأعتقها بعد أن ولدت له صبياً. وعندما توفي الصّالح، كان ابنه الأشرف ما يزال صبياً صغيراً، فقامت شجر الدر بمهمة الوصاية عليه، فكانت بالفعل هي الحاكم الحقيقي للبلاد. وهنا أرسل سيدها السابق الخليفة المستعصم يعاتب أمراء مصر قائلاً: إن كان ما تبقى عندكم رجل تولونه فقولوا لنا نرسل إليكم رجلاً.

وقامت شجر الدر بإدارة شؤون السلطنة مدة ثمانين يوماً، وهي المرأة المسلمة الوحيدة التي حكمت بلاداً في شمال أفريقيا وغرب آسيا. وظلت تمارس سلطتها المطلقة في تلك البلدان، وضربت النقود باسمها، وأمّرت بأن يُخطب لها أيام الجمعة على المنابر.

ولما اختار الأمراء قائد جيشها عز الدين أيبك التركماني (١٢٥٠-١٢٥٧م) سلطاناً على البلاد تزوّجت منه. وسرعان ما خلع أيبك الأشرف الطفل وتخلّص من قائده. ولكن شجر الدر لم تكن بمشاركة أيبك في الملك بل فرضت إرادتها عليه. ولما بلغها أنه يريد الزّواج بامرأة ثانية، دبّرت له مكيدة قُتل بها في الحمام الملكي بقلعة القاهرة.

غير أن شجر الدرّ نفسها لم يطل عمرها بعد ذلك، إذ قُتلت هي بدورها بأيدي حواري زوجة أليك الأولى ضرباً بالقباقيب، وطُرحت جثتها من برج القلعة.

هذه هي "شجرة الدرّ" تلك الجارية الأرمينية التي قدمت مصر لقمة سائغة إلى بني جنسها المماليك ليحكموا مصر قرابة قرنان ونصف من الزّمان أو يزيد^(٤).

عيد غرباء يحكمون مصر!

يتساءل الأستاذ جمال بدوي، كيف سكت المصريون - وهم أبناء المجد القديم والحضارة العريقة - على استبداد المماليك وانفرادهم بالحكم دونهم؟ كيف تقبّل المصريون هذا الوضع المهين واستسلموا له كأنه قدر لا فكاك منه؟ هذا السؤال يجب أن يطرحه كل مصري على نفسه ويبحث عن الجواب^(٥). لقد تقبّل المصريون الأمر الواقع باستسلام وطواعية، ولم تظهر عليهم بادرة تمرد أو سخط لأنهم كانوا قد فقدوا القدرة على التمرد والسخط منذ أن حكمهم الأغرّاب قبل ١٥٠٠ سنة، فقد كان هذا شأن تاريخهم السياسي من أقدم الأزمان، أن تتبدّل عليهم السّادة وتتعاقب، ولم يشعروا بالدهشة إذ تحكمهم جارية مجهولة الهوية.

تولى الحكم بعد شجر الدرّ سلاطين المماليك، وهم ينقسمون إلى:

١- دولة المماليك البحريّة (١٢٥٠ - ١٣٨٢ م).

٢- دولة المماليك البرجيّة (١٣٨٢ - ١٥١٧ م).

٤- جمال بدوي، نظرات في تاريخ مصر، مرجع سابق، ص ١٠.

٥- د. سيدة إسمايل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٢١.

وبلغ عدد سلاطين دولة المماليك البحرية أربعة وعشرين باستثناء شجر الدر، أما سلاطين البرجية فقد كانوا ثلاثة وعشرين.

دولة المماليك البحرية

هم سكان جزيرة الروضة لذلك سموا بالمماليك البحرية. وهم مغامرون قادمون من فيافي القوقاز، وهم أصلاً من رقيق الصالح الأيوبي، وكانوا من الترك أو المغول. أما المماليك البرجية فقد سموا كذلك لأنهم سكنوا أبراج قلعة الجبل، وكانوا أصلاً الحرس الخاص للمملوك السلطان قلاوون، وكان معظمهم أرقاء شراكسة.

أنجب المماليك شخصيتين أسطورتين في شجاعتها هما السلطان قطز والسلطان الظاهر بيبرس البندقداري (١٢٦٠ - ١٢٧٧م)، وهذا الأخير هو الذي بنى سنة ١٢٦٩م مسجده في الحي المعروف باسمه حتى اليوم.

ومن بعده جاء المنصور قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠م)، وحارب المغول وصدّهم. وبذلك يمكن القول بأن الأيوبيين ومماليكهم أزاحوا عن مصر أكبر خطر تهدّدها في عصرها الوسيط^(٦).

ثم جاء الأشرف خليل (١٢٩٠ - ١٢٩٣م) وقضى على آخر حصن للصليبيين في الأرض المقدسة بالاستيلاء على عكا سنة ١٢٩١م.

وجاء الناصر محمد بن قلاوون (١٢٩٣ - ١٣٤٠م) وهو من أعظم سلاطين المماليك، وتولى الملك وهو ابن تسع سنين. وكان بناءً عظيمًا، وتعد الآثار التي تركها من كنوز القاهرة، ومن بينها السور المائي الكبير فيما بين فم الخليج والقلعة، المعروف بسور "السبع سواقي".

دولة المماليك البُرْجِيَّة

كان آخر أولاد قلاوون الذين تولوا عرش المماليك البحريَّة هو الغلام حاجي، وسنه ست سنوات. فكانت فرصة انتهبها العملاق الجركسي برقوق (١٣٨٢-١٣٩٩م)، فأزاح الغلام عن كرسي الملكة وتولى السُّلْطَنَة مُوسَّساً بذلك أسرة المماليك الشَّرَاكِسَة أو المماليك البُرْجِيَّة.

وكان برقوق بناءً عظيمًا، دفع عن الشَّرْق الأدنى زحف المغول، وهم برابرة من أواسط آسيا بقيادة تيمور الأعرج (لنك).

ومن بعده تولى ابنه السُّلْطَان فرج بن برقوق السُّلْطَنَة (١٣٩٩-١٤١٢م) وكان في الثالثة عشر من عمره. ثار عليه الأمراء وقضوا عليه، وعلى رأسهم الأمير شيخ محمودي.

تولى السُّلْطَان المُوَيْد شيخ (١٤١٢-١٤٢١م)، وكان من أشد الملوك اضطهاداً لأهل الذِّمَّة، فحكم عليهم بلبس ملابس من لون خاص، وعمامات سوداء، ويحمل صلبان أو كرات كبيرة من الخشب في رقابهم^(٧). ويذكر المقرئزي - المعاصر لتلك الأحداث - أنه بعد الأوامر المتشدِّدة على أهل الذِّمَّة التي صدرت في سنة ٨٢٢هـ / ١٤١٩م، اعتنق بعض الموظفين من أهل الذمة الإسلام وصاروا يتعاضمون "على أعيان أهل الإسلام، والانتقام منهم باذلالهم وتعويق معاليمهم ورواتبهم حتى يخضعوا لهم ويتردَّدوا إلى دورهم ويلحوا في السؤال، ولا حول ولا قوة إلا بالله..."^(٨).

وجاء الأشرف برسبائي (١٤٢٢-١٤٣٨م) بعد أن أزاح الطفل ابن

٧- حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٧٦

٨- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ١٥٨

المؤيد شيخ من السلطنة. وفي الفترة من (سنة ١٤٦٠ - ١٤٦٧ م) ازداد التشدد في منع ترميم الكنائس حتى أن السلطان الظاهر خشقدم استحدث وظيفة جديدة عين لها الأمير جانبك الدوادار للتفتيش على الكنائس ومراقبة ما يتجدد فيها، إلى حد أن أرسلت سفارات من الدولة البيزنطية والحبشية للشفاعة في فتح الكنائس^(٩).

ومن بعده كان السلطان قايتباي (١٤٦٨ - ١٤٩٦ م). ويذكر ابن إياس أنه في سنة ٩٨٣هـ / ١٤٨٧ م أحضر السلطان الأشرف قايتباي بطريك النصارى ورئيس اليهود وألزمهما بمبالغ من المال اللازم لتجهيز الجيش لقتال العثمانيين^(١٠).

وجاء السلطان قانصوه الغوري (١٥٠١ - ١٥١٦ م) الذي هزمت جيوشه في معركة مرج دابق بسبب خيانة بعض أمراءه. أما آخر سلاطين المماليك طومان باي فقد أسره سليم الأول بعد حرب دارت رحاها في شوارع القاهرة، وينتهي أمره بالشنق على باب زويلة، فتحوّل مصر إلى ولاية عثمانية.

الجواري في عصر المماليك

انتشرت أسواق الجواري في مصر وكانت تجارة الرقيق رائجة في ذلك الوقت، وكان لكل نوع من هؤلاء الجواري سوق خاصة به. فالجواري السود كن يُباعن في أسواق أسيوط والقاهرة، وكان في القسطاط دار تُسمى دار البركة أو بركة الرقيق يُباع فيها هذا النوع من

٩ - نفس المرجع، ص ١٥٩

١٠ - نفس المرجع، ص ١١٣

الرَّقِيق. أما الرَّقِيق الأبيض فكانت سوقه قرب الجامع الأزهر^(١١).

لقد كانت الجوارى تشكّل كثرة عددية في مجتمع القاهرة، وعلى الأخص في دولة المماليك الأولى، بحيث لا نغالي إذا قلنا أنه قل أن تجد داراً إلا وبها بعض الجوارى. فقد حاكى الأمراء والأهالي سلاطين المماليك في الإكثار من الجوارى. وكان طبيعياً أن يقتني الكهنة الأقباط الجوارى لأعمال الخدمة المنزلية، ففي وثيقة مكتوبة باللغة العربية جاء فيها أن قنصل البندقيَّة بالإسكندرية اشترى من يوحنا الكاهن القبطي جاريتته "مباركة" النويَّة المسيحيَّة^(١٢).

وانتشر التَّسري بين الأقباط، واقتنى الأقباط الجوارى في درجاتهم الاجتماعية المختلفة. ويقول المقرئ في حديثه عن النَّصارى سنة ٧٥٤هـ / ١٣٥٣م، أيام الملك الصَّالح صالح بن النَّاصر محمد، يقول إهم اقتنوا الجوارى الجميلات من الأتراك والمولدات، ولكن اشترط عليهم ألا يشتروا من الرَّقِيق مسلماً أو مسلمة^(١٣).

ولكثرة الجوارى من كل جنس ودين زهد الرَّجل في المرأة الحرَّة، وتفشَّت الأمراض الاجتماعية في مصر إلى حد مؤسف.

حالة الأقباط في عصر المماليك

ظل الإسلام ينتشر في مصر باضطراب، وحدث في عصر النَّاصر محمد

١١ - نفس المرجع، ص ٩

١٢ - نفس المرجع، ص ٢٦٢٩

١٣ - د. علي السيد محمود، الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامة

للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ١٥

بن قلاوون منذ سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م، أن دخل المسيحيون أفواجاً في الدين الإسلامي على أثر المشاغبات والفتن بين المسلمين والأقباط، والظاهر أن حياد الحكومة نفسها وهدوء موقفها إزاء القبط لم يمنع الشعب نفسه من أن يسئ معاملة القبط، ويبدو أن الدواوين كانت غاصة بالقبط إلى عصر المماليك، مما كان سبباً في قيام عدة ثورات في هذا العصر كان المسلمون يهدفون بها إلى إخراجهم من الدواوين^(١٤).

ولكن المقريري يذكر أنه في نفس هذا العهد، أي عهد الناصر محمد بن قلاوون لم يستطع وزير من مراكش زار مصر سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠١م، أن يميز بين المسلمين وبين أهل الذمة في مصر إذ كانوا يلبسون أفخر الملابس ويركبون الخيل والبغال ويتولون أرفع المناصب في مصر^(١٥). ونحن لا نستطيع أن نقطع ما يذكره المقريري عن عهد الناصر محمد بن قلاوون في عبارته السابقة لنعمّمها على كل عصره، لأن الأقباط ما كانوا يفلتون من هياج العامة وبطشهم، والذين دعاهم المقريري سفلة العامة الأشرار^(١٦)، على حد قوله، وذلك على مرأى ومسمع من الحكومة التي كانت لا تتدخل مطلقاً في مثل هذه الهوجات إلا في حالات اختلال الأمن فقط، من أجل الأمن لذاته وليس لشيء آخر.

كما كانت الحكومة تضطر أحياناً إلى مجارة الدهماء حين يشورون ضد أهل الذمة لأسباب مختلفة، فكانت تقوم التشريعات الخاصة بالموظفين القبط ... لكن هذه التشريعات لم تكن أحكاماً إسلامية وإنما أحكاماً

١٤ - د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٣٤٩

١٥ - د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ١٦

١٦ - المقريري، السلوك ج ٤ القسم الثالث، ص ١٠٣٥. مقتبس عن: د. سيدة إسماعيل

كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ١٢٧

مدنيَّة لا يضبطها سوى الظروف الوقتية التي أحاطت بها^(١٧).

ومعروف أنه قد بُدء بفرض القيود على أهل الذمة في عصر المماليك في سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠١م بمرسوم أصدره السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وجدده السلطان الصالح صالح بن الناصر محمد بن قلاوون (١٣٤٧ - ١٣٦١م) في سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، وحفظه لنا القلقشندي وأشار إليه المؤرِّخون يذكر فيه منع أهل الذمة في دواوين الدولة والأمراء حتى في حالة إعلامهم الإسلام^(١٨).

ودأبت دولة المماليك على مصادرة أوقاف الكنيسة القبطية، وكانت أكبر هذه المصادرات ما تم في سنة ١٣٥٤م، حيث صودر حوالي ٢٥ ألف فدان من أراضي وأوقاف الكنائس والأديرة.

مجمَل القول عن عصر المماليك

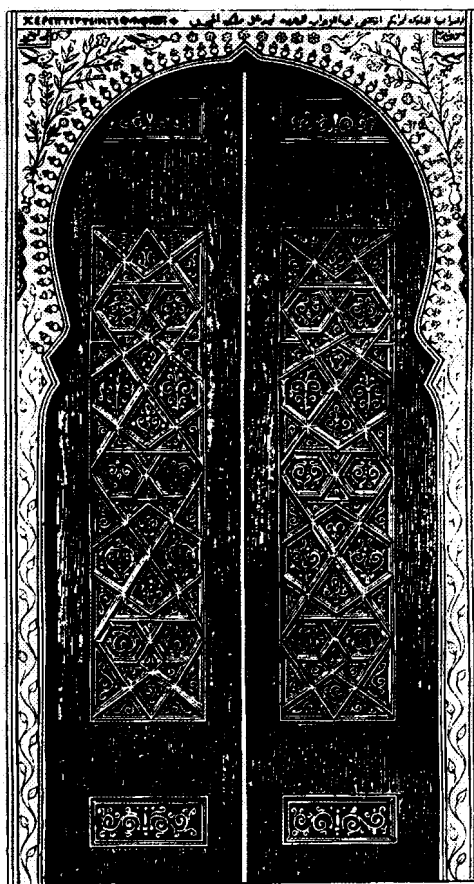
كان عهد المماليك من أسوأ عهود مصر، وتشير الإحصائيات الحديثة إلى أن ٥٠% من آثار مصر التي خرجت منها - سواء بطريق السرقة أو البيع أو تقديم الهدايا - وتوزعت على كل بلاد العالم ومتاحفه كانت في عصر المماليك وحدهم. ومن جهة أخرى، قد نجح هؤلاء السلاطين المماليك في تطهير مملكتهم في مصر وسوريا من بقايا الصليبيين، وصدوا إلى الأبد تقدم جيوش المغول التي قادها هولاكو وتيمور لانك، ولولا عصر المماليك لكانت جيوش المغول قد غيرت مجرى التاريخ والثقافة في غربي آسيا ومصر.

١٧ - نفس المرجع، ص ١٤٠

١٨ - نفس المرجع، ص ١٥٦، ١٥٨

ومع كل هذا، وبرغم كل ذلك، نجد مصر في الفترة ما بين الفتح العربي والفتح العثماني لم تصبح دولة إسلامية فحسب، بل وتزعمت العالم الإسلامي كله. فبعد أن كانت مصر خاضعة للخلافة في عهد الولاة نجدها تصبح مركزاً للخلافة الفاطمية (٣٦٢-٥٦٧هـ/ ٩٧٣-١١٧٢م) التي نافست الخلافة العباسية في وقت ما، ثم نجد مصر تصبح مركزاً للخلافة العباسية بعد زوالها من بغداد على أيدي المغول في سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وانتقالها إلى مصر في عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م، تلك الخلافة التي ظلت قائمة بها إلى الفتح العثماني سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م. والدليل على علو شأن مصر في العالم الإسلامي منذ العصور الوسطى هو ما ورد في مقدمة بن خلدون تحت فصل (أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم) حيث يقول: "ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان الإسلام، وينبوع العلم والصنائع"^(١٩).





الفصل التاسع
كنيسة مصر
في العصر العثماني

فتح العثمانيون مصر في سنة ١٥١٧م بقيادة السلطان سليم الأول، ومنذ ذلك التاريخ صارت مصر ولاية عثمانية حتى آخر القرن الثامن عشر، بعد أن كانت قاعدة لدولة كبرى. وتشمل هذه الفترة مجي الحملة الفرنسية إلى مصر.

لقد كان الاحتلال العثماني لمصر وبالاً عليها، إذ كان عصر انحلال وظلم، فقد جرّ البلاد إلى حالة مزرية من التخلف أكثر مما آل إليه أمرها. كابد فيه الشعب المصري من جور الحكّام واستبدادهم ما يفوق الوصف. وفي هذا العصر البغيض اعتنق كثير من الصنّاع المسيحيين الديانة الإسلامية.

وأدى الصّراع على السّلمة في مصر بين الدّولة العثمانية والمماليك إلى زعزعة الاستقرار وضعف الإدارة. وكانت الإدارة الضّعيفة للبلاد سبباً مباشراً في إثارة الفتنة بين الرّعيّة من مسلمين وأقباط. ويقول الدكتور محمد عفيفي: والقول بأن الإدارة تميّز المسلمين عن الأقباط تحوطه بعض التّحفظات، فالمسلمون والأقباط عانوا معاً من المظالم الإدارية والاقتصادية لحملة حسن باشا، ولذلك لجأ العامة (من النّاس) إلى التّنفيس عن أنفسهم باضطهاد الأقباط، سواء لأسباب مالية لمواجهة المعاناة الاقتصادية التي تطحنهم، أو لأسباب معنوية لإيهام أنفسهم بأنهم في مكانة أعلى من الأقباط، فالمضطهد الذي لا يملك سبيلاً لدفع الأذى عن نفسه يسقطه على غيره، وواضح أن الإدارة التي تبطش بالجميع، قد أعطت الضّوء

الأخضر لحوادث العامة ضد الأقباط^(١).

وكان للبكوات الماليك^(٢) كلمة مسموعة في مصر إلى جانب الباشا الوالي العثماني. فقد عاشت مصر أكثر من خمسمائة عام تحت الحكم المملوكي، الذي ظلَّ يَحْيِمُ على الحياة في البلاد، حيث ظلَّ الحال كما هو في الواقع بالرَّغم من الفتح العثماني^(٣).

لقد كان المملوكان الغاصبان علي بك ومراد بك، يتمتَّعان بقدر هائل من قلة الحياء، فهما أسدان جسوران على الشعب المصري المسلم المستكين، فلا يتورعان عن حرق القرى وتدمير المزروعات، وهتك الأعراس، وسبي النساء، وسفك الدماء، وتشريد النَّاس من أجل حفنة ريبالات. ولكنهما كانا أرنيين هزيلين في ساحة الوغى^(٤). وكانت المظالم المائيَّة على الأقباط ومعهم المسلمين في أيام مراد بك وإبراهيم بك قد وصلت إلى حد شديد الوقع على النَّاس حتى ضجوا.

خلاصة القول في العصر العثماني

يلخِّص الدكتور طه حسين هذا العصر بقوله: "... نعم لقد عبرت على أهل الشَّرْق القريب عواد، وألَّت بهم ملمَّات قطعت الصِّلَّة بينهم

١- الدكتور محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٩٥، ٩٧

٢- أمثال علي بك الكبير (١٧٦٨-١٧٧٣م)، ومحمد بك أبو الذهب (١٧٧٣م) الذي خان مولاه علي بك، واستولى على الحكم بعد أن قضى عليه، ومن بعد موته جاء مراد بك المحمدي، وإبراهيم بك المحمدي نسبة إلى محمد بك أبو الذهب.

٣- الدكتور حلمي أحمد شلبي، الموظفون في مصر في عصر محمد علي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ١٢

٤- جمال بدوي، نظرات في تاريخ مصر، مرجع سابق، ص ٢٥

وبين أوروبا حيناً، وأفسدت عليهم أمرهم إفساداً عظيماً، ومكنت لأوروبا من أن تمضي في نهضتها حتى تقطع في سبيل الرُّقي شوطاً بعيداً، على حين أخذ هذا الشَّرْق القريب ينحط، ويسرف في الانحطاط، حتى كاد يفقد شخصيَّته العقليَّة. ثم أفاقت مصر، وأفاق معها الشَّرْق القريب، فإذا أوروبا قد بلغت من الرُّقي حظاً عظيماً، وبسطت سلطانها على أعظم أقطار الأرض، وكان ذلك حين أغار العنصر التُّركي على هذه الأقطار الإسلاميَّة في حوض بحر الرُّوم، فردَّها إلى الانحطاط بعد الرُّقي، وإلى الجهالة بعد العلم، وإلى الضَّعف بعد القوَّة، ومحا أو كاد يححو منها أعلام الحضارة، وقطع الصِّلَّة بينها وبين أوروبا دهرًا^(٥).

كانت أوروبا تموج بالحياة الناهضة والأفكار والنُّظم الاقتصاديَّة المتقدِّمة، وكان الشَّرْق ومعها مصر يغط في نوم التعصُّب الدِّيني والعنصريَّة البغيضة، فكان من قبيل الظُّلم عقد أي مقارنة من أي وجه من الوجوه بين حضارة الشَّرْق آنئذ وحضارة الغرب. ولم يكن الشَّرْق يملك إزاء هذا الفرق الشَّاسع بين الحضارتين سوى التَّعني بحضارته القديمة، وكأنَّ الماضي المجيد يُغني عن الحاضر البائس.

حالة الأقباط في العصر العثماني

كان المستوى الثقافي لمعظم رجال الدِّين الأقباط يتناسب إلى حد كبير مع المناخ الثقافي السَّائد في الشَّرْق آنذاك.

ويقول الدكتور عبد العظيم رمضان: قد شهد العصر العثماني الفصل الأخير من تطبيق عهد الذِّمة على الأقباط، قبل البحث عن صيغة جديدة للعلاقات بين المسلمين والأقباط في القرن التَّاسع عشر، هي صيغة الوطنيَّة

والمواطنة^(٦). ولكن حتى القرن العشرين، ظلّ الحديث عن أهل الذّمة، وبعض بنود عهد الذّمة مادة للحديث - ولكن في ثوب عصري - في بعض المؤلّفات الإسلاميّة المتشدّدة سواء من متشدّد أصولي، أو متحرر عصري. وإنّ بهذا أو بذاك خاضت الكنيسة مسيرتها وستواصلها بوعد من إلهها حتى النهاية.

ويقول الدكتور عبد العظيم رمضان: لم يرس القرن التاسع عشر ولا القرن العشرين أساساً متينة لمفهوم الوطنيّة، ولم يُترجم هذا المفهوم بصورة واقعيّة ملموسة. وبقي مفهوم الوطنيّة مفهوماً هلامياً إلى حد كبير يرده البعض دون محاولة الاقتراب منه ووضعه في صيغة عمليّة^(٧).

ومما لاشك فيه أنّ العصر العثماني قد شهد تطبيق الشّروط العمريّة على أهل الذّمة تطبيقاً محفّافاً غير من العصور السّابقة عليه، بل فرض على الأقباط إتاوات استحدثتها الخلافة العثمانيّة بدون أيّ وازع من ضمير. فمثلاً لم يتمكّن الأقباط من تشييع جنازة البابا متاؤس الرّابع البابا الـ ١٠٢، إلاّ في مقابل دفع مبلغ كبير من المال لتسمح لهم الإدارة بذلك^(٨)، وهذا راجع طبعاً إلى أحد الشّروط المستحبة في عقد الذّمة.

وشهد تحصيل الجزية الكثير من مظاهر التعسّف، حتى فرضت الجزية على الجميع، ولم يسلم منها راهب ولا أسقف ولا قس ولا طفل^(٩)، كما حدث في عهد البابا بطرس الـ ١٠٤. وفي سنة ١٧٣٤م زادت ضريبة الجزية عما كانت عليه إلى ضعفين تقريباً، وصار منوطاً ببطريك الكنيسة

٦ - الدكتور محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، المقدمة ص ٥

٧ - نفس المرجع، ص ٢٩٩

٨ - انظر: نفس المرجع، ص ٤٨

٩ - نفس المرجع، ص ٣٦

الالتزام بتحصيلها، أو التعرُّض للعقاب والإذلال، مما شكّل كثيراً من الأذى المادي والتَّفسي له وللكنيسة.

ومن المؤسف حقاً أن يقرّر الدكتور محمد عفيفي أنه: من النَّاحية النَّظريَّة يُعد ذلك من قبيل منح البابا سلطاته الطبيعيَّة على الأقباط والحيلولة دون وقوع بعض التعسف من جانب المحصلين، أضف إلى ذلك ضمان وصول كامل المال المطلوب إلى خزانة الدَّولة، وهي نظرية علي قدر كبير من الصَّحة غير أن تحصيل هذه الصَّرية كان يمثل عبئاً كبيراً على البابا^(١٠). ولست أدري من أين استقى الدكتور محمد عفيفي نظريَّة أنه من بين السُّلطات الطبيعيَّة للبابا تحصيل الأموال من رعاياه.

إن طواف بطاركة الكنيسة على مُدن وقرى صعيد مصر لجمع الجزية من الأقباط، وتكرار هذه المهانة مع كثير من بطاركة الكنيسة^(١١) لا يُكسب الأمر صفته الشرعية حتى يوصف بأنه "أمر على قدر كبير من الصَّحة"، لا بل هو دليل على قدر كبير من الوضوح لما وصل إليه جور الحكام وتعسفهم عصرئذ.

وبرغم أنه لم يُعرف عن الأقباط - كأقلية دينيَّة - العنف بصفة عامة، إلا أننا نرى أن الأعباء الاقتصاديَّة تدفع الإنسان دفْعاً إلى الحركة. فتذكر بعض المصادر الإسلاميَّة أنه مع زيادة قيمة ضريبة الجوالي في عام ١٧٣٤م اعترض الأقباط على هذه الزيادة، واجتمعت كلمتهم على التَّجمع والذهاب إلى الدِّيوان، ليعرضوا ذلك الأمر على ولاة الأمور. فصعد حوالي ألف قبطي إلى القلعة لهذا السَّبب، فتصدى الجنود بالرصاص لهذه المظاهرة، فسقط اثنان من الأقباط قتلى وتفرَّق الباقون، ولم تسفر

١٠ - نفس المرجع، ص ٣٥

١١ - مثل البابا يوحنا الـ ٦٦، والبابا غبريال الـ ٩٥، والبابا يوحنا الـ ١٠٥، وغيرهم.

هذه المظاهرة عن شيء، واستمرت الزيادة في الضريبة كما هي^(١٢).

وفي عصر العثمانيين فرضت على الأقباط من جديد قيود الزِّي، حيث في سنة ١٥٨٢م اختص اللون الأزرق لثياب المسيحيين واللون الأسود لعمامتهم، واللون الأصفر لثياب اليهود، حيث اختص المسلم باللون الأبيض. مع التزام أهل الذمة بشد الوسط بزئار. ولكن في سنة ١٦٤٩م ظهر اللون الأزرق كلون مسموح به لشال عمامة القبطي دون اللون الأحمر، وألاً يزيد طول شال القبطي عن عشر أذرع، حتى لا يكون للقبطي عمامة عظيمة، لأن عظم العمامة دلالة على مكانة صاحبها!!! وفي سنة ١٦٧٧م صدرت أوامر بصيغ عمامة القبطي باللون الأسود، ويذكر الرحالة بيتس Pitts الذي زار مصر في سنة ١٦٨٥م أن عمامة القبطي مقلّمة بين الأبيض والأزرق، ونفس الشيء يذكره الرحالة نيور سنة ١٧٧٦م. وفي نفس هذه السنة مُنعت نساء الأقباط من لبس "الإزار" وهو الملاءة الفضفاضة التي تلبسها المرأة فوق ملابسها. فمُنعت النساء من لبس الإزار الأبيض، لأنه يختص بالمرأة المسلمة. ثم حدث تطوُّر آخر مفاده أن لكل إنسان أن يختار لملابسه اللون الذي يريده عدا اللون الأخضر، لميل المسلمين إلى هذا اللون. بل وصل الأمر إلى فرض قيود على أحذية أهل الذمة... الخ^(١٣).

ويعقّب الدكتور محمد عفيفي بقوله: "والشيء الثابت دوماً هو محاولة التمييز بين المسلم وغير المسلم من ناحية الملابس، ربما ليسهل التعرف على عناصر المجتمع، وفي نفس الوقت محاولة إشعار القبطي

١٢- انظر: د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ٤١.

١٣- نفس المرجع، ص ٥٥ وما قبله.

بالدُّونِيَّة بالنسبة للمسلم “(١٤).

ولم يُسمح لأهل الذِّمة بركوب الجياد، بل سُمح لهم بركوب الحمير فقط، ومن ناحية واحدة! واستمرت هذه القيود مفروضة على الأقباط في العصر العثماني.

ولعل القارئ العزيز يكتشف دون عناء، ودون رغبة منَّا في مزيد، مقدار التخلف الذي وصلت إليه أمة أهمكت في المظهر دون الجوهر، وانشغلت بأمور تافهة، كدليل ما بعده دليل على انهيار أسس الحياة الكريمة لشعب له أقدم تاريخ وأعرق حضارة. ولعله غاب عن البعض أن المسيحي يرى في احتماله للصليب من أجل المسيح منتهي مجده وفخره، وإلا لما ظلت الكنيسة باقية حتى اليوم.

(أ) تقييد صارم على بناء الكنائس

أما فيما يختص بالكنائس، فلم يسمح العثمانيون للأقباط ببناء أي كنائس جديدة، مع الإبقاء على ما تبقى من الكنائس التي كانت قائمة قبل الفتح العربي للبلاد، والسَّمَّاح أحياناً بترميم الكنائس القديمة من الأنقاض القديمة ذاتها، أي بدون استخدام مؤن معمارية جديدة. وإذا لم تكف الأنقاض القديمة في ترميم ما تصدَّع من البناء، فيجوز استخدام مؤن معمارية جديدة من نفس نوع الأنقاض القديمة، بحيث يعود بناء الكنيسة إلى شكله القديم، ولا يتم إجراء توسُّعات أو إحداث زيادة فيه (١٥).

ولم يتمكن المعلم إبراهيم الجوهري، كبير المباشرين في عهد

١٤ - نفس المرجع، ص ٥٥

١٥ - نفس المرجع، ص ٨٠، ٨٣

العثمانيين، من بناء كنيسة واحدة في حي الأزربيكية^(١٦) الذي كان يقطنه، برغم كثرة عدد المسيحيين فيه، وحتى كنيسة القديس مرقوريوس أبو السيفين التي بناها بجانب كنيسة العذراء بجارة زويلة بالقاهرة، كانت في الأصل كنيسة قائمة منذ أيام المعز لدين الله الفاطمي، وقد هدمها الغوغاء أكثر من مرة. وبعد بنائها سعى بعض المسلمين إلى هدمها واستصدروا بذلك أمراً من الإدارة، ولكنها نجت من أيديهم بمعجزة^(١٧). وإن مجرد إمكان حصر الأحداث الخاصة ببناء أو تعمیر الكنائس في هذا العصر هو دليل دامغ على ندرتها على وجه العموم.

لقد كانت الشروط المحففة فيما يختص بالكنائس سواء من جهة بنائها أو حتى ترميمها مثار ألم وحزن وضحك للأقباط على مدى العصر العثماني على وجه الخصوص. فالقليل الذي كان يتغاضى عنه الحكام كان لا يفلت من ثورة العامة وهياجهم وبطشهم، على مرأى من الإدارة وسمعها.

ويُحكى - ضمن ما يُحكى - أن قصد الوالي مدينة المحلة الكبرى في أيام البابا متاؤس الثالث (١٦٣١ - ١٦٤٦م) البطريرك المائة، فوجد بها كنيسة كبيرة، من أفخم العمارات القديمة، فاستعظمها على الأقباط وأمر بهدمها وبني مكانها مدرسة إسلامية^(١٨).

١٦- اندمجت كثير من المناطق السكنية المحاورة للقاهرة إليها، وصارت جزءاً من المدينة، فمصر القديمة التي كان بها أقباط منذ عصور بعيدة وبها كنائس من القرن الرابع الميلادي صارت جزءاً من القاهرة، وحي الأزربيكية اليوم كان في الماضي يُعرف باسم قرية المقس، وكانت هذه القرية قبل الفتح الإسلامي قرية مسيحية خالصة، وبعد نشأة القاهرة الفاطمية ثم توسعاتها في عصر المماليك والعثمانيين اندمجت قرية المقس في القاهرة، ليصبح المقس في القرن الثامن عشر أكبر الأحياء القبطية في القاهرة.

١٧- د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ٨٦

١٨- نفس المرجع، ص ٨٦

(ب) الوظائف والحرف التي شغلها الأقباط

ومن أهم الوظائف التي شغلها الأقباط في عصر الدّولة العثمانيّة وظيفة "المباشر"، سواء في الإدارات الحكوميّة أو لدى الأمراء، ووظيفة "مباشر" تعني كبير جباة الضّرائب، وهي من أعلى الوظائف الحكوميّة. آنئذ، إذ كانت جباية الضّرائب هي العصب الرّئيسي لموارد خزينة الدّولة. ومن بين هؤلاء المباشرين نقرأ عن يوحنا المباشر النقادي، وجرجس بن شنودة بن إيليا، والمعلّم بشارة بن غيريال، والمعلّم شحاته بن سويدان، والمعلّم حبيش بن شحاته بن بقطر، والمعلّم إبراهيم بن غيريال، والمعلّم غالي بن يوحنا، والمعلّم جرجس بن ميخائيل المعروف بالمصري، والمعلّم جرجس أبو شحاته^(١٩)، والمعلّم لطف الله^(٢٠)، والمعلّم إبراهيم الجوهري الذي عمل لدى الأمير إبراهيم بك، والمعلم جرجس الجوهري، والمعلّم ملطي ... الخ.

ومن بين هؤلاء كلهم لم يعلق بذهن الأقباط سوى المعلّم إبراهيم الجوهري، كبير المباشرين في أيام علي بك الكبير. فالمعلّم إبراهيم الجوهري كان غنيا بالله قبل غناه بمال العالم، إذ أن غنى سخائه على الكنائس والأديرة، ووفرة عطائه للفقراء والمحتاجين، وسعة صدره التي احتوت المسلمين والمسيحيين على السّواء، إلى جانب حياته التي اتّسمت بروح مسيحيّة حقيقيّة، قد سجّلت اسمه في صفحة ناصعة البياض من سفر تاريخ الأقباط في مصر.

ويذكر دكتور محمد عفيفي أن المعلّم إبراهيم الجوهري بخدماته

١٩- هو زوج أخت المعلّم لطف الله.

٢٠- هو زوج ابنة أخ البابا يوانس السادس عشر (١٦٧٦ - ١٧١٨م)، وهو البابا

الـ ١٠٣ من باباوات الكرازة المرقسية.

العديدة التي أداها للكنيسة القبطية لا يُعتبر حالة فردية، ولكنه يمثل ذروة التعاون بين المباشرين والكنيسة القبطية في العصر العثماني^(٢١).

وكذلك عمل الأقباط في وظيفة "كاتب" أو "صراف"، في دار سك العملة، وفي إدارة الجمارك، وفي ديوان الجوالي المختص بشؤون الجزية، وديوان الحسبة، وفي إدارة الشؤون المالية للأوقاف الإسلامية^(٢٢). وفي اختصار ارتبط الأقباط في وظائفهم بالشؤون الإدارية والمالية لمصر عموماً والمالية خصوصاً. ولم يمكن لتعريب الدواوين في مصر أن تعزل الأقباط عن حرفة احترفوها منذ مئات السنين، أو في تعبير أدق لم يكن ممكناً للدواوين في مصر أن تستغني عن أقباطها.

وكانت مهنة الكتبة والصيارفة الأقباط تعود على أصحابها بشراء مادي ومكانة أدبية. ومع الثراء الاقتصادي للمباشرين كان الكثيرون منهم على وعي ثقافي، وقد ساعدوا في دعم الثقافة لدي إخوانهم الأقباط^(٢٣).

ويذكر جبرار في أوّل القرن التاسع عشر، وهو أحد علماء الحملة الفرنسية على مصر: أن عدد الأقباط وذويهم الذين يعيشون من الاشتغال بجباية الضرائب حوالي ثلاثين ألفاً^(٢٤). وإن استمرار الأقباط في تصريف شؤون جباية الضرائب عبر هذا الزمن العريض ينفي عنهم تهمة اختلاس الأموال.

٢١- د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ١٤٧
٢٢- مثل المعلم جرجس بن شنوده بن إيليا، المباشر بخدمة دولار أغا ناظر الدشيشة، وهي أوقاف الغلال المخصصة للحرمين. والمعلم رزق بن عبد السيد الذي عمل مع السلطان قايتباي.

انظر: د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ١٠٧

٢٣- نفس المرجع، ص ١٤١

٢٤- نفس المرجع، ص ١٢٥

ولكي ندرك مدى أهمية الدور الذي لعبه الكتبة والمباشرون الأقباط سواء على مستوى القرية أو على مستوى ولايات الأقاليم، أو حتى في الإدارة المركزية في القاهرة، ينبغي أن نعرف أن دفاتر ترويض الحملة الفرنسية التي وضعها علماء الحملة الفرنسية في سنة ١٨٠٠م تم إعدادها بالأساس استناداً إلى دفاتر المعلمين الأقباط الصيارفة والمباشرين^(٢٥). بل لقد امتد دورهم في هذا المجال حتى أوائل النصف الثاني من القرن العشرين، وهي الفترة التي تحوّلت فيها البلاد تحولاً اجتماعياً واقتصادياً جديداً بعد تبني سياسة الانفتاح الاقتصادي، التي أبرزت مجالات عمل جديدة غير مغطّية لم تعدها البلاد من قبل.

ولدينا شهادة من النصف الأوّل من القرن التاسع عشر عن ذلك أيضاً، إذ تقول المؤرّخة الإنجليزية "بوتشر" إن الحكومة أصبحت أكثر احتياجاً للأقباط في شؤون الإدارة. ويعلّل "كلوت بك" نشاط الأقباط في الإدارة الماليّة إلى أنهم من دون عامة المصريين أصحاب الدراية بهذه المعلومات الضّروريّة في هذا المجال^(٢٦).

أما عن الحرف التي مارسها الأقباط في العصر العثماني، فهي الفلاحة أي الزّراعة، إلى جانب حرف الجواهرجيّة والصّاعة والخياطة والنّجارة وأعمال العمارة والبناء والتّسيج والعطارة والبقالة... الخ. فإلى جانب الوظائف الكبيرة في الدّولة انتشر قطاع عريض منهم في مختلف مجالات الحياة الأخرى البسيطة والمتواضعة.

أما التّجارة الخارجيّة فكانت في العصر العثماني حكراً على عناصر غير مصريّة مثل الشّوام والمغاربة والأتراك والأوربيين. أما دور المصريين في

٢٥- نفس المرجع، ص ١١٤

٢٦- نفس المرجع، ص ١٠٨

ذلك فكان محدوداً^(٢٧).

(ج) التدهور الروحي الشديداً للأقباط في أواخر العصر العثماني

لا يمكننا أن نغفل أن أثرى الأقباط ظلوا يقتنون الجوارى، واستمر بعضهم يمارس التّسري برغم تحذيرات الكنيسة التي لم توت ثمارها في هذا المضمار. ويذكر الجبرتي أنه في أواخر القرن الثامن عشر، أرسل حسين باشا جنوداً ليقحموا بيوت الأقباط، ويجمعوا منها الجوارى، ويعلق الجبرتي قائلاً: "واستخرجوا ما فيها فكان شيئاً كثيراً^(٢٨)".

ولقد مارس بعض أثرى الأقباط إلى حوار التّسري، تعدّد الزّوجات، كمظهر من مظاهر التّرف، برغم تحذيرات الكنيسة المتتالية في هذا الشّأن. ووصل الأمر إلى حد أن تزعم أحد المطارنة الأقباط في القرن السّابع عشر، وهو مطران دمياط إباجة تعدّد الزّوجات، وذلك في أيام البابا مرقس الخامس (١٦٠٣ - ١٦١٩م)، الذي لم يجد أمامه سوى قطع المطران المذكور من شركة الكنيسة، وهو ما أزعج الكنيسة رداً من الزّمان، إذ استطاع أنصار تعدّد الزّوجات وهم بعض أثرى الأقباط في ذلك الحين من عزل البابا مرقس الخامس بالتّجائهم إلى الدّولة، ونصبوا راهباً من أنصارهم بطريكاً جديداً. ولكن كانت جموع الأقباط الغفيرة تقف وراء البابا المعزول، حتى لم يجد البطريرك الحكومي نصيراً له، فعاد البابا الشّرعي إلى كرسيه، لتنتهي فصول أكبر انشقاق داخلي عرفته الكنيسة القبطية في العصر العثماني^(٢٩).

وكان من الطّبيعي مع حالات تعدّد الزّوجات بين أثرى الأقباط أن

٢٧ - نفس المرجع، ص ١٧٥

٢٨ - نفس المرجع، ص ٥٩

٢٩ - نفس المرجع، ص ٢٧٦

تنتشر حالات الطَّلَاق بينهم. وكان البابا مرقس الثامن (١٧٩٧-١٨١٠م) قد أصدر منشوراً يُقرأ على الشَّعب في الكنيسة قال فيه ما نصح: "نعلمكم أيها الكهنة خدام المذبح من قبل الذين يطلقوا نساؤهم (نساءهم) ويتخذوا واحدة بعد واحدة فالتوبة والقانون لازم (لازماً) لهم إن رجعوا عن سالف إثمهم ويستردوا الامراء (المرأة) الأولى (الأولى) الذي (التي) هي المكمل عليها بجلول روح القدس. في انكان (أما إذا) لمن (لم) يرجعوا عن سالف إثمهم فلا أحد من الكهنة بأن يسمح لهم في القربان. وكلمن (وكل من) يسمح لهم في القربان فهو المطلوب بهم، لأن القوانين المقدسة تمنع لمثل هؤلاء^(٣٠)".

وهكذا وصلت سمعة الأقباط إلى حالة محزنة من التدهور الروحي، ونعتقد أن بعضاً من القلة الغنيَّة منهم هي التي وصلت إلى هذا الحد من الاتهيار الدِّيني، لكثرة الأموال في أيديهم وسط محيط أخلاقي فاسد. أما الغالبية الفقيرة فمن الصَّعب أن تكون قد انزلت إلى هذه الهوَّة.

ومع اقتراب القرن الثامن عشر من نهايته وصلت حالة الأقباط الروحيَّة إلى درجة مؤلمة من التردّي، فمن خطاب البابا مرقس الثامن (١٧٩٧-١٨١٠م) نعرف أن بعض الشَّعب القبطي مع الكهنة كانوا يسكرون في الكنيسة في ليالي الآحاد المقدَّسة، وأصدر الأنبا يوساب أسقف جرجا المعروف بالأبج، منشوراً ينهي الأقباط فيه عن بعض المظاهر غير الأخلاقيَّة التي تحدث في أفراحهم، إذ درج البعض على إحضار الرَّاقصات إليها. وانتشر لعب الميسر بين الأقباط، ولجأ كثيرون منهم إلى السَّحر، والصَّحيج والصَّحخب الذي لازم الأقباط في قدَّاساتهم في

٣٠- عن مخطوط ٣٤٥ لاهوت بمكتبة البطريكية، ورقة ١١٣

انظر: د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ٣١٠

كنائسهم، حتى أن البابا مرقس الثامن يخاطب الشعب فيقول لهم: "قد صارت عندكم الكنيسة كمثّل السوق، وحضوركم إليها مثل الذين يبيعون ويشترون... من أجل هذا صرنا عند الطوائف (الطوائف) ضحكاً وهزواً (وهزاً) وألجأتنا الضرورة أن نطلق عليكم الكلام الحاد الذي من سماعه تظن الأذان (٣١)".

كانت العلاقة بين المسلمين والأقباط قبل مجيئ الحملة الفرنسية إلى مصر قد وصلت إلى أقصى درجات السوء، حيث امتدت يد التخريب إلى كل ما يخص المسيحيين في مصر من مساكن وكنائس وأديرة، وأباحت الدولة للغوغاء أن يفتكوا بالنصارى واليهود، وكادوا أن يحققوا غايتهم لولا أن تدخلت الدولة لكبح جماحهم لا خوفاً على الأقباط، بل خشية أن تفلت الأمور من يدها، وتعجز عن التحكم في إدارة البلاد.

(د) تعداد الأقباط في مصر مع نهاية القرن الثامن عشر

وهل نعجب بعد كل هذا إذا عرفنا أن عدد الأقباط في مصر مع نهاية القرن الثامن عشر ومع قدوم الحملة الفرنسية على مصر لم يكن يتجاوز المائة والخمسين ألفاً، بعدما كانوا أيام الفتح العربي نحو عشرين مليوناً أو يزيد، وقد عدموا الثروة والعلم وكل ما كان لهم من أسباب القوة الأدبية والمادية، كشعب هو سلالة أقدم أمة متمدينة (٣٢).

كان عدد الإيبارشيات في مصر في القرن الثامن الميلادي ١٦٨ إيبارشية، وفي القرن العاشر أصبحت ١١٠ إيبارشية بحسب جدول جرجس بن مسعود الشهير بأبي المكارم. ثم إلى ٤٧ إيبارشية في القرن

٣١ - نفس المرجع، ص ٢٨٤

٣٢ - لجنة التاريخ القبطي، خلاصة تاريخ المسيحية في مصر، مرجع سابق، ص ١٩٨
انظر أيضاً: د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ١٩٦

الحادي عشر، ثم إلى ١٧ إيبارشية في القرن السابع عشر، ثم إلى ١٤ إيبارشية في القرن الثامن عشر^(٣٣).

كانت الكنائس القبطية في مصر في القرن الثامن تُعد بالآلاف، وبلغت أديرة الرهبان إذ ذاك عدَّة مئات، وفي القرن الثامن عشر بلغ مجموع الكنائس مع ما أنشئ منها في النِّصْف الأخير من هذا القرن نحو خمسمائة كنيسة، وسبعة أديرة للرهبان، وخمسة أديرة للرهبانيات^(٣٤).

(هـ) حملة حسن باشا التَّأديبية

يذكر الأنبا يوساب أسقف جرجا المعاصر لتلك الفترة أن جور ومظالم المماليك، وعصيانهم دفع الدَّولة العثمانيَّة إلى إرسال حملة حسن باشا لتأديب المماليك، والعمل على استقرار الأمور في مصر. فلجأ حسن باشا القادم من استانبول إلى القوَّة، فكانت يده شديدة الوطأة على المماليك. ودفعته عجلة الحرب التي دارت بينه وبينهم إلى طلب المزيد من الغرامات الماليَّة التي ضجَّ منها الرعيَّة من مسلمين وأقباط وغيرهم، ودفعه انضمام بعض كبار المباشرين الأقباط وهروهم مع رؤسائهم من الأمراء والمماليك، وشكوكه في هروهم بأموال الخزانة، إلى إسقاط جام غضبه على الأقباط. لذلك يحدِّثنا صاحب تاريخ البطارقة قائلاً: "إن خطوَّة الظلم التي خطاها المماليك لم تكن لتعد شيئاً بإزاء ما صنعه حسن باشا".

ولم يعد الاستقرار إلى مصر برحيل حسن باشا وعودة أمراء المماليك الفارين إلى القاهرة، بل عادت الأمور إلى ما كانت عليه من جور ومظالم. ويبدو أن تخلخل الإدارة وفساد الأمور كان تمهيداً تاريخياً

٣٣ - لجنة التاريخ القبطي، خلاصة تاريخ المسيحية في مصر، مرجع سابق، ص ٢٣٢

٣٤ - نفس المرجع، ص ٢٤٣

لاستقبال القادم الجديد وهو الحملة الفرنسية^(٣٥).

لم يكن حسن باشا أفضل من غيره، إذ قد فرض على الأقباط في سنة ١٧٨٦م غرامات باهظة، وزعها المسيحيون على أنفسهم، وكم عانت الفئات الفقيرة من الأقباط من جرّاء ذلك. ويذكر الجبرتي: "كان حسن باشا متسلطاً بكل قوّته على النصارى حتى أنه فرض عليهم غرامات باهظة، ونهب أموالهم" ثم يشير إشارة شموليّة بقوله: "نهبوا الخلايق (الخلايق) وبخاصة طايفة (طائفة) القبط"^(٣٦).

لقد ساءت العلاقة بين الكنيسة والدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر، ولاسيما في فترة الاضطرابات التي صاحبت حملة حسن باشا على مصر، حتى هرب البابا يوانس الثامن عشر (١٧٦٩ - ١٧٩٦م) من كرسيه، كما هرب جميع الأساقفة الأقباط، وخلع البابا والأساقفة ملابسهم الكهنوتية وتكبروا في ثياب أخرى، فلم يكن يُعرف الكهنة من العلمانيين^(٣٧).

ولقد استولى حسن باشا على الأوقاف القبطية الضخمة للمعلم إبراهيم الجوهري الموقوفة على الأديرة والكنائس القبطية، بل استولى على الأوقاف القبطية للكنائس.

كانت كل الدلائل تشير إلى ضرورة أن يتغير الوضع القائم، إذ قد وصل الظلم إلى غايته، وبلغت المعاناة ذروتها، وبات الأقباط قلة قليلة قاب قوسين أو أدنى من الاضمحلال والفاء، وقد بلغوا نهاية القرن الثامن عشر منهوكي القوي عديمي القدرة، يخيم البؤس والكآبة على محياهم، وتردّت حياتهم الروحية إلى أدنى المستويات، وقد تحطت خطوب السنين علاماتها

٣٥ - نفس المرجع، ص ٩٨، ٩٩

٣٦ - نفس المرجع، ص ٥١

٣٧ - نفس المرجع، ص ٧٥

فيهم. أما الفقراء منهم فقد كابدوا أضعاف ما كابد الأغنياء. وتدهورت العلاقة بين المسلمين والأقباط في نهاية العصر العثماني إلى أدنى مستوياتها حتى بلغت حد الصِّدام المباشر.

الحملة الفرنسيَّة على مصر

غزا نابليون بوناپرت (١٧٩٨ - ١٨٠١م) مصر. ويسجِّل المؤرِّخ عبد الرَّحمن الجبرتي وقائع الهزيمة الماحقة التي أوقعها الفرنسيون بالمماليك فيقول: "... فلم تكن إلاَّ ساعة وانهمز مراد بك ومن معه، واحتترقت مراكبه بمن فيها من المحاريب، فلما عاين ذلك مراد بك، داخله الرَّعب وولَّى منهزماً، وترك الأثقال والمدافع، وتبعته عساكره ... ووصلت الأخبار إلى مصر فاشتد انزعاج النَّاس، وركب إبراهيم بك إلى ساحل بولاق، وحضر الباشا (الوالي العثماني) والعلماء ورؤوس النَّاس ... فاتفق رأيهم على عمل متاريس من بولاق إلى شبرا ... فأغلق النَّاس الدِّكاكين والأسواق، وخرج الجميع لير بولاق ... وأما مصر فكانت خالية الطُّرق، لا تجد بها أحداً سوى النَّساء والأطفال وضعفاء الرِّجال، والأسواق مقفرة، وكثرت الشَّائعات بقرب وصول الفرنسيين إلى مصر (القاهرة) ... وكل من إبراهيم بك ومراد بك جمع عسكره ومكث مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يُفعل بهم، وليس ثمة قلعة ولا حصن ولا معقل. وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو".

هزم بوناپرت المماليك في موقعة إمبابية المشهورة باسم موقعة الأهرام، ودخل القاهرة، وواصل قائده ديزيه زحفه إلى أقاصي الصَّعيد. وفي سبتمبر سنة ١٧٩٨م نشبت ثورة في القاهرة عقب تحطيم نلسون للأسطول الفرنسي في أبي قير في أول أغسطس سنة ١٧٩٨م.

استفاد نابليون بوناپرت من الخلافات الدنيئة بين الأقباط والمسلمين، بل واستفاد أيضاً من الصراع الاجتماعي بين فئات المجتمع المختلفة. ولكن لم ترد إشارة واحدة في التاريخ تُظهر أن الحملة الفرنسية قد أساءت إلى المسلمين في مصر أو تدخلت في شؤون عبادتهم وديانتهم.

وبعد عام واحد من معركة أبي قير البحرية عاد بوناپرت سراً إلى فرنسا في أغسطس سنة ١٧٩٩م. وفي سنة ١٨٠٠م جاء العثمانيون يساندهم الإنجليز لطرد الفرنسيين، فهزمهم كليبر في مارس من نفس السنة بالمطرية، ثم قتل سليمان الحلبي الجنرال كليبر في حديقة بيته في يونيو سنة ١٨٠٠م، فتولى القيادة مينو الذي سلم القاهرة والإسكندرية في سبتمبر سنة ١٨٠١م، وحلى هو وكل جنوده عن مصر.

تردّي الأحوال في مصر وقت قدوم الحملة الفرنسية

يذكر واحد من العلماء الفرنسيين الذين رافقوا الحملة الفرنسية الحالة التي كانت عليها مصر حينئذ فيقول: لم تكد تبقى لدي المصريين المحدثين سوى ظلال آثار باهتة، بل يُشك في صحتها كثيراً، عن المؤسسات والأنظمة التي كانت تنتمي قديماً لبلادهم، فالدين والقوانين واللغة والموسيقى، وفي كلمة، العلوم والفنون التي يمارسونها، كل هذا قد أخذوه عن العرب، إذ تلقوه عن هؤلاء حين كانوا يحكمونهم. وبعيداً عن أن يكون المصريون قد توسّعوا أو طوروا هذه المعارف، إذا ما استثنينا علوم الدين الإسلامي، فإنهم قد تركوا هذه المعارف تسقط في هوة الإهمال والنسيان، أو قل إنهم شوهوها كثيراً منذ خضعوا لنير العثمانيين، حتى باتوا، وقد كادوا ألا يحتفظوا بشئ مما يميز الأمم المتحضرة، في هذا المجال، عن العصب الهمجيّة، بل أنهم أكثر من هذه العصب البربريّة تعاسة. إذ هم

لا يتمتَّعون بحريَّة أن يقاوموا صنوف القهر، أما حالتهم الاجتماعيَّة فليست سوى عبوديَّة قاسية تبعث على الشُّعور بالخزي، تضاءلوا هم إليها بفعل ضعف حكامهم، الذين تركوهم بنذالة شديدة نهباً للمظالم المقيتة، التي يجرها الطغيان الوقح والقاسي، الذي يمارسه البكوات المماليك، أولئك الذين يقدِّمون اليوم بعد اليوم، ضحيَّة جديدة على مذبح فهمهم الذي لا يشبع، وتجاسرهم البغيض (٣٨).

إن الدليل البسيط على تردي الأحوال في البلاد في ذلك الوقت أنه لم يكن لها موسيقى تميزها بين الشُّعوب، برغم أن الموسيقى الفرعونيَّة هي أقدم موسيقى عرفها العالم قاطبة. فالرَّابطة بين الموسيقى العربيَّة في مصر في أول القرن التاسع عشر وبين الموسيقى الآسيويَّة أمر أوضح من الَّا يدركه العالم أجمع، فكثير من المعالم والآثار والمصطلحات الفنيَّة والتَّغلمات والآلات التي تقدِّمها لنا الموسيقى العربيَّة في هذا الوقت تكاد أن تكون كلها فارسيَّة أو مشتقَّة عن اليونانيَّة. ويعترف كل مؤلفي بحوث الموسيقى العربيَّة أنفسهم بأن نظامهم الموسيقي، وكل مصطلحاتهم الفنيَّة وأسماء آلاتهم قد جاءهم عن الإغريق والفرس والهنود. فالفرس يمثلون بالنسبة لشعوب أفريقيا وآسيا، ما يمثله الإيطاليون بالنسبة لشعوب أوروبا (٣٩).

بعض فوائد الحملة الفرنسيَّة على مصر

في الحقيقة لولا الحملة الفرنسيَّة على مصر لظلت مصر تزرع تحت نير الجهل والتخلف الذي بلغ منتهاه في العصر العثماني. فمع دخول الفرنسيين مصر، وبرغم الفترة القليلة التي بقوا فيها في البلاد، إلا أن الأثر

٣٨- فيوتو، وصف مصر، الكتاب الثامن، ترجمة زهير الشايب، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٥

٣٩- فيوتو، وصف مصر، الكتاب الثامن، مرجع سابق، ص ٢٤، ٢٩١

الثقافي والحضاري الذي تركه الفرنسيون في البلاد ظل قائماً بها حتى يومنا هذا. وكان نابليون قد أحضر معه أوّل مطبعة تدخل مصر لتتقلها من عصر إلى عصر. وكان تأليف كتاب "وصف مصر" الذي قام به نخبة العلماء الذين رافقوا الحملة هو أوّل عمل علمي راقي يدرس ويصف ويحلّل حياة المصريين منذ عصر الفراعنة حتى العصر الحديث، ليس بالكلمات فقط بل بالصُّور أيضاً التي رسمها الفنانون الذين رافقوا الحملة من واقع ما شاهدوا في البلاد، قبل اختراع آلات التّصوير الحديثة. وهذه الصُّور شملت كل مناحي الحياة المصريّة، وقد ضمّها جزءان كبيران ضمن مجموعة كتب "وصف مصر"، والتي قام بترجمتها من الفرنسيّة إلى العربيّة النابغة المصري زهير الشّايب.

حالة الأقباط أيام الحملة الفرنسيّة

يرسم معظم الرّحالة الأجنبيّ الذين زاروا مصر في العصر العثماني صورةً كئيبة للتّعليم والثّقافة عند الأقباط، حيث يصفونهم بالجهل والتخلف، ويقارنون بين الماضي التّليد لكنيسة الإسكندريّة والفلسفة المسيحيّة بها، وبين ما وصل إليه حال الأقباط عندئذ من تدهور^(٤٠). وبرغم ذلك يذكر واحد من الرّحالة هو بوكوك أن معظم الأقباط يعرفون القراءة والكتابة أكثر من غيرهم من العناصر المحليّة.

وجدير بالذّكر أنه بعد دخول الحملة الفرنسيّة مصر بسنة واحدة انتقل مقر البطريركيّة سنة ١٧٩٩م من حارة الرُّوم إلى الأزبكيّة حيث كاتدرائيّة مار مرقس القديمة الآن، وذلك في عهد البابا مرقس الثامن، البطريرك الـ ١٠٨ (١٧٩٧ - ١٨٠٩م).

وبسبب زحف الجيوش الفرنسيَّة على مصر، تألَّب المماليك على المسيحيِّين، وهجموا على بيوتهم وكنائسهم وأديرهم للتَّنقيب عن الأسلحة وغيرها، وسجنوهم وعذبوهم فانضم المعلم يعقوب حنا (١٧٤٥ - ١٨٠١م) إلى قواد الفرنسيِّين وأفادهم بخبرته المائيَّة والحربيَّة كل الفائدة، فدبَّر لهم مؤونة العساكر، وشاركهم في كثير من المواقع، وتولى بنفسه حملة على الصَّعيد في موقعة "عين القوصيَّة" حيث هاجم عدداً من المماليك لا يقل قوَّة عن عشرة أمثال قوته عدداً وعدَّة، فأبلى بلاءً حسناً، وكان يوماً مشهوداً قلده ديزيه Desais - قائد نابليون الشَّهير - في مسائه سيفاً كُتِب على نصله اسم الواقعة في حفلة مهيبه. وبعد موت كليبر في أغسطس سنة ١٨٠٠م أُسند إليه رسمياً لقب "القائد العام للفيالق القبطيَّة" بالجيش الفرنسي (٤١).

ولعله من المناسب أن نشير إلى إلياس بقطر (١٧٨٤ - ١٨٢١م) أحد نوابغ الأقباط الذي استخدمه الفرنسيون مترجماً في جيوشهم، وقد ساعد هذا الشَّاب علماء الفرنسيِّين في وضع المصنَّف العظيم المُسمى "وصف مصر - Description de L'Egypte"، وتقديراً لفضله عيَّنه مترجماً في إدارة المحفوظات بوزارة الحربيَّة ثم مدرِّساً للغة العربيَّة العاميَّة بمدرسة اللُّغات الشَّرقيَّة بباريس، وهو صاحب القاموس المُسمى باسمه حتى اليوم "قاموس إلياس"، ويُعد أوَّل من وضع قاموساً عربيّاً فرنسيّاً.

ويقدَّر علماء الحملة الفرنسيَّة عدد سُكَّان القاهرة بحوالي ٢٦٣ ألف نسمة، وهو ما يقارب تقدير الرِّحالة الإنجليزي براون السذي زار مصر خلال هذه الفترة تقريباً، إذ يقدَّر براون عدد سُكَّان القاهرة بصفة عامة بحوالي ثلاثمائة ألف نسمة. وإذا اعتمدنا على تقديرات الحملة الفرنسيَّة في

نهاية القرن الثامن عشر فهي تذكر لنا أن عدد الأقباط في القاهرة يصل إلى عشرة آلاف نسمة، أي أقل من ٤ % من مجموع عدد سُكَّان القاهرة. ويأتي الأقباط كأكبر أقلية دينية آنذاك، إذ يقدر عدد سُكَّان القاهرة من الرُّوم الأرثوذكس بحوالي خمسة آلاف نسمة، أي نصف عدد الأقباط. ويقدر الرُّوم الكاثوليك الشَّوام والمارونيين بحوالي خمسة آلاف نسمة أيضاً. ويقدر عدد الأرمن بحوالي ألفي نسمة، أي خمس عدد الأقباط. ويقدر اليهود بحوالي ثلاثة آلاف نسمة، أي أقل من ثلث عدد الأقباط. ويقدر عدد المسلمين بحوالي ٢٣٧٦٠٠ نسمة بصرف النَّظر عن أصولهم العرقية^(٤٢).

وفي منطقة مصر القديمة التي يرتبط الأقباط بها ارتباطاً تاريخياً حيث استقروا بها منذ أزمان طويلة سابقة على الفتح العربي للبلاد، حيث الكنائس القبطية الشهيرة والمقابر والتُّراث القبطي التَّليد، شكَّل الأقباط أقلية سكانية بالمقارنة بالوجود الإسلامي بالمنطقة. فتذكر مصادر الحملة أن عدد المسيحيين الشَّرقيين في المنطقة يصل إلى ستمائة نسمة من إجمالي سكان مصر القديمة الذي يتراوح ما بين عشرة إلى أحد عشر ألف نسمة، أي أقل من ٦ % من مجموع السُّكَّان^(٤٣). وهو ما يشير إلى مقدار التَّدهور الذي أصاب الأقباط من جرَّاء الاضطهادات المتتابة، وكثرة الجماعات القبطية التي انتحلت الإسلام.



٤٢ - د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ١٩٧

٤٣ - نفس المرجع، ص ٢٠٢



الفصل العاشر

كنيسة مصر

في ظل الحكم الملكي للبلاد

أولاً: عهد محمد علي باشا وأسرته

جاءت الدَّولة الحديثة في عهد محمد علي وأسرته لتعطي فرصة حقيقية لظهور تيار حاول إحياء الهويَّة المصريَّة المطمورة منذ مئات السنين، فظهر رفاة الطَّهطاوي، ومحمد عبده، وطه حسين، وأحمد لطفي السيِّد، وسلامه موسى، وتوفيق الحكيم، ولويس عوض، وغيرهم.

كان هؤلاء جميعاً يعتزُّون أيما اعتزاز بهويَّتهم وحضارتهم المصريَّة في الوقت الذي انفتحوا فيه على الحضارة الغربيَّة الحديثة لينهلوا منها من أجل إحياء مشروعاً مصرياً ليبرالياً.

لقد آلت السُّلطة إلى محمد علي وذريَّته سنة ١٨٠٥م. وفي أيامه وصلت حملة إنجليزيَّة إلى مصر سنة ١٨٠٧م واحتلت رشيد، وكانت تتوقَّع معارضة المماليك لكنها هُزمت وانسحبت، إلا أن العنصر البريطاني ظلَّ جاثماً على صدر مصر يزرع فيها الفتن، ويفتت شمل وحدتها. كانت هذه هي البذرة الأولى التي زرعتها الإنجليز في مصر حينما زرعوها روح التَّفارقة بين المسلم والمسيحي، عقاباً للأقباط الذين لم يبدوا تحيزاً لهم.

وبعد مرور خمسة عشر عاماً من الاحتلال البريطاني لمصر تزايدت الشُّكوى في صفوف الأقباط من التَّفارقة، ونما الإحساس الدَّاعي لذي كل من الأقباط والمسلمين. وكانت يد المحتل الدَّخيل وراء هذه الفارقة التي وجد فيها تربة خصبة لتثبيت أقدامه في بلاد غيره.

في هذه الظُّروف أُقيم البابا بطرس السَّابع المعروف بالجاولي (١٨٠٩ - ١٨٥٢م) وهو البطريرك الـ ١٠٩ من باباوات الإسكندريَّة، وهو أوَّل البطارقة الذين رُسموا في الكاتدرائيَّة المرقسيَّة القديمة بالأزبكيَّة،

وكان محباً للعلوم والآداب، عارفاً بقيمة الكتب، فكان يعنى بجمعها وخطها وترتيبها والمحافظة عليها. وله عدّة مقالات ورسائل باللغة العربيّة في مواضيع دينيّة واجتماعيّة. وهو أوّل من رسم أساقفة للسودان سنة ١٨٢٣م بعد أن تقلّصت المسيحيّة عنه في أوائل القرن السّادس عشر. وكان معاصراً له أسقف المنوفيّة المشهور القدّيس أنبا صرابامون أبو طرحة (+ ١٨٤٨م). وتبيّح البابا بطرس الجاولي بعد أكثر من اثنين وأربعين سنة قضاها في البطيركيّة، تاركاً مبلغاً طائلاً من المال في خزانة البطيركيّة، وهو الذي استعان به البابا كيرلس الرّابع في مشروعاته الكثيرة^(١).

فتك محمد علي بالمماليك وقضى على البقيّة الباقية منهم في مذبحه القلعة الشهيرة حيث قتل منهم ٤٨٠ مملوكاً في سنة ١٨١١م. وكوّن محمد علي جيشاً مصرياً قوياً، ونظّم الإدارة وحسّن الزراعة، وأدخل بعض الصناعات. وفي سنة ١٨١٣م بدأ في إرسال الطلبة المصريين إلى أوروبا، حيث انصبّت عنايته في بادئ الأمر على دراسة الفنون العسكريّة، وبناء السفن، والعلوم الهندسيّة، وفن الطباعة. واشتهر من بين هؤلاء الطلاب "نقولا مسابكي" الذي ذهب إلى روما وميلانو سنة ١٨١٦م ليتعلّم فن الطباعة، فأقام هناك أربع سنوات ثم عاد إلى مصر ليتولى إدارة مطبعة بولاق الأميريّة. وشنّ محمد علي حروباً في شبه الجزيرة العربيّة، وفتح السّودان (١٨٢٠-١٨٢٣م)، وتعاون مع العثمانيين في حرب اليونان (١٨٢٣-١٨٢٨م)، وفي سنة ١٨٢٩م أنشأ مدرسة لتدريب الموظفين على طرق المحاسبة الحديثة بعد أن أدخل إلى مصر نظم المحاسبة الأوربيّة.

وفي سنة ١٨٣١م ألحق محمد علي مائة قبطي للعمل في ترسانة الإسكندريّة وأمر بإعفائهم من الجزية، وصدر الأمر بذلك، وجاء فيه:

” يقتضى إتباع الأصول المدوَّنة بها (أي بالترسانة البحريَّة) وربط ماهيَّة ومرتب الصَّنْف الذي يستحقه الأقباط الذين يؤخذون للجهاديَّة لكونهم يؤدُّون مصالح المري ومن اللُّزوم رعايتهم ورفاهيتهم^(٢)“. وواضح هنا أن الأقباط الذين عملوا في وظائف عسكريَّة قد أعفوا من الجزية، فضلاً عن أن الجزية التي كان يدفعها الأقباط أيام محمد علي كانت لا تُذكر بالنسبة لمرباتهم^(٣). وقد أُلغيت الجزية تماماً في عهد محمد سعيد باشا سنة ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٥م، كما انتظم الأقباط في الجيش منذ عصر الخديوي إسماعيل باشا.

وشنَّ محمد علي حرباً ضد الباب العالي في سوريا سنة ١٨٣٢م، فحكم كل من مصر وسوريا. وبعد معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م أعلن الباب العالي خلع محمد علي عن سورية ومُنح أن تكون ولايته على مصر وراثيَّة بدءاً من سنة ١٨٤١م.

وفي سنة ١٨٤٨م تولى ابنه إبراهيم الحكم لبضعة شهور حتى وفاته قبل أبيه في نفس هذه السنَّة المذكورة.

الموظفون في عهد محمد علي

كان الموظفون قبل بداية حكم محمد علي محدودي العدد ويتميَّزون بالكفاءة، ويحظون بمكانة اجتماعيَّة عالية. ولقد ظلَّت أعمال المحاسبة وإمساك الدفاتر قاصرة على اليهود، أما جامعي الضرائب والصَّيارفة فكانوا دائماً من الأقباط. وكانت هذه الوظائف في القرن الثامن عشر من الوجهة العمليَّة علي ما كانت عليه منذ القرن العاشر. وكان الصَّيارفة الأقباط يكتبون باللغة العربيَّة، وتمكَّن البعض منهم من تعلم اللُّغة التُّركيَّة

٢ - د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ٦٢

٣ - نفس المرجع، ص ٨٨

مما جعلهم من المقرئين إلى الحكام^(٤).

وفي أيام محمد علي كانت الوظائف المدنيّة في الحكومة، أو الوظائف العسكريّة، هي غاية ما يسعى إليه الفرد بكل الوسائل، فقد كان الموظفون في الدّولة يمثلون الطّبقة الرّاقية فيها، وأصبحت النظرة إلى التّعليم أساسيّة لأنّها هي الوسيلة للوصول إلى الوظيفة. وقد حظي أفراد طبقة الموظّفين باحترام اجتماعي واضح، لأن الوظائف الحكوميّة كانت سبيلاً إلى الثراء^(٥).

والجدير بالذكر أنه لم يكن هناك حدود فاصلة بين الوظائف المدنيّة والعسكريّة، فكان من الممكن أن ينتقل الموظّف من الحياة المدنيّة إلى الحياة العسكريّة والعكس بالعكس، بل كان للروح العسكريّة تأثير على الوظائف المدنيّة منذ إعداد النشء لتقلّد الوظائف العامّة^(٦).

وعموماً كانت هناك طائفتان من الموظّفين:

الطائفة الأولى: وهي ممن تولوا مناصب الإدارة العليا في البلاد، والمناصب الرّقيّة في الجيش والبحريّة. وهم الأتراك والأرمن والجركس والشّوام. وضمّ محمد علي إلى هذه العناصر بقايا المماليك الذين رأى في وجودهم بالجيش والإدارة عاملاً هاماً من عوامل الموازنة، حتى لا يظل الاعتماد مقصوراً على الأتراك في أهم نواحي الإدارة الحكوميّة. أما الأقباط فكانوا ضمن من اعتمد عليهم محمد علي في شغل الوظائف الفنيّة والإداريّة العليا^(٧). بالإضافة إلى الأجانب من الأوربيين ولاسيّما الفرنسيين الذين تولوا المناصب الفنيّة وقاموا بتنفيذ المشروعات.

٤- د. حلمي أحمد شلبي، الموظفون في مصر في عصر محمد علي، مرجع سابق، ص ١٥

٥- نفس المرجع، ص ١٨

٦- نفس المرجع، ص ٧٨

٧- نفس المرجع، ص ٩٦

وكان الأتراك سادة البلاد، يمثِّلون طبقة النبلاء بين الموظَّفين، طبيعتهم عسكريَّة خالصة، ويستشعرون روح التَّفوق والسَّيطرة، وكانوا يحضرون من الآستانة بتوصية من الباب العالي ويتلقَّون التَّعليم العسكري وفنون الحرب والإدارة.

أما الأرمن، فبالرَّغم من قلة عددهم، إلَّا أنَّهم قد تولَّوا وظائف إداريَّة عُليا، وارتفع شأنهم إلى حد كبير، وكان محمد علي قد أرسل بأبناء الأرمن إلى فرنسا وإنجلترا لدراسة اللُّغات الأوربيَّة والتَّخصُّص في مختلف المهن.

ولقد جلب أفراد أسرة محمد علي الجواكسة من الآستانة إلى مصر، وكانوا يتولون وظائف عُليا في الإدارة. وكانوا ينافسون الأتراك في تسولي الوظائف العسكريَّة بصفة خاصة.

أما الشَّوام فكانوا أقل العناصر عدداً في الوظائف الإداريَّة، لأنَّ معظمهم كانوا يعملون في التَّجارة، وتخصَّصوا في الوظائف الماليَّة عموماً.

كانت هذه العناصر تستند إلى أصولها الاجتماعيَّة وتُقدم على كل ما من شأنه تحقيق مصالحها الذاتيَّة بكل الوسائل. وظلَّت هذه العناصر تنظر إلى المصريين بعين الازدراء^(٨).

ولقد تمكَّن عدد من الأوربيين من الوصول إلى الوظائف دون أن تكون لديهم المؤهَّلات المناسبة لأعمالهم، فمن كان منهم ممرضاً مارس مهنة الطَّب في مصر، وكان ثلثا أولئك الأطباء لا يحملون دبلومات، ومن مائة صيدلي عشرة فقط حاصلون على الدبُّلومات، وإذا ما هبط أوربي

أرض مصر سرعان ما يُعَيَّن صيدلياً أو طبيبياً^(٩).

الطائفة الثانية: وهم صغار الموظفين، أي موظفو الدواوين الحكومية، وهم من المصريين الأقباط، فقد احتكر الأقباط وظائف الكتابة في الدواوين وجباية الأموال. وكانت وظيفة الكاتب من أهم وظائف الدولة، لأن الباشا كان في حاجة إلى عناصر تجيد القراءة والكتابة، ومعرفة اللغة التركية. أما العناصر المصرية الأخرى فقد تمكنت بعد كفاح من تولي الوظائف الفنية. ونادراً ما كان يحصل الأقباط على وظائف الإدارة^(١٠). ولم يكن التحاق المصريين بالوظائف أمراً سهلاً، فقد كان من الضروري أن يكون هؤلاء على درجة كبيرة من المهارة والبراعة لكي ينالوا هذه الوظائف. وهناك أمثلة كثيرة لمصريين كافحوا حتى وصلوا إلى المناصب الإدارية والفنية.

ومع أن محمد علي قام بتدريب المصريين في مصر والخارج، إلا أن الغالبية من الموظفين ظلت من الأتراك. مما يدل على طغيان العناصر الأخرى على الحياة الوظيفية واحتكارها.

البعثات العلمية في عهد محمد علي

وفي سنة ١٨٤٧م وصل عدد البعثات العلمية إلى تسع، وكان لطلبة الطب النصيب الأوفر فيها. ويرجع ذلك إلى تأسيس مدرسة الطب سنة ١٨٢٧م التي تولت إدارتها "كلوت بك" الفرنسي^(١١). في هذه المدرسة تم

٩- نفس المرجع، ص ٩٥

١٠- نفس المرجع، ص ٢٨

١١- "كلوت بك" هو طبيب فرنسي (١٧٩٣-١٨٦٨م) جاء إلى مصر سنة ١٨٢٥م ليتولى تنظيم الإدارة الصحية للجيش المصري، وبناء على اقتراحه، أنشئ المستشفى العسكري بأبي زعبل، ومدرسة الطب كما سلف القول.

ترجمة قاموس قواميس الطَّب في ثمانية مجلِّدات تحت عنوان "الشُّذُور الذهبية في الألفاظ الطبيَّة"، فاستولى عليه "كلوت بك" وقدمه هديَّة للمكتبة الوطنيَّة بباريس سنة ١٨٥١م، وكان المؤرِّثون المصريون يجهلون بجرِّد وجوده. وانتقلت مدرسة الطَّب من أبي زعبل إلى مقرِّها الجديد في قصر العيني حيث جمعت بين المدرسة والمستشفى، على ذلك النَّمط الذي لازال موجوداً حتى الآن^(١٢).

ومهما يكن من القول بأن محمد علي هو الذي أنشأ الدَّولة الحديثة، عندما أوفد البعثات العلميَّة من أبناء مصر إلى أوروبا ولاسيَّما فرنسا لتحصيل العلوم والمعارف الحديثة، إلاَّ أنه كان أحد الحُكَّام الغرباء الذين استولوا على مصر. فهو تاجر الدُّخان الألباني الذي جاء إلى مصر جندياً في حملة عثمانية لإخراج الفرنسيين منها، فوضع رجله فيها، ولم يغادرها أبداً، وأقام فيها إمبراطوريَّة وأسرة ملكيَّة. فأما الإمبراطوريَّة فقد اندثرت قبل أن يموت، وأما الأسرة المالكة فقد بقيت ١٥٠ سنة حتى أطاحت بها ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م^(١٣).

كان محمد علي لا يتكلَّم غير التُّركيَّة، ولا يفهم لغة البلاد، أو يتظاهر بعدم فهمها، فيستعين بمترجم عندما يتحدَّث إلى واحد يتكلَّم العربيَّة، وكان يرى أن الاقتصار على استخدام اللُّغة التُّركيَّة دون سواها مظهرًا من مظاهر العظمة والكبرياء^(١٤).

١٢- في إحصائية سنة ١٨٣٧م كان عدد طلبة مدرسة طب قصر العيني مائة وأربعون طالباً، بالإضافة إلى خمسين طالباً في مدرسة الصيدلة التي ألحقت بها. أما مستشفى قصر العيني فقد احتوى على سبعمائة وعشرين سريراً.

١٣- جمال بدوي، نظرات في تاريخ مصر، مرجع سابق، ص ١٠.

١٤- د. حلمي أحمد شلي، الموظفون في مصر في عصر محمد علي، مرجع سابق، ص ٦٣.

حالة الأقباط في عهد محمد علي (١٨٠٥ - ١٨٤٩م)

بالرغم من أن محمد علي كان رجلاً أمياً، إلا أنه كان بعيد النظر، إذ رأى شدة احتياجه لمساعدة المسيحيين نظراً لأمانتهم، فاستخدم كثيراً من الأرمن والكاثوليك - دون الأقباط - خوفاً من ازدياد نفوذهم، إلا أنه أوقف الاضطهادات ضدّهم. ثم عاد واختص الأقباط بالأعمال المصرفية وضبط الإيرادات، والأعمال الحسابية. فتحسّن وضع الأقباط منذ عهد محمد علي، ونشأت بينهم طبقة مثقفة بلغت مراتب عالية. ويرجع لمحمد علي فضل اختيار الأقباط لمناصب هامة ساهمت في نهضة البلاد واستقلالها، فكان منهم حكام المدن (المحافظون الآن) ورؤساؤها^(١٥). وارتقى بعضهم إلى درجة وزير، فشغلوا منصب وزير مواصلات^(١٦)، ووزير مالية^(١٧)، ووزير حربية^(١٨)، ووزير تجارة وصناعة^(١٩)، ووزير شؤون بلدية وقروية^(٢٠)، ووزير صحة^(٢١)، ووزير أشغال^(٢٢)، ووزير خارجية^(٢٣)، ورئيس وزراء^(٢٤)، ورئيس مجلس النواب^(٢٥).

١٥- مثل تعيينه بطرس أغا أرمانبوس حاكماً علي برديس، وفرج أغا ميخائيل حاكماً علي دير مواس، وميخائيل أغا عبده حاكماً علي الفشن، ومكرم أغا حاكماً لشرق أطفح، وتكلا سيد لبهجورة، وأنطوان أبو طاقة حاكماً للشرقية. وتعادل هذه المناصب مناصب المحافظين ورؤساء المدن حالياً. والتي لا يشغلها أحد من الأقباط الآن.

١٦- فوزي باشا المطيعي، و صليب باشا سامي.

١٧- مثل مكرم عبده، وكامل صدقي.

١٨- هو صليب سامي.

١٩- هم سابا حبشي، وراغب حنا.

٢٠- هو إبراهيم فرج.

٢١- هو نجيب اسكندر لعدة مرّات.

٢٢- هو إبراهيم نجيب.

٢٣- مثل واصف باشا بطرس غالي، وكامل بطرس غالي، و صليب باشا سامي.

٢٤- مثل بطرس باشا غالي، وكامل بطرس غالي، و صليب باشا سامي.

وفيما يتعلَّق بجرِيَّة العبادة، لم يُجَلِّ محمد علي بين الأقباط وبين ممارسة طقوسهم الدِّيْنِيَّة، ولم يرفض أي طلب تقدَّم به الأقباط لبناء أو إصلاح كنائسهم.

ولكن في أواخر أيامه صمَّم على طرد الأقباط من البلاد إذا أبوا الإسلام، غير أن المنيَّة وافته حيث قُتل قبل أن يحقِّق مراده. وكان التَّاريخ دورات متشابهة الأحداث، أو قل متطابقة الأحداث أحياناً.

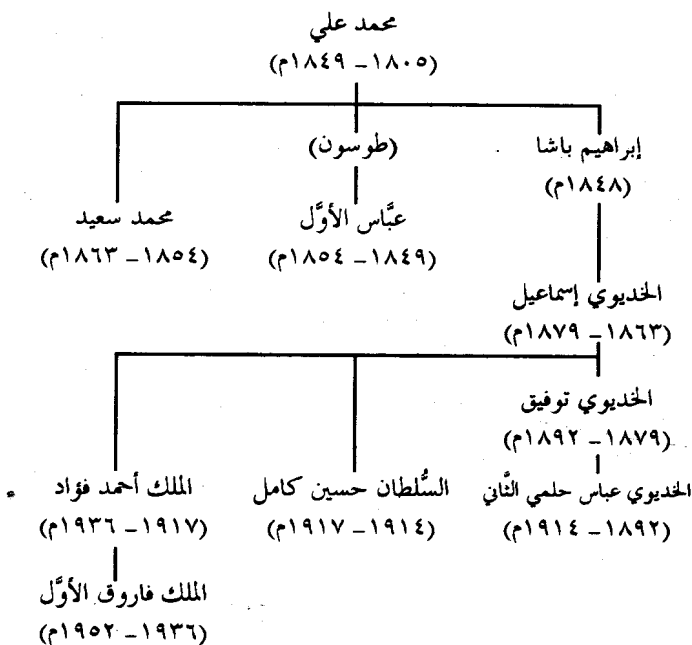
خلفاء محمد علي في الحُكْم

توالى على حكم مصر من هذه الأسرة عشرة حكام، ثلاثة منهم تم عزلم، وهم إسماعيل، وعبَّاس حلمي الثَّاني، وفاروق. وثلاثة آخرون جرت محاولة اغتيالهم وهم عباس حلمي الأوَّل، وحسين كامل، وفؤاد والد فاروق، وقد نجحت الأولى منها.

لقد كان الشَّعب هو الذي طالب الباب العالي في تركيا بتعيين محمد علي حاكماً للبلاد وألحَّ في الطَّلَب حتى استُجيب له، وكان الشَّعب هو الذي أنهى حكم هذه الأسرة للبلاد بعد أن قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م من ضباط مصريين هم أبناء هذا الشَّعب عينه.

والرَّسم التَّوضيحي الثَّالي يبيِّن سلالة أسرة محمد علي باشا التي حكمت مصر منذ سنة ١٨٠٥م حتى قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م، لتُنهي على الحُكْم الملكي للبلاد، وهم عشرة حُكَّام، وكان آخر هذه السُّلالة هو الملك فاروق الأوَّل، ثمَّ ابنه الطُّفل فؤاد الثَّاني الذي عُيِّن ثمَّ عُزل بعد إعلان الجمهورية المصريَّة في ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣م.

٢٥- هو وِصْا واصف، الذي وقف في البرلمان قائلاً إنه يمثل دائرة لا يوجد بها قبطي واحد إلا نائبها.



عباس حلمي الأول (١٨٤٩ - ١٨٥٤م)

في عهد عباس حلمي الأول بن طوسون بن محمد علي، أنشئ الخط الحديدي الذي يربط القاهرة بالإسكندرية. وكانت فترة حكمه قصيرة غير موفقة، فلم يمر سوى فترة قصيرة من انتهاء حكم محمد علي حتى فصل عباس الأول جميع المصريين كنتيجة لسياسة تهدف إلى هدم أعمال محمد علي. وفي سنة ١٨٥٦م لم يبق من المصريين من يشغل وظيفة كبيرة، بل أسدل عليهم جميعاً الستار^(٢٦). ومات عباس الأول مقتولاً بيد جماعة من أخصائه، ورفاق متعته^(٢٧).

٢٦ - نفس المرجع، ص ٩٩

٢٧ - حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٨٣

محمد سعيد باشا (١٨٥٤ - ١٨٦٣م)

وحكم بعده محمد سعيد باشا، وكان مهتماً بالفلاح المصري، فهو أوَّل من أمر بتملك الفلاحين للأراضي التي يعملون فيها، وسمح لهم ببيع محاصيلهم لمن يرغبون، وإن لم يجدوا فيمكن أن يبيعوا منتجاتهم للحكومة. وفي سنة ١٨٥٦م بدأ مشروع حفر قناة السويس لتربط البحرين الأبيض والأحمر.

وكان سعيد باشا هو أوَّل من بدأ بدعوة الأقباط للانخراط في الجيش المصري أسوة بإخوانهم المسلمين، وسمح للجنود الأقباط أن يمارسوا ديانتهم علانية. كما منع إقامة الأفراح في حالة اعتناق قبطي للدِّيانة الإسلاميَّة. وأمر بإلغاء الجزية المفروضة على الذميين في ديسمبر سنة ١٨٥٥م. وعيَّن حاكماً قبطياً للسودان، وهو بمثابة منصب رئيس الإقليم الجنوبي لمصر. وفي أيامه صدر الخط همايوني لبناء دور العبادة.

الخط همايوني، والشُّروط العشرة لبناء الكنائس

في فبراير سنة ١٨٥٦م صدر "الخط همايوني" (٢٨) الشهير، وذلك في سياق الصِّراع بين الدَّولة العثمانيَّة والقوى الأوربيَّة الصَّاعدة، لإثبات مرونة الدَّولة تجاه رعاياها من غير المسلمين. ومن بين بنوده أن يستصدر الأب البطريرك رخصة من "الباب العالي" بعد تقديم طلب له للسَّماح ببناء كنيسة. وطبقاً للأحكام القضائيَّة المصريَّة "أن الخط همايوني لا يجوز أن يتَّخذ ذريعة لإقامة عقبات لا مبرر لها أمام إنشاء هذه الدُّور مما لا يتَّفق مع حرِّيَّة إقامة الشُّعائر الدِّينيَّة، إذ أن التَّرخيص المنصوص عليه في هذا الخط لم يُقصد به عرقلة إقامة الشُّعائر الدِّينيَّة بل أُريد به أن يُراعى في إنشاء دور العبادة الشُّروط اللازمة التي تكفل أن تكون هذه الدُّور قائمة في بيئة محترمة تتَّفق مع وقار الشُّعائر الدِّينيَّة وطهارتها، وألا تكون سبباً في

الاحتكاك ما بين الطوائف الدينيّة المختلفة (٢٩)“.

ولقد استُخدم الخط الهمايوني في غير مغراه، فصار بناء أي كنيسة في مصر مرتبطاً بموافقة الحاكم شخصياً دوناً عن كافة المباني والإنشاءات الأخرى أياً كان نوعها، مع ما يصاحب ذلك من عقبات في كثير من الأحيان. وبعد سقوط الدولة العثمانية بكل تشريعاتها ظل هذا التشريع العثماني ساري المفعول حتى يومنا هذا، وأضيف عليه فيما بعد قانون ”البنود العشرة لبناء الكنائس“ والذي صدر بقرار من العزبي باشا وكيل وزارة الداخليّة في فبراير سنة ١٩٣٤م في عهد الملك أحمد فؤاد (١٩١٧ - ١٩٣٦م).

وكان يلزم استيفاء الشروط العشرة قبل الحصول على تصريح ببناء كنيسة جديدة، حيث تمنع هذه الشروط بناء الكنائس على الأراضي الزراعيّة، وبالقرب من المساجد والأضرحة، وفي حالة بناء كنيسة جديدة في منطقة يقطنها المسلمون يجب الحصول على موافقتهم المسبقة، واشتراط عدد كاف من أعضاء الطائفة المسيحيّة المعنيّة في المنطقة المزمع بناء الكنيسة الجديدة بها. وتشتط عدم وجود كنائس قريبة من هذه المنطقة تتبع الطائفة المعنيّة ببناء الكنيسة الجديدة. وفي حالة بناء الكنيسة الجديدة بالقرب من جسور النّيل أو التّرع العموميّة، أو خطوط السكك الحديدية، يجب الحصول على تصريح من الجهة الحكوميّة المعنيّة ... الخ.

وجدير بالذكر هنا أنه قد أكمل حلقات هذه القوانين القديمة قانون جديد وهو القانون ١٠٦ المنشور بالجريدة الرّسميّة في العدد ٣٧ في ٩ سبتمبر سنة ١٩٧٦، والخاص بإنشاء الكنائس، والذي يقول في المادة الرابعة منه: ”لا يجوز إنشاء مبان أو إقامة أعمال وتوسيعها أو هدمها أو

٢٩- القضية رقم ٦١٥ لسنة ٥ القضائية، جلسة ١٦ ديسمبر سنة ١٩٥٢م. مقتبس عن: سامح فوزي، هموم الأقباط، مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية، القاهرة ١٩٩٨م، ص ١٠٤

تغطية واجهات المباني القائمة بالبياض أو خلافه إلا بعد الحصول على ترخيص في ذلك من الجهة الإدارية المختصة بشؤون التَّنْظِيم بالمجلس المحلي، ويسري هذا الحكم في عموميتته وشموله على المباني المقامة لممارسة الشُّعائر الدِّينِيَّة". وورد في هذا القانون اشتراط بالحصول على توقيع من رئاسة الجمهوريَّة على أية تراخيص للبناء أو التَّرميم^(٣٠).

إسماعيل باشا (١٨٦٣ - ١٨٧٩م)

تولى إسماعيل باشا حكم البلاد، وفاز بلقب خديوي من الدَّولة العثمانيَّة سنة ١٨٦٦م بعد أن بذل في سبيل هذا اللُّقب المال الوفير. وقد حاول تطوير مصر لتكون صورة أخرى من فرنسا التي تربى وعاش فيها.

وكان مجنوناً بالأشغال العامة، فحفر ١٣٥٠٠ كيلومتر من التَّرع النَّبِيَّة، أي حوالي ١١٢ ترعة أهمها التَّرعة الإبراهيميَّة التي تبدأ من أسبوط وحتى بني سويف، والتَّرعة الإسماعيليَّة. وزيادة مساحة الأراضي الزراعيَّة إلى مليون فدان، أي من ٣,٨ مليون فدان إلى ٤,٨ مليون فدان. ولكنه في ذات الوقت نجح في الاستيلاء على خُمس الأراضي المترعة لنفسه. كما أنشأ مصانع السُّكَّر والنَّسيج والطوب، ومدَّ ١٦٠٠ كيلومتر من السُّكك الحديديَّة.

ويعود له الفضل في نقل مدينة القاهرة من مدينة تعيش في ظلام العصور الوُسطى إلى مدينة حديثة، تضاهي المدن الأوربيَّة^(٣١)، فأنشأ فيها المتحف المصري، ودار الأوبرا، ودار الكُتب، ورفص شوارعها، ووضع

٣٠- في الأيام الأخيرة من سنة ٢٠٠٥م فوَّض رئيس الجمهوريَّة المحافظين سلطة الموافقة على ترميم الكنائس أو السُّمَّاح بهدمها وإعادة بنائها، وهو ما سأسير إليه في موقعه من الفصل القادم.

٣١- المنطقة من ميدان التَّحرير إلى باب الحديد وما يحيط بها شُيِّدت في زمانه.

التماثيل البرونزية العملاقة في ميادين القاهرة، واستخدام غاز الاستصباح لإنارة شوارع القاهرة كما كان الحال في باريس آنذ. وأدخل مياه الشرب النظيفة إلى القاهرة لأول مرة.

وفي أقل من ستة أشهر شيد قصر عابدين^(٣٢) لتقيم فيه الإمبراطورة الفرنسية أوجيني خلال زيارتها لمصر لحضور حفلات افتتاح قناة السويس التي جرت سنة ١٨٦٩م. وصرف على حفلات افتتاحها ببذخ لم يعرف له التاريخ شيئاً. واستخدم ٣٠ ألف عامل ليمهد الطريق إلى الأهرامات.

وفي أيامه وُضعت سياسة ثابتة للتعليم، وافتتح أكثر من ٦٠٠ مدرسة، وأنشأ أول مدارس للبنات، وعديد من المدارس العليا والمستشفيات. وأصلح القضاء، ومنع الرق^(٣٣).

وفي عهد إسماعيل باشا بدأ الأقباط يستنشقون نسيم الرّاحة ويستعيدون قوتهم وحياتهم شيئاً فشيئاً^(٣٤). فأعطيت مساحة أوسع من المساواة بين الأقباط والمسلمين، إذ اشترط حضور قسيس عند اعتناق مسيحي للدّيانة الإسلامية. ودعم المدارس القبطية مالياً. وقرّر علانية المساواة بين المسلمين والأقباط، وذلك بترشيح الأقباط لانتخاب أعضاء مجلس شورى القوانين. وفي أول برلمان مصري منتخب سنة ١٨٦٦م دخل الأقباط الانتخاب أسوة بإخوانهم المسلمين. وقام بتعيين قضاة أقباط للمحاكم. وهو أول حاكم قام بمنح الباشوية لرجل قبطي. وفي فترة ازدهار حزب الوفد (١٩١٩-١٩٥٢م) شارك الأقباط بفاعلية في الحياة السياسية.

وسادت الشّعارات التّقدّمية في تلك الفترة مثل "الدّين لله والوطن

٣٢- نقل إسماعيل باشا مقر حكم البلاد من القلعة إلى قصر عابدين.

٣٣- لجنة التاريخ القبطي، خلاصة تاريخ المسيحية في مصر، مرجع سابق، ص ١٩٩

٣٤- لجنة التاريخ القبطي، خلاصة تاريخ المسيحية في مصر، مرجع سابق، ص ١٩٩

للجميع“. و”عاش الهلال مع الصَّليب“... الخ.

واشترى استقلال مصر من السُّلطان التُّركي في استنبول بمليون جنيه إسترليني، فتضخَّمت ديون مصر، وبلغت فوائد الدُّيون حوالي ٩١ مليون إسترليني^(٣٥)، فوضع مصر كلها - بدون أن يقصد - بين أنياب الاستعمار الأوروبي. فكانت النتيجة الطَّبيعيَّة هي إشهار إفلاس مصر، ورهن كل ما تملك بما في ذلك نصيبها من أسهم القناة. فحُجز على أملاكه، وفُرضت عليه وزارة يرأسها أرمي، ووزير ماليتها بريطاني، ووزير الأشغال فيها فرنسي. وانتهى الأمر بعزله في يونيو سنة ١٨٧٩م لتورطه في شؤون البلاد الماليَّة، بعد أن بذل المال الوفير فيما يفيد وفيما لا يفيد^(٣٦). وتولى ابنه توفيق (١٨٧٩ - ١٨٩٢م) حُكم البلاد، فغادر ميناء الإسكندريَّة على الباخرة المحروسة إلى نابولي في إيطاليا وهي نفس الباخرة التي أقلت حفيده فاروق الأوَّل (١٩٣٦ - ١٩٥٢م) خارج البلاد في يوليو سنة ١٩٥٢م.

توفيق باشا (١٨٧٩ - ١٨٩٢م)

بعد عزل إسماعيل باشا تولى ابنه توفيق باشا (١٨٧٩ - ١٨٩٢م) الحكم سنة ١٨٨٢م، وسرعان ما وقعت مصر تحت الانتداب البريطاني منذ سنة ١٨٨٢م، فبدأ الجهاد الوطني ضد الإنجليز.

ثورة أحمد عرابي وجهاد مصطفى كامل ومحمد فريد

قامت ثورة أحمد عرابي باشا سنة ١٨٨٢م، وهي أوَّل بادرة في العصر الحديث لثورة تهب من أبناء مصر، أصحاب البلاد، لمقاومة جور الحاكم الأجنبي الدَّخيل. إذ ساءه سوء معاملة وزير الحربيَّة ”عثمان باشا رفقي“ وهو شركسي الجنسيَّة إذ كان يفضِّل أبناء جنسه الشُّراكسة ويشتت

٣٥ - وهو رقم فلكي بمعايير تلك الأيام.

٣٦ - حسين فوزي، سندباد مصري، مرجع سابق، ص ٣٨٤

الضباط المصريين. وبعد القبض على عرابي مع بعض زملائه هاج الضباط المصريون في مختلف الوحدات العسكرية ونجحوا في الإفراج عن عرابي، واحتشد نحو أربعة آلاف جندي في ميدان قصر عابدين، وعندما نزل الخديوي توفيق إلى ساحة القصر وأعلن رفضه طلبات عرابي بفصل وزير الحربية وتحسين أوضاع المصريين، رد عليه عرابي بالعبارة الشهيرة: "نحن لسنا عبيداً ولن نورث بعد اليوم"، وإزاء تأييد الشعب لعرابي في ثورته اضطر الخديوي إلى الاستجابة لمطالبه.

وبعد هزيمة أحمد عرابي في التل الكبير، انتهزت بريطانيا الفرصة واحتلت مصر في العام ذاته، ولمدة سبعين سنة.

وتجلىَّ جهاد مصطفى كامل ضد الإنجليز في أروع صورته. وخلفه محمد فريد في الجهاد الوطني. وكان التلاحم بين الأقباط والمسلمين قوياً في أيام أحمد عرابي ومصطفى كامل، بفضل هذين القائدين الذين رأوا في الأقباط بالفعل إخوة لهم في الوطن. ومن أقوال مصطفى كامل المأثورة: إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد^(٣٧).

وفي سنة ١٨٨٣م تولى حكم مصر الفعلي اللورد كرومر قنصل بريطانيا، وسفاح مذبحه دنشواي، والذي بقى في مصر أربع وعشرين سنة، ورحل عنها في سنة ١٩٠٧م^(٣٨).

عباس حلمي الثاني (١٨٩٢ - ١٩١٤م)

في السنوات الأولى من القرن العشرين تفتَّح أمام الأقباط عدداً كبيراً

٣٧- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، مرجع سابق، ص ١٧

٣٨- في أيام اللورد كرومر تم بناء حزان أسوان سنة ١٩٠٢م.

من الوظائف الرَّئِيسِيَّة في الدَّولة خصوصاً في وزارات المَالِيَّة والأشغال العامة ومصلحة البريد، ومصلحة السِّكِّك الحديديَّة. وهو ما أحدث بعض الحساسِيَّات، وهي الحساسِيَّات التي تعقَّدت عندما وقع اختيار سلطنة الاحتلال البريطاني على بطرس باشا غالي لكي يرأس محكمة دنشواى في يونيو سنة ١٩٠٦م. ففي سنة ١٩٠٨م نشر الشَّيخ عبد العزيز جساويش مقالاً حاداً بعنوان: "الإسلام غريب في بلاده"، تبعه بأخر أكثر حدَّة، مما أدَّى إلى احتجاجات من الأقباط انتهت إلى عزمهم على عقد مؤتمر تحدَّد موعده في سنة ١٩١٠م ولكنه تأخَّر سنة كاملة نظراً لحادث اغتيال بطرس باشا غالي في فبراير سنة ١٩١٠م على يد إبراهيم الورداني.

وعقد الأقباط مؤتمرهم القبطي العام في أسيوط سنة ١٩١١م ووضعوا فيه ما يُسمى "حقوق الأقلِيَّة". وكان الرَّد عليه بمؤتمر إسلامي عام عُقد في القاهرة في السَّنَةِ التَّالِيَةِ سنة ١٩١٢م واتخذ قرارات متشدِّدة.

وسرعان ما قامت السُّلطات الإنجليزيَّة التي كانت تحكم مصر بعزل عبَّاس حلمي الثاني، وعيَّنت بدلاً منه السُّلطان حسين كامل (١٩١٤ - ١٩١٧م).

السُّلطان حسين كامل (١٩١٤ - ١٩١٧م)

وفي بداية عهده أي في سنة ١٩١٤م أعلنت إنجلترا الحماية على مصر، فأصبحت مصر سلطنة. وبعد أن تولى السُّلطان حسين عرش مصر ثلاث سنوات فقط، أُقيم فؤاد الأوَّل ملكاً على مصر.

فؤاد الأوَّل ملك مصر (١٩١٧ - ١٩٣٦م)

حاول الإنجليز تعويض خسارتهم في اغتيال بطرس باشا غالي بتعيين قبطي بارز آخر هو سليمان باشا، لتشكيل الوزارة، ولكن البابا كيرلس الخامس

(١٨٧٤-١٩٢٧م) نصحه بعدم القبول، ولم ينتصح. وجرت محاولة اغتياله بواسطة قبطي هذه المرة وهو (عريان سعد) عندما قام بالقاء قبلتين على موكبه نجا منهما بمعجزة، واقتنع بعدها أن رئاسته للوزارة لا تُخدم إلا هؤلاء الذين يحاولون إثارة واستغلال الفتنة الطائفية بين المسلمين والأقباط.

ثورة سعد زغلول

وقامت ثورة سنة ١٩١٩م بقيادة سعد زغلول ضد الاحتلال الإنجليزي، وكانت ثورة شديدة الوعي بحقائق مصر عندما رفعت شعار "الاهلال والصليب"^(٣٩). وهي نفس السنة التي أنشئت فيها عصبة الأمم المتحدة، ثم محكمة العدل الدولية سنة ١٩٢١م.

وكان لسعد زغلول أكبر الأثر في اندماج الأقباط في الكفاح الوطني، حيث نعم الكفاح الوطني بثناء مشاركة كافة أطرافه، وكاد شعار "الدين لله والوطن للجميع" أن يصبح من أبرز معالم ثورة سنة ١٩١٩م. فقد انتشرت الثورة في كل أرجاء مصر على يد أبناء الشعب الذين خرجوا يؤيدون سعد باشا زغلول للسفر إلى لندن ومفاوضة الإنجليز للجلاء عن مصر. وعندما قبض الإنجليز على سعد زغلول ونفوه خارج البلاد اشتعلت نيران الثورة في كل مصر وعم الاضطراب أنحاء البلاد وتوقفت الحياة واضطرت الإنجليز إلى الإفراج عن سعد زغلول ورفع قبضتهم المسيطرة على مصر، فأعلنوا مصر دولة مستقلة يحكمها ملك.

وأصبحت مصر مملكة وراثية سنة ١٩٢٢م بعد أن أعلنت بريطانيا زوال الحماية عن مصر صورياً وليس حقيقة، واعترفت باستقلالها استقلالاً مزيفاً، لأنه لم يخرج آخر جندي بريطاني من مصر إلا في سنة ١٩٥٦م. فرقي السلطان فؤاد من سلطان إلى ملك باسم حضرة صاحب

الجلالة الملك فؤاد الأوّل. ومات سعد زغلول في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٧م.

حزب الوفد بقيادة مصطفى النحاس

ولقد برز حزب الوفد تحت قيادة مصطفى النحاس بعد قيادة سعد زغلول. وكان أبرز أقطاب الوفد من الأقباط، مثل ويصا واصف وسينوت حنا. وكان مكرم عبيد باشا هو سكرتير عام الحزب الذي تولى وزارة المالية دائماً في كل وزارات الوفد حتى سنة ١٩٤٢م. وكان مكرم عبيد من ألمع الشخصيات في الحياة السياسية المصرية، ومن أبرز وزراء الاقتصاد بها، بل ومن أكثر السياسيين المصريين في تلك المرحلة وعباً باحتياجات مصر الاجتماعية. وهو الذي أعلن شعاره المشهور في ظروف الحرب العالمية الثانية "إذا كان واجبنا أن نحرر المصري من استغلال الأجنبي، فإن علينا في نفس الوقت أن نعمل لتحرير المصري من استغلال المصري" وفي المعاهدة المصرية البريطانية سنة ١٩٣٦م تعهدت إنجلترا بإلغاء الاحتلال للبلاد.

فاروق الأوّل ملك مصر (١٩٣٦-١٩٥٢م)

كان حاكماً مستبداً، متخلّلاً من كل قيد، يتدخل بحماقة وجنون في شئون الحكم والجيش والقضاء. وانطبق عليه قول فولتير: "الطاغية هو الحاكم الذي لا يعرف من القانون إلا هواه". حارب نشر التعليم كعباس، وزج بالجيش في حرب تجارية كمحمد علي - وهي حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م - ومنح الامتيازات لندمائه كسعيد، وكان وكيلاً للإنجليز في مصر كسلفه توفيق^(٤٠). فطرد من مصر سنة ١٩٥٢م.

مجمال أهم الأحداث التي عكّرت صفو العلاقات بين المصريين

لقد كان عهد محمد على وأسرته - أي الفترة ما بين سنة ١٨٠٥م وسنة ١٩٥٢م عشية قيام ثورة يوليو - هو مرحلة بداية بناء الدولة الحديثة. بما في ذلك بداية تأصيل مفهوم المواطنة لكل المصريين، بما تعنيه من المساواة أمام القانون، والمشاركة في إدارة شؤون البلاد، والحق في اقتسام الموارد. وكذا اكتمال مؤسسات الدولة التشريعية والتنفيذية والقضائية وإصدار الدستور.

لقد كانت هذه الفترة بمثابة بداية طيبة يمكن البناء عليها، ولكن حدث في أثنائها أموراً عكّرت بعض الشئ صفو العلاقات بين أبناء الشعب الواحد مثل:

١- اغتيال بطرس باشا غالي على يد الورداني. وكان عضواً في جماعة أصولية تسمى جماعة الإخاء المتبادل. ومن المؤسف أن المفتي وقتها رفض التصديق على حكم إعدامه بحجة أن المسدس الذي استخدمه لم يرد ذكره في القانون الإسلامي كأداة قتل!

٢- هجوم الشيخ المراغي شيخ الأزهر المتحالف مع القصر مراراً وتكراراً في خطبه على الوفد وعلى الأقباط.

٣- ظهور جماعة الإخوان المسلمين سنة ١٩٢٨م وممارستها المتطرفة ضد المجتمع، وعملياتها الإرهابية التي طالت الأقباط.

٤- صدور دستور سنة ١٩٢٣م الذي ينص على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام.

٥- إصدار وزارة العدل منشوراً سنة ١٩٣١م يقضى بأن تكون الشهادة الطبية المقبولة في القضايا الشرعية من طبيب مسلم ولا تُقبل من طبيب مسيحي.

٦- إصدار العزبي باندا وكيل وزارة الداخلية سنة ١٩٣٤م الشروط

العشرة لبناء الكنائس. وهي شروط معوّقة ومكبّلة لبناء الكنائس.

٧- الممارسات الفاشيّة لجمعية مصر الفتاة وتحولها من جمعية فاشيّة إلى ما يشبه الحزب الإسلامي.

٨- تحيُّز القصر والملك في كثير من الأحيان ضد الأقباط نكايّة في حزب الوفد.

ثانياً: أخبار الكنيسة في فترة الحكم الملكي للبلاد

البابا كيرلس الرابع أبو الإصلاح (١٨٥٣ - ١٨٦١م)

قبل نهاية حكم عباس حلمي الأوّل بسنة واحدة أقيم البابا كيرلس الرابع (أبو الإصلاح) سنة ١٨٥٣م بطرياقاً للكراسة المرقسيّة.

وكان البابا كيرلس الرابع متعمّقاً في دراسة اللغات العربيّة والقبطيّة واليونانيّة والتركيّة، كما كان ملماً بالإنجليزيّة والإيطاليّة. ولم يدم في منصبه سوى قرابة تسع سنوات حيث مات مسموماً سنة ١٨٦١م بخيانة مطران الأرمن في مصر. وعميل الحاكم سعيداً!

لقد اشتملت فترة رئاسته القصيرة على نهضة كنسيّة شاملة، وإصلاحات واسعة في التّعليم المجاني حيث أنشأ مدرسة الأقباط الكبرى التي شيّدها سنة ١٨٥٥م وألحقها بالكنيسة البطريركيّة، ودرّست فيها اللغات القبطيّة والعربيّة والتركيّة والفرنسيّة والإنجليزيّة والإيطاليّة. وهو أوّل من أنشأ مكتبة عامة بالمدرسة السّابق ذكرها. وهو الرّائد في تعليم البنات^(٤١)، وإنصاف المرأة. وفي عهده بدأت الطّباعة الدّينيّة لأوّل مرّة في

٤١- تشير مصادر الحملة الفرنسية على مصر أن التّعليم في القاهرة كان قاصراً على الذكور من أبناء الأقباط فقط، وأما في الصّعيد فكان للطفلة القبطيّة الحرّيّة التامة في

مصر، بعد أن استورد مطبعة من أوروبا لاستخدامها في نشر العلوم الكنسيّة، وتثقيف الإكليروس، وكانت هي المطبعة الثالثة التي عرفتها مصر في بدء نهضتها الحديثة بعد المطبعة الأولى التي دخلت مصر مع الحملة الفرنسيّة، والمطبعة الثانية، وهي مطبعة بولاق الأميريّة^(٤٢).

وفي عهده كان الاهتمام بالألحان والطقوس الكنسيّة، وإعادة ترميم الكنائس الأثريّة، وبناء كنائس جديدة. والصداقة التي توطّدت في عهده بين الكنيسة القبطيّة الأرثوذكسيّة والكنيسة اليونانيّة في مصر، كانت أوّل بادرة حقيقيّة في القرن التاسع عشر للتقارب بين الكنيستين، وهو ما بدء في ممارسته رسمياً في النّصف الثاني من القرن العشرين.

نشأة المجلس الملّي^(٤٣)

في سنة ١٨٧٣م رأى أعيان الكنيسة القبطيّة بعد نياحة البابا ديمتريوس الثاني (١٨٦٢ - ١٨٧٠م) واضطراب الأحوال الماليّة والإداريّة، أن يعدّوا - قبل انتخاب خليفته - مشروعاً لإصلاح الكنيسة، وكانت مجموعة قوانين ابن العسّال (القرن الثالث عشر) رائدهم في ذلك. ووجدوا فيها القول أنه في كل الأمور المهمّة، يجب أن يستشير البطريرك أناساً متقنين وأتقياء، كهنة وعلمانيين، أفراداً وجماعات، والقرارات يجب أن تدوّن كتابة.

التعليم والذهاب إلى كتّاب القرية مثلها مثل الذكور تماماً، حتى تقترب من سن البلوغ، فتستقر في المنزل.

انظر: د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ٢٤٢

٤٢ - في مصر الآن ستة آلاف مطبعة حكومية وأهلية.

٤٣ - مجلة صديق الكاهن، العدد الرابع، أكتوبر ١٩٧٩م، مجلة المسيرة، العدد ٧٧٥ - ٧٨٠،

غوز ١٩٩٠م

وعلى هذا الأساس اجتمع جماعة من الأراخنة يوم ٦ يناير سنة ١٨٧٤م وأيدهم القمّص فيلوثاؤس إبراهيم (١٨٣٧ - ١٩٠٤م) رئيس الكنيسة المرقسيّة الكبرى بالقاهرة، وأعدّوا مشروعاً يقضي بإنشاء مجلس في كل إيبارشيّة برئاسة أسقف الإيبارشيّة مكوّن من لجنة من العلمانيّين لإدارة أمور الإيبارشيّة الماليّة والمدنيّة، ولجنة من الإكليريكيّين للاهتمام بالأمور الرّوحيّة. ووافقهم الأنبا مرقس القائم مقام البابا أثناء خلو الكرسي البطريركي، وصدّق على مشروعهم، ووافقهم أيضاً جميع الأساقفة. وفي يوم ١٦ يناير سنة ١٨٧٤م تمّ انتخاب المجلس الملّي الأوّل العام، وقام بطرس باشا غالي بإخطار الحكومة بذلك المجلس واختصاصاته. وفي ٢ فبراير سنة ١٨٧٤م تمت موافقة الخديوي إسماعيل على الاعتراف الرّسمي بهذا المجلس.

وصار المجلس الملّي ومنذ بدايته يتكوّن من اثني عشر عضواً علمانياً، واثني عشر نائباً يملّون محل الأعضاء الأساسيين الغائبين. ويشترك الكهنة مع أعضاء المجلس عند الفصل في المسائل الدنيّة، ويرأسه البطريرك أو من ينوب عنه.

وانتخب هذا المجلس البابا كيرلس الخامس (١٨٧٤ - ١٩٢٧م) بابا الإسكندرية الـ ١١٢ بعد أن نالوا مرسوماً خديويّاً بهذا الشأن. وكانت حياته الباذلة في هدوء من أجل الكنيسة وشفافية روحه نبراساً يُحتذى لكل جيله. وفي البداية كان البطريرك علي وفاق تام مع المجلس، ولكن بعد فترة وجيزة وجد أن مشاريعه لا تُنفذ إلاّ إذا قبلت من أغلبيّة أعضاء المجلس، وهو ما اعتبره إححافاً بحقوقه كرئيس كنسي. فتوترت العلاقة بين المجلس الملّي والبابا. وفي سابقة مؤسفة رفع المجلس شكوى ضد بطريركه إلى الحكومة التي أجبرته على أن يمثّل لما جاء في المرسوم الصّادر في فبراير سنة ١٨٧٤م في تعهد مكتوب يُعمل به عند اللزوم.

في هذا الوقت نشأ معهد اللاهوت في القاهرة، وعُين القُمص فيلوثاؤس رئيس الكنيسة المرقسية الكبرى بالقاهرة مديراً له. ولكن مع نفاذ صبر البابا من المراقبة والإشراف اللتين لم يكن سابقوه واقعين تحت مثيلهما، بدأ بإلغاء المعهد المذكور.

كف غالبية أعضاء المجلس عن حضور الاجتماعات، ورفعوا شكوى أخرى للحكومة ضد بطريركهم، فصدر مرسوم من الخديوي توفيق باشا في إبريل سنة ١٨٨٣م بتجديد المجلس، ووضع أحكام جديدة تمنع البطريرك من رفض رأي الأغلبية، بل أصبح للمجلس الحق في حل المسائل الخاصة بالكنائس والمدارس ودخل الفقراء والصدقات وسجلات الزواج والعماد والوقفيات ورسامات الكهنة وتوزيع الرهبان في الأديرة والميراث ... الخ. وإذا وُجدت بعض النقاط لم تحدد يعتبرها المجلس من اختصاصه.

فأصبح المجلس ينفرد بنظر دعاوى الزواج والطلاق بغير حضور رجال الدين، وأن يجتمع وحده، فغياب البطريرك أو نائبه لا يعطل جلساته.

ولما انتهت مدة المجلس حاول البابا بكل وسيلة وقف تجديده، فتفاقم الأمر سوءاً لاسيما بعد أن عقد البابا مجمعاً من الأساقفة وكبار الكهنة وأصدر قراراً بمنع العلمانيين من التدخل في إدارة الكنيسة. ولكن بطرس باشا غالي - والذي كان باستطاعته طي هذه الصفحة القائمة - عاد إلى تجديد المجلس واستدعاء الناخبين بحضور محافظ القاهرة الذي افتتح الجلسة الانتخابية باسم الخديوي بعد أن رفض البابا رثاستها. وساءت الأحوال بين البابا والخديوي، وتورط المجلس فأصدر قراراً برفع يد البابا عن كافة شؤون الكنيسة، وعبئاً حاول البابا إقناع الحكومة أنه هو المستول عن إدارة الكنيسة.

واختار المجلس الأنبا أناسيوس أسقف صنبو ليقوم بالنيابة

البطريركية، فعقد البابا مجمعاً من الأساقفة والكهنة وحرمه. وانتهى الأمر بإبعاد البابا إلى دير البراموس بوادي النطرون، فساءت الأحوال وعمت الفوضى، وانضم كثير من الأقباط إلى طائفة الروم الأرثوذكس. ولقد كان لبطرس باشا غالي أكبر قدر من المسؤولية في هذا الضرر الذي لحق بالأقباط.

بعد ذلك رفع الأقباط عريضة موجهة إلى الخديوي عباس حلمي باشا يلتمسون فيها رجوع بطريركهم، وقّع عليها ثمانية آلاف أب أسرة، فوافق الخديوي على عودة البطريرك إلى كرسيه، فعاد في فبراير سنة ١٨٩٣م. وبعد عشرة أيام من وصوله جاءه بطرس باشا غالي ومعه الأنبا أنناسيوس أسقف صنبو وقسقام واعتذرا للبابا عما فرط منهما، فصفح عنهما.

وتشكل المجلس الملي الرابع، واعتمد رسمياً من الدولة سنة ١٩٠٦م، وعادت الأمور إلى ما كانت عليه، فتنحى البابا عن رئاسة المجلس، وفوض لإدارة جلساته القمص بطرس عبد الملك رئيس الكنيسة المرقسية الكبرى.

وفي سنة ١٩٠٨م عاد رؤساء الأديرة إلى مناوأة ومنازعة المجلس الملي في إدارة الأوقاف القبطية، وتمكنوا من الحصول على القانون رقم ٨ لسنة ١٩٠٨م وقانون سنة ١٩١٢م، بتعديل لائحة اختصاصات المجلس الملي، وأهمها إخراج إدارة جميع أديرة الرهبان الكائنة خارج مدينة القاهرة من اختصاص المجلس وتكون إدارتها للبطريرك. إلا أن البرلمان عاد في سنة ١٩٢٧م ووضع إدارة أديرة الرهبان في يد المجلس مرة أخرى. وبالاختصار كانت أوقاف الأديرة هي الصخرة التي تحطمت عليها كل وسائل السلام بين المجلس الملي وأعضاء المجمع المقدس منذ تأسيسه سنة ١٨٧٤م إلى أن تم إنشاء هيئة الأوقاف القبطية في يوليو سنة ١٩٦٠م في عهد البابا كيرلس السادس (١٩٥٩ - ١٩٧١م)، والذي في عهده توقف نشاط المجلس الملي^(٤٤).

فَهْضَة كَنَسِيَّة شَامِلَة فِي عَصْرِ الْبَابَا كِيرْلِس الْخَامِس (١٨٧٤ - ١٩٢٧م)

برز في عهد البابا كيرلس الخامس الأنبا باسيلوس مطران القدس (١٨١٨ - ١٨٩٩م) وكان مطراناً للقدس إلى جانب مديريات الدقهلية والشرقية والغربية - ما عدا طنطا وكفر الزيات - والقلوبية ومحافظتي القنال ودمياط! وبرغم ذلك استطاع أن يرعى كل هذه الرعية المترامية الأطراف بسيرة حسنة، إلى حوار التعمير الكثير الذي امتد في كل مكان. وكان رجلاً باراً شريف الأخلاق، نزيه النفس، متسع الفكر، سديد الرأي، غيوراً على كنيسته، فصار موضع حب الأقباط جميعاً.

وفي سنة ١٨٨١م كرّس البابا كيرلس الخامس الأنبا أبرام البار والقدّيس أسقفاً للفيوم والجيزة (١٨٨١ - ١٩١٤م)، وشّتَان بين حياة وحياة، حياة سياسية مرتبكة مضطربة متشابكة الأحداث، وحياة روحية صافية هادئة، وسيرة عطرة انتشر أريجها فغطى على ما عداها من أحداث.

وفي سنة ١٨٩٣م أعاد البابا كيرلس الخامس افتتاح الكلية الإكليريكية، وفي سنة ١٩١٨م أسند رئاستها إلى الأرشيدياكون حبيب جرجس (١٨٦٦ - ١٩٥١م) الذي يُعتبر أوّل من استعمل تعبير "الأمة القبطية"، حيث قام بحملة واسعة لنشر اللغة القبطية، وهو أيضاً قائد حركة "مدارس الأحد" لتربية النشء في حضن الكنيسة، وبإيجاز قال عنه الأستاذ محمد حسنين هيكل "... وبشكل عام فلقد يمكن القول أن دوره في المجتمع القبطي وبين الأقباط، كان يتوازى مع الدور الذي قام به بعض المصلحين الإسلاميين من أمثال الأفغاني وعبدّه^(٤٥)". وظلّ البابا كيرلس الخامس على علاقة وطيدة بسعد باشا زغلول مرتبطين معاً برباط المحبة

قرارات المجلس تصدر بموافقة كل الأعضاء، وانتفت الخلاقات تماماً.

والوطنية حتى انتقل كلاهما في شهر واحد، حيث انتقل البابا في يوم ٧ أغسطس سنة ١٩٢٧م.

ويعد عصر البابا كيرلس الخامس من أزهى عصور الكنيسة الطقسية والفكرية، إذ في عهده طُبعت كل الكُتب الطقسية الكنسية تقريباً، بل أدقها على الإطلاق طيلة القرن العشرين كله. ونُض الإكليروس، وبرع بينهم الخطباء والمفوضون، وفي عهده أنشئت أول مجلة قبطية سنة ١٩١٤م، أنشأها القمص يوسف حبشي، وظهرت مجلة الفردوس التي كان يصدرها القس منسى يوحنا (+ ١٩٣٠م)، ومجلة صهيون التي أسسها الأسقف إيسيدوروس (+ ١٩٤٢م). وظهر في أيامه القمص صليب المسعودي الذي باشر طبع كتاب الخولاجي المقدس الكبير لأول مرة في مصر سنة ١٩٠٢م. وبعد أن كانت الكنيسة تملك مدرسة واحدة أصبحت في أيامه تملك عشرات المدارس الابتدائية والثانوية للبنين والبنات في القاهرة وعواصم الأقاليم علاوة على المدرسة الصناعية. وفي عهده نشأت الجمعيات الأهلية المسيحية لأول مرة في مصر.

وظهر أيضاً الإيغومانس فيلوثاؤس إبراهيم (١٨٣٧ - ١٩٠٤م) من مواليد مدينة طنطا، وخرَّيج مدرسة الأقباط التي أنشأها البابا كيرلس الرابع، حيث أتقن فيها القبطية والعربية والإيطالية. وفي سنة ١٨٦٢م صار قساً لكنيسة رئيس الملائكة ميخائيل بسرباي أحد ضواحي مدينة طنطا، إذ لم يكن لمدينة طنطا كنيسة آنذاك^(٤٦). وانتقل في سنة ١٨٧٤م إلى الكاتدرائية المرقسية بالقاهرة نظراً لسعة علمه الغزير وذيوع شهرته في الوعظ، وبراعته في الدفاع عن عقائد الكنيسة القبطية، ووضع كتباً كثيرة،

٤٦ - أول كنيسة أنشئت في مدينة طنطا في العصر الحديث هي كنيسة السيدة العذراء مريم بحي الصاغة، وذلك في سنة ١٨٧٥م، وكان قداسة البابا شنودة الثالث قد زارها واحتفل بالعيد المتوي لها في شهر كيهك (ديسمبر) سنة ١٩٧٥م.

وهو الذي أدخل إلى الكنيسة طقس تمثيل القيامة في ليلة عيد القيامة نقلاً عن الكنيسة اليونانية بعد أن أجرى له بعض التعديلات، وإليه يُنسب لحن "يا كل الصُفوف السَّمائين". وقد عاصر البطيريركين ديمتريوس الثاني (١٨٦٢ - ١٨٧٠م)، وكيرلس الخامس (١٨٧٤ - ١٩٢٧م).

المتحف القبطي بمصر القديمة

أنشأه مرقس سميكة باشا في سنة ١٩١٠م في منطقة مصر القديمة على الباب الغربي لحصن بابليون، وفوق برجين من أبراج ذلك الحصن الروماني، وبجوار كنيسة السيِّدة العذراء (المعلقة). وذلك بعد غياب بطرس باشا غالي (١٨٤٧ - ١٩١٠م) عن السَّاحة المصريَّة. وكان المتحف تابعاً للبطيريركيَّة حتى سنة ١٩٣١م، ثم أصبح تابعاً لمصلحة الآثار.

ويتكوَّن المتحف القبطي من جناحين: الجناح القديم، وقد أنشئ مع إنشاء المتحف سنة ١٩١٠م. والجناح الجديد، والذي افتتحه الملك فاروق الأوَّل سنة ١٩٤٧م.

ويتألَّف كل جناح من دورين، في كل دور مجموعة من الصَّلوات المستطيلة الواسعة يصل عددها إلى ثلاثين قاعة، ترُتبت فيها المقتنيات ترتيباً تاريخياً منذ دخول المسيحيَّة إلى مصر. ويقدر عدد مقتنيات المتحف بأكثر من أربعة عشر ألف تحفة ما بين معروض ومخزون. وفي سنة ١٩٢٠م، أنشئ بالمتحف مكتبة تعتبر جزءاً أساسياً منه، تحوي ما يزيد عن عشرة آلاف كتاب ومجلد ودوريات بلغات مختلفة. ومُلحق بها مكتبة خاصة بالمخطوطات تبلغ حوالي ألف مخطوط من البردي والرَّق والكُتَّان من القرن الثاني إلى القرن التاسع عشر. كما توجد به خمسمائة ورقة بردي عُثِر عليها سنة ١٩٥٦م داخل كهف عند سفح جبل طارق بنجع

حمادي، وهي خاصة بجماعة الغنوسيين الذين عاشوا في مصر منذ القرن الثاني الميلادي.

وفي يوم ٢٦/٦/٢٠٠٦م قام الرَّئيس حسني مبارك - بمصاحبة رئيس مجلس الوزراء ووزير الثقافة - بافتتاح المتحف، بعد ترميمه، وتطوير أسلوب عرض مقتنياته، تماشياً مع نُظُم المتاحف العالميَّة، وحمائته إلكترونياً. وقد تكلف مشروع تطويره وترميمه ٣٠ مليون جنيه مصري.

الجمعيَّات الأهلِيَّة المسيحيَّة في مصر

مع نهاية القرن التَّاسع عشر وبداية القرن العشرين كان للأقباط تسع جمعيَّات أهليَّة وهي أقدم جمعيَّات أهليَّة أنشأها الأقباط وهي:

- الجمعيَّة الخيريَّة القبطيَّة: أنشئت سنة ١٨٨١م، باسم "جمعيَّة المساعي الخيريَّة" بفضل بطرس باشا غالي رئيس الوزراء لزيادة نقل مجتمع الإصلاح القبطي، ومساندة المجلس الملِّي العام، وزيادة دوره في الإشراف على أوقاف الكنيسة وإدارة أموالها. وفي سنة ١٩٠٨م أُطلق عليها اسمها الجديد. وهي التي أنشأت المستشفى القبطي بشارع رمسيس، وهو أوَّل مستشفى أهلي في القاهرة.

- جمعيَّة التَّوفيق القبطيَّة: تأسَّست سنة ١٨٩١م ووقفت بجانب المجلس الملِّي في الخلافات بين المجلس والبابا كيرلس الخامس. أسَّسها رفلة جرجس، ومرقس بك سميكة مؤسس المتحف القبطي وغيرهما. وأنشأت هذه الجمعيَّة أوَّل مدرسة صناعيَّة للأقباط سنة ١٩٠٥م.

- جمعيَّة النشأة القبطيَّة: تأسَّست سنة ١٨٩٦م، وقامت على ثلاثة مبادئ هي: الحث على دراسة اللُّغة القبطيَّة، وتدريب قواعد الدِّين، وجمع

تاريخ وافي للأقباط. وكان الأستاذ حبيب جرجس يلقي عظاته بها. وفي سنة ١٨٩٨م أصدرت نتيجتها السنوية، وهي أول نتيجة قبطية تصدر من نوعها، ويرجع الفضل في إصدارها للأستاذ توفيق إسكاروس صاحب كتاب نوابع الأقباط ومشاهيرهم في القرن التاسع عشر.

- **جمعية المحبة:** أسسها الأستاذ حبيب جرجس باسم "جامعة أشعة حب يسوع"، ثم أطلق عليها اسم "جامعة المحبة"، وكان هدفها تعليم الدين المسيحي للنشء. وفي سنة ١٩٠٥م اتجهت إلى تعليم طلبة المدارس الأميرية مبادئ الدين المسيحي قبل أن يتقرر تعليم الدين المسيحي بهذه المدارس.

- **جمعية الإيمان القبطية:** تأسست سنة ١٩٠٠م في حارة السقاين لممارسة الوعظ، ثم نُقلت إلى الفجالة، وكانت تمارس الوعظ ودراسة الكتاب المقدس واللغة القبطية. وتمثل هذه الجمعية هضمة قبطية إصلاحية في عدة ميادين، حيث بلغ عدد تلاميذ وتلميذات مدارسها خمسة آلاف. وأنشأت مستوصفاً ومستشفى وكنيسة كبرى ومجلة ذاع انتشارها.

- **جمعية أصدقاء الكتاب المقدس:** تأسست سنة ١٩٠٨م، وأسسها باسيلي بطرس. وأنشأت الجمعية في سنة ١٩١٥م منازل لسكنى الطلبة المغتربين، ونشرت الثقافة الروحية بينهم. وخدمت الشباب خدمة ناجحة. وقد تولى رئاستها مرقس باشا سميقة بعد مؤسسها باسيلي بطرس.

- **جمعية عمرة التوفيق القبطية:** أسسها الأستاذ تادرس ميخائيل مع بعض من زملائه سنة ١٩٠٨م، وكان من أهم أهدافها العناية بالفقير، وأهم منشآتها مدرسة للبنين سنة ١٩١٠م. وفي سنة ١٩٠٩م أنشأت مستوصفاً. وكان لها دور متميز في الحركة الوطنية سنة ١٩١٩م، فاتخذها الزعيم سعد زغلول منتدى لإلقاء خطبه وبياناته.

- **جمعية الإخلاص القبطية بالإسكندرية:** أنشئت سنة ١٩٠٩م

وساندت المجلس المَلِّي الإسكندري، وحاربت العادات المستهجنة، وأحيت اللُّغة القبطيَّة، وتعليم الدِّين المسيحي. وكان من أهم أعمالها إنشاء كنيسة السيِّدة العذراء مريم بمحرم بك، ومدرسة للفنون التطريزيَّة، ومستوصف ومستشفى ومدارس أوليَّة.

- **جمعيَّة ملجأ الأيتام:** تأسَّست سنة ١٩١٧م، وأسَّسها جرحس بك فهمي، وكان الغرض منها إقامة ملجأ لإيواء بعض اليتامى وتعليمهم.

- **جمعيَّة فمضة الكنائس:** وكان من أبرز ما قامت به هو الاهتمام بتحفيظ ألحان الكنيسة للنشء، وقامت الجمعيَّة بطبع كتاب "خدمة الشَّمْس والألحان"، وهو من أهم مآثر هذه الجمعيَّة. وقد طُبِع الكتاب لأوَّل مرَّة في سنة ١٥٧٥ش/ ١٨٥٩م، وتوالى الطُّبعات الكثيرة له بعد ذلك مع كثير من الإضافات المتتابعة حتى صار كتاباً شاملاً لكل ما يحتاج إليه الشَّمْس على مدار السَّنَةِ الطَّقْسِيَّة. ولازال الكتاب حتى اليوم وبعد مرور أكثر من مائة سنة على طبعته الأولى مرجعاً هاماً في هذا المضمار.

- **الجمعيَّة القبطيَّة للآثار والحفريَّات:** وقد أنشئت في سنة ١٩٣٤م، وقد أسَّسها مريت غالي أحد أحفاد بطرس باشا غالي، وسُميت باسم "جمعيَّة أصدقاء الفن القبطي".

- **جمعيَّة مار ميخائيل العجائبي بالإسكندريَّة:** (١٩٤٥م - سنين عديدة). وهي من أشهر الجمعيات القبطيَّة اليوم، تخصصت في نشر دراسات قبطيَّة رصينة في كافة نواحي الحياة الكنسيَّة القبطيَّة، وصدر لها حتى يوبيلها الذهبي (١٩٤٥ - ١٩٩٥م) خمسة عشر رسالة كان آخرها "مقتطفات من تاريخ الكنيسة المصريَّة". رأس الجمعيَّة حتى اليوم ثلاثة من أعضاء الجمعية هم: الأستاذ بانوب حبشي (١٩٤٥ - ١٩٥٥م)، الدكتور منير شكري (١٩٠٨ - ١٩٩٠م)، الأستاذ برهوم حنين (١٩٨٥ - أطال الله حياته). وكان البابا كيرلس السَّادس على صلة وثيقة بالجمعيَّة وقد أوفد المتنيح

نيافة الأنبا غريغوريوس أسقف الدراسات العليا والبحث العلمي لرأس احتفال الجمعية بمناسبة مرور ٣٠ عاماً على تأسيسها.

وقد أنشأت هذه الجمعية كنيسة مار مينا العجائبي بفلمنج بالإسكندرية. كما كان لها دور ريادي في تعريف الأقباط بكنيسة مار مينا الأثرية بمنطقة مريوط.

المراحل التي عبرت عليها الجمعيات الأهلية في مصر

كانت الفترة من الربع الأخير من القرن التاسع عشر إلى سنة ١٩٢٣م هي مرحلة نشأة الجمعيات الأهلية وتطورها. وكانت هذه الجمعيات هي المدرسة الأولى التي تربي فيها الساسة والمشتغلين بالقضايا العامة، والذين ظهر دورهم بعد ذلك في الحركة الوطنية المصرية. وفي هذه الفترة امتد نشاط الجمعيات الأهلية المسيحية إلى السدين والرعاية الاجتماعية والخدمات الصحية والتعليمية.

أما المرحلة الثانية (١٩٢٣ - ١٩٥٢م) فهي مرحلة انتشار الجمعيات الأهلية باضطراد حتى غطت أغلب أقاليم مصر، نتيجة لدستور سنة ١٩٢٣م الذي صيغ صياغة علمانية تعترف بحق المصريين جميعاً في تشكيل الجمعيات، ومتضمناً كافة الأحكام الخاصة بكفالة المساواة في الحقوق لكل المصريين بصرف النظر عن الدين والجنس واللغة أو غيره. بالإضافة إلى حرية الاعتقاد الديني، وحرية ممارسة الشعائر الدينية.

وفي هذه الفترة تصدّت الجمعيات الأهلية المسيحية لتعليم السدين المسيحي للتلاميذ الأقباط في مدارس الحكومة، حتى صدر قانون سنة ١٩٢٨م ينص على أن تكون مادة الدين من بين مواد الدراسة، واستمر العمل به حتى صدر قانون سنة ١٩٤٩م بالمساواة بين التلاميذ المسلمين

والمسيحيين من جهة تعليم كل منهم ديانته. وكان القانون الذي صدر سنة ١٩٣٠م يلزم بالتوسُّع في نطاق التَّعليم الإلزامي من سن السَّابعة إلى الثامنة عشر، ولكنه لم يورد مادة الدِّين المسيحي ضمن مواد الدِّراسة المعتمدة، نتيجة لذلك انصرف كثير من الأقباط عن إرسال أبنائهم إلى المدارس الإلزامية وبدأوا يشجِّعون الجمعيات الخيرية القبطية على إنشاء المدارس لتعليم أطفالهم.

ثم تأتي المرحلة الثالثة (١٩٥٢ - ١٩٧٧م)، وهي مرحلة الانكسار في إنشاء الجمعيات الأهلية. وذلك بسبب أن الدولة - بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو وإلغاء الأحزاب - قد هيمنت على كافة القطاعات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وتعاملت مع الجمعيات الأهلية بنفس أسلوب تعاملها مع الأحزاب السياسية، فألغت بقرار جمهوري إنشاء الجمعيات الأهلية، وإخضاع كافة الجمعيات القائمة للرقابة والإشراف من قِبَل الدولة، فتقهقرت المشاركة الشعبية، حتى جاء القانون رقم ٣٢ سنة ١٩٦٤م، ليحكم من قبضة الدولة على أنشطة الجمعيات الأهلية في مصر.

ثم تأتي المرحلة الرابعة (١٩٧٠م - ١٩٩٥م) وهي عودة نشاط إنشاء الجمعيات الأهلية المسيحية، ففي هذه الفترة أشهرت ١١٦ جمعية أهلية مسيحية جديدة^(٤٧).

وفي سنة ١٩٩٥م بلغ عدد الجمعيات الأهلية المسيحية عموماً ٥٧٨ جمعية مسيحية من إجمالي الجمعيات الأهلية الذي يبلغ ١١٣٣٤ جمعية أهلية،

٤٧ - منها ٤٠ جمعية أهلية مسيحية في القاهرة، ٨ في الإسكندرية، ١٤ في المنيا، ٩ في سوهاج، ٧ في كل من القليوبية والجيزة، ٤ في كل من الغربية والإسماعيلية وأسيوط، و٢ في كل من الشرقية وسيناء، وثلاثة في كل من المنوفية وبنى سويف والفيوم، وواحدة في كل من بورسعيد والوادي الجديد.

أي بنسبة ٥ % جمعيات مسيحية إلى إجمالي الجمعيات الأهلية بمصر (٤٨).

ولقد صدر مؤخراً قانون جديد برقم ٨٤ لسنة ٢٠٠٢ لتنظيم الجمعيات والمؤسسات الأهلية، وقد نُشر في الجريدة الرسمية يوم ٢٠٠٢/٦/٥ م. وبموجب هذا القانون يُلغى قانون الجمعيات والمؤسسات الأهلية الصادر بالقانون رقم ٣٢ لسنة ١٩٦٤ م، وأيضاً القانون رقم ١٥٣ لسنة ١٩٩٩ م، كما يُلغى كل نص يخالف أحكام القانون الجديد.

وفي هذا القانون الجديد يجوز التصريح للمنظمات الأجنبية غير الحكومية بأن تمارس أنشطة الجمعيات والمؤسسات الأهلية الخاضعة لأحكام القانون المشار إليه، وفقاً للقواعد المقررة فيه، ويصدر التصريح من وزارة الشؤون الاجتماعية بناءً على الاتفاق الذي تبرمه وزارة الخارجية مع هذه المنظمات.

من البابا يوانس التاسع عشر إلى البابا يوساب الثاني

في ديسمبر سنة ١٩٢٨ م أُقيم البابا يوانس التاسع عشر (١٩٢٨ - ١٩٤٢ م) بطريركاً للكراسة المرقسية. وكانت الثلاثينيات من هذا القرن قد شهدت تقييداً للحرية الدينية لدى الأقباط، وكان ذلك بعد أن نشأت حركة الأخوان المسلمين سنة ١٩٢٨ م. وفي حيرته تولى الملك فاروق الأول حكم مصر (١٩٣٦ - ١٩٥٢ م) بعد وفاة أبيه.

وفي فبراير سنة ١٩٤٤ م اختير البابا مكاروريوس الثالث بطريركاً

٤٨ - والجمعيات الأهلية المسيحية في القاهرة هي ١٦٧ جمعية، وفي الإسكندرية ٤٥ جمعية، وفي سوهاج ٤٣ جمعية، وفي كل من أسبوط والمنيا ٣٣ جمعية، وفي قنا ٢٢ جمعية، وتستأثر الغربية بأكثر عدد من الجمعيات الأهلية المسيحية في الوجه البحري حيث بها ٢٩ جمعية، بينما ينحسر وجود الجمعيات الأهلية المسيحية إلى واحدة في كفر الشيخ.

للكرازة المرقسيَّة، وكان محباً للصَّلاة، وإقامة القدَّاسات الإلهيَّة التي تبدأ ظهراً في أغلب الكنائس التي زارها. واجتاز متاعب حِجَّة في حياته بسبب المجلس الملي، وكانت نياحته في أغسطس سنة ١٩٤٥م.

وفي سنة ١٩٤٦م أُقيم البابا يوساب الثاني (١٩٤٦-١٩٥٦م) بطريركاً للكرازة المرقسيَّة. وكان قد درس اللاهوت في معهد ريزاريوس بأثينا في اليونان خلال الفترة من سنة ١٩٠٢-١٩٠٥م. وكان يجيد اللُّغات اليونانيَّة والفرنسيَّة والإنجليزيَّة.

وفي عصره وفي سنة ١٩٤٧م بنى أبونا مينا اليراموسي المتوحَّد - البابا كيرلس السَّادس فيما بعد - كنيسة مار مينا بمصر القديمة، وهي الكنيسة التي خرجت منها الشَّرارة الأولى، محمولة على الصَّلاة، لخدمة كل الكنيسة القبطيَّة.

وفي هذه الفترة كانت النَّهضة الرُّهبانيَّة القبطيَّة الكبيرة التي بدأها سنة ١٩٤٨م مثلث الرِّحمت الأب القُمص متى المسكين (١٩١٩-٢٠٠٦م)، حينما ترهَّب في دير الأنبا صموئيل المعترف بوادي القلمون. وبعد أن تنقَّل في عدَّة أديرة استقر في دير القديس أنبا مقار وصار الأب الرُّوحي لرهبانه بتكليف من قداسة البابا كيرلس السَّادس، وذلك على مدى ٣٧ سنة (١٩٦٩-٢٠٠٦م). فشهد الدير في هذه الفترة هُضة رهبانيَّة وعمرانيَّة عظيمة امتد أثرها على كل الأديرة الأخرى. فالنَّهضة الرُّهبانيَّة كانت ولا تزال هي عماد النَّهضة الكنسيَّة في كل عصر.

الفصل الحادي عشر

كنيسة مصر

في ظل النظام الجمهوري للبلاد

تمهيد

أهَى ضبَّاط الجيش على النَّظام الملكي في مصر، وأعلن الحُكم الجمهوري. وكان أوَّل رئيس للبلاد هو الرَّئيس محمد نجيب^(١) (١٩٥٣-١٩٥٤م)، أعقبه الرَّئيس جمال عبد الناصر^(٢) (١٩٥٦-١٩٧٠م)، فكان أوَّل مصري يحكم مصر منذ ثلاثة وعشرين قرناً خلت!!.

أضواء عامة على عهد عبد الناصر

جسَّد عبد الناصر للمصريين نوعاً من الوجود المعنوي بين القوى العظمى في ذلك الوقت، فحاول توحيد العرب، وقاوم الاحتلال في إفريقيا، وحرَّر معظمها من المستعمر، ووقف ضد الظلم في كل مكان. فأحبه الشَّعب أكثر من أهله وذويه.

وفي سنة ١٩٥٦م - ومع بدايات حكم الرَّئيس جمال عبد النَّاصر - انحسر التَّيار الإسلامي إلى حد كبير بعد أن تعرَّض الرَّئيس نفسه لخطر

١- تولى قيادة الجيش عند قيام الثورة، وهو صاحب شعبية كبيرة، وله مواقف موافقة للوطنية المشرفة قبل الثورة، وهو ما أدى إلى استعانة الضباط الأحرار به كقائد للثورة.
٢- هو مؤسس حركة الضباط الأحرار التي قامت بالثورة، وأصبح رئيساً للوزراء في سنة ١٩٥٤م، وأجري استفتاء وانتخب رئيساً لجمهورية مصر سنة ١٩٥٦م. وتولى رئاسة الجمهورية العربيَّة المتحددة خلال الفترة من سنة ١٩٥٨-١٩٦١م، وهي فترة تجربة الوحدة بين مصر وسوريا.

الاجتيال في ميدان المنشية بالإسكندرية بثماني رصاصات بيد سمكري، يُدعى محمود عبد اللطيف، وهو عضو في جماعة الإخوان المسلمين بإمبابة، تنفيذاً لقرار الجهاز السري للإخوان باغتيال عبد الناصر. فقضت الجماعة بذلك على نفسها بأن تحيا زمناً تحت الأرض.

موجة من التأميمات بدأت بتأميم قناة السويس

وفي سنة ١٩٥٦م تم تأميم قناة السويس، لتصبح ملكاً لمصر وشعبها، وسط فرحة واعتزاز كبيرين بين الشعب المصري. وأعقب ذلك البدء في بناء السد العالي بأسوان. ولكن تأميم القناة كان بداية موجات متلاحقة واسعة من التأميمات رجّت البلاد رجاً، ونالت الكنيسة نصيبها في واحدة من هذه الموجات، فصودرت أوقاف الأقباط، وهي أموال الفقراء والمحتاجين والأرامل والأيتام.

تجربة الاشتراكية المصرية ونتائجها السلبية

وفي هذا العهد خاضت مصر تجربة الاشتراكية كتوليفة مصرية للشيوعية الروسية التي تغلغت في ثنايا الفكر المصري، فأودت بالبلاد إلى عرقلة التقدّم الصناعي والاقتصادي. فلقد اتجهت الدولة إلى نظام الحزب السياسي الواحد، فهيمت الدولة على كافة القطاعات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وعملت الجمعيات الأهلية المسيحية القائمة - ضمن باقي الجمعيات الأهلية الأخرى - بنفس أسلوب التعامل مع الأحزاب السياسية المحظورة. وألغى عدد من المؤسسات الاجتماعية التقليدية، ومن بينها بعض الوظائف التقليدية لمؤسسات الكنيسة القبطية الأرثوذكسية مثل توحيد المحاكم، وإلغاء الوظائف القضائية للمجالس المليّة، وإلغاء نظام الوقف الأهلي، وإلغاء المدارس الأجنبية وإخضاعها لرقابة الدولة.

وقد تُطبق قانون الإصلاح الزراعي على أوقاف الكنيسة والأديرة، فتضاءلت ممتلكاتها بسبب قوانين الإصلاح الزراعي المتعاقبة^(٣).

وفقد المجلس الملي للكنيسة القبطية اختصاصاته القضائية ولم يبق له إلا الوظيفة المتنازع عليها، وهي الإشراف على الأمور الماليّة والإدارة الكنسيّة. وتقلّص هذا الدور أيضاً نتيجة لصدور القانون ١٥٢ سنة ١٩٥٧م الذي يفرض بيع الأراضي الزراعيّة الموقوفة على جهات البر العام إلى الإصلاح الزراعي ليملكها لصغار الفلاحين. فأثرت توجهات الدولة السياسيّة سلباً على قيمة المشاركة الشعبيّة في الحياة العامة.

بدء هجرة الأقباط من مصر

مع امتداد موجة التأميمات التي طالت عدداً من البنوك الكبرى، بدأت ظاهرة هجرة واسعة لعدد من شباب الأقباط إلى أمريكا وكندا وأستراليا في النصف الأخير من الخمسينيات من القرن العشرين، وقد كانوا مؤهلين تأهيلاً علمياً راقياً بأعلى درجات التفوق في تخصصاتهم. وكانت البلاد التي هاجروا إليها على استعداد للتّرحيب بهم وبأمثالهم كثمار ناضجة لم يتعبوا في غرسها.

وعندما جاءت القوانين الاشتراكيّة، لحقت موجة هجرة ثانية من جماعات من أغنياء الأقباط بموجة الهجرة الأولى. فلقد هاجرت عائلات بأكملها، واستطاعت أن تحوّل معها أموالها وثروتها إلى الخارج، ووجد

٣- بطرس بطرس غالي، طريق مصر إلى القدس، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة

الأولى، ١٩٧٧م، ص ١٨.

ولقد قامت الدولة بإعادة الأوقاف القبطية إلى الكنيسة بعد أكثر من أربعة عقود من الاستيلاء عليها.

هؤلاء مقرأ لهم في بلاد أوروبا وأمريكا وأستراليا، فأصبح للكنيسة القبطية رعايا عبر البحار. فكانت هجرة الأقباط في النّصف الثاني من الخمسينيات سابقة جديدة لمصر في عصرها الحديث. وبعد أن خففت الدّولة من تقييدها للهجرة زادت هجرة الأقباط من مصر بعد حرب سنة ١٩٦٧م.

حرب الأيام الستة وتبعاتها

في يونيو سنة ١٩٦٧م قامت الحرب الثالثة مع إسرائيل، وبانتصار إسرائيل احتلت شبه جزيرة سيناء كلها، إلى جانب الضّفة الغربيّة لنهر الأردن التي كانت تحت السّيادة الأردنيّة، بما فيها القدس الشّرقية، وكذلك هضبة الجولان في الأراضي السّوريّة. فأعلن الرّئيس تحمّله لنتائج الهزيمة وتنحّيه عن الحُكم. فانطلقت مظاهرات شعبيّة في أرجاء البلاد تطالبه بعدم التّنحي. فتزل الرّئيس على رغبة الشّعب.

وكان البابا كيرلس السّادس قد توجه مرّة أولى إلى بيت الرّئيس لمطالبته بعدم التّنحي عن قيادة البلاد، ومرّة ثانية إلى القصر الجمهوري ليُدوّن في سجلّ الزّيارات فرحته والأقباط بعودة الرّئيس إلى الحُكم.

وبدأت حرب الاستنزاف مع إسرائيل. بمعركة رأس العش بعد عشرين يوماً فقط من حرب الأيام الستة. وفي سبتمبر سنة ١٩٧٠م مات الرّئيس عبد النّاصر في نفس السنّة التي تم فيها الانتهاء من بناء السّد العالي في جنوب أسوان!، كواحد من أعظم إنجازاته السّياسيّة التي اقترنت باسمه^(٤). فخرجت

٤- السّد العالي جبل من ركام الجرانيت بارتفاع ١١١ متراً، وعرضه عند القاع ١٠٠٠ متر، وطوله ٣٥٠٠ متر، ومكعب المواد التي استخدمت في بنائه بلغت حوالي ٤٠ مليون متر مكعب، أو ما يوازي ١٦ مرة حجّج الهرم الأكبر. يحجز وراءه خزين مياه يبلغ ١٢٠ مليار متر مكعب من المياه، مكوناً بذلك أعظم بحيرة صناعية في العالم.

ملايين المصريين الذين أنصفهم بكونه ويودعونه إلى مشواه الأخير، في موكب جنازتي لا ينساه التاريخ.

تقييم عام لحالة الأقباط في عهد عبد النَّاصر^(٥)

كان عبد النَّاصر يعتقد أن العدالة والكرامة هي منتهى الحرية، ولهذا حاول القيام بدور المستبد العادل. ولكن مشاركة الأقباط لا تستقيم مع الاستبداد العسكري. ولا ينتعش دورهم إلا من الأجواء الليبرالية. فإذا أضفنا إلى ذلك المناخ العسكري وانتماء عدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة من الضباط الأحرار إلى تنظيم الإخوان المسلمين، وتأثيرهم على المناخ العام والسياسات في مصر لتوضح على الفور أن هذه الأجواء لا تناسب الأقباط.

وأما بالنسبة لعبد النَّاصر فيقول البروفيسور إدوارد واكين الأستاذ بجامعة فوردهام بنيويورك في كتابه "أقلية معزولة" والذي صدر سنة ١٩٦٣م: "... ومن جميع المناسبات التي تعطي انطباعات لاتجاه عبد النَّاصر ومشاعره تجاه الأقباط يمكن استنتاج قاعدة واحدة وهي أن موقف الأقباط لا يحتل حيزاً في محيط اهتماماته. وشعور عبد النَّاصر نحو الكنيسة عموماً ليس شعور كاره لها، ولكنه يعتبر الكنيسة القبطية أمراً ثانوياً".

ومع إلغاء الأحزاب السياسية، تعيّر مقياس اختيار المواطن لمثليه في البرلمان من كونهم ينتمون إلى أحزاب، ليصير مقياس اختيارهم هو الدين، إن كانوا مسلمين أم مسيحيين، وهو ما تبقى للمواطن المصري من حرية

وتبلغ قدرة المحطة الكهربائية للسد العالي ٢ مليون كيلوات/ ساعة، وهي من أكبر المحطات المائية في العالم.

٥- عن الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت)، دراسة لمهدي خليل، رئيس تحرير جريدة وطني الدولي، بتاريخ ٢٨/٧/٢٠٠٢م.

الاختيار. ومع رفض القائمين على الثورة ترشيح الأقباط للمجلس التشريعي، لم يعد من السهل انتخاب قبطي كما كان يحدث قبل الثورة. ولهذا جاء مبدأ التعيين بدلاً من الانتخاب، واختيار بعض الوزراء التكنوقراط بدلاً من الوزير السياسي في فترة ما قبل الثورة.

ومن بين الأضرار التي لحقت بالأقباط من بعض أعضاء قيادة الثورة هو ما قام به كمال الدين حسين من أسلمة مناهج التعليم، وما قام به حسين الشافعي وأنور السادات الذي أكمل مشروعه الديني بعد توليه السلطة.

على أن ما يؤخذ على عبد الناصر هو عدم اهتمامه بمشاعر الأقباط المسلمين. ففي سنة ١٩٥٨م ألغى دين الدولة من الدستور الرسمي للجمهورية العربية المتحدة استجابة لرغبة مسيحي سوريا. وقام مسيحيو سوريا بحرق كتاب "محمد الرسول والرسالة" لنظمي لوقا في شوارع دمشق علناً، والذي فرضه كمال الدين حسين على المدارس. واستجابة لغضبهم، تم إلغاء تدريس الكتاب في سوريا، بينما ظل يدرس في مصر وقتها.

على أن الأقباط يذكرون لعبد الناصر عدداً كبيراً من الإيجابيات، منها:

- دخول الجامعات عن طريق مكتب التنسيق، ورفض عبد الناصر الاختبارات الشفهية لدخول الجامعات حتى لا تحدث تفرقة على أساس الدين.

- التعيين عن طريق القوى العاملة.
- الترقيات التي تتم بالأقدمية.
- وجود علاقة ود بينه وبين البابا كيرلس السادس.
- لم تعلق كنيسة واحدة في الفترة ما بين سنة ١٩٥٢م وسنة ١٩٧٠م.
- قمع بشدة أي تهديد للقيام بأعمال عنف غوغائي ضد الأقباط.
- مساهمته في بناء الكاتدرائية المرقسية بالعباسية.

- زيارته لمشاهدة ظهور العذراء في الرّيتون، وبعد التأكد من رؤيتها أصدر الاتحاد الاشتراكي بياناً يؤكد هذا الظهور.
 - هناك من يرى أن اصطدام عبد الناصر بالإخوان، أجّل ظهور الدولة الدّينية في مصر عدّة عقود، وربما هائياً.
 - لم تبرز أي شكوى طائفية ذات شأن طوال مدّة حكمه.
- إن ما أصاب الأقباط بعد رحيله جعلهم يترحمون على أيامه.

أهم حدث في عهد البابا يوساب الثاني

قامت الثورة في عهد البابا يوساب الثاني (١٩٤٦ - ١٩٥٦م)، وكان أهم حدث في هذا العصر هو إنشاء معهد الدّراسات القبطية.

معهد الدّراسات القبطية

كان أهم حدث كنسي في سنة ١٩٥٤م^(٦) هو تأسيس معهد الدّراسات القبطية بجهود الدكتور عزيز سوريال عطية^(٧) (١٨٩٨ - ١٩٨٨م) بالاشتراك مع الدكتور سامي جيره^(٨) (١٨٩٨ - ١٩٧٩م)،

٦- في نفس هذا العام انضمت الكنيسة القبطية إلى مجلس الكنائس العالمي، وصارت عضواً فعالاً به منذ ذلك التاريخ.

٧- رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، ومؤسس مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة يوتا بالولايات المتحدة الأمريكية. المسئول عن إصدار دائرة المعارف القبطية Coptic Encyclopedia التي صدرت سنة ١٩٩١م، وقد اشترك في تحريرها حوالي ١٥٠ عالماً في القبطيات.

٨- أستاذ بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة. ومدير معهد الآثار المصرية سابقاً. وله اكتشافات ذات صدى عالمي في منطقة دير تاسا ٢٠ كم جنوب شرق أسيوط، وقرية تونه الجبل مركز الأشمونين محافظة المنيا. وحصل على جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٧٤م.

والدكتور مراد كامل^(٩) (١٩٠٨-١٩٥٧م).

ويُعد المعهد المؤسسة العلميّة الوحيدة في مصر والشّرق الأوسط التي لها صلاحية تدريس القبطيّات بصورة أكاديميّة منتظمة. ولكن المعهد لم يأخذ الشّكل الرّسمي له في الدّولة، ومن ثمّ فالاتصالات بينه وبين المؤسسات الأخرى شبه معدومة، باستثناء المعاهد القبطيّة الأخرى في مختلف أنحاء مصر، وكذلك بعض المعاهد الدّوليّة الأجنبيّة.

والدراسة في المعهد تنقسم إلى عشرة أقسام:

- ١- قسم القانون الكنسي.
- ٢- قسم اللاهوت بفروعه.
- ٣- قسم التاريخ القبطي.
- ٤- قسم اللّغة القبطيّة وآدابها.
- ٥- قسم الآثار القبطيّة.
- ٦- قسم الفن القبطي.
- ٧- قسم الألحان والموسيقى.
- ٨- قسم الاجتماع والتّربية.
- ٩- قسم الدّراسات الأفريقيّة.
- ١٠- قسم العمارة القبطيّة.

وهناك اتجاه إلى افتتاح أقسام أخرى مثل قسم الإعلام القبطي، وقسم الإرشاد السّياحي، كما سيعاد افتتاح قسم التّصوير. وليس بالمعهد حتى الآن قسم لدراسات الآباء، أو حتى دراسات آباء كنيسة الإسكندريّة.

ويقبل المعهد الحاصلين على شهادة الثّانوية العامة أو ما يعادلها للحصول على درجة اللّيسانس أو البكالوريوس، أما الحصول على درجة الدكتوراه فيُشترط أولاً الحصول على شهادة جامعيّة، أو بكالوريوس

٩- أستاذ اللغات السامية بجامعة القاهرة، فتنحصر في اللغات العبرية والسريانية والأمهرية والأرامية والكلدانية. وهي أيضاً ومدير مدرسة الألسن، أتقن ٣٠ لغة، من بينها اليونانية واللاتينية والقبطية. وألف ١٢٥ مؤلفاً علمياً وأكثر من كتاب عن الكنيسة القبطية.

الكلية الإكليريكية.

وهنا نذكر بالفضل أيضاً جهود الدكتور عزيز سوريال (١٨٩٨-١٩٨٨م) لدوره في الإشراف على تحرير "دائرة المعارف القبطية - Coptic Encyclopedia"، إذ استطاع بحكم موقعه في جامعة يوتا الأمريكية أن يقنع رئيس الجامعة وهيئة البحوث الأمريكية - وهي أعلى هيئة للبحوث العلميَّة في العالم - لتعزid مشروع هذه الموسوعة، وتمويلها، حتى صدرت هذه الموسوعة سنة ١٩٩١م.

وفي هذا الصِّد قال الدكتور عزيز سوريال عطية بعد عدَّة سنوات: "عندما أسَّستُ معهد الدِّراسات القبطية، كان كلُّ أُملي أن يقوم المعهد والأقباط بهذا المشروع، لعمق جهل العالم بالقبط، وجهل القبط بالقبط أيضاً، ولكن للأسف لا معهد الدِّراسات قام بشيء في هذا الصِّد، ولا الأقباط اهتموا بهذا المشروع. وفي هذا رأيتُ بنعمة الله أن أتولَّى هذا المشروع وأقوم به" (١٠).

وقد شهد عامَا ١٩٩٥، ١٩٩٦م نشاطاً ملحوظاً للمعهد تمثَّل في إصدار موسوعة للشَّخصيات القبطية البارزة، وإعادة إصدار مجلة معهد الدِّراسات القبطية، بعد توقُّف دام عدَّة سنوات. مما أعاد للمعهد لسان حاله، والمتحدِّث الرِّسمي عنه، وعن نشاطه العلمي حيث كانت المجلة تحمل في أعدادها أبحاثاً علمية في مجال الدِّراسات القبطية بقلم أساتذته، ولكنها سرعان ما توقفت مرَّة أخرى. ولقد تمت إجازة العديد من رسائل الدكتوراه في المعهد.

وفي يونيو سنة ١٩٩٦م أجاز المعهد أوَّل دكتوراه في مصر عن

الموسيقى القبطية تقدم بها الباحث عادل كامل^(١١).

وفي سنة ١٩٩٦م تم الاتفاق على تسجيل ألحان القُدَّاس الإلهي القبطي علي شرائط، على أن تقوم الجامعة الأمريكية بطبع ونشر وتوزيع القُدَّاس باللغات القبطية والعربية والإنجليزية، وما يقابلها من نوتة موسيقية لألحان القُدَّاس في مصر وجميع أنحاء العالم، وهي بادرة تعتبر الأولى من نوعها في تاريخ الكنيسة القبطية لحماية التراث القبطي من الاندثار، وهو جهد علمي ساهم فيه معهد الدراسات القبطية بجهد المتنيح الدكتور راغب مفتاح، ليودّع الرّجل أرض الشّقاء في ١٨ يونيو سنة ٢٠٠١م، بعد عظيم عناء، وهو قرير العينين بعد أن أسدى للكنيسة القبطية خدمة عظيمة تنوء بحملها مجموعة لجان متخصصة.

وكانت سنة ٢٠٠٤م هي سنة الاحتفال باليوبيل الذهبي لإنشاء معهد الدراسات القبطية.

عصر البابا كيرلس السادس وأحداثه البارزة

في سنة ١٩٥٩م اعتلى البابا كيرلس السادس (١٩٥٩ - ١٩٧١م) كرسي الكرازة المرقسية. وهو آخر عهد ما قبل ثورة التكنولوجيا الحديثة التي قلبت موازين الحياة برمتها رأساً على عقب.

وفيما يلي نلقي بعض الصّوء على أهم الأحداث البارزة في عصر البابا كيرلس السادس.

١١ - مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، الحالة الدينية في مصر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٨م، ص ٧٣

• خدمة الأقباط في المهجر

في نفس السنّة التي اعتلى فيها البابا كيرلس السّادس الكرسي المرقسي اهتم بخدمة الأقباط في المهجر مبتدئاً بدول شرق وجنوب إفريقيا ثم أوروبا. وفي سنة ١٩٦١م الدّول العربيّة بدءاً بالكويت. وفي السنّة التّالية كندا والولايات المتّحدة الأمريكيّة. وفي سنة ١٩٦٤م أصبح للكنيسة القبطيّة أوّل كنيسة في بلاد المهجر، وهي كنيسة مار مرقس في مونتريال بكندا، وفي سنة ١٩٦٨م أصبح لنا كنيسة في أستراليا. وفي نهاية حيرتته سنة ١٩٧٠م كان للكنيسة القبطيّة ٧ كنائس في المهجر. اثنتان في أمريكا، في جيرسي سيتي، ولوس أنجيلوس. واثنتان في أستراليا، في سيدني وملبورن. واثنتان في كندا، في تورنتو، ومونتريال. وواحدة في لندن.

• بناء الكاتدرائيّة الجديدة بالعباسيّة ودير مار ميّنا بمريوط

كانت روحانيّة البابا كيرلس السّادس، سبباً في العلاقة الحميمة التي نشأت بينه وبين الرّئيس عبد النّاصر، ومن ثمّ سبباً مباشراً فيما حقّقته الكنيسة القبطيّة من نهوض برغم الظروف الصّعبة التي حازتها في هذه الفترة إثر تحوّل البلاد إلى النّظام الاشتراكي، وموجات التّأميمات المتلاحقة. ولقد لخص الأستاذ محمد حسنين هيكل - وهو من المقرّبين للرّئيس - تلك العلاقة بقوله: "كانت علاقات ممتازة، وكان بينهما إعجاب متبادل، وكان معروفاً أن البطريرك يستطيع مقابلة عبد النّاصر في أي وقت يشاء، وكان (البابا) كيرلس حريصاً على تجنّب المشاكل (١٢)". ولكن نهضة الكنيسة القبطيّة آنذاك كانت بسبب القرب القريب للبابا القديس من السّماء، حيث الرّب الذي بيده قلوب الرّؤساء.

وفي إحدى زيارات قداسة البابا لمترل الرئيس عبد الناصر، تقدّم أبناؤه بمصلاً لهم الصغيرة ليتبرّعوا لبناء الكاتدرائية المرقسية الجديدة بالأبنا رويس بالعباسية^(١٣). وفي بساطة ينذر تكرارها أخرج البابا كيرلس منديله وفرشه على حجره، فوضع فيه أولاد عبد الناصر تبرّعاتهم، ثم صرّه البابا وشكرهم وباركهم. وكان هذا المبلغ هو قيمة مقدّم أرض دير مار مينا بمريوط^(١٤). فكان للرئيس الفضل في بدء بناء الكاتدرائية الجديدة بالعباسية، والسبب في إنشاء دير مار مينا العجائبي بمريوط.

وفي يوليو سنة ١٩٦٥م كان الاحتفال بوضع حجر الأساس للكاتدرائية المرقسية الجديدة بالأبنا رويس بالقاهرة، بحضور الرئيس جمال عبد الناصر، والإمبراطور هيلاسلاسي الأول إمبراطور إثيوبيا. وكان حفل الافتتاح في ٢٥ يونيو سنة ١٩٦٨م. وكان المتّيح نيافة الأبنا صموئيل أسقف الخدمات الاجتماعية (١٩٢٠ - ١٩٨١م) هو صاحب فكرة بناء الكاتدرائية الجديدة ومحرك الموضوع مع مستشاري رئيس الجمهورية حتى صارت الفكرة واقعاً حياً.

وفي حفل افتتاح الكاتدرائية ألقى الرئيس عبد الناصر خطابه الذي جاء فيه: "يسرني أن أشارك معكم في إرساء حجر الأساس للكاتدرائية الجديدة. وحينما تقابلت أخيراً مع البابا في متزلي، فاتحته في بناء الكاتدرائية، وأن الحكومة مستعدة للمساهمة في هذا الموضوع، ولم يكن القصد من هذا فعلاً المساهمة المادية... ولكنني كنت أقصد التّاحية المعنوية.

فإن المواطنين جميعاً سواسية لا فرق بين مواطن ومواطن، ففسي المدارس الدُخول بالمجموع... جميع التّرقيات في الدّولة بالأقدمية لغاية

١٣- تبرعت الدولة رسمياً بمبلغ ١٠٠ ألف جنيه لبناء الكاتدرائية.

١٤- أمير نصر، قراءة في حياة أبونا مينا اليراموسي المتوحد، مرجع سابق، ص ١٥٦

الدَّرَجَة الأولى ... مفيش فرصة للمتعبين أنهم يتلاعبوا ... ونحن نفتخر والحمد لله بأن بلدنا ليست فيها طائفية أو تعصب أو انقسام ... عاززين كل واحد في بلدنا يتق بنفسه، ويتق أن البلد بلده، بلد المسلم وبلد المسيحي ١٠٠ % ... أرجو الله أن يدعّم المحبة بين ربوع هذا الوطن، وأن يدعّم الإخاء، وأن يوفّقكم جميعاً. والسّلام عليكم ورحمة الله“.

وبانتهاء مراسم الاحتفال ودّع قداسة البابا السيّد الرئيس، وودّعته قلوب الملايين التي أحبته^(١٥).

• تنصيب أوّل جاثليق لكنيسة إثيوبيا

وفي يونيو سنة ١٩٥٩م قام البابا كيرلس السّادس بتنصيب نيافة الأنبا باسيلوس المطران الإثيوبي بطريركاً جاثليقاً لإثيوبيا، وجاء الإمبراطور هيلاسلاسي الأوّل إلى مصر، واستقبله الرّئيس جمال عبد النّاصر، وتحسّنت العلاقات مع إثيوبيا بعد جفوة بسبب حكمة البابا وتواضعه. وفي السّنة التّالية زار قداسة البابا إثيوبيا بدعوة من الإمبراطور هيلاسلاسي^(١٦). ولقد أثّرت شخصيّة البابا على الإمبراطور الذي كان دائم الحضور إلى القاهرة حريصاً في كل مرّة أن يزور البابا لينال بركته.

• مصر محط التّقاء جميع كنائس المسكونة

بدءاً من سنة ١٩٦١م وفد إلى مصر معظم رؤساء كنائس العالم

١٥- مجلة مدارس الأحد، العددان الخامس والسادس ١٩٦٥، مقتبس عن: أمير نصر، قراءة في حياة أبونا مينا اليراموسي المتوحد، مرجع سابق، ص ١١٠
١٦- أوّل بطريرك إسكندري يزور الحبشة هو البابا خريستوذولوس الـ ٦٦ حين أوفده الخليفة المستنصر الفاطمي ليتوسط عند ملكها ليطلق مياه النيل، وإذ نجح في مهمته خلع عليه المستنصر وأكرمه.

الأرثوذكسية والكاثوليكية والأسقفية والبروتستنتية. فجاءها بطريرك القسطنطينية^(١٧)، والبطريرك الروسي، ورئيس أساقفة قبرص في سنة ١٩٦١م. وفي السنة التالية زارها البطريرك البلغاري. وفي سنة ١٩٦٥م زارها البطريرك الأنطاكي، و بطريرك الأرمن، وكاثوليكوس السريان الأرثوذكس بالهند. وفي سنة ١٩٦٦م وفد إليها رئيس أساقفة فنلندا. وفي سنة ١٩٦٩م جاءها بطريرك رومانيا... الخ. لقد كانت شخصية البابا كيرلس السادس الروحانية شخصية جاذبة.

وفي يناير سنة ١٩٦٥م كان أول لقاء بين الكنائس اللاحقيدونية في أديس أبابا بدعوة من الإمبراطور هيلاسلاسي الأول. وفيه تكوّنت هيئة للعلاقات الدائمة بين الكنائس.

• دفاع البابا كيرلس عن القدس

لقد دافع البابا كيرلس السادس عن الحقوق العربية في مدينة القدس، وانتهاكات إسرائيل للأماكن المقدسة. وأرسل خطاباً إلى البابا بولس السادس بابا روما بخصوص الأوضاع في القدس المحتلة قال فيه: "... ولا يخفى ما أحدثه القرار الذي اتخذته إسرائيل بضم القدس القديمة إليها من هزة عنيفة في مشاعر العرب عموماً مسيحيين ومسلمين، وليس أشق على ضمير الإنسان ووجدانه من عمل عدواني يمس عقيدته ومقدساته ... إننا طلبنا ولا زلنا نطالب، متجهين إلى الله وإلى الضمير العالمي، ونسأل أيضاً مساندة قداستكم ومعاونتنا لتكون صفاً واحداً في نصره هذه القضية العادلة، وأن تعود القدس إلى الوضع الذي كان قائماً قبل العدوان

١٧- هي أول زيارة رسمية لبطريرك كنيسة القسطنطينية إلى بابا الكنيسة القبطية بعد قطيعة بين الكنيستين دامت حوالي خمسة عشر قرناً.

الأخير^(١٨).

• ظهور العذراء في كنيستها بالزيتون

وفي عهد البابا كيرلس السَّادس أيضاً ظهرت القديسة العذراء مريم في ٢ أبريل سنة ١٩٦٨م على قباب كنيستها بحي الزيتون بالقاهرة. وكان ظهوراً فريداً لكل الجموع الغفيرة التي شاهدهته من كل الأديان، والذي استمر لبضعة شهور متواصلة. وفي ٣٠ أبريل ظهرت المناشيتات (العناوين) الرئسيَّة في الصُّحف المصريَّة لتعلن البيان الرِّسمي للبابا الذي يؤكد أن ظهور العذراء حقيقة. وقد رآها الرِّئيس جمال عبد النَّاصر من منزل الحاج أحمد زيدان تاجر الفاكهة المعروف بعد أن مكث طيلة اللَّيل مترقباً الظهور، والذي حدث في الخامسة صباحاً^(١٩).

• وصول رفات القديس مرقس الرِّسول إلى مصر

كان البابا كيرلس السَّادس قد بعث برسالة إلى البابا بولس السَّادس (١٩٦٣ - ١٩٧٨م) بابا روما يطلب منه إعادة جزء من جسد القديس مرقس البشير الذي كان قد سرقه بعض البحَّارة الإيطاليين سنة ٨٢٥م ونقلوه إلى مدينة فينيسيا (البندقيَّة) الإيطاليَّة.

ولما استجاب الحبر الرُّوماني، أوفد بابا الإسكندرية وفداً رسمياً من سبعة من الأباء المطارنة والأساقفة وثلاثة من الأراخنة إلى روما. وفي يوم

١٨ - يلزم التنويه أنه قد تفاقمت الأمور تحدرأ حين وافق الكونغرس الأمريكي في سنة ٢٠٠٢م على اعتبار القدس عاصمة لإسرائيل.

١٩ - طبقاً لرواية محمود فوزي، البابا كيرلس وعبد الناصر، مقتبس عن: أمير نصر، قراءة في حياة أبونا مينا البراموسي المتوحد، مرجع سابق، ص ١٠١

السبت ٢٢ يونيو سنة ١٩٦٨م أقيم احتفال ديني كبير بالفاتيكان، وفيه تقدّم البابا بولس السادس وحمل الصُندوق الذي يحوي الرُفات المقدّسة، وسلّمه في خشوع إلى نياقة الأنبا مرقس مطران أبو تيج ورئيس الوفد، كما سلّمه الوثيقة الرُسميّة الخاصّة بالرُفات، وفيما يلي نصّها:

”الأب بتروس كاتيزويوس فان ليرد، من جماعة رهبان القديس أغسطينوس بنعمة الله، وبأمر الكرسي الرسولي أسقف لورفسير حارس زخائر الكرسي الرسولي، معاون بقصر قداسته، مساعد للكرسي البابوي، والوكيل العام لمدينة الفاتيكان.

بموجب هذا المستند نوّكد ونشهد لمجد الله وتكريم قديسيه، أننا تحقّقنا من أن رُفات القديس مرقس الإنجيلي قد استُخرجت من مكانها الأصلي، وأنها وضعناها بكل وقار في وعاء من الفضة، وُضع بدوره داخل صندوق فضي مشغول بفن رفيع، وجوانبه من البللور، وأُغلق بإحكام، والوعاء مُغلق داخل الصُندوق المذكور بحيث رفيع من الحرير الأحمر، ومحتوم بخاتمنا بالشّمع الأحمر. وكل هذه الإجراءات قد اتُّخذت لكي يتمكن حاتره من الاحتفاظ به، ومن عرضه ليكون موضع الإجلال العام من قبل المؤمنين.

وإننا ننذر المؤمنين الذين قد توجد هذه الرُفات بين أيديهم في يوم من الأيام بأنه لا يحق لهم أن يبيعوها أو يستبدلوها بأشياء مما يُباع ويُشترى. وإقراراً بذلك نسلم هذه الوثيقة موقّعة منا، وعليها خاتمنا“.

وفي ٢٤ يونيو سنة ١٩٦٨م وصلت الطائرة التي تحمل رفات كاروز الديار المصريّة القديس مرقس البشير، قادمة من روما تقل الوفد القبطي المرافق للرُفات. وصعد البابا كيرلس سلّم الطائرة ونزل حاملاً الصُندوق على كتفه في وسط صيحات الفرح والتّهليل التي شقّت عنان سماء القاهرة

في تظاهرة شعبية لم يشهدها المطار من قبل، اختلطت فيها أصوات التَّسْبِيح مع صيحات الفرح التي انفلتت من سيطرة الإرادة، فجاءت أشبه بهدير بحر زاحر. كيف لا وقد عاد كاروز الدَّيَّار إلى داره بعد غيبة قرابة أحد عشر قرناً؟ وسار البابا القُدِّيس - الذي كَرَّمه الرَّبُّ بكل الكرامة - في موكب كنسي بين الشَّمَامسة الذين ينشدون الألحان الكنسيَّة، واستقلوا العربات في موكب قُدسي عبر شوارع القاهرة حتى وصلوا إلى المقر البابوي. وبعد حفل الافتتاح وإقامة القُدَّاس الإلهي في اليوم التالي مباشرة أودع الرُّفَات أسفل المذبح الرَّئيسي بالكاتدرائيَّة المرقسيَّة الجديدة.

• مطبعة الأنبا رويس

وفي سنة ١٩٦٩م أقام قداसे البابا كيرلس السَّادس صلاة تترك الأرض التي سيقام عليها مبنى "مطبعة ميناء الخلاص" في أرض الأنبا رويس خلف معهد الدَّرَاسات والكلِّيَّة الإكليريكيَّة، وهي حالياً المعروفة بمطبعة الأنبا رويس. أما آلات الطَّبَاعَة والتَّحْلِيد فقد أُهديت من اتحاد الكنائس الإنجيليَّة في ألمانيا إلى المعاهد الدِّيْنِيَّة بالكنيسة القبطيَّة (٢٠).

وهنا تجدر الإشارة إلى أن بداية عصر الطَّبَاعَة في بلاد الشَّرْق العربي كانت في مطبعة دير قزحياً جنوب طرابلس بلبنان سنة ١٦٦٠م وهو أقدم أديرة لبنان، ويتبع الكنيسة المارونيَّة. أما في مصر فكانت أولى المطابع هي تلك التي حملتها معها الحملة الفرنسيَّة على مصر سنة ١٧٩٨م، ولكن تلك المطابع رجعت إلى فرنسا مع رحيل الحملة الفرنسيَّة عن البلاد سنة ١٨٠١م. ولم تظهر المطابع في مصر بعد ذلك إلا مع مطبعة بولاق سنة ١٨٢١م والتي استوردها محمد علي باشا، وعهد إلى نيقولا مسابكي

الإشراف على استيرادها وإدارتها. وكانت أوّل مطبعة شعبية في مصر هي المطبعة الأهلية التي استوردها من الخارج البابا كيرلس الرابع أبو الإصلاح سنة ١٨٦٠م في عهد الوالي سعيد باشا. وبعد أكثر قليلاً من مائة سنة ها هي مطبعة الأنبا رويس بمقر البطركية تدور آلتها لتنتشر الثور بالكلمة.

وفي مارس سنة ١٩٧١م أي في السنة التالية لرحيل عبد الناصر، انتقل إلى الأجداد السماوية قداسة البابا كيرلس السادس الذي ستظل ذكراه أبداً في الكنيسة، لتطوى صفحة من تاريخ مصر وكنيستها الوطنية.

عهد الرئيس السادات والبابا شنوده الثالث

تولى الرئيس أنور السادات حكم البلاد في سنة ١٩٧١م، فانتخب خلفاً لعبد الناصر.

وفي نوفمبر من نفس هذه السنة - ١٩٧١م - أقيم قداسة البابا شنوده الثالث بطريكاً للكراسة المرقسية، وهو البابا الـ ١١٧. وبعد أقل من شهر من رسامته قام قداسته برسامة أسقفين: أولهما باكورة الأساقفة في عهده وهو نيافة أنبا يوانس أسقف الغربية المؤرخ الكنسي المدقق، وعالم الطقوس الكنسية. وثانيهما نيافة أنبا باخوميوس أسقف البحيرة ومطروح والخمس مدن الغربية، والذي قام بزيارة ليبيا في يناير سنة ١٩٧٢م، ولأوّل مرّة بعد غيبة منذ القرن السادس عشر^(٢١)، كتمهيد للزيارة التاريخية التي قام بها قداسة البابا لليبيا في مارس من العام ذاته.

٢١- كانت المسيحية قد انتهت تماماً من الخمس مدن الغربية في حبرية البابا يوانس الخامس عشر سنة ١٥٠٨م. وكان آخر خيط متبقي فيها هو أسقف يدعى قرياقوس، غادر الخمس مدن الغربية سنة ١٥١٧م، بعد أن احتل العثمانيون مصر، وعاد إلى دير، وهو دير السيدة العذراء (السريان).

وكان العثمانيون قد قضوا على المسيحية تماماً في الخمس مدن الغربية.

وبعد ثلاثة أشهر من تولي قداسة البابا شنودة الثالث مهام منصبه تم تدشين كنيسة مصرية في التَّمسا تخدم أقباط دولتي التَّمسا وألمانيا الغربية. بالإضافة إلى تدشين كنيسة ودير في لبنان في أكتوبر من نفس العام.

في سنة ١٩٧٢م قام بابا الإسكندرية شنودة الثالث بزيارة لبطريك القسطنطينية، وكان بطريك القسطنطينية قد بادر من قبل بزيارة البابا كيرلس السادس في الستينيات، أي قبل ذلك بحوالي عشر سنوات.

في غضون سنة من تولي السَّادات حُكم البلاد بدأ الجو يتكهرب، وبدأت نغمة الدين تعلو فوق مظاهر الحياة المصرية في ذلك الوقت. وبدأ "الجو العائلي" بين المسلمين والمسيحيين يتغير بالسَّلْب، وبدأ ظهور معرُف باسم "الفتنة الطائفية". كان هذا الزَّمان هو زمان الاضطراب واختلاط المفاهيم.

وفي نوفمبر سنة ١٩٧٢م كانت حوادث الفتنة الطائفية في الخانكة^(٢٢)، وتم حرق كنيسة بها، ولجسامة الحدث تشكلت لجنة من مجلس الشعب لتقصي الحقائق برئاسة الدكتور جمال العطيفي، وأشار التقرير إلى أن "كثير من الكنائس القبطية قد تقادم العهد عليه، ولا يُعرف شئ عن تطبيق الخطط الهمايوني". وجاء في التقرير أيضاً أن عدد الكنائس القائمة في مصر طبقاً للجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء يبلغ ١٤٤٢ كنيسة، في حين أن الكنائس المسجَّلة بوزارة الدَّاخلية يبلغ ٥٠٠ كنيسة

٢٢- في تلك الفترة كانت نسبة الموظفين الأقباط في مدينة الخانكة تزيد على ٦٠% إذ يبلغ عددهم ٣٨ موظفاً من بين مجموع ٥٩ موظفاً، فضلاً عن أن رئيس مجلس المدينة في تلك الفترة - وقبلها لمدة اثني عشرة سنة - كان مسيحياً.

منها ٢٨٦ كنيسة قبطية أرثوذكسية. وهو ما يعني أمرين: الأول، أن جانباً من الكنائس بُني بغير أن يصدر به قرار جمهوري، والثاني، أن بعض الكنائس قد أقيمت قبل صدور قرار وكيل وزارة الداخلية سنة ١٩٣٤م. وأرجعت لجنة تقصي الحقائق أن مشكلة بناء الكنائس وترميمها ترجع إلى عدم وجود نظام مُيسر لتنظيم تراخيص البناء دون أن يتطلب الأمر صدور قرار جمهوري في كل حالة^(٢٣).

كان من أهم العبارات التي أوردتها التقرير المذكور: "ما لم ننفذ إلى المشكلة في أعماقها، ونتعقب الأسباب المؤدية إليها، ونقترح لها علاجاً، فإن هناك خشية من أن تتوقف المتابعة حينما تهدأ النفوس وتستقر الأوضاع، ويفتر الاهتمام بإيجاد حلول دائمة، لا تقدم مسكنات وقتية، مما يهدد بعودة الداء الكامن إلى الظهور أشد خطراً وفتكاً". ولقد أورد التقرير موارد النسيان، برغم أن اللجنة المشكلة هي بأمر أعلى سلطة تشريعية في البلاد.

وفي مايو سنة ١٩٧٣م التقى قداسة البابا شنودة الثالث مع البابا بولس السادس في الفاتيكان إثر دعوة من الحبر الروماني. وعاد البابا الإسكندري يحمل معه جزءاً من رفات القديس أنثاسيوس الرسولي البطريرك العشرين، حيث وُضع في مكان أُعد له بالكاتدرائية المرقسية الكبرى^(٢٤).

وقد أهدى البابا بولس السادس للبابا شنودة الثالث نسخة بالميكروفيلم لبعض المخطوطات القبطية القديمة المحفوظة بمكتبة الفاتيكان.

٢٣- سامح فوزي، هموم الأقباط، مرجع سابق، ص ١٠٣

٢٤- جدير بالذكر أن البابا الروماني يوحنا بولس الثاني زار مصر في مارس سنة ٢٠٠٠م، واستقبل استقبالاً رسمياً من الدولة، والتقى بقداسة البابا شنودة الثالث، وفضيلة شيخ الجامع الأزهر.

وفي هذا الصِّدِّد ذكر الحبر الرُّوماني أن الكنيسة الكاثوليكيَّة لم تكف عن احترام المراجع الدينيَّة لمفكري الكنيسة المصريَّة والرُّهبان المصريين، فكانت كتاباتهم مرجعاً ومنهلاً ينهل منه رجال الدِّين المسيحي الكاثوليكي على مر العصور.

وفي مايو سنة ١٩٧٣م احتفلت كنيسة مصر بمرور ١٦٠٠ سنة على نياحة البابا أنثاسيوس الرسولي (٣٢٨-٣٧٣م)، وذلك بالكاتدرائيَّة المرقسيَّة الكبرى بحضور وفود من كنائس العالم. وانتقلت هذه الوفود إلى الإسكندريَّة حيث أُعيد الاحتفال بهذه المناسبة في الكنيسة المرقسيَّة بالإسكندريَّة. ويرى المصريون في البابا أنثاسيوس الرُّسولي رمزاً لمقاومة المصريين لغير المصريين، وتأكيدهم لرفض مصر أن يملئ عليها أحد من خارجها آراءه أو عقائده، ولقد بدأ تصدي البابا أنثاسيوس لأباطرة بيزنطة منذ اللَّحظة الأولى^(٢٥).

وخاضت مصر الحرب الثالثة مع إسرائيل في ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣م، وكان أوَّل انتصار ساحق للعسكريَّة المصريَّة ليس في عصرها الحديث فحسب، بل ومنذ نهاية العصر الفرعوني. وكان للرئيس السَّادات الفضل الأوَّل في اتخاذ قرار الحرب، فاستعادت مصر جزءاً من شبه جزيرة سيناء. وفي سنة ١٩٧٨ حصل الرئيس السَّادات على جائزة نوبل للسلام، وفي سنة ١٩٧٩م تم توقيع معاهدة صلح مع إسرائيل عادت بموجبها معظم شبه جزيرة سيناء إلى مصر.

وفي عهد السَّادات تحوَّلت البلاد تدريجياً من الاشتراكيَّة إلى نوع من سياسة التعدديَّة الحزبيَّة، وإلى سياسة ما أسماه "الانفتاح الاقتصادي" والتي

التي أربكت البنية الاجتماعية للدولة^(٢٦)، حيث نزل موظفو الحكومة إلى قاع قائمة الدخل القومي للفرد، بينما ارتفع أصحاب الحرف والأعمال الحرة إلى قمته. وظهر التفاوت الطبقي الحاد، ولم يصبح للدرجات العلمية أو الثقافية التي يحملها الفرد آنذ وزنها في المجتمع، مما أثار سلباً على المستوى الثقافي العام للبلاد.

وبدءاً من سنة ١٩٧٤م زادت هجرة الأقباط من مصر بأعداد كثيفة. ومهما يكن من أمر فإن التغييرات الإيجابية في المجالين الاجتماعي والسياسي لم تتطرق بشكل مباشر لخدمة قضايا الكنيسة القبطية في مصر.

ولقد شهد صباح باكر يوم ١٨ يناير سنة ١٩٧٧م انفجاراً شعبياً هائلاً بدأ أولاً في الإسكندرية وامتد إلى القاهرة، وامتد حتى إلى أسوان، كتعبير عن المستوى الاقتصادي الضعيف للبلاد في ذلك الوقت.

في هذا الجو المشحون بالتوتر، وتحت ستار الديمقراطية أخرج السادات المسجونين من تنظيم الإخوان المسلمين لكي يقتلع الناصريين والشيعيين الذين كانوا يبغضونه. وأعاد للإخوان المسلمين مجلتهم ذات التأثير الواسع المدى "الدعوة".

وفي الجامعة حلت الجماعات الإسلامية في الكليات والمعاهد بدلاً من

٢٦ - طبقاً لأرقام البنك الدولي سنة ١٩٨٠م، فإن ٢١,٥% من الدخل القومي كان يذهب إلى ٥% فقط من السكان. وعلى الناحية الأخرى من السلم الاجتماعي فإن ٢٠% من السكان كان عليهم أن يعيشوا بـ ٥% من الدخل القومي. وطبقاً للإحصائيات، فقد كان ٨٠% من موظفي الحكومة يحصلون على متوسط دخل ستمائة جنيه في السنة (٥٠ جنيه في الشهر)، كما أن ٤٤% من سكان الريف، ٣٣% من سكان المدن كانوا يعيشون تحت خط الفقر.

اتحادات الطُّلاب، فاندس المتطرِّفون بين الطُّلاب في الجامعات، مما نجم عنه أخطر العواقب.

لقد بدأت الجماعات الإرهابيَّة نشاطها ضد الأقباط وكنائسهم أولاً، ولم تكن تلك النِّشاطات سوى القنطرة الّتي عبر عليها هؤلاء إلى مؤسَّسات الدَّولة نفسها، وهو ما أثبتته الأحداث فيما بعد.

تصرَّف الرِّئيس السَّادات مع أحداث البلاد الداخليَّة بكثير من النوازع المتسلِّطة الّتي ميَّزت جانباً واسعاً من أيام حكمه. فعادت السُّجون تفتح أبوابها من جديد، واكتظَّت بالآلاف، وأصدرت السُّلطات قانوناً يُسمى "قانون الطورائ". ولم تمتد الأيدي إلى هؤلاء الشُّباب هدايتهم وإنقاذهم من متهمة الفكر المتردي الذي وقعوا فيه، واستحلَّت هذه الجماعات دم النَّصارى، فيما أن يؤمنوا أو يدفعوا الجزية. فبدأت الاعتداءات على المسيحيِّين وديارهم وكنائسهم ومتاجرهم وحياتهم، واشتعلت نار التعصُّب المرعب وأخذت تأكل كل ما في طريقها. ووصل الأمر بالجماعات المتشدِّدة أن بعض عائلاتهم اعتبرت كافرة وتستحقُّ القتل، لأنَّها لا تدين بفكر الجماعة.

كانت كل عائلة مصريَّة تقريباً تعاني من هذا الوباء، أن يكون لها ابن ضمن الجماعات المتشدِّدة، إمَّا داخل المعتقلات، أن مطلق السُّراح ولكنه يسبِّب لأهله أذى أشدَّ ضراوة من المعتقل، لأنَّه يكفِّر أباه وأمه وإخوته ولا يأكل معهم، ويرفض أن يصرفوا عليه فمالهم حرام لأنَّه من الحكومة الظَّالمة.

كان المسيحيُّون يتعرَّضون لظلم من جانب النِّظام، وحرِب باردة من جانب المتشدِّدين، وتتابعَت الأحداث بسرعة والّتي شكَّلت مجموعها ما اصطلح على تسميته "الفتنة الطائفية" وكان من مظاهرها وقتل:

• تشكيل الجماعات الإسلامية السياسيّة في الجامعات والمعاهد بمساندة السُلطة. مقابل قيام تشكيلات عُرفت بـ "الأُسَر الجامعيّة المسيحيّة"، فتم القضاء على تنظيمات الاتحادات الطلابيّة التي كانت تضم كل من المسيحيين والمسلمين معاً.

• المؤتمر الذي عقده بعض رجال الدين المسيحي بالإسكندرية في يوليو سنة ١٩٧٢م، واتخذوا فيه قرارات أبرقوا بها إلى الجهات المسؤولة، ومن بينها مجلس الشَّعب، يطالبون فيها بما أسموه حماية حقوقهم وعقيدتهم المسيحيّة، وأنه بدون ذلك سيكون الاستشهاد أفضل من حياة ذليلة. بعده بأسبوع واحد دعا الرّئيس السّادات المؤتمر العام للاتحاد الاشتراكي العربي لبحث موضوع الوحدة الوطنيّة. مما تسبّب في عقد جلسة طارئة لمجلس الشَّعب في أغسطس سنة ١٩٧٢م، وصدر قانون بشأن "حماية الوحدة الوطنيّة" في سبتمبر من نفس السّنة.

• تظاهر عدد كبير من الكهنة الأقباط وغيرهم من العلمانيين في سبتمبر سنة ١٩٧٢م، حيث عقدوا اجتماعاً غاضباً أثار بعض المسلمين ورفع حدة التوتر بينهما على إثر إشعال النّار في دار جمعيّة الكتاب المقدّس بالخانكة^(٢٧)، والتي اتخذها الأهالي من الأقباط كنيسة (بغير ترخيص) لإقامة شعائرهم الدّينيّة. بالإضافة إلى إشعال النّار في منازل بعض المسيحيين هناك، وقُتل كثير من المسيحيين وأُحرقت ممتلكاتهم أو نُهبَت. وكذلك اعتداء الجماعات الإسلاميّة على مبني جمعيّة التّهضة الأرثوذكسيّة بجهة سنهور بمحافظة البحيرة.

٢٧- طبقاً لبيانات الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء، يبلغ عدد المسيحيين في الخانكة سنة ١٩٧٢م، ٨٠٣ مسيحي، وجملة المسيحيين في مركز الخانكة (المدينة والقرى) هو ٢٩٦٣ مسيحي.

• اغتيال قس قبطي هو القس غبريال عبد المتجلي كاهن كنيسة التَّوْفِيقِيَّة. وقد أُلِّف البابا لجنة لتقصي الحقائق أخذت على رجال الشُّرطة والنيابة هناك عدم جدِّيَّتهم في إجراء التَّحْقِيق حول الحادث مما رفع درجة التوتُّر، فوَقعت صدمات مسلَّحة بين المسلمين والأقباط.

• المؤتمر القبطي الذي عُقد في الإسكندريَّة في يناير سنة ١٩٧٧م، والذي أصدر توصيات تتلخَّص في ثمانية بنود بدءاً من ضمان حرِّيَّة العقيدة، ومروراً بإلغاء القيود العشرة المفروضة على بناء الكنائس وعدم قبول تطبيق الشَّرِيعَة الإسلاميَّة، والتَّمثيل النيابي ... الخ، وانتهاءً بحماية الأسرة المسيحيَّة، كانت نتيجة المؤتمر الإسلامي الذي عُقد في يوليو من نفس السَّنَة، وأكد فيه فضيلة شيخ الأزهر على ضرورة تطبيق الشَّرِيعَة الإسلاميَّة.

• طوال السَّنَتين ١٩٧٨، ١٩٧٩م زادت حدة التوتُّر ووصلت أحداث العنف في مصر إلى حد رفض التَّعامل اليومي، وصدرت منشورات تكفُّر المجتمع وتبجيز قتل الأقباط^(٢٨).

• حرق كنيسة العذراء قصرِيَّة الرِّيْحان في أوائل سنة ١٩٧٩م عن آخرها، وكانت أثراً حضارياً عظيماً لمصر، وغيرها من الكنائس.

• في مارس سنة ١٩٨٠م اعتدت بعض الجماعات الإسلاميَّة على الطُّلبة المسيحيين في المدينة الجامعيَّة بالإسكندريَّة.

• أزمة احتجاج البابا على التفكير بتطبيق قانون الرَّدَّة ومحاولات

٢٨- إن الحالة الاقتصادية التي وصلت إليها البلاد كانت أحد الأسباب الرئيسيَّة لهذا التطرف. إذ أن معدلات التضخم سنة ١٩٧٩م، كانت تتراوح ما بين ٣٠-٣٥ %، ولم تكن كل المشروعات الجديدة والبراقة قادرة على استيعاب أكثر من ٤ % من خريجي الجامعات المصريَّة.

تقنين الشريعة الإسلامية، وأزمة التّظاهرات المعادية للسّادات من جانب أقباط المهجر في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وأزمة رفض البابا المشاركة في إجراءات تطبيع العلاقات مع إسرائيل بعد توقيع معاهدة السّلام، وذلك بمنع الأقباط من الحج إلى القدس.

• في ٢٦ مارس سنة ١٩٨١م أعلن بابا الإسكندريّة امتناع الكنيسة عن قبول التّهنئة من المسؤولين في الحكومة بعيد القيامة لهذه السنّة، حيث توجه هو والآباء المطارنة والأساقفة إلى الأديرة.

وكان الرئيس السّادات قد أصبح محل هجوم حاد لا هوادة فيه من جانب الأصوليين المسلمين. برغم أنه كان الدّافع الرئيسي وراء تغيير الدّستور المصري سنة ١٩٨٠م لينص على أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتّشريع. وبرغم ذلك كانت خطب الصّلاة في المساجد تندّد به كل يوم جمعة، وكان السّادات مندفعاً في مهاجمة المعارضة المصريّة الدّاخلية، فأصدر أوامره بإجراء حركة اعتقالات بين الإخوان المسلمين^(٢٩).

• في ٥ سبتمبر سنة ١٩٨١م كانت القرارات المؤسفة بإلغاء القرار الجمهوري بتعيين البابا شنودة الثالث بطريركاً للكراتة المرقسيّة، وتحديد إقامته بدير الأنبا بيشوى بوادي النّطرون. وتم اعتقال ١٥٣٦ مواطناً مصرياً من المسلمين والمسيحيين من بينهم ثمانية من الآباء الأساقفة، وأربعة وعشرون كاهناً^(٣٠).

• لم ينج أحد من ثورة غضب السّادات، ولقد عين الرئيس السّادات

٢٩- بطرس بطرس غالي، طريق مضر إلى القدس، مرجع سابق، ص ٣٥١، بتصرف.

٣٠- يذكر محمد حسنين هيكل أن أوامر الاعتقال بلغت في أحداث سنة ١٩٨١م

إلى ٩٣٠٠ أمر. (انظر: تحريف الغضب، ص ٤٥٥).

لجنة من خمسة أساقفة لتولي شؤون الكنيسة بدلاً من قداسة البابا، وأعلن السّادات أنه يجب على البابا أن يبقى في الدّير محدّدة إقامته، ومنعه من إدارة شؤون الكنيسة، ويقول الدكتور بطرس غالي: "وأوفدني السّادات برسالة إلى بابا الفاتيكان، وقد نقلت هذه الرّسالة الموقف المصري الرّسمي القائل بأن (البابا) شنوده قد توجه إلى الدّير لأسباب تتعلق بالأمن، وأن اعتكافه لا يقلص من سلطته الرّوحيّة كرئيس للكنيسة القبطيّة. وقد استقبلني الأب الرّوحي (يعني بابا الفاتيكان) في كاسل جاندولفو، وقرأ الرّسالة دون تعليق، ولم يكن مقتنعاً برسالة السّادات، ولا بما أقوله (٣١)".

• وما هو إلاّ شهر واحد من الزّمان حتى كان اغتياله في ٦ أكتوبر سنة ١٩٨١م بيد واحد من الجماعات الإسلاميّة في يوم انتصاره العظيم وهو واقف على منصّة العرض العسكري معتبطاً يتباهى بنصره، وسط جيشه وقواته وحرسه وآلاته الحربيّة. فالوحش الذي أخرج السّادات من مكانه خرج عليه هو ثمّ افترسه أخيراً، فدفع الثمن لأنه لم يستطع السّيطرة على الفوضى التي شاعت في المجتمع. ومات فرعون مصر الجديد بيد واحد من رعاياه. كان الرّئيس السّادات يجب مصر بالفعل، ولكنه كان حباً يعوزه التروّي أحياناً (٣٢).

في هذه الظروف الأليمة التي جازتها مصر شهدت البلاد نزيفاً رهيباً في طاقاتها البشريّة، لم يقتصر على المتعلّمين فقط، بل امتد إلى الحرفيين أيضاً. فارتفعت معدلات الهجرة من البلاد بشكل لم يسبق له مثيل،

٣١- بطرس بطرس غالي، طريق مصر إلى القدس، مرجع سابق، ص ٣٥١

٣٢- لما جاء الرئيس مبارك إلى الحكم ودعا إلى مؤتمر اقتصادي موسع، كشفت الأرقام عن أن ديون مصر بلغت ١٩,٥ بليون دولار. أما الدين العسكري فبلغ ٦ بليون دولار. أي أن ديون مصر الخارجيّة زادت في فترة حكم الرئيس السادات عشر مرات عن نظيرها في فترة حكم الرئيس عبد الناصر. (انظر: خريف الغضب، ص ١٦٩).

وبرغم أنه لم يكن هناك فلاح في العالم أكثر التصاقاً بأرضه من الفلاح المصري، إلا أنه قد نزع أكثر من مليون فلاح^(٣٣) إلى العالم العربي يبحثون عن أمل.

وبلغ عدد الأقباط في الولايات المتّحدة في ذلك الوقت أكثر من ٣٠٠ ألف نسمة، وفي كندا ٥٠ ألفاً وفي استراليا ٣٥ ألفاً، وفي أوروبا الغربيّة أعداد لم تكن محصاة بدقة آنئذ. وظلّت الغالبية العظمى من أقباط المهجر يعتبرون هويّتهم المصريّة، ويسعون للحفاظ عليها، وكانت مساعدتهم الطبيّة والدوائيّة إبّان حرب أكتوبر، أو حينما تعرضت مصر لأضرار طبيعية كالسيول والزلازل، خير شاهد على ذلك.

إن الحق الذي لا مناص منه أنه في عهد السّادات تم بعث الهويّة الدّينيّة الأصوليّة، مما أدى إلى توارى الهويّة المصريّة مرّة أخرى لصالح الهويّة العربيّة والدّينيّة السلفيّة. وبعد خلاف السّادات مع الدّول العربيّة عقب توقيع معاهدة "كامب ديفيد" قام بمحاولات شكليّة لإظهار الهويّة المصريّة والجذور الفرعونيّة، ولكنها كلها كانت محاولات شكليّة موجّهة للغرب من ناحية وجاءت كرد فعل على مخاصمة العرب من ناحية ثانية، ومتناقضة مع تشجيع السّادات للتّيّار السّلفي من ناحية ثالثة، فكانت محاولات غير مقنعة وغير مجدّية^(٣٤).

لقد دفع الأقباط ثمناً باهظاً من أرواحهم وممتلكاتهم من جرّاء صعود تيار الإسلام السّياسي الذي تبناه السّادات. ومع توحّش هذا التّيّار وتحوّلّه إلى الإرهاب دفعت مصر كلها ثمناً لهذا الإرهاب الأعمى.

٣٣- محمد حسنين هيكل، حريف الغضب، مرجع سابق، ص ١٨٢
٣٤- جريدة وطني في الأحد ١٣ مايو سنة ٢٠٠١م.

لقد برزت في عهد السَّادات المشكلة الرَّئِيسِيَّة للأقباط مع الدَّولة التي حرمتهم بشكل كبير من المشاركة في إدارة شؤون بلدهم. فعانى الأقباط من أعلى مراحل التَّهميش منذ ظهور الدَّولة الحديثة على يد محمد علي.

أما الأقباط فكما يقول إدوارد واكين فإنهم يتمتَّعون بقوة احتمال وصلابة الأهرام، وإرادتهم وعزيمتهم في أن يحتفظوا بشخصيتهم القبطيَّة تنكَّرَ بشكل لا نهائي خلال تاريخهم القلم والمعاصر.

مصر تحت حكم الرِّئيس حسني مبارك

جاء الرِّئيس حسني مبارك^(٣٥) في ظروف عصيبة بعد اغتيال رئيس الجمهورية، واحتلال الجماعات الإسلاميَّة لبعض المدن الكُبرى بالصَّعيد، وأعلنوا حينئذ قيام دولة إسلاميَّة تطبَّق شرع الله.

وبدأ مبارك عهده بجمع شتات الأُمَّة، فبدأت عمليات الإفراج عن المعتقلين في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٨١م من إسلاميين متشدِّدين ومسيحيين وصحفيين وإعلاميين وأساتذة جامعات ورجال أعمال. إلَّا أن بعضاً من الآباء الأساقفة والكهنة مُنعوا - بعد الإفراج عنهم - من ممارسة وظائفهم الدِّيَنيَّة في أماكن خدمتهم لفترة امتدَّت لشهور كثيرة.

٣٥- وُلد في شبين الكوم محافظة المنوفية سنة ١٩٢٨م، وتخرَّج في الأكاديمية العسكريَّة سنة ١٩٤٩م، والأكاديمية الجوية سنة ١٩٥٢م، ونظراً لأنه كان أصغر سنّاً بكثير من الضباط الأحرار الذين قادوا ثورة يوليو من العام ذاته، فقد تحاشى الكثير من الشللية السياسيَّة التي ميزت مجموعة الضباط من جيل الرئيسين جمال عبد الناصر وأنور السادات. ورُقِّي إلى قائد القوات الجوية سنة ١٩٧١م، وقاد الضربة الجوية الأولى في حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م، التي حسمت المعركة من اللحظات الأولى. وفي سنة ١٩٧٥م اختاره السادات ليكون نائباً لرئيس الجمهورية. وبعد اغتيال السادات في أكتوبر سنة ١٩٨١م، انتُخب مبارك رئيساً لمصر.

وفي سنة ١٩٨٢م عاد آخر جزء من أرض سيناء إلى مصر. وفي ٣ يناير سنة ١٩٨٥م صدر قرار جمهوري بإعادة تعيين أنبا شنوده الثالث بابا الإسكندرية وبطريك الكرازة المرقسية. فعاد قداسة البابا من الدَّير واحتفل بعيد الميلاد في الكاتدرائية المرقسية، فانطوت صفحة من صفحات تاريخ الكنيسة القبطية في مصر.

ويمكن تلخيص حكم الرئيس مبارك لمصر في الدَّاخل بأنه مزيج متميز من السياسات الضَّابطة والمتحررة، أما في الخارج فيمسك بميزان حسَّاس يزن به ما بين مصلحة مصر العليا أولاً، وريادتها للمنطقة التي تعيش فيها.

• في الاقتصاد

بدأ حُكم الرئيس مبارك بخطوات دقيقة ومحسوبة في مجال الاقتصاد. وتمكَّنت مصر في الأعوام العشرة ما بين عامي ١٩٨٥م و١٩٩٥م من أن تدخل قائمة الدُّول الثلاثين الأولى في العالم من حيث سرعة التُّمو الاقتصادي.

وفي أواخر التُّسعينيات من القرن العشرين أشاد البنك الدُّولي بإنجازات مصر الاقتصادية، حيث بلغ معدَّل التُّمو الاقتصادي السنوي ٥%، وانخفض العجز في الموازنة إلى أقل من ٢% من إجمالي التَّاتج القومي بعد أن كان ١٧%، وارتفع نصيب القطاع الخاص في المشروعات إلى ٦٥% بعد أن كان ٢٥% وبلغ احتياطي التُّقد الأجنبي ٢٠ مليار دولار بعد أن كان أقل من مليار دولار. وصار للأقباط نصيباً معقولاً في حجم مشروعات القطاع الخاص. وفي ذلك الوقت تمتعت الدُّولة بالاكتفاء الدَّاتي في إنتاج النُّفط والكهرباء.

ولأن البلاد لم تتحوَّل فعلياً إلى الصُّناعة التَّنافسية مع الأسواق

العالمية، كان واضحاً أن الاهتمام بالنشاط السياحي مع ما تدره قناة السويس من دخل قومي، لم يكونا كافيين لصمود الاقتصاد المصري طويلاً أمام المنافسة العالمية، لأن الدخل القومي للبلاد صار يعتمد علي الوافد إليها من الخارج فحسب، لا على ركائز راسخة في الداخل أيضاً، سواء كانت زراعية أو صناعية. وهو ما تداركته الدولة مؤخراً.

وفي النصف الأول من سنة ٢٠٠٠م تعرّض الاقتصاد المصري لصعوبات جمّة، فاجتاحت البلاد موجة من الكساد. وبعد أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م حدثت رجّة اقتصادية عالمية بسبب انهيار برجسي مركز التجارة العالمي في نيويورك.

ومع اقتراب سنة ٢٠٠٢م من نهايتها ازداد تدهور الاقتصاد المصري بسبب الفساد المالي الحكومي الذي انتشر بشكل كبير، كما جاء في تقرير البنك الدولي. وهو ما دفع البنك الدولي إلى قصر تمويله على المشروعات الصغيرة فقط في مصر.

ولا تزال مصر مع أوائل القرن الحادي والعشرين تعتمد اعتماداً كبيراً على المعونات الخارجية، وعلى تحويلات أبنائها العاملين في الخارج، والسبب المباشر في ذلك هو زيادة عدد السكّان وهي من أكبر مشكلات البلاد على الإطلاق، إلى جانب مشكلة الأمية. وقد تكون الطبقة المتوسطة في مصر آخذة في التّمو، لكن الفجوة بين الأغنياء والفقراء لازالت بالغة الاتساع.

وبحسب تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة سنة ٢٠٠٢م فإن معدل نمو متوسط الدخل قد أصبح نصف في المائة في المتوسط خلال العشرين سنة الماضية. وأن الدول العربية الـ ٢٢ مجتمعة يبلغ إنتاجها

القومي ٥٣١ مليار دولار، وهو أقل من إنتاج دولة أوريبيّة متوسّطة هي إسبانيا، وأقل من نصف إنتاج ولاية كاليفورنيا الأمريكيّة على الرّغم من أن عدد سكّان العالم العربي بلغ ٢٨٠ مليون نسمة وهو يعادل تقريباً عدد سكّان الولايات المتّحدة بأكملها. كما أن معدّل البطالة في العالم العربي ١٥ % في المتوسط وهو ثلاثة أضعاف المتوسط العالمي.

وفي سنة ٢٠٠٥م تحسّن الوضع الاقتصادي للبلاد، واستقرت القيمة النقديّة للجنه المصري، واستقرت أوضاع البنوك، وانخفضت الضّرائب إلى النّصف، وبدأ السّوق يتحرّك من جديد. ووضح أن اقتصاد البلاد يستعيد عافيته من جديد.

• في العنف الدّيني المسلّح

إن كانت موجة العنف الدّيني المسلّح قد ظهرت بوضوح في أوائل الثّمانينيّات من القرن العشرين متمثلة في أحداث الخانكة في عصر السّادات، إلاّ أنّها أخذت في التّسعينيّات دوراً خطيراً. فكانت أحداث الزّاوية الحمراء سنة ١٩٨١م، وأحداث أسبوط سنة ١٩٨٩م، وأحداث الفيوم، وأبو قرقاص سنة ١٩٩٠م، وإمبابة سنة ١٩٩١م، وديروط سنة ١٩٩٢م، وصنبو سنة ١٩٩٣م، والدّير المحرّق سنة ١٩٩٤م، والبداري بأسبوط وكفر دميانه بالشرقيّة سنة ١٩٩٦م^(٣٦)، وقرية الفكرية بالمنيا سنة ١٩٩٧م، وعزبة الأقباط... الخ، ثمّ كانت أحداث الكشع سنة ٢٠٠٠م. وبعد أن تدرّب المسلّحون المتطرّفون على إتقان أدوارهم على مسرح الأقباط وكنائسهم، انتقلوا في مرحلة تالية لضرب مؤسسات الدّولة نفسها.

وامتدت يد الإرهاب المسلَّح للجماعات الإسلاميَّة المتطرِّفة لتطال رجال الشُّرطة والقيادات العُليا في الحكومة، والسِّيَّاح الأجنبيِّين. ومع نهاية القرن العشرين انحسرت مؤقتاً هذه الظَّاهرة الشَّاذَّة، حتى أطلَّت برأسها من جديد في السَّنوات ٢٠٠٤، و٢٠٠٥م، و٢٠٠٦م في كل من طابا وشرم الشَّيخ وذهب على البحر الأحمر.

أمَّا من جهة الأقباط، فكان عدد القتلى من الأقباط على يد الجماعات الإرهابيَّة في سنة ١٩٩٠م لا يتجاوز خمسة أفراد، ارتفع إلى ٣٠ قتيلاً مع نهاية سنة ١٩٩٥م، وخلال الثلاث سنوات التَّالية فاق عدد القتلى من الأقباط نتيجة حوادث العنف الإرهابي السِّيَّاسي أربعة أمثال ضحاياهم طوال القرن العشرين^(٣٧). وفي أحداث الكُشع (محافظة سوهاج) وحدها بلغ عدد القتلى من الأقباط ١٩ قبطياً، واثنين من المسلمين، مما كان ينذر باشتعال الفتنة الطائفية في البلاد من جديد.

لقد كان هدف الجماعات الإرهابيَّة الواضح هو الوصول إلى الحكم عن طريق طعن وحدة الأمة بغرض إحداث فوضى في البلاد. ولقد اتَّجهت الحكومة في البداية إلى التَّردد في مواجهة الإرهاب والتَّراجع أمامه أحياناً، ولم تتَّخذ الحكومة موقفاً حازماً منه إلا في التسعينيات، حين أدركت أن الإرهاب سوف يحرق البلاد كلها أقباطاً ومسلمين.

• في التربية والتعليم

يلزم الإشارة إلى أنه من بين كل امرأتين عربيَّتين توجد واحدة غير قادرة على القراءة والكتابة. وأن هناك ٦٥ مليون عربي بالغ يعانون من

الأمية ثلاثهم من النساء.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، ففي غضون الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين زاد بدرجة ملحوظة إدراج كثير من الآيات والأحاديث القرآنية في كافة مواد اللغة العربية التي يدرسها التلاميذ المسيحيون مع التلاميذ المسلمين، لاسيما في مراحل التعليم الأولي.

وكانت البداية الفعلية لهذا الأمر حين أمر سعد زغلول باشا - حينما كان وزيراً للمعارف - بإدخال تدريس الدين المسيحي بالمدارس الابتدائية، وتوزيع الإنجيل على التلاميذ الأقباط في المدارس. وباستمرار هذه السياسة اعتبر الإخوان المسلمون أن تدريس الدين المسيحي في المدارس نوعاً من التبشير. وكرد فعل لذلك أصدرت وزارة العدل سنة ١٩٣١ م منشوراً يقضي بأن تكون الشهادات الطبية المقبولة في القضايا الشرعية من طبيب مسلم ولا تُقبل من طبيب مسيحي. وفي سنة ١٩٣٣ م صدر قانون بشأن التعليم الأولي وجعل هناك منهجاً دراسياً للديانة الإسلامية، يحتوي على آيات قرآنية بجزارة يدرسه التلاميذ المسيحيون إلى جانب إخوانهم المسلمين. دون أن تكون هناك آية واحدة من الإنجيل ترد على سبيل عظة أو حكمة (٣٨).

ولقد تداركت الحكومة هذا الأمر مؤخراً حيث نشرت جريدة الأهرام في ٢٠/٣/٢٠٠١ م تحت عنوان: "منهج جديد للأخلاق في مرحلة التعليم الأساسي العام المقبل"، ما يفيد أن السيد الدكتور وزير التعليم أقر في مؤتمر عام استحداث منهج جديد ينمي مكارم الأخلاق والقواسم المشتركة بين عنصرَي الأمة. وبعد عشرة أيام من هذا التاريخ تشر نفس

الجريدة فكرة بناء "مدارس تعاونية" يموِّها القادرون لتعليم أبنائهم، إذ تحتاج الدولة إلى حوالي ٢٧ ألف مدرسة، تتطلب نحو مائة مليار جنيه، تستطيع الدولة تدبير ثلث هذا الرقم فقط. ومن ثم فقد ظهر بناء المدرسة الخاصة سواء المحليَّة أو الأجنبية بواسطة أصحاب رؤوس الأموال، كمشروع استثماري مربح، أصبح الهم الأكبر والأساسي فيه هو جمع أكبر عائد مالي، حتى ولو كان على حساب الارتقاء بالعملية التعلیمیة نفسها.

• في الديمقراطية وحرية الفكر والنشر

جدير بالذكر أنه من بين سبع مناطق في العالم فإن المنطقة العربيَّة لديها المعدل الأقل في الحقوق والحريات المدنيَّة والحقوق السياسيَّة واستقلاليَّة وسائل الإعلام. أما مشاركة المرأة فهي الأقل على مستوى العالم كله، حيث تبلغ مشاركتها السياسيَّة والاقتصادية ٥,٣% وهي أقل حتى من أفقر دول العالم وهي مجموعة دول أفريقيا جنوب الصحراء، والتي تبلغ مشاركة المرأة فيها ١١%.

أمَّا في مصر فإن حرية الفكر وحرية النشر فهي تعدُّ من أبرز سمات عصر الرئيس مبارك، وما ورد في هذا الكتاب الذي بين يديك، قارئي العزيز، هو خير دليل على هذه الحرية.

لقد وضحت منذ البداية رغبة الرئيس الحقيقيَّة في منح الديمقراطية مجالاً حقيقياً للظهور، فكان أحد أبرز معالمها حرية النشر التي لم تعهدها مصر منذ قيام ثورة يوليو. إلا أن ظروفًا عالمية جديدة ساعدت على ذلك وهي تطوُّر وسائل الاتصال المسموعة والمرئية والمقروءة مع الطفرة الكبيرة لتكنولوجيا المعلومات. وكان نصيب الأقباط من هذه الحرية وافراً، لاسيما في عرض أفكار وتحليل أحداث ما كان ممكنا من قبل الخوض

فيها. فعادت من جديد - وإن كان ببطء شديد - مشاركة الأقباط في الحياة العامة، ومنها الانتخابات النيابية سنة ٢٠٠٠م والتي نجح فيها لأول مرة خلال نصف قرن ثلاثة من الأقباط مع استمرار رئيس الجمهورية في استخدام حقه الدستوري في تعيين عدد من الأقباط في البرلمان^(٣٩).

وكان من أبرز ملامح الديمقراطية في مصر في عهد مبارك هو تعديل دستور البلاد ليكون انتخاب رئيس الجمهورية بالاقتراع الحر المباشر. وهو حدث لم تعهده مصر من قبل على امتداد تاريخها الطويل.

وأما من جهة حرية النشر والتعبير، فجدير بالذكر أن العالم العربي كله يترجم حوالي ٣٠٠ كتاباً في السنة وهو خمس عدد الكتب المترجمة في اليونان فقط. والمدهش أن عدد الكتب الأجنبية المترجمة خلال الألف سنة الماضية في العالم العربي بأكمله أقل من عدد ما ترجمه أسبانيا وحدها خلال سنة واحدة. وأن ما يتم نشره من كتب في ٢٢ دولة عربية أقل من ١% مما يُنشر في بريطانيا^(٤٠).

وكان من تداعيات حرية النشر، ما استغله البعض للإساءة إلى أقباط مصر. ففي سنة ١٩٨٦م صدر كتاب "مقدمة في فكر الجاهلية المعاصرة" لمؤلفه عبد الجواد يسن، يتحدث فيه المؤلف عن الأقباط فيقول: "يخلو للأقلية النصرانية في مصر أن تتحدث كثيراً عن الوحدة الوطنية. فهم في ظلها والمسلمون سواء، فلا جزية يعطونها عن يد وهم صاغرون، ولا إحساس بالدينونة لحكم المؤمنين. وأما في ظل دولة الإسلام أياً كان

٣٩- كانت التجربة الديمقراطية الأولى في مصر في عهد اسماعيل باشا في الستينيات من القرن التاسع عشر عندما دخل الأقباط إلى مجلس شورى النواب، ثم دخولهم مجلس النواب سنة ١٨٨٢م.

٤٠- مقال لمجدي خليل في جريدة وطني الدولي بتاريخ الأحد ٤ أغسطس ٢٠٠٢م.

اسمها، فلا مفر من الجزية، ولا مشاركة في الحكم. ولا اعتماد عليهم في دفع ولا جهاد^(٤١)، وإنما هم دوماً في حالة ينبغي أن تشعرهم بقوة الإسلام، وعظمتها، وسموه، وبره، وخيره، وكرمه، وسماحته. أي في حالة تدفعهم على الجملة للدخول فيه اختياراً^(٤٢).”

هذه نوعيَّة من الآراء التي طُرحت آنئذ، ولكنها لم تكن تمثل الرأي الأكثر شيوعاً بين المثقفين المسلمين، فعلى سبيل المثال يقول الدكتور محمد سليم العوا: إن الدولة الإسلاميَّة المعاصرة تمثل نوعاً جديداً من السيادة لم يعرض لأحكامها الفقهاء، لأنها لم توجد في زمانهم. فالدولة الإسلاميَّة التي قامت بعد عهد الرسول قد انقضت بانحسار الخلافة الإسلاميَّة، وسيطرة الاستعمار الغربي على معظم أراضيها، وانقطع العمل بأحكام الشريعة فيها، وانقضى بذلك عقد الذمة نفسه. وقد شارك أبناء الشعوب - مسلمين وغير مسلمين - في أنتزاع الاستقلال من المستعمر، فخاض الفريقان معاً نضال التحرير، وضحوا من أجله، وبالتالي فإن الدولة الإسلاميَّة القائمة اليوم تضم الجميع على أساس المواطنة والولاء للوطن وليس للجزية مكان في أصول هذه الدولة^(٤٣).

ومن جهة أخرى صدر كتاب بعنوان ”هجوم الأقباط“ يورد

٤١ - بعد ذلك بعشر سنوات يدلي مصطفى مشهور مرشد عام الإخوان المسلمين بحديث لصحيفة الأهرام يقول فيه إنه على الأقباط أن يدفعوا الجزية كبديل عن عدم التحاقهم بالجيش، نظراً إلى أن جيش الدولة الإسلاميَّة هو عماد الدولة. ولو حارب دولة مسيحية، فيمكن أن ينحاز المسيحيون الذين في صفوفه إلى جيش الأعداء.

انظر: سامح فوزي، هجوم الأقباط، مرجع سابق، ص ١٤٠
وإن قراءة مدققة لموقف الأقباط من الحملات الصليبيَّة يرد على هذا الكلام.

٤٢ - سامح فوزي، هجوم الأقباط، مرجع سابق، ص ١٣٦

٤٣ - د. محمد سليم العوا، الأقباط والإسلام، حواء ١٩٨٧م. مقتبس عن: سامح فوزي،

هجوم الأقباط، مرجع سابق، ص ١٣٧، ١٣٨

حصراً أولاً لـ "همومهم"، بلغ خمسة وعشرين "هماً(٤٤)" هي في معظمها "هموم هذه الحياة".

وهنا يلزم القول - وهو ما سبق أن ذكره المفكر الكبير الدكتور فرج فوده(٤٥) - إن تبني بعض الأقباط لبعض المطالب السياسيّة لا ينطلق من عقيدة دينيّة، بل ينطلق من مفهوم حقوق الإنسان في العالم المعاصر. ومعنى آخر فإن موقفهم ينطلق من أرضية سياسيّة وليس من أرضيّة دينيّة.

وما يؤكد المقولة السابقة هو أنه لو كان كتاب "هموم الأقباط" ينطلق من أرضية دينيّة، لبات الكلام قاصراً، لأن الرّب يقول: «احترزوا لأنفسكم لثلاث ثقل قلوبكم في ... هموم الحياة فيصادفكم ذلك اليوم بغتة. لأنه كالفتح يأتي على جميع الجالسين على وجه كل الأرض. اسهروا إذا وتضرعوا في كل حين لكي تُحسبوا أهلاً للنجاة من جميع هذا الزرع أن يكون، وتقفوا قدام ابن الإنسان» (لوقا ٢١: ٣٤ - ٣٦).

لأن هموم المسيحيين عموماً من الوجهة الدنيّة - وهي الأهم - هي: ضعف الإيمان، فتور المحبة لله والناس، السعي نحو المتكآت الأولى، عدم الرضى بالصليب والألم، التكالب على مباحج الحياة، الهروب من وصية الإنجيل، الفتور في الصلّاة والعبادة، إرضاء الناس على حساب

٤٤- سامح فوزي، هموم الأقباط، مرجع سابق، ص ٥٩

٤٥- من مواليد الزرقا محافظة دميّاط في ٢٠ أغسطس سنة ١٩٤٥م، وفي ٨ يونيو سنة ١٩٩٢م سقط فرج فوده شهيد الوطن والحق والواجب برصاص ثلاثة من الإرهابيين من جماعة الجهاد، فرّ أحدهم ومات الآخر في السجن، ولم تثبت إدانة الثالث بسبب شهادة أحد الشيوخ ضد فرج فوده. وكان اغتيال المفكر الكبير ضمن موجة اغتيال بعض رموز الفكر في مصر مثل الأستاذ مكرم محمد أحمد في منتصف الثمانينيات، والأديب العالمي الأستاذ نجيب محفوظ.

رضى الرَّب، عدم وجود مخافة الله، التَّباهي بالمراكز والمتكات المرموقة، عدم الشُّكر على كل شيء، النكوص عن السَّعي نحو القداسة، تفضيل ما للجسد على ما للروح، عدم تسليم الحياة بكليتها للمسيح، عدم الاكتفاء بالرَّب، مشاهة أهل العالم ... الخ. وفي اختصار هل المسيح له المجد هو هدف حياتنا، أم أنه وسيلة لأغراض أخرى؟. هذه هي الهموم الدينيَّة لأي مسيحي عموماً.

أبرز ملامح عصر البابا شنوده الثالث

يصعب علينا أن نوجز هنا أبرز ملامح عصر البابا شنوده الثالث، لأن ما شهدته الكنيسة القبطيَّة في طفرات في هذه الفترة تحتاج إلى كتاب قائم بذاته، لا يقل حجماً عن الكتاب الذي بين يديك، ولكننا هنا نلقي بعض الضوء فقط على أبرز هذه الملامح.

• أول لائحة للمجمع المقدَّس للكنيسة القبطيَّة

في يونيو سنة ١٩٨٥م صدرت أوَّل لائحة للمجمع المقدَّس للكنيسة القبطيَّة في كل تاريخه. وقد ورد نص اللائحة في الكتاب الوثائقي الذي أصدره المجمع المقدَّس سنة ١٩٩٦م بمناسبة اليوبيل الفضي لقداسة البابا، وهي أوَّل بادرة في تاريخ الكنيسة القبطيَّة والمجمع المقدَّس والمكتبة القبطيَّة أن يصدر المجمع المقدَّس سجلاً للمواضيع الكثيرة التي تعرَّضت لها قرارات المجمع، والوثائق المنشورة والملاحق المرفقة. أما لائحة المجمع المقدَّس التي ضمَّها هذا الكتاب فتتكوَّن من سبعين مادة ومن بين بنودها:

- المجمع المقدَّس هو السُّلطة الكهنوتيَّة العليا في الكنيسة القبطيَّة

- الأرثوذكسية، وتشمل سلطته الإكليروس وكل الشعب (مادة ٤).
- المجمع المقدس هو السلطة التشريعية العليا في الكنيسة، وله أن يسن قوانين للكنيسة، مما يتفق مع الاحتياجات الجديدة للكنيسة (مادة ٨).
- المجمع المقدس هو المسئول الأعلى عن الإيمان والعقيدة، وله أن يفسر قواعد الإيمان بما لا يتعارض مع التسليم الكنسي الثابت (مادة ١٠).
- المجمع المقدس هو المرجع الأول في طقوس الكنيسة (مادة ١١).

وقد تشكل للمجمع المقدس ثماني لجان هي:

- لجنة الإيمان والتعليم.
- اللجنة التشريعية.
- لجنة شؤون الإيبارشيات.
- لجنة الطقوس الكنسية.
- لجنة العلاقات الكنسية.
- لجنة العلاقات العامة.
- لجنة المشروعات الكنسية.
- لجنة شؤون الأديرة.

في سبتمبر سنة ١٩٨٩م افتتحت أول كلية إكليريكية قبطية في أمريكا، وفي نفس العام افتتح أول دير قبطي في أمريكا، وهو دير القديس الأنبا أنطونيوس بكاليفورنيا.

• خدمة الكنيسة القبطية في أفريقيا

امتد النشاط الكرازي والروحي للكنيسة القبطية ليشمل بلاد النوبة والسودان والخمس مدن الغربية وإثيوبيا^(٤٦)، وست دول أفريقية هي كينيا - زامبيا - زيمبابوي - ناميبيا - ساحل العاج - وجنوب أفريقيا، حيث صار للكنيسة القبطية في نهاية القرن العشرين في هذه الدول الأفريقية

٤٦- سبق أن عرضنا للخمس مدن الغربية، ونرجى الحديث عن كنيسة إثيوبيا لكتاب آخر، وبعد قليل نلقي بعض الضوء على بلاد النوبة، والتي ارتبط اسمها حتى اليوم بأحد ألقاب بطريك الإسكندرية.

الست ثلاثون كنيسة، بكرة نيافة الأنبا أنطونيوس مرقس أسقف عام شئون أفريقيا، والكهنة والخدام الأفارقة المعاوين له (٤٧).

ففي يناير سنة ١٩٩٤م قام قداسة البابا شنودة الثالث برحلة إلى أفريقيا زار فيها مركز مار مرقس القبطي في جوهانسبرج، ثم زار الأقباط في زامبيا حيث كاتدرائية القديس مار مرقس في لوساكا العاصمة. ثم زار كينيا حيث المركز القبطي في نيروبي، واجتمع مع أبنائه هناك. ولقد بدأت خدمة الكنيسة القبطية لأفريقيا مبكرة. وفي عصرنا الحديث بدأت الخدمة لشعب كينيا سنة ١٩٧٦م (٤٨)، ولشعب زامبيا سنة ١٩٨٤م، ولشعب زيمبابوي سنة ١٩٨٨م، ولجنوب أفريقيا سنة ١٩٩٢م (٤٩). وحتى أواخر سنة ١٩٩٤م، أصبح للكنيسة القبطية كنائس أخرى في ناميبيا.

ولقد استقبلت الكنيسة القبطية بعثات أفريقية للدراسة لأول مرة في

٤٧- في هذا الصدد لا ننسى الدكتور زاهر رياض (١٩٠٨ - ١٩٨٠م)، رائد الدراسات الأفريقية في مصر، وكان مدرسا للتاريخ بمعهد الدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة منذ سنة ١٩٥٦م، كما عمل محاضراً بجامعة توبنجن بألمانيا.

٤٨- يبلغ مجموع سكان كينيا سنة ٢٠٠٠م، حوالي ٣٥ مليون نسمة، ونسبة المتعلمين منهم ٦٩%. يدين ٢٦% من السكان بالكاثوليكية، ١٩% بالبروتستنتية، ١٩% بـ Croyances Trad، ١٨% بالمسيحية الأفريقية (أي التي تتبع كنيسة الإسكندرية)، ٧% أنجليكان، ٦% إسلام، ٥% ديانات أخرى.

٤٩- كانت الكنيسة القبطية قد بدأت رعاية روحية لجنوب أفريقيا ونيجيريا منذ سنة ١٩٤٨م، برسامة مطران جنوب أفريقيا ونيجيريا في سنة ١٩٥٠م، لكن الخدمة توقفت بعد فترة حتى استعادت نشاطها من جديد في سنة ١٩٩٢م.

أصبح الرئيس مانديلا أول رئيس أسود للبلاد بعد ٣٤٢ سنة من هيمنة الأقلية البيضاء، وكان الرئيس قد سُجن لمدة ٢٧ سنة لمناضلته ضد التفرقة العنصرية. ومجموع السكان يبلغ ٥٢ مليون نسمة، نسبة المتعلمين منهم ٧٦%. وفي جنوب أفريقيا جنسيات عرقية كثيرة، منها الزولو وتشكل ٢٤% من مجموع السكان، وهناك ١٨% من البيض، ١٢% من السود، عدا ستة جنسيات عرقية أخرى. يدين ٧٧% من السكان بالمسيحية، ٢٠% بـ Croyances Trad، ٢% بالهندوسية، ١% بالإسلام.

وأواخر الستينيات من القرن العشرين من أوغندا^(٥٠) وكينيا لدراسة اللاهوت.

وهناك مجلس يسمى "مجلس كنائس كل أفريقيا" يهتم بشؤون الكنيسة الأفريقية. وهو يسعى لخدمة الشعوب الأفريقية روحياً واجتماعياً، ومركزه في نيروبي. وقد أنشئ المجلس سنة ١٩٦٢م، وهو يضم غالبية وكبريات الكنائس المسيحية في بلاد أفريقيا. وحتى سنة ١٩٨٣م كان المجلس يضم ١٠٨ كنيسة من ٤٠ دولة تضم نحو ١٢٠ مليون عضو مسيحي.

وقد شهدت القاهرة في فبراير سنة ١٩٨٣م اجتماعات اللجنة العامة لمجلس كنائس كل أفريقيا. وهذه اللجنة العامة تأتي في الهيكل التنظيمي للمجلس في المرتبة الثانية بعد الجمعية العمومية، وهي تضم ٥٥ عضواً وقد حضر اجتماعات اللجنة العامة حوالي ٤٠ عضواً من كنائس كينيا، مدغشقر، نيجيريا، أوغندا، إثيوبيا، توجو، موزامبيق، مصر، بينين، سيراليون، زائير، بوروندي، زامبيا، الكاميرون، السنغال، السودان، جامبيا، ساحل العاج. ورأس اجتماع اللجنة الدائمة بالقاهرة رئيس الأساقفة "ولترماكولو" رئيس مجلس كنائس كل أفريقيا^(٥١). وقد بعث رئيس جمهورية مصر العربية الرئيس حسني مبارك رسالة إلى المجلس يرحب فيها بهم قال فيها: "... في مصر نشأت أول دعوة للإله الواحد، قادها فرعون مصر أخناتون ..."، وقد استقبل الرئيس في قصر العروبة

٥٠- عرفت أوغندا المسيحية سنة ١٨٧٧م، عندما وصلت إليها أول بعثة مسيحية من كنيسة إنجلترا. وفي سنة ١٨٧٩م، وصلت بعثة فرنسية مسيحية، وانتشرت المسيحية بسرعة في أوغندا. ويبلغ تعداد المسيحيين فيها ٩٠% من مجموع السكان الذي يبلغ ١٣ مليون نسمة حتى سنة ١٩٨٣م. ولقد جازت أوغندا بحنة استمرت ثمانية أعوام (١٩٧١ - ١٩٧٩م) في فترة رئاسة عيدي أمين، الذي قتل فيها ضمن ما قتل رئيس أساقفة الكنيسة الأوغندية جينان لووم Jenan Luwum.

٥١- هو رئيس أساقفة الكنيسة الأنجليكانية في بوتسوانا.

بالقاهرة رئيس المجلس^(٥٢) ونائبه وأمين المجلس.

وقد وجَّه قداسة البابا شنوده الثالث خطاب الكنيسة القبطيَّة - وهي الكنيسة المضيئة - في حفل الافتتاح، وألقاه نيافة الأنبا باخوميوس أسقف البحيرة. وكان الاجتماع السَّابق لهذا المجلس في سنة ١٩٧٦م في مدينة الإسكندريَّة.

وفي عيد العنصرة في يونيو سنة ١٩٩٤م قام قداسة البابا برسامة خمسة أساقفة إيريريين للخدمة في إيريريا، وذلك بعد استقلال إيريريا عن إثيوبيا. وفي ٨ مايو - عيد القديس مار مرقس البشير - سنة ١٩٩٨م تم تنويع أول بطريرك لكنيسة إيريريا الأرثوذكسيَّة الشَّقِيقة باسم "قداسة البطريرك فيليس الأوَّل" بيد قداسة البابا شنوده الثالث، فصارت لإيريريا كنيسة مستقلة منذ ذلك التاريخ^(٥٣).

وفي آخر زيارة لبابا الإسكندرية لجنوب أفريقيا في أوائل سنة ١٩٩٦م تم وضع حجر الأساس لكنيسة مار مرقس ومركز الخدمات الاجتماعيَّة لخدمة شعب الزولو. ويشتمل المركز على جميع التَّخصّصات المهنية وفصول للحضانة لرعاية الأطفال... الخ ويحمل المركز اسم القديسة فيرينا التي قدّمت نموذجاً يحتذى في العمل الكرازي.

وفي وسط هذا العمل الكرازي لكنيسة مصر في أفريقيا في العصر

٥٢- هو الأسقف "والتر ماكولو" وُلد في جوهانسبرج سنة ١٩٣٥م، درس في كلية لاهوت أسقفية بجوهانسبرج. خدم في بتسوانا سنتي ١٩٦١، ١٩٦٢م. سافر إلى إنجلترا ودرس لمدة عامين في برمنجهام، وتولى خدمة ثلاث كنائس في لندن (١٩٦٤-١٩٧٥م)، أُختير أسقفاً لبتسوانا سنة ١٩٧٩م، وأسقفاً لأفريقيا الوسطى سنة ١٩٨٠م، ثم رئيساً لمجلس كنائس كل أفريقيا سنة ١٩٨١م.

٥٣- انتقل إلى الأبحاد السماوية في سبتمبر سنة ٢٠٠٢م.

الحديث يشد انتباهنا. أول كرازة قامت بها كنيسة الإسكندرية في أفريقيا في القرن الرابع الميلادي، متمثلة في كل من مملكتي إثيوبيا والنوبة. فعن الأولى يأتي حديثنا في الجزء الثالث من سلسلة "الكنائس الشرقية وأوطانها"، والآن نعرض لمملكة النوبة المسيحية، والتي لا يزال اسمها مقترناً بأحد ألقاب بطريك الإسكندرية.

ملحق عن مملكة النوبة

الأثار التي تم اكتشافها في بلاد النوبة قبل أن تغمرها مياه بحيرة السد العالي، والموجودة الآن في "متحف النوبة" تؤكد أن أهل النوبة قد عرفوا مستوى حضارياً مماثلاً للمستوى الذي وصل إليه المصري القديم في عصور ما قبل التاريخ في الفترة من ٤٥٠٠ - ٣٠٠٠ ق م. ومنذ عصر الأسرة الثامنة عشر الذي يوازي القرن الخامس عشر قبل الميلاد، انضمت بلاد النوبة السفلى والعليا إلى مصر، وأصبحت جزءاً منها، وتأثرت بالثقافة المصرية، وأخذت عنها آهتها، وفي القرن الثامن قبل الميلاد حكم النوبيون مصر، وأشهر فراعنتهم بعنخي وشباكا وطهارقا وثانوت أماني.

وفي زمن البطالمة ظلت العلاقات ودية بين الملوك البطالمة ومملكة النوبيين، كما اهتم الأباطرة في العصر الروماني بالنوبة، ولقد عقد الإمبراطور أغسطس معاهدة مع النوبة تمنحهم الحكم الذاتي تحت سيطرة الرومان.

ودخلت المسيحية بلاد النوبة في القرن الأول والثاني الميلاديين عن طريق التجار المصريين كما سبق أن ذكرنا في غير هذا الموضع، وقد وجدت آثار كنيسة تعود إلى القرن الرابع الميلادي في النوبة، مما يشير إلى استقرار المسيحية بها في هذا الوقت المبكر.

ويذكر الدكتور جودت حبرة أن أول الشواهد التاريخية لبداية انتشار

المسيحيَّة في النوبة تتمثَّل في قيام البابا أناسيوس الرِّسولي بطريرك الإسكندرية (٣٢٦ - ٣٧٣م) برسامة أسقف لفيلة التي أصبحت منذ سنة ٣٦٢م مقراً لأسقفية قبطية. وكانت هناك حالة قبطية في قصر إبريم في عمق النوبة قبل أن تصبح مملكة نوباتيا النوبية مملكة مسيحية^(٥٤).

وبعد افتتاح المسلمين لمصر مباشرة، قام واليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح بحملة على بلاد النوبة سنة ٦٥١م، وحاصر دنقلة، وعجز عن الاستيلاء عليها بسبب بُعد الشُّقة، وقسوة الطبيعة، إلا أنه قبل أن ينسحب أبرم مع حاكمها الصُّلح الشهير المعروف بـ "البقت (٥٥)"، أو "البقط"، وقد شكَّل هذا الصُّلح حجر الأساس للعلاقات السِّياسية والتجارية بين البلدين، ونتج عنه أن ظلَّت العلاقات السِّلمية قائمة بين مصر الإسلامية والنوبة المسيحية طوال ما يقرب من ستة قرون، أي حتى ظهور دولة الماليك في مصر. وبالرَّغم من أن مصر لم تحاول احتلال النوبة طيلة هذه المدة، فإن تطورات خفية كان من شأنها أن تسارع في تقويض كيان الدَّولة النوبية.

فمنذ القرن التاسع الميلادي، ومع اكتشاف الذهب والزُّمرد في الصَّحراء الشَّرقية نشطت هجرة القبائل العربية إلى الجنوب. وعندما غزا جوهر الصقلي مصر سنة ٩٦٩م كانت بلاد النوبة تتمتع بالاستقلال التام في عهد ملكها "جورج الثاني" وكانت المسيحية منتشرة في تلك البلاد انتشاراً كبيراً. وأرسل جوهر الصقلي إلى ملك النوبة رسالة يدعوه فيها

٥٤ - د. جودت حيرة، مقال بجريدة وطني، الأحد ١٩ ديسمبر سنة ١٩٩٩م.

٥٥ - البقت: تعريب للكلمة اللاتينية Pactum بمعنى اتفاقية. وكانت تقضي هذه الاتفاقية بتسليم الحكام المسلمين عدداً من العبيد مقابل استلام سلع من النوبة مرغوب فيها، أهمها الخبث والحمر والمنسوجات القبطية. وظل البقت ساري المفعول قرابة ستمائة عام، وهو يعد ظاهرة فريدة في التاريخ الإسلامي.

إلى الإسلام ودفع الجزية السنوية المعروفة بالقبط. وقبل ملك النوبة دفع الجزية، ولكنه اعتذر عن الدُخول في الإسلام، وقد قبل منه جوهر ذلك. وفي عهد الخليفة العزيز بالله قَبِل البابا فيلوثاؤس (٩٧٩-١٠٠٣م) البطريك الثالث والسَّتين للكنيسة القبطية وساطة جورج الثاني ملك النوبة لإعادة العلاقات الدِّينية بين الكنيستين القبطية والإثيوبية بعد انقطاعها زمناً طويلاً.

وكانت المراسيم التي أصدرها الحاكم بأمر الله ضد أهل الذمة في مصر سبباً في هجرة كثير من الأقباط إلى النوبة، وبخاصة بعد أن سمح لهم بذلك، فاتجه الكثير منهم إلى أقصى الصَّعيد، وواصل بعضهم السَّير جنوباً حتى وصلوا إلى النوبة واستقروا بها^(٥٦).

واشتملت القوانين الصَّارمة التي أصدرها الحاكم بأمر الله سنة ١٠٠٩م ضد أهل الذمة على أوامره بمنع سفر الأساقفة المصريين إلى النوبة وإثيوبيا، كما منع إرسال الخطابات السنوية لبطريك الكنيسة المرقسية إلى كنيسة النوبة وإثيوبيا لعدة أعوام، وقد ترتب على ذلك أن أغلقت تلك الكنائس أبوابها^(٥٧).

وفي خلافة المستنصر بالله أرسل ملك النوبة إلى البابا حريستوذولوس (١٠٤٧-١٠٧٧م) البطريك السادس والسَّتين للكنيسة القبطية يرجو منه رسامة أسقف للكنيسة النوبية، التي توفى أسقفها، فتم ذلك. وفي سنة ١٠٥٠م أرسل البطريك اثنين من أساقفة الكنيسة القبطية لتدشين كنيسة بناها الملك سلمون ملك النوبة في بلاده، وبعد انتهاء مهمتهما أرسل معهما

٥٦- د. سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ٢٨١

٥٧- نفس المرجع، ص ١٨٢

ملاً أوصلاه إلى البطريرك^(٥٨).

وحرص بدر الجمالي على استمرار العلاقات الوديَّة بينه وبين ملك النوبة. وكان للكنيسة القبطيَّة دائماً أساقفة مصريون في بلاد النوبة. وكان آخر من نعرفه من الأساقفة الأقباط في النوبة هو الأسقف تيموثاوس الذي تمَّت رسامته أسقفاً لغرس وقصر إبريم سنة ١٣٧٢م.

وكانت الكنيسة النوبيَّة من أهم مصادر التَّمويل المادي للكنيسة المصريَّة وبتباركها، وبخاصة إبان الأزمات الماليَّة التي كانوا يتعرَّضون لها. وكثيراً ما استغلت السُّلطات المصريَّة مركز ونفوذ بطريرك الكنيسة المصريَّة في بلاد النوبة في التَّوصية لدى ملوك النوبة بالمسلمين في بلادهم^(٥٩).

وإن كان لابد من الاعتراف باستقلاليَّة الفن النوبي المسيحي، إلا أننا لا ينبغي أن نغفل تأثيره إلى حد كبير بالفن القبطي.

والفن النوبي المسيحي هو من أهم مظاهر الحضارة المسيحيَّة في النوبة على الإطلاق. وقد كانت أقدم الكنائس تزدان بعناصر النَّحت المعماري كالأعتاب والأفاريز وتيجان الأعمدة. ومنذ القرن الثامن بدأت الرُّسوم الجداريَّة في الانتشار بصورة مماثلة لما كانت عليه في كنائس مصر القبطيَّة.

ومن أجمل المناظر في كنائس النوبة منظر القديسة العذراء تحمل الطفل يسوع محاطة بالرُّسل، وكان منظر السيِّد المسيح "ضابط الكل" يزين القُبَّة النصفية التي تعلو الحنية، أما منظر الميلاد فكان يصور في الجناح الشِّمالي. وفي منظر الميلاد لم تظهر أسماء الرُّعاة إلا في الفن النوبي،

٥٨ - نفس المرجع، ص ٢٨٣

٥٩ - نفس المرجع، ص ١٨٦

فأحدهما اسمه أريناس والآخر اسمه ليكوتس.

ومن خصائص الفن النوبي المسيحي أيضاً تمثيل الثالوث القدوس - الآب والابن والروح القدس - بشكل ثلاثة وجوه بشرية وأسفلها ثلاثة صُلبان، ويفصل بين الصُلبان والثلاثة وجوه طبقة من السحاب. وكان منظر الثلاثة فتية في أتون النار من المناظر المحببة في الفن النوبي.

ومن أهم المناظر في كنائس النوبة القديمة صور الملوك التي توضح من ناحية استقلال النوبة السياسي، وارتباط ملوك النوبة المسيحية بطقوس الكنيسة وشعائرها من ناحية أخرى. وقد احتل عدد من النُسَّاك المصريين الأقباط مكانة كبيرة في الفن النوبي المسيحي. ومنذ بداية القرن التاسع، وخلال القرن النصف الأول من القرن العاشر بدأ فن التصوير يتخذ ملامحه الخاصة كفن محلي له شخصيته المستقلة. وفي أواخر القرن العاشر نضجت هذه المدرسة المحلية للفن النوبي المسيحي، ومع حلول القرن الثالث عشر بدأ مستوى الفن في التدهور.

وتعتبر الكتابة في النوبة المسيحية من المشكلات الصعبة في دراسة الحضارة النوبية. وقد انتشرت اللغة النوبية القديمة وهي لغة أهل البلاد مكتوبة بحروف غالبيتها قبطية إلى جانب حرفين مضافين إليها من اللغة المروية، وقد تم إدخال بعض التعديلات على الحروف ليصبح النطق مطابقاً لمتطلبات اللغة النوبية القديمة. وأصبحت اللغة اليونانية لغة الشعائر والطقوس الأكثر انتشاراً في النوبة المسيحية، إلى جانب اللغة القبطية. فعلى سبيل المثال تم تخليد تأسيس كاتدرائية فرس سنة ٧٠٧م في لوحتين إحداهما باللغة القبطية والأخرى باللغة اليونانية. وهناك مئات من شواهد القبور النوبية مكتوبة باللغة القبطية، وبعضها باللغة اليونانية. وفي بعض الأديرة النوبية كانت اللغة القبطية هي اللغة الأكثر استخداماً. وقد عُثر

على كتاب صلوات مكتوب كله باللُّغة القبطيَّة مما يوضِّح نفوذ الإكليروس القبطي في النوبة المسيحيَّة.

ويمكن القول بأن اندثار الكتابة النوبيَّة كان نتيجة لاندثار الدَّولة النوبيَّة، فاللغة النوبيَّة القديمة وكتابتها تطوَّرت في القرن السَّادس الميلادي مع نشوء الممالك النوبيَّة المسيحيَّة.

واليوم تنتشر لهجات نوبيَّة مختلفة يتكلَّمها سكان جبال النوبة بالسودان حيث يعيش حوالي خمسين قبيلة ينتمي أفرادها إلى أصول عرقيَّة ولغويَّة متباينة. وكان آخر كتاب حرر باللُّغة النوبيَّة القديمة في سنة ١٤٨٤ م.

أما سبب بداية انهيار مملكة النوبة فقد نتج عن أن العرب الذين نزحوا إلى النوبة قد تزاوجوا مع السُّكَّان الأصليين واندمجوا بهم. ثم برز من بينهم قائد لقب بـ "كتر الدَّولة" وهو لقب منحه إياه الخليفة الفاطمي، وقد استقلَّت أسرته بالحكم في منطقة الحدود بين مصر والنوبة، فاختل النَّظام وتضعفت سلطة ملوك النوبة. واندثرت دولة النوبة في أواخر القرن الرَّابع عشر الميلادي.

ويرجع اندثار الدَّولة النوبيَّة إلى ثلاثة عوامل رئيسيَّة وهي:

- ١- هجرة القبائل العربيَّة إليها.
- ٢- قيام أسرة بني الكتر في صعيد مصر واستئثارها الشَّامل تقريباً بالحكم هناك من القرن الحادي عشر إلى القرن الرَّابع عشر.
- ٣- تدخُّل سلاطين المماليك في مصر في شؤون النوبة، وبخاصة في عهد السُّلطان الظَّاهر بيبرس في النصف الثَّاني من القرن الثَّالث عشر للميلاد.

وبعد بناء السد العالي أصبح من المحتتم أن تغمر مياه بحيرة ناصر خلف السد كل أراضي النوبة بما تحمل من آثار قديمة بالغة القيمة، فكانت مبادرة الأثري المصري مصطفى عامر، الذي تبين في الخمسينيات برنامجاً لإنقاذ آثار النوبة، واستجابت منظمة اليونسكو، وتبنت في الستينيات حملة دولية لمساعدة مصر على القيام بدورها في الحفاظ على آثارها، وهي الحملة التي كانت تكاليفها أعلى بكثير من تكاليف بناء السد العالي نفسه، فقد تكلف هذا الأخير ٤٠٠ مليون جنيه، في الوقت الذي بلغت فيه تكاليف نقل معبد أبو سمبل وحده ٣٥ مليون جنيه، وهو معبد واحد من بين ١٨ معبداً تم إنقاذها. وتأسست في أوائل الستينيات من القرن العشرين "الجمعية الدولية للدراسات النوبية"^(٦٠)، وتم إنقاذ كل المعابد، حيث تم فكها ونقلها إلى الأماكن الجديدة التي استقرت فيها، كما تم إنشاء متحف النوبة بمساعدة هيئة اليونسكو وتم وضع حجر الأساس له في سنة ١٩٨٦م. وفي نوفمبر سنة ١٩٩٧م افتتح رئيس الجمهورية المتحف، والذي يضم ستة أقسام تضم ٢٠ ألف قطعة أثرية معروضة داخل ٣٨ فترينة تبدأ بعصور ما قبل التاريخ.

وقد عُقد في سبتمبر سنة ٢٠٠٢م في مدينة روما المؤتمر الدولي العاشر للدراسات النوبية.

الكنيسة القبطية في الخمس سنوات الأخيرة من القرن العشرين

حدث في أعقاب اتجاه الكنيسة الأنجليكانية في إنجلترا إلى رسامة كاهنات وأسقفات من النساء، أن انفصل أحد الأساقفة مع كهنته وشعبه عن كنيسة إنجلترا، وطلب الانضمام إلى الكنيسة القبطية. وفي يونيو سنة ١٩٩٤م رُسم الأسقف الإنجليزي مطراناً باسم سيراقيم. وفي نفس هذا

٦٠- رأس هذه الجمعية لمدة ثمانية أعوام الدكتور جودت حيرة.

اليوم - عيد العنصرة - تم ترقية الأسقف الفرنسي الأنبا مرقس مطراناً وهو المستول عن أعضاء الكنيسة القبطية من أصل فرنسي، وتم ترقية مساعده الأنبا أناسيوس أسقفاً عاماً.

ومعروف أنه على يد مصر وصل التبشير بالمسيحية إلى الجزر البريطانية. وأن نقاط الالتقاء بين الطقسين القبطي والسلي لا زالت تشهد على ذلك حتى يومنا هذا. فقد ذكر ألفريد بتلر A. Butler في مؤلفه "كنائس مصر القديمة" أنه يوجد إلى يومنا هذا بلدة "أوليده ديزرت" بأيرلندا قبور سبعة من الرهبان المصريين لا تزال تذكر أسماءهم في الصلاة بكنيسة تلك الجهة.

وفي اليوميل الفضي لقداسة البابا شنودة الثالث الذي وافق ١٤ نوفمبر سنة ١٩٩٦م اعدت للكنيسة القبطية لتنتشر في كل أنحاء العالم، فيلى جانب إيارشيات مصر في الوجهين البحري والقبلي، كان هناك أربعة أسقفيات عامة هي:

- أسقفية التعليم: تأسست سنة ١٩٦٢م، وتضم الكلية الإكليريكية، ومعهد الدراسات القبطية والمعاهد الدينية، والجمعيات المشتغلة بالوعظ، ومدارس الأحد.

- أسقفية الخدمات العامة والاجتماعية والعلاقات المسكونية: تأسست سنة ١٩٦٢م.

- أسقفية الدراسات العليا والثقافة القبطية والبحث العلمي: تأسست سنة ١٩٦٧م.

- أسقفية الشباب: تأسست سنة ١٩٨٠م.

إلى جانب إيارشيات منتشرة في الشرق الأوسط وإفريقيا وأوروبا وأستراليا وأمريكا وكندا.

وفي أواخر سنة ١٩٩٦م - وهو اليوم قبل الفضي لقداسة البابا شنودة الثالث - وصل عدد كنائس المهجر التابعة للكنيسة القبطية إلى ١٨٧ كنيسة. والعدد باضطراد مستمر.

ولدى الكنيسة القبطية اليوم ١٨ ديراً:
 - دير في الولايات المتحدة بكاليفورنيا.
 - ديران في انتراليا، في ملبورن وسيدني.
 - ثلاثة أديرة في أوروبا: في كريفيلباخ في ألمانيا، وميلانيسو في إيطاليا، ودير في جنيف في سويسرا.
 - ديران في أفريقيا، واحد في كل من كينيا، وناميبيا.
 - عشرة أديرة في العالم العربي: اثنان في لبنان، اثنان في القدس الشرقية، خمسة في الضفة الغربية، واحد في يافا في إسرائيل.

* * *

ونظراً لامتداد الكنيسة الواضح خارج البلاد بدأ المهاجرون الأقباط بعد أن كثر عددهم في المهجر، ولاسيما في أمريكا، في متابعة مجريات الأحداث للوطن الأم، والتدخل في شؤون البلاد الداخلية بدعوى إنصاف الأقباط والكنيسة القبطية، وهو الأمر الذي رفضته الكنيسة القبطية. فتاريخها يثبت أنها كنيسة وطنية لا تعتمد على أي مساندة خارجية. فعلى امتداد القرون السالفة رفضت الكنيسة القبطية أي ارتباط بكنائس أخرى خارج مصر بدعوى الحماية أو التكتل، وذلك لسببين: أولاً، لأنها
 أوهماً: أن الكنيسة القبطية جزء لا يتجزأ من مصر وتراثها وشعبها مسلمين ومسيحيين.
 وثانيهما: أنها كنيسة متمرسة على صنوف الاضطهاد حتى

الاستشهاد، لا يخيفها سيف أو نار أو استبداد. لأنها ليست من هذا العالم رغم أنها تعيش فيه، تزود عنه دون أي أطماع فيه، تحبه دون أن تبتغيه، ولأن مملكتها الحقيقية هي السَّماء فهي لا تسعى لأي مغنم لها فيه. وفي زيارة لقداسة البابا شنودة الثالث لأمريكا في سبتمبر سنة ١٩٩٨م أعلن في نيويورك: "إن تدخل أي شخص من الخارج في العلاقة بين الكنيسة والمستولين المصريين يُعتبر في نظر الكنيسة اعتداء على سيادة مصر الوطن الأم".

وفي سنة ١٩٩٨م وبعد أن زاد الإلحاح داخلاً وخارجاً للتخفيف من الصُّعوبات التي تواجه الأقباط سواء في بناء كنائسهم أو فيما لو رغبوا في ترميمها، وهو ما يتطلب استصدار قرار جمهوري، كان قرار السيّد رئيس الجمهورية في بداية العام ذاته بتفويض المحافظين سلطة رئيس الجمهورية في السَّمّاح بجزئية ترميم الكنائس. وفي ٢٨ ديسمبر من العام التالي أي سنة ١٩٩٩م صدر قرار جمهوري بإهداء اختصاص المحافظين في ذلك الأمر وإحالته إلى إدارات التَّنظيم والمباني بالمحليات.

حالة الأقباط في السَّنوات الأخيرة من القرن العشرين

يمكننا أن نوجز حالة الأقباط في مصر في السَّنين الأخيرة من القرن العشرين طبقاً لما ورد عنهم في التَّقْير الذي أصدرته وزارة الخارجيّة الأمريكيّة عن موقف الحريّات الدِّيْنيّة في العالم، والذي جاء فيه عن مصر^(٦١):
إن الدُّستور المصري يكفل حرّية العقيدة وحق ممارسة الشُّعائر الدِّيْنيّة لجميع المصريين ولكن في ظل حدود معينة ترسمها الدَّولة ... وعلى العموم

٦١ - جريدة وطني، الأحد، ١٠ أكتوبر، سنة ١٩٩٩م.

فإن الأقلية غير المسلمة من المصريين تمارس عبادتها بجرأة تامة ودون مضايقة من الأجهزة الرسمية المستولة ...

وكما يكفل الدستور المصري حرية العقيدة، فإن القانون المدني أيضاً لا يمنع تغيير العقيدة. ولكن في الوقت الذي لا توجد فيه أية عوائق قانونية أمام اعتناق غير المسلم للإسلام ... فإن المسلم الذي يتحوّل إلى ديانة أخرى قد يواجه عوائق قانونية تتمثل في اتهامه بخرق المادة (٩٨ - و) من قانون العقوبات والتي تمنع ازدراء أو سب الأديان السماوية، وذلك يعرضه للمساءلة القانونية التي قد تصل إلى القبض عليه واعتقاله بصفة مؤقتة، واستجوابه بواسطة الأجهزة الأمنية، علاوة على الصعوبات البالغة التي يواجهها عند محاولته تغيير اسمه أو ديانته في أوقافه الرسمية.

ومن الملاحظ أن المساواة غير مطلقة في بناء دور العبادة، فبينما لا توجد تشريعات سياسية تتحكّم في بناء أو تعديل أو ترميم المساجد، مازال فرمان عثمانى راجع إلى عام ١٨٥٦ معمولاً به، وبموجبه يلتزم غير المسلمين بالحصول على قرار جمهوري بالموافقة على بناء دار للعبادة قبل الشروع في ذلك. كما ينبغي قبل صدور ذلك القرار الجمهوري استيفاء شروط عشرة تتضمنها لائحة صادرة عام ١٩٣٤م عن وزارة الداخلية ... وكلها شروط ظلّت تتحكّم في بناء وتعديل وترميم دور العبادة غير الإسلامية حتى يناير ١٩٩٨ عندما نقل الرئيس مبارك سلطاته في الموافقة على التعديلات والترميمات المطلوبة للكنائس إلى المحافظين محتفظاً بسلطاته في الموافقة على بناء الكنائس الجديدة ... وبالرغم من ذلك فإن مسار اعتماد الأوراق وصدور الموافقات الخاصة بإنشاء وترميم الكنائس يظل يستهلك الكثير من الإجراءات المضنية والوقت الطويل، الأمر الذي يقف قاصراً على تلبية احتياجات المسيحيين، وذلك يتمثل في أنه بالرغم

من اعتماد الرئيس مبارك لجميع الطلبات التي قُدمت له للموافقة على بناء كنائس والتي بلغ عددها ٢٣٠ كنيسة خلال فترة ولايته، فإن المسيحيين يتضررون من التأخير الواضح - وغير المحدود في بعض الأحيان - الذي تتعرض له الطلبات لدى الأجهزة المسئولة قبل تقديمها لرئيس الجمهورية للاعتماد... كما يتضرر المسيحيون من أنه في حالات غير قليلة وبعد صدور القرارات الجمهورية بالموافقة على بناء كنائس أو قرارات المحافظين بالموافقة على ترميم وتحديد كنائس، فإن العمل في تنفيذ تلك القرارات ما يلبث أن يتوقف أو يتعرض للعرقلة من جانب الأجهزة المحليَّة والأمنيَّة...

وهناك بعض الممارسات التي تعكس مظاهر للتفرقة بين المصريين من قبل بعض موظفي الدولة، مثل الشكوك القائمة في دقة النسبة الإحصائية الرسمية لتعداد المسيحيين في مصر بالنسبة لعدد السُّكَّان، والتي يعتقد البعض أنها تقل عن الواقع الفعلي، وكذلك استبعاد الحقبة القبطية من التاريخ المصري في المناهج المدرسية، وإهمال النواحي القبطية في المجال الإعلامي، علاوة على ندرة تقلد المصريين الأقباط للمناصب القيادية والمراكز العليا في قطاعات عديدة في الدولة مثل التعليم والقضاء والشُّرطة والجيش والسُّلك الدبلوماسي.

ومن الأمور الجديرة بالتسجيل أنه قد ظهر في الفترة الأخيرة تيار رسمي يهدف إلى تحسين المناخ فيما يخص احترام وحماية حرية العبادة والحقوق المتصلة بها... فقد بادرت الدولة في يناير ١٩٩٩م بتشكيل لجنة من الأكاديميين والخبراء لمراجعة مناهج التاريخ بالمدارس بهدف تعويض القصور في أكثر من حقبة فيها، أهمها الحقبة القبطية والبيزنطية... بالإضافة إلى قيام التليفزيون المصري والإذاعة - المملوكين للدولة - بتوجيه جزء من برامجهما لتغطية مواد ذات طابع قبطي... كما تلاحظ

المخسار البرامج التي كانت تحمل طابعاً عنصرياً ... وقد خصّصت الصحف القومية مساحات متزايدة لتحرير مواد مسيحية أو للأقلام المسيحية تفوق ما كان مخصصاً من قبل ... وساهمت وزارة الثقافة في تنظيم ندوة دراسية عن الدور الوطني للكنيسة القبطية الأرثوذكسية، بينما تساهم وزارة السياحة في الوقت الحالي في الجهود المبذولة من أجل تنمية المواقع الأثرية الواقعة ضمن مسار العائلة المقدسة لدى هروبها إلى مصر ...

وتقوم السيدة الأولى سوزان مبارك برعاية جهود نشر وتنمية برامج القراءة والتثقيف التي تدعو للسماحة وتقدّم وسائل المعرفة للجميع وعلى الأخص الفتاة والمرأة المصرية^(٦٢) ...

وعلى جانب آخر قام وزير الأوقاف الدكتور حمدي زفروق عام ١٩٩٦م بتشكيل لجنة مناط بها دراسة أوضاع الأوقاف المتنازع عليها والتابعة للكنيسة القبطية الأرثوذكسية والتي كان قد تم الاستيلاء عليها تبعاً لقانون الإصلاح الزراعي بدءاً من عام ١٩٥٣م، وأسفرت جهود هذه اللجنة المشتركة بين هيئة الأوقاف المصرية وهيئة أوقاف الأقباط الأرثوذكس عن إرجاع حوالي ٨٠٠ فدان من أصل حوالي ١٥٠٠ فدان مستولى عليها ...

أما بخصوص الهجمات الإرهابية التي يتعرّض لها المصريون المسيحيون فقد راح ضحية تلك الهجمات ثمانية أشخاص في محافظة المنيا خلال عام ١٩٩٨م ولم تسجل أية حالات خلال النصف الأول من عام ١٩٩٩م، والأمر الجدير بالتسجيل أن جميع القيادات الرسمية والإسلامية والوطنية

٦٢- مشروع "مهرجان القراءة للجميع" هو مشروع ثقافي عظيم ترعاه السيدة حرم رئيس الجمهورية منذ أكثر من عشر سنوات. وأصدرت مكتبة الأسرة ١٧٠٠ كتاب (٣٠ مليون نسخة) بأسعار زهيدة، ومن بينها عدة كتب عن الحضارة القبطية وآثارها.

تستنكر وتشجب الهجمات التي يتعرَّض لها المسيحيون على أيدي الإرهابيين، وتظل الدولة على إصرارها نحو تعقب واعتقال وإدانة هؤلاء الإرهابيين ... (انتهى التقرير).

وفي سنة ١٩٩٨م وطبقاً لقرار من الكونجرس الأمريكي، أنشئت "لجنة الحريَّات الدنيَّة"، لتتبع موقف الحريَّات الدنيَّة في العالم، تحت مسميات "حماية الأقليات"، و"الحريَّات الدنيَّة"، و"حقوق الإنسان" ... الخ.

ففي فبراير سنة ٢٠٠١م أصدرت وزارة الخارجية الأمريكيَّة التَّقرير رقم (٢٥) لحقوق الإنسان في العالم^(٦٣)، وفي ١٩ ورقة منه تحدَّث التَّقرير عن وضع حقوق الإنسان في مصر، وأشار إلى أن تحسناً واضحاً في الأوضاع الداخليَّة بدأ يسود المجتمع المصري بسبب تراجع نشاطات الجماعات الإرهابيَّة، حيث تم الإفراج عن ١٣٠٠ معتقل خلال سنة ٢٠٠٠م. وأشار التَّقرير أيضاً إلى حادثة الكُشْح كنموذج للاحتكاكات غير المبررة التي تحدث بين المسلمين والمسيحيين، مما دفع لجنة الحريَّات الدنيَّة بالكونجرس الأمريكي إلى تنظيم زيارة لمصر للوقوف على الحقيقة.

وبالفعل وصل أعضاء اللُّجنة إلى القاهرة في مارس سنة ٢٠٠١م ضمن جولة في عدَّة دول أخرى بالمنطقة. وهي لجنة مستقلة، ترفع بعد عودتها تقريراً إلى الكونجرس والرئيس الأمريكي. وتقابل أعضاء اللُّجنة مع قداسة البابا شنودة الثالث، وفضيلة الدكتور سيِّد طنطاوي شيخ الجامع الأزهر، وبعض الشَّخصيَّات المصريَّة العامة. واندھش أعضاء اللُّجنة من اتفاق الأقباط والمسلمين المصريين على رفض مهمتها. بل إن ردود الفعل الغاضبة أثارت دهشة الأعضاء فرفضوا الإجابة عن أية أسئلة في وسائل

٦٣- أو بتعبير أدق في الـ ١٩٥ دولة التي تتلقى معونات أمريكية.

الإعلام المحليّة.

وفي يوم ٧ ديسمبر سنة ٢٠٠٥م أصدر الرئيس حسني مبارك قراراً جمهورياً رقم ٢٩١ لسنة ٢٠٠٥م^(٦٤) بتفويض المحافظين في الترخيص للطوائف الدنيّة المسيحيّة بهدم كنيسة وإقامة كنيسة محلّها في ذات موقعها وإقامة بناء أو إجراء تعديلات أو توسّعات في كنيسة قائمة. وهي خطوة على الطريق.

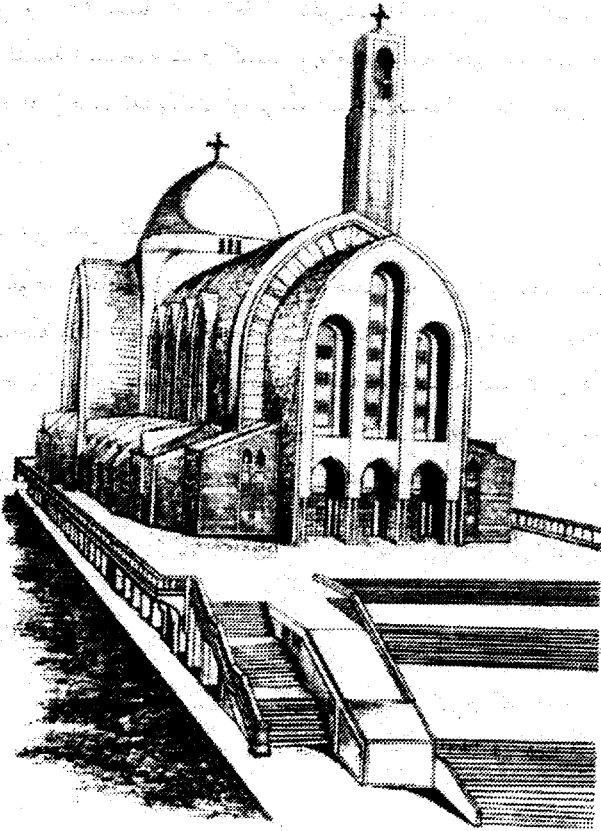
وفيما يلي نص القرار:

- "يفوض المحافظون، كل في دائرة اختصاصه، في الترخيص للطوائف الدنيّة المسيحيّة بهدم كنيسة وإقامة كنيسة محلّها في ذات موقعها، وإقامة بناء أو إجراء تعديلات أو توسّعات في كنيسة قائمة. ويجب البت في طلب الترخيص - بعد أخذ رأي الجهات المعنية - خلال ثلاثين يوماً من تاريخ تقديمه مشفوعاً بالأوراق اللازمة. ولا يجوز رفض الطلب إلا بقرار مسبّب".

- "يكون ترميم أو تدعيم منشآت كنيسة قائمة بموجب إخطار كتابي من مسؤولي الكنيسة إلى الجهة الإدارية المختصة بشئون التنظيم في كل محافظة".

وإن المرء ليعجب من أن تظل كنيسة مصر - اليوم كما أمس - حريصة أن تحفظ ثوب وطنيتها نقياً، ففاح أريج ريادتها في هذا المضمار، وبلغ شذاه إلى أقصاء الأرض.

٦٤- هذا القرار يلغي قرار رئيس الجمهورية رقم ٤٥٣ لسنة ١٩٩٩م.



الباب الثاني

ركائز كنسيّة في كنيسة مصر

الفصل الأول

اللُّغَةُ الْقِبْطِيَّة

تقهقرت اللُّغة اليونانيَّة في مصر مع رحيل الرُّومان إلى القسطنطينيَّة، وظلَّت اللُّغة القبطيَّة لغة الصِّراع الدَّائر بين العرب والشَّعب القبطي. فقد ساعد الفتح العربي أولاً على إحياء اللُّغة القبطيَّة وذلك على حساب اللُّغة اليونانيَّة التي كانت اللُّغة الرِّسميَّة للبلاد منذ عهد البطالسة. فالدروس الدِّينيَّة التي كانت تُقرأ باليونانيَّة وتُشرح بالقبطيَّة، صارت لا تُقرأ إلا باللُّغة القبطيَّة. كذلك نجد أن البلاد والأقاليم التي كانت تغلب عليها الأسماء اليونانيَّة، أصبحت تعرف بأسمائها القبطيَّة التي ترجع إلى الأسماء المصريَّة القديمة^(١). على أن هذا كله كان بعثاً لقدم لم يندثر تماماً، فإن اللُّغة القبطيَّة أو الأسماء المصريَّة كانت قد غلبت على أمرها حيناً من الدهر، ثم استعادت مكانتها بعد الفتح العربي^(٢).

وبعد الفتح العربي لمصر، وفي الوقت الذي حلَّ فيه العرب محلَّ البيزنطيين بمصر، كانت اللُّغة القبطيَّة التي قاومت طغيان اللُّغة الإغريقيَّة أي اليونانيَّة، هي لغة التَّخاطب بين سُكَّان البلاد عامة، بل إن بعض العرب تعلموا القبطيَّة بل تخاطبوا بها كالقاضي خير بن نعيم وغيره، وإن الثلاثمائة برديَّة اليونانيَّة القبطيَّة التي نشرها العالم كرام Crum سنة ١٩١٠م والتي يرجع تاريخها إلى سنة ٦٩٨ - ٧٢٢م تدلُّ على استمرار استخدام اللُّغة اليونانيَّة حتى هذا الوقت.

١ - فمثلاً نجد اسم أمِّ حُميم بدلاً من يانوبوليس Panopolis، وأهناسيا بدلاً من هيراكليوبوليس Héracléopolis، والأشمونين بدلاً من هرموبوليس ... الخ.

٢ - د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ١٩٠، ١٩١.

أما أسرى القبط من الرجال والنساء الذين سباهم عمرو بن العاص ووزعهم كجوار وعبيد على قادة جيشه ورجاله المقربين، فقد اضطرتهم ظروف العبودية إلى القيام بدور مزدوج، حيث علموا الأقربين منهم الكثير من المفردات القبطية، كما اضطروا إلى تعلم وإتقان اللغة العربية، لغة السادة المالكين لأجسادهم، مثل عبد الله بن عبد الرحمن، وهو أحد الذين سباهم العرب في قرية بلهيب، وقد أصبح عريف الموالي، أو رئيس العبيد بعد أن اعتنق الإسلام وتعلم اللغة العربية.

وكما حدث مع عدد من نساء (سلطيس) اللاتي اتخذهن العرب جوار وإماء لهم، بعد أن استباح عمرو مدينة سلطيس ووزع نساءها على قادة جيشه، أرسل بالجزء المتبقي منهن إلى بلاده البعيدة في مكة والمدينة واليمن. ومن أبرز أبناء المصريات أو القبطيات الأسيرات عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ابن القائد العربي المعروف معاوية بن حديج الذي لعب دوراً كبيراً في توطيد دعائم الدولة الأموية بمصر. وهناك شواهد تاريخية على معرفة ابنه عبد الرحمن للغة القبطية التي تعلمها من أمه القبطية - إحدى سبايا سلطيس - فيروي الكندي في خير خروج العلويين بالفسطاط سنة ١٤٥هـ أن بن حديج - عبد الرحمن - وقف على الباب الذي ناحية بيت المال، فكلم خالد بن سعيد وهو فوق ظهر المسجد كلمة قبطية، مما يدل معرفة الاثنين بهما، وربما آخرين أيضاً^(٣).

وبدأ العرب بعد فتح مصر بأقل من نصف قرن يتجهون إلى تعريب

٣- هناك شواهد تاريخية على رواج اتخاذ قادة آخرين لجوار قبطيات، وإجهاهم منهن أيضاً مثل: عبد الرحمن جعفر بن ربيعة، الذي أنجب ابنه عمران من جارته السلطيسية. وعقبة؛ الذي أنجب ابنه عياض وابنه عبيدة من جاريتين قبطيتين على ما يبدو. وخارجة بن حذافة القرشي؛ الذي أنجب ابنه عون من جارته السلطيسية ... وغيرهم.
انظر: سناء المصري، هوامش الفتح العربي، حكايات الدخول.

البلاد، وإلى جعل اللُّغة العربيَّة لغة رسمِيَّة، ذلك لعدم معرفتهم باللُّغة القبطيَّة. ويبدو أن غموض اللُّغة القبطيَّة بالنسبة للعرب، وعدم فهمهم لها في العموم، وممارسة القبط لشتى طقوس حياتهم اليوميَّة بها، جعل العرب يقلقون من حالة الإهتام المسيطرة عليهم، ولذا كانوا يلجأون إلى كل وسائل التَّرجمة المتاحة لترع ستار الإهتام المستغلق بينهم وبين الشَّعب الآخر. فيذكر الأنبا ساويرس أن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان (٦٥-٨٦هـ / ٦٥٨-٧٠٥م) يأمر بترجمة الإنجيل وعدَّة كتب دينيَّة مسيحيَّة أخرى إلى اللُّغة العربيَّة، ولهذا الغرض قرَّب إليه شماساً يعرف اللُّغة العربيَّة، يُدعى بنيامين، وذلك ليعرف المسلمون إذا كان في هذه الكتب ما يمس الدِّين الإسلامي بسوء. مما يعني أن هذا الشَّماس قد أجاد اللُّغة العربيَّة حتى استطاع ترجمة الإنجيل، وكتب الكيمياء، ومختلف الكُتب الأخرى للأمير المتوجَّس شراً من الأقباط.

وبعد تلك الحادثة بسنة واحدة كان قرار تعريب الدَّواوين على يد عبد الله بن يربوع الغزاري من أهل حمص، إذ كانت الدَّواوين في البلاد المفتوحة حتى مجئ عبد الملك بن مروان تُكتب بلغات البلاد المحليَّة، فكانت تُكتب باليونانيَّة في الشَّام، وبالهلويَّة في العراق والأمصار الشَّرقيَّة، وبالقبطيَّة واليونانيَّة في مصر. وكان ذلك طبعياً لقلَّة خيرة العرب بأمور الإدارة، ولأن الكتابة فن خاص ...

أما في مصر فقد بُدئ في تعريب دواوينها في خلافة الوليد بن عبد الملك وذلك في سنة ٨٧هـ (٧٠٦م) في ولاية عبد الله بن عبد الملك. وهكذا أصبحت الدَّولة من الناحيَّة السِّياسيَّة عربيَّة بمعنى أكمل. وفي السَّنوات الأولى زاد اهتمام بعض الأقباط بتعلُّم اللُّغة العربيَّة، وخصوصاً العاملين بديوان المحاسبة، حرصاً على وظائفهم وموقعهم كهمزة وصل بين

القيادة العربية وشيئاً القرى القبطية، ولذلك فإننا نلاحظ أن تعريب الدواوين كان يخصص المركز بالأساس، أما (موازيت) القرى، أي السُلطة القروية، فقد ظلت تتعامل باللُّغة القبطية حتى زمن متأخر جداً.

فأصبحت اللُّغة العربية لغة الدواوين، ولغة الإدارة، فضلاً عن أنها لغة الثقافة. بالإضافة إلى كونها لغة الدين^(٤). ولم تحل اللُّغة العربية محل القبطية بهذه البساطة، ففي الوقت الذي كانت الفئات العليا من القبط تُقبل على تعلم لغة الفاتح لاستمرار المحافظة على مصالحها، كانت قاعدة الشعب القبطي معفاة من هذه الحاجة امتثالاً للأمر الواقع في القرى المغلقة والمجهدة. وكان تعريب مصر بطيئاً في بدايته، فالبابا ميخائيل (٧٢٨-٧٥٢م) تقدّم بطلب إلى الوالي عبد الملك بن مروان مكتوباً باللُّغة القبطية، و مترجماً إلى اللُّغة العربية، وإذ لم يكن البابا يعرف كلمة واحدة عربية فقد اضطر للاستعانة بمترجم للتحدث مع الخليفة مروان الثاني. لكن في خلال القرن الثامن الميلادي ظهر تدهور اللُّغة القبطية ظهوراً بيئاً، وظل في اضطراب سريع زهاء القرن التاسع.

وبعد القرن التاسع طغت اللُّغة العربية على اللُّغة القبطية في الكتابة، وكان أول من ألف بالعربية من الأقباط هو الأنبا ساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين.

ويوجد في دير سانت كاترين ٦٠٠ مجلد من المخطوطات العربية يرجع بعضها إلى القرن الثامن الميلادي، وتُعد أقدم الكُتب المسيحية العربية الموجودة في العالم، إذ أنها تزيد بمائة سنة عن أقدم الكُتب العربية المسيحية الموجودة بالمتحف البريطاني التي يرجع تاريخها إلى القرن التاسع فقط، ولكن اتضح أن مخطوطات دير سانت كاترين خُطت في سوريا لا

في مصر^(٥). ولكنني وجدتُ بالبحث أن أقدم مخطوط كُتِب بالعربية في مصر يعود إلى القرن السَّابع، وهو عظة قالها أنبا ساويرس أسقف مدينة قفط، قالها في مرضه الأخير^(٦).

وهناك نص شهير عند الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين (القرن العاشر) يصرح فيه بأن اللُّغة القبطيَّة كادت تندثر في جميع أنحاء مصر، وأن جزءاً كبيراً من السُّكَّان لا يعرفون اليونانيَّة أو القبطيَّة.

واستمر الأقباط بعد تعريب الدَّواوين يتكلَّمون لغتهم القبطيَّة ويكتبونها حتى أواخر القرن العاشر الميلادي. وظلَّ البعض يتحدثون القبطيَّة إلى النصف الثاني من القرن الحادي عشر^(٧).

وما لبثت اللُّغة القبطيَّة أن تلقت ضربة قاسمة على يد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢١م) الذي أصدر أوامر مشدَّدة بإبطال استخدامها نهائيّاً في المنازل وفي الطُّرقات العامة أيضاً ومعاقبة كل من يستعملها بقطع لسانه. كما ضيَّق على الأولاد والبنات والسَيِّدات في البيوت بالأمر بقطع لسان كل سيِّدة تتكلَّم بها مع أولادها وأطفالها. واقتدى بالحاكم الطاغية في محاربة اللُّغة القبطيَّة كثيرون ممن جاءوا بعده. وهكذا بات استخدام اللُّغة العربيَّة محصوراً داخل جدران الكنائس والأديرة^(٨). وإزاء هذا الحصار الشَّديد للغة والتضييق على الأقباط إلى هذا الحد أمر البابا غبريال بن تريك (١١٣١ - ١١٤٥م) في قانونه العاشر أن

٥ - مرقس سميكة باشا بمساعدة يسى عبد المسيح أفندي، فهارس المخطوطات القبطيَّة والعربيَّة الموجودة بالمتحف القبطي والدار البطريركيَّة وأهم كنائس القاهرة والإسكندرية وأديرة القطر المصري، الجزء الأول، القاهرة ١٩٣٩م، ص ٢٥

6. Bulletin de la Société d'Archéologie Copte (BSAC), t. V, 1939, p. 165.

٧ - سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ١٨٩

٨ - وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها، بدون مؤلف، نيويورك، ١٩٨٩م.

يعلّم الآباء أولادهم في البيوت كل صباح دروساً في اللُّغة العربيّة. وأمر أيضاً أن تُتلى القراءات الكنسيّة باللُّغة العربيّة في الكنيسة بعد قراءتها باللُّغة القبطيّة.

وتقول الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف: لسنا نعرف بالضبط متى أصبحت اللُّغة العربيّة هي لغت التّخاطب بين المصريين. ففي عهد الخليفة المأمون الذي أصبح فيه الشّعب المصري يدين معظم أفراده بالإسلام، كانت اللُّغة القبطيّة لا تزال لغة التّخاطب بين المصريين. ويدلنا على ذلك ما ذكره المقرئ في كلامه عن زيارة المأمون لمصر إذ يقول: "وكان لا يمشی أبداً إلاّ والتّراجمة بين يديه من كل حبس" (٩).

وتدل كتابات المقرئ في أوائل القرن الخامس عشر على أن اللُّغة القبطيّة كانت لغة حية آنذاك. وعندما يتحدّث عن الأديرة القريبة من أسيوط - على سبيل المثال - يؤكّد أن الرّهبان هناك يستخدمون اللّهجة الصّعيدية، وأن النّساء والأطفال في مصر العُليا لا يتحدّثون سوى اللّهجة الصّعيدية. ويذكر كذلك عن "درنكة" أن سكانها مسيحيون يتحدّث عظاموهم وبسطاؤهم القبطيّة ويشرحونها بالعربيّة. وتحدّث أيضاً عن عادة ربما ما زالت موجودة في إسنا، وكانت موجودة في أواخر القرن التّاسع عشر، وهي أن المسيحيين كانوا يشاركون أفرّاح المسلمين حيث يقودون موكب العريس خلال الشّوارع وهم يردّدون نصوصاً وأمثالاً باللّهجة القبطيّة الصّعيدية.

ويذكر نيل Neal في مؤلّفه "الكنيسة الشّرقية" (الجزء الأوّل ص ١١٨)، عن مطرائيّة في جنوب مصر أن "أقباطها متعلّمون أفضل من

غيرهم في سائر أنحاء الكرازة، وأهم جميعاً يتحدثون القبطيّة بينما لا يزيد عدد الذين يفهمونها في القاهرة عن اثنين“ ولعله كان مبالغاً في ذلك.

ويقول المقريري أيضاً أن نصارى قرى الصّعيد الأعلى (حتى القرن الخامس عشر) كانوا يتكلّمون القبطي الصّعيدي، وأن نساء نصارى الصّعيد وأولادهم لا يكادون يتكلّمون إلاّ القبطيّة الصّعيديّة، وأن لهم معرفة أيضاً باللّغة الرّوميّة أي اليونانيّة^(١٠).

وفي الصّعيد كانت هناك أيضاً لهجات قبطيّة فرعيّة مثل اللّهجة الأهميّة التي كانت تُستعمل في أخميم واللّهجة الأسيوطيّة التي كانت تُستعمل في أسيوط، واللّهجة الفيوميّة التي كانت تُستعمل في الفيوم، أما في شرق الدلتا فقد كان القبط يتحدثون باللّهجة البشموريّة^(١١).

ويقول العلامة ماسبيرو في محاضرة له عن ”صلة المصريين الأقدمين بالمصريين الحاليين“ والتي ألقاها في القاهرة سنة ١٩٠٨: ”من المؤكّد أن سُكّان صعيد مصر كانوا يتكلّمون ويكتبون باللّغة القبطيّة في السّنين الأولى من القرن السّادس عشر، في أوائل حكم الأتراك...“.

ولكن ليس معنى هذا أن اللّغة القبطيّة اندثرت أو زالت نهائيّاً، وإنما بقيت محصورة في نطاق ضيق، ولا زالت تدرّس حتى اليوم. وعموماً يمكننا القول أن اللّغة العربيّة قد سيطرت في المدن والسّهول الكبيرة، بينما بقيت اللّغات القديمة المحليّة سائدة في الجبال زمنّاً طويلاً. وفي القرن السّابع عشر ماتت اللّغة القبطيّة تماماً.

١٠ - د. سلام شافعي محمود، أهل النّعمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ١٦٧

١١ - د. سلام شافعي محمود، أهل النّعمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، مرجع سابق، ص ١٦٧

وعوض الشعب المصري هذا بفرض شخصيته على العربية، فلم يكذب على اللغة العربية في مصر بضعة قرون حتى تأثرت بالمصريين، ولا زالت اللغة العامية التي يتكلم بها المصريون تحوي مئات من الكلمات ذات الأصول القبطية، بل ذات المنطوق القبطي الخالص^(١٢). وإن كثيراً من الألفاظ في اللغة العامية المصرية ألفاظاً قبطية. وليس الألفاظ فحسب بل أيضاً طرائق التعبير والمصطلحات وتركيب الجمل. فالنفي والاستفهام في العامية يجري على أسلوب اللغة القبطية فيهما. كما يطابق نطق بعض الحروف العربية نفسها نطقها في القبطية، وكذلك الحركات.

وما زالت العامية المصرية هي لغة الشعب، لغة الكثرة، لغة الحياة اليومية، فيها الكثير من اللغة المصرية القديمة، واللغة القبطية التي عاصرت دخول اللغة العربية، والتي هي امتداد اللغة الميروغليفيّة. وعامية مصر هي أعذب العاميات في الأقطار العربية وأسلسها في الفهم وأصحها أيضاً، وأيسرها وأكثرها شهرة. وبعد أن تكلمت مصر العربية إلا أن أصحاب اللغة الأصليين يرجعون عند مظنة الخطأ والصواب إلى القاموس الذي وضعه ابن منظور المصري: "لسان العرب"، وهذا يكفي^(١٣).

وتضيف الدكتورة سيدة كاشف بالقول: المعروف أن الأسماء العربية كثير من بلدان القطر المصري الآن مأخوذة من الأسماء المصرية القديمة، كما أننا نستعمل في الوقت الحالي كثيراً من الألفاظ العامية التي ترجع إلى

١٢ - منذ ولادة الطفل المصري يدخل إلى أذنيه أولى الكلمات التي يسمعها، وهي كلمات قبطية قديمة: مَم - موم (القبطية)، إمبو - إمبمو (القبطية)، واوا - ألم أو وجع، بيبه - برغوث، كخ - قذارة، شاية - قميص، تانا - امشي، ببعع - عفريت، تاوا - تعاكس، بيبخ - عفريت أو شيطان،... الخ بالإضافة إلى الألفاظ الكثيرة التي تعد بالمئات في لعب الأطفال وأنواع الأطعمة الوطنية.

١٣ - د. نعمات أحمد فؤاد، شخصية مصر، مرجع سابق.

اللُّغة المصريَّة القديمة وإلى اللُّغة القبطيَّة التي اشتقت منها^(١٤).

ومن الدَّرَاسَاتِ القِيَّمة التي صدرت في هذا المجال، كتاب ”آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحاليَّة^(١٥)“ للأستاذ محرم كمال. فالكاتب يصوِّرُ بالكلمة والصُّورة كثيراً من العادات المصريَّة التي لازالت تُمارَس حتى اليوم، وهي ذات أصول فرعونية قديمة، بعد أن توالَت على مصر كل أنواع التَّقافات اليونانيَّة والرُّومانيَّة والفارسيَّة والعثمانيَّة والعربيَّة.

وفي ختام الفصل الأوَّل يقول المؤلِّف: ”فنحن كما رأينا نعيش في نطاق تركة خلفها لنا القدماء، تشدنا إليها سلسلة من التَّقاليد والعادات ومختلف الأشياء التي تربطنا بها ربطاً وثيقاً لا نجد إلى فصم عروته سبيلاً، فنحن كما كنا وسنظل دائماً أبناء الفراعنة، وإنا بهذه التُّركة بكل ما فيها من محاسن وعيوب لجد فخورين^(١٦)“.

ويقول في موضع آخر: ”درج كثير من النَّاس على الظَّن بأن جميع مظاهر حياتنا الحاليَّة ومقوماتها، بما تشمله من تقاليد وعادات، وآداب واجتماعيَّات، ترجع إلى أصل عربي إسلامي فحسب، ولكننا قلنا وما نزال نقول أن الحقيقة التَّاريخيَّة تخالف ذلك إلى حد كبير. فهناك من الأدلة والقرائن ما يثبت لنا أن المصريين القُدماء الذين سكنوا مصر القديمة منذ آلاف السِّنِّين، لا يزالون أحياء يعيشون بأرواحهم في أبنائهم المصريين الحاليين. نحن لا ننكر أن أدوار التَّاريخ المختلفة قد غيَّرت لُغة البلاد ودينها جملة مرَّات، ولكن الغزوات التي توالَت على مصر لم تنل من

١٤- د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ١٩١، ٢٦٠.

١٥- محرم كمال، آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحاليَّة، مهرجان القراءة للجميع، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م.

١٦- محرم كمال، آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحاليَّة، مرجع سابق، ص ٣٠.

مصرية سكاها^(١٧)“.

وهكذا عبرت على الكنيسة القبطية ثلاث لغات هي اليونانية والقبطية والعربية. ففي أواخر القرن الخامس الميلادي أهملت اللغة اليونانية، لغة الحضارة آنذاك، بعد الأحداث المؤسفة التي تعرض لها الأقباط من جرأء مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م، حيث رفض الأقباط كل ما يمت إلى الروم بصلة، حتى لغتهم أيضاً، دون أن يدركوا مقدار الخطأ السوخيم الذي وقعوا فيه إذ عزلوا أنفسهم بأنفسهم عن ماضي كنيستهم ذاتها فانقطعت الصلة بين ماضيهم وحاضرهم وبتوا كأنهم سيبدأون حياتهم من جديد، وكانت الصّربة القاضية للغة اليونانية مع خروج الروم من مصر بعد دخول العرب إليها سنة ٦٤٢م. وما أن أفاقوا حيناً إلى لغتهم حتى كان التضييق على استخدام اللغة القبطية قد بدأ منذ أوائل القرن الثامن وكان القضاء عليها في القرن الحادي عشر. وبعد أن حلت اللغة العربية محل القبطية ظلت اللغة العربية ضعيفة عند أبناء الكنيسة القبطية، لم يتمكن منها سوى قليلين كان أولهم الأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين في القرن العاشر، وهو أول من ألف بالعربية في مصر. وفي القرن العشرين أشار الدكتور طه حسين إلى هذه الظاهرة المؤسفة التي لفتت نظره حين يقول^(١٨): ”ولابد من أن أصارح المثقفين من الأقباط بأنهم مقصرون أشد التقصير في ذات تعليمهم الديني، وبأن كل شيء يمكن أن يفهم إلا هذا الفرق الشنيع بينهم وبين قسيسهم ورجالهم في الثقافة. ولقد دعيتي الظروف الحسنة والسئية، كما تدعو غيري من المصريين، إلى مشاركة بعض الأصدقاء من الأقباط فيما يلم بهم من الخير والشر، وشهود بعض حفلاتهم الدينية في الكنائس وفي الفنادق وفي الدور. فلست أدري

١٧- نفس المرجع، ص ٣٣

١٨- د. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، مرجع سابق، ص ٢٦٨

كيف أصف هذا الألم الذي يثيره في نفسي الاستماع لصلواتهم، يتلوها في لغة عربيَّة محطَّمة، أقل ما توصف به أنها لا تلائم كرامة الدِّين مهما يكن، ولا تلائم ما ينبغي للمصريين جميعاً من الثَّقافة اللُّغوية. ولقد عجزت أحياناً عن مقاومة هذا الضيق، فصارحت به بعض كبار الأقباط، وألححت عليهم في وجوب العناية بالترجمة الصَّحيحة النقيَّة لكتبهم المقدَّسة إلى اللُّغة العربيَّة، وفي تعويد القسيسين النُّطق الصَّحيح النقي بهذه اللغة ...“.

لقد كتب الدكتور طه حسين هذا الكلام للمرَّة الأولى في سنة ١٩٣٨م حين لم تكن في مصر وسائل سمعيَّة وبصريَّة كما نعرفها اليوم. فكان الضَّعف اللُّغوي وركاكته محلياً في أسوأ الأحوال. أمَّا أن نسمع ونشاهد تسجيلات بالصَّوت والصُّورة، أو كتب مطبوعة تخرج من الكنيسة القبطيَّة من هذا أو من ذاك، مليئة بهذه الأخطاء اللُّغوية التي تعبَّر عن جهل صارخ بأقل مقوِّمات اللُّغة العربيَّة فهذا مما يؤسِّف له كل الأسف، إذ قد استشرى المرض واستفحل وقد دخلنا القرن الحادي والعشرين. إنه ثَقيل على النَّفس جداً أن نرى القبطي وقد فقد ناصية أي لغة ولو واحدة يجيد الحديث أو الكتابة بها. ولم تكن اليونانيَّة أو القبطيَّة أو العربيَّة هي لغة السيِّد المسيح له المجد. فلا ينبغي أبداً أن نربط بين اللُّغة والدِّين، لأن المسيحيَّة لا تعرف هذا القيد، فهي دين كل جنس وعرق ولغة.

ويستطرد عميد الأدب العربي في موضع آخر ليقول: ”... فلا بد إذاً من أن يثَقَّف هؤلاء القسيسون تثقيفاً ملائماً للحياة الحديثة والعصر الحديث حتى لا يحوطوا إلى النَّاس باسم الدِّين ثقافة تضطرهم إلى الحيرة والاضطراب والعجز عن احتمال أعباء الحياة المدنيَّة. والكنيسة القبطيَّة مجد مصري قديم، ومقومٌ من مقوِّمات الوطن المصري. فلا بد من أن يكون مجدها الحديث ملائماً لمجدها القديم ... وما ينبغي أن نقارن بين رجال

الكنيسة القبطية ورجال الكنائس الأخرى فنرى هذه الفروق التي أقل ما توصف به أنها لا تلائم الكرامة المصرية، ولا ينبغي أن يرضى عنها المصريون... فليست اللغة العربية لغة المسلمين وحدهم، ولكنها لغة الذين يتكلمونها مهما تختلف أديانهم. وما دام الأقباط مصريين، وما دامت اللغة العربية مقوماً من مقومات الوحدة المصرية والوطن المصري، فلا بد من أن يتشقف بها رجال الدين من المسيحيين... إن اللغة العربية هي اللغة الوطنية لمصر، فيجب أن يكون حظ الأقباط من إجادتها وإتقان العلم بها والقدرة على استعمالها كحظ غيرهم من المصريين^(١٩). ولكن هذه الصورة قد تغيرت كثيراً الآن بعد أن ارتفع المستوى الثقافي لرجال الدين.

وفي الحقيقة أنه إن كان لمصر في عصر الولاة نصيب في حفظ تراث اليونان والمسيحية الشرقية أو نقله إلى الغرب، فإنما هو في تركها علماء الروم يغادرون مصر بمؤلفاتهم وكتبهم زمن الفتح، وفي عدم تعرضها لمدرسة الإسكندرية أو للأديرة التي كانت مراكز الثقافة المسيحية في مصر^(٢٠).

نخلص إلى أن المحنة التي لحقت بالأقباط كانت ذات ثلاثة أبعاد: البعد الأول، كان بعد مجمع خلقيدونية مباشرة سنة ٤٥١م، عندما انعزلت الكنيسة القبطية عن كل ما يمت للكنيسة البيزنطية بصلة حتى لغتها اليونانية، وبإهمال اللغة اليونانية انفصلت الكنيسة القبطية عن أساسيات لاهوتها وعقيدتها وتعليم آباؤها المدون كله باليونانية.

والبعد الثاني، كان ضياع اللغة القبطية بعد فتح العرب لمصر، وإن كان قد حدث ذلك بعد جهد جهيد، فباتت كل مخطوطات الكنيسة وكتابتها وتأليفها وحياتها الليتورجية المدونة بالقبطية طلاسماً لا يعرف أن

١٩ - نفس المرجع، ص ١٦٧ - ٢٦٨

٢٠ - د. سيدة إسماعيل كاشف، مصر في فجر الإسلام، مرجع سابق، ص ٣٣٦

يفكها أبناء الذين كتبوها، فانعزل حاضر الكنيسة عن ماضيها، وهي أعنف محنة أدبية يتعرض لها شعب من الشعوب، حين تفقد الأمة صلتها بماضيها. وكان على القبطي الرأغب في الرجوع إلى تراث آبائه أن يقرأه بلغة أجنبية حية، فصار كمن لا يستطيع أن يقيت نفسه بنفسه، ويلتمس من يعد له الطعام ويطعمه أيضاً، وهو في ذلك ليس له أن يختار ما يقدم له، حلواً كان أم مرأ.

والبعد الثالث، اكتملت به المحنة عندما صارت اللغة العربية نفسها لغة غير متقنة لدي كثير من الأقباط في كثير من الأوقات.

فكانت هذه الضائقة الثلاثية الأبعاد كفيلاً بأن تقضي على حضارة أعرق أمة في الأرض، وأقدمها على الإطلاق. ولكن لولا وعد الرب الذي بارك بنيه الذين يعرفونه في مصر «مبارك شعبي مصر» (اشعيا ٢٥: ١٩) لما صمدت الكنيسة القبطية حتى اليوم، ولا عجب في ذلك، فأين هي كنيسة شمال أفريقيا بكل مجدها واتساعها القديم؟!.

إن ذوبان أي هوية يبدأ بإهمال اللغة ويكتمل بضياعها.



الفصل الثاني

الطَّقس القبطي

الطقس القبطي هو طقس وقورٌ قنوعٌ تأمليٌّ مهيبٌ، طويلٌ رتيبٌ، يتبعد عن أيّ أبهة أو بهرجة خارجيّة، أو مراسيم تنحو إلى الفخامة. وهو يفسح مكاناً رئيسياً للمشاركة الشعبيّة، ولاسيّما في الليتورجيّة أكثر من أيّ طقس آخر. فحركاته وتعبيراته بسيطةٌ بديعة، لا يحوي كثيراً من الأشعار التأمليّة أو الرموز البراقة.

أما موسيقاه فهي تحمل أريج عصور موعلة في القدم، قال عنها عالم موسيقي من جامعة أكسفورد، هو الدكتور نيولاند سميث، وذلك في تقرير ختامي له بعد أن قضى بضع سنوات في مصر يسجل ألبانها وموسيقاها على النوتة الموسيقيّة، فيقول: "... إن ما نعرفه اليوم عن الموسيقى القبطيّة يبدو كالأشعة الخاطفة من أضواء فن عظيم مجيد. وهذه الموسيقى التي انتقلت إلينا منذ عصور سحيقة في القدم، ينبغي أن نضعها في موضعها الصّحيح في عالم الموسيقى، وينبغي أن يقدرها علماء الغرب، كالقنطرة ما بين الموسيقى الشرقيّة الحديثة، والموسيقى الغربيّة، إنها فن نبيل عظيم، يحيط بها هالة من الرّوحانيّة المطلقة، التي تفتقر إليها موسيقى عصرنا الحاضر".

وعن رأيه الذي نشره في إبريل سنة ١٩٣١م في جريدة The Morning Post يقول: "إن الموسيقى الغربيّة قد أخذت واستقت في الأصل من ينبوع مصر القديمة".

إن الموسيقى القبطيّة والألحان القبطيّة هي ميراث عظيم سحيق في القدم لموسيقى مصر الفرعونيّة. ولم ينحصر تأثير هذه الموسيقى الفرعونيّة

على الموسيقى والألحان الكنسيّة في مصر المسيحيّة فحسب، بل امتد تأثيرها أيضاً ليشمل الفن المصري الشّعبي، والموسيقى الوطنية، بل وحتى الإنشاد الديني الإسلامي في مصر بالذات.

وإن طريقة إنشاد القرآن التي تُعرف باسم "التَّجويد"، قد نشأت في مصر اعتماداً على الإنشاد الذي أخذته الكنيسة القبطيّة من الغناء الديني في مصر الفرعونيّة. ولقد أصبح "التَّجويد" الآن هو الإنشاد السائد في العالم العربي للقرآن^(١).

أما عن المراسيم والاحتفالات الدينيّة القديمة في الطُّقس القبطي القديم فلنسنا نعرف عنها ما نعرفه عن الطُّقوس الأخرى كالطُّقس السرياني مثلاً، فالآباء الإسكندريون وهم أكثر صوفيّة من الأنطاكيين لم يتركوا لنا وصفاً كافياً لتلك المراسيم والاحتفالات الدينيّة.

ولاهميّة معرفة مصادر الطُّقوس القبطيّة، فقد أفردت السلسلة الأولى من موسوعة "الدُّرّة الطُّقسيّة"، للبحث في هذه المصادر القديمة، ولقد حوت هذه السلسلة الأولى كتاباً لم تصدر من قبل في المكتبة القبطيّة - ليس افتخاراً فالعمل هو بمعونة الرّب ومن أجله - بل تنبيهاً إلى أهميّة هذه السلسلة الأولى برغم صعوبة مادتها، والتي لهذا السبب لا تروق غالباً للقارئ غير المتخصّص.

أما أهم ثلاثة مصادر عن الطُّقس القبطي في القرون الوسطى فهي:
+ كتاب "الجوهرة التّقيسة في علوم الكنيسة" ليوحنا بن أبي زكريا بن سباع، والذي عاش بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، وهو يقع في ١١٣ باباً، وتُعد مخطوطة دار الكُتُب المصريّة

١- نجيب محفوظ، وطني مصر، حوارات مع محمد سلماوي، الهيئة المصريّة العامة للكتاب،

(لاهورت رقم ٢٢١) هي أقدم مخطوطة معروفة لهذا الكتاب. وقد نُشر الكتاب للمرَّة الأولى في القاهرة سنة ١٩٠٢م، ثمَّ نشره المرحوم مرقس جرجس مرَّة ثانية في القاهرة في العشرينيَّات من القرن العشرين، ولكنهما نشرتان فيهما كثير من التَّنقيح. وفي سنة ١٩٦٦م نشر الآباء الفرنسيِّسكان الكتاب كاملاً في نشرة علميَّة في القاهرة ضمن دراسات شرقيَّة مسيحيَّة في الكنيسة المصريَّة، بعد أن حقَّقه ونقله إلى اللاتينيَّة الأب فيكتور منصور مستريح الفرنسيِّسكاني.

+ كتاب "مصباح الظلِّمة وإيضاح الخدِّمة" لشمس الرِّياسة ابن كبير (+ ١٣٢١م) قس كنيسة العذراء المعلقة بمصر القديمة، ويقع الكتاب في ٢٤ باباً ألَّفه مؤلفه في السَّنوات الأولى من القرن الرَّابِع عشر، له مخطوطة محفوظة في المكتبة البطريركيَّة بالقاهرة. طُبِع في القاهرة لأوَّل مرَّة سنة ١٩٣٠م بواسطة جرجس فيلوثاؤس عوض. وطبع الجزء الأوَّل منه طبعة علميَّة في القاهرة سنة ١٩٧١م بواسطة الأب سمير خليل اليسوعي. أما الجزء الثاني منه فلا زال مخطوطاً، يحتاج إلى نشره نشرة علميَّة دقيقة كنتلك التي صدرت للجزء الأوَّل منه. أما ما نُشر عن هذا الجزء الثاني حتى اليوم فلم يرق إلى المستوى اللائق بكتاب في مثل هذه الأهميَّة.

+ كتاب "التَّرتيب الطَّقسي" للبابا غريبال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) الـ ٨٨ من باباوات الكرازة المرقسيَّة، ولهذا البابا القبطي الفضل الكبير على الطَّقوس القبطيَّة. وعن طريق المخطوط العربي رقم ٩٨ المحفوظ في المكتبة الوطنيَّة بباريس، والمخطوط الفاتيكاني القبطي رقم ٤٦ قام الأب ألفونس عبد الله الفرنسيِّسكاني، بتحقيق المخطوطين المذكورين ونشرهما في طبعة علميَّة سنة ١٩٦٤م بالقاهرة.

وفي سنة ١٦٧٣م قدم إلى مصر الرَّهب الدُّومينيكاني الأب يوحنا ميخائيل فانسليب، واشترى عدَّة مخطوطات، من بينها المخطوط العربي

رقم ٩٨ المحفوظ الآن في المكتبة الوطنية بباريس. وقد كشف هذا المخطوط لأول مرة أن الأنبا غبريال - كما سبق أن أشرت - له الفضل الكبير على الطقوس القبطية، إذ قام بترتيبها وتثبيتها بعد استشارة كبار الأقباط من قسوس وشمامسة وأراخنة.

ولم يذكر "تاريخ البطارقة" عن الأنبا غبريال الخامس، الثامن والثمانين في عدد بطارقة الإسكندرية شيئاً جديراً بالاعتبار، سوى ذكر توليه البطريكية من سنة ١١٢٥ - ١١٤٣ ش (١٤٠٩ - ١٤٢٧ م).

ولقد سلك المؤرخون الأقباط اللاحقون نفس الطريق. ففي كل المؤلفات التاريخية والطقسية لا نجد فيها شيئاً يُذكر عن حياة هذا البطريك، ولا عن نشاطه الطقسي، اللهم إلا بعض العبارات المأخوذة ربما عن المؤلفين الغربيين^(٢).

وتبين من العبارات الوجيزة التي سطرها العلامة المقريري (١٣٦٥ - ١٤٤١ م) المعاصر له صورة مصغرة من سيرته حين يقول: "وكانت أيامه شر أيام مرّت بالتّصاري، ولقي هو شدائد، وأهين مراراً، وصار يمشي في الطرقات على قدميه، وإذا دخل إلى مجلس السُّلطان والأمراء يقف ... وخرج إلى القرى مراراً يستحدي التّصاري فلم يظفر منهم بطائل، لما نزل بهم من القلة والفاقة ... وبالجملة فما أدركنا بطركاً أقل منه حركة ولا أقل منه بركة"^(٣).

٢- راجع مثلاً: منسى القمص، كتاب تاريخ الكنيسة القبطية ص ٦٠٠ - ٦٠١؛ كامل صالح نخلة، سلسلة تاريخ البابوات بطارقة الكرسي الإسكندري، الحلقة الرابعة من البطريك ٨٨ إلى البطريك ١٠٣، ص ٦

٣- كتاب السلوك، مخطوط عري رقم ١٧٢٧ بالمكتبة الوطنية بباريس.

وانطوت حياة الأنا غبريال على هذا الإهمال والنسيان^(٤).

ولقد توفَّر الأب ألفونس عبد الله الفرنسيكاني، والحاصل على درجة الدكتوراه في الدَّرَاسَاتِ الشَّرْقِيَّةِ الكَنَسِيَّةِ، على البحث عن حياة الأنا غبريال ونشاطه الطَّقْسي، في بحث علمي وافي.

وقسَّم بحثه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوَّل: يبحث في الظروف السِّيَاسِيَّة والاجتماعيَّة في مصر خلال الرُّبْع الأوَّل من القرن الخامس عشر، وحالة الكنيسة القبطيَّة في هذه الحقبة.

القسم الثاني: يبحث في حياة الأنا غبريال ونشاطه في صالح الطُّقُوس القبطيَّة، وإلى أي حد يصح نسبة هذا النُّشاط إليه، وما هي المستندات المؤيِّدة. وفي هذا القسم تم نشر النَّص الكامل للمخطوطين المنسوين للأنا غبريال الخامس، وهو ما أفادني فائدة كبيرة في دراساتي لتاريخ طقوس الكنيسة القبطيَّة.

القسم الثالث: وهو دراسة مقارنة عن ترتيب القدَّاس بين كل من الأنا غبريال، ويوحنا أبي زكريا بن سباع، وشمس الرُّئاسة أبو البركات بن كبر^(٥).

ولقد أدخل الأقباط في طقوس الأسرار لديهم، عوائد سريانيَّة كثيرة، بيد أنهم في خدمة الأعياد وصلوات السَّواعي (الأجبية)، قد حافظوا على ملامح طقسهم التَّقليدي.

٤- أنا غبريال الخامس البطريرك القبطي ٨٨، الترتيب الطَّقْسي، الطبعة الثانية، تحقيق الأب ألفونس عبد الله الفرنسيكاني، مطبوعات المركز الفرنسيكاني للدراسات المسيحية الشرقية، القاهرة ١٩٦٤م، ص ١

٥- الترتيب الطَّقْسي للأنا غبريال الخامس، مرجع سابق، ص ٢

الفصل الثالث

الليتورجية القبطية

تحمل الليتورجيّة القبطيّة^(١) روح توبة عالية. يسودها هدوء ملحوظ، فغماتها تشيع في النّفس خشوعاً وسكينة. وقدماً كان يُحتفل بالليتورجيّة القبطيّة في كل من الإسكندريّة والوجه البحري باللّغة اليونانيّة، أما الاحتفال بها في صعيد مصر فكان في الغالب بلهجات مختلفة. وقد تبقى لنا بعض بقايا من اللّهجات القبطيّة القديمة في مخطوطات باللّهجة الصّعيديّة. ولكن منذ القرن التّاسع حلّت اللّهجة القبطيّة البحيريّة محلّ اللّهجة الصّعيديّة، وأصبحت هي اللّهجة الرّسميّة لليتورجيّة الإسكندريّة، ولكن دون أن تتوقّف تماماً اللّغة اليونانيّة التي ظلّت هي الأخرى تستخدم أيضاً، ولكن بقدر ضئيل. وفي الوقت الحاضر عرّب جانب كبير من الصّلوات القبطيّة إلى اللّغة العربيّة. ويستعمل الأقباط في خدمة الذبيحة الإلهيّة ثلاث ليتورجيّات:

• ليتورجيّة القديس مرقس الرّسول

وهي أقدم ليتورجيّة استخدمت في مصر، وتعد من أقدم ليتورجيّات الكنيسة الجامعة بعد ليتورجيّة القديس يعقوب الرّسول السّريانيّة. ولا زلنا نحفظ بأنافورا القديس مرقس اليونانيّة والتي تعود إلى القرن الرّابع الميلادي تحت صيغة أكثر اختصاراً مما هي عليه الآن.

أما التّسمية الحاليّة لها فهي ليتورجيّة القديس كيرلس الكبير وهي ترجمة وتنقيحاً لليتورجيّة القديس مرقس اليونانيّة. وهي تختلف عن الليتورجيّات السّريانيّة في أن الأواشي intercessions أي الصّلوات، توضع في الجزء الأوّل من صلاة الشّكر الكبرى، والتي تبدأ بعبارة "الرّب مع

١- أوردتُ حديثاً آخر عن الليتورجيّة القبطيّة في الجزء الأوّل من مجموعة كتب "الكنائس الشرقيّة وأوطانها"، برحاء الرجوع إليه للأهميّة.

جميعكم“، وقبل آجيوس sanctus . ومن جهة أخرى فهناك استدعاء قصير يسبق رواية التأسيس بينما يوجد استدعاء آخر مطوّل يماثل الاستدعاءات السريانية يوجد بعد التذكار l'anamnèse . وقد دار بحث طويل حول ما إذا كان هذا الاستدعاء الثاني مصري أصيل primitive . وطبقاً لما لدينا من وثائق فإنه يصعب الفصل في هذا الأمر حتى الآن.

ولقد ضاعت أغلب موسيقى القُدَّاس الكيرلسي، ولم يبق منها إلا لحن **ὉΥΧ ὍΤΙ Αἲ:** ”وليس أننا نحن أيها السيّد...“، وأيضاً لحن **ΝΑΙ ΝΕΜ ΟΥΘΟΝ ΝΙΒΕΝ ΠΟΪ** **Αἲ:** ”وهؤلاء وكل أحد يارب...“، ويستعملان للتّرحيم على الموتى.

• ليتورجية القُدَّيس باسيليوس

وهي الشّكل الأكثر قدماً لتلك الليتورجية المستخدمة في الكنيسة البيزنطية. وضعها القُدَّيس باسيليوس الكبير، وهي تقال على مدار السّنة الطّقسية، وهي الأكثر انتشاراً في الكنيسة اليوم. على أن القُدَّاسات الثلاثة القبطية والبيزنطية والسريانية، والمنسوبة للقُدَّيس باسيليوس الكبير تختلف في النّص والطّقس واللحن عن بعضها البعض. ويوجد لدينا نص يوناني لقدّاس القُدَّيس باسيليوس القبطي.

وربما وصل قدّاس القُدَّيس باسيليوس إلى مصر من جرّاء تأثير القسطنطينية كعاصمة دينية للإمبراطورية الشّرقيّة في القرن السّادس الميلادي، إلا أن آراء أخرى تؤكد أنه قد استعمل في مصر قبل الانفصال سنة ٤٥١م. وربما كانت أنافورا القُدَّيس باسيليوس القبطية هي مصرية الأصل، غير أن المعلّم الكبادوكي العظيم أعطاها صبغتها النهائيّة^(٢).

٢- الأب هنري دالميس الدومينيكي، الطقوس الشرقية، تعريب الشّماس كامل ولسيم،

أما موسيقى القدّاس الباسيلي فهي مصريّة خالصة، غاية في الجمال. وهناك جزءٌ بيزنطي منها، وهو الاعتراف ومقدّمته. وعموماً فإن موسيقى القدّاس الباسيلي سواء القبطي أو البيزنطي هي ذات تأثير روحي عظيم.

• ليتورجية القدّيس غريغوريوس

ينسب العالم الطّقسي شمس الرّئاسة بن كبر (القرن الرابع عشر) هذه اللّيورجيا للقدّيس غريغوريوس التريترّي، أخو القدّيس باسيليوس الكبير^(٣). وهو ذو سمة مستقلّة لأنه يخاطب أقنوم الابن.

وموسيقى القدّاس الغريغوري عبارة عن بضعة ألحان طويلة، وهي مصريّة بحته، لها روعتها وعمقها وتأثيراتها الاحتفاليّة، باستثناء المقدّمة Η αγάπη (إي أغابي) أي: "محبة الله الآب ..."، والاعتراف الأخير، فهما بيزنطيّان.

ولا يمكننا إغفال التّأثيرات السّريانيّة على كنيسة مصر. ويمكننا القول إن ليتورجيتي القدّيسين باسيليوس وغريغوريوس القبطيّين تحملان سمات سريانيّة واضحة ليست من سمات ليتورجية الإسكندريّة القديمة المتمثلة في قداس القدّيس مرقس الرّسول (أو القدّاس الكيرلسي). إلاّ أنه توجد أيضاً تأثيرات سريانيّة على أنافورا القدّيس مرقس القبطيّة سأعرض لها بالتّفصيل في حينها. أما الآن فأشير لهذا الجانب في إيجاز:

♦ هناك صلوات كثيرة للبطريك القدّيس ساويرس الأنطاكي في القدّاس القبطي منها:

- صلاة الاستعداد "أيها الرّب العارف قلب كل أحد، القدّوس

٣- القس شمس الرياسة أبو البركات، المعروف بابن كبر، مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة، تحقيق الأب سمير خليل اليسوعي، مكتبة الكاروز، القاهرة، ١٩٧١م، ص ٢٩٠

- المستريح في قديسيه ...“ وهي تقال في الثلاثة قَدَّاسات القبطية.
- صلاة الصُّلح في القَدَّاس الكيرلسي ”يا رئيس الحياة وملك
الدُّهور“.
- صلاة القسمة في القَدَّاس الكيرلسي^(٤) ”يا الله الذي سبق فوسمنا
للبنوة بيسوع المسيح ربنا لمسرة إرادتك ...“.
- ♦ وصلوات أخرى في القَدَّاسات القبطية تحت عنوان ”يوحنا المثلث
الطوبى^(٥)“، ويذكر برايمان^(٦) Brightman أنه ”يوحنا أسقف بوسطره
John of Boster“ في سوريا، ومنها:
- صلاة الحجاب في القَدَّاس الكيرلسي: ”يا خالق البرية كلها التي
تُرى والتي لا تُرى ...“.
- صلاة صلح أخرى للقَدَّاس الكيرلسي: ”يا إله المحبة، ومعطي
وحدانية القلب ...“.
- صلاة صلح أخرى للقَدَّاس الباسيلي: ”عال فوق كل قوّة النطق
وكل فكر العقل غني مواهبك يا سيّدنا ...“.
- صلاة خضوع في القَدَّاس الكيرلسي بعد التناول: ”أنت الذي وضعنا
حياتنا عندك يارب، أيها الرّب الذي يملأ الكُل ...“.
- ♦ صلاة الحجاب في ليتورجية القَدَّيس باسيلوس القبطية ”يا الله
الذي من أجل محبتك للبشر التي لا يُنطق بها، أرسلت ابنك الوحيد إلى
العالم ليرد إليك الخروف الضال ...“، هي من ليتورجية القَدَّيس يعقوب

4. F. E. Brightman, M. A., *Liturgies, Eastern and Western*, Vol. 1, *Eastern Liturgies*, Oxford, 1967, p.181.

٥- أشارت بعض كتب الطقوس المطبوعة إلى أنه ”القَدَّيس يوحنا ذهبي الفم“، وهذا غير صحيح.

6. F. E. Brightman, *op. cit.*, p. 158, 187.

الرَّسول الأنطاكيَّة.

♦ صلاة الصُّلح في القُدَّاس الباسيلي: ” يا الله العظيم الأبدي، الذي جبل الإنسان على غير فساد ... “، هي للقُدَّيس باسيلوس الكبير.

♦ صلاة القسمة التي بدايتها ” هكذا بالحقيقة تألم كلمة الله بالجسد، وذُبح وانحنى بالصَّليب ... “ هي قسمة سرِّيانيَّة تُرجمت من القُدَّاس السَّرِّياني ... الخ.

ولقد ظلَّت الكنيسة الملكائيَّة - كنيسة الرُّوم الأرثوذكس - في مصر تستخدم هذه القُدَّاسات الثلاثة حتى القرن الثَّاني عشر، حين استعاضت عنها بالطَّقس واللِّيُتورجيَّة البيزنطيَّة.

أما القُدَّاس الرَّابع في الطَّقس القبطي - وهو من القُدَّاسات غير المستخدمة في الكنيسة اليَوم - فهو قُدَّاس القُدَّيس سيرايون أسقف عمويس (عمي الأמיד)، والذي كان تلميذاً وصديقاً للبابا أناسيوس الرسولي (٣٢٨-٣٧٣م)، ولقد نُشر هذا القُدَّاس سنة ١٨٩٤م، وفيه من الدَّلَّائل الواضحة ما يثبت أنه يختص بكنيسة الإسكندريَّة، وأن جزءاً منه مأخوذ حرفياً من قُدَّاس مار مرقس الرَّسول، ولا نعرف عن موسيقاه أو مدى استعماله شيئاً، ويظهر أنه لم يكن واسع الانتشار، ولم يظل زمان ممارسته^(٧).

ويذكر القانون ٢٦ من قوانين البابا غبريال بن تريك (٤٠٩-٤٢٧م) ما يأتي: ” انتهى إلى ضعفي أن قوماً من أعمال الصَّعيد يقدِّسون قُدَّاسات غير موافقة، خارجاً عن الثلاثة المعروفة، وهم قُدَّاس القُدَّيس باسيلوس والقُدَّيس غريغوريوس والقُدَّيس كيرلس، وقد منعتُ من يعتمد على ذلك إلى أن يحضر إلى القلايَّة ويحجِّر (يحقق) قُدَّاسات “.

٧- ترجمتُ هذا القُدَّاس عن اللُّغة اليونانيَّة مباشرة، ونشرته في نهاية الجزء الثَّاني من كتاب ” القُدَّاس الإلهي سرُّ ملكوت الله “.

الفصل الرَّابِع

الأدب الدِّيني القبطي

توضيح

أودُّ أن أتَّبَه ذهن القارئ القبطي العزيز إلى أن هذا الفصل الذي يتحدث عن الأدب الدِّيَني القبطي، أعني به ما كتبه آباء الكنيسة القبطيَّة وعلمائها ومفكرِّها، سواء كان ذلك باليونانيَّة أو بالقبطيَّة أو بالعربيَّة.

ولقد صدر في يناير سنة ٢٠٠٣م كتاب بعنوان: "فهرست كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة - الكتابات اليونانيَّة" وهو برقم (١/٦)، يَحْصِرُ بدقَّة شديدة كل عناوين الكتابات اليونانيَّة لآباء كنيسة الإسكندريَّة. ويشمل هذا الفهرس المذكور ٦٤٠ صفحة من القطع المتوسَّط، وذلك طبقاً لأحدث وأدقِّ الدَّرَاسات الآبائيَّة.

وأعقبه صدور كتاب آخر أو فهرس آخر في يناير سنة ٢٠٠٦م يَحْصِرُ بدقَّة أيضاً كل عناوين الكتابات القبطيَّة بلهجاتها الصَّعِيدِيَّة والبحيريَّة لآباء كنيسة الإسكندريَّة، وهو برقم (١/٧)، ويشمل هذا الفهرس ٣٨٠ صفحة من القطع المتوسَّط، طبقاً لأدقِّ دراسات معروفة حتى اليوم.

ويغطي هذان الكتابان المذكوران - في حدود ١٠٠٠ صفحة من القطع المتوسَّط على مدى التَّسعة قرون الأولى للميلاد، ليحصرا حصراً علمياً دقيقاً الكتابات اليونانيَّة والقبطيَّة لآباء كنيسة الإسكندريَّة في هذه الفترة. الرَّبُّ يعوِّض الذين تعبوا معي في إنجاز هذا العمل الآبائي بالأجر السَّمائي.

أمَّا الفصل الذي نحن بصددِه الآن فهو بمثابة إطلالة موجزة على أهم ما كتبه آباء الكنيسة القبطيَّة باللُّغة العربيَّة، بدءاً من القرن العاشر الميلادي

وحتى القرن التاسع عشر الميلادي، مع التمهيد التالي.

تمهيد

يستعمل الأقباط اللغة القبطية في جانب من صلواتهم الطقسية حتى اليوم، وهي آخر ما آلت إليه لغة الفراعنة بعد أن تأثرت باليونانية. ولم تكن الحضارة الهيلينية اليونانية قد تأصلت كثيراً في مصر خارج العاصمة الإسكندرية. لذلك فإن الأدب القبطي المتأثر بتأثيرات يونانية قد ظهر أكثره في الإسكندرية التي انتشرت فيها الثقافة الهيلينية حيث كتب كثير من الآباء باللغة اليونانية، لغة العالم المتحضّر حينذاك. وترجم كثير من كتاباتهم إلى اللغة القبطية لينتفع بها الأقباط أنفسهم. وجدير بالذكر أن الأدب القبطي في مجمله هو أدب ذات طابع ديني بحت^(١).

-
- ١- أهم المراجع التي اعتمدت عليها في هذا الجزء هي:
 - الأب إغناطيوس ديك، الشّرق المسيحي، لبنان، ١٩٧٥م
 - مجلة معهد الدراسات القبطية، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٥٦ - ٥٨
 - مجلة مدارس الأحد، العدد الثامن، السنة الثانية عشر، أكتوبر ١٩٥٩م، ص ١٢
 - الدكتور مراد كامل، العصر القبطي في تاريخ الحضارة المصرية، ص ٢٥٤، ٢٥٥
 - الأب هنري دالميس الدومينيكي، الطقوس الشرقية، المعهد الكاثوليكي بالمعادي، القاهرة، ١٩٦٨م.
 - الأب لويس شيخو، التراث العربي المسيحي، وزراء النصرانية وكتّابها في الإسلام، ١٩٨٧م. صفحات كثيرة متفرقة.
 - الأب الدكتور جورج شحاته قناني، المسيحية والحضارة العربية، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٢م.
 - مجلة صديق الكاهن، أعداد سبتمبر وديسمبر ١٩٧٢، مارس ١٩٧٣
 - J. G. Davies, *A Dictionary of Liturgy and Worship*, London, 1984.
 - Burmester, *The Egyptian or Coptic Church*, p. 16- 17; 46- 49.
 - R.p. Paul Sbath, *Manuscripts arabes d'auteurs coptes*, dans BASC, t. V, 1939, p. 159- 171.
 - GRAF, G., *Geschichte der christlichen arabischen Literatur* Vol. IV, Città del Vaticano, 1944, p. 114.

أما الأدب القبطي الصّميم الخالي من تأثيرات يونانيّة فقد ظهر في كتابات كل من الأنبا أنطونيوس والأنبا باخوميوس اللذان لم يعرفا غير اللّغة القبطيّة. هذا الأدب القبطي الصّميم كان له مركزان هما وادي النّطرون للّهجة البحيريّة ولاسيّما في دير القديس أنبا مقار، والدير الأبيض^(٢) ومعه الأديرة الباخوميّة بالصّعيد للّهجة الصّعيديّة. وحتى ديري القديسين الأنبا أنطونيوس والأنبا بولا بالصّحراء الشرقيّة كان بهما يوماً مكتبتان غنيّتان بالكنوز القديمة لا يقلّ حدث تدميرهما أهميّة عن التدمير الأقدم زمنياً والذي جرى لمكتبة الإسكندريّة^(٣). وهكذا نرى أن أديرة الرهبان كانت معاقل للأدب القبطي الصّميم بلهجاته.

على أنه يلزم التّنويه إلى حدوث تأثيرات يونانيّة على مراكز الرهبنة في الوجه البحري في مصر برغم استخدامها الواسع للغة القبطيّة. فيإفاجريوس البنيطي (٣٤٥ - ٣٩٩م) وهو أحد المشاهير في القلاي - وهي أحد التّجمعات الرهبانيّة الأساسيّة في هذا الوقت - كان يستخدم اليونانيّة. ولكن يمكننا القول أن اليونانيّة أخذت تتقهقر وتراجع بمقدار النّمو المضطرد الذي انتشرت به المسيحيّة بين الرّيفيين.

ولقد كانت الأسقيّة في اللّهجات القبطيّة للّهجة الصّعيديّة، ولو أن استعمال اللّهجة الفيوميّة كان لا يزال باقياً. أما اللّهجتان الأهميّة والأسبوطيّة فليس لدينا من الوثائق ما يثبت وجودهما في ذلك الوقت. في

٢ - لما جاء الأنبا شنوده رئيس المتوحّدين (٣٨٣ - ٤٥١م) والذي لم يكن يكتب بغير القبطيّة، وتولى رئاسة الدير الأبيض بسوهاج سنة ٣٨٣م صار الدير هو المهدي الحقيقي للثقافة القبطيّة للكنيسة القبطيّة في صعيد مصر ومركزاً للأدب القبطي في لهجته الصّعيديّة، وهي اللّغة الكلاسيكيّة القديمة للكتابات القبطيّة في أزهى عصورها. ولا زالت خطب ومواعظ الأنبا شنوده شاهدة على ذلك.

٣ - ألفريد بتلر، الكنائس القبطية القديمة في مصر، الجزء الثاني، ترجمة إبراهيم سلامة، ص ١٨٩

حين أن أقدم ما كُتِبَ باللَّهجة البحيريَّة لم يبلغ في القدم ذلك العصر. أما اللُّهجة القبطيَّة اللَّيتورجيَّة الحاليَّة أي المستخدمة في الكنائس فهي اللُّهجة البحيريَّة، وهي لهجة الوجه البحري في مصر، وكان مركزها دير القديس مقاريوس ببريَّة شيهيت، كما سبق أن ذكرتُ، حيث بدأت هذه اللُّهجة تأخذ مكانها في اللَّيتورجيَّة في نفس السَّنَة التي تَنبُح فيها الأنبا شنوده رئيس المتوحِّدين^(٤). ومنذ مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م وما تعرَّض له الأقباط في مصر من اضطهاد بسبب رفضهم مقرَّرات هذا المجمع، كان دير القديس أنبا مقار ملاذاً للبطاركة الذين أُجبروا عنوة على ترك الإسكندريَّة مقرِّ كرسيهم حيث أصبح الدير مركز إشعاع لكل الكنيسة القبطيَّة. ولقد تخرَّج منه تسعة وعشرون بطريركاً، وهو عدد كبير لم يقدِّمه أي دير آخر لخدمة الكرازة المرقسيَّة.

وبعد أوائل القرن الحادي عشر لا يمكننا العثور على وثائق باللُّهجة الفيوميَّة، بينما نجد أن اللُّهجة البحيريَّة بدأت تحل محل اللُّهجة الصَّعيديَّة، في الطقوس الكنسيَّة حتى في صعيد مصر.

ويرجع آخر مصنَّف قبطي خالص إلى القرن الثاني عشر، أما استعمال اللغتين القبطيَّة والعربيَّة جنباً إلى جنب في مخطوطات الكنائس فيدل على تقدُّم اللُّغة العربيَّة المضطَّرد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر. ولم يكن التَّشاطر الأدبي الخصب في تلك الفترة إلا نشاطاً عربيّاً في مجمله. وإن آخر ما تحرَّر باللُّهجة الصَّعيديَّة يرجع إلى هذا العهد، غير أن تلك اللُّهجة على كل حال ظلَّت لغة الكلام في كثير من القرى المتفرِّقة بمصر العُليا.

4. Robert Taft, *The Liturgy of the Hours in East and West*, p. 250.

ولقد بُدء في وضع قواعد وقواميس للغة القبطيّة بدءاً من القرن الثالث عشر الميلادي حينما ظهرت الحاجة إليها في ذلك الوقت. فكُتِب قواعد اللُّغة القبطيّة تُسمى "مقدّمات - Preface" أمّا قواميس مفردات اللُّغة فتُسمى "سلاّم - Scala".

ومن أهم مؤلّفي هذه القواعد والقواميس أي المقدّمات والسّلام: يوحنا أسقف سمبود، الوجيه القليوبي، الثّقة بن الدهيري، ابن كاتب قيصر، هبة الله، أبو اسحق بن العسال، أبو شاكر، أبو البركات، أنناسيوس أسقف قوص^(٥).

ولقد مرَّ على الكنيسة القبطيّة عدّة قرون كاد الإنتاج الأدبي فيها أن يتوقّف. وكل ما يستطيع المؤرّخ أن يسجله عن هذه الفترة هو بعض أعمال أدبيّة غير متكاملة، أي مجرد كتابات دينيّة متناثرة. فحتى القرن السابع عشر الميلادي لا نجد سوى بعض كتابات عن الاعتراف بالإيمان، وبعض الكتابات الأخرى ذات الهدف الرّعائي المباشر - أي الوعظ - ولقد بقيت هذه الأخيرة هي الطّابع الغالب حتى زمن قريب^(٦).

ولقد تم إنقاذ القليل من الكنوز الأدبيّة القبطيّة التي لا تقدّر بثمن، بينما دُمّر الكثير منها. ولعل آخر حادث تدمير من هذا النّوع كان في سنة ١٨١٢م عندما نهب المماليك مائة مخطوط مكتوب على الرّق بالديّ الأبيض قرب سوهاج، ضمن ما نهبوا من محتويات الديّ، وخرّبوا المكان^(٧).

وحدير بالذكر أن كثيراً من النّصوص القبطيّة التي فقدت يمكن أن

5- GRAF, G., *Geschichte der christlichen arabischen Literatur* Vol. I, Città del Vaticano, 1944, p. 299.

6- GRAF, G., *op. cit.*, Vol. IV, p. 114.

٧- ألفريد بتلر، الكنائس القبطية القديمة في مصر، الجزء الثاني، ترجمة إبراهيم سلامة، ص ١٨٩

بجدها في ترجماتها العربية التي تمت في القرون الوسطى. لذلك صارت اللغة العربية هامة جداً للحفاظ على التقليد القبطي القديم^(٨). وإن ٨٠% من الأدب القبطي سواء في لغته اليونانية أو القبطية لم ير النور حتى اليوم، سواء من جهة نقله إلى العربية، أو أن ما تُرجم منه إلى العربية لازال حبيس مخطوطات تُعد بالآلاف مبعثرة في مكتبات العالم المختلفة^(٩).

أما دراسة اللغة القبطية في العصور الحديثة فتعود إلى كتاب Kircher's Prodomus Coptus الذي طُبِع سنة ١٦٣٦م. وبعد ذلك بثمانين عاماً نشر بلومبرج Blumberg كتاباً عن قواعد اللغة القبطية. وفي سنة ١٧٧٨م نشر روفائيل الطوخي بحثاً عنوانه Rudimenta Linguae Copticae أي "مبادئ اللغة القبطية". ولكن أوّل دراسة علمية لقواعد اللهجات الثلاث كتبها تاتام Tattam ونُشرت سنة ١٨٣٠م.

ولقد قدّمت جامعة أكسفورد خدمات عظيمة لدراسة اللغة القبطية. وقدّم الدكتور مارشال Marshall عميد كلية لنكولن Lincoln طبعة جيّدة لكتاب العهد الجديد باللغة القبطية، ومعها ترجمة لاتينية وبعض التعليقات. ولكن العمل لم يكتمل بسبب وفاة العميد المفاجئة، وكانت أوّل ملزمة قد وصلت بالفعل إلى المطبعة. وهناك دارس من جامعة كامبردج هو توماس إدوارد Thomas Edward استطاع طباعة العهد الجديد بالقبطية مع معجم للغة القبطية في القرن السابع عشر. واستمرت جهود كثير من العلماء في إنجلترا في طبع ودراسة مؤلفات عن اللغة القبطية حتى سنة ١٧٩٩م.

8. Briger A. Pearson & James E. Goehring, *The Roots of Egyptian Christianity*, U.S.A., 1986, p. 95.

9. *Ibid.*, p. 96.

وفي خلال القرن التَّاسع عشر ضاعت إنجازات القرنين السَّابع عشر والثَّامن عشر في طوايا النَّسيان^(١٠). واليوم وبعد أن دخلنا القرن الحادي والعشرين، فقد صدرت دراسات للغة القبطيَّة بالكتابة والصَّوت والصُّورة، وبأكثر من لهجة لها وذلك باستخدام الكمبيوتر، إضافة إلى ترجمة كاملة للعهد الجديد بالقبطيَّة في لهجتها البحريَّة القديمة والحديثة، في تقدُّم تكنولوجي مذهل كلُّ جهود السَّابقين.

الأدب القبطي المدوَّن باللُّغة العربيَّة

بعد أن أصبحت اللُّغة العربيَّة في مصر هي اللُّغة الوحيدة التي يمكن التَّعبير بها عن الأفكار والمفاهيم في شتى صورها، اتجه الأقباط إلى الكتابة بها بدءاً من القرن العاشر. ففي غضون القرن التَّاسع الميلادي كان معظم المتعلِّمين من الأقباط يتكلَّمون ويكتبون اللُّغة العربيَّة، وهو ذات الوقت الذي بدأت فيه اللُّغة القبطية تنحو نحو الاختفاء على الأقل في المدن^(١١).

وكما سبق أن ذكرتُ، فقد كان الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين (القرن العاشر) هو أوَّل من أدرك هذا الأمر، إذ يشكو في مؤلِّفه "سِير البيعة المقدَّسة" أو "تاريخ بطاركة كنيسة الإسكندريَّة" أنه لم يعد أحد يفهم القبطيَّة، ولذلك كتب كل مؤلِّفاته الـ ٢٠ أو ٢٦ بالعربيَّة.

ومما يؤكد الميل المتزايد إلى التَّعريب، أنه لم يعد لدينا مؤلِّفات بالقبطيَّة بعد القرن التَّاسع الميلادي، ولكن لدينا فقط ندرة من التَّرجمات إلى القبطيَّة.

١٠ - ألفريد بتلر، الكنائس القبطية القديمة في مصر، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

11 - Briger & Goehring, *The Roots of Egyptian Christianity*, p. 83.

في ذلك الوقت احتلت القاهرة والدلتا مكان طيبة القديمة كمركز للجماعات القبطية لأسباب اجتماعية واضحة، وهو ما يفسر لنا سبب اختفاء اللهجة القبطية الصعيدية، وتطور اللهجة القبطية البحرية. ولقد بلغت المؤلفات العربية للأقباط ذروتها في القرن الثالث عشر، وهو القرن الذي يعتبر العصر الذهبي للأدب القبطي في لغته العربية.

ولقد قام الأقباط بمجهود جبار في ترجمة الأدب القبطي القديم من اليونانية أو القبطية إلى العربية Coptic Arabic Literature، وكان معظمه يدور حول سير القديسين^(١٢) Hagiographic ويتبعه ترجمة كثير من النصوص الإيمانية من اللغات القبطية والسريانية واليونانية إلى العربية طالما لا تتعارض مع عقيدة الكنيسة القبطية^(١٣). ويشير الجزء الأول من الأجزاء الخمسة من كتاب "تاريخ الأدب العربي المسيحي GCAL" للعالم الألماني جورج جراف^(١٤) George Graf إلى هذا الجهد العظيم للأقباط الذين استطاعوا بمفردهم في غضون القرون الوسطى أن يقدموا إنتاجاً أدبياً عربياً يوازي ما قدمته كل الكنائس الشرقية الأخرى مجتمعاً^(١٥) (النسبورية والملكانية والسريانية والمارونية). وذلك لسببين:

السبب الأول: أن الأقباط كتبوا باللغة العربية فقط، بينما باقى المجتمعات الكنسية الأخرى كتبوا أيضاً بالسريانية واليونانية.

السبب الثاني: أن عدد الأقباط آنئذ كان يساوي تقريباً أعداد المسيحيين الشرقيين في العالم العربي كله.

١٢- تعود أهمية هذه الترجمات إلى أن كثيراً من المخطوطات القبطية التي حوت هذه السير مفقودة، ولم تحفظ لنا سوى في ترجمتها العربية.

13. Briger & Goehring, *op. cit.*, p. 95.

14. George Graf, *Geschichte der Christlichen arabischen Literatur*, 1944.

15. Briger & Goehring, *op. cit.*, p. 84.

ولكي نَحْجِّمَ حديثنا نورد هنا ثبُتاً بأهم المؤلفين الأقباط الذين كتبوا بالعربيَّة في العصور الوسطى في الشؤون الدِّيْنِيَّة فحسبٌ دون غيرها من التَّاليف الأخرى، وذلك بدءاً من القرن العاشر وحتى القرن التاسع عشر، إذ أن الكم الضَّخْم من المؤلَّفات الدِّيْنِيَّة التي صدرت في القرن العشرين ينوء بها هذا الكتاب، وهو ما يحتاج إلى عمل قائم بذاته. ولقد أصدرت بالفعل جمعِيَّة مار ميْنَا العجائبي للدراسات القبطيَّة بالإسكندريَّة في سنة ١٩٩٥م كتاباً بعنوان: "قاموس التَّراجم القبطيَّة"، وهو أحدث كتاب صدر في المكتبة القبطيَّة يجمع كل ما سبقه من جهودات في هذا المجال. ولكن الكتاب المذكور اكتفى بإيراد عِيْنَة من المؤلَّفات للكُتَّاب الذين أَرَّخَ لهم، وحسبنا أن تكون الفائدة أشمل وأعم إن كان قد أُورِدَ ثبُتاً وافيّاً بأسماء كافة المؤلَّفات الدِّيْنِيَّة التي صدرت في القرن العشرين. ولكنه مع ذلك جهد مُبارك تُشكر عليه جمعِيَّة مار ميْنَا العجائبي للدراسات القبطيَّة.

القرن العاشر

• الأنبا ساويرس بن المقفَّع^(١٦) أسقف الأشمونين

هناك ثلاثة تواريخ فقط محدَّدة في حياة أنبا ساويرس هي:

- نوفمبر سنة ٩٥٠م حين أَلَّفَ كتاب "تفسير الأمانة".

- سبتمبر سنة ٩٥٥م حين أعاد تأليف كتاب "تفسير الأمانة"^(١٧).

١٦- هو غير عبد الله ابن المقفَّع، الأديب الفارسي الأصل الذي عاش في القرن الثامن الميلادي. انظر أيضاً: مورخون قدامى كتبوا لمصر.

١٧- يقول في ذلك: "قد كنا، رعاكم الله، عملنا هذه الأمانة تفسيراً قبل هذا، وضاع الكتاب الذي عملناه. إلا أنا قد اجتهدنا أن يكون ما أتينا به في هذا الكتاب، قريب المعاني من ذلك الكتاب بعينه. فمن وجد ذلك الكتاب، ووقع به، فلا ينكر مخالفة ألفاظه لكتابنا هذا، على أي التفسيرين أحب. فكل كاف شاف".

- سنة ١٩٨٧م حين ساهم في تحرير الرسالة الجمعية إلى بطريرك الكنيسة السريانية.

أما ما نضيفه من تواريخ بعد ذلك فما هو إلا استنتاج ومحاولة^(١٨). والأنبا ساويرس هو أسقف مصري وُلد حوالي سنة ٩١٥م من والد لُقّب بالمقفع أي "المنكس الرأس أبدأ"، أو "المتشجّح اليد". وأغلب الظن أنه نشأ في مدينة مصر القديمة، لأن الأنبا يوساب أسقف فوه قال عنه: إنه كان "كاتباً من أهل مصر"، تدرّج في الوظائف أيام الدولة الإخشيدية حتى غدا من الكتاب الماهرين. ولكنه ما عتم أن تخلّى عن منصبه، وأجماد الدنيا، وترهّب في أحد الأديرة، ثم رُسم أسقفاً على مدينة الأشمونين، وبرع في العلوم الدينية، ولقي من جرّاء ذلك حظوة عند الخليفة المعز، وكان الخليفة محباً للعلم وأهله.

ويقول الأب سمير خليل اليسوعي، وهو متخصص في دراسة التراث العربي المسيحي: "لقد قرأنا عشرات، بل قُلّ مئات، من مؤلفات النصارى العرب، إلا أننا لم نجد أبداً خلال دراستنا للمفكرين العرب، من يضاها ساويرس في معرفته للكتاب المقدس ... ففي كتابه المعروف بكتاب: الدر الثمين في إيضاح الدين، يذكر ساويرس ١١٦١ نصاً كتابياً ... كذلك معرفته لآباء الكنيسة تفوق مستوى معاصريه؛ ففي نفس كتاب "الدر الثمين" المذكور أحصى الناشر الألماني ١٩١ مرجعاً لآباء الكنيسة، سوى نصوص أخرى لم يعتبرها من التراث الآبائي ... وإذا تذكرنا أن كثيراً من هذه النصوص، أو قُلّ معظمها، لم تكن مترجمة بعد إلى اللغة العربية، لفهمنا الجهود الجبار الذي بذله ساويرس للتعرف

انظر: ساويرس بن المقفع، كتاب مصباح العقل، تقديم وتحقيق الأب سمير خليل اليسوعي، القاهرة ١٩٧٨م، ص ١٤
١٨- ساويرس بن المقفع، كتاب مصباح العقل، مرجع سابق، ص ٧

على الآباء في الأصول... (١٩)“.

ولا نعرف تاريخ وفاة الأنبا ساويرس بن المقفع، إلا أنه كان لا زال حياً سنة ٩٨٧م حيث ساهم في تحرير الرسالة المجمعية إلى بطريرك السريان.

ولقد وصلتنا قائمتان خاصتان بمؤلفاته، الواحدة تشير إلى عشرين مؤلفاً^(٢٠)، والأخرى إلى ستة وعشرين مؤلفاً^(٢١)، بعضها مطبوع، وبعضها مخطوط، ولكن الجزء الأكبر منها قد فقد^(٢٢).

والقائمة التي يذكرها أبو البركات هي:

- ١- في التوحيد.
- ٢- في الاتحاد.
- ٣- الباهر، في الرد على اليهود والمعتزلة.
- ٤- البليغ، في الرد على اليهود والمعتزلة.
- ٥- في الرد على سعيد بن بطريق الملكي^(٢٣)، البطريرك المعروف بابن الفراش، صاحب التاريخ.
- ٦- الشرح والتفصيل في الرد على نسطور وشيعته.
- ٧- رسالة في الديانة، كتبها إلى أبي اليمان قزمان بن مينا الكاتب^(٢٤).
- ٨- نظم الجوهر والدُّر، في الرد على القول بالقضاء والقدر.

-
- ١٩- ساويرس بن المقفع، كتاب مصباح العقل، مرجع سابق، ص ١١
 - ٢٠- ذكر أنبا ميخائيل أسقف نيس، سنة ١٠٥١م، عشرين كتاباً وصلت إليه، ثم أضاف: "سوى ميامر، وتفاسير، وأجوبة مسائل، لأبي البشر ابن جارود الكاتب المصري"
 - انظر: سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ١٠٩
 - ٢١- القس أبو البركات، مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة، مرجع سابق، الباب السابع.
 - ٢٢- الأب الدكتور جورج شعته فتواتي، المسيحية والحضارة العربية، مرجع سابق، ص ٢٥٥
 - ٢٣- وقد نشر هذا الكتاب الأب بطرس شبلي Chébli في مجموعة الآباء الشرقيين سنة ١٩٠٥م.
 - ٢٤- نشره الأب سمير خليل اليسوعي.

- ٩- المجالس.
 ١٠- طب الغم، وشفاء الحزن، وتهذيب الأخلاق (٢٥).
 ١١- المجامع (٢٦).
 ١٢- تفسير الأمانة الأرثوذكسية (٢٧).
 ١٣- رسالة في حال الأطفال، من المؤمنين والكفار، وكيف تقوم النفس في الحكم.
 ١٤- في الاستبصار، وهو مصباح العقل (٢٨).

٢٥- الكلمتان الأخيرتان غير موجودتين في قائمة أنبا ميخائيل أسقف تنيس، ولا في عناوين المخطوطات المعروفة، ونشر الأب سمير خليل بحثاً عن مخطوطات هذا الكتاب في مجلة لوميزيون Le Museon المجلد ٨٩ (لوفان ١٩٧٦م)، وقد أعد الدكتور رفعت يسي عبيد هذا الكتاب للطبع.

انظر: ساويرس بن المقفع، كتاب مصباح العقل، مرجع سابق، ص ٣٤
 ٢٦- يبدو أن هذا الكتاب هو عينه الكتاب المذكور في البند ٥، وكتاب المجامع في أربعة فصول للرّد على سعيد بن البطريق الملكي ومن ينتحل مذهب الملكيّة، وألفه سنة ٩٥٥م. وقد نشر هذا الكتاب الأب بطرس شبلي Chébli في مجموعة الآباء الشرقيين سنة ١٩٠٥م.

Cf. P. Chébli, *Réfutation de Saaid Ibn. Batriq (Euty chius)*, Le Livre des Conciles, in Patr. Orien., t. III, 1905, p. 121- 142.

وقد ألف الأنبا ساويرس تكملة لهذا الكتاب سماه "الكتاب الثاني"، ويشمل تسعة فصول تحوي نفس موضوع الكتاب الأوّل، ولكن بشئ من الإسهاب. أما الفصل العاشر فهو شرح وتوضيح لقانون الإيمان النيقاوي القسطنطيني. وقد نشر الأب لوروي هذا الكتاب الثاني.

L. Leroy, Sévère ibn al. Mukaffa, *Histoire des Conciles (Second Livre)*, Patr. Orien., t. VI, 1900, p. 465- 600.

٢٧- طبعه الأب لوروي L. Leroy

٢٨- نشره الأب سمير خليل تحت عنوان "كتاب مصباح العقل"، في القاهرة سنة ١٩٧٨م، ويذكر أنبا ميخائيل أسقف تنيس أن بعض كتب الأنبا ساويرس تحمل أكثر من اسم للكتاب الواحد، وربما كان للكتاب اسمان (سير البيعة المقدسة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ١٠٩، ١١٠). وهو ما يدل على انتشار كتب أنبا ساويرس، حيث اختلفت أسماؤها لكثرة نقلها ونسخها وتداولها.

- ١٥- السّير. أو سِير البيعة المقدّسة (٢٩).
 ١٦- الانتصار.
 ١٧- ترتيب الكهنوت، وهو الإنباء عن طقوس الكنيسة (٣٠).
 ١٨- في اختلاف الفرق (٣١).
 ١٩- في الأحكام (٣٢).
 ٢٠- إيضاح الاتحاد، والقول على تجسد الرّب له المجد (٣٣).
 ٢١- تفسير الأناجيل المقدّسة.
 ٢٢- أجوبة مسائل بن جارود.

٢٩- هو الكتاب المعروف بـ "تاريخ بطاركة كنيسة الإسكندرية"، وقد طُبعت أجزاء من الكتاب لأول مرة بواسطة المستشرق الألماني ريكوبف Rehkopf في سنة ١٧٥٩م، وطبعه بالكامل المستشرق الألماني زيبلد Seybold في بيروت سنة ١٩١٠م، وتُرجم إلى اللّاتينية والإنجليزية. أما ما طُبِع في القاهرة تحت إشراف "جمعية الآثار القبطية"، بدءاً من سنة ١٩٤٣م، حتى اليوم، فهو لامت لساويرس بن المقفع بصلة، بل لكتاب أتوا بعده وأكملوا عمله، فنسب كل العمل لأبنا ساويرس.

٣٠- طبعه المستشرق الألماني يوليوس أسفلج Julius Assfalg مع ترجمة ألمانية وبمحت مستفاض، في القاهرة سنة ١٩٥٥م، ويشك الأب سمير خليل في أن يكون النص المطبوع هو نص ساويرس.

انظر: كتاب مصباح العقل، مرجع سابق، ص ٣٥

٣١- طبعه المستشرق أسفلج Julius Assfalg في نهاية كتاب "ترتيب الكهنوت"، وطبع خلاصته الأب سمير خليل في مجلة "رسالة الكنيسة" سنة ١٩٧٠م، ثم حققه الأب سمير خليل، ونشره. وكان المطران بطرس كامل مدور قد طبعه بكامله تحت عنوان "في الفرق بين القبط والملكية".

٣٢- ذكره الأبنا ساويرس في كتابه "مصباح العقل"، ويبدو أن هذا الكتاب مفقود.

٣٣- هذا الكتاب إما أن يكون "كتاب الدرّ الثمين في إيضاح الدّين"، وإما أن يكون المقالة الثانية من كتاب "الإيضاح"، وعنوانها "كتاب إيضاح تأس ابن الله وصلبه". وأشار ساويرس إلى كتاب "إيضاح الاتحاد" في كتابه "مصباح العقل".

ولقد طبع مرقس جرجس كتاب "الإيضاح" تحت عنوان "الدرّ الثمين في إيضاح الدّين" في القاهرة سنة ١٩٢٥م، ثم طبعته مدارس التربية الكنسية بشيرا في سلسلة "من تراث الآباء" تحت عنوان "الدرّ الثمين في إيضاح الدّين"، وهي طبعة معتمدة على طبعة مرقس جرجس، إلا أنّها لم تورد المقالة التاسعة.

- ٢٣- شرح أصول الدّين، وترتيب الخدمة والبُخور، ورشم الصّليب، ونسبة السيّدة.
- ٢٤- كتاب البيان المختصر في الإيمان^(٣٤).
- ٢٥- كتاب المثاليّات والرّموز^(٣٥).
- ٢٦- كتاب التّعالميم في الاعتراف بالذنوب^(٣٦).

ويذكر أيضاً أنبا ساويرس أسقف الأشمونين أسماء ثلاثة كتب ذكرها هو نفسه في المقالين الخامس والثامن من كتاب "الدّر الثمين في إيضاح الدّين"، وهي:

- ١- كتاب "تفسير التّوراة وسفر يشوع بن نون"^(٣٧).
- ٢- كتاب "تفسير الحروف"^(٣٨).
- ٣- كتاب "بيان القتال"^(٣٩).

- ٣٤- نشر الأب سمير خليل بعض أبوابه في مجلة "رسالة الكنيسة" سنة ١٩٧٦م، أما الطّبعة الكاملة له، فتجدها في سلسلة: التراث العربي المسيحي.
- ٣٥- من المحتمل أن يكون هذا الكتاب هو المقالة الثالثة من "كتاب الإيضاح"
- ٣٦- جدير بالذكر أن الكتاب الذي صدر بالعربيّة تحت عنوان "ذبيحة الاعتراف"، ونشره أبناء البابا كيرلس السّادس منسوباً إلى الأنبا ساويرس بن المقفع، لا علاقة له به البتّة، ولكنه كتاب "المعلم والتلميذ" للقسّ مرقس بن القنبر. وكان محروماً من الكنيسة القبطية آنذ. وقد أثبت ذلك الأمر إثباتاً علمياً موثقاً، وذلك في كتاب "التاريخ الطّقسي لسرّ التّوبة والاعتراف"، فارجع إليه إن رغبت.
- ٣٧- انظر: الأنبا ساويرس بن المقفع، الدّر الثمين في إيضاح الدّين، مرجع سابق، ص ١٢٣ وهذا الكتاب هو نفسه عنوان المقال الثالث من كتاب "الدّر الثمين في إيضاح الدّين" وهو: "كتاب تفسير كلام من سفر يشوع بن نون والتّوراة يحقّق المذهب المسيحي".
- ٣٨- انظر: الأنبا ساويرس بن المقفع، الدّر الثمين في إيضاح الدّين، مرجع سابق، ص ١٧٦ وهذا الكتاب هو نفسه عنوان المقال الرّابع من كتاب "الدّر الثمين ... وهو: "إيضاح تفسير الفصح والحروف وكيف يصير الحبز والخمر لحم المسيح ودمه".
- ٣٩- انظر: الأنبا ساويرس بن المقفع، الدّر الثمين في إيضاح الدّين، مرجع سابق، ص ١٧٦ وهذا الكتاب هو نفسه عنوان المقال الخامس من كتاب "الدّر الثمين ... وهو: "كتاب بيان القتال الذي يقاتل به الشياطين المؤمنين وكيف هؤلاء يغلبونهم".

مما يعني أنه ربما يكون كتاب "الدُّر الثمين في إيضاح الدين" ليس كتاباً واحداً للأبنا ساويرس ابن المقفع، بل مجموعة كُتِب له ضُمَّت معاً في كتاب واحد.

أما كتاب "تاريخ بطاركة الكنيسة المصريّة"، المعروف باسم "سير البيعة" فهو أشهر كُتبه على الإطلاق، وقد أورد هذا الكتاب تاريخ بطاركة الكنيسة القبطيّة حتى البابا شنوده الثاني (١٠٣٢-١٠٤٦م) البابا الخامس والسُّتون من بطاركة الكنيسة القبطيّة.

ولقد دوّن أبنا ساويرس بنفسه تاريخ البطاركة حتى البابا شنوده الأوّل (٨٥٩-٨٨٠م) الـ ٥٥ من بطاركة الكنيسة القبطيّة.

وواصل أبنا ميخائيل مطران تيس عمل الأبنا ساويرس في تسجيل تاريخ البطاركة، فدوّن تاريخ عشرة بطاركة منذ سنة ٨٨٠-١٠٤٦م، وكان آخرهم البابا شنوده الثاني (١٠٣٢-١٠٤٦م) الـ ٦٥^(٤٠).

وفي سنة ١٠٨٨م جمع موهوب بن منصور بن مفرج الإسكندراني الشَّمَّاس أفكار ساويرس المشتتة في أماكن مختلفة ونظّمها، ووضع مقدّمة بدل مقدّمة ساويرس، وأدخل حياة مار مرقس غير الموجودة، وهذّب بعض التعبيرات من جهة الأسلوب لتزداد وضوحاً، وأضاف فيما بعد ترجمة البطريرك المعاصر البابا خريستوذولوس (١٠٤٧-١٠٧٧م) الـ ٦٦^(٤١). وكان الشَّمَّاس أبو حبيب ميخائيل ابن بدير يساعده على نسخ

٤٠- انظر: تاريخ بطاركة الكنيسة المصريّة المعروف بسير البيعة المقدسة، لأبنا ساويرس بن المقفع، المجلد الثاني، الجزء الثالث، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ١٧٢

٤١- أول من نشر النص العربي لموهوب بن منصور هو المستشرق الألماني Christian Friedrich Seybold مجموعة الـ CSCO وقد تولت جمعية الآثار القبطية تكملة نشر هذا التاريخ، وقام بهذا العمل العالمان يَسَى عبد المسيح، وبورمستر،

السيرة وتفسيرها من القبطي إلى العربي^(٤٢).

ثم أضاف يوحنا بن سعيد بن يحيى بن مينا، الملقب بابن القلزمي^(٤٣) ترجمة لحياة ثلاثة بطاركة هم البابا كيرلس الثاني (١٠٧٨-١٠٩٢ م) الـ ٦٧، والبابا ميخائيل الرابع (١٠٩٢-١١٠٢ م) الـ ٦٨، والبابا مكاروريوس الثاني (١١٠٢-١١٢٨ م) الـ ٦٩.

أما البابا مرقس الثالث بن زرعة (١١٦٦-١١٨٩ م) الـ ٧٣ فقد أورد سير الثلاثة بطاركة الذين سبقوه وهم: البابا غبريال الثاني بن تريك (١١٣١-١١٤٥ م) الـ ٧٠، والبابا خائيل الخامس (١١٤٥-١١٤٦ م) الـ ٧١، والبابا يوانس الخامس (١١٤٦-١١٦٦ م).

ولا يُعرف من الذي قام بترجمة سير البطاركة التاليين من البابا مرقس الثالث إلى البابا كيرلس الثالث الـ ٧٥ بن لقلق الذي رُسم بطريركاً سنة ١٢٣٥ م.

• يوسف بن رجا

ويُسمى أيضاً الواضح بن رجا. وكان مسلماً واستنصر، وهرب من اضطهاد عائلته إلى وادي هيب وترهب، وارتبط بصداقة وثيقة مع أنبا

وشاركهما الدكتور عزيز سوربال عطية، وذلك في مجموعة "الآباء الشُّرقيين" Patrologia Orientalis.

٤٢- انظر: انظر: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة، لأنبا ساويرس بن المقفع، المجلد الثاني، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ١٨٦

٤٣- ورد في تاريخ البطاركة باسم "يوحنا ابن صاعد القلزمي". انظر: انظر: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة، لأنبا ساويرس بن المقفع، المجلد الثاني، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص ٢٢٩

ساويرس بن المقفع، وعملاً سويماً في تأليف بعض الكتب. وقد كتب بن رجاء ثلاثة كتب متصلة بالعقيدة الإسلامية لم تُكشَف إلا منذ عهد قريب^(٤٤). وله من الكتب:

- كتاب الواضح.
- نوادر المفسرين وتحريف المخالفين.
- الإبانة في تناقض الحديث.

• إبراهيم بن عدي

وهو شقيق يحيى بن عدي، وقد تتلمذ للفارابي. ولم يكن في اتفاق دائم مع أخيه في الآراء الفلسفية^(٤٥).

في القرن الحادي عشر

• بقره الشماس

استشهد سنة ١٠٠٧م، وكان شماساً و كاتباً، أتى يوماً إلى قصر الحاكم بأمر الله، وأعلن أن المسيح هو ابن الله، فأوثقوه ثم قتلوه.

• أبو صلح يونس بن عبد الله سديد بن بانا

مؤلف كتاب "مختصر القانون الكنسي" وهو مبني على الوثائق القبطية العديدة المنسوبة إلى الرُّسل، والجامع الكنسية، وهو ينقسم إلى ٤٨ قسماً.

٤٤ - الأب د. شحاته فتواحي، المسيحية والحضارة العربية، مرجع سابق، ص ٢٥٨

٤٥ - لويس شيخو، التراث العربي المسيحي، وزراء النصرانية وكتابها في الإسلام، مرجع سابق.

• عبد المسيح الإسرائيلي المنتصر

وكان يهودياً اهتدي إلى المسيحية. وأحد مصادر معرفة نشاطه العلمي جاء في مقدمة كتاب اسمه "كتاب الاستدلال لعبد المسيح الإسرائيلي الرقي، الذي تنصّر في القاهرة على يد الشيخ منصور بن سهلان الطيب"، وهذا الطيب هو الطيب المسيحي المشهور أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر الذي توفي في أيام الخليفة الحاكم (٩٩٦ - ١٠٢١ م).

وله من الكتب:

- مقالة في إثبات بحى السيد المسيح.

- مقالة في النفس.

- مقالة في الرد على اليهود.

- مقالة في انتصار الصليب على اليهودية الوثنية.

• ميخائيل مطران تيس

ألف تاريخ البطارقة منذ سنة ٨٨٠ - ١٠٤٦ م، وسبق لنا ذكره.

• كتاب اعتراف الآباء

لمؤلف قبطي مجهول، يرجع تاريخه إلى سنة ١٠٧٨ م. وقد اختار مقالات كاملة من آباء الكنيسة وترجمها إلى العربية، وأضاف عليها بعض النصوص التي سبقت ترجمتها مثل الدسقولية، والوثائق الخاصة بالجامع ... الخ. وكان آخر شاهد استعان به هو البابا خريستوذولس الـ ٦٦.

• البابا كيرلس الثاني

هو البابا الإسكندري الـ ٦٧ من باباوات الكرازة المرقسية (١٠٧٨ - ١٠٩٢)، وهو شخصية تقوية، وافرة الحماس أصدر سنة

١٠٨٦م نشرة رعوويّة تضمّنت ٣٤ قانوناً منصّبة بالأكثر على الواجبات الرعوويّة، وتنظيم القضاء الكنسي، وأموراً طقسية.

في القرن الثاني عشر

• البابا غبريال بن ثوريك

وهو البطريك السبعون من باباوات الكرازة المرقسية (١٠٨٤-١١٤٥م)، رُسم بطريكاً سنة ١١٣١م، وله مجموعة قوانين طقسية.

• أنبا ميخائيل مطران دمياط

أوّل أسقف قبطي يحمل لقب مطران، وكان مطراناً في زمن البطريك مرقس بن زرعة الـ ٧٣ (١١٦٦-١١٨٩م)، والبطريك يوانس بن أبي غالب (١١٨٩-١٢١٦م). وكان له جدال مع أحد كهنته، المصلح مرقس بن قنبر الصّريير. وقد توفي في أوائل القرن الثالث عشر.

وله من المؤلفات:

- سماء البغية لمن يطلب لنفسه الخلاص والنّجاة يوم القصاص.
- رسالة إلى أحد علماء المسلمين.
- مختصر القوانين الكنسية.
- رسالة إلى أبي الفخر بن أبي كبر عند نزوحه إلى الملكيين.

• يوحنا بن ساويرس

كاتب مصري، أما ابن أخيه فهو أبو يوسف يعقوب بن ساويرس، ولقد دعاه ابن العسّال "الشيخ الأجل الرّئيس الحكيم الفاضل مصطفى الملك"، أما يوحنا بن ساويرس فله كتاب:

- العلم والعمل في كيفية وجوب البقاء^(٤٦).

• يوحنا بن مينا

شرح مقالة لحنين بن اسحق في كيفية إدراك حقيقة الدِّيانة.

• القس أبو ياسر بن القسطل

كاهن قبطي، وعالم فاضل، مارس خدمته في نواحي طرا من ضواحي القاهرة. اهتم بإصلاح بعض العادات الدِّينية والاجتماعية في الكنيسة، اضطهد لسبب آرائه الإصلاحية، وطُرد من كنيسة العدوية، ولكن ما ألقاه من بذور الإصلاح نبتت ونمت فيما بعد^(٤٧). وله - مقالة في الدفاع عن المسيحية^(٤٨).

• القس مرقس بن موهوب بن قنبر

تسبب في أزمة خطيرة مرّت بها الكنيسة القبطية أواخر القرن الثاني عشر، عندما حاول أن يُدخل إصلاحات طقسية ونظامية في الكنيسة، فتصدى له أنصار القديم والتقليد، ودارت بينهم مجادلات حامية، ولم تصلنا هذه المجادلات إلا من خلال مقاوميه، ولهذا ليس من السهل الوقوف على حقيقة شخصيته. وكان بن قنبر من أنصار إعادة الاعتراف السري على الكاهن في الكنيسة، وكان قد أهمل في الكنيسة القبطية ردحاً من الزمان. إلا أنه شجّع أيضاً التناول المتكرّر خارج القدّاس^(٤٩)، وألغى

٤٦- طُبع في مصر سنة ١٩١٣م.

٤٧- لجنة التاريخ القبطي، خلاصة تاريخ المسيحية في مصر، القاهرة ١٩٣٢م، ص ١٤٣

٤٨- لا يوجد لها سوى نسخة واحدة مخطوطة محفوظة في باريس.

٤٩- أي الاحتفاظ بالقدسات (الجسد والدم الكريمين) ليتناول منها من يريد من الشعب دون ضرورة لإقامة قدّاس.

عادة الختان ... الخ، ولكنه تحوّل إلى طائفة الملكيين، وإذ نشأت أيضاً خلافات بينه وبين رؤساء هذه الطائفة، أراد العودة إلى كنيسته القبطيّة، فأبعده البطريرك إلى دير القصر جنوب القاهرة، حيث مكث به عشرون سنة، وتوفي سنة ١٢٠٨م.

وألف عدّة كتب منها:

- التّقويم السنوي وحساب الفصح، وكتبه سنة ١١٩٣م.
- المعلم والتلميذ^(٥٠).
- المجموع فيما إليه الرجوع.
- تفسير التّوراة.

• أبو صالح الأرمني

له كتاب "تاريخ الكنائس والأديرة" كتبه حوالي سنة ١٢٠٠م، وطبع في أكسفورد سنة ١٨٩٥م. وفيه يصف أخبار نصارى مصر في زمانه، مع وصف أديرتهم وبيعهم، وقد ثبت حديثاً أن الكتاب المذكور ليس من تأليفه، ولكنه من تأليف أبي المكارم. وفيه شرح مسهب لحركة الإصلاح التي قام بها مرقس بن فنير^(٥١).

• الرّشيد أبو الخير أبو الطيّب

قس وطبيب من أواخر القرن الثاني عشر، وأوائل القرن الثالث عشر، خدم الوزير تقي الدّين عمر، أيام السّلطان عثمان صلاح الدّين (١١٩٣-).

٥٠- وهو الكتاب الذي نشره حديثاً أبناء البابا كيرلس السّادس تحت عنوان "ذبيحة الاعتراف" منسوبا لأنبا ساويرس بن المقفع. وبالكتاب بعض مواخذات على الكاتب. وقد شرحت ذلك بإسهاب في كتاب "سرّ التّوبة والاعتراف".

٥١- طبع الكتاب في أكسفورد سنة ١٨٩٥م، بمهمة المستشرق إفتس Evetts مع ترجمة إلى الإنكليزية، وتعليق وحواشي وفهارس واسعة.

- ١١٩٨م). وله من المؤلفات:
- جلاء العقول في علم الأصول. ويُدعى أيضاً: "كشف الأسباب الخفية في أسباب المسيحية"، أو "ترياق العقول في علم الأصول".
 - خلاصة معتقد الملة المسيحية. وهو للرد على طائفتي الإسلام واليهودية، وأصل مذاهبهم.
 - البيان الأظهر في الرد على من يقول بالقضاء والقدر.

القرن الثالث عشر

اشتهر في هذا القرن بنو العسّال، وهم عائلة قبطية كبيرة من أعيان مصر في عهد المماليك، أما كبير العائلة وهو أبو بشر يوحنا فأصله من مدينة سدمنت بالفيوم، من أسرة القس بطرس السدمني، وكان كاتباً في الدواوين، وخلف ابناً سار على خطاه هو فخر الدولة أبو سهل جرجس. وهذا خلف ثلاثة إخوة مشهورين خدموا الدولة والكنيسة والعلم، هم: الأسعد أبو الفرج هبة الله، الصفي أبو الفضائل ماجد، والمؤمن أبو اسحق إبراهيم بن فخر الدولة^(٥٢).

• الأسعد أبو الفرج هبة الله

هو أكبر أبناء فخر الدولة أبي سهل جرجس، ويبدو أنه بقى فترة في دمشق مع أخيه الأصغر المؤمن أبي اسحق المستوفي، وقد اشتهر بمكتبته وغزير علمه، وله مؤلفات عديدة، بعضها لاهوتي، وبعضها في الكتاب المقدس، وبعضها الآخر في علم المواريث أو النحو. ومات سنة ١٢٦٠م. ومن مؤلفاته:

٥٢- يرى الأب سمير خليل أن والد هؤلاء الثلاثة لم يكن فخر الدولة أبو سهل جرجس، بل حفيده فخر الدولة.

- مقدمة في قواعد اللُّغة القبطيَّة. وهو تكملة لكتاب يوحنا السَّمْنودي. وفيه عالج اللهجة البحرية واللهجة الصعيدية معاً.
- مقابلة لتراجم الأناجيل الأربعة.
- مقدّمة رسائل القديس بولس الرُّسول التي صَنَّفها أخوه المؤمن.
- حساب الأبطغي. وفيه جدول للبطاركة.
- أرجوزة في هذا الحساب، شرحها البابا يوانس السابع بعد المائة.
- رسالة في النَّفس. ألفها سنة ١٢٣١م.

• الصَّفي أبو الفضائل الأُمجد

وهو الابن الثاني لفخر الدَّولة، عيَّنه البابا البطريرك مستشاره القانوني، وله مؤلِّفات عديدة أشهرها على الإطلاق كتابه "المجموع الصَّفوي"، وفيه قوانين الكنيسة القبطيَّة. وله أيضاً "الصَّحاح في جواب النَّصائح"، "فُحج السَّبيل في تخجيل محرِّفي الإنجيل". ومات سنة ١٢٦٠م.

أمَّا مؤلِّفاته فهي:

- الصَّحاح في الرَّد على النَّصائح.
- فُحج السَّبيل في الرَّد على من قدح في الإنجيل. وهو للرَّد على المدَّعين بتحريف الإنجيل.
- السُّلم المقفي والذهب المصفي. وهو في أصول اللُّغة القبطيَّة.
- تفسير الأمانة المقدَّسة.
- المجموع الصَّفوي. وهو من أشهر كتبه.
- فصول مختصرة في التَّثليث والتَّوحيد.
- أرجوزة في مختصر موارد النَّصارى.
- كفاية المبتدئين في علم القوانين. وهو مفقود حتى اليوم.
- خطب وعظات مسجعة.
- الكتاب الأوسط. وهو دفاع عن ألوهيَّة المسيح.

• المؤتمن أبو اسحق إبراهيم

- أصغر أبناء أبي سهل، وهو كاتب من القرن الثالث عشر، وكان مستوفياً بدمشق أيام الملك الناصر^(٥٣). وله:
- تفسير رسائل بولس الرسول.
 - مجموع أصول الدّين ومسموع محصول اليقين. وهو من أهم كتبه، يقدم فيه منهجاً للعقائد المسيحية.
 - تفسير الأبوكاليسيس.
 - خطب بعيّة.
 - تفسير ما ورد في الإنجيل المجيد عن آلام السيّد المسيح إلى صعوده للسماء.
 - مقالة في إيضاح تقسيم تدابير السيّد المسيح من حين الحمل به إلى الصعود إلى السماء.
 - مقالة في العقائد النصرانية.
 - مقدّمة البصحة المقدّسة.
 - الأعمال الرئيسيّة في الآداب الكنسيّة^(٥٤).

• الوجيه يوحنا القليوبي

- من كتبة القرن الثالث عشر، كان وثيق الصّلة مع أبي اسحق بن العسال، وكانا يتعاونان في البحث والتأليف. ألّف:
- الكفاية. وهو في التّحو والصّرف في اللّغة القبطيّة، وقد سلك في عمله

٥٣- هو الناصر داود بن عيسى الأيوبي (١٢٢٧-١٢٢٩م).

وهناك آخر يُدعى فرج الله بن علم السعداء القبطي ابن العسال أمين الدين، وهو كاتب من القرن الرابع عشر لديوان الأمير تنكز حاكم دمشق، ونائب السلطان على سورية من قبل الماليك (١٣١٢-١٣٤٠م). ومات فرج الله في سنة ١٣٠٤م.

٥٤- نشره جرجس فيلوناؤوس عوض في سنة ١٩٤٢م، بعد تصحيحه ووتجسيع حواشي عليه لإيضاح معانيه ومصادره ومبانيه ومراجعة كل ما فيه، وذلك ضمن سلسلة كُتِب عن القدّاس من النفائس المدفونة.

- منهجاً علمياً أكثر ترابطاً بأقسامه من سابقه يوحنا السَّموندي.
- ترجمة جميع رسائل القُدِّيس بولس الرُّسول من القبطية إلى العربية.
- تفسير رسالة بولس الرُّسول إلى أهل رومية.
- خطب.
- كتاب التَّاموس.

• يوحنا بن زكريا بن سباع

وله كتاب: الجوهرة التَّفيسية في علوم الكنيسة^(٥٥).

• القس سمعان بن كليل

ويُدعى المكين سمعان بن كليل بن مقاره الرَّاهب، من أهل ميكاثيل بشو، أما اسم القرية فهو بشو، وكانت بها كنيسة على اسم الملاك ميخائيل، فكان جماعة النَّصارى المجاورين لها والمتردِّدين عليها يقولون: نروح ميكاثيل بشو، فاشتهرت القرية بهذا الاسم. وكان سمعان كاتباً حاذقاً، وتقلبت به الخدم، فخدم بديوان الجيش في أيام النَّاصر صلاح الدِّين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م، وتميَّز عنده وأعطاه إقطاعاً في هجروان، واستمر بديوان الجيش ثلاث سنوات، ثم ترك الخدمة في أيام العادل أحمد بن أيوب (١١٩٩ - ١٢١٨م)، وترهَّب في دير "أبو يحنس القصر" بقرية الإسقيط بوادي هبيب، وحبس نفسه في صومعة بناها في وسط الدَّير مدَّة تزيد عن ٣٠ سنة، وكانت سيرته فاضلة، وأمره مشهور^(٥٦). وتنيَّح بعد سنة ١٢٣٠م. وله:

٥٥- طُبِع الكتاب في القاهرة سنة ١٩٦٦م، ضمن دراسات شرقية مسيحية في الكنيسة المصرية، وقد حققه ونقله إلى اللاتينية الأب فيكتور منصور مستريح الفرنسي.

٥٦- هذا ما ذكره ابن العميد في تاريخه الذي طُبِع في لندن سنة ١٦٢٥م، (ص ٢٩٩). وقد ذكر ابن العميد أن أبا المكارم بن أبي الطيب تزوَّج أخته.

- روضة الفريد وسلوة الوحيد. في اثني عشر باباً^(٥٧).
- مقالة في وحدانية الباري تعالى وتثليث أقانيمه.

• أبريم الأسقف القبطي

- وله كتاب:
- تاريخ أبنا أبريم الأسقف القبطي. وهو تاريخ العالم منذ الخليقة حتى سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٦م.

• مصطفى الملك أبو يوسف

- من كبار موظفي الدولة في أوائل القرن الثالث عشر. وله:
- أصول الدين المسيحي^(٥٨).

• أبو شاکر بطرس بن الراهب

- وله:
- كتاب التاريخ.
- البرهان في القوانين المكتملة وانقراض المهملات. وهو كتاب في العقائد والتعاليم المسيحية من ٥٢ فصلاً.
- الشفا فيما استتر من لاهوت المسيح وما اختفى.
- مقدمة في التثليث والتوحيد.

• ابن العميد

- هو جرجس بن أبي الياسر بن أبي المكارم بن أبي الطيب. المعروف بابن العميد. وُلد في القاهرة سنة ١٢٠٥م، ومات في دمشق سنة ٧٣

٥٧- طبع في القاهرة سنة ١٨٨٤م.

٥٨- نشره الأب سمير خليل اليسوعي في مجلة رسالة الكنيسة سنة ١٩٧٧م، ص ٧٣

١٢٧٣م. وله:

- المجموع المبارك. وهو تاريخ العالم حتى الهجرة.
- تاريخ المسلمين. وهو كتاب في تاريخ الإسلام منذ الهجرة حتى موت الخليفة المستنصر بالله سنة ١١١٨م.
- وكان تاريخ بن المكين هو المصدر الأساسي لكتاب الخطط والآثار للمقرئزي في الأجزاء الخاصة بالمسيحيين. وقد واصل عمله المفضل بن الفضائل في القرن الرابع عشر.

• البابا كيرلس بن لقلق

- وهو بطريرك الإسكندرية (١٢٣٥ - ١٢٤٣م)، وهو القس داود بن يوحنا الفيومي. وله:
- مجادلة مع جماعة من المسلمين بمجلس الملك الكامل بن العادل بن أيوب، حضر فيها القس بولس البوشي.
- مسائل وأجوبة.

• القس بطرس السَّدمنتي

- راهب قبطي من أصل أرمني، عاش في دير مار جرجس في سدمنت في الفيوم، وعاصر بولس البوشي، وإحدى مقالاته مؤرَّخة بتاريخ سنة ١٢٦٠م، ومن بين مؤلفاته:
- رسالة في تفسير الإنجيل.
- مقالة في تقسيم تدابير المسيح من حين الحمل به إلى حين صعوده إلى السماء.
- مقالات لاهوتية.
- كتاب تصحيح الاعتقاد في آلام سيدنا يسوع المسيح، وبيان الحق فيه على الوجه الصحيح.
- مقالات في تراجم القديسين، والدِّفاع عن الدين.

- مختصر في تهذيب النفس.
- أرجوزة في الاعتقاد.

• الأنبا بولس البوشي

هو مطران مصر، وقد اشتهر في عهد البطريك كيرلس بن لقلق، كان خطيباً بليغاً. وقد ورد عنه في مخطوط منسوخ في دير السريان ما يلي: "وعدقوا له (أي للبطريك كيرلس بن لقلق) مجلساً مع القس بولس البوشي بحضور نيقولا البطريك الملكاني بين يدي الملك الكامل بالقلعة بحضور جماعة كبيرة من فقهاء المسلمين وعلمائهم، ورجَّحه السلطان في العلم وشكر تعليقه المسائل التي أوردتها السلطان والفقهاء وغيرهم عليه". وله من المؤلفات:

- سبعة ميامر (عظات) على الأعياد المريمية.
- ميامر متفرقة في عيد البشارة، وفي ميلاد السيد المسيح، وفي معرفة الإله المنجس، وفي معمودية الرب، وفي القيامة، والصعود، وحلول الروح القدس.
- كتاب تفسير سفر الرؤيا.
- كتاب العلوم الروحانية.

• الأنبا ميخائيل الأتريبي

- وهو أسقف ملبج وأتريب، وإليه يُعزى جمع كتاب السنكسار وترتيبه. وألف من الكتب:
- الطب الروحاني في علاج الداء النفساني.
 - كتاب في دين النصرانية.
 - إيضاح الاتحاد.
 - أجوبة على أسئلة عرضت عليه.
 - أجوبة على اثني عشرة مسألة عرضها عليه أحد علماء المسلمين.

• الأنبا يوحنا نعمة الله

وهو أسقف قبطي وله:
- سيرة القديسة الشّهيدة دميانه.

• يوانس أسقف إسنا

وله:
- خبر القديسة الشّهيدة دميانه.

• الأنبا يوانس أسقف أسيوط

وله:
- كتاب أخبار الشّهداء الذين قتلوا في مدينة إسنا.

• الأسعد بن الدهيري

وهو اسمه قبل ترهبه، وهو الأنبا يوانس أسقف سمند، وقد أشاد أبو اسحق بن العسّال في مقدّمة قاموسه بعلمه، وله:
- مقدّمة السُّلم. ويقدم فيه مبادئ اللّغة القبطيّة في النّحو والصّرف.
- السُّلم الكنائسي. وهو التّرجمة العربيّة لأهم مصطلحات الكتاب المقدّس، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللاتينيّة والإيطاليّة.
- أخبار الشّهداء الذين قتلوا في مدينة سمند.
- نور المحاسن.

• ابن السّعد الدهيري (وهو أنبا خريستوذولوس مطران دمياط)

وهو أنبا خريستوذولوس مطران دمياط، وكان حجة في اللّغة القبطيّة، وله مقدّمة في أصولها. وقد أوضح هو نفسه سبب تأليف هذا

الكتاب. وهو أن أبا اسحق بن العسال، عندما قدّم له قاموسه طلب منه صورة من كتاب النحو لوجيه القليوبي بعد تكميله وتنقيح ما يوجد من أخطاء. وقد لفت نظره أيضاً إلى كتاب النحو لابن كاتب قيصر. وقد لاحظ ابن الدهيري أن كلا سابقيه قد اعتمد على كتاب النحو للسمنودي. فألف ابن الدهيري منقحاً أخطاء سابقيه ومكماً عملهما.

• أنبا يوساب أسقف فوه

وله:

- التاريخ الكنسي. وهو الكتاب المشهور له.

• ابن كاتب قيصر

هو علم الرئاسة أبو اسحق إبراهيم بن أبي الشاء بن صفى الدولة أبي الفضائل كاتب قيصر، وكان كاتباً للأمير علم الدين قيصر الأسنوبي، وعاش في أواسط القرن الثالث عشر. وله:

- النصارى في أصول اللغة القبطية.

- شرح سفر الرؤيا (٥٩).

- شرح كامل لرسائل بولس الرسول. طبع بعض أجزاء منها في مصر.

• أبو شاكر بطرس بن أبي المكارم

ابن مهذب الشماس ابن الراهب. وهو من أواخر القرن الثالث عشر، ومن مؤلفاته:

- الشفاء في كشف ما استتر من لاهوت المسيح واختفى، وفي صحة طبيعته.

٥٩- نشره لأول مرة فرنسيس ميخائيل في القاهرة سنة ١٨٩٨م، وطبعه أخرى أحدث نشرها أرمانوس حبشي شتا البرماوي في القاهرة سنة ١٩٣٩م تحت عنوان "تفسير رؤيا القديس يوحنا اللاهوتي لابن كاتب قيصر".

- البرهان والقوانين المكملة والفرائض المجلمة.
- التَّوَارِيخ. لتعريف الأقباطي والأعياد السَّيْديَّة في الكنيسة القبطيَّة.
- المِجَامِع السَّبْعَة. منقول عن كتاب التَّوَارِيخ.
- أصول مقدِّمة سلم اللُّغة القبطيَّة.
- تاريخ بن الرَّاهِب. من أوَّل الخليقة إلى زمانه (٦٠).

القرن الرَّابِع عشر

• الشَّيْخ الرَّئِيس شمس الرَّئِاسة أبو البركات بن كبر

هو شمس الرَّئِاسة بن الشَّيْخ الأَسعد أبو البركات، المعروف بابن كبر. كان كاتباً للأمير ركن الدين بيبرس (٦١)، وجاء في وصف مخطوطات لندن (٦٢) أن كتاب "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" هو للأمير ركن الدِّين بيبرس المنصوري الدودار المتوفى سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م، وقال بدر الدِّين العيني في تاريخه، إن الكتاب في أحد عشر مجلداً، واستعان (بيبرس) على ذلك بكاتبه ابن كبر النصراني، ونهاية هذا التاريخ سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م.

وكان بن كبر من أعظم علماء الأقباط، ويظن البعض أنه كان طبيباً لما بدا في كتاباته من دقة عن العقاقير والعطور. وقد عُزل عن الدَّوَّارين في زمن الملك الأشرف صلاح الدِّين سنة ١٢٩٣م، فرُسم

٦٠- وقد نشره الأب شيخو في بيروت سنة ١٩٠٣م.

٦١- هو الأمير القائد بيبرس المنصوري، اشترك في معارك بيبرس الأوَّل الظَّاهر ركن الدين ضد الصَّليبيين، وعُيِّن والياً على الكرك. وله: "الثَّحفة الملوكة"، و"زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة".

- كاهناً سنة ١٣٠٠م، وانصرف إلى الدِّراسة والتأليف. وله:
- مصباح الظلِّمة في إيضاح الخدمة. وهو أشهر كتبه.
 - الرَّد على اليهود والمسلمين.
 - رسالة البيان الأظهر في الرَّد على من يقول بالقضاء والقدر.
 - السُّلَّم الكبير المقترح (٦٣).
 - ألف ٥٧ خطبة ومرثية تُتلى في المناسبات الدِّينيَّة المختلفة.
 - جلاء العقول في علم الأصول. وهو الملقب بـ "كهف الأسرار الخفيَّة في أسباب المسيحيَّة".
 - قائمة بأسماء المدن والقرى المصريَّة.
 - فهرس لجميع الكلمات العبريَّة التي اقتبسها القبط من أسفار العهد القلم.
 - الفضل بين الآباء الرُّهبان والعلمانيين. وهو مخطوط رقم ٢٧ لاهوت في مكتبة الكنيسة المرقسيَّة بالإسكندريَّة، منسوب لابن كبر، وهو من أربع ورقات، ونُسخ سنة ١٧٧٨م (٦٤).

• أنبا بطرس أسقف مليج

- وهو الشهير باسم أنبا بطرس الجميل. وله:
- كتاب البيان. وهو رد على جمال الدِّين بن محمد المصري.
 - أكمل السَّنكسار الذي رتبه أنبا ميخائيل الأثري.

• صموئيل رئيس دير القلمون بالفيوم

وله:

- ميمر في انتصار الدِّين المسيحي.

٦٣- وهو أكبر معجم قبطي عربي ألفه مؤلف، يحوي عشرة أبواب، مقسَّمة إلى اثنين وثلاثين فصلاً. طُبِع في روما سنة ١٦٨٤م. وتوجد منه عدة نسخ في بعض أديرة مصر، لاسيَّما في دير الأنبا أنطونيوس بالبحر الأحمر.

٦٤- مصباح الظلِّمة في إيضاح الخدمة، للقس شمس الرياسة أبو البركات المعروف بسابن كبر، مكتبة الكاروز، القاهرة، ١٩٧١م، تحقيق الأب سمير خليل اليسوعي، المقدِّمة.

- ميمر في انتصار الصليب الكرم.

• الشماس فرج الله الأحمي

- كتاب أديرة ورهبان مصر.

• أبو سعيد بن سيّد الدّار بن أبي الفضل

عاش نحو سنة ١٣٢٢م، وله:

- قوانين الإنجيل لأمونيوس وأوسابيوس.

• المفضل بن ماجد بن بشر

عاش نحو سنة ١٣٣٠م، وله:

- نقع الفلل ونقع العلل.

• أنبا أثناسيوس أسقف قوص^(٦٥)

وُلد في نواحي "قامولا" في صعيد مصر، وكان ابناً لكاهن اسمه "صليب". وقد ترهّب في دير القديس بقطر، ليس بعيداً عن مدينته "قامولا". وهو عالم في أصول اللغة القبطية^(٦٦). وله:

- "تاريخ طبخ الميرون" في زمن البابا غبريال الرابع (١٣٧٠-١٣٧٨م) بالقبلي والعربي بخط يده^(٦٧).

٦٥- سأورد شرحاً مفصلاً عن هذا الأسقف، وعن المخطوطات التي تحوي كتابات لمؤلف بهذا الاسم، وذلك في كتاب آخر.

٦٦- يقول جراف G. Graf إن أبو البركات لم يذكره في قائمة المؤلفين التي وضعها، ويعقب الأب أوجو زانتي Ugo Zanetti بقوله: ليس في ذلك غرابه، لأنه في زمن ابن كبير لم يكن أنبا أثناسيوس أسقف قوص قد وُلد بعد.

٦٧- وهي المرّة الأخيرة التي جرى فيها طبخ الميرون في دير القديس أنبا مقار انظر: المخطوط رقم (١٠٦ طقس) بمكتبة البطريكية بالقاهرة وهو بتاريخ ١٣٧٤م.

- "قلادة التحرير في علم التفسير" وهو في قواعد اللغة القبطية الصعيدية والبحيرية.
- أرجوزة عن المعمودية.
- ١٠١ سؤال وجواب فيما يختص بقوانين الرُّسل.
- وهناك كتابات أخرى منسوبة لهذا الاسم في المخطوطات.

القرن الخامس عشر

يطلق جورج جراف G. Graf (في الجزء الرابع، ص ١١٤) على القرن الخامس عشر وما يليه من قرون حتى القرن الثامن عشر "عصر الانحطاط"، سواء من حيث الكم، أي في عدد الكتاب، أو من حيث النوع، أي في نوعية الكتابات. ونرى نفس هذا الانحطاط الفكري في الأدب العربي بشكل عام في هذه الفترة إن في مصر أو خارجها.

• البابا غبريال الخامس

وهو البطريرك الـ ٨٨ من باباوات الكرازة المرقسية، رُسم بطريركاً سنة ١٤٠٩م في أيام الملك فرج بن برقوق. وإليه يعود الفضل الأوّل فيما استقرّت عليه طقوس الكنيسة القبطية في أيامنا هذه، لاسيّما في القدّاس الإلهي بفضل مؤلفه الثمين "الترتيب الطقسي"، والذي عنى بنشره الأب ألفونس عبد الله الفرنسيسكاني، حيث كانت الطبعة الثانية له بالقاهرة سنة ١٩٦٤م، وذلك بسبب أن القمص عبد المسيح المسعودي الذي طبع في مصر أوّل خولاجي قبطي يحوي الثلاثة قدّاسات سنة ١٩٠٢م، حاوياً

بحسب ترقيم كتالوج مرقس سيمكة باشا. وهو نفسه مخطوط رقم (٧٢٣ طقس) بحسب ترقيم جراف. وهذا المخطوط قد حققه معاً كل من الأب أوجو زانتي Ugo Zanetti والدكتور يوحنا نسيم يوسف.

حواشي وشروحات كثيرة مطوَّلة نقلها بحرفها عن كتاب "التَّرتيب الطَّقسي". وصار هذا الخولاجي هو الكتاب المتداول حتى الآن في طبعات متتالية له في كل كنائس مصر. وعلى ذلك يكون البابا غبريال الخامس هو الذي نقل إلينا طقس الكنيسة القبطيَّة للقدَّاس الإلهي في شرح متكامل.

• قرياقس أسقف البهنسا

وله:

- ميمر في قيامة السيِّد المسيح.
- ميمر في مديح العذراء مريم والدة الإله.
- ميمر في هرب العائلة المقدسة إلى مصر.
- ميمر في مديح الشُّهداء الذين قتلوا في مدينة إسنا.

• أنبا يوساب مطران أحميم

وله:

- جدال مع بعض المسلمين.
- بيان صحة الديانة المسيحيَّة.
- مقالة في التَّثليث.
- مقالة في تأنس كلمة الله^(٦٨).

٦٨- ذكر الأب لويس شيخو في كتابه "وزراء النصرانية وكتابها في الإسلام" وهو الكتاب الذي زاد عليه ونقحه الأب كميل حشيمة اليسوعي، وصدر سنة ١٩٨٧م، من أعلام النصرانية خلال الفترة من القرن السابع وحتى أوائل القرن السادس عشر (٦٢٢-١٥١٧م) أكثر من مائة وزير وكاتب قبطي ذكرتُ هنا أهمهم.

القرن السابع عشر

• المعلم بطرس سوريال

عاش نحو سنة ١٦٢٣م، وله:
- الأقباط وعلمائهم.

• الشيخ المعلم بطرس بن غبرئيل

عاش نحو سنة ١٦٢٧م، وله:
- رد على الشيخ باء الدين المنوفي.

• المعلم جرجس الأشموني سيداروس

عاش نحو سنة ١٦٥٧م، وله:
- العقائد النصرانية.

• جرجس بن قرياقس غبريال

وله:
- مجموع قصائد وزجليات روحية.

• المعلم مينا بن مقار المطي

وله:
- كتاب شرع الكنيسة القبطية.

• يوسف أبو دقن

وهو من أهم شخصيات القرن السابع عشر. وقد أرسله البابا غبريال

الثامن (١٥٨٧-١٦٠٣م) السَّابع والتسعون من بطاركة الكنيسة القبطيَّة إلى روما في إطار العلاقات بين الكنيستين الكاثوليكيَّة والقبطيَّة الأرثوذكسيَّة آنذاك. إلاَّ أن يوسف أبو دقن لم يعد إلى مصر وظل في روما، وأسبغ على اسمه مظهراً لاتينياً فأصبح اسمه Josef Barbatus أو Adudacnus كما لقَّب هو نفسه باسم المنفي memphiticus أو المنتسب إلى مدينة منف. وفي ذلك دلالة على إظهار مصريته.

وفي روما اجتهد أبو دقن في تعلُّم اللُّغات الإيطاليَّة والفرنسيَّة والأسبانيَّة بالإضافة إلى اللغات القديمة اليونانيَّة واللاتينيَّة والكلدانيَّة والسَّريانيَّة والعبريَّة، إلى جانب اللُّغة القبطيَّة واللُّغة العربيَّة. وأيضاً اللُّغة التركيَّة التي كانت لغة الإدارة في مصر.

وهكذا أهلته مواهبه العديدة لأن يبدأ حياته العمليَّة مترجماً في بلاط الملك هنري الرَّابع في باريس حوالي سنة ١٦٠٠م.

وذاع صيت أبو دقن فانتقل إلى إنجلترا وأصبح معلماً للُّغة العربيَّة في جامعة أكسفورد. ولم تمض عليه عدَّة شهور في هذه الجامعة العريقة حتى ألَّف كتاباً باللُّغة اللاتينيَّة تناول فيه تاريخ الكنيسة القبطيَّة في مصر وليبيا واثيوبيا وقبرص، ولم ير أبو دقن هذا العمل العظيم منشوراً، حيث تم طبع هذا الكتاب في أكسفورد سنة ١٦٧٥م أي بعد وفاته بأكثر من أربعين عاماً. ولأهميَّة هذا الكتاب في ذلك الوقت تم ترجمته من اللاتينيَّة إلى الإنجليزيَّة في سنة ١٦٩٣م. وقام بعض العلماء بإعادة طباعة الكتاب الأصلي مع بعض الإضافات في ليون هولندا سنة ١٧٣٣م. ثمَّ ظهرت التَّرجمة الألمانيَّة له في مدينة ليبك سنة ١٧٤٠م.

ويرجع هذا الاهتمام العلمي بكتاب أبو دقن إلى براعة مؤلفه وتبسيط

عرض تاريخ الكنيسة القبطية بأسلوب جديد بالنسبة لعصره. إذ أعد أبو دقن كتابه في ثلاثة وعشرين فصلاً تناول فيها الأصول القديمة للكنيسة وتاريخها وتركيبها سلمها الكهنوتي، ثم عادات الأقباط وشعائهم وطقوسهم.

وقد قام أبو دقن بتدريس اللغة القبطية مستخدماً نصوص الكتاب المقدس وشعائر وطقوس الكنيسة المكتوبة بالقبطية.

ثم انتقل أبو دقن إلى جامعة لوفان الشهيرة في بلجيكا، وقام بتدريس اللغة العبرية. وقام بتأليف أجرومية وقاموس عربي - لاتيني وغير ذلك من المؤلفات. أما أهمها فهو كتاب المزامير الذي نسقه في أربع لغات هي العبرية والعربية واللاتينية واليونانية.

ويبدو أن أبو دقن لم ينعم بالاستقرار في حياته الأخيرة. فنعرف أنه أمضى بضعة أعوام في ميونخ بألمانيا حيث عمل في مكتبة الدوق (١٦١٨-١٦٢٠). وتحتفظ مكتبة فيينا بمخطوط مؤرخ عام ١٨٢٠م من تأليفه يشتمل على مختصر لقواعد اللغة العربية مما يشير إلى أن أبو دقن ربما توجه إلى فيينا. وعموماً ليس لدينا تفاصيل عن سنوات حياته الأخيرة التي انتهت حوالي سنة ١٦٣٠م بعد رحلة عمل دائب لأول عالم من الشرق قام بتدريس لغات الشرق الأوسط في جامعات أوروبا^(٦٩).

القرن الثامن عشر

• أنبا روفائيل الطوخي

من مواليد جرجا سنة ١٧٠٣م، انضم إلى الكاثوليكية مع والديه سنة

٦٩- دكتور جودت جيره، علماء أقباط في أوروبا سبقوا نمضة محمد علي، جريدة وطني.

١٧١٤م على يد أحد المرسلين اليسوعيين. وعن طريق مجمع انتشار الإيمان سافر إلى روما سنة ١٧٢٤م وبقي بها اثني عشر سنة، وحصل على الدكتوراه في الفلسفة واللاهوت سنة ١٧٣٢م. ورُسم كاهناً في كنيسة كَلِّيَّة نشر الإيمان بروما سنة ١٧٣٥م، وكان قد أجاد اللُّغات القبطيَّة والعربيَّة والإيطاليَّة واللاتينيَّة.

قام بطبع الخولاجي القبطي في يونيو سنة ١٧٣٦م. وهو أوَّل كتاب طقسي للكنيسة القبطيَّة يتم طباعته^(٧٠). عاد إلى مصر سنة ١٧٣٧م، وأنصب اهتمامه على طبع الكُتب الطَّقسيَّة القبطيَّة. عاد إلى روما سنة ١٧٤٠م وأسندت إليه إدارة دير القُدِّيس إسطفانوس بروما^(٧١). وهناك بدأ في نسخ المخطوطات الطَّقسيَّة القبطيَّة التي سُلِّمت إليه من قِبَل مجمع انتشار الإيمان^(٧٢)، فنقلها إلى اللاتينيَّة أو الإيطاليَّة كي يتسنى للجنة الباباويَّة المكلفة بمراجعة كتب طقوس الكنائس الشَّرقيَّة الإطِّلاع على طقس الكنيسة القبطيَّة. وظلَّ ينسخ المخطوطات زهاء خمس وعشرين سنة، ويراجعها ويترجمها ويشرف على طباعتها.

فُنشرت لأوَّل مرَّة معظم الكتب الطَّقسيَّة القبطيَّة التي تمارسها الكنيسة القبطيَّة في مصر، حاوية بعضاً من تقليد الكنيسة الكاثوليكيَّة. ولكنها بصمات باهتة لم تؤثر على الطَّقس القبطي.

وفي سنة ١٧٤٨م عُين أستاذاً في كَلِّيَّة انتشار الإيمان بروما لتدريس

٧٠- هذا واحد من الأسباب التي دفعتني لإيراد ترجمة عن هذا الأب.

٧١- يقع الدَّير خلف كنيسة القديس بطرس داخل أسوار الفاتيكان. وكان البابا كليمنس الثاني عشر قد خصَّصه للرهبان الأحباش والأقباط في يناير سنة ١٧٣١م.

٧٢- وهي المخطوطات القبطيَّة الكثيرة التي نقلها إلى روما المطران يوسف شمعون السَّرَياني، وهو واحد من أكثر النَّاس سطوا على المخطوطات القبطية وترحيلها إلى هناك.

اللغة القبطية والطّقس القبطي، واستمر على ذلك ست وثلاثين سنة، وكان قد بلغ من العمر الثمانين. في سنة ١٧٦١م رُسم أسقفاً لأرسينوه، وكان قد فرغ من نشر الكُتب الطّقسية سنة ١٧٦٤م، وانتقل في أكتوبر سنة ١٧٨٧م. وله من الكُتب (٧٣):

- "كتاب الثلاثة قدّاسات أي الذي للقدّيس باسيليوس والذي للقدّيس اغريغوريوس الثالوثوغوس والذي للقدّيس كيرلس مع صلوات أخرى مقدّسة". سنة ١٧٣٦م.

- "كتاب زابور داود". وهو باللغتين القبطية والعربية. سنة ١٧٤٤م.

- "كتاب الصلوات الثّهاريّة والليبية السبعة". قبطي عربي. سنة ١٧٥٠م.

- "العهد القديم والحديث - الجزء الأوّل". وهو يبدأ من سفر التكوين حتى سفر طوبيا. وهو باللّغة العربيّة نقلاً عن النّص اللاتيني (الفولجاتا). سنة ١٧٥٢م.

- "كتاب يشتمل على الصلوات المقدّسة. الجزء الأوّل لأجل رسامات المختارين لدرجات أهل الإكليروس والكهنة، وتبريك ثياب الرّاهب، وتقديس الميرون والكنيسة". سنة ١٧٦١م.

- "الجزء الثاني من الإفخولوجيون الذي يشتمل على الصلوات المقدّسة الموجودة بفهرس هذا الكتاب". وهو باللغتين القبطية والعربية في صلوات تكريس أواني المذبح وتبريك المياه وخلافه. سنة ١٧٦٢م.

- "كتاب خدمة الأسرار المقدّسة وتجانيز الموتى والهوسات والقطماس الشهرية". وهو بالقبطية والعربية سنة ١٧٦٣م.

- "كتاب الثاودوكيات كترتيب شهر كيهك". سنة ١٧٦٤م.

- "غرامطيق في اللسان القبطي (أي المصري) لبيان نسق الكلام البحري والصعدي في اللسان المذكور بنموذجات من الكُتب المقدّسة المسطرة بالنسق الواحد والآخر". وهو كتاب في مبادئ اللّغة القبطية. سنة ١٧٧٨م.

٧٣- الأنبا إسطفانوس الثاني بطريك الإسكندرية وسائر الكرازة المرقسية للأقباط الكاثوليك، الأنبا روفائيل طوخي (١٧٠٣-١٧٨٧) حياته ومؤلفاته، القاهرة، ١٩٨٧م.

♦ وله أيضاً مائة وخمسة وعشرين مخطوطاً^(٧٤). وهي إمَّا مخطوطات عربيَّة، أو قطبيَّة عربيَّة، أو لغوية. سواء كانت من تأليفه الخاص أو ترجمات له من اللاتينيَّة أو الإيطاليَّة إلى العربيَّة، أو نساخة بعض المؤلفات.

أمَّا مؤلفاته الخاصة فهي:

- شهادات كتب الأقباط الطَّقْسيَّة لإثبات الطَّبِيعتين والفاعلين في السيِّد المسيح^(٧٥).

- الكنيسة القبطيَّة والأقباط بمصر^(٧٦).

ومن بين ترجماته:

- السنكسار الرُّوماني. سنة ١٧٤٨م^(٧٧).

- تفسير القديس غريغوريوس النيصي لسفر نشيد الأناشيد، سنة ١٧٥٦م^(٧٨). وسفر الجامعة، سنة ١٧٦٣م^(٧٩)، والصلاة الرئيَّة وتطويرات الإنجيل، سنة ١٧٦٤م^(٨٠).

- مقتطفات من مؤلفات مكاريوس الحلبي بظريرك أنطاكية. سنة ١٧٥٧م^(٨١).

٧٤- منها أحد عشر مخطوطاً باللُّغة العربيَّة في مكتبة دير الشرفة للسريان الكاثوليك بلبان. وأربع مخطوطات عربيَّة حوزة القمُّص عبد المسيح صليب اليرموسي المسعودي. ومائة وعشرة مخطوط محفوظة في مكتبة الفاتيكان بروما. فرع مخطوطات الكاردينال بورجيا Borgia القسم الخاص بالأقباط.

وأمام كل مخطوط ترد الاختصارات التَّالية:

بين شرطين مائلتين / / يرد رقم المخطوط مسبقاً بحروف / ب / ع / أي "بورجيا Borgia عربي"، أو / ب / ق / أي "بورجيا Borgia قطبي"، أو / ش / أي "مكتبة دير الشرفة بلبان"، أو / ص / أي "حوزة القمُّص عبد المسيح صليب اليرموسي".

٧٥- / ب / ع ٩٤ - ش ٥/٣٨ - ص /.

٧٦- / ص /.

٧٧- / ب / ق ٣٦ /.

٧٨- / ب / ق ١١٣ /.

٧٩- / ش / ١/٣٥ - ص /.

٨٠- / ش / ١/٣٥ - ص /.

٨١- / ب / ع ١١٧ /.

- إرشادات القديس باسيليوس الكبير للأب بطرس ميني من رهبان القديس باسيليوس. سنة ١٧٧٥م (٨٢).
 - عظات القديس أغسطينوس. سنة ١٧٧٦م (٨٣).
 - سيرة القديس كيرلس الإسكندري، وأنطونيوس كوكب البرية (٨٤).
- ومن بين ما نسخه من مخطوطات:

- المرعى الروحي *Le pré sprituel* ليوحنا موسخوس. سنة ١٧٤٣م (٨٥).
- سيرة وعظات القديس أفرام السرياني. سنة ١٧٧٥م (٨٦).
- مجموع ثمان وثمانين عظة من عظات يوحنا ذهبي الفم. سنة ١٧٧٦م (٨٧).
- في المقارنة بين حساب السنة القمرية والسنة الشمسية لابن العسال (٨٨).

أما المخطوطات القبطية العربية له (٨٩)، فهي على نوعين: كتب طقسية، وأسفار كتاب مقدس.

وأما الكتب الطقسية على سبيل الحصر فهي:

- الخولاجي (٩٠) - مردات الشمس (٩١) - الأجيبة (٩٢) - خدمة سري المعمودية والميرون (٩٣) - مراسم الخطوبة والإكليل (٩٤) - كتاب الجنائز (٩٥) - كتاب السيامات

٨٢- / ب ع ١٤٤.

٨٣- / ب ع ١٠٧-١١١، ١٢٢، ١٢٣.

٨٤- / ب ع ١٥٨.

٨٥- / ب ع ٦٢.

٨٦- / ب ع ١٤٦.

٨٧- / ب ع ١٤٣.

٨٨- / ب ع ٢٤٠.

٨٩- كل مجموعة المخطوطات القبطية العربية، والمخطوطات اللغوية محفوظة في مكتبة الفاتيكان، فرع مخطوطات الكاردينال بورجيا Borgia - القسم القبطي. ما عدا المخطوط الفاتيكانية القبطي رقم ٨٤ وهو كتاب "الجنائز" أي "التجائز". ولذلك سأكتفي بذكر رقم المخطوط بين شرطين مائلتين / / وسنة نساخته بين قوسين ().

٩٠- / ٨٧/ (١٧٣٤م) - / ٥٨/ (١٧٣٦م) - / ٤٥، ٧٩.

٩١- / ٩/ (١٧٣٥م) - / ٦٩/ (١٧٢٦-١٧١٨م) - / ٣٣/ (١٧٣٦م) - / ٩٦/ (١٧٦٩م) -

/ ١٠٠، ١٠٠.

٩٢- / ٦/ (١٧٣٤م) - / ١١/ (١٧٢٩م) - / ١٠/.

٩٣- / ٣/ (١٧٣٩م) - / ٨/ (١٧٤٦م) - / ٧٦/ (١٧٤٧م) - / ٤، ٥/ (١٧٥٤م) - / ١٢، ٩٧.

والتكريسات (٩٦) - كتاب الثاودوكيات (٩٧) - الدَّفنار أو كتاب الأَبصلمودِّيَّات (٩٨) - القطمارس (٩٩) - ترتيب البَصَّحة المقدَّسة (١٠٠) - مقتطفات متنوِّعة (١٠١).

ومن أسفار الكتاب المقدَّس:

- أسفار التَّوراة (١٠٢) - سفر المزامير وسفر نشيد الأناشيد (١٠٣) - سفر أيوب (١٠٤) - أسفار الأنبياء (١٠٥) - أسفار العهد الجديد (١٠٦).

أمَّا المخطوطات اللُّغويَّة فهي على سبيل الحصر:

- تعريب كتاب مبادئ اللُّغة القبطيَّة للأب بونجور من رهبان القديس أوغسطينوس (١٠٧) - مجموعة مخطوطات أعدها طبع كتابه في مبادئ اللُّغة القبطيَّة لطلبة كلية نشر الإيمان بروما (١٠٨) - كتاب السلم. ويشمل القواعد والمفردات. وهو مقتطفات من مؤلفات بهذا الخصوص للسمنودي وأبو التركات وابن العسَّال والقلبيوي (١٠٩) - قاموس قبطي بحري عربي مؤلف من كلمات أسفار التَّوراة الخمسة (١١٠) - قاموس قبطي بحري وعربي مؤلف من كلمات الأناجيل والرسائل والكتب الطقسيَّة (١١١) - كتاب كثر المفردات. وهو لاتيني قبطي يوناني عربي. وهو

٩٤- /٧٦، ٨/

٩٥- المخطوط الفاتيكانى القبطي رقم ٨٤ (١٧٣٦م) - /٨/ (١٧٤٦م) - /٧٦/.

٩٦- /٧٥، ٧٧، ٧٩، ٨٠، ٨٥/.

٩٧- /٧٥/.

٩٨- /٨٧/ (١٧٣٤م) - /٥٤/ (١٧٦٠م) - /٢٧، ٢١، ٩٦/.

٩٩- /٢١، ٢٧، ٣٠، ٣١، ٣٤، ٣٥، ٥٨، ٧٢، ٧٣، ٧٩، ٨٦، ١٣١، ١٣٢/.

١٠٠- /١١/ (١٧٢٩م) - /١٢، ٢٧، ٨٦، ٩٦/.

١٠١- /٣٧، ٤٢، ٤٨، ٤٩، ٨٣/.

١٠٢- /٤٦، ٥٦/.

١٠٣- /٦١/.

١٠٤- /٨٢/.

١٠٥- /١١٠، ١٢٣/.

١٠٦- /٥٧، ١٠٥، ١٢٩، ٧١، ٦٧/.

١٠٧- /٢٣، ٢٤، ٨١، ٨٤/.

١٠٨- /٢٥، ٤٠، ٥٠، ٧٤، ٨٢، ٩٨/.

١٠٩- /١٥، ١٦، ١٠٥، ٣٩/.

١١٠- /١٧-٢٠، ٦٢/.

١١١- /٤٧/.

مجلد ضخيم من أربعة أجزاء^(١١٢) - قاموس إيطالي عربي قبطي يوناني من جزئين^(١١٣).

• الأب بسورة الحريري

عاش نحو سنة ١٧٤٤م، وله:

- مجموع مقالات وقصائد.

• بطرس بن صهيون

وهو المعروف بالقتامي، من مدينة أحميم. وعاش نحو سنة ١٧٦٩م،

وله من الكتب:

- مختصر البرهان الوكيد في حقيقة يوم عيد الفصح المجيد.

• الأب يوحنا المنياوي

عاش نحو سنة ١٧٤٤م، وله:

- ميامر لأعياد الأقباط.

• أنبا يوساب الأبح

رُسم أسقفاً لجرجا سنة ١٧٩١م، وهو عالم جليل وباحث لاهوتي،

وله من الكتب:

- سلاح المؤمنين.

القرن التاسع عشر

• الإيغومانس فيلوثاؤس إبراهيم

وُلد بمدينة طنطا سنة ١٨٢٧م، ورُسِم قساً بها سنة ١٨٦٣م، وإذ برع في الوعظ استدعاه البابا ديمتريوس الثاني الـ ١١٢ لمرافقته في رحلة رعويّة بالوجه القبلي سنة ١٨٦٧م، فأظهر اقتداراً عظيماً في الوعظ المرتجل والدِّفاع عن عقائد الكنيسة القبطيّة. وفي سنة ١٨٧٤م انتخبه المجلس الملي راعياً للكاتدرائيّة المرقسيّة بالقاهرة، ورئيساً لمدرسة الرهبان. وله مؤلّفات كثيرة وأعمال عظيمة.

ولعلاقته الوطيدة بالبابا كيرلس الخامس استطاع أن يُدخل طقس تمثيل القيامة في الكنيسة البطريركيّة، نقلاً عن الكنيسة اليونانيّة بعد إجراء بعض التّعديلات عليه، وانتشر هذا الطّقس تدريجياً في عموم الكنائس القبطيّة. وهو أيضاً الذي أدخل قطعة "يا كل الصُّفوف السّمائيين"، التي تقال قبل دورة القيامة، وسرعان ما حلّت محلّ اللّحن القبطي القديم الأصيل *Κατα Νιχορος ἐτ σωτηρι ερωουτ* أي: "كل الصُّفوف التي أسمعها...". وكان ينوب عن البابا البطريرك في مقابلة الحُكّام، وكانوا يحبونه لفصاحته وحسن أسلوبه، وسعة إطلاعه. وكان قد حصل على نياشين من الخديوي توفيق والخديوي عبّاس حلمي الثاني، ونال تكريماً من أبطرارة إثيوبيا. وقد كتب إليه النجاشي يوحنا سنة ١٨٨٢م رسالة كلّها تبجيل استهلها بقوله:

"إلى الأب المعظّم مستقيم الرأي والضّمير، كثر الحكمة، واسع العقل، طويل الرّوح، الرّاعي والحافظ للأمانة الإسكندرّيّة".

وكتب إليه النجاشي فيليك رسالة سنة ١٨٩٩م يطلب فيه كتبه

لترجمتها إلى الإثيوبية. وراسله أيضاً الأنبا أبرآم أسقف الفيوم، والقُصص عبد المسيح المسعودي. وتنتج بسلام سنة ١٩٠٤م^(١١٤).

• الأنبا أثناسيوس مطران بني سويف

ولد بمدينة أسيوط سنة ١٨٨٣م، وترهب في دير البراموس سنة ١٩٠٣م. وبعد سنتين دخل مدرسة الرهبان الإكليريكية في الإسكندرية وهي التي أسسها البابا كيرلس الخامس، ثم رُسم قساً سنة ١٩١١م، وبعد سنتين عُين مدرساً بالمدرسة اللاهوتية، ومعلماً للقسم الدِّيني بمدرسة الأقباط المرقسية. وفي سنة ١٩١٧م عُين وكيلاً للبطريركية بالإسكندرية، وظلَّ بها إلى أن أُقيم أسقفاً لكرسي بني سويف والبهنسا باسم الأنبا أثناسيوس. وفي سنة ١٩٢٥م رُقي إلى رتبة المطرانية، وكان كثير النشاط، سامي الأخلاق. وإليه يرجع الفضل في طبع الكُتب الكنسية الطقسية^(١١٥)، والتي لازالت مستخدمة حتى اليوم في أنحاء الكرازة المرقسية. وكان واعظاً قديراً. وله:

- كتاب السرِّ الجلي^(١١٦).

• الكاهن يوحنا الشفتيشي

ولد في القاهرة في القرن الثامن عشر، وعاش ومات في فرنسا في القرن التاسع عشر. وهو الكاهن القبطي الذي علّم شامليون - الذي فك رموز اللُّغة المصرية القديمة - اللغة القبطية، كما يذكر شامليون ذلك

١١٤- انظر: وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها، مرجع سابق، ص ٣٨٧

١١٥- قام بطبع كتاب طروحات وإيضاليات برموني وعيدي الميلاد والغطاس سنة ١٩٢٠م، وكتاب اللقانات والسُّجدة سنة ١٩٢١م، وكتاب البصخة المقدسة قبطي

عربي سنة ١٩٢١م، وقطمارس الصُّوم الكبير قبطي وعربي سنة ١٩٢٣م.

١١٦- ويظهر فيه تبحُّره في العلوم الدِّينية واللاهوتية.

بنفسه في خطاب أرسله إلى أخيه، يقول له فيه: "إنني ذاهب إلى كاهن قبطي يسكن في سانت روش Saint-Roch في شارع سانت هونوري Saint-Honore وهذا الكاهن يعلمني الأسماء القبطيّة وكيفية نطق الحروف وإنني أكرّس الآن نفسي كلية لتعلم اللّغة القبطيّة إذ أريد أن أتقن هذه اللّغة مثلما أتقن الفرنسيّة. وإن نجّاحي في دراسة الرديّات المصريّة سيعتمد على إتقاني لهذه اللّغة القبطيّة". وهو أمر ذو أبعاد كبيرة.

كما ورد ذكر يوحنا الشفتيشي في خطاب لوزير داخلية فرنسا مؤرّخ سنة ١٨٠٢م بشأن بعض العلماء الذين كانوا يعملون في إعداد كتاب "وصف مصر" يقول فيه: "جاءتني تزكية عن الكاهن القبطي المدعو يوحنا بأنه يتمتّع بسمعة كعالم متمكن من اللّغات الشرقيّة. وقد علمتُ أنه يمكن الاستفادة من كفاءته في العمل العظيم الذي ينكب عليه الآن العلماء العائدين من مصر ..." (١١٧).

فهرس أبجدي بمن وردت أسماؤهم في هذا الفصل

- إبراهيم بن عدي/ القرن العاشر.
- إريم الأسقف القبطي/ القرن الثالث عشر.
- ابن السّعد الدهيري (أبنا خريستوذولوس مطران دمياط)/ القرن الثالث عشر.
- ابن العميد (حرجس)/ القرن الثالث عشر.
- ابن كاتب قيصر/ القرن الثالث عشر.
- أبو السّعد بن سيّد الدّار/ القرن الرابع عشر.
- أبو حبيب ميخائيل ابن بدير (الشماس)/ القرن العاشر.
- أبو شاكر بطرس بن أبي المكارم/ القرن الثالث عشر.
- أبو شاكر بطرس بن الرّاهب/ القرن الثالث عشر.

- أبو صالح الأرميني / القرن الثاني عشر.
- أبو صلح يونس بن عبد الله سيد بن بانا / القرن الحادي عشر.
- أناسيوس (الأنبا) أسقف قوص / القرن الرابع عشر.
- أناسيوس (الأنبا) مطران بني سويف / القرن التاسع عشر.
- الأسعد أبو الفرج هبة الله بن العسال / القرن الثالث عشر.
- الأسعد بن الدهيري / القرن الثالث عشر.
- الرشيد أبو الخير أبو الطيب / القرن الثاني عشر.
- الصفي أبو الفضائل الأجد بن العسال / القرن الثالث عشر.
- المؤمن أبو اسحق إبراهيم بن العسال / القرن الثالث عشر.
- المفضل بن ماجد بن بشر / القرن الرابع عشر.
- الوجيه يوحنا القليوبي / القرن الثالث عشر.
- بسوره الحريري (الأب) / القرن الثامن عشر.
- بطرس (الأنبا) أسقف مليح / القرن الرابع عشر.
- بطرس السدمني (القس) / القرن الثالث عشر.
- بطرس بن صهيون / القرن الثامن عشر.
- بطرس بن غريثيل (الشيخ المعلم) / القرن السابع عشر.
- بطرس سوريال (المعلم) / القرن السابع عشر.
- بقيره الشماس / القرن الحادي عشر.
- بولس البوشي (الأنبا) / القرن الثالث عشر.
- جرجس الأشموني (المعلم) / القرن السابع عشر.
- جرجس بن قرياقس غريال / القرن السابع عشر.
- روفائيل الطوخي (الأنبا) / القرن الثامن عشر.
- ساويرس ابن المقفع (الأنبا) / القرن العاشر.
- سمعان بن كليل (القس) / القرن الثالث عشر.
- شمس الرئاسة أبو البركات ابن كبر (القس) / القرن الرابع عشر.
- صموئيل (الأنبا) رئيس دير القلمون بالفيوم / القرن الرابع عشر.
- عبد المسيح الإسرائيلي المنتصر / القرن الحادي عشر.
- غريال الخامس (البابا) / القرن الخامس عشر.
- غريال بن تريك (البابا) / القرن الثاني عشر.
- فرج الله الأحميمي (الشماس) / القرن الرابع عشر.
- فيلوثاؤس إبراهيم (الإيغومانس) / القرن التاسع عشر.
- قرياقس (الأنبا) أسقف البهنسا / القرن الخامس عشر.

- كيرلس الثالث بن لقلق (البابا) / القرن الثالث عشر.
- كيرلس الثاني (البابا) / القرن الحادي عشر.
- مرقس الثالث ابن زرعه (البابا) / القرن الثاني عشر.
- مرقس بن موهوب بن قنبر (القس) / القرن الثاني عشر.
- مصطفى الملك أبو يوسف / القرن الثالث عشر.
- موهوب بن منصور الشَّمَّاس / القرن الحادي عشر.
- ميخائيل (الأنبا) مطران تينس / القرن الحادي عشر.
- ميخائيل (الأنبا) مطران دمياط / القرن الثاني عشر.
- ميخائيل الأتريبي (الأنبا) / القرن الثالث عشر.
- مينا بن مقار المطي (المعلم) / القرن السابع عشر.
- يوانس (الأنبا) أسقف إسنا / القرن الثالث عشر.
- يوانس (الأنبا) أسقف أسيوط / القرن الثالث عشر.
- ياسر بن القسطال (القس) / القرن الثاني عشر.
- يوحنا الشفتيشي (الكاهن) / القرن التاسع عشر.
- يوحنا المنياوي (الأب) / القرن الثامن عشر.
- يوحنا بن زكريا بن سباع / القرن الثالث عشر.
- يوحنا بن ساويرس / القرن الثاني عشر.
- يوحنا بن سعيد بن يحيى الملقب بابن القلزمي / القرن الحادي عشر.
- يوحنا بن مينا / القرن الثاني عشر.
- يوحنا نعمة الله (الأنبا) / القرن الثالث عشر.
- يوساب (الأنبا) أسقف فوه / القرن الثالث عشر.
- يوساب (الأنبا) مطران أحميم / القرن الخامس عشر.
- يوساب الأيبح (الأنبا) / القرن الثامن عشر.
- يوسف أبو دقن (الكاهن) / القرن السابع عشر.
- يوسف بن رجا / القرن العاشر.



ملاحق الكتاب

الملحق الأوّل

باباوات الكنيسة القبطية
ومعاصروهم من الحكّام

الرقم	الابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
١	مار مرقس	٦٨ +	نيرون	٦٨ - ٥٤
٢	أنيانوس	٨٥ - ٦٢	نيرون	٦٨ - ٥٤
			جالبا	٦٩ - ٦٨
			أوتو	٦٩
			فيتيلوس	٦٩
			فمباسبان	٧٩ - ٦٩
			تيطس	٨١ - ٧٩
			دومتيان	٩٦ - ٨١
٣	ميلوس (أبيلوس)	٩٨ - ٨٥	دومتيان	
٤	كيردونوس	١٠٩ - ٩٨	نيرفا	٩٨ - ٩٦
			تراجان	١١٧ - ٩٨
٥	بريموس	١٢٢ - ١٠٩	تراجان	
			هدريان	١٣٨ - ١١٧
٦	يسطس	١٣٠ - ١٢٢	هدريان	
٧	أومانوس	١٤٢ - ١٣٠	هدريان	
			أنطونيوس بيوس	١٦١ - ١٣٨
٨	مركيانوس (١)	١٥٤ - ١٤٣	أنطونيوس بيوس	
٩	كلاديانوس	١٦٧ - ١٥٧	أنطونيوس بيوس	
١٠	أغريينوس	١٨٠ - ١٦٧	ماركوس أوريليوس	١٨٠ - ١٦١
١١	يوليانوس	١٨٩ - ١٨٠	ماركوس أوريليوس	
			كومودس	١٩٢ - ١٨٠
١٢	ديمترس ١ الكرام	٢٣١ - ١٨٩	كومودس	
			برتيناكس	١٩٣
			ديديوس يوليانوس	١٩٣
			سبتيموس ساويرس	٢١١ - ١٩٣
			كاراكالا	٢١٧ - ٢١١
			ماكسينوس	٢١٨ - ٢١٧
			هليو جبالوس	٢٢٢ - ٢١٨

الرقم	البابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
			ألكسندر ساويرس	٢٢٢ - ٢٣٥
١٣	هيراكلاس	٢٣١-٢٤٧	ألكسندر ساويرس مكسيميانوس بوبيينوس جورديانوس فيلبس	٢٣٨ - ٢٣٥ ٢٣٨ ٢٣٨ - ٢٤٤ ٢٤٤ - ٢٤٩
١٤	ديونيسيوس	٢٤٧-٢٦٤	فيلبس داكيوس جالوس فالريانوس جاللينوس	٢٤٩ - ٢٥١ ٢٥١ - ٢٥٣ ٢٥٣ - ٢٦٠ ٢٦٠ - ٢٦٨
١٥	مكسيموس	٢٦٥ - ٢٨٢	جاللينوس كلوديوس ٢ أورييليانوس تاكيتوس فلوريانوس بريوس	٢٦٨ - ٢٧٠ ٢٧٠ - ٢٧٥ ٢٧٥ - ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ - ٢٨٢
١٦	ثاؤنا	٢٨٢ - ٣٠٠	كاروس نوميريانوس ديو كلتيانوس	٢٨٢ - ٢٨٣ ٢٨٣ - ٢٨٤ ٢٨٤ - ٣٠٥
١٧	بطرس ١	٣٠٠ - ٣١٠	ديو كلتيانوس جاليريوس	٣٠٥ - ٣١١
١٨	أرشيلوس	٣١٠ - ٣١١	جاليريوس لكينيوس	٣٠٨ - ٣٢٤
١٩	ألكسندروس ١	٣١٢ - ٣٢٨	لكينيوس قسطنطين ١	٣٠٦ - ٣٣٧
٢٠	أثناسيوس الكبير	٣٢٨ - ٣٧٣	قسطنطين ١ قسطنطين ٢ يوليان جوفيان	٣٣٧ - ٣٦١ ٣٦١ - ٣٦٣ ٣٦٣ - ٣٦٤

٨ كيرك

١٤ برموده

٢٩ فالور

٢٩ بومب

٢٢ برموده

٧ بئس

الرقم	الابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
			فالنس	٣٧٨ - ٣٦٤
٢١	بطرس ٢	٣٧٨ - ٣٧٣	فالنس	٣٨٣ - ٣٦٧
			جراتيان	٣٩٢ - ٣٧٥
			فاليثتيان	
٢٢	تيموثاوس ١	٣٨٤ - ٣٧٨	ثيودوسيوس الكبير	٣٩٥ - ٣٧٩
٢٣	ثاوفيلس	٤١٢ - ٣٨٤	ثيودوسيوس الكبير	
			أركاديوس	٤٠٨ - ٣٩٥
			ثيودوسيوس ٢	٤٥٠ - ٤٠٨
٢٤	كيرلس ١	٤٤٤ - ٤١٢	ثيودوسيوس ٢	
٢٥	ديسقوروس ١	٤٥٥ - ٤٤٤	ثيودوسيوس ٢	
			ماركيان	٤٥٧ - ٤٥٠
٢٦	تيموثاوس ٢	٤٧٧ - ٤٥٥	ماركيان	
			ليو (لاون) ١	٤٧٤ - ٤٥٧
			زينون	٤٩١ - ٤٧٤
٢٧	بطرس ٣	٤٨٩ - ٤٧٧	زينون	
٢٨	أثناسيوس ٢	٤٩٦ - ٤٨٩	زينون	
			أنستاسيوس	٥١٨ - ٤٩١
٢٩	يوانس ١	٥٠٥ - ٤٩٦	أنستاسيوس	
٣٠	يوانس ٢	٥١٦ - ٥٠٥	أنستاسيوس	
٣١	ديسقوروس ٢	٥١٨ - ٥١٦	أنستاسيوس	
			جوستن ١	٥٢٧ - ٥١٨
٣٢	تيموثاوس ٣	٥٣٦ - ٥١٨	جوستن ١	
			جوستيان	٥٦٥ - ٥٢٧
٣٣	ثيودوسيوس ١	٥٦٧ - ٥٣٦	جوستيان	
			جوستن ٢	٥٧٨ - ٥٦٥
٣٤	بطرس ٤	٥٦٩ - ٥٦٧	جوستن ٢	
٣٥	داميانوس	٦٠٥ - ٥٧١	جوستن ٢	
			طبياريوس ٢	٥٨٢ - ٥٧٨
			موريس	٦٠٢ - ٥٨٢
			فوكاس	٦١٠ - ٦٠٢

٢٠

٢٦

١٨

٢

٧

٢٧

٢٧

٢٠

٤

٧

١٧

١٧

١٧

٢٨

٣٥

١٨

الرقم	البابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
٣٦	أنسطاسيوس	٦٠٥ - ٦١٦	فوكاس هرقل	٦١٠ - ٦٣٤
٣٧	أندرونيقوس	٦١٦ - ٦٢٣	هرقل	
٣٨	بنيامين ١	٦٢٣ - ٦٦٢	هرقل	
			عمر بن الخطاب	٦٣٤ - ٦٤٤
			عثمان بن عفان	٦٤٤ - ٦٥٦
			علي بن أبي طالب	٦٥٦ - ٦٦١
			الحسن بن علي	٦٦١
			معاوية ١	٦٦١ - ٦٨١
٣٩	أغاثو	٦٦٢ - ٦٨٠	معاوية ١	
٤٠	يوانس ٣	٦٨٠ - ٦٨٩	يزيد ١	٦٨٠ - ٦٨٣
			معاوية ٢	٦٨٣
			مروان ١	٦٨٤ - ٦٨٥
			عبد الملك	٦٨٥ - ٧٠٥
٤١	اسحق	٦٩٠ - ٦٩٢	عبد الملك	
٤٢	سيمون ١	٦٩٢ - ٧٠٠	عبد الملك	
٤٣	ألكسندروس ٢	٧٠٤ - ٧٢٩	عبد الملك	
			الوليد بن عبد الملك	٧٠٥ - ٧١٥
			سليمان	٧١٥ - ٧١٧
			عمر بن عبد العزيز	٧١٧ - ٧٢٠
			العزير	٧٢٠ - ٧٢٤
			يزيد ٢	٧٢٤ - ٧٤٣
			هشام	
٤٤	قزمان ١	٧٢٩ - ٧٣٠	هشام	
٤٥	ثيودوروس	٧٣٠ - ٧٤٢	هشام	
٤٦	خائيل ١	٧٤٣ - ٧٦٧	الوليد بن يزيد	٧٤٣ - ٧٤٤
			يزيد ٣	٧٤٤
			إبراهيم	٧٤٤
			مروان ٢	٧٤٤ - ٧٥٠
			الصفاء	٧٥٠ - ٧٥٤

٢٤ كبرياء

٨ كبرياء

٨ طوبى

١٦ باب

١ كبرياء

٩ طوبى

٢٤ باب

٧ أمير

٢٠ باب

٧ أمير

١٦ أمير

الرقم	البابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
			المنصور	٧٧٥ - ٧٥٤
٤٧	مينا ١	٧٧٦ - ٧٦٧	المنصور	٧٨٥ - ٧٧٥
٤٨	يوانس ٤	٧٩٩ - ٧٧٧	المهدي الهادي	٦٨٦ - ٧٨٥
			هارون الرشيد	٨٠٩ - ٧٨٦
٤٩	مرقس ٢	٨١٩ - ٧٩٩	هارون الرشيد الأمين	٨١٣ - ٨٠٩
			المأمون	٨٣٣ - ٨١٣
٥٠	يعقوب	٨٣٠ - ٨١٩	المأمون	
٥١	سيمون ٣	٨٣٠	المأمون	
٥٢	يوساب ١	٨٤٩ - ٨٣١	المأمون	٨٤٢ - ٨٣٣
			المعتصم	٨٤٧ - ٨٤٢
			الواثق	٨٦١ - ٨٤٧
			المتوكل	
٥٣	خائيل ٢	٨٥١ - ٨٤٩	المتوكل	
٥٤	قزمان ٢	٨٥٨ - ٨٥١	المتوكل	
٥٥	شنودة ١	٨٨٠ - ٨٥٩	المتوكل	٨٦٢ - ٨٦١
			المنتصر	٨٦٦ - ٨٦٢
			المستعين	٨٦٩ - ٨٦٦
			المعتز	٨٧٠ - ٨٦٩
			المهدي	٨٨١ - ٨٧٠
			أحمد بن طولون	
٥٦	خائيل ٣	٩٠٧ - ٨٨٠	أحمد بن طولون	٨٩٦ - ٨٨١
			خراويه	٨٩٦
			جيش بن خراويه	٩٠٤ - ٨٩٦
			هاورن بن خراويه	٩٠٤
			شعبان بن أحمد	
			المقتفي	٩٠٨ - ٩٠٤
			المقتدر	٩٣٢ - ٩٠٨

٢٠

١٩

٢٣

١٥

٢

٢٣

٢٣

٢٤

٢٠

الرقم	الابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
٥٧	غيريال ١	٩٢٠ - ٩١٠	المقتدر	
٥٨	قرمان ٣	٩٢٠ - ٩٣٢	المقتدر	
٥٩	مكاروريوس ١	٩٣٢ - ٩٥٢	المهتدي	٩٣٢ - ٩٣٤
			الراضي	٩٣٥
			الإخشيدي	٩٣٦ - ٩٦٤
			أبو القاسم	٩٦٤ - ٩٦٠
٦٠	ثاؤفانيوس	٩٥٢ - ٩٥٦	أبو القاسم	
٦١	مينا ٢	٩٥٦ - ٩٧٤	أبو القاسم	
			أبو الحسن علي	٩٦٠ - ٩٦٦
			كافور	٩٦٦ - ٩٦٨
			أبو الفوارس بن علي	٩٦٨ - ٩٦٩
٦٢	أبرآم السرياني	٩٧٥ - ٩٧٨	المعز لدين الله	٩٧٥ - ٩٩٦
			العزير بالله	
٦٣	فيلوثاؤوس	٩٧٩ - ١٠٠٣	العزير بالله	
٦٤	زخارياس	١٠٠٤ - ١٠٣٢	الحاكم بأمر الله	٩٩٦ - ١٠٢١
			الظاهر	١٠٢١ - ١٠٣٦
٦٥	شنوده ٢	١٠٣٢ - ١٠٤٦	الظاهر	
٦٦	خريستوذولوس	١٠٤٧ - ١٠٧٧	المستنصر	١٠٣٦ - ١٠٩٤
			المستنصر	
٦٧	كيرلس ٢	١٠٧٨ - ١٠٩٢	المستنصر	
٦٨	خائيل ٤	١٠٩٢ - ١١٠٢	المستنصر	١١٠٢ - ١١٠٢
			المستعلي	١١٠٢ - ١١٣٠
			الأمير	١١٣٠ - ١١٠٢
٦٩	مكاروريوس ٢	١١٠٢ - ١١٢٨	الأمير	
٧٠	غيريال ٢	١١٣١ - ١١٤٥	الحافظ	١١٣٠ - ١١٤٩
٧١	خائيل ٥	١١٤٥ - ١١٤٦	الحافظ	
٧٢	يوانس ٥	١١٤٦ - ١١٦٦	الحافظ	
			الظاهر	١١٤٩ - ١١٥٤

٢١ أمير
٢ برمود
٢٤ برمود
١٠ كيرلس
٦ كيرلس
١٧ خائيل
١٤ كيرلس
٢ بيشب
٤ سوت
١٠ برمود
٢ برمود
٤ بيشب

الرقم	الابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
			الفائز	١١٥٤ - ١١٦٠
			العاقد	١١٦٠ - ١١٧١
٧٣	مرقس ٣	١١٦٦ - ١١٨٩	العاقد	١١٧١ - ١١٩٣
			صلاح الدين	١١٧١ - ١١٩٣
٧٤	يوانس ٦	١١٨٩ - ١٢١٦	صلاح الدين	١١٩٣ - ١١٩٨
			العزیز عماد الدين	١١٩٨ - ١٢٠٠
			المنصور محمد	١٢٠٠ - ١٢١٨
			العادل	١٢٠٠ - ١٢١٨
٧٥	كيرلس ٣	١٢٣٥ - ١٢٤٣	الكامل	١٢٣٨ - ١٢٣٨
			العادل ٢	١٢٣٨ - ١٢٣٩
			الصالح نجم الدين	١٢٣٩ - ١٢٤٩
٧٦	أثناسيوس ٣	١٢٥٠ - ١٢٦١	شجر الدر	١٢٥٠
			الأشرف موسى	١٢٥٠ - ١٢٥٤
			عز الدين أيك	١٢٥٤ - ١٢٥٧
			نور الدين علي	١٢٥٧ - ١٢٥٩
			سيف الدين قطز	١٢٦٠
			الظاهر بيبرس	١٢٦٠ - ١٢٧٧
٧٧	يوانس ٧	١٢٦٢ - ١٢٦٨	الظاهر بيبرس	
				١٢٧١ - ١٢٩٣
٧٨	غبريال ٣	١٢٦٨ - ١٢٧١	الظاهر بيبرس	
			بركة خان	١٢٧٧ - ١٢٧٩
			سلاميش	١٢٧٩
			قلاوون	١٢٧٩ - ١٢٩٠
			الأشرف خليل	١٢٩٠ - ١٢٩٣
٧٩	ثيودوسيوس ٢	١٢٩٤ - ١٣٠٠	الناصر محمد	١٢٩٤
			العادل كوتوفاه	١٢٩٤ - ١٢٩٦
			حسام الدين لاجين	١٢٩٦ - ١٢٩٩
			الناصر محمد	١٢٩٩ - ١٣٠٩
٨٠	يوانس ٨	١٣٠٠ - ١٣٢٠	الناصر محمد	
			بيبرس جاشانكير	١٣٠٩ - ١٣١٠

٦ طاب

١١ طاب

١٤ طاب

١٤ طاب

٢٦ طاب

٥ طاب

٤ طاب

الرقم	البابا	سنوات الرعاية	الحكام	سنوات الحكم
			الناصر محمد	١٣١٠ - ١٣٤١
٨١	يوانس ٩	١٣٢٠ - ١٣٢٧	الناصر محمد	
٨٢	بنيامين ٢	١٣٢٧ - ١٣٣٩	الناصر محمد	
٨٣	بطرس ٥	١٣٤٠ - ١٣٤٨	سيف الدين أبو بكر	١٣٤١
			الأشرف كوجوك	١٣٤٢
			الناصر أحمد	١٣٤٢
			الصالح اسماعيل	١٣٤٢ - ١٣٤٥
			الكامل شعبان	١٣٤٦
			المظفر حجي	١٣٤٧
			الناصر حسن	١٣٤٧ - ١٣٥٠
٨٤	مرقس ٤	١٣٤٨ - ١٣٦٣	الناصر حسن	
			الصالح صالح	١٣٥٠ - ١٣٥٤
			الناصر حسن	١٣٥٤ - ١٣٦١
			صلاح الدين محمد	١٣٦١ - ١٣٦٣
٨٥	يوانس ١٠	١٣٦٣ - ١٣٦٩	الأشرف شعبان	١٣٦٣ - ١٣٧٧
٨٦	غبريال ٤	١٣٧٠ - ١٣٧٨	الأشرف شعبان	
			علاء الدين علي	١٣٧٧ - ١٣٨١
٨٧	مناؤس ١	١٣٧٨ - ١٤٠٩	علاء الدين علي	١٣٧٧ - ١٣٨١
			صلاح الدين حجي	١٣٨٢
			برقوق	١٣٨٢ - ١٣٨٨
			الناصر فرج	١٣٨٨ - ١٤٠٥
			عز الدين عبد العزيز	١٤٠٥
			الناصر فرج	١٤٠٥ - ١٤١٢
٨٨	غبريال ٥	١٤٠٩ - ١٤٢٧	الناصر فرج	
			المؤيد	١٤١٢
			شيخ	١٤١٢ - ١٤٢١
			المظفر أحمد	١٤٢١
			سيف الدين تثار	١٤٢١
			ناصر الدين محمد	١٤٢١ - ١٤٢٢
			الأشرف برسباي	١٤٢٢ - ١٤٣٨

٢ برقوق
١١ بطرس

١٤ سيف

٦ اشرف

١٥ سيف

٢ بطرس

٥ بطرس

٢ سيف

الرقم	البيابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
٨٩	يوانس ١١	١٤٢٧ - ١٤٥٢	الأشرف برسباي جمال الدين يوسف جاكماك	١٤٣٨ ١٤٥٣ - ١٤٣٨
٩٠	مناؤس ٢	١٤٥٢ - ١٤٦٥	جاكماك فخر الدين عثمان سيف الدين إنال شهاب الدين أحمد سيف الدين حوسقادم	١٤٥٣ ١٤٦٠ - ١٤٥٣ ١٤٦٠ ١٤٦٧ - ١٤٦٠
٩١	غبريال ٦	١٤٦٦ - ١٤٧٤	سيف الدين حوسقادم سيف الدين يالباي تيموربوغا قايتباي	١٤٦٧ ١٤٦٧ ١٤٦٧ ١٤٩٦ - ١٤٦٧
٩٢	خائيل ٦	١٤٧٧ - ١٤٧٨	قايتباي	
٩٣	يوانس ١٢	١٤٨٠ - ١٤٨٣	قايتباي	
٩٤	يوانس ١٣	١٤٨٤ - ١٥٢٤	قايتباي الناصر محمد الظاهر قنسوه الأشرف جانبلاط قنسوه القوري طومان باي سليم الأول سليمان الأول	١٤٩٨ - ١٤٩٧ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥١٦ - ١٥٠١ ١٥١٧ ١٥٢٠ - ١٥١٧ ١٥٢٢ - ١٥٢٢
٩٥	غبريال ٧	١٥٢٥ - ١٥٦٨	سليمان الأول سليمان الثاني	١٥٧٤ - ١٥٦٦
٩٦	يوانس ١٤	١٥٧١ - ١٥٨٦	سليم الثاني مراد الثالث	١٥٩٥ - ١٥٧٤
٩٧	غبريال ٨	١٥٨٧ - ١٦٠٣	مراد الثالث محمد الثالث	١٦٠٣ - ١٥٩٥
٩٨	مرقس ٥	١٦٠٣ - ١٦١٩	أحمد الأول مصطفى الأول	١٦١٧ - ١٦٠٣ ١٦١٨ - ١٦١٧

١٢ بيش

١٢ توت

١٦٩

١٦ توت

٧ توت

١١ أصر

١٠ أصر

٢ نسي

٩ بفس

١ توت

الرقم	البابا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
			عثمان الثاني	١٦١٨ - ١٦٢٠
٩٩	يوانس ١٥	١٦١٩ - ١٦٢٩	عثمان الثاني	
			مصطفى الأول	١٦٢٠ - ١٦٢٣
			مراد الرابع	١٦٢٣ - ١٦٤٠
١٠٠	متاؤس ٣	١٦٣١ - ١٦٤٦	مراد الرابع	
			إبراهيم الأول	١٦٤٠ - ١٦٤٨
١٠١	مرقس ٦	١٦٤٦ - ١٦٥٦	إبراهيم الأول	
			محمد الرابع	١٦٤٨ - ١٦٨٧
١٠٢	متاؤس ٤	١٦٦٠ - ١٦٧٥	محمد الرابع	
١٠٣	يوانس ١٦	١٦٧٦ - ١٧١٨	محمد الرابع	
			سليمان الثاني	١٦٨٧ - ١٦٩١
			أحمد الثاني	١٦٩١ - ١٦٩٥
			مصطفى الثاني	١٦٩٥ - ١٧٠٣
			أحمد الثالث	١٧٠٣ - ١٧٣٠
١٠٤	بطرس ٦	١٧١٨ - ١٧٢٦	أحمد الثالث	
١٠٥	يوانس ١٧	١٧٢٧ - ١٧٤٥	أحمد الثالث	
			محمود الأول	١٧٣٠ - ١٧٥٤
١٠٦	مرقس ٧	١٧٤٥ - ١٧٦٩	محمود الأول	
			عثمان الثالث	١٧٥٤ - ١٧٥٧
			مصطفى الثالث	١٧٥٧ - ١٧٧٣
١٠٧	يوانس ١٨	١٧٦٩ - ١٧٩٦	مصطفى الثالث	
			عبد الحميد الأول	١٧٧٣ - ١٧٨٩
			سليم الثالث	١٧٨٩ - ١٨٠٥
١٠٨	مرقس ٨	١٧٩٦ - ١٨٠٩	محمد علي	
١٠٩	بطرس ٧	١٨٠٩ - ١٨٥٢	محمد علي	
			إبراهيم	١٨٤٨
			عباس الأول	١٨٤٨ - ١٨٥٤
١١٠	كيرلس ٤	١٨٥٣ - ١٨٦١	عباس الأول	
			سعيد	١٨٥٤ - ١٨٦٣
١١١	ديمتريوس ٢	١٨٦٢ - ١٨٧٠	سعيد	

٥ نسبي

٥٥ برزلي

١٥ برزلي

١٦ مسري

١٠ بونوني

٥٦ برزلي

١٢ برمودي

١٣ بونوني

٣ بونوني

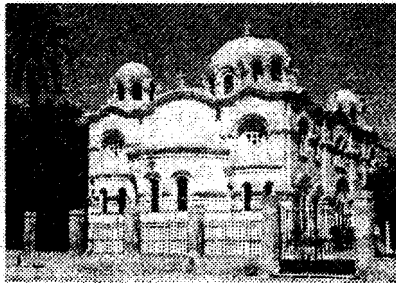
١٣ كبروني

٣٨ برزلي

٤٢ طروبي

٦ بونوني

الرقم	البايا	سنوات الرعاية	الحاكم	سنوات الحكم
			إسماعيل	١٨٨٢ - ١٨٦٣
١١٢	كيرلس ٥	١٨٧٤ - ١٩٢٧	إسماعيل توفيق	١٨٨٢ - ١٨٩٢
			عباس الثاني	١٨٩٢ - ١٩١٤
			حسين كامل	١٩١٤ - ١٩١٧
			فؤاد	١٩١٧ - ١٩٣٦
١١٣	يوانس ١٩	١٩٢٨ - ١٩٤٢	فؤاد	١٩٣٦ - ١٩٥٢
			فاروق	
١١٤	مكار يوس ٣	١٩٤٢ - ١٩٤٥	فاروق	
١١٥	يوساب ٢	١٩٤٦ - ١٩٥٦	فاروق	
			محمد نجيب	١٩٥٢ - ١٩٥٤
			جمال عبد الناصر	١٩٥٤ - ١٩٧٠
١١٦	كيرلس ٦	١٩٥٩ - ١٩٧١	جمال عبد الناصر	
			أنور السادات	١٩٧٠ - ١٩٨١
١١٧	شوده ٣	١٩٧١ -	أنور السادات حسني مبارك (٢)	١٩٨١ -



2- Otto Menardus, *Christian Egypt Ancient And Modern*, The American University In Cairo Press, Cairo, 1977, p. 55.66.

B. Evetts, *History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria, I, Saint Mark to Theonas (300)*, Paris, 1904, 664-665.

الملحق الثاني

الطوائف المسيحية في مصر

١ - مجموعة الكنائس الأرثوذكسيَّة

- (أ) الرُّوم الأرثوذكس.
- (ب) الأرمن الأرثوذكس.
- (ج) السَّرِّيَّان الأرثوذكس.

٢ - مجموعة الكنائس الكاثوليكيَّة

- (أ) الأقباط الكاثوليك.
- (ب) الرُّوم الكاثوليك.
- (ج) السَّرِّيَّان الكاثوليك.
- (د) الموارنة.
- (هـ) الكلدان الكاثوليك.
- (و) الأرمن الكاثوليك.
- (ز) اللاتين الكاثوليك.

٣ - مجموعة الكنائس الإنجيليَّة

- (أ) كنائس الإصلاح: كنيسة فهُضة القداسة، كنيسة المثال المسيحي، كنيسة الإيمان، كنيسة الله.
- (ب) كنائس الأخوة: كنيسة الإخوة البليموث، كنيسة الإخوة المرحَّبون.

(ج) الكنائس الرسولية: الكنيسة الرسولية، كنيسة النعمة الرسولية، كنيسة المسيح، الكنيسة الخمسينية، الكنيسة المعمدانية، كنيسة الكرازة بالإنجيل، كنيسة النعمة.

١ - مجموعة الكنائس الأرثوذكسية

(أ) الروم الأرثوذكس

بعد مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م نشأ في مصر بطريركيان، البطريركية القبطية، والبطريركية البيزنطية. وهذه الأخيرة أطلقت على نفسها اسم بطريركية الروم الأرثوذكس منذ سنة ١٤٥٣م، فصار في كنيسة الإسكندرية بطريركاً: البطريرك الشرعي للكنيسة القبطية، وهو بطريرك الأقباط الأرثوذكس، وبطريرك الملكانيين (قبل انفصال القسطنطينية عن روما)، أو بطريرك الروم الأرثوذكس (بعد انفصال القسطنطينية عن روما في القرن الحادي عشر).

ومع مرور الزمن تضاءلت بطريركية الروم حتى أصبح معظم أتباعها من الغرباء. وكانت الحروب الصليبية سبباً في ازدياد نفور المسلمين منهم. كما حتموا أن يكون البطريرك من الجنسية المصرية لا اليونانية. فاضطر البطريرك بعد سنة ١٥١٧م إلى الإقامة في القسطنطينية كملحاً مؤقتاً، وكان يرسل وكيلاً عنه. وفي عهد محمد علي باشا كثر الروم الأرثوذكس بمصر فعاد البطريرك إلى الإقامة في الإسكندرية سنة ١٨٢٦م، وحصل البطريرك على فرمان من الباب العالي سنة ١٨٤٦م، وتوالت بعد ذلك البراءات بتعيين خلفائه.

ولما تولى البطريرك فوتيوس سنة ١٩٢٥م قام نزاع عنيف داخل الطائفة بشأن انتخاب خلفه، فكان معظم الإكليروس من اليونانيين بينما أغلبية المؤمنين كانوا من المصريين، فناصرت الحكومة هؤلاء المصريين واشترطت أن يكون البطريرك مصري الجنسية، وصدر أمر ملكي بذلك في ديسمبر سنة ١٩٢٧م. وصار لقب البطريرك عندهم "بطريرك الإسكندرية وسائر أفريقيا للروم الأرثوذكس".

ويتبع كنيسة الروم الأرثوذكس أربع عشرة إيبارشية، منها أربع إيبارشيات في مصر في كل من الإسكندرية والقاهرة، وطنطا والإسماعيلية، وبورسعيد، والقنطرة، وإيبارشية في السودان (النوبا)، وإيبارشية في إثيوبيا (أكسوم)، وإيبارشية في ليبيا (طرابلس) وهي تشمل رعايا ليبيا وتونس والجزائر والمغرب. وإيبارشية جنوب أفريقيا (جوهانسبرج) ورأس الرجاء الصالح، وزاتير، والكامبيرون، وزمبابوي، ونيروبي. ويهتم بهذه الإيبارشيات والرعايا ١٢ مطرانا، و٨ مطارنة مساعدين، ٩٠ كاهنا، وتتبع هذه الكنيسة كلية للاهوت مقرها في نيروبي بكينيا.

وتحوي بطريركية الروم الأرثوذكس بالقاهرة مكتبة تضم أكثر من ٤٠ ألف مجلد، ٥٠٠ مخطوطة، ١٥ ألف نسخة نادرة من الكتب.

(ب) الأرمن الأرثوذكس

عندما استولى رمسيس الثاني (١٣٠٩ - ١٢٣٥ ق م) على جنوب أرمينيا، أسر بعض سكانها وأتى بهم إلى مصر. وزادت حركة هجرة الأرمن إلى مصر في خلال العصر البيزنطي (٥٢٧ - ٦٤٠م) وقد ترهب بعضهم في الأديرة المصرية وفي دير سانت كاترين في سيناء. وشيدوا في هذا العصر بعض الكنائس الأرمينية في مصر. ومنذ العصر الإسلامي

شارك بعض الأرمن الذين اعتنقوا الإسلام في الفتح العربي مثل القائد فارتان (وردان) الذي شيد سوق فارتان في القسطنطينية، ثم ولاء الخليفة عثمان بن عفان مسؤولة خراج مصر. وتولى بعض الأرمن إمارة مصر خلال الحكم العباسي (٧٥٠ - ١٢٨٥ م). وفي العصر الفاطمي تمتع الأرمن بكامل الحرية الدينية والثقافية والتجارية. وفي هذا العصر برز اسم الأرمني بدر الجمالي الذي تولى الوزارة (١٠٧٠ - ١٠٩٤ م) وخلفه ابنه الأفضل شاهنشاه (١٠٩٤ - ١١٢١ م) وغيرهما. ومن الأرمن الذين خدموا مع صلاح الدين الأيوبي (١١٧١ - ١٢٥٠ م) بهاء الدين قراقوش، وشرف الدين قراقوش، والأخير هو الذي نسبت لعصره مقولة "حكم قراقوش".

وفي عهد الوزير المتسلط بهرام أدخل إلى مصر آلاف الأرمن، وأسند إليهم وظائف أساسية في الإدارة وذلك منذ سنة ١١٣٧ م، مما أثار نعمة المسلمين عليه. وفي هذا الوقت كان الأرمن في مصر خاضعين لكاثوليكوس محلي مقيم في القاهرة.

ازداد عدد الأرمن في مصر في العصر المملوكي (١٢٥٠ - ١٥١٧ م) بعد سقوط أرمينية الصغرى في يد المماليك سنة ١٣٧٥ م^(١)، ويرى البعض أن شجر الدر زوجة الملك الصالح هي جارية من أصل أرمني. وذكر المقرئ أن من بين عشرة آلاف مملوك كانوا في مصر سنة ١٢٩٠ م، كان ثلاثة آلاف وسبعمائة منهم من أصل أرمني وشركسي. وفي القرن

١ - حالف الأرمن المغول، وهم أعداء المماليك، لذلك لم يتوان المماليك في إرسال الحملات الواحدة تلو الأخرى للإغارة عليهم حتى تم إخضاعهم في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد واستقرت منهم جالية كبيرة في القاهرة منذ عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وهم الذين لعبوا دوراً خطيراً في نشر كثير من الأمراض الاجتماعية في القاهرة في ذلك الحين. (د. علي السيد محمود، الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية، مرجع سابق، ص ٢٠).

السَّادس عشر قل عددهم نسبياً في مصر، ثم زاد في القرن السَّابع عشر، وتركزوا في خان الخليلي وكوم الأرمن والإسكندريَّة ورشيد ودمياط، ثم تزايدوا أكثر في القرن الثامن عشر.

وكان للأرمن الأرثوذكس حتى بداية القرن الرَّابع عشر رئيس واحد يُسمى جاثليق. وكان قد استقر في مدينة سيسي في كيليكيا بأرمينيا الصُّغرى. ولكن في سنة ١٣١١م خرج عن طاعته أسقف القدس معترضاً على الإصلاح الطَّقسي المقترح بواسطة السنودس في كيليكيا، وساعده في ذلك سلطان مصر ناصر محمد، وأخذ لقب بطريك. فانقسم أساقفة كرسي سيسي سنة ١٤٤١م إلى قسمين، تبع قسم منهم جاثليق سيسي، وانتخب الآخرون جاثليقاً في اشميزين قرب جبل أراراط في أرمينيا الكُبرى.

أنشأ السُّلطان محمد الفاتح بطريركيَّة للأرمن في الآستانة وعيَّن لها بطريكاً، ومنحه السُّلطان على جميع الأرمن القاطنين في بلاد الدَّولة العثمانية بما فيها مصر، فأصبحت مصر بالتالي إيبارشيَّة للأرمن الأرثوذكس تابعة لبطريك القسطنطينيَّة بدلاً من أورشليم.

في عهد محمد علي (١٨٠٥ - ١٨٤٩م) نزحت أعداد كبيرة من الأرمن إلى مصر، وكان من بينهم السكرتير الخاص لمحمد علي، ومن تولى نظارة المالية، والخارجية، والتجارة، والتعليم. وقد عاون بعض الأرمن محمد علي في إقامة وتنظيم مؤسساته التعليمية، ومنهم من شارك في تنظيم دار الكتب في باب الخلق، والمتاحف: المصري والقبطي والإسلامي، والتي كانت تتبع وزارة التعليم في ذلك الوقت. وقد لعب الأرمن أدواراً مهمة في النشاط الاقتصادي المصري ولاسيما في مجال الصناعة.

وللأرمن الأرثوذكس ستة أندية ثقافيَّة ورياضيَّة وثلاث مدارس

لتعليم أبنائهم. ولهم ثلاث صحف تصدر في القاهرة باللغة الأرمنية هي: هوسابير (منذ ١٩١٥م)، وآريف (منذ ١٩١٥م)، والشعلة (منذ ١٩٣٢م).

ويرأس طائفة الأرمن في مصر الآن "رئيس أساقفة" يتبع بطريك الأستانة.

(ج) السريان الأرثوذكس

السريان في الأصل هم أهل سوريا، وبعد انتشار اللغة اليونانية أُطلق على الذين يتكلمون السريانية اسم السريان.

بعد جمع خلقيدونية سنة ٤٥١م صار للكنيسة الأنطاكية بطريركان، أحدهما البطريرك الشرعي للبلاد، والآخر الذي تبع المجمع المذكور صار بطريركاً للرؤوم في أنطاكية. أما في مصر فكان للسريان الأرثوذكس علاقات وطيدة مع الأقباط الأرثوذكس فكانوا تابعين في شؤون القضاء لأحوالهم الشخصية للأقباط. وأراد بطريرك السريان الأرثوذكس أن يعين له وكيلاً في مصر سنة ١٩١٢م، فلجأ إلى السلطات العليا في الدولة العثمانية، فكتب هذه إلى الخديوي بتعيين وكيل بطريركي لطائفة السريان الأرثوذكس بمصر. وكان ذلك في أغسطس سنة ١٩١٣م.

٢ - مجموعة الكنائس الكاثوليكية

تتكوّن الكنيسة الكاثوليكية في مصر من سبع كنائس تنتمي إلى ثقافات وأعراق متعدّدة وطقوس متنوّعة، لكن يجمعها جميعاً وحدة المذهب الكاثوليكي، ويرأسها في مصر بطريرك الأقباط الكاثوليك بصفته

رئيس مجلس البطاركة والأساقفة الكاثوليك في مصر^(٢)، وهذا المجلس هو أعلى سلطة كنسية كاثوليكية تتبع منها القرارات والتوجيهات لكل الكاثوليك في مصر بانتماءاتهم الكنسية المختلفة، وبناء على توصيات الجمع الفاتيكاني الثاني حدّد بطاركة وأساقفة الكنيسة الكاثوليكية بمصر تنظيم اجتماعاتهم الدورية، وقاموا بصياغة لائحة داخلية تم اعتمادها سنة ١٩٨٢م. وهذه الكنائس الكاثوليكية السبع هي^(٣):

(أ) الأقباط الكاثوليك

كان الرهبان الفرنسيون يأتون إلى مصر بين الحين والآخر من القدس مركزهم الرئيسي في الشرق، لتقدم خدمات روحية لأبناء الجاليات الأجنبية التي لها قنصليات في مصر مثل جنوا والبندقية والنمسا وفرنسا. وفي سنة ١٣٢٥م أقاموا لهم مقراً دائماً في مدينة الإسكندرية، تبعه مع توالي السنين مقرات أخرى في بلاد أخرى.

وكان من أخطر الأمور في تاريخ الكنيسة القبطية في العصر العثماني هو ما فعله بابا روما عندما أوفد وفداً إلى البابا يوانس الرابع عشر (١٥٧١-١٥٨٦م) وهو البابا الـ ٩٦ من باباوات الكرازة المرقسية، يدعوه إلى قبول الاتحاد بروما. ويبدو أن البطريرك القبطي قد وافق مبدئياً

٢- يتكوّن المجلس من: ١- بطريرك الأقباط الكاثوليك رئيساً، ٢- بطريرك الروم الكاثوليك نائباً للرئيس، ٣- أساقفة الكنيسة القبطية الكاثوليكية أعضاء، ٤- مطران الروم الكاثوليك عضواً، ٥- مطران الموارنة عضواً، ٦- مطران السريان الكاثوليك عضواً، ٧- مطران الأرمن الكاثوليك عضواً، ٨- مطران الكلدان الكاثوليك عضواً، ٩- مطران اللاتين عضواً. ١٠- ممثل عن مجلس رؤساء الرهبانيات الكاثوليكية الرجال في مصر. ١١- ممثلة عن اتحاد رئيسات الرهبانيات النسائية الكاثوليكية في مصر. ٣- مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، الحالة الدينية في مصر، العدد الثاني، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٨م. ص ٩٩ وما يليها

على هذه الدَّعوة، وأرسل إلى روما رسالة مكتوبة تفيد ذلك. ولكن الأقباط حالوا دون تحقيقها، واضطر البابا للهروب أمام اضطهاد الباشا. وانتهت القصة بموت البابا القبطي في ظروف غامضة^(٤).

ولما وفد الإفرنج إلى مصر في القرن السابع عشر لمزاولة التجارة، أرسل بابا روما جماعة من الرهبان لنشر المذهب الكاثوليكي بين الأقباط، ففشلوا. وقد قام البابا متاؤس الرابع (١٦٦٠ - ١٦٧٥ م) وهو البطريرك الـ ١٠٢ بالرَّد على محاولات المبشرين الكاثوليك بزراعة إيمان الأقباط في كنيستهم.

وحاول الباباويون تجديد مساعيهم في القرن الثامن عشر في الوجه القبلي في مصر، فتبعهم عدد قليل من الأقباط من الكهنة والعلمانيين. ولما جاءت الحملة الفرنسيَّة إلى مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١ م) نشطت الإرساليَّات الكاثوليكيَّة ودخلت بدخول كثير من الإفرنج. ولم يتركوا مصر بعد خروج الفرنسيين منها، بل لبثوا بها يتمتعون بحماية فرنسا لهم.

كانت الإرساليَّات الكاثوليكيَّة التي وفدت في نشاط مضطرد إلى مصر هي أحد آثار الحملة الفرنسيَّة عليها. ولقد دأبت الكنيسة الكاثوليكيَّة منذ البداية على محاولة ضم الكنيسة القبطيَّة إلى تبعيتها أو فرض الحماية الدنيَّة عليها على الأقل، وكان الدافع الأوَّل من وراء ذلك هو البون الشَّاسع بين الحضارتين الشَّرقيَّة والغربيَّة في العصور الوسطى، والحالة المتردِّية التي وصلت إليها الكنيسة القبطيَّة آنذ، ولكن كان الرِّفُّض المستمر من قِبَل الكنيسة القبطيَّة هو الأسلوب الوحيد في مواجهة هذا التدخُّل الخارجي في حياتها الداخليَّة.

ولقد حاول بعض المبشرين الكاثوليك تقديم الثقافة الغربيَّة إلى

٤ - د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ٢٩٣

الأقباط في إطار تحويلهم عن المذهب الأرثوذكسي. ويصف المبشر الدومنيكاني فانسليب حالة السُّخْط التي تتاب الأقباط عندما يدعوهم الفرنسيون إلى إرسال أطفالهم إلى فرنسا لاكتساب العلوم والفنون وتشرب نط الحياة الغربيَّة^(٥).

وفي سنة ١٦٨٧م أنشأ مجمع انتشار الإيمان "نيابة رسولية"، وأصدر قراراً بوضع الأقباط الكاثوليك تحت ولاية بطريرك أنطاكية الكاثوليكى.

وشهد القرن الثامن عشر تحوُّل بعض رجال الدِّين الأقباط إلى الكاثوليكيَّة ويأتي في مقدِّمتهم الأنبا أثناسيوس مطران القدس الذي تحوَّل إلى الكاثوليكيَّة سنة ١٧٤١م. ولم يلبث سوى ثلاث سنوات حتى عاد إلى كنيسته الأرثوذكسيَّة. والأنبا أنطونيوس أسقف جرجا الذي انضم إلى الكاثوليكيَّة في سنة ١٧٥٨م وأصدر بابا روما أوامره بتنصيبه "نائباً رسولياً" له في مصر^(٦). وتتابع النواب الرُّسوليون لتولي شؤون الطائفة حيث أُقيم تسعة عشر نائباً رسولياً خلال الفترة من سنة ١٧٤١ - ١٨٩٩م.

لقد عمل المبشرون الكاثوليك ضمن إطار مخطط تبشيري عالمي منظم إلى حد كبير، وأجاد معظمهم اللُّغة العربيَّة وتبحَّر في المذاهب المسيحيَّة، ولعبت كلية أوربان التبشيريَّة دوراً مهماً في هذا الشأن، بينما لم تكن هناك كليَّة إكليريكيَّة آنذاك لتخريج رجال الدِّين الأقباط، وكان معظم القساوسة الأقباط من الحرفيين والتُّجار من ذوي الثِّقافة المحدودة بالمقارنة بالمبشرين الكاثوليك. ولم تقدِّم الكنيسة آنقذ سوى محاولات فردية لا تتم داخل إطار منظم، ويمثل الأنبا يوساب أسقف جرجا المعروف بالأبج، بمؤلفاته وردوده ذات الأسلوب الفلسفي واللاهوتي، معلماً هاماً في القرن

٥- نفس المرجع، ص ٢٤٦

٦- نفس المرجع، ص ٢٧٧

الثامن عشر في مواجهة الحملات التبشيرية الكاثوليكية^(٧).

ولما تولى محمد علي باشا (١٨٠٥ - ١٨٤٨م) استخدم من هؤلاء الفرنسيين كثيرين في مصالح عديدة، وتتابعت الإرساليات اللاتينية من فرنسيسكان وفرير Frères وجزويت لنشر المذهب الكاثوليكي، ولكنهم لم ينجحوا. ولكن باعتراف المعلم غالي وزير المالية في عهد محمد علي، وابنه باسيلوس بك^(٨) وأخيه فرنسيس، المذهب الكاثوليكي مع عائلاتهم وأنصارهم، وضع الكاثوليك أقدامهم في مصر، وأصبحوا يُعرفون باسم "الأقباط الكاثوليك". وكان أوّل بطريرك كاثوليكي قبطي هو الأنبا كيرلس مقار الذي رُسم في يونيو سنة ١٨٩٩م بواسطة البابا لاون الثالث عشر (١٨٧٨ - ١٩٠٣م). واعترفت به الحكومة المصرية بطريركاً سنة ١٩٠٠م. ولقد حاول أن يجتذب الأقباط إلى كنيسه فلم ينجح. وإذا أراد العودة إلى الأرثوذكسية جاهر بذلك أمام الكثيرين، فسمع بابا روما بذلك فعزله وعيّن آخر مكانه، حيث توالى من بعده أربعة بطاركة حتى الآن^(٩). كما تم تعيين أسقفاً لطبية (الأقصر)، وآخر للصعيد الأعلى مركزه طهطا، وآخر لمصر الوسطى مركزه المنيا.

وتضم بطريركية الأقباط الكاثوليك في مصر الآن (سنة ١٩٩٧م) ستة كراسي أسقفية، بالإضافة إلى أسقفين معاونين للبطريرك^(١٠). وعدد الأقباط

٧- د. محمد عفيفي، الأقباط في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ٢٦٧
٨- بعد موت المعلم غالي، استدعى محمد علي ابنه باسيلوس ليعزبه في موت أبيه، وإذا أجاب الابن حسناً أسندت إليه وظيفة رئيس المحاسبة في الحكومة المصرية، وأُنعِم عليه برتبة (بك) وهو أوّل من مُنح هذه الرتبة من الأقباط.
٩- هم الأنبا مكسيموس صدفاي، الأنبا مرقس خزام، الأنبا إسطفانوس الأوّل، والأنبا إسطفانوس الثاني.

١٠- رقي البطريرك إسطفانوس الثاني إلى رتبة كاردينال في فبراير سنة ٢٠٠١م، بيد قداسة البابا يوحنا بولس الثاني ضمن ٤٤ كاردينالاً من مختلف دول العالم، وذلك في

الكاثوليك في مصر حوالي ٢١٠ ألف نسمة، يخدمهم ١٧٥ كاهناً بالإضافة إلى ٣٠ كاهناً من الرُّهبان الفرنسيِّسكان وغيرهم من الرُّهبانيَّات المختلفة.

ويوجد في مصر حالياً اثنا عشر رهبانية كاثوليكيَّة للرِّجال، ٣٩ رهبانيَّة للنِّساء.

أما أهم رهبانيَّات الرِّجال فهي: الفرنسيِّسكان^(١١)، وهي أقدم رهبانيَّة كاثوليكيَّة للرِّجال، وقدموا إلى مصر سنة ١٢١٩م، والفريير (رهبانية أخوة المدارس المسيحيَّة)، والجزويت (رهبانية الآباء اليسوعيين)، والسالزيان^(١٢)، والدُّومينيكان.

وأهم رهبانيَّات النِّساء هي: راهبات المحبَّة للقديِّس منصور دي بول^(١٣)، ويُسمى في الفرنسيَّة St. Vincent (سان فينسان)، وهي أقدم رهبنة نساويَّة كاثوليكيَّة. وقد تأسَّست هذه الرُّهبانيَّة سنة ١٦٣٣م على يد القديِّس منصور بمعاونة القديِّسة لويز دي ماريك لخدمة الفقراء والبُساء. وتعد من أكثر الرُّهبانيَّات العالميَّة انتشاراً، ويبلغ عدد الرُّهبانات التَّابعات لها حالياً حوالي ٢٦٥٠٠ راهبة. وفي منطقة الشَّرْق الأوسط توجد هذه الرُّهبانيَّة في مصر ولبنان وسوريا وفلسطين وإسرائيل وإيران، أما مدينة بيروت ففيها رئاسة هذه المنطقة الإقليميَّة.

احتفال كبير في ساحة القديس بطرس بالقاتيكان.

١١- يتبعهم المركز الفرنسيِّسكاني للدراسات المسيحية الشَّرقيَّة، والسذي أصدر مجموعة دراسات قيِّمة. والفرنسيِّسكان يخدمون أربعين كنيسة وعشر مدارس في مصر.

١٢- يتبعهم معهد دون بوسكو للتأهيل المهني للشُّباب في الإسكندرية.

١٣- وُلد في فرنسا سنة ١٥٨١م، وصار قسيساً في سنة ١٦٠٠م، وكان شديد المحبة للمرضى والمُتألِّين. ورحل من عالمنا في سبتمبر سنة ١٦٦٠م، وأعلنت كنيسة روما تطويبه سنة ١٧٢٩م، ثم قدَّسته سنة ١٧٣٧م.

وكانت هذه الرهبانية قد قدمت إلى مصر سنة ١٨٤٤م حيث وصل إلى الإسكندرية سبع بنات يتبعن هذه الرهبانية، وافتتح مستوصفاً هناك عُرف بمستوصف "السبع بنات". وفي سنة ١٩٠١م جاءت بعض الرهبانيات إلى القاهرة، ثم انتشرن في طنطا وبورسعيد وأسيوط وصدفا والقوصية والمنشأة الكبرى وقويسنا وشبين الكوم... الخ. وعُرفت مستوصفات هذه الرهبانية في البلاد المختلفة باسم مستوصف "السبع بنات"، كما افتتح مدارس ابتدائية وإعدادية وثانوية لتعليم البنات. ويبلغ عدد "راهبات المحبة للقديس منصور" في مصر حالياً ٦٠ راهبة.

وتوجد أيضاً: راهبات سيّدة المحبة للرأعي الصّالح. والراهبات الفرنسيسكانيات لقلب مريم الطاهر. والراهبات الكميونيات. وراهبات نوتردام ديزابوتر. وراهبات القلب المقدّس. والراهبات الكرمليات. وراهبانية مريم أم المعونة (الراهبات السالزيانيات) ... الخ. وتتركز خدمة الراهبات الكاثوليك في افتتاح المستوصفات، وإنشاء المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية، والحضانة، وخدمة المستشفيات والملاجئ والأنشطة الاجتماعية.

وأحدث الرهبانيات هي رهبانية الوردية الأورشليمية، والتي وصلت إلى مصر سنة ١٩٩١م، للخدمة في سفارة الفاتيكان.

وهناك ثلاثة معاهد تعليمية إكليريكية وهي: كلية العلوم الإنسانية واللاهوتية بالقاهرة، والدير الإكليريكي بالإسكندرية، والإكليريكية الصغرى بطهطا.

كلية العلوم اللاهوتية والإنسانية

هي الكلية الإكليريكية للأقباط الكاثوليك، وتشمل:

(أ) قسم اللاهوت: ومدة الدراسة فيه أربع سنوات. وتدرس فيه

مواد دينيَّة فقط.

(ب) قسم الفلسفة: ومدَّة الدِّراسة به سنتان. ويُدرس فيه الكتاب المقدس بعهديه إلى جانب الفلسفة، وعلم النفس وعلم الاجتماع، واللغتين العربية والإنجليزية. والثقافة العامة.

(ج) القسم التَّمهيدي: ومدَّة الدِّراسة به سنتان. وتُدرس فيه إلى جانب الدِّراسات الدِّينيَّة، التربية الموسيقيَّة والفنيَّة واللُّغتين العربيَّة والإنجليزيَّة، والثقافة العامة.

(ب) الرُّوم الكاثوليك

هم الذين ناصرُوا مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م ثم انشقوا عن كنيستهم في القسطنطينيَّة وانضموا إلى روما في القرن الحادي عشر على يد ميخائيل كيرولاريوس.

وفي أوائل القرن الثالث عشر كان الملكيون في مصر يستخدمون أنافورا القديس مرقس، وأنافورا يعقوب الرُّسول، علاوة على أنافورات القديسين باسيليوس ويوحنا ذهبي الفم، وغريغوريوس في الليتورجيَّا السَّابق تقديسها. وفي النِّصف الثاني من القرن الثالث عشر تبنت الكنيسة الملكيَّة في مصر نهائيًّا طقس القسطنطينيَّة. وظلَّت اللُّغة اليونانيَّة حتى القرن الثالث عشر هي اللُّغة الطَّقسيَّة، حين بدأ استخدام اللُّغة العربيَّة في الصَّلوات الطَّقسيَّة في تلك الفترة. وكشاهد على التَّعريب في الطقوس لا نعرف حتى اليوم إلا المخطوط الفاتيكانى رقم ٢٢٨٢ الذي يعود إلى سنة ١٢٠٧م والذي وردت فيه بعض التَّرتيبات، أُضيفت على الهامش باليونانيَّة والعربيَّة.

في سنة ١٦٨٧م أُعيد تنظيم الطائفة، ومنذ هذا التاريخ وُجد

بطريرك كان لكرسي أنطاكية واحد للروم الأرثوذكس، والآخر للروم الكاثوليك. وكان هذا الأخير يمارس سلطانه على كل الروم الكاثوليك الموجودين في الإسكندرية وأورشليم.

بدأ توافد بعض العائلات التي تنتمي لطائفة الروم الكاثوليك من سوريا إلى مصر سنة ١٧٢٤م، بسبب اضطهاد البطريرك سلفستروس القيرصي لهم. كما جاءت في الوقت نفسه بعض العائلات من فلسطين ولبنان. وقد نزل كبار التجار والحرفيون العاملون في بعض الصناعات الفنية كالصياغ والجواهرجة والخياطين في دمياط، والتي كانت ميناء مصر الأول وقتذاك، ومع نجاحهم في العمل لحق بهم بعض أقاربهم وأصدقائهم، وانتقل بعضهم إلى القاهرة وبعض المدن الأخرى، ونظراً للدقة التي تميّزوا بها، وخاصة في الأنشطة التجارية، فقد أسند لأشخاص منهم أمر الجمارك، وظلت هذه المسئولية في أيديهم قرابة نصف قرن حتى أيام محمد علي، كما اتسع نشاطهم التجاري في الداخل والخارج، ونظراً لأن هؤلاء التجار قد جاءوا من دمشق الشام، فقد أطلق عليهم اسم "التجار الشام".

في سنة ١٧٧٢م ألحقت طائفة الروم الكاثوليك بمصر وأورشليم بكرسي أنطاكية، طبقاً لمرسوم أصدره البابا بندكتوس الرابع عشر. لتصبح لهم بطريركية واحدة نظراً لقلّة عددهم. ولما جاءت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م استعانت بكهنة الروم الكاثوليك، وكانوا من الرهبنة المخلصية، وجعلت منهم الكتّاب والمترجمين من اللغتين الفرنسية والإيطالية في الدواوين.

في سنة ١٨٣٥م طلب أفراد الطائفة رسامة أسقف لهم، وتم لهم ذلك في سنة ١٨٣٧م في أيام البابا غريغوريوس السادس عشر. الذي منحه البابا

لقب بطريرك باسم البطريرك مكسيموس مظلوم (١٨٣٧-١٨٥٥م)، فقام البطريرك بتأسيس ثلاث كنائس هي: الكاتدرائيَّة (كنيسة سيِّدة النِّياح)، بدرب الجنيَّة. وكنيسة النَّبي إيلياس ببولاق، وقد هُدمت في أيام الخديوي إسماعيل، والذي منح البطريرك عوضاً عنها عدة أفدنة في دكرنس. وكنيسة القديس جاورجيوس بالأزبكيَّة والتي بُنيت سنة ١٨٣٨م.

وفي سنة ١٨٦٥م تم بناء كاتدرائيَّة في الإسكندريَّة. وبعد حرب السويس سنة ١٩٥٦م انخفضت هجرتهم إلى مصر وتحوَّلت إلى أوربا وأمريكا وكندا. ولبطريرك الرُّوم الكاثوليك وكيل عام منذ سنة ١٨٣٧م، برتبة أسقف يدير شؤون الكنيسة في مصر والسودان.

وللطائفة الآن تسع كنائس بالقاهرة، وأربع كنائس الإسكندريَّة، وكنيسة في كل من طنطا والمنصورة وبورسعيد.

ولها أيضاً خمس مدارس بالقاهرة، تأسَّست أقدمها في سنة ١٩٠٧م، وهي المدرسة اليوسفيَّة، وأحدثها سنة ١٩٥٩م وهي مدرسة راهبات سيِّدة المعونة الدائمة بمصر الجديدة. كما تصدر الطائفة نشرة إخباريَّة غير دوريَّة خاصة بالبطريركيَّة باسم "النَّشرة الطائفيَّة" باللُّغتين الفرنسيَّة والعربيَّة وذلك منذ سنة ١٩٤٩م بالإسكندرية، كما تصدر عن البطريركيَّة بلبنان مجلة Le Lien الفرنسيَّة، وقد تأسَّست في القاهرة سنة ١٩٣٥م ثم نقلت إدارتها إلى بيروت سنة ١٩٦٧م.

وللطائفة ثلاثة أديرة في لبنان. كما أن لها ثلاث جمعيَّات خيريَّة بالقاهرة والإسكندريَّة (تأسَّست سنة ١٨٨٠م) والمنصورة (تأسَّست سنة ١٨٩٦م). ودار للعائلات، ومشغل للسيدات بالإسكندرية، ودار للمسنين.

ويبلغ عدد أبناء الطائفة الآن نحو نصف مليون نسمة في سوريا ولبنان ومصر والأمريكتين. منهم عشرة آلاف في مصر.

ولأبناء هذه الطائفة الفضل في إنشاء صروح الصحافة الأولى في مصر، ومنهم مؤسس الأهرام جبرائيل تقلا (١٨٤٩ - ١٨٩٢م) وبشارة تقلا (١٨٥٢ - ١٩٠١م)، ومؤسس دار الهلال جورجى زيدان (١٨٦١ - ١٨٩٦م)، ومنهم شاعر القطرين خليل مطران.

إلى جانب بروزهم في مجال الفن في مصر، وفي مجال التجارة لمعت أسماء مثل حبيب سكاكيني باشا، الذي تُنسب إليه منطقة السكاكيني بالظاهر، وسليم وشقيقه سمعان سيدناوي (وُلد سنة ١٨٥٦م، وأسس أول محل لهما بالقاهرة في سنة ١٨٩٦م).

وهناك أيضاً أول مفتشة للغة الإنجليزية في مصر، وهي بهية كرم (١٩٨٦م)، والمهندس نعوم شبيب (١٩١٨ - ١٩٨٥م) مصمم برج القاهرة، ومبنى جريدة الأهرام.

(ج) السريان الكاثوليك

انفصل جماعة من السريان الأرثوذكس مع أسقفهم عن كنيستهم الأم وانضموا إلى روما في زمن البابا غريغوريوس الثالث عشر، ولكن هذه الوحدة لم تدم. ثم عادت فجددت المحاولة في القرن السابع عشر، وكان البطريرك الأنطاكي يمد سلطته إلى السريان القاطنين في مصر. وكان للطائفة في مصر، والتي تألفت من المهاجرين من سوريا والعراق، كهنة يقومون بالخدمة الروحية منذ مطلع القرن الثامن عشر. ومنذ سنة ١٨٥٠م بُنيت كنيسة للسريان الكاثوليك باسم مار إلياس في درب الجنيينة

بالقاهرة. واعترفت الحكومة العثمانية بالكنيسة السَّريانيَّة الكاثوليكيَّة بواسطة فرمان في سنة ١٨٧٧م، وفرمان آخر في سنة ١٨٨٠م، وكان هذا الأخير قد حسم النزاع الذي نشأ بين هذه الطائفة والكنيسة السَّريانيَّة الأم، أي كنيسة أنطاكية الأرثوذكسيَّة.

ومنذ سنة ١٩٨٨م صارت القاهرة مقراً لأسقفية سريانيَّة. وحالياً توجد للطائفة ثلاث كنائس هي: كاتدرائية سيِّدة الوردية بالظاهر بالقاهرة (بُنيت سنة ١٨٠٤م، وُجِّدَت سنة ١٨٨٦م)، وكنيسة قلب يسوع الأقدس بالإسكندرية (بُنيت سنة ١٩٣٠م)، وكنيسة سانت كاترين بمصر الجديدة.

ويتبع الطائفة مدرسة القديس ميخائيل بالظاهر، وشُيِّدت سنة ١٩٣٦م (ابتدائي وإعدادي)، وألحق بها جناح جديد سنة ١٩٨٢م لاستيعاب الأعداد المتزايدة من التلاميذ. وللطائفة جمعية خيرية تأسَّست سنة ١٨٩٦م تتولى مساعدة الأسر المحتاجة والأرامل والعجزة، وعلاج المرضى، ومساعدة الطلبة.

(د) الموارنة

الموارنة كلهم كاثوليك، وهم مسيحيو لبنان، ومن حيث جذورهم العرقيَّة هم من الكنعانيين والأراميين الذي آمنوا بالمسيح. ويعود وجود الموارنة في مصر إلى فترة الاحتلال العثماني للبلاد. وتركز وجودهم في الوجه البحري والقاهرة.

ويحمل بطريركهم لقب "بطريرك أنطاكية وكل المشرق"، ولم تعترف السُّلطات العثمانيَّة مباشرة بهذا البطريرك إذ كان القنصل الفرنسي يمثِّل الكنيسة المارونيَّة لديها. وكانت تتمتع هذه الطائفة بالحماية

الدينيّة من قبل فرنسا. ولم يحتج الباب العالي على هذه الحماية، ولم يعن هذا أن الطائفة أقلّ وطنيّة من غيرها، أو أن أملاكها ليست خاضعة للسلطات المحليّة.

ويؤكّد المؤرّخ وادينجتون كاتب تاريخ الأراضي المقدّسة على أن الكرسي الرّسولي طلب في سنة ١٦٣٩م من الآباء الفرنسيّين سكان المرسلين بالقطر المصري أن يتّخذوا لهم كاهنين من الكهنة الموارنة القاطنين بمصر كمستشارين لهم. وذلك بعدما لاحظ بعض رهبانهم المسافرين إلى روما أثناء مرورهم بالمواني المصريّة كدمياط والإسكندريّة حاجة الطوائف الشّرقية في أن يتولى خدمتهم الرّوحية كهنة شرقيّون، ولو من غير طقسهم. وبعد حين أوفد البطريرك الماروني سمعان حداد الأب موسى هيلانه الشّامي سنة ١٧٤٥م وهو أحد الرّهبان الحلبيين الموارنة، فخدم الطائفة في دمياط حتى وفاته سنة ١٧٤٨م. وانطلق الرّهبان الموارنة من دمياط إلى بلاد أخرى في مصر.

فقد شيّدت الطائفة ديراً لها في مصر القديمة سنة ١٨٣٣م، ثم كنيسة باسم القدّيس إلياس سنة ١٨٣٧م في مصر القديمة، وأخرى بدرج الجنيّة بالموسكي سنة ١٨٤١م. ثم أسّسوا كنيسة في الزقازيق سنة ١٨٦٠م، وتوالى بعد ذلك باقي كنائسهم في المنصورة وبورسعيد والإسماعيليّة والإسكندريّة.

وفي سنة ١٩٠٦م أقيمت نيابة بطريركية للموارنة في مصر. وفي سنة ١٩٤٦م وافق الفاتيكان على إنشاء مطرانيّة مارونيّة بالقاهرة.

ويبلغ عدد أبناء الطائفة المارونيّة في مصر نحو خمسة آلاف شخص، بينما كان عددهم قبيل ثورة يوليو أكثر من عشرين ألف نسمة، وكان سبب هذا الانخفاض الشّديد في عددهم هو خروج عدد كبير منهم إلى

خارج البلاد خالين الوفاض بعد استيلاء الثورة على ممتلكاتهم في حركة التأميم، كما أن التحولات الاقتصادية التي حدثت في مصر بعد الثورة جعلت الوطن طارداً للعماله وليس جاذباً لها.

ومن أبرز مؤسساتهم الخيرية جمعية المساعي الخيرية المارونية بالقاهرة، وقد تأسست سنة ١٨٨٠م، ولهم مدرسة القديس يوسف المارونية في الظاهر التي تأسست سنة ١٩٠٦م، والمدرسة المارونية بمصر الجديدة التي تأسست سنة ١٩٣٦م.

ولعب الموارنة أدواراً مهمة في الصحافة والفن بمصر. فمنهم رئيسا تحرير الأهرام أنطون باشا الجميل (١٨٨٧ - ١٩٤٨م)، وداود بركات الذي رأس تحرير الأهرام منذ سنة ١٩٣٢م، ومدير تحرير الأهرام نجيب كنعان (١٩٠٦ - ١٩٨٥م)، والفيلسوف يوسف كرم، والصّحفي حبيب جاماتي رئيس تحرير مجلة إمام الفرنسية التي كانت تصدر عن دار الهلال، والفنان نجيب الرّيحاني (١٨١٩ - ١٩٤٩م)، والكاتبة مي زيادة. ومن الموارنة أيضاً عزيز ميرزا مستشار الملك فاروق.

(هـ) الكلدان الكاثوليك

وهم ينتمون جغرافياً إلى بلاد أور الكلدانيين الواقعة ما بين نهري دجلة والفرات، وهي البلاد التي وُلد فيها إبراهيم أب الآباء. وفي العصر المسيحي كانت هذه البلاد تتبع الإمبراطورية الفارسية، وهي الإمبراطورية التي قبلت المسيحية ببشارة القديس متى الإنجيلي. وبعد مجمع أفسس المسكوني الثالث سنة ٤٣١م وحرم نسطور بواسطة البابا كيرلس الأول عامود الدين، انضم أغلب الكلدان إلى نسطور. وفي سنة ٤٩٦م انفصل أسقف Séleucie عن أنطاكية، ودعا نفسه بطريرك المشرق، وبدأ سلسلة

جديدة من البطارقة دُعوا "بطارقة بابليون النساطرة" فتكوّنت الكنيسة النسطورية والتي لازالت قائمة في العراق والهند وغيرهما.

ومنذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر بدأت محاولات الكلدان للانضمام إلى كنيسة روما، حين اعتنق أحد بطارقة بغداد النسطوريين المذهب الكاثوليكي عن طريق الآباء الدومنيكان سنة ١٢٣٣م، وقامت بعض المباحثات بشأن الوحدة مع روما سنة ١٣٤٠م، وفي سنة ١٨٣٠م، عين البابا لاون الثاني البطريرك حنا هرمز بطريركاً للكلدان الكاثوليك ومقره في الموصل. وفي سنة ١٩٠٠م انضم إلى روما كثير من الأساقفة والعلمانيين النسطوريين.

وكان في مصر أسقف كلداني في سنة ٧٤٥م، ٩٨٧، ١٠١٣م ولما قلَّ عدد الكلدانيين نُقل الأسقف إلى بلاد فارس ثم أُعيد إلى مصر سنة ١٠٦٣م. وظلَّ عدد الكلدانيين يتضاءل في مصر حتى القرن التاسع عشر عندما عاد بعضهم إليها. فقد هاجرت عائلات كلدانية كانت تعيش في عدد من بلدان الشرق الأوسط إلى مصر، ووصل عددهم سنة ١٨٩٠م إلى ستمائة نسمة، أصولهم من العراق وتركيا وإيران، فعين لهم بطريرك الكلدان الكاثوليك نائباً بطريركياً في مصر. وفي سنة ١٩٨٠م أصبحت النيابة البطريركية إبيارشيّة القاهرة للكلدان الكاثوليك.

وللكلدان كنيسة في القاهرة، إحداهما بُنيت سنة ١٨٩١م في حي الظاهر، والأخرى هي كاتدرائية سانت فاتيما بمصر الجديدة، والتي شُيّدت سنة ١٩٥٢م. وتوجد بعض العائلات الكلدانية في الإسكندرية ولكن لا توجد لهم كنيسة. ويرأس هذه الطائفة الآن مطران إبيارشيّة القاهرة للكلدان الكاثوليك.

(و) الأرمن الكاثوليك

انفصل إبراهيم أردزيغان بطريرك الأرمن الأرثوذكس في سبب كيليكيا عن كنيسته الأم في سنة ١٧٤٠م وانضم إلى روما، فجعله البابا بندكتوس الرابع عشر بطريركاً للأرمن الكاثوليك، معترفاً برتبته البطريركيَّة سنة ١٧٥٣م في مقره ببلناب. وأقر بسلطته الرَّعويَّة على مصر ولبنان وسوريا والعراق وكيليكيا. وكان يتبع هذه الطائفة في مصر سنة ١٧٣٤م أربعون أسرة، وبنيت أوَّل كنيسة للطائفة في سنة ١٧٣٧م باسم القديس غريغوريوس المنور، وتم تعيين أوَّل نائب بطريركي لهم في مصر سنة ١٨٢٠م. وفي عهد محمد علي بُنيت كنيسة باسم العذراء بمصر القديمة، وإلى جوارها مدافن للطائفة، وهو الوضع القائم للآن. وبنيت كنيسة أخرى باسم القديس غريغوريوس المنور في درب الجنينة بالموسكي سنة ١٨٣٧م، وأخرى في شبرا سنة ١٨٨٦م، وغيرها في الإسكندرية سنة ١٨٨٩م، وفي مصر الجديدة بُنيت كنيسة أخرى سنة ١٩٣٢م، وفي سنة ١٩٠٥م بُنيت كاتدرائية البشارة وافتتحت سنة ١٩٢٦م، وإلى جوارها مبنى للمطرائية بالقاهرة.

ويبلغ عدد الأرمن الكاثوليك في مصر حوالي ١٥٦٠ نسمة. وللطائفة مجلس مليّ برئاسة مطران الطائفة وعضوية ٩ علمانيين وكاهن واحد. ويتبع الطائفة مدرسة راهبات الأرمن الكاثوليك في مصر الجديدة. وتصدر عن الطائفة جريدة غير دورية بعنوان "نشرقي" منذ سنة ١٩٧٤م، وذلك باللغتين العربيَّة والفرنسيَّة وأحياناً بالأرمنيَّة. وللطائفة جمعيتان خيريتان تأسست سنة ١٨٩٠م.

(ز) اللاتين الكاثوليك

تكوّن هذه الطائفة في غالبيتها من أجناب يعيشون في مصر. وكانت القنصلية الإيطالية تحكم في أحوالهم الشخصية. ويمثّل الطائفة اللاتينية في مصر سفير بابوي يقوم أيضاً بالتمثيل الدبلوماسي للفاتيكان لدى الحكومة المصرية. أما تاريخ اللاتين في مصر فيبدأ في مايو سنة ١٨٣٩م حين أنشأ البابا غريغوريوس السادس عشر نيابة رسولية للآتين في مصر والجزيرة العربية، وظلّ النواب الرسوليون يقومون بمهمة النائب الرسولي والقاصد الرسولي من سنة ١٨٣٩ - ١٩٢١م.

وفي نوفمبر سنة ١٨٧٧م شجّع مجمع انتشار الإيمان جمعية الإرساليات الأفريقية في إنشاء بعض المراكز بمصر وخاصة في الدلتا حيث لا كهنة ولا مدارس لعدد كبير من المسيحيين اللاتين. وهو ما حدث في الزقازيق وطنطا وزفتى والحلة الكبرى. وفي سنة ١٨٨٦م صدر قرار من مجمع انتشار الإيمان وحدّد خمس مديريات لمنطقة الدلتا وأبقاها تحت إدارة مطران مقره في الإسكندرية. ثم أصبحت مستقلة تحت إدارة المطران منذ سنة ١٨٩١م. وفي القاهرة زاد عدد الرهبان اللاتين وبنيت بها رهبانيات أخرى ومدارس ومستشفيات. ومنذ سنة ١٩٢١م استقلت الإدارة المصرية وحدها دون الجزيرة العربية بمهام النيابة الرسولية، وكان مقرها في الإسكندرية. وخلال الفترة من سنة ١٨٩٥ - ١٩٥١م تكوّنت مناطق رعوية في القاهرة في مصر الجديدة ومنطقة السكاكيني، وحدائق القبة، والدلتا. وفي إبريل سنة ١٩٧٨م عين البابا بولس السادس مطراناً من مواليد الإسكندرية نائباً رسولياً للمسيحيين اللاتين في مصر. أما الآن فقد تسلّمت بطريركية الأقباط الكاثوليك خدمة كل الكنائس والإرساليات التي تقع في الدلتا.

٣- مجموعة الكنائس الإنجيليَّة

تُعد الكنيسة الإنجيليَّة في مصر والعالم من نتاج حركة الإصلاح الدِّيني التي بدأت في ألمانيا في القرن السَّادس عشر، ثم شملت باقي أجزاء من أوروبا. وكان من روَّاد هذه الحركة الرَّاهب الألماني الأوغسطيني مارتن لوتر (١٤٨٣- ١٥٤٦م)، والذي أعد وثيقة احتجاج ضد بعض ممارسات الكنيسة الكاثوليكيَّة، مكوَّنة من خمسة وتسعين بنداً، وعلقها على باب كنيسة وتبرج في أكتوبر سنة ١٥١٧م. وفي سنة ١٥٢٠م صدر قرار البابا لاون العاشر (١٥١٣- ١٥٤٦م) بإدانة أفكار لوتر. ثم تصاعدت المواجهة، فصدر القرار البابوي بحرمان لوتر من الشَّركة مع الكنيسة الكاثوليكيَّة في يناير سنة ١٥٢١م.

وظهر في نفس هذه الفترة العديد من رجال الإصلاح، منهم زوينجلي (١٤٨٤- ١٥٣١م)، وكالفن (١٥٠٩- ١٥٦٤م)، وأسَّسوا مذاهب مختلفة بعض الشيء في الفكر والعقيدة، ولكنها تتفق في المبادئ والأسس الكتائيَّة لأفكار مارتن لوتر.

وقد فد إلى مصر مرسلون بروتستانت لأوَّل مرَّة سنة ١٦٣٣م، حين وفد أوَّل لوثري إليها وهو بيتر هيلنج، وظلَّ في مصر فترة قليلة، وفي القرن الثَّامن عشر وفد بعض المرسلين أيضاً أمثال فريدريك وليم هوكر، وجورج بيلدر، وهنري كوسارت، وجون هنري دانك. وفي القرن الثَّاسع عشر وفد إلى مصر مرسلون ألمان لم يحرزوا سوى قليل من التَّجاح.

أما أوَّل خطوة تأسيسيَّة جادة لهذه الطائفة في مصر فكانت في نوفمبر سنة ١٨٥٤م حين جاء مرسل أمريكي إليها يدعى الدكتور لاذن، وأقام بالإسكندرية. ثم جاء إلى مصر أيضاً مرسل اسكتلندي هو الدكتور يوحنا

هوج، وطافا معاً البلاد راكبين النبل يدعوان إلى مذهبهما.

وفي إبريل سنة ١٨٦٠م تم تشكيل أول مجمع للكنيسة المشيخية في مصر، وفيه تم تنصيب يوحنا هوج أول قس كارز في مصر.

وفي سنة ١٨٦٢م جعل الدكتور هود مع الدكتور لاذن مركز تبشيرهما هو القاهرة. وتم تأسيس أول كنيسة في منطقة درب الجنينة بالموسكي في إبريل سنة ١٨٧٣م. وبعد ذلك أتخذ الدكتور هوج مدينة أسيوط مقراً له سنة ١٨٦٥م، واستطاع أن يؤسس بها كنيسة بروتستنتية سنة ١٨٩٢م. وفي عهده تكوّنت كنائس بروتستنتية أخرى مثل الكنائس الإنجيلية، والبلادوس، والإصلاح، والسبتين، والأدفنتست، والكنيسة الرسولية، وغيرها من الكنائس^(١٤).

وفي مصر استطاع المرسلون الأمريكيان أن يحموا حقوق البروتستنت بفضل الفنصالية البريطانية والقنصالية الأمريكية، وعندما كبر عدد البروتستنت في مصر، قدّم طلب إلى الخديوي إسماعيل عن طريق قنصالية الولايات المتحدة لكي يعين أحد المواطنين رئيساً علمانياً للطائفة، وأن يكون له نفس الحقوق التي للبطاركة. فتم تعيين جرجس أفندي برسوم (١٨٧٨ - ١٩٠٢م) رئيساً للطائفة^(١٥)، وعُيّن له بعد ذلك نائب وكيل في كل من القاهرة وأسيوط والمنصورة والإسكندرية، واعترفت بهم الحكومة المصرية.

١٤ - وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها، بدون مؤلف، نيويورك، ص ٣٤٦، ٣٤٧

١٥ - رؤساء الطائفة الإنجيلية هم: ١ - جرجس بك برسوم (١٨٧٨ - ١٩٠٢م)، ٢ - دكتور أخنوخ فانوس روفائيل (١٩٠٢ - ١٩١١)، ٣ - ألكسان أفسخيرون (١٩١١ - ١٩٤٩م)، ٤ - ألفريد جندي ويصا (١٩٥٠ - ١٩٥٦م)، ٥ - الدكتور القس إبراهيم سعيد (١٩٥٧ - ١٩٧٠م)، ٦ - القس إلياس مقار (١٩٧٠ - ١٩٨٠م)، ٧ - الدكتور القس صموئيل حبيب (١٩٨٠ - ١٩٩٧م)، ٨ - القس صفوت البياضي.

ويتألف المجلس الإنجيلي العام من رئيس الطائفة ونائبه، ١٢ مندوب ينتخبون بمعرفة الكنيسة الإنجيليَّة المصريَّة، والمذاهب الإنجيليَّة الأخرى، نصفهم قسوس، والنصف الآخر من العلمانيين أبناء الكنيسة.

وفي سنة ١٩٠٢م صدر أمر عالي بتشكيل مجلس عام لكل الكنائس البروتستنتيَّة الموجودة في مصر، وله أن يضم الكنائس التي قد تنشأ في المستقبل. وأصبحت الكنيسة الإنجيليَّة كنيسة مصريَّة وطنية منذ هذا التاريخ. وفي سنة ١٩٥٨م تم اعتبار الكنيسة الإنجيليَّة المصريَّة كنيسة مستقلة إدارياً عن الكنيسة المشيخيَّة المتَّحدة في شمال أمريكا، ومن ثمَّ أصبح لها الحق في التَّعامل مع أية كنيسة في العالم من أي مذهب من المذاهب.

والمذاهب الإنجيليَّة المعترف بها في مصر حوالي ١٧ مذهباً إنجيلياً، وأكبر الكنائس البروتستنتيَّة هي الكنيسة الإنجيليَّة المشيخيَّة، ويبلغ عدد كنائسها في مصر حوالي ٣٢٠ كنيسة، يليها كنائس الإخوة (٢٠٥ كنيسة)، الكنيسة الميثودستيَّة أي الإصلاح (١٢٠ كنيسة)، والكنائس الرُّسوليَّة (١٠٥ كنيسة)، الكنائس الخمسينيَّة (٢٧ كنيسة)، كنيسة الله (١٣ كنيسة)، وبقية الكنائس البروتستنتيَّة عددها ٥٤٣ كنيسة.

(أ) الكنيسة الأسقفية

جاء أوَّل مرسلها إلى مصر سنة ١٨١٩م، وهو وليم جويت، والتقى مع عدد من الكهنة والرُّهبان الأقباط الأرثوذكس بتصريح من بطريرك الأقباط الأرثوذكس^(١٦)، وقام بتوزيع نسخ كثيرة من البشائر الأربعة باللُّغة العربيَّة. وفي نهاية سنة ١٨٢٥م وصل خمسة مرسلون ألمان من معهد

١٦- مركز الدِّراسات السياسيَّة والاستراتيجيَّة بالأهرام، الحالة الدِّينيَّة في مصر، العدد

الثاني، مرجع سابق، ص ١٠٦

بازل. وفي سنة ١٨٣٣م تم افتتاح مدرستين بالقاهرة وكنيسة صغيرة سنة ١٨٣٤م. ومع سنة ١٨٤٠م كانت هناك ستة اجتماعات روحية تُعقد بالعاصمة، وذلك بتصريح من بطريرك الأقباط الأرثوذكس^(١٧)!!.

وقد تركّز نشاط مرسلي الجمعية في توزيع الكتاب المقدّس وأجزائه، وتعليم الدّين للشّباب، وكان الهدف من هذه الخدمة إغراض الكنيسة القائمة، ولكنها لم تسع لإنشاء كنيسة مستقلة. وظلّ أتباع الكنيسة الأسقفية قليلي العدد. وحالياً يتبع الكنيسة الأسقفية مدرسة ومستشفى في منوف، ومراكز للعمل الاجتماعي في بولاق وعين شمس ومدينة السادات، ودار للنشر ومكتبة.

ومنذ أواخر سنة ١٩٩٦م يرأس مطران الكنيسة الأسقفية في مصر كنائس الكنيسة الأسقفية في القدس والشرق الأوسط، بالإضافة إلى شمال أفريقيا وإثيوبيا والصومال وجيبوتي.

(ب) الكنائس الإنجيلية الأخرى

١- كنيسة الإخوة: وتُعرف باسم كنيسة الإخوة البليموث. وبدأت خدمة هذه الكنيسة في مصر سنة ١٨٨٠م بجهود مرسل أمريكي كان مقر إقامته في بيروت. تمكّن من الحصول على مطبعة عربية ساعدته في امتداد خدمته في سوريا والعراق ومصر، وكان يقضي في مصر أربعة أشهر سنوياً.

٢- كنيسة الإخوة المرّحّبين: وأوّل مصري قبل عقيدتها هو السيّد عريان بطرس الذي درس في أمريكا وعاد إلى مصر في سنة ١٩٥١م، ثم انضم إليه السيّد نقولا عبود الذي عمل على تأسيس بعض الكنائس في

صعيد مصر.

ويتبع الكنيستين السَّابِق ذكرهما ١٦٥ كنيسة واجتماعاً. وللإخوة دار للنَّشر تصدر عنها مجلَّتان هما: المراعي الخضر، ورسالة الشَّبَاب.

٣- كنيسة هُضبة القداصة: بدأت بمجى القس هـ. راندل سنة ١٩٠٢م، وتبعه الأسقف تروتر والقس مور. وأشرف على الكنيسة في الفترة من ١٩٣٥ - ١٩٥٠م الأسقف بلاك. وفي سنة ١٩٥٩م تحوَّل الإشراف عليها من كنيسة هُضبة القداصة الكنديَّة إلى كنيسة الميثوديست الأحرار. ولهذه الكنيسة مدرسة لاهوت خاصة بها في أسيوط تُسمى "كَلِيَّة اللاهوت الوَسَلِيَّة". وأعضاء هذه الكنيسة نحو ٤٥٠٠ عضو ينتمون إلى نحو ٩١ كنيسة واجتماعاً، وتصدر عنها مجلة باسم "بوق القداصة".

٤- كنيسة الإيمان: بدأت في مصر سنة ١٩٠٥م في مدينة دمنهور، ثم انتقلت إلى الفيوم، ثم إلى سوهاج. وقد أشرفت مرسلتان أمريكيتان على هذه الكنيسة في مصر العليا، وبخاصة في سوهاج وجرجا لفترة طويلة هما: مسز هولدمان، ومسز جاكسون، وقد أسَّست مدرسة للكتاب المقدَّس في جرجا، انتقلت فيما بعد إلى شبرا بالقاهرة، ويتبع هذه الكنيسة حالياً ١٩ كنيسة.

٥- كنيسة الله: جاء أوَّل مُرسَل من هذه الكنيسة إلى مصر سنة ١٩٠٧م، وهو القس ريردن، وقضى أغلب خدمته في أسيوط والإسكندريَّة، وامتدت خدمة هذه الكنيسة إلى المنيا والفيوم وملوي وبعض القرى المحيطة بها. ويتبع هذه الكنيسة ٨ كنائس. وللكنيسة مجلَّة باسم "بوق الإنجيل"، كما تتبعها دار للنَّشر هي "مكتبة النَّيل المسيحيَّة".

٦- الكنيسة الرسولية: بدأت في سنة ١٩١٤م، ويتبع هذه الكنيسة ملجأ ليليان تراشر بأسيوط، الذي تأسس سنة ١٩١١م بجهود مسز ليليان تراشر التي وصلت إلى مصر في أكتوبر سنة ١٩١٠م، وقبلت أول طفلة يتيمة رضية في فبراير سنة ١٩١١م. وقامت برعاية نحو عشرة آلاف يتيم حتى وفاتها في سبتمبر سنة ١٩٦١م. وتقوم مباني وحدائق الملجأ الآن على مساحة نحو خمسة عشر فدانا، تضم كنيسة ومساكن وعبادة داخلية، ومدرسة، ومخازن، ومطعماً، وحمام سباحة، ومزرعة، وداراً للرُّضع تتسع لمائة رضيع. ويبلغ حجم عضوية الكنيسة الرسولية في مصر نحو عشرة آلاف نسمة في ١٣٤ كنيسة واجتماعاً.

٧- كنيسة المثل المسيحي: أسستها مجموعة من المرسلين من الحركة الإصلاحية الكندية، وجاء أول مرسلها إلى مصر سنة ١٩١٩م، وتبعتها عدة كنائس أقدمها كنيسة النخيلة.

٨- كنيسة النعمة الرسولية: بدأت في المنيا سنة ١٩٣٥م، بجهود مرسلين كنديين، ولها مجلة باسم "بشير الإنجيل".

٩- كنيسة النعمة: استقلت عن كنيسة النعمة الرسولية.

١٠- كنيسة المسيح: استقلت عن الكنيسة الرسولية سنة ١٩٤٨م.

١١- الكنيسة المعمدانية للأقباط الإنجليك: تأسست سنة ١٩٥٥م، في الفيوم، ووافق المجلس الملي الإنجيلي على اعتمادها كطائفة إنجيلية في ديسمبر سنة ١٩٥٥م، ولها مدرسة للأهوت بشبرا، ويتبعها ست كنائس.

١٢- الكنيسة المعمدانية الكتابية الأولى: تأسست سنة ١٩٦١م، وتبعتها ثلاث كنائس، وتصدر عنها مجلة باسم "الأخبار السارة".

وتضاف إلى هذه المجموعة كنيسة الكرازة بالإنجيل، وكنيسة

الأرمن الإنجيليين.

كلية اللاهوت الإنجيليّة

بدأت الدّراسة بها في سبتمبر سنة ١٨٦٤، وكان الهيكل التّعليمي للمحاضرات مبنياً على نفس أقسام أية كلية لاهوت عالميّة، والتي تتمثل في الدّراسات الكتابيّة (العهد القديم والعهد الجديد)، وقسم تاريخ الكنيسة، وقسم اللاهوت بأقسامه، وقسم الدّراسات العمليّة (الوعظ واللاهوت الرّعوي). وفي سنة ١٨٧٦م تأسّست كلية أسيوط، في عوامة في النيل، حيث كانت القرى التي ترسو عليها العوامة مكاناً للتّدريبات العمليّة. حيث تمّ الفصل بين المواد العلميّة والإنسانيّة والمواد اللاهوتيّة. وكان على دارسي اللاهوت أن ينهوا المواد العلميّة والأدبيّة والتي أُطلق عليها المواد التّمهيدية كشرط للالتحاق بكلية اللاهوت.

وفي سنة ١٩١٩م اشترك السنودس - المجمع الأعلى للكنيسة الإنجيليّة - رسمياً في التّدريس والإدارة.

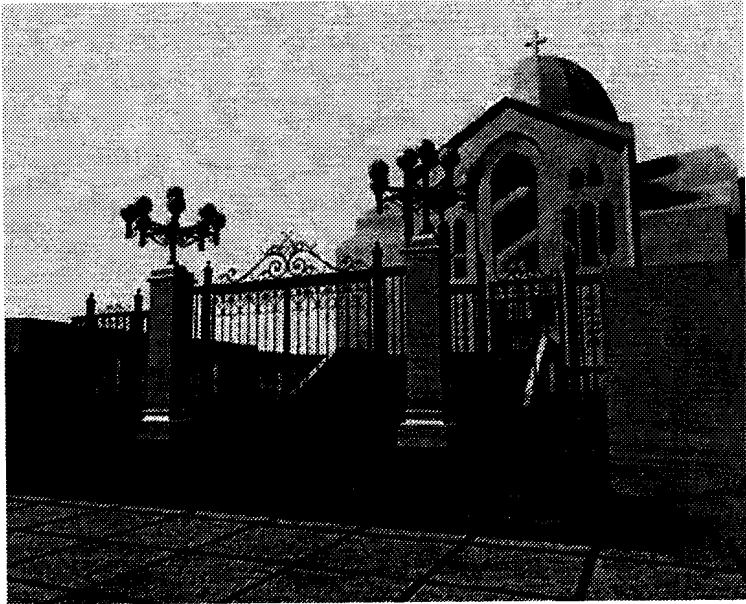
ويوجد بالكلية ثلاثة أقسام: القسم النّظامي الصّباحي، والقسم المسائي، وقسم الدّراسات الحرّة. ومن حيث العمليّة التّعليميّة فهناك مواد إجباريّة وأخرى اختياريّة. ففي الدّراسات التّمهيدية يتم تدريس اللّغة الإنجليزيّة على مستويات متدرّجة، ودراسة اللّغة العربيّة دراسة جيّدة. أما في قسم العلوم الإنسانيّة، فيشتمل على الفلسفة وعلم النّفس والاجتماع. ثم قسم العهد القديم واللّغة العربيّة، ثم قسم العهد الجديد واللّغة اليونانيّة، ثم قسم الدّراسات اللاهوتيّة، ثم قسم الدّراسات التّاريخيّة، ثم قسم الدّراسات العمليّة.

ويحصل خريج اللاهوت بمجرد تعيينه بإحدى الكنائس على راتب

شهري يفوق راتب المناصب الحكوميّة، بالإضافة إلى السّكن، والمكانة الاجتماعيّة، والقيادة.

وعن الخطة المستقبلية للكلية، تسعى الكلية لأن يصبح لديها أساتذة مصريون متفرغون حاصلون على درجة الدكتوراه في التخصصات المختلفة، وتطوير المكتبة لتلاحق مكثبات كبرى كليات اللاهوت بالانتهاء من تسجيل الكتب بالكمبيوتر، وربط المكتبة بالنظام العالمي (الإنترنت) وتطوير خدمة الميكروفيش وتطوير مركز السمعيّات والبصريّات بالمكتبة.





الملحق الثالث

المؤرخون القدامى لمصر من غير الأقباط

- هيرودوت Herodotus (٤٨٤ - ٤٢٤ ق م)

وهو يوناني الجنسية، زار مصر سنة ٤٥٧ ق م، وألَّف كتابه الشَّهير "التَّاريخ" وهو يحتوي على فصل كامل عن مصر والمصريين. واعتمد في كتابته على المعلومات التي استقاها من كهنة المعابد المصريَّة والكتابات التي وجدها منقوشة على أطلال الآثار.

- مانيتون Manethon

مؤرِّخ مصري شهير عاش في الإسكندريَّة وألَّف كتابه باليونانيَّة عن تاريخ مصر منذ أقدم العصور بناء على طلب الملك بطليموس الثَّاني، وذلك في سنة ٢٨٠ ق م ذاكراً فيه كل ما وجدته في المخطوطات القديمة والتي كانت مخبأة في المعابد المصريَّة القديمة.

- ديودور الصقلي Diodorus Siculus

مؤرِّخ شهير زار مصر سنة ٦٠ ق م وألَّف عند رجوعه إلى بلاده كتاباً عن تاريخ مصر وعادات المصريين وطريقة حياتهم.

- سترابون Strabon (٦٣ ق م - ٢٠ م)

جغرافي إغريقي زار مصر في سنة ١٠ م ووصف في كتابه الشَّهير "الجغرافيا - Geographica" كثيراً من الأماكن والعادات المصريَّة القديمة. وقد استقى معظم معلوماته من الكُتُب التي كانت محفوظة في مكتبة الإسكندريَّة الشَّهيرة، وكذلك من الكُتُب التي ألَّفها جغرافيون إغريق قبله أمثال (بوليبوس Polybius وبوسيدونيوس Posidonius

وثيوفانيس Theophanes في القرن الخامس قبل الميلاد، وغيرهم.

– يوسفوس Josephus (٣٧ – ١٠٠م)

عاش فترة في مدينة الإسكندرية، وصاحب الإمبراطور الروماني فسبسيانوس قادماً معه من روما، وكان أستاذ يوسفوس في روما هو إيبافروديتوس Epaphroditus أحد علماء النحو الإسكندرانيين، الذي كان قد غادر الإسكندرية ومعه مكتبته الضخمة التي تضم نحو ٣٠,٠٠٠ كتاب.

– بلوتارك Plutarch (٤٨ – ١٢٢م)

مؤرخ إغريقي زار مصر في سنة ٩٠م، وألف كتاباً عن الحياة المصرية كما شاهدها بعينه.

– جوليوس أفريكانوس Julius Africanus (١٦٠ – ٢٤٠م)

مؤرخ مسيحي، وُلد في أورشليم وعاش سنين كثيرة من حياته في قرية عمواس، وكانت له علاقات قوية مع حكام أديسا Edessa. زار مصر في سنة ٢١٧م وكان على اتصال وثيق بكل من هيراكلاس وأوريغانوس. وكان قد كتب رسالة إلى أوريغانوس يناقشه في صدق قصة سوسنة. وفي زمن حكم الإمبراطور ألكسندر ساويرس (٢٢٢ – ٢٣٥م) شارك بدور فعال في تأسيس المكتبة العامة في البانثيون Panthion بروما. عمله الرئيسي هو كتابه: "تاريخ العالم – Χρονογραφία"، وهو في خمسة أجزاء، دوّن فيه تاريخ العالم حتى سنة ٢١٧م وقد حفظ يوسابيوس القيصري أجزاء منه في مؤلفه "تاريخ الكنيسة".

- يوسابيوس القيصري Eusebius (٢٦٠ - ٣٤٠م)

هو أسقف قيصرية، وتلميذ بامفيليوس^(١) Pamphilus اللاهوتي والشَّهيد الذي لقَّنه تعاليم العلامة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م). بعد استشهاده معلمه سنة ٣٠٩م فرَّ يوسابيوس إلى مصر هرباً من الاضطهاد، وقضى في أحد سجونها بضعة أشهر. وفي سنة ٣١٥م صار أسقفاً لقيصرية، وكان زعيماً للنَّصف أريوسيين. حاول في مجمع نيقية تقديم صيغة قانون إيمان المعموديَّة لكنيسة قيصرية، لتكون هي صيغة إيمان المجمع، ولكن تعبير "الهو موأسيوس" الذي تمسَّك به المجمع بقيادة القديس أثناسيوس الرُّسولي حال دون تحقيق مساعاه. ومعروف عن يوسابيوس القيصري أنه لم يناصر أبداً البابا أثناسيوس الرُّسولي في دفاعه ضد الأريوسية، أو يسانده، بل على العكس ظل مناوراً له طيلة حياته. استدعاه الإمبراطور قسطنطين سنة ٣٣٥م ليستشيره بخصوص قضية البابا أثناسيوس الرُّسولي، فتوطدت العلاقات بينهما.

لقَّب بـ "أبو التَّاريخ الكنسي" لتأليفه كتابه الشَّهير "تاريخ الكنيسة"، معتمداً فيه على مصادر أولية لمؤلفين فقدت كتاباتهم بكاملها. وهو في عشرة كُتب أو فصول، يسرد فيه تاريخ الكنيسة منذ أيام الرُّسل، أما الثلاثة الأخيرة منها فتعالج بتفصيل وافٍ أحداث الأيام التي عاشها المؤلِّف نفسه، وفي الكتاب إشارات بالغة الأهمية عن كنيسة مصر. وقد حُفظ لنا الكتاب في ترجمات لاتينية، وسريانية، وأرمينية.

١- القديس بامفيليوس (٢٤٠-٣٠٩م) هو تلميذ العلامة المصري أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م)، تعلَّم في الإسكندرية، ورحل إلى قيصرية فلسطين وأنشأ فيها مدرسة لاهوتية، واستشهد في زمان الإمبراطور مكسيميانوس دازا. كانت له مكتبة كبيرة في قيصرية ظلت قائمة حتى دمَّرها العرب في القرن السابع الميلادي.

Cf. ODCC, 2nd edition, p. 1026.

وتعيَّد له الكنيسة الشرقية في ١٦ فبراير، والكنيسة الغربية في ١ يونيو من كل سنة.

ومن بين مؤلفاته التاريخية أيضاً: "شهداء فلسطين" في زمن اضطهاد دقلديانوس ما بين سنة ٣٠٣ - ٣١٠ م. وقد دوّن الأحداث كشاهد عيان.

وله أيضاً كتاب "حياة قسطنطين"، وهو ملئ بالتقريظ والتملق، حاوياً بعض أحداث تاريخية غير ذي قيمة.

وله كتب دفاعية أخرى منها: "ضد هيروكليس - Against Hierocles"، وهو حاكم وثني لمقاطعة بيثينية.

فضلاً عن كتابات أخرى في شرح الأناجيل المقدسة، أهمها كتابان: الأول يُسمى "هيئة الإنجيل" وهو في ١٥ كتاب يشرح فيه لماذا قبل المسيحيون التقليد اليهودي دون اليوناني، وفيه استعارات كثيرة لمؤلفين قدامي فقدت كتاباتهم. والثاني يُسمى "بيان قوة الإنجيل"، وهو في ٢٠ كتاباً، يثبت فيه المسيحية من العهد القديم. بالإضافة إلى مؤلفات أخرى.

- يوحنا مسكوس

كاتب ديني، عاصر بطاركة بيت المقدس زكريا وصفرونيوس، في أواخر القرن السادس الميلادي وأوائل السابع. أما يوحنا مسكوس فهو سوري المولد يوناني اللسان، زار مصر وطاف بها لبضع سنين قرب آخر القرن السادس الميلادي مع صديقه وتلميذه صفرونيوس، وقضياً مدة طويلة معاً في صعيد مصر. وما لبثا أن عادا إلى وطنهما في الشام حتى عادا مرة أخرى إلى مصر سنة ٦٥٥ م، وذهبا إلى الإسكندرية وقضيا بها نحو ثماني سنوات. وكانا كلاهما صديقين ليوحنا الرّحوم، البطريك الملكاني في مصر آنذ، إلا أنه كان أقل منهما علماً، وقد هربا مثله من الإسكندرية

في وقت غزو الفُرس للبلاد. وسافرا إلى رومية وهناك أعاد يوحنا مسكوس قراءة كتابه ونقحه التَّنقيح الأخير. ولما وافاه أجله، أعطاه لتلميذه صفرونيوس لينشره.

وفي سنة ٦٢٠م عاد صفرونيوس إلى فلسطين، ونشر بعد حين جزءاً من كتاب أستاذه وهو الجزء الباقي إلى اليوم، واسمه "مسارح الرُّوح"، وبه شئ من الوصف الشَّائق للحياة في الإسكندرية. والكتاب فيه فوضى علمية، واستطراد غير منظم يجعله شهى المقرأ، ويخلع لذة على المواضع التي تدعو فيه إلى الملل والسَّأم.

- يوحنا النقيوسي^(٢)

أسقف قبطي لمدينة نقيوس وكانت نقيوس مدينة عظيمة من مدن مصر في الوجه البحري، وهي قرية "بشاتي". وكان لها اسمان أحدهما قبطي، والآخر يوناني، وكانت تقع على الفرع البليبي لليل (كان فرعاً للليل يقع ما بين فرعيه الحاليين). ولكنها ليست قرية "أبشادي" الحالية لأنه ليس فيها ما يدل على قدمها. وبعد أن يقدّم العالم المدقق ألفريد بتلر A. Butler بحثاً مستفيضاً عن اسم نقيوس وموقعها الآن، يخلص إلى القول أنها هي قرية "ششير" الحالية^(٣).

كتب الأسقف يوحنا النقيوسي أواخر القرن السابع. وله كتاب "تاريخ العالم" ويسترعى النَّظر فيه دقة روايته وتحريه الدقة والحقيقة، وبرغم بعض الأخطاء في الكتاب إلا أنه يكشف من الحقائق شيئاً كثيراً كان مجهولاً، وهو يكشف عن تاريخ الدولة الرومانية الشَّرقيَّة وتاريخ

٢- هو مؤرخ قبطي، ولقد وردت أخباره هنا لأهمية الكتاب الذي ألفه، والذي كان أحد المصادر الرئيسيَّة التي اعتمدنا عليها في الكتاب الذي بين يديك.

٣- د. ألفريد ج بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٦

بطاركة الإسكندرية وتاريخ مصر عامة. وكان من غير شك يأخذ عما سبقه من المؤلفات التي لم يبق منها شيء حتى اسمها.

كتب المؤلف جزءاً من كتابه باللغة القبطية، والآخر باللغة اليونانية. ويظهر أنه قد نُقل إلى العربية في زمن متقدم جداً، وعلى أساس تلك النسخة العربية وُجدت ترجمة إثيوبية، وهي النسخة الوحيدة الباقية من ديوان يوحنا النقيوسي.

وأخبار هذا الكتاب ذات قيمة عظيمة، إذا كان نصها واضحاً غير غامض، ولم يتطرق إليه الفساد. وقد عثرت البعثة البريطانية إلى بلاد إثيوبيا على نسخة مخطوطة من كتاب يوحنا النقيوسي.

- البلاذري (٨٠٦ - ٨٩٢م)

وله كتاب "فتوح البلدان" وهو كتاب في ذكر الحروب والغزوات مرتبة بحسب الأقطار والأقاليم. وهذا الكتاب إذا لم يكن أول الكتب عهداً لمؤرخ إسلامي، وأغزرها مادة، فهو بغير شك حجة من أعظم المراجع قيمة. واسم المؤلف مشتق من "حب البلاذري" وهو مادة مخدرة، وكان موته ناشئاً عن تناوله جرعة زائدة منه. وقد طبع الكتاب في باريس سنة ١٨٦٦م.

- ابن عبد الحكم (المتوفى بالفسطاط سنة ٨٧٠م)

ومؤلفه موجود في نسخة وحيدة مخطوطة لم تُنشر بعد، محفوظة في المكتبة الأهلية بباريس. وقد نقل كثير من المؤرخين العرب كثيراً من الأخبار عن ذلك المؤلف.

- ابن قتيبة (٨٢٨ - ٨٨٩م)

وله كتاب "المعارف" وهو قاموس تاريخي لتراجم حياة الأعلام. ويُظن أنه أقدم الكُتُب التَّاريخِيَّة المحضَة التي بقيت إلى الآن من مؤلِّفات العرب. وأسلوبه غير مفصل ولا مستفيض. وطُبِع الكتاب في سنة ١٨٥٠م.

- سعيد بن بطريق (٨٧٦ - ٩٦٠م)

مؤرِّخ مسيحي معروف باسم آخر أكثر شيوعاً وهو "أوتيكيوس" وُلد في القسطنطينية، وكان عالماً ممتازاً في الطب والدين والتاريخ. وصار بطريك الملكانيَّة سنة ٩٣٣م، واستمر عليها إلى وفاته. وينتهي ديوانه حتى سنة ٩٣٨م، وقد نسج به تاريخاً سائغ المقرأ، غير أنه لم يكن تاريخاً نقدياً. وقد حفظ أخباراً ذات شأن كبير. واسم كتابه "التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق" وقد طُبِع في بيروت سنة ١٩٠٩م. وله أيضاً كتاب "نظم الجواهر"، وقد طُبِع في باريس.

- الطُّبري (٨٣٩ - ٩٢٣م)

هو محمد بن جرير الطبري. وقد وُلد في طبرستان، واسمه مشتق منها. سافر إلى العراق والشَّام ومصر. واستقر في بغداد، واستقل بالتدريس والكتابة وأخباره في العادة دقيقة، ويعنى بها عناية كبرى، ويفصل فيها تفصيلاً وافياً مجلياً. وله كتاب "تاريخ الأمم والملوك" وهو في أربعة أجزاء، وطُبِع في القاهرة سنة ١٩٧٩م. أما أوَّل طبعة له فكانت في باريس سنة ١٨٧١م.

- المسعودي (توفي سنة ٩٥٧م)

هو علي بن الحسين بن علي. وله كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر" وطبع في بيروت سنة ١٩٨٣م. أما أوّل طبعة له فكانت في باريس سنة ١٨٦٣م.

- الماوردي (٩٧٥ - ١٠٥٨م)

بلغ أعلى شأو في ميدان الفقه والقضاء والسياسة، وتميّز بسعة علمه ودقة حكمه، كما كان ممتازاً باستقامته واستقلاله وعزّة نفسه. وكتابه "الأحكام السلطانية" هو مؤلّف نفيس فيه قوّة في البيان، وعمق في البحث. وطبع الكتاب سنة ١٨٥٣م.

- ابن الأثير (١١٦٠ - ١٢٣٢م)

من أهل ما بين التّهرين، درس في الموصل وبغداد وقضى معظم حياته في الدّرس والأدب، ولكنه في مرتبة دون مرتبة كبار المؤرّخين. وكتابه هو "الديوان الكامل" وطبع في لندن سنة ١٨٦٨، ١٨٧٤م.

- ابن خلكان

كان صديقاً لابن الأثير، وخلف كتاباً في تراجم الأعيان، اسمه "تراجم الأعيان" وهو في أربعة أجزاء، وطبع في باريس سنة ١٨٤٢م.

- عبد اللطيف البغدادي

وُلد في بغداد سنة ١١٦١م، وعاصر الحروب الصليبيّة أيام السُلطان صلاح الدّين، مع أنه لم يكن من الجنود. أقام مدّة في مصر، اشتهر بالعلم

شهرة واسعة لما كان عليه من معرفة بالطب والفلسفة والتَّاريخ. أخباره قصيرة مختصرة، ويستطرد كثيراً في كتابته، وينتقل من أمر إلى آخر. وله كتاب "الإفادة والاعتبار بذكر الخطط والآثار" وهو في أخبار مصر، وطُبع في أكسفورد سنة ١٨٠٠م.

- ياقوت (١١٧٨ - ١٢٢٨م)

كاتب شائق، وأكثر ما كتبه موثوق به. وُلد في البلاد الرومانية، ثم بيع رقيقاً في بغداد لتاجر، فكان يُبعث في التَّجارة إلى بلاد الخليج الفارسي، ثم ترك مولاه لخلاف نشب بينهما، وأخذ في تحصيل العلم، وكان يرتزق في أثناء ذلك من نسخ الكُتب. ثم صالح مولاه قبل سنة ١٢٠٠م، وإذ توفي مولاه اشتغل ببيع الكُتب والتَّأليف والسَّفَر. زار بلاد الشَّام ومصر سنة ١٢١٣م، وإذ بلغ إلى "مرو" ألقى بها مكتبة مليئة بالكُتب، وهناك بدأ كتابه "معجم البلدان" وانتهى منه سنة ١٢٢٤م، وهو كتاب ذو قيمة عظيمة في التَّاريخ والجغرافيا.

- ابن العميد، أو ابن المكين

وُلد سنة ١٢٠٥م، وألَّف كتاباً في التَّاريخ، وينتهي تاريخه إلى ما قبل عصره بنحو قرن. وقد كان مسيحياً مصرياً. ويجب أن يعد مؤلفه بين المؤلِّفات الصَّغيرة القيمة في نظر الباحث في تاريخ مصر.

- أبو الفرج ابن العبري (١٢٢٦ - ١٢٨٦م)

أحد ملائمة الكنيسة السَّريانيَّة، وهو من أصل إسرائيلي، وقد وُلد في ملطية بأرمينيا. وله كتاب "تاريخ الدُّول" مكتوب باللغة العربيَّة، وهو مختصر لكتاب أكبر كتبه أبو الفرج نفسه باللُّغة السَّريانيَّة، وقد

طُبِعَ كتابه سنة ١٦٦٣م.

- القزويني (توفي سنة ١٢٨٣م)

خَلَّفَ كتاباً في "آثار البلاد وأخبار العباد" وهو بمثابة دليل لوصف الآثار القديمة، وقد طُبِعَ سنة ١٨٤٨م.

- أبو الفداء (١٢٧٣ - ١٣٣١م)

وكتابه هو "وصف البلدان" وهو سليل الأسرة التي أنجبت صلاح الدين الأيوبي. وصار في آخر عمره سلطاناً لحماة فوق ما كان عليه من سعة العلم والنبوغ في الأدب. وكتابه عظيم النفع في معرفة أسماء البلدان في العصرين القبطي والعربي. وهو في ثلاثة مجلدات، وطُبِعَ في باريس سنة ١٨٤٠م.

- ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٥م)

هو عبد الرحمن بن خلدون. وُلِدَ في تونس، وانتقلت أسرته منذ زمن طويل إلى بلاد الأندلس، ثم تركت أشبيلية وأقامت في سبتة قبل ميلاده بنحو قرن. وقد حصَّلَ ابن خلدون العلم في تونس أولاً، ثم في تلمسان، ثم لحق بسلطان غرناطة. وتاريخ ابن خلدون بحالته التي بقي عليها إلى اليوم محتلط تحيط به ظلمة، إلا أن به أجزاء ذات قيمة عظمى تؤكد صدقها النَّاصع. وكتابه يُسمى "العبر وديوان المبتدأ والخبر" وهو في سبعة أجزاء، وطُبِعَ في بولاق بمصر سنة ١٨٨٢م.

- ابن دقماق (توفي سنة ١٤٠٦م)

مصري واسع الاضطلاع والعلم اتساعاً يستلفت النَّظْر، له كتاب "وصف بلاد مصر" وكثير من الحقائق التي حفظها ابن دقماق في كتابه لم يسبقه إلى ذكرها أحد، وهي شائقة من أروع ما كُتِب، ولاسيما ما كان منها في وصف آثار الفسطاط والإسكندرية. وله أيضاً "الانتصار بواسطة عقد الأمصار" وطُبع في بولاق سنة ١٨٩٣م.

- القلقشندي (توفي سنة ١٤١٨م)

هو شهاب أحمد بن علي، وله كتاب "صبح الأعشى في صناعة الإنشا".

- المقرئزي (١٣٦٥ - ١٤٤١م)

هو تقي الدين أحمد بن علي. وُلِد في القاهرة، وعاصر السلطان المملوكي بروق، والسلطين الذين أتوا بعده، حتى السلطان برسباي. تولى أرفع المناصب الحكومية في مصر والشام، حيث عاش في الشام عشر سنوات، وفي الحجاز خمس سنوات، وعاد إلى مصر بعد غيبة خمسة عشر عاماً، وكان قد بلغ الستين من عمره.

كان شريفاً، عظيم الخلق، يناصر الحق، ولا يهادن فيه. كرّس حياته في التأليف، فقد كان كاتباً كثيراً عظيم الإكتار وله كتب كثيرة مبدعة. وكتابه "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" في جزأين هو أثير نفيس من آثار العمل المتصل في جمع الأخبار. ويعد من أعظم المراجع وأكبرها شأنًا، ولكن مع ذلك فإنه مع شدة غيرته على كتابته وعنايه في عمله لا نستطيع أن نصفه بالدقة والتحرّي، ولا بأنه استطاع أن يحسن

بناء ما وُجد دونه من الأخبار. وهو في كتابه يصف الأقباط في مصر وما حلَّ بهم من اضطهاد منذ دخول العرب مصر وحتى القرن الخامس عشر، ويُعد كتابه من أهم المراجع في ذكر الكنائس والأديرة القائمة في زمانه. طُبِع كتابه في مطبعة بولاق سنة ١٨٥٤م.

- ابن حجر العسقلاني (١٣٧٢-١٤٤٨م)

وُلد في عسقلان، وتنقل كثيراً بين بلاد الشَّام وبلاد العرب ومصر، واشتغل بالتَّجارة ثم بالشَّعر ثم بالأدب، ومات طاعناً في السَّن في مدينة القاهرة. وله كتب في التَّراجم، منها كتابه عن "عمرو بن العاص" وسواه من القادة في مدَّة الفتح العربي لمصر.

- أبو المحاسن (١٤٠٩-١٤٦٩م)

كان أبوه مملوكاً للسُّلطان برقوق، وولاه على حلب ثم على دمشق. ولكن المؤرِّخ نفسه وُلد في القاهرة وتعلم بها، وكان المقرئ أحد من تلقى عنهم العلم. وقد جمع كتابه في "تاريخ مصر" على طريقة هي أشبه شئ بطريقة المقرئ، أي أنه كان يروي مختلف الروايات عن الحدث الواحد بغير أن يعلق عليها أو ينقدها أو يرحِّج بعضها على بعض. وكتابته هو "التَّجويد الزَّاهرة" وهو جزءان، طُبِع في سنة ١٨٥٥م، ثم مرَّة أخرى سنة ١٨٦١م.

- السيوطي (١٤٤٥-١٥٠٥م)

هو جلال الدِّين عبد الرَّحمن السيوطي، وهو من أهل القاهرة مع أن أسرته هي فارسيَّة الأصل، وصلت أسيوط قبل ثلاثة قرون من مولده. وكان أبوه قاضياً في القاهرة. بدأ السيوطي يكتب منذ صغره، وكان

يفخر بأن مؤلفاته معروفة في آسيا الصُغرى والشَّام وبلاد العرب وشمال أفريقيا وبلاد إثيوبيا ذاتها. نال مكانة مرموقة في عصر السُّلطان قايتباي، لكن الأحوال انقلبت عليه في عصر السُّلطان طومان باي الذي لم يدم حكمه سوى مائة يوم. وقد عاصر السيوطي أيضاً السُّلطان قنسوة الغوري، لكنه كان قد اعتزل الحياة العامة حيث انتحى في جزيرة الرُّوضة ومات بها. وكتابه في التَّاريخ يدل على انخطاط حتى إذا قورن بكتب سلفه الأقربين، ولكن إيراده للأخبار كان له قيمة عظيمة عندما يغفل الآخرون ذكرها.

وله كتاب "حسن المحاضرة" مبني في كثير من نواحيه على كتاب المقرئزي، فهو ينقل عنه قطعاً بأكملها نقلاً لفظياً. وطُبع الكتاب في مصر سنة ١٨٨٢م. وله كتاب آخر هو "تاريخ الخلفاء" طبع في كلكتا سنة ١٨٨١م.



المراجع

- إبداع (مجلة)، العدد الثاني، فبراير ١٩٩٤م.
- أحمد بهاء الدين، فاروق ملكاً، القاهرة، ١٩٩٩م.
- إسطفانوس الثاني (الأنبا) بطريرك الإسكندرية وسائر الكرازة المرقسية للأقباط الكاثوليك، الأنبا روفائيل طوخي (١٧٠٣-١٧٨٧) حياته ومؤلفاته، القاهرة، ١٩٨٧م.
- إغناطيوس ديك (الأب)، الشرق المسيحي، لبنان، ١٩٧٥م.
- ألفريد ج بتلر (الدكتور)، الكنائس القبطية القديمة في مصر، جزآن، ترجمة إبراهيم سلامة، القاهرة، ١٩٩٣.
- ألفريد ج بتلر (الدكتور)، فتح العرب لمصر، الجزء الأول، تعريب محمد فريد أبو حديد، القاهرة، ١٩٨٩م.
- أمير نصر، قراءة في حياة أبونا مينا اليراموسي المتوحد، القاهرة ١٩٩٦م.
- باخوميوس (الأنبا) أسقف البحيرة والخمس مدن الغربية، "الخمس مدن الغربية" في مجلة الكرازة، ٢٥ مارس ١٩٩٤م.
- بطرس بطرس غالي (الدكتور)، طريق مصر إلى القدس، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٧٧م.
- جان كومي Jean Comby، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٤م.
- جان يويوت Jean Yoyotte، مصر الفرعونية، ترجمة سعد زهران، مجموعة الألف كتاب، القاهرة، سنة ١٩٦٦م.
- جمال بدوي، نظرات في تاريخ مصر، سلسلة تاريخ المصريين ٢٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.
- جورج شحاته فنواي (الأب الدكتور)، المسيحية والحضارة العربية، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٢م.
- حسين فوزي، سنبداب مصري، جولات في رحاب التاريخ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م.

- حلمي أحمد شلبي (الدكتور)، الموظفون في مصر في عصر محمد علي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م.
- خليل عبد الكريم، قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، القاهرة، ١٩٩٧م.
- دائرة المعارف الكتابية، الجزء الأول، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨٦م.
- دائرة المعارف الكتابية، الجزء السادس، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٧م.
- سامح فوزي، هموم الأقباط، مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية، القاهرة ١٩٩٨م.
- ساويرس بن المقفع (الأنبا)، كتاب مصباح العقل، تقلم وتحقيق الأب سمير خليل اليسوعي، القاهرة ١٩٧٨م.
- ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة، مطبوعات جمعية الآثار القبطية:
- المجلد الثاني، الجزء الأول، قام على نشره يسى عبد المسيح، وأسولد برمستر، القاهرة ١٩٤٣م.
- المجلد الثاني، الجزء الثالث، قام على نشره يسى عبد المسيح، وعزيز سوريال عطية، وأسولد برمستر، القاهرة ١٩٥٩م.
- المجلد الثاني، الجزء الثاني، قام على نشره يسى عبد المسيح، وعزيز سوريال عطية، وأسولد برمستر، القاهرة ١٩٤٨م.
- سلام شافعي محمود (الدكتور)، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٥.
- سمير يحيى الجمال (الدكتور)، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر الفرعوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
- سمير يحيى الجمال (الدكتور)، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر اليوناني - الروماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٩٧م.
- سناء المصري: هوامش الفتح العربي، حكايات الدخول، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦.
- سيدة إسماعيل كاشف (الدكتورة)، مصر في عصر الإخشيديين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م.
- سيدة إسماعيل كاشف (الدكتورة)، مصر في فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤.

- شمس الرياسة أبو البركات (القس)، المعروف بابن كبير، مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة، تحقيق الأب سمير خليل اليسوعي، مكتبة الكاروز، القاهرة، ١٩٧١م.
- شنوده السرياني (القُمص)، (الأبنا يوانس أسقف الغريّة الأسبق)، الاستشهاد في المسيحية، القاهرة، ١٩٦٩م.
- طه حسين (الدكتور)، مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦م.
- عبد المنعم عبد الحلیم (الدكتور)، حضارة مصر الفرعونية، الجزء الأول، دار المعارف، ١٩٧٨م.
- علي السيد محمود (الدكتور)، الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م.
- فيوتو، وصف مصر، الكتاب الثامن، ترجمة زهير الشايب، القاهرة، ١٩٨١م.
- فيوتو، وصف مصر، الكتاب السابع، ترجمة زهير الشايب، القاهرة، ١٩٨٣م.
- لجنة التاريخ القبطي، خلاصة تاريخ المسيحية في مصر، القاهرة ١٩٣٢م.
- لويس شيخو (الأب)، التراث العربي المسيحي، وزراء النصرانية وكتابها في الإسلام، ١٩٨٧م.
- مجلة المسرة، العدد ٧٧٥ - ٧٨٠، تموز سنة ١٩٩٠م.
- مجلة صديق الكاهن، أعداد سبتمبر وديسمبر ١٩٧٢، مارس ١٩٧٣، أكتوبر ١٩٧٩م.
- مجلة مدارس الأحد، العدد الثامن، السنة الثانية عشر، أكتوبر ١٩٥٩م.
- مجلة معهد الدراسات القبطية، القاهرة، ١٩٥٨م.
- محرم كمال، آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية، مهرجان القراءة للجميع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م.
- محمد حسنين هيكل، حريف الغضب، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.
- محمد شفيق غربال (الدكتور)، الموسوعة العربية المسيرة، القاهرة، ١٩٦٦م.
- محمد عفيفي (الدكتور)، الأقباط في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م.
- محمد غيطاس (الدكتور)، حملة اليونسكو، وأضواء جديدة على تاريخ النوبة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٧.

- مراد كامل (الدكتور)، العصر القبطي في تاريخ الحضارة المصرية، ١٩٦٣م.
- مرقس سميكة باشا، ومساعدة يسى عبد المسيح أفندي، فهارس المخطوطات القبطية والعربية الموجودة بالمتحف القبطي والدار البطريركية وأهم كنائس القاهرة والإسكندرية وأديرة القطر المصري، الجزء الأول، القاهرة ١٩٣٩م.
- مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، الحالة الدينية في مصر، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٥م.
- مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، الحالة الدينية في مصر، العدد الثاني، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٨م.
- ناريمان عبد الكريم (الدكتورة)، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م.
- نجيب محفوظ، وطني مصر، حوارات مع محمد سلماوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.
- نخبة من العلماء، تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعوني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، بدون تاريخ.
- نعمات أحمد فؤاد (الدكتورة)، شخصية مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٩٨٩م.
- هنري دالميس الدومينكي (الأب)، الطقوس الشَّرْقِيَّة، المعهد الكاثوليكي بالمعادي، القاهرة، ١٩٦٨م.
- وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها، نيويورك، بدون مؤلف، بدون تاريخ.
- يوانس (الأنبا)، (أسقف الغربية الراحل)، مذكرات في تاريخ الكنيسة القبطية بعد مجمع خلقيدونية.

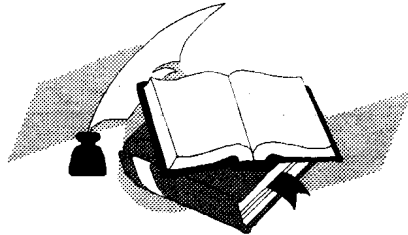
- Briger A. Pearson & James E. Goehring, *The Roots of Egyptian Christianity*, U. S. A., 1986.

- Brightman, F.E., M. A., *Liturgies, Eastern and Western*, Vol. 1, *Eastern Liturgies*, Oxford, 1967.

- Brinyar Lia, *The Society of the moslem brothers in Egypt, The Rise of an Islamic mass movement 1928 - 1942*, London, 1998.

- *Bulletin de la Société d'Archéologie Copte (BSAC)*, t. V, 1939.

- Burmester, O.H.E., *The Egyptian or Coptic Church, A Detailed Description of her Liturgical Services and the Rites and Ceremonies Observed in the Administration of her Sacraments*, Publications de la Société d'Archéologie Copte. Textes et Documents, X, Le Caire, 1967.
- Butler, A.J., *The Ancient Coptic Churches of Egypt*, Oxford, vol. I, 1884.
- Chébli, P., *Réfutation de Saaid Ibn- Batriq (Eutychius)*, Le Livre des Conciles, in Patr. Orien., t. III, 1905.
- Davies, J.G., *A Dictionary of Liturgy and Worship*, London, 1984.
- Evetts, B., *History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria*, I, Saint Mark to Theonas (300), Paris, 1904
- Leroy, L., Sévère ibn al. Mukaffa, *Histoire des conciles* (Second Livre), Patr. Orien., t. VI, 1900.
- Otto Menardus, *Christian Egypt Ancient And Modern*, The American University In Cairo Press, Cairo, 1977.
- P. C. Glop, un programme dans le ordinateur, 1992.
- Paul Sbath, R.p., *Manuscripts Arabes d'Auteurs Coptes*, dans B A S C, t. V, 1939.
- Robert Taft, S. J., *The Liturgy of the Hours in East and West*, U. S. A., 1986.
- Somers Clark, *Christian Antiquities in The Nile Valley*, Oxford, 1912.



الدَّرَّة الطَّقْسِيَّة لِلْكَنِيسَةِ الْقِبْطِيَّة

بين الكنائس الشَّرْقِيَّة

للرَّاهب القس أنثاسيوس المقاري

www. Athanase. net

• السَّلْسَلَةُ الْأُولَى: مصادر طقوس الكنيسة

رقم	اسم الكتاب	تاريخ النشر
١/١	الدِّيْدَاخِي أَيْ تَعْلِيم الرُّسُل (طبعة ثانية)	يناير ٢٠٠٦ م
١/٢	التقليد الرُّسُولِي (طبعة ثانية)	ديسمبر ٢٠٠٦ م
١/٣	المراسيم الرُّسُولِيَّة - دراسة موجزة - نص الكتاب الثامن	أكتوبر ٢٠٠٤ م
١/٦	فهرس كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة - الكتابات اليونانيَّة	يناير ٢٠٠٣ م
١/٧	فهرس كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة - الكتابات القبطيَّة	يوليو ٢٠٠٦ م
١/١٠	قوانين البابا أنثاسيوس بطريك الإسكندريَّة (طبعة ثانية)	ديسمبر ٢٠٠٦ م
١/١١	قوانين هيوليئس القبطيَّة	أكتوبر ٢٠٠٤ م

• السَّلْسَلَةُ الثَّانِيَّة: مقدّمات في طقوس الكنيسة

رقم	اسم الكتاب	تاريخ النشر
٢/١	الكنائس الشَّرْقِيَّة وَأوطاها الجزء الأوَّل: رؤية عامة - كنيسة المشرق الآشوريَّة (طبعة ثانية)	أكتوبر ٢٠٠٦ م
٢/٢	الكنائس الشَّرْقِيَّة وَأوطاها - الجزء الثَّانِي: كنيسة مصر	يناير ٢٠٠٧ م
٢/٣	الكنائس الشَّرْقِيَّة وَأوطاها الجزء الثَّالِث: الكنائس الشَّرْقِيَّة القديمة (طبعة ثانية)	أكتوبر ٢٠٠٦ م
٢/٤	الكنائس الشَّرْقِيَّة وَأوطاها - الجزء الرَّابِع: الكنائس البيزنطيَّة	يناير ٢٠٠٥ م
٢/٥	الكنيسة، ميناها ومعناها	يناير ٢٠٠٤ م
٢/٦	مُعْجَم المصطلحات الكنسيَّة، الجزء الأوَّل (طبعة ثانية)	سبتمبر ٢٠٠٤ م
٢/٧	مُعْجَم المصطلحات الكنسيَّة، الجزء الثَّانِي (طبعة ثانية)	سبتمبر ٢٠٠٥ م
٢/٨	مُعْجَم المصطلحات الكنسيَّة، الجزء الثَّالِث	نوفمبر ٢٠٠٣ م

• السَّلْسَلَةُ الثَّالِثَة: طقوس أسرار وصلوات الكنيسة

رقم	اسم الكتاب	تاريخ النشر
٣/١	معموديَّة الماء والرُّوح	يناير ٢٠٠٣ م
٣/٢	سرُّ الرُّوح القُدُس والميرون المقدَّس	مارس ٢٠٠٧ م
٣/٣	تسبيحة نصف اللَّيْلِ والسَّحَر	نوفمبر ٢٠٠٥ م

رقم	اسم الكتاب	تاريخ النشر
٣/٤	صلوات رفع البحور في عشية وياكر	يناير ٢٠٠٦ م لم يصدر بعد
٣/٥	القدّاس الإلهي سرّ ملكوت الله، الجزء الأوّل	لم يصدر بعد
٣/٦	القدّاس الإلهي سرّ ملكوت الله، الجزء الثّاني	لم يصدر بعد
٣/٧	الدّبلة والإكليل	مارس ٢٠٠٥ م
٣/٨	الأجبية أي صلوات السّواعي	إبريل ٢٠٠٦ م لم يصدر بعد
٣/٩	سرّ التّوبة والاعتراف	

♦ السّلسّلة الرابعة: طقوس أصوام وأعياد الكنيسة

رقم	اسم الكتاب	تاريخ النشر
٤/١٠	الزّمن الطّقسي من عيد الثّوروز إلى عيد الصّليب	لم يصدر بعد

